

التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر

ألفه

مستر ألفريد سكاون بلنت

راجعه ووافق على ما فيه

الشيخ محمد عبده

تمهيد

عبد القادر حمزة

ذيل الكتاب يحتوي على :

١ - تاريخ عرابي بقلمه وبعض حوادث سنة ١٨٨٢م بقلمه أيضا .

٢ - وتقريرين عن بعض هذه الحوادث بقلم الشيخ محمد عبده .

٣ - وتقارير أخرى من جون نينه رفيق عرابي ومن بعض المصريين الذين اشتركوا في تلك الحوادث

٤ - وبرنامج الحزب الوطني وخطابات من مستر غلادستون .

٥ - والدستور المصري سنة ١٨٨٢م



42 Opera Square - Cairo Tel: (202) 23900868

مكتبة الآداب

٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة - ت : ٢٣٩٠٠٨٦٨

التاريخ السري

لاحتلال انجلترا مصر

ألفه مستر ألفريد سكاون بلنت
وراجعه ووافق على ما فيه الشيخ محمد عبده

تمهيد بقلم عبد القادر حمزه

ذيل الكتاب يحتوي على تاريخ لعرابي بقلمه وبعض حوادث سنة ١٨٨٢ بقلمه أيضاً. وتقريرين عن بعض هذه الحوادث بقلم الشيخ محمد عبده. وتقارير أخرى من جون نينه رفيق عرابي ومن بعض المصريين الذين اشتركوا في تلك الحوادث.. وبرنامج الحزب الوطني وخطابات من مستر غلادستون. والدستور المصري سنة ١٨٨٢

مكتبة الآداب
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة ت: ٢٩٠٠٨٦٨



الناشر

مكتبة الآداب
علي حسن

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

بلنت ، ألفريد سكاون.
التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر/
ألفه ألفريد سكاون بلنت ؛
راجعه محمد عبده ؛ تمهيد عبد القادر حمزة.-
القاهرة: مكتبة الآداب ، ٢٠٠٨.
٥٨٢ ص ؛ ٢٤ سم.
تدمك ١ ٩٤٩ ٢٤١ ٩٧٧
١ – مصر – تاريخ – العصر الحديث – الاحتلال
البريطاني (١٨٨٢-١٩٥٦).
أ – محمد عبده ، محمد عبده بن حسن خير الله ، ١٨٥٠ – ١٩٠٥ (مراجع)
ب – حمزة ، عبدالقادر (تمهيد)
جـ - العنوان
٩٦٢,٠٤

عنوان الكتاب: التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر

تاليف: مستر ألفريد سكاون بلنت

رقم الإيداع: ٤٤٤٢ لسنة ٢٠٠٨م

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977 – 241 - 949 – 1

مكتبة الآداب
علي حسن
٤٢ ميدان الأوبرا - القاهرة
هاتف ٢٣٩٠٠٨٦٨ (٢٠٢) –
e-mail: adabook@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على نبينا الكريم

تمهيد

نحن وتاريخنا الحديث

كل ماتعانيه مصر الآن من جراء الاحتلال البريطاني، وكل ماعانته منه في سبعة وأربعين عاما مضت، وكل ماستعانيه منه الى أن تحصل على استقلالها التام، مرتبط بالحوادث التي كانت مصر مسرحا لها من عهد الخديو اسماعيل باشا الى أن احتل الانجليز القاهرة في ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ . وذلك ان هذه الحوادث كانت مقدمات أو عللا والحالة التي نحن فيها الآن نتائج لها أو معلولات، وقد كان هذا داعيا لأن نعرف تلك الحوادث معرفة بحث ودراسة لنعرف كيف ومن أين ابتدأنا ولكننا مع الأسف لانعرف منها الا صورة مبهمة يذهب مرور الأيام بعالها في أذهاننا من الاثر . فليس فينا للآن من درسها ووضع فيها كتابا باللغة العربية مع أن الاوروبيين وضعوا فيها عشرات من الكتب ذات القيمة فرنسية وانجليزية والمانية وايطالية . وحتى هذه الكتب التي وضعها الاوروبيون، والتي لاريب في أن بعضا منها كتبه رجال اشتركوا بأنفسهم في تلك الحوادث فكتابتهم تعتبر مستندا يقابل بغيره من المستندات لاستخراج الحقائق التاريخية كما أن بعضا آخر كتبه رجال لم يشتركوا بأنفسهم في الحوادث ولكنهم استطاعوا أن يصلوا الى المستندات الرسمية الخاصة بها في وزارات الدول فكتابتهم تعتبر مستندا آخر، هذه الكتب لم ينقل منها الى اللغة العربية على مانعلم الا كتاب وضعه اللورد كرومر بعد خروجه من مصر وكتاب آخر وضعه مستر تيودور روثستين ونشرته في سنة ١٩٢٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر .

وقد يكون السبب في قلة اهتمامنا بدرس تلك الحـوادث وبتعريب ما كتبه الاوربيون فيها ان أشخاصاً من الذين ساهموا فيها بنصيب كبير كانوا أحياء الى زمن قريب ، وبعض هؤلاء الاشخاص لم تكن لهم سلطة يخشى جانبها كعرابي ومحمود سامي ورياض ولـكن شخصاً آخر هو الخديو توفيق باشا كانت له ولابنه عباس باشا من بعده سلطة تخشى وهو محور دارت حوله الحوادث في سنتي ١٨٨١ و ١٨٨٢ فكان من الصعب على الباحث المصرى أن يجتنبه أو يجتنب الحكم على مواقفه . وهو اذا كتب هذا الحكم إما أن يكتبه كما يوحيـه اليه ضميره وحينئذ قد يكون ضد توفيق باشا فيستهدف لغضب ذوى السلطة واما أن يكتبه مصبوغا بصبغة المداراة واذن يكون بحثه غـير برىء ويفقد قيمته .

وهذا الذى يقال فى التأليف يقال في التعريب لأن كل الذين قرأوا المؤلفات الاوربية التي وضعت فى هذا الموضوع يعلمون أن أصحاب هذه المؤلفات اختلفت آراؤهم فى مواقف توفيق باشا فكان منهم من بررها ومنهم من خطأها ولـكنهم جميعا لم تخل كتاباتهم عنه من غمز جارح . ولعل كتاب اللورد كرومر «مصر الحديثة» وكتاب اللورد ملنر «انجلترا فى مصر» هما وحدهما اللذان خلوا من مثل هذا الغمز .

ولـكن هذا السبب ليس عذراً صحيحا ، وهو ان صح لا يكون الا لوقت ، وفى رأيي ان هذا الوقت انقضى وان الاوان قد آن لان يدرس الباحثون منا تلك الحوادث التى كانت مصدر ما نحن فيه الآن من المتاعب . ولهذا اخترت « للبلاغ » أن يمهد سبيل هذا البحث بأن يعرب بعض المؤلفات الاوربية التى تعتبر مستندات فعرب مترجموه كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » :

Secret history of the inglish occupation of Egypt

ومؤلفه مستر الفريد سكاون بلنت الذى شهد بنفسه حوادث سنتي ١٨٨١ و١٨٨٢ وكان فيها متصلا بعرابى وجرى شطر كبير منها على يديه . وكتاب «المسألة المصرية» — La Question Egyptienne — ومؤلفه مسيو دى فريسينيه الذى كان رئيساً لوزارة فرنسا حينما ضرب الانجليز الاسكندرية واحتلوا القاهرة . وكتاب «النار والسيف فى السودان» Fire and Sword in the Sudan ومؤلفه سلاطين باشا الذى بقى في أسر المهدى الى أن أعيد فتح السودان في سنة ١٨٩٧ .

وقد نشرت هذه الكتب متوالية في « البلاغ » ورأيت اليوم أن أجمعها فى كتب ليتيسر اقتناؤها وحفظها . وهذا كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » أولها وسيليه الآخران .

***

مستر ا . س . بلنت

نشأ مستر بلنت مؤلف «التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر» فى أسرة عريقة في الغنى والجاه وبدأ حياته السياسية وهو لا يزال فتيا فعين فى الثامنة عشرة من عمره ملحقا بالوكالة الانجليزية فى أثينا ثم بقى ينتقل فى المناصب بعد ذلك اثنتي عشرة سنة فى الوكالات والسفارات الانجليزية فى طول اوربا وعرضها الى أن اعتزل خدمة الحكومة فى سنة ١٨٥٩ . وكان قد تزوج حفيدة الشاعر المعروف اللورد بيرون فشرع يطوف معها فى البلاد الشرقية فطاف في تركيا سنة ١٨٧٣ وفي الجزائر سنة ١٨٧٤ وزار مصر أول مرة سنة ١٨٧٥ . وفي هذه الزيارة رأى الفلاحين وجال بينهم جولة أرته ما كانوا فيه من البؤس والبلاء [1] بسبب الديون التى كان الخديو اسماعيل باشا قد أوقع البلاد فيها والضرائب الباهظة التى كانت تجبى منهم بالكرباج لسداد تلك الديون .

وغادر مستر بلنت القاهرة فى ربيع سنة ١٨٧٦ فزار بلاد العرب وانشأ علاقات بينه وبين بعض القبائل فيها ثم عاد فى السنة نفسها الى انجلترا . وفى صيف سنة ١٨٧٧ رجع يطوف في الشرق فزار حلب وانحدر فى الفرات الى بغداد وعقد فى رحلته هذه علاقات مودة مع القبائل التي مر بها فى طريقه . وفى سنة ١٨٧٨ ذهب الى دمشق وعرف فيها السير ادوار ماليت وكان اذ ذاك سكرتيرا للسفارة الانجليزية في الاستانة وكان يطوف مثله فى سوريا . والسير ماليت هذا هو الذى كان قنصلا عاما لدولته فى القاهرة في سنتي ١٨٨٦ و١٨٨٢ فهو الذى جرت على يديه كل حوادث هاتين السنتين في مصر .

ثم انتقل مستر بلنت الى نجد ثم الهند ثم كر راجعا الى عدن وفيها علم بعزل

(١) صفحات ١٣ و ١٧ و ١٩ من كتابه هذا

الخديو اسماعيل فى سنة ١٨٧٩ ثم واصل رحلته فسار الى السويس ومنها الى الاسكندرية ثم عاد الى بلاده

عاد وقد أخذت تساوره أفكار كثيرة عن الشرق والشرقيين وتملكته فكرة استقلال العرب فصار يعمل لها ويحدث فيها رجال السياسة في بلاده . وكانت هذه الفكرة تبعث فيه الشوق الى الشرق كلما استقر في انجلترا فلم يكد يستقر فيها عاما بعد رحلته تلك حتى أبحر فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٨٠ الى مصر فلما وصل الى القاهرة عرف فيها بعض شيوخ الازهر وتتلمذ لواحد منهم هو الشيخ محمد خليل كي يدرس عليه اللغة العربية واتصل بمريدي السيد جمال الدين الافغاني وزار الشيخ محمد عبده في حي الازهر يوم ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ فانعقدت بينهما من ذلك اليوم أواصر صداقة استمرت ربع قرن وذكر مستر بلنت هذا اليوم فى كتابه فقال : « يجب ان أميزه على سائر الايام لأنه فتح لى باب صداقة بقيت الآن ربع قرن مع رجل من أحسن وأحكم الرجال العظام » . وبعد أن اقام في القاهرة زمنا ذهب الى جدة فأقام فيها أياما ثم عاد منها الى مصر فسوريا

وفي شتاء سنة ١٨٨١ أي في الوقت الذي كانت فيه نار الحركة العرابية قد اشتعلت عاد مستر بلنت الى مصر فاتصل بعرابي وبكل مؤيديه من الضباط والنواب وبغيرهم من الوزراء ورجال السياسة المصريين. وكان السير ماليت قنصلا عاما لانجلترا فى القاهرة فلما عرف صداقته للعرابيين طلب منه أن يقنعهم بان « مذكرة الدولتين[1] » لا ترمي الى سوء فقبل مستر بلنت أن يقوم بهذه المهمة . وهو يقول انه أداها كارهاً لأنه لم يكن مقتنعاً بما كان يحاول أن يقنع به غيره ويقول أيضاً انه لم ينجح فى وساطته. واستمر يعاون « الحزب الوطنى » الذى كان مؤلفاً اذ ذاك برياسة عرابي فنشر برنامجه فى جريدة التيمس ثم لما رأى ان الحوادث أخذت في مصر دوراً خطيراً

(١) مذكرة فرنسا وانجلترا للخديو توفيق باشا فى ٧ يناير سنة ١٨٨٢ وقد ارسلتاها على اثر اجتماع مجلس النواب المصرى وقالتا فيها انهما تؤيدان سلطة الخديو ولا تريان سلاما لمصر الا بتأييد هذه السلطة . وكان الغرض منها تحدى مجلس النواب . وسيأتى الكلام عنها

وأن السير ماليت يستخدم الكذب والتشويه فى محاربة الوطنيين المصريين سافر الى انجلترا ليطلع مستر غلادستون رئيس الحكومة البريطانية ورجال السياسة البريطانيين والرأي العام البريطاني على الحقيقة وليحاول ردهم عن سياسة العداء. وكان له سكرتير شرقي اسمه صابونجى فأرسله الى مصر ليوافيه بأخبارها. فبقى بلنت يسعى فى لندن فخاطب مستر غلادستون ونشر كتابات كثيرة في الصحف البريطانية وخاصة فى التيمس وكان مما نشرته له التيمس فى يونيو سنة ١٨٨٢ خطابات حارب فيها السياسة التى يجرى عليها السير ماليت والسير أوكلند كولفن (العضو الانجليزى في المراقبة الثنائية التى كانت مضروبة على مالية الحكومة المصرية اذ ذاك) وفضح ما تحتوى عليه هذه السياسة من تعمد التشويه وافساد الجو السياسى وذكر أنهما استعانا به حينا كان يحسن الظن بهما فتوسط لهما عند الوطنيين المصريين غير مرة ولكنه وقف بعد ذلك على دسائسهما فاشمأز واضطر ان ينفصل منهما. فما كادت التيمس تظهر بهذه الخطابات حتى ثارت ضجة حولها في مجلس اللوردات فى جلسة ٢٣ يونيو[1] واضطر السير اوكلند كولفن أن يصرح فى اول يوليو بانه لم يكلف السير بلنت البتة « بمفاوضات رسمية » مع عرابى. وما كان بلنت يقول انه كلف « بمفاوضات رسمية » وانما كان يقول انه توسط بناء على طلب ماليت وكولفن وساطة غير رسمية.

واستمر بلنت يجاهد فتارة يخيل اليه انه ناجح وتارة يرى الفشل بارزا امام عينيه الى أن ضربت الاسكندرية وانتهت معركة التل الكبير وسلم عرابى وزملاؤه أنفسهم للجيش البريطانى فأخذ يهتم بالدفاع عنهم أمام قضاتهم وعين لهم محامين بريطانيين على نفقته ونفقة جماعة من أصدقائه اكتتبوا لهذا الغرض. وبلغ مادفعه للمحامين قريبا من ثلاثة آلاف جنيه.

---

(١) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » — La Situation Internationale de l'Egypte et du Soudau لمؤلفه جول كوشيرى Jules Cochéris صفحة ١٤٦

وبعد بضع سنين أوى مستر بلنت الى مصر وأقام فى ضيعة كانت له فى المطرية — بضواحى القاهرة — اسمها « الشيخ عبيد » وكان جاره فيها الشيخ محمد عبده فأطلعه فى سنة ١٩٠٤ على مسودات « التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر » فراجعها الشيخ وصحح ما رآه فيها مستحقاً للتصحيح .

وكان الشيخ محمد عبده يلح على مستر بلنت فى طبع كتابه هذا بالانجليزية وكان ينوى أن ينقله هو الي العربية لولا ان المنية عاجلته فى سنة ١٩٠٥ . فلما توفى حزن عليه مستر بلنت حزن الصديق على الصديق ثم طبع كتابه بالانجليزية فبقى كذلك الى أن تولى قلم الترجمة فى « البلاغ » نقله الى العربية .

وفى سنة ١٩١٠ عقد الحزب الوطنى المصرى تحت رياسة محمد فريد بك مؤتمراً فى بروكسل للاحتجاج على الاحتلال وكان مستر بلنت قد انتقل الى انجلترا فأرسل اليه فى ١٣ سبتمبر خطابا أنحى فيه بأشد اللوم على بقاء الاحتلال وعلى السياسة التى تتبعها انجلترا في مصر وحذر المصريين من هذه السياسة فقال كلمات ننقلها هنا لأنها تشهد له بالصراحة والاخلاص .

قال مخاطبا المصريين (١) : « احذروا منا فاننا لا نريد لكم شيئاً من الخير . لن تنالوا منا الدستور ولا حرية الصحافة ولا حرية التعليم ولا الحرية الشخصية . وما دمنا في مصر فالغرض الذى نسعي اليه من البقاء فيها هو أن نستغلها لمصلحة صناعتنا القطنية فى منشستر ، وأن نستخدم أموالكم لتنمية مملكتنا الافريقية فى السودان » .

ثم قال : « لم يبق لكم عذر اذا أنتم انخدعتم فى نياتنا بعد أن وضح الأمر فيها وضوحا تاماً . فاحذروا أن تنساقوا الى الرضى باستعباد بلادكم ودمارها »

ثم أخذ ينصح للوطنيين المصريين فقال : « ثابروا على أن تعارضونا معارضة جهرية جريئة كل يوم . اطلبوا بلسان واحد وفي كل فرصة أن يوضع حد لما تتألمون منه وأن نعود نحن الى حظيرة القانون وأن نسحب جنودنا من بلادكم وأن نكف عن التدخل فى شؤونكم . اطلبوا ذلك فانكم بطلبه لا تخسرون شيئا اذ نحن غرباء

---

(١) مجموعة المؤتمر الوطنى المصرى Congrés National Eg. صفحة ٨٧ وصفحة ٨٨ وصفحة ٨٩

عندكم ومن حقكم أن تطالبونا بتركِكم . ذكرونا دائما ، وبكل وسائل الاعلان ، بالاحق لانجلترا في أن تتصرف عندكم تصرف السيد وانكم لا تريدوننا حامين لكم ولا مستشارين ولا منظمين لاداراتكم . ولا تتركوا لنا عذراً نعتذر به لندعي لانفسنا شيئا من ذلك .

« أظهروا معاداتكم لنا بصراحة ، ولكن لا تظهروها بثوارت سابقة للأوان لا تفيدكم شيئا ، بل بتلك الوسائل التي تستطيعها كل الشعوب التي تمنى بالاجنبي لتثبت له استياءها وهى مقاطعته في معاملاته التجارية والرسمية وفى علاقات الافراد بعضهم ببعض

« لديكم جالية أجنبية كبيرة غير الجليزية فوثقوا روابطكم بها واجتهدوا في أن تقضوا أشغالكم معها بدل أن تقضوها معنا

« سالموا كل الناس ولكن لا تحاولوا أن تسالمونا لان كل محاولة من هذا النوع معنا تذهب عبثاً ولأن كل نداء توجهونه الى شعور العدل فينا وشعور الشرف والانسانية يكون بعد اليوم موجبا للسخرية وليس له عندنا غير جواب واحد هو الاحتقار .

« لا . لم يبق لكم الا وسيلة واحدة لاقناعنا وهى أن تثبتوا لنا أن احتلالنا بلادكم مصدر تعب لنا ينمو دائما ومصدر خطر عظيم علينا اذا شبت الحرب. أقنعونا بذلك إذ فى اليوم الذى يفهم فيه ذهن جمهورنا الثقيل أن الفائدة من احتلال بلادكم لا توازى المتاعب والاخطار التى يسببها لناء نرى انكم محقون ونترك بلادكم. وثقوا باننا لن نترك بلادكم قبل ذلك بلحظة واحدة »

تلك هى نصائحه التي وجهها الى الوطنيين المصريين ولا ريب في ان الانجليز الذين يقولون مثلها قليلون

وقد تردد ذكر مستر بلنت فى أكثر الكتب التى ألفت للآن عن حوادث سنتى ١٨٨١و١٨٨٢ ، فقال عنه جول كوشيرى صاحب كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان »[1] ان مساعيه وكتاباته والانتقادات الحارة التي وجهها الي انجلترا

---

(١) صفحة ١٤٦

دلت على أنه من أولئك الانجليز الذين يجوبون العالم وفى رأسهم فكرة أو قضية ينادون بها ويدافعون عنها بكل ما فى الخلق الانجليزى من الصلابة ومافي الايمان من العقيدة المقدسة . وروى أشيل بيوفيس Achille Biovès فى كتابه « الفرنسيون والانجليز فى مصر »[1] انه لما تحصل مستر بلنت من العرابيين على برنامج الحزب الوطنى وراجعه مع الشيخ محمد عبده علم بخبره السير ماليت فرغب الى مستر بلنت فى تعديل بعض فقراته قبل نشره فى التيمس فلم يتمكن من ذلك إلا بعد عدة أيام كان فيها مستر بلنت سفيراً بينه وبين العرابيين وحينئذ كتب السير ماليت الى لندن يثنى على مستر بلنت ويقول انه « مدين له بكثير من الفضل وانه قد يعتمد عليه فى المستقبل في مهام جدية »[2] . وقال اللورد ملنر ان مستر بلنت كان فى بعض الاوقات ينزل فى فندق شبرد فكان كلما ذهب الى المحطة للسفر أو جاء منها ركب جملا . وقال غيرهم أشياء أخرى لا محل للافاضة فيها

وتوفى مستر بلنت فى عام ١٩٢٤ بعد أن طبع مذكرات له فى ثلاثة مجلدات ضخمة فيها جزء غير قليل عن حوادث مصر قبل الاحتلال وبعده . وقد نشر « البلاغ » تعريب هذا الجزء وربما جمع فى كتاب على حدة .

* * *

عهد اسماعيل باشا

نظرة سريعة

ليس كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » تاريخا بالمعنى المعروف من كلمة « التاريخ » وانما هو قصة شخصية قص صاحبها رحلاته فى سوريا والعراق والهند ونجد وجدة ومصر ، ثم اذ استقر فى القاهرة فى آخر سنة ١٨٨١ قص الحوادث التى جرت على يديه فيها ، ثم اذ غادرها بعد ذلك الى لندن قص مساعيه السياسية فيها من جانب والاخبار التى كان سكرتيره صابونجي يرسلها اليه من مصر

(١) Français et Anglais en Egypte صفحة ٤٣

(٢) الواقع ان السير ماليت كتب تلغرافين بهذه الالفاظ الى اللورد جرنفيل الذى كان اذ ذاك وزيرا لخارجية انجلترا في ٢٦ و ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٨١

من جانب آخر . فهو لم يكتب كتابه هذا ليجعله تاريخا ككل التواريخ وانما كتبه ليكون قصة لحوادث رآها بعينه وكان له ضلع فيها . ولامثال هذه القصص التي يرويها شهود الرؤية قيمة كبيرة في تحديد الحقائق وتسجيلها في صفحات التاريخ ولكنها ليست التاريخ في ذاته ولهذا رأينا أن نضع أمام نظر القارىء ، قبل أن يقرأ القصة موجزاً سريعا للحوادث من عهد الخديو اسماعيل باشا الى أن دخل الانجليز القاهرة كي تكون هذه الحوادث ماثلة في ذهنه أثناء قراءته القصة .

مأساة القروض

لا يسع كل من يقرأ تاريخ مصر من عهد اسماعيل باشا الى اليوم الا أن يحكم بان هذا العهد كان بدء النكبات التي توالت على هذه البلاد بعد ذلك حتى رمت بها بين براثن الاحتلال . فان قصة الديون التي اندفع فيها اسماعيل باشا بطيش لا مثيل له كانت مأساة نقلت البلاد من الرخاء وراحة البال الى الخراب ثم الي الوقوع في شباك النفوذ الاجنبي ثم الى الثورة ثم الاحتلال . ومهما يقل القائلون في الاصلاحات التي أنشأها اسماعيل باشا فان مأساة ديونه تذهب بكل قول لانها بايقاعها البلاد في الخراب قضت على جميع الاصلاحات ثم لانها زادت بعد ذلك فقضت على استقلال البلاد .

وقد وصف اللورد ملنر [١] اسماعيل باشا فقال انه « المثل الكامل للتبذير ، وأعظم من عرف في التاريخ بالسفه مع عدم الاكتراث بالعواقب » ثم قال انه « لم تكن له مبادىء يصدر عنها بل كانت له أعمال جنونية تمتاز بانها تشبه في ضخامتها ضخامة الاهرامات أو معبد الكرنك » . ثم استمر فقال ان « الاستبداد كان خلقا فيه ولكنه مع ذلك نزل حتى صار مستعطياً وأسيراً » . تلك هي الاوصاف التي وصفها به اللورد ملنر ، واللورد ملنر سياسي انجليزي يعرف أن ديون اسماعيل كانت أول عامل في الحوادث التي استغلتها انجلترا حتى وضعت يدها على مصر فليس من السهل ان يتهم بالكراهية له والحقد عليه .

ونمر الآن مرور السهم بقصة هذه الديون فنقول انه لما تولي اسماعيل العرش في

---

(١) انجلترا في مصر صفحة ٢٦٣

سنة ١٨٦٣ كان كل الدين الذي على مصر ٣٫٢٩٢٫٠٠٠ جنيه انجليزى [1] وكانت ضريبة الفدان ٤٠ قرشا وكانت البلاد فى رخاء ظاهر فشرع يبني القصور ويقيم الحفلات وينشيء المشروعات الضخمة بغير تروية ولا حساب كأنما كانت كل فكرته أن يعلن عن نفسه لا أن يصلح [2]. فانشأ طرقا ومعامل وورشاً وصناعات كانت كلها ضخمة ولكنها لم تكد توجد حتى أهملت وصار كثير منها مأوى للوحوش [3]. واندفع في حب الظهور فادهش ملوك أوربا بما كانوا يسمونه كرماً شرقيا وماهو الا الاسراف القاتل. وقد بقيت حفلاته التى أقامها لملوك أوربا وملكاتها وأمرائها وأميراتها في فتح قناة السويس مثلا يتحدث به الاوربيون الى اليوم فى كل ما يكتبونه عنه. وكان بدهيا أن ميزانية مصر لا تتحمل هذه النفقات فكان من الضروري لاسماعيل أن يستدين فاندفع بما فيه من عدم المبالاة بالعواقب فما زال حتى قضي على نفسه وعلى مصر معه

بدأ فعقد أول قرض فى سنة ١٨٦٤ بفائدة ٧ فى المئة غير الاستهلاك . وعقد فى سنة ١٨٦٥ قرضاً ثانياً . ثم مضت سنة ١٨٦٦ بغير أن يعقد قرضا ولكن لما جاءت سنة ١٨٦٧ جدت به الحاجة الى قرض ثالث وكان قد برع في التمهيد للاقتراض وفى التظاهر بالبذخ استجلابا لارباب الاموال فجعل لمصر جناحا فى معرض عام فتح فى تلك السنة فى باريس ثم جاء بنفسه اليه وأخذ يظهر

---

(١) يقول مسيو دى فريسينيه في كتابه « المسالة المصرية » ان اسماعيل باشا لما تولى العرش اصدر بيانا بالدين الذى تركه سلفه سعيد باشا ادخل فيه ثمن الـ ١٧٦ الف سهم التى كانت حصة مصر فى شركة قناة السويس والتى كان على مصر ان تدفع قيمتها ، فكان هذا البيان ٣٦٧ مليون فرنك اي نحو ١٤ مليون جنيه ونصف مليون . وكان ثمن الاسهم مقدرا فى هذا المجموع بمبلغ ٨٨ مليون فرنك وهو لا يصح ان يعتبر دينا .

على اننا لم نجد لهذا التقدير الذى اصدره اسماعيل باشا مستندا صحيحا ووجدنا كل مصادر التاريخ تقول ان دين مصر فى ذلك الوقت لم يكن يتجاوز ثلاثة ملايين جنيه

(٢) انظر كتاب Croquis Egyptiens صفحة ٨٥ لمؤلفه V. de Khonshy

(٣) انظر رسائل كتبتها اذ ذاك مدام Lee Chiluc تحت عنوان Impressions de voyage

من ضروب الاسراف ما لفت اليه الانظار ، ولم يبرح باريس حتى عقد مع محل مالي فيها قرضا بمبلغ ٢٩٦ مليون فرنك أى قريبا من ١٢ مليون جنيه [١]

وفي العام التالى ١٨٦٧ عقد قرضا رابعا فبلغ مجموع ما اقترضه ٢٥٫٥٠٠٫٠٠٠ تتراوح فائدتها الاسمية بين ٧ و٨ في المئة اما فائدتها الحقيقية فتتراوح بين ١٢ و٢٦ فى المئة [٢].

وحينئذ قلقت الحكومة العثمانية لما قد يكون من تأثير هذه الديون على مصر فحظرت على اسماعيل ان يستدين، ولكنه بالرغم من هذا الحظر عقد فى سنة ١٨٧٠ قرضا مع البنك الفرنسي المصرى بمبلغ ١٧٥ مليون فرنك وبفائدة ١٣ فى المئة ورهن فيه بعض أملاكه وأملاك أسرته . وهذا القرض هو الذي كان يسمي قرض الدائرة السنية . وحينئذ كتب الباب العالى الى الحكومة الانجليزية باعتبار انها ممثلة لمعظم دائنى اسماعيل « يحتج مقدما على كل اتفاق مالى يمس دخل مصر بالذات او بالواسطة ولا يكون جلالة السلطان قد أقره » [٣]

وهل تظن ان شهوة الاقتراض فى اسماعيل وقفت عند هذا الحد أو أنه شعر بالهاوية التى تحفرها هذه القروض تحت اقدامه وأقدام مصر فكبح جماح نفسه ؟ كلا ، ولم تزدد الشهوة فيه الا استحكاما ولم يبق له شاغل يشغله الا ابتكار الحيل لا جتذاب المرابين وعقد القروض معهم . ولكن سنة ١٨٧٠ كانت سنة الحرب بين المانيا وفرنسا وكانت هذه الحرب قد أقفلت أسواق أوربا فماذا يفعل ؟ انه اذن يلجأ الى حيلة غريبة يبتز بها الاموال من كل ذى مال بين المصريين ، وهي ان يصدر ما سمى « قانون المقابلة » وفيه تتعهد الحكومة لكل من يدفع مقدما ضرائب ست سنوات على أطيانه باعفائه من نصف الضرائب على هذه الاطيان الي الا بد . وبهذه الحيلة يحصل اسماعيل على خمسة ملايين جنيه ينفقها الى ان تفتح امامه أسواق المرابين فى فرنسا وانجلترا .

---

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمسيودى فريسينيه ص ١٤٨ و ١٤٩

(٢) تقرير بعثة كيف صفحة ١ وسيأتى ذكره

(٣) الصحيفة البرلمانية البريطانية (١٠٠) ١٧٨٠ ص ١ (عن كتاب المسألة المصرية لمستر تيودور وثستين وتعريب الاستاذين عبد المجيد العبادي ومحمد بدران)

وكانت ديون اسماعيل الى هذه الساعة شخصية يقع عبئها على أملاكه وأملاك أسرته المرهونة ثم على دخل الحكومة فى عهده بمقتضى ماله من سلطة التصرف فى هذا الدخل، ولكنها لا تقع على دخل الحكومة بعد عهده. وكان اسماعيل قد وضع يده باساليب مختلفة على أطيان واسعة من أملاك الفلاحين لان المرابين ذكروه بان جميع أطيان القطر المصرى كانت ملكا للوالى فى عهد جده محمد على باشا وبأن سعيد باشا هو الذى خالف هذه القاعدة ونزل عن ملكيتها للاهالى. وكان قصد المرابين من ذلك ان يحصلوا على أعظم ضمان ممكن لاموالهم وأطماعهم. ولكن بقاء الديون شخصية كان من شأنه ان يضع حدا للاقتراض فلما بلغ اسماعيل هذا الحد ورأى أن الباب العالى « يحتج مقدما على كل اتفاق مالي يمس دخل مصر بالذات او بالواسطة » فكر في أن يزيل هذه العقبة من وجهه وان يحصل من الباب العالى على السلطة التى تبيح له ان يرهن دخل الحكومة كي يحول ديونه الشخصية الى ديون على الحكومة وكى يتسع المجال امامه الى قروض جديدة. وفعلا سعى لهذه الغاية فى الاستانة وأرسل اليها نوبار باشا فما زال ينثر فيها الذهب حتى حصل على فرمان سنة ١٨٧٣ وبه نال اسماعيل لقب « خديو » وصار عرش مصر إرثا لابنائه بعد ان كان للارشد فى أسرة محمد على وصار من حق اسماعيل ان « يتصرف التصرف التام المطلق في شؤون البلاد المالية » ، فحول كل ديونه السابقة الى ديون على الحكومة رهن فيها جزءاً كبيراً من الدخل ثم شرع يطرق أبواب الماليين فى انجلترا وفرنسا لقرض لم يكن يرضيه فى هذه المرة الا أن يكون ٨٠٠ مليون فرنك أى نحو ٣٢ مليون جنيه.

ورهن اسماعيل فى هذا القرض دخل السكك الحديدية ودخل ميناء الاسكندرية وكل دخل مرهون من قبل يصبح حراً بعد سداد ما عليه. وكان اسماعيل ونوبار قد بذلا كل الحيل وكل الجهود كي ينجح هذا القرض ولكن لما فتح الاكتتاب

فيه في باريس ولندن لم يغط لخسرت أسهمه الربع من ثمنها في أيام قليلة أي ثمانية ملايين جنيه .

وجاءت بعد ذلك سنة ١٨٧٤ وكان لابد لاسماعيل من أن يقترض لان الاقتراض صار عادة له سنوية ثم لان قروضه السابقة بلغت حداً صارت ايرادات الحكومة المصرية عاجزة معه عن أن تسدفوائدها السنوية فكان الاقتراض ضروريا لسداد هذه الفوائد وإلا أفلس اسماعيل ولم يبق في استطاعته بعد ذلك أن يلعب بالاموال . ولما كانت تجربة القرض السابق قد دلته على أن أسواق اوربا لم تعد تعطيه فوق ما اعطته ارتد الى الامة المصرية كما ارتد اليها في انشائه قانون المقابلة فابتدع ما سماه « الرزمانة » وجعله نوعا من انواع صناديق الايداع وطلب من المصريين ان يودعوا فيه اموالهم ليأخذوا بدلا منها مرتبات دائمة تختلف باختلاف مايودعه كل منهم على ان يكون كل مال يودع ملكا للحكومة من ساعة ايداعه لا يحق لصاحبه ان يسترده . فلم يقبل المصريون على هذا النوع من الايداع لانهم كانوا قد جربوا اسماعيل وعرفوا قيمة تعهداته فاستخدم سلطته في اكراههم على الايداع حتى حصل بذلك على بضعة ملايين من الجنيهات . ثم لم يكفه هذا فأصدر في الوقت نفسه سندات ، او بعبارة أخرى اوراقا مالية ، على الخزينة المصرية بثمانية ملايين جنيه بفائدة من ١٠ الى ١٥ في المئة وأكره المصريين على ان يشتروها

وفي سنة ١٨٧٥ توقفت الحكومة التركية عن دفع ديونها وأعلن إفلاسها فأثر ذلك في أسهم القروض المصرية فانزعج اسماعيل اذ رأى انه صار من الافلاس قاب قوسين او أدني ، ولم يكن في استطاعته ان يقترض ولا أن يبتز مالا من المصريين بحيلة من الحيل فبحث في خزائنه فوجد ان أسهم مصر في شركة قناة السويس وعددها ٦٠٢ ر ١٧٦ لاتزال باقية فعرض على الحكومة الفرنسية أن تشتريها بأربعة ملايين جنيه فلم تعطه الجواب بسرعة، ولكن الحكومة البريطانية علمت بهذا العرض فتقدمت له بالمال الذى يطلبه على عجل فباعها الاسهم بواسطة بيت روتشلد في ٢٥ نوفمبر من

تلك السنة (١)

والي هنا بلغت ديون اسماعيل القمة ووقفت البلاد من جرائها على شافة الهاوية . وقد حصرت هذه الديون بعد ذلك بقليل اى حينما صدر «قانون التصفية» فكانت كما يأتي : —

الدين الممتاز	٢٢٫٦٨٩٫٨٠٠	جنيه انجليزى	
الدين الموحد	٥٨٫٠٤٠٫٣٢٦	«	«
قرض الدائرة السنية	٩٫٥١٨٫٨٠٤	«	«
قرض الدومين	٨٫٥٠٠٫٠٠٠	«	«
المجموع	٩٨٫٧٤٨٫٩٣٠		

فاذا نحن استبعدنا من ذلك الثلاثة الملايين التى اقترضها سلفه سعيد باشا كان مجموع مااقترضه اسماعيل من سنة ١٨٦٣ الى سنة ١٨٧٥ أى فى ثلاث عشرة سنة قريبا من ٩٦ مليونا . وهذا عدا خمسة ملايين اخذها فى « قانون المقابلة » وخمسة ملايين اخرى اخذها في « الرزنامة » وثمانية ملايين أخذها فى السندات التى أصدرها على الخزينة وأربعة ملايين ثمن أسهم شركة قناة السويس وملايين أخرى استولى عليها من كبار التجار وكبار المزارعين لم تحصر ولم تقيد في حساب

---

(١) يؤخذ من كتاب وضعه مسيو شارل رو أحد النواب الفرنسيين تحت عنوان « برزخ وقناة السويس » — L'isthme et le Canal de Suez — فى سنة ١٩٠١ ان الحكومه البريطانيه قبضت عن هذه الاسهم من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٩٤ فائدة قدرها ٥ ملايين فرنك في السنة أى ١٢٠ مليونا . ثم قبضت من سنة ١٨٩٥ الى سنة ١٩٠٠ حصة كانت تتراوح كل سنة بين ١٦ و ١٧ مليونا اى ٨٥ مليونا . فيكون مجموع ما قبضته من الربح لغاية سنة ١٩٠٠ — ٢٠٥ ملايين اى ضعف الثمن الذى اشترت به من اسماعيل . وهذا غير الربح الذي قبضته من سنة ١٩٠٠ الى اليوم (وصفحة ٣٥ — جزء ثان من الكتاب المذكور)

اما ثمن هذه الاسهم الان فيقرب من ٩٠٠ مليون فرنك ذهبا

ولأية حكومة جمع اسماعيل هذه الديون ؟

لحكومة مصر التى كان كل دخلها فى عهد سعيد باشا لا يزيد على خمسة ملايين جنيه، وكان فى عهده هو ، بعد ان زيدت ضرائب الاطيان من ٤٠ الى ١٦٠ قرشاً وبعد ان أرهق أهلها بعشرات من الضرائب ، لايزيد على تسعة ملايين ونصف مليون .

وبأية فائدة كان اسماعيل يقترض هذه الديون ؟

بفائدة اسمية بين ٧ و١٢ و١٣ فى المئة وفائدة حقيقية بين ١٣ و٢٦ فى المئة كما أثبت ذلك مستر « كيف » الذي سيأتي ان الحكومة البريطانية أرسلته فى ديسمبر سنة ١٨٧٥ ليفحص حالة المالية المصرية [(١)]

على ان مبالغ هذه الديون لم تصل كاملة الى يد اسماعيل بل كان مقرضوه من المرابين يكتبون القرض كاملا ثم يقدمون له حسابا طويلا بالسمسرة وبالفوائد التى يحجزونها مقدما على أساس ٢٦ فى المئة كي يكون الباقي منها ٧ فى المئة كما هو مذكور فى العقد ثم بغير ذلك من المصروفات والاتعاب والهبات « البقشيش » . وكان اسماعيل يقبل منهم هذه الحسابات بسهولة ولهذا دل التحقيق على انه لم يستلم من القرض الكبير الذى عقده فى سنة ١٨٧٣ بمبلغ ٣٢ مليون جنيه غير ٢٠٫٧٠٠٫٠٠٠ جنيه [(٢)] ولم يستلم من القرض الذى عقده في سنة ١٨٧٠ بمبلغ ٧ ملايين جنيه غير ٥ ملايين ثم لما احتج الباب العالي على ذلك رشا اسماعيل الصدر الاعظم فأسدل الستار وعاد كل شيء الى السكوت [(٣)]. وأخيراً ان كل الذين فحصوا مالية مصر فى تلك الاوقات

---

(١) صفحة ٧ من تقرير كيف

(٢) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » الذى تقدم ذكره ص ٧٠

(٣) كتاب Croquis Egyptiens الذى تقدم ذكره ص ٩٥ ـ وكتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٧٠

مجمعون على أن اسماعيل لم يستلم سوى مايقرب من ٥٤ مليون جنيه من كل القروض التي عقدها والتي تقدم انها بلغت حوالي ٩٦ مليونا (١)

وانظر كيف كان تأثير هذه الديون في ميزانية الحكومة. حصرت الميزانية في سنة ١٨٧٧ فكان مجموع الايرادات ٩٫٥٤٣٫٠٠٠ جنيه ثم كان ماخصص منها للديون بين فوائد واستهلاك ٧٫٤٧٣٫٠٠٠ جنيه يضاف اليها الويركو المخصص للباب العالى وما كان على الحكومة أن تدفعه لشركة قناة السويس فى تلك السنة يكون الباقي من الايرادات ١٫٠٧٠٫٠٠٠ جنيه. فبهذا المليون الواحد والسبعين ألفا كان على الحكومة أن تنفق على جميع شئون البلاد: على موظفيها وعلى الجيش والبوليس والرى والتعليم والمحاكم والصحة العمومية وغير ذلك من كل مايجب ان تقوم به الحكومة

ولم تكن مصروفات الحكومة فى ذلك الوقت عادية بل كان فيها عنصر مخيف هو المصروفات المخصصة للموظفين الاجانب والتعويضات الفاحشة التى كانت تدفع فى كل وقت للأفاقيين من الاجانب. وذلك ان اسماعيل رغب منذ توليته العرش فى ان يجعل مصر قطعة من أوربا، وبما ان الفكرة كانت تتحول عنده بسرعة الى رعونة ظن أنه مستطيع ذلك بالاكثار من الموظفين الاوربيين وباعطائهم المرتبات الضخمة وباسدائهم الهدايا والنعم ليثنوا عليه وعلى كرمه. ثم لما وقع فى الدين انهالت عليه من الدائنين ومن الحكومات الاجنبية سيول من مستعطى الوظائف فلم يجسر أن يرد أحداً، حتى اذا جاءت سنة ١٨٧٧ التى مر ذكرها كانت مرتبات الموظفين الاجانب ٣٧٣٫٠٠٠ جنيه فاذا هي خصمت من المليون والسبعين ألفا التى تقدم ذكرها لم يبق للحكومة ولجميع شئون البلاد غير ٧٠٠٫٠٠٠ جنيه.

اما التعويضات للأفاقيين فان اكثر عشراء اسماعيل فى السنين الاخيرة كانوا قوما كل همهم ان يستثيروا شهوات نفسه وان يقضوا هذه الشهوات ليقتنصوا من ورائها كل ما يمكن اقتناصه من المغانم. فتقدموا له بطلبات امتيازات لانشاء معامل وللبحث عن معادن ولجلب صناعات اوربية ولغير ذلك من الاعمال. ولم تكن طلباتهم هذه جدية ولم يكن قصدهم منها ان يعملوا وانما كان كل قصدهم

(١) كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » ص ١٩ من الترجمة

أن يحصلوا على الامتيازات ثم أن يتعللوا بأية علة من العلل كي يلقوا مسئولية فشلهم على الحكومة وكي يطالبوها بتعويض . وكان اسماعيل سهلا فى دفع هـذا التعويض حين كانت أبواب القروض لا تزال مفتوحة في وجهه وحين كانت يده تبذر هـذه القروض يمينا وشمالا فكان ذلك يشجعهم ويجعلهم حوله جيشا جراراً . ولكن لما سدت أبواب الاقتراض فى وجهه لجأوا الى المحاكم المختلطة معتقدين انها لابد آخذة بناصرهم ضده . وكانت هذه المحاكم قد أنشئت فى سنة ١٨٧٦ فأحصيت التعويضات المطلوبة من الحكومة المصرية أمامها في تلك السنة وحدها فكانت ٤٠ مليون جنيه [١] . ويروى فى هذا ان اسماعيل استقبل ذات يوم واحداً من أولئك الأفاقين أصحاب الامتيازات وكانت نافذة الغرفة مفتوحة فنادى موظفا من موظفي قصره وقال له : « أغلق بالله هذه النافذة لئلا يصاب السيد (مشيراً الى زائره) ببرد فيكلفنى ذلك عشرة آلاف جنيه » [٢]

تأثير الربويه فى حالة الشعب

وفى أثناء ذلك كانت حالة الشعب أسوأ الحالات ، فضرائب الاطيان زيدت كما قلنا من ٤٠ الى ١٦٠ قرشا والضرائب الأخرى لم تكن تعد لأن اسماعيل كان كلما وقع فى الحاجة اقترح ضريبة جديدة وجعل الكرباج وسيلته الى تحصيلها . ثم لما ذكره المرابون كما تقـدم بان جميع الاراضى كانت ملكا للوالى وأن جده محمد على بقي الى عدة سنوات صاحب الامتياز فى تجارة مصر الخارجية عول على أحياء هذه الحقوق فى شخصه [٣] فأخـذ يرهق المزارعين حتى تصبح الاراضي عالة عليهـم فيضطروا الى بيعها بأثمان بخسة او الى تركها والفرار منها فيضع يده عليها . وبهـذه الطرق استولى على خمس الاراضي الزراعيـة فى القطر ولمـا عض على حكمه بضع

---

(١) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » الذى تقدم ذكره صفحة ٧١
(٢) المصدر السابق والصفحة نفسها
(٣) كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » صفحة ١٧ من الترجمة

سنين [1] وحسبنا ان ننقل هنا ما كتبه مستر بلنت وصفا لحالة الفلاحين وقد رآهم اذ ذاك بعينه ، قال :

« كان من الامور النادرة فى تلك الايام ان يرى الانسان شخصا في الحقول وعلى رأسه عمامة او على ظهره شيء اكثر من قميص . وحتى في ضواحي القاهرة، وبالاكثر فى الفيوم التي عمنا بوجوهنا شطرها بمجرد حصولنا على الجمال ، يمكنني ان اقول ان الحالة كانت كذلك . وكان بين مشايخ القرى قليلون يملكون عباءة . واينما ذهبنا كانت الحال كذلك . وغصت مدن الارياف في ايام الاسواق بالنساء اللاتي اتين لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين الاروام لأن جامعي الضرائب كانوا فى قراهن والكرباج مشهر فى ايديهم . فابتعنا مصوغاتهن الزهيدة واصغينا الى قصصهن واشتركنا معهن فى استنزال اللعنات على الحكومة التي جعلتهن عرايا »

فهذا الوصف يدل على مقدار ما وصل اليه سوء الحال فى ذلك الوقت . وقد شمل هذا السوء جميع الطبقات وجميع الهيئات ومن بينها هيئة الضباط فى الجيش ، وكان أحمد عرابي أحد هؤلاء الضباط فألف جماعة من زملائه عصبة سرية لخلع اسماعيل [2] ولكن هذه العصبة لم تفعل شيئا . وكان السيد جمال الدين الافغانى اذ ذاك فى مصر فاقترح على الشيخ محمد عبده، وكان احد تلاميذه ، أن يقتل اسماعيل على جسر قصر النيل [3] وهذا ما يقوله الشيخ محمد عبده فى ذلك: « كان الشيخ جمال الدين موافقا على الخلع واقترح عليّ أنا أن اقتل اسماعيل وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاما نتهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقا الموافقة كلها على قتل اسماعيل ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه الحركة » .

---

(١) كتاب « التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر » صفحة ١٧

(٢) انظر « تاريخ احمد عرابى بقلمه » فى ذيل هذا الكتاب صفحة ٣٤٧

(٣) انظر المصدر السابق فى الصفحة نفسها ـ وانظر ايضا « رأى الشيخ محمد عبده فى تاريخ عرابى » المنشور فى ذيل هذا الكتاب صفحة ٣٥٤

تأثير الديون في حالة البلاد السياسية

هذا كان تأثير الديون في شؤون البلاد المادية فننظر بعد ذلك في تأثيرها في الشؤون السياسية وسنرى انها كانت الباب الذي تسرب منه النفوذ الاجنبي الى سلطة الحكومة المصرية ودخلت منه انجلترا حتى وضعت يدها على مصر

بعد أن اقفلت الاسواق المالية كلها في وجه اسماعيل في سنة ١٨٧٥ وبينما كان يفكر في بيع سهوم مصر في قناة السويس كان يرى أن ثمن هذه السهوم لايكفيه وأن لابد له من قروض جديدة ، غير انه كان يعلم أن اسواق أوربا لن تعودفتفتح أبوابها له الا اذا قام لديها برهان على أن مصر قادرة على الدفع وأن ماليتها تتحمل قروضا أخرى ، فهداه التفكير الي أن يكون هذا البرهان شهادة يأخذها من مندوب تنتدبه احدى الحكومات لفحص حالة مصر المالية . ولم يكن أمامه لهذا الغرض غير احدى حكومتين هما انجلترا وفرنسا لان ديونه كلها كانت في بلادهما ، ولكن فرنسا كانت لاتزال مرتبكة بعد حرب سنة ١٨٧٠ فلم تكن أسواقها مستعدة لان تقرضه فاتجه الى الحكومة البريطانية وخاطب قنصلها العام في مصر الجنرال استانتن في أنه « محتاج الى موظف عليم بالنظم المتبعة في مالية الحكومة البريطانية ليعاون ناظر المالية المصرية على سد الخلل الذي يعترف به سموه في هذه النظارة »[1] وكانت الحكومة المصرية في ذلك الوقت سليمة من كل تدخل للحكومات الاجنبية فكان هذا الطلب أول دعوة لانشاء هذا التدخل[2]

وكتب الجنرال استانتن الى اللورد دربي وزير خارجية الحكومة البريطانية بما طلبه منه اسماعيل فاوعز اللورد بان يكون الطلب كتابة وأن يكون موضوعه « استعارة موظفين يشرفان على الدخل والخرج ويكونان خاضعين لارشاد ناظر المالية وأمره »

---

(١) كتاب « المسألة المصرية » لتيودور روتستين ص ١٠ من الترجمة

(٢) كان اسماعيل قد استعار قبل ذلك من الحكومة البريطانية موظفين هما مستر يل ومستر اكتن للعمل في مصلحة التجارة ولكن طبيعة عملهما لم تكن تجعل لهما صفة سياسية فكانا كغيرهما من الموظفين الاجانب اما وجود مندوب من الحكومة البريطانية يعاون وزير المالية فهو امر لا تخفي صبغته السياسية

فرضي اسماعيل و كتب ما أملى عليه . وفى أثناء ذلك ، وقبل أن يجيب اللورد دربي على هـذا الطلب ، اشترت الحـكومة البريطانية سهوم مصر فى قناة السويس فى ٢٥ نوفمبر،فبعد هذا الشراء بيوم واحد كتبت جريدة التيمس تقول : «ان الجمهور فى هذا البلد وغيره سينظر الى هذا العمل الخطير الذى قامت به الحكومة الانجليزية من نواحيه السياسية لامن نواحيه التجارية . سيعده مظاهرة وشيئاً أكثر من مظاهرة . سيعده اعلانا لنياتنـا وشروعا فى العمـل على تحقيقها . ان من المستحيل أن نفكر فى شراء أسهم قنـاة السويس منفصلا عن علاقة انجلترا المستقبلة بمصر » . وبعـد ذلك بيوم واحد أيضا أى في ٢٧ نوفمبر كتب اللورد دربى الى الجنرال اسـتانتن يقول ردا على طلب اسماعيل « ان الحكومة البريطانية ترى أن ترسل الى مصر بعثة خاصة تنظر هى والخديو فيما يساله من النصح فى الشـؤون المالية » وبذلك حولت الحكومة البريطانيـة طلب اسماعيل موظفين الي « بعثة » وجعلت مهمة هـذه البعثة « النصح » ، والنصح فى لغة السياسيين معناه الوصاية

وقبل اسماعيل رأى الحكومة البريطانية بحكم حاجته الى المال فتألفت البعثـة من خمسة من موظفى الحكومة البريطانية تحت رياسة مستر كيف وقدمت الي مصر فى النصف الثاني من ديسمبر وشرعت تفحص حالة المالية المصرية . وفي ٢٩ يناير سنة ١٨٧٦ كتبت جريدة التيمس تقول : « لاشيء أضمن لسلامة مصر من القيام بتغيير أساسى فى الحكومة المصرية وماليتها . ولا شك فى أنه لو كانت الثقـة بمصر فيما مضى أشد من الثقة بها اليوم لاستطاعت أن تتفق مع دائنيها على خير من الشروط التى اتفقت معهم عليها . فالمسألة اذن هي كيف تحوز مصر هذه الثقة ؟ الظاهر ان كل مايقال فى هذا الموضوع قائم على الاعتقاد بان الخديو سيخضع بطريقة من الطرق صاغراً للارشاد الانجليزى وأنه سيعهد الي انجلترا بادارة مالية مصر،وبذلك يتحول الى مصر بعض من ثقة الجمهور بانجلترا فتتمكن من تحويل ديونها وانقاص أقساطها السنوية نقصاً كبيراً » . اذن كان الانجليز يريدون من بعثة « كيف » أن تؤدى الى اخضاع اسماعيل للارشاد الانجليزى ثم أن يتولوا ادارة المالية المصريه . وكان معولهم

في ذلك على مايعرفونه فى اسماعيل من الرغبة فى قروض جديدة ثم على ما يعرفونه في ماليته من الاشراف على الافلاس

وكان اسماعيل حينما فكر فى طلب مندوب من الحكومة البريطانية يفحص ماليته ويعطيه شهادة عنها يعتمد أولا على استطاعته خدع هذا المندوب واخفاء العيوب عن عينيه وثانيا على مظاهر التودد والاكرام يحيطه بها ومظاهر الغني والبذخ يتظاهر بها أمامه . وبهذا وذاك اعتقد اسماعيل انه مستطيع أن يأخذ من بعثة « كيف » تقريراً يرضيه فلا يكون عليه بعد ذلك الا ان ينشره لتعود الاسواق المالية فتفتح له أبواب الاقتراض .

ولعله لم يتساهل مع الحكومة البريطانية فى تحويلها طلبه منـدوبا الى بعثة وفى جعلها مهمة هذه البعثة « النصح » إلا توهما منه انه بذلك يستدرجها الى معاونته علي قصده . ولكنه نسي في هذا الحساب أولا أن أكثر دائنيه كانوا من الانجليز الذين تسأل الحكومة البريطانية عن رعاية مصالحهم وثانيا أن هذه الحكومة كانت ترى مصلحتها فى التعجيل بخرابه وشد الخناق عليه لأنها بذلك توقعه فى اليأس وتستذله فتستطيع أن تسخره لتحقيق مطامعها السياسية . ولهذا لم تضع بعثة « كيف » التقرير الذى كان اسماعيل يرجوه بل وضعت تقريرا لا يسره فلما رأى ذلك استاء ولم يقبل البرنامج الذي اقترحته عليه والذى كان مؤداه أن يخضع « للنصح » البريطاني ، ولكنه مع ذلك لم يفلت من مخالب الحكومة البريطانية لانه قبل أن تمده بموظف من عندها هو السير رفرز ولسن يتخذه مستشاراً ماليا يعاون وزير المالية

وكانت الحكومة الفرنسية تراقب من قرب مساعي الحكومة البريطانية فى مصر فلما علمت أنها سترسل السير رفرز ولسن مستشارا ماليا لاسماعيل رأت أن تجيب على هذه الحركة بحركة مثلها فأرسلت علي الفور أحد موظفيها ، وهو مسيو فيليه» ليساعد اسماعيل على تنظيم ماليته . فتضايقت الحكومة البريطانية من هذه المقاومة وأرسل اللورد دربي الي اسماعيل يطلب منه ألا يتسرع فى اتخاذ أي قرار وأن ينتظر وصول السير ولسن

ووصل السير ولسن فرأى أن مسيو فيليه عرض على اسماعيل مشروعا لتنظيم

المالية المصرية (ليس هنا مكان بيانه لانا نقتصر فى مانكتبه على الوجهة السياسية) فلم يقبله ولم تقبله معه حكومته ، ولكن اسماعيل قبله وأظهر الرغبة في الاخذ به ، فلم يكن من الحكومة البريطانية الا أن أجابت علي ذلك بأن ضربت اسماعيل ضربة أليمة كانت سببا في التعجيل بخرابه . وذلك أنها كانت قد اتفقت معه على عدم نشر التقرير الذى وضعته بعثة « كيف » فلما رأته ميالا للاخذ بمشروع مسيو فيليه لوحت له بانها ستنشر التقرير فكتب اليها يحتج على نيتها هذه ويقول ان المعلومات التي قدمت لبعثة « كيف » سرية محضة. فتظاهرت بالاصغاء لاحتجاجه ولكنها أوعزت الى أحد النواب البريطانيين بان يسألها فى البرلمان متى ينشر التقرير، فلما طرح عليها السؤال لم تجب بان التقرير وضع على أن يكون سريا لاينشر بل أجاب مستر دزرائيلى بانه لامانع فى نشره ولكن الخديو هو الذي يعارض في ذلك أشد المعارضة[1]. فكان هذا الجواب أسوأ من التقرير نفسه وكان من تأثيره أن تدهورت في الحال أسعار السندات المصرية تدهورا شنيعاً ، وحينئذ لم ير اسماعيل الا أن يعود فيسمح بنشر التقرير فنشر في ٣ ابريل أى بعد عشرة أيام فقط من تصريح اللورد دزرائيلي . وشعر اسماعيل بألم هذه الضربة فقال وهو يكاد يبكي : « لقد حفروا لى القبر » [2] — Ils ont creusé ma fosse

وكان علي اسماعيل أن يدفع قسطاً من الفوائد — Coupon — فى أول ابريل، ومع أنه كان قد قبض من الحكومة البريطانية قبل ذلك بأربعة أشهر أى فى ٢٥ نوفمبر أربعة ملايين جنيه في اسهم قناة السويس لم يكن لديه شيء يدفع منه هذا القسط، ثم لما أعلن اللورد دزرائيلى تصريحه المار ذكره وهوت أسعار السندات المصرية لم يجد اسماعيل بداً تمتد اليه بقرض جديد يدفع منه، فكتب في ٢٨ مارس اى قبل ميعاد الاستحقاق بثلاثة أيام الى الحكومتين الفرنسية والانجليزية يسألها فى تذلل وخضوع أن تأتيا لمعونته والا حل به الدمار [3] فاجابت الحكومة البريطانية بالرفض اما الحكومة الفرنسية

---

(١) « تيودور روتستين ص ٢٠ و ٢١ من الترجمه — و « المناقشات البرلمانية » لهنسارد مجلد ٢٣١ سنة ١٨٧٦ ص ٦٣٩

(٢) المصدران السابقان

(٣) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٥٧

فرأت ان ثمت فرصة سانحة لاجتذاب اسماعيل اليها فاجابت بالقبول ودبرت المال على عجل فوصل الى لندن في الساعة الاخيرة من مساء ٣١ مارس واجتنب اسماعيل بذلك اعلان افلاسه

واقترحت الحكومة الفرنسية حينئذ على اسماعيل أن ينشيء ادارة خاصة تسمي « صندوق الدين العمومي » تتولى، تحت اشراف مندوبين عن الدول، تحصيل جزء معين من ايرادات الحكومة المصرية ودفع الاقساط منه . فتردد اسماعيل فى قبول هذا المشروع لما رآه فيه من تقييد سلطته ورفضت الحكومة البريطانية ان توافق عليه لأنها لم ترض عن شروطه . وعلى أثر هذا الرفض كتبت التيمس في يوم ٧ ابريل تقول : « لابد من احد أمرين إما ان تقوم حكومة موالية للخديو فتمد اليه يد مساعدتها جهرة نظير قبوله سلطتها الحامية والا فليتقدم الخديو بمشروع من عنده » فكان هذا جلياً فى ان انجلترا كانت تسعي من ذلك الحين لاكراه اسماعيل على قبول حمايتها ، وكان مسلكها جليا فى انها تجعل وسيلتها الى ذلك شرك الديون الذى أوقع اسماعيل مصر فيه والخراب الذى جره على ماليتها

ولم يستفد اسماعيل من القسط الذى دفعته عنه الحكومة الفرنسية (قسط أول ابريل) اكثر من أن يتنفس أسبوعا واحدا، لان الداء كان عضالا لا يفيد فيه ذلك المسكن الوقتي. فبعد هذا الاسبوع الواحد عاد الداء فظهر أشد مما كان ولم يجد اسماعيل مناصاً من أن يخضع فى هذه المرة لاعلان افلاسه فعلقت الحكومة المصرية فى صباح ٨ ابريل فى بورصة الاسكندرية اعلانا بأنها عاجزة عن دفع القسطين المستحقين فى ابريل ومايو في ميعادهما وستدفعهما بعد ثلاثة أشهر . فكان هذا اعلانا للتوقف عن الدفع أى للافلاس .

وما كاد هذا الاعلان ينشر حتي امتلأت السوق المصرية رعبا فذعر اسماعيل وسارع الى ابلاغ الحكومة الفرنسية انه يقبل انشاء صندوق الدين الذى اقترحته عليه ظانا انه بذلك ينقذ موقفه . وأمضى فعلا فى ٢ و٧ مايو سنة ١٨٧٦ أمرين بانشاء هذا الصندوق الذى لا يزال قائما الى اليوم وخصص له ايراد مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة وأسيوط ، وايراد الدخولية فى القاهرة والاسكندرية ، وايراد

جمارك الاسكندرية والسويس وبور سعيد ورشيد ودمياط والعريش ، وايراد السكك الحديدية ، وايراد رسوم الدخان، وايراد احتكار الملح، وايراد المطرية (دقهلية) وايراد رسوم الكبارى والمراكب ، وايراد كبرى قصر النيل ، وأخيراً ايراد أطيان الدائرة السنية .

وفى المادة الثانية من الامر الصادر بانشاء هذا الصندوق ان على الموظفين الذين يتولون تحصيل الايرادات المار ذكرها أن يوردوا ما يحصلونه للصندوق لا لوزارة المالية . وفى المادة الرابعة منه ان جميع المنازعات التي تقوم بين الصندوق وادارات الحكومة المصرية ترفع الي المحاكم المختلطة . وفى المادة الثامنة ان الحكومة ممنوعة من أن تعدل ضريبة من ضرائب هذه الايرادات تعديلا يكون من شأنه انقاص الوارد منها الا بموافقة أغلبية المندوبين الذين يديرون الصندوق . وفى ديباجة الامر ان الذين يديرون الصندوق مندوبون أجانب تنتدبهم الدول ويعينهم الخديو بناء على هذا الانتداب . ومن هذه المواد يتضح أن انشاء هذا الصندوق كان انشاء لسلطة أجنبية بجانب سلطة الحكومة وقد قال مسيو دى فريسينيه انه كان « أول اعتداء على سلطة الخديو لانه مكن الدائنين من أن يكونوا سلطة فى الحكومة » [1]

وقدرت هذه الايرادات المخصصة للصندوق فكان مجموعها ١١ر٤٧٤ر٦ جنيها [2] من دخل يتراوح بين ٩ و ٩ ملايين ونصف مليون جنيه

المراقبة الثنائية

تلك كانت المرحلة الاولى من مراحل التدخل الاجنبي فى شؤون الحكومة المصرية بسبب ديون اسماعيل ، ويقول مثل أوربى ان الخطوة الاولى هى العزيزة فسنرى في ما يلي ان اسماعيل بعد ان خطا هذه الخطوة سار بعيداً وبسرعة حتى نزل لانجلترا وفرنسا عن كل سلطة الحكومة ، ثم اذ خطر له بعد ذلك ان يسترد سلطته لم يستطع وعوقب بالعزل والابعاد

رأينا ان الحكومة البريطانية لم ترض عن النظام المالي الذى أنشىء على أساسه

---

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمسيو دى فريسينيه ص ١٥٩

(٢) كتاب « الحالة الدولية لمصر والسودان » ص ٧٧

صندوق الدين لانها كانت ترى فيه مصلحة لحماية السندات من الفرنسيين تمتاز على المصلحة التي يمكن ان يجنيها منه حملة السندات من الانجليز . فلما أنشىء الصندوق عينت فرنسا والنمسا وايطاليا مندوبها فيه وامتنعت انجلترا عن ان تعين مندوبا لها.[1] وغادر السير رفرز ولسن مصر عائدا الى أوربا معلناً ان بقاءه في مصر صار مستحيلا[2]

ورأت الحكومة البريطانية بعد ذلك أن اختلافها مع فرنسا لا يحقق اغراضها فسعت الى الاتفاق معها ولكن من وراء ستار فسافر الى باريس مستر غوشن ، وكان عضواً فى البرلمان وشريكا في مصرف فرهلنج الذى أقرض اسماعيل ديونه الاولى ، وهناك اجتمع بحملة السندات من الفرنسيين فما زال بهم حتى اتفق معهم على نظام مالي جديد لصندوق الدين (ليس هنا مكان البحث فى هذا النظام لاننا كما قلنا من قبل ننظر الى الحوادث من وجهتها السياسية) أساسه أن يطلب الدائنون من اسماعيل تعيين مراقبين أوربيين يراقب أحدهما دخل الحكومة ويراقب الثاني خرجها ليضمن الدائنون بذلك حصول صندوق الدين على الايرادات المخصصة له .

ثم سافر مستر غوشن مندوبا عن الدائنين الانجليز ومسيو جوبير مندوبا عن الدائنين الفرنسيين الى مصر وشرعا يهاجمان اسماعيل ليحملاه على الرضى بتعيين المراقبين . فقامت فى البلاد ضجة استنكار وكان اسماعيل صديق باشا المشهور بالمفتش ناظراً للمالية فأيد هذه الضجة ونصح للخديو اسماعيل بالرفض والمقاومة . ثم حدث أن قتل صديق باشا غيلة فكتب مراسل التيمس فى الاسكندرية الى جريدته يقول: « ان التخلص من المفتش يعد خاتمة نظام عتيق . . . . . لقد كان المفتش زعيم حزب يقاوم النفوذ الاوربي وكل تقدم المدنية » الى أن قال : « ان سقوط صديق باشا الذى يقال انه كان قد أعد مشروعا معارضاً — (أى معارضاً لمشروع غوشن وجوبير) — ليعد من أقوى دواعى النجاح » . وبعد ذلك بأيام أعلن اسماعيل أنه قبل مشروع غوشن وجوبير وأصدر فى ١٨ نوفمبر أمراً عاليا بضرب المراقبة على المالية المصرية .

---

(١) عينت انجلترا مندوبا لها بعد سنة وهو السير افلن بتاريخ الذى صار فيما بعد اللورد كرومر

(٢) التيمس في ٥ يونيه سنة ١٨٧٦

وتقضي المادة السابعة من هذا الامر بان يعين مراقبان عامان أحدهما يراقب ايرادات الحكومة والثاني يراقب مصروفاتها والاعمال الحسابية الخاصة بالدين. وتقضي المادة الثامنة بأن يكون جميع الموظفين الذين يتولون تحصيل الايرادات تحت ادارة مراقب الايرادات وأن يكون هو الذى يقترح على الخديو تعيينهم بواسطة وزير المالية . وله الحق فى وقفهم عن وظائفهم وعزلهم . وتقضى المادة التاسعة بان يكون مراقب المصروفات مستشارا لوزير المالية وأن يكون هو الذى يراقب حسابات الحكومة ويسهر على تنفيذ اللوائح الخاصة بالدين . ولا يكون أمر بالصرف صحيحا الا اذا أمضاه ولو كان صادرا من وزير المالية . وتقضى المادة العاشرة بأن يشترك المراقبان في وضع الميزانية العمومية وتقضى المادتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة بأن يكون أحد هذين المراقبين انجليزيا والثانى فرنسيا وأن تختارهما حكومتا انجلترا وفرنسا فيعينهما الخديو بناء على هذا الاختيار .

وبهذا الامر انتقلت سلطة الحكومة كلها تقريبا الى هذين المراقبين الاجنبيين وصار اسماعيل المستبد العظيم أسيرا وصارت مصر في قبضة السياسة الاجنبية تدفع بها الى ما تريد وحيثما تريد .

النظارة الاوربية

أخذ هذا النظام الجديد الذي سمى نظام « المراقبة الثنائيه » فى العمل فاختارت الحكومة البريطانية مستر رومين مراقبا انجليزيا واختارت الحكومة الفرنسية البارون دى مالاريت مراقبا فرنسيا فعاني هذان المراقبان الصعاب لانهما لم يجدا حسابا منظما ولا قوانين ولا لوائح تضبط الايراد أو الدخل بل لم يجدا أوامر مكتوبة مع أن هذه الاوامر كانت تنفذ بالكرباج فكتب اثنان من أعضاء « لجنة التحقيق » التى عينت بعد ذلك بسنة والتى سيأتي ذكرها يصفان هذه الحالة فقالا فى تقرير قدماه الى تلك اللجنة وقدمته اللجنة الى الدول [١] : « كلما كان هناك من النظام هو أن شيخ البلد ينفذ

---

(١) هذا التقرير كتبه « م . ى . بيرنج » و « ا . دى كريمر » وهو منشور فى القسم الخاص « بمسألة مصر » من مجموعة « المستندات السياسية التى اصدرتها » الحكومه الفرنسية فى سنة ١٨٨٠

الاوامر التى تصدر اليه من المدير . والمدير ينفذ مايصدر اليـه من المفتش العـام . والمفتش يتلقى الامر من السلطة العليا (اى من الخديو) . وهذا الامر هو القانون الذى يجب أن ينفذه موظفو الحكومة ولو كان شفويا دون أن يباح لاحد من الممولين أن يناقش في وجوده أو في مؤداه » . وبهذا كانت تدار الآلة الحكومية فى عهد اسماعيل وخاصة فى ايامه الاخيرة حينما اختلط الحابل بالنابل ولم يكن لاسماعيل هم الا ابتداع انواع جديدة من الضرائب والمغارم كل يوم للاستيلاء على الاموال والمحصولات

واهتم المراقبان بان يدفعا الاقساط (او الكوبونات) فى مواعيدها ليثبتا بذلك كفاءتهما وكفاءة النظام الذى يمثلانه فحبسا عن اسماعيل ونسائه وقصوره ومطابخه وأتباعه جميع نفقات البذخ وحبسا عن طائفة من الموظفين المصريين مرتباتهم وأمرا بتسريح فريق من رجال الجيش، وبهذه الوسائل وأمثالها استطاعا ان يعدا المال اللازم لقسط يناير قبل ميعاده فتباهيا بذلك وقدماه لارباب الديون برهانا على كفاءتهما ونفع النظام الجديد . ولكن المعين أخذ ينضب فى الشهور التالية فاستولى عليهما الانزعاج وارسلا الجباة يجبون الضرائب بالكرباج[1] وتفننا فى بيع الامتيازات للشركات[2] ومع هذا قرب الموعد الذى يدفع فيه قسط يوليو ولم يكن لديهما ما يدفعان منه فلما رأيا ذلك وضعا ايديهما على محصولات فلاحى الاقاليم المخصصة لاداء الدين وباعاه صفقة واحدة لشركة آل هويتورث بنصف مليون جنيه[3] .

وعلى اثر ذلك كتب قنصل انجلترا العام الى حكومته تقريراً قال فيه : « لقد استطاعت مصر أن تؤدى فى ثمانية أشهر ما يقرب من ٦ ملايين جنيه وهـذا كله يدل على كفاية المراقبة الجديدة غير أنى أخشى ان تكون هذه النتائج لم تتم الا بما فيه هلاك الفلاحين بحملهم على بيع محصولاتهم قبل حصادها وجباية الضرائب قبل

(١) كتاب « المسألة المصرية » لمستر تيودر روتستين ص ٤٥ من الترجمة

(٢) التيمس فى ٣ مارس و ٢ ديسمبر سنة ١٨٧٧

(٣) رسالة من الاسكندرية الى التيمس فى ٢٧ يونيو سنة ١٨٧٧ — وكتاب « المسألة المصرية » لمستر تيودور روتستين ص ٤٦

مواعيدها . أما الموظفون الوطنيون الذين يقتضى صلاح الادارة اطراد دفع مرتباتهم فقد ذهبوا ضحية الكوبونات وأصبحوا ولهم متأخرات جسيمة »

وحينئذ رؤى أن السفينة لا تجرى وأن دولاب العمل فى مصر وقف فاتهم الدائنون اسماعيل بانه يخفي عن المراقبين بعض الايراد وهددوا بمقاضاة ناظر المالية أمام المحكمة المختلطة وأخيراً طلبوا تعيين لجنة للتحقيق . فحاول اسماعيل أن يصم أذنيه فازدادوا ضجيجا ولوحوا له باسم الامير حليم مطالبا بعرش مصر. وكانت نفسية اسماعيل قد الفت الاذعان فاذعن فى هذه المرة أيضا وأصدر فى ٢٧ يناير سنة ١٨٧٨ أمرا بتعيين اللجنة ، ولكنه قصر اختصاصها على موارد الدخل فاحتج الدائنون وكتب ممثلهم مستر غوشن فى التيمس فى ٣١ يناير يقول « سوف لا أحجم عن بذل ما أوتيت من جهد ونفوذ للقضاء على ما تحاوله الحكومة المصرية من حصر دائرة التحقيق » . فاراد اسماعيل أن يحتمي فى سلطان تركيا قائلا انه « السلطة الوحيدة التى يخضع لها » [1] فلم تقبل انجلترا وفرنسا فاضطر ان يصدر في ٣٠ مارس سنة ١٨٧٨ أمراً بمد اختصاص اللجنة الي الدخل والخرج وجميع الشؤون المالية .

وألفت اللجنة من فرديناند دلسبس منشىء قناة السويس رئيساً ورفرز ولسن وكيلا ودي بلنيير وبارافالي وبيرنج ودى كريمر ورياض باشا أعضاء . ولكن دلسبس كان كثير الغياب في باريس فكان رفرز ولسن الرئيس الفعلي

وأخذت هذه اللجنة في عملها فاتضح في الحال أن السير فرز ولسن لا يرضى عن هذا العمل الا اذا انتهى الى نتيجة معينة هى أن تتولى هيئة أجنبية ، أو بعبارة أخرى انجليزية ، ادارة الامور فى مصر . وكتب قنصل فرنسا العام اذ ذاك البارون دى ميشل الى حكومته تقريراً أظهر فيه قلقه من هذه الخطة وأشار الى أن هناك أشاعة «بان السير رفرز ولسن سيكون وزيراً لاسماعيل فكأنه يهيىء السبيل لتحقيق هذه الاشاعة» [2] . وأتمت اللجنة تقريرها النهائي وقدمته الى اسماعيل فى ١٣ اغسطس

---

(١) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٧٨

(٢) دى فريسينيه ص ١٦٦ و ١٦٧

سنة ١٨٧٨ وكان السير رفرز ولسن هو الذى انفرد تقريبا بكتابته [1] وفيه أتهم اسماعيل بانه مسئول عن عجز فى الايرادات قدره عشرة ملايين جنيه وطلب منه فى مقابل ذلك أن ينزل عن أطيانه للدائنين . فتردد اسماعيل فى قبول هذه النتيجة ولكنه بعد أن ذل حتى صار أسيراً في أيدى انجلترا وفرنسا لم يسعه الا ان يصدر فى ٢٤ اغسطس امرا بالموافقة على مافى التقرير وتنفيذه

وقابله اذ ذاك السير رفرز ولسن وقال له ان الوسيلة الوحيدة التى يستطيع بها أن يصلح ماليته وأن يسترد الثقة به هىأن يدخل تعديلا جوهريا على طريقة الحكم. فرد عليه اسماعيل بالكلمة التى اشتهرت عنه وهى قوله : « ان بلادي ليست الآن فىأفريقيا . اننا الآن جزء من أوربا فمنالطبيعىان نترك تيه الماضي وان نتبع نظاما مطابقا لحالتنا الاجتماعية »[2]. وكان هذا التعديل الذي طلبه منه السير رفرز ولسن ان ينزل عن سلطة الحكم لمجلس نظاره كي يكون هذا المجلس مسئولا عن أعمال الحكومة . وكانت هذه هي الوسيلة التى يرى السير رفرز ولسن أن يدخل بها الوزارة . وفعلاأصدر اسماعيل أمراً الى نوبار باشا فى ٢٨ اغسطس قال فيه انه يريد من الآن فصاعدا ان يحكم « مع مجلس نظاره وبواسطته » . [3] ودارت مفاوضات طويلة بينه وبين انجلترا وفرنسا بشأن تأليف هذا المجلس كانت نتيجتها أن أصدر أمراً فى ١٤ اكتوبر بتعيين السير رفرز ولسن ناظرا المالية ومسيو دي بلنيير ناظراً للاشغال . ولذلك لقبت هذه النظارة التى كان نوبار باشا يتولى رئيسها بالنظارة الاوربية

وهكذا صار ناظران اوربيان احدهما اختارته الحكومة الانجليزية والثانى اختارته الحكومة الفرنسية هما اللذان يحكمان مصر . اما اسماعيل ، اسماعيل العظيم

---

(١) دى فريسينيه ص ١٦٩ .

(٢) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٧٩ وهذا هو النص بالفرنسية :

Mon pays n'est plus en Afrique ; nous faisons partie de l'Europe actuellement. Il est donc naturel que nous abandonnions des errements anciens pour adopter un système conforme à notre état social.

(٣) هذا الامر هوالاساس الذى اعتبر دستورا لمجلس الوزراء من ذلك الوقت الى أن نفذ الدستور المصرى فى سنة ١٩٢٤

المستبد الفخور فقد نحي الى زاوية من زوايا الاهمال . وليس اسماعيل وسلطته هما اللذان يعنياننا فى هذا وانما استقلال الحكومة المصرية هو الذى يعنيناوهوالذى هدم الى آخر حجر منه بتأليف هذه النظارة

نهب مقسم

وللتنافس بين الدول حين تأليف هذهالنظارة الاوربية قصة طريفة هي أنه لما قبل اسماعيل أن ينزل عن سلطة الحكم لمجلس نظاره كان من المتفق عليه بينه وبين الحكومة البريطانية أن يعين السير رفرز ولسن ناظراً للمالية وأن يستغنى بذلك عن المراقبين الانجليزي والفرنسي فلما علمت الحكومة الفرنسية بهذا هاجت وطلبت أن تعطى نظارة فدارت المفاوضات في ذلك بين لندن وباريس الى أن تم الاتفاق بينهما على ان تأخذ فرنسا نظارة الاشغال . وهذا هو السبب فى ان الناظرين الاوربيين لم يعيناالا فى ١٤ اكتوبر مع ان الامر صدر لنوبار باشا بتأليف نظارته فى ٢٨ اغسطس

ولما علمت ايطاليا والنمسا بان انجلترا وفرنسا اقتسمتا الغنيمة علي هذا المنوال تقدمت كل واحدة منهما تطلب لنفسها نظارة فطلبت ايطاليا نظارة الحقانية وطلبت النمسا نظارة المعارف (١) فاسترضيتا بان عين ايطالى مراقبا عاما للحسابات ونمسوى مساعدا لناظر المالية

اذن كان اعتقاد الدول ان الحكومة المصرية لم تفقد استقلالها فقط بل فقدت وجودها أيضاً وصارت تركتها نهبا مقسما يفوز بالغنيمة الكبرى منه ذوالقوة الجسور

ثورة الضباط

وكان اول ما فعلته النظارةالاوربية أن رهن السيررفرز ولسن الاطيان التى نزل عنها اسماعيل وأسرته (وهى ٤٢٥٫٧٢٩ فداناً) لبيت روتشيلد وعقد قرضاً بمبلغ ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه،وهو الذى كان يسمى قرض الدومين ،فدفع منه بعض الاقساط

---

(١) التيمس فى ١٤ اكتوبر سنة ١٨٧٨ - وكتاب « المسألة المصرية » لتيودور روثستين ص ٦٥ من الترجمة

للدائنين وكان من المتفق عليه أن تدفع منه المرتبات المتأخرة للموظفين فلم تدفع ثم لم تبتدىء سنة ١٨٧٩ حتى كان قد ذاب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس وصار هم الوزارة أن تجبي الاموال لتدفعها للدائنين بحيث رأى كل ذي عينين أنها انما تحكم مصر لمصلحتهم لا لمصلحة المصريين . واشتد الكرب بالناس من جراء هذا النوع من الحكم حتى اعترف به مكاتب التيمس فى الاسكندرية فكتب فى ٢٣ يناير سنة ١٨٧٩ يقول :
« لست مبالغا اذا قلت ان في القاهرة الآن مئات من المشايخ يمثل كل منهم قرية من القرى جاءوا بمعروضاتهم يسألون فيها تخفيف الضرائب وكل منهم يعلن أنه لا يمكن بقاؤها على ما هي عليه . انهم جموع محتشدة امام أبواب النظارات يعترضون النظار في غدوهم ورواحهم ومعروضاتهم تملأ أقلام المصالح » . وبعد ذلك بشهر ونصف شهر أي في ٣١ مارس كتب هذا المراسل نفسه يقول : « يؤكد أهل الدلتا أن الربع الثالث من ضرائب هذا العام يجبى بنفس الطرق التي كانت تجبى بها الضرائب فيما مضى . قد يعجب الناس من وقوع ذلك بازاء ما يسمعونه من أن المصريين يموتون على قوارع الطرق ، وأن أراضي شاسعة تركت بوراً لثقل الاعباء المالية المفروضة عليها وأن الفلاحين باعوا دوابهم وأن النساء بعن حليهن وأن أقلام الرهون غاصة بالمرابين يحملون وثائقهم وأن المحاكم لا عمل لها سوى النظر في قضايا غلق الرهون اجابة لطلب هؤلاء المرابين »

وبينما الحال كذلك والناس يضجون بالشكوى فى كل مكان جاء قسط مايو وليس فى الخزينة ما يكفى لدفعه فأمرت الوزارة بتسريح ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش ودفعت القسط مما اقتصدته من مرتباتهم . وكانت لهؤلاء الضباط مرتبات متأخرة منذ ثمانية عشر شهراً فلما فصلوا بغير أن تدفع لهم متأخراتهم هاجوا وماجوا . وكان السخط قد ملأ النفوس استعدادا للثورة فلم يترددوا فى أن يكونوا أول من يضرم نارها وأحدقوا بنوبار باشا والسر ريفرز ولسن وهما خارجان من ديوانيهما يوم ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ فهاجموهما ولكموهما وشدوا شاربيهما [1] وسجنوهما في نظارة

---

(١) ص ٣٤٦ من هذا الكتاب

المالية [1]. وعلم بالخبر اسماعيل فركب الى نظارة المالية محاطا بحرسه وأمر الضباط بالانصراف فلم ينصرفوا فأمر قائد حرسه باطلاق الرصاص فاطلقه فى الهواء فتفرق المجتمعون واستطاع اسماعيل بذلك أن يخرج نوبار ورفيقه من سجنهما [2]

وعلى أثر ذلك أعلن اسماعيل أنه لايكون مسئولا عن الامن العام اذا لم يستقل نوبار فاستقال . وكان اسماعيل تواقا الى أن يسترد ولو بعض ما كان له من السلطة

---

(١) رواية عرابى المنشورة فى ص ٣٤٦ من هذا الكتاب تقول ان الضباط هاجموا نوبار باشا واهانوه وحده . أما رواية مسيوجول كوشرى (ص ٨٠) فتقول انهم هاجموا نوبار باشا والسير ريفرز ولسن واهانوهما وسجنوهما . وكذلك رواية مستر تيودور روثستين (ص ٦٨ من الترجمة) . وهذه الرواية الاخيرة هى الصحيحة لانها تطابق ما نشر فى « الوقايع المصرية » اذ ذاك . وقد نشر فى « الوقايع » أيضا أن الحكومة اعتذرت بعد ذلك اعتذاراً رسميا للسير ريفرز ولسن عن الاهانة التى لحقت به

(٢) اشتد الغيظ بالسير ريفرز ولسن بعد هذا الحادث فاتهم اسماعيل بانه هو الذى دبره ليتخلص من النظارة الاوربية وسرى هذا الاتهام الى كثير من الناس ومنهم مستر بلنت فى كتابه هذا . ولكن يحسن أن ننقل هنا ملاحظة كتبها فى ذلك مستر تيودور روثستين وهي :

« يذكر مستر بلنت تأييدا لرواية السير ريفرز ولسن شهادتى عرابى باشا والشيخ محمد عبده . ولكن عرابى كما يقول هو نفسه كان وقت حدوث الفتنة غائبافي الاقاليم . وكل ما يقوله الشيخ محمد عبده مجرد تصديق لقول عرابى . ويغلب على الظن أن كلا الرجلين انما كان يردد الاشاعات التى ترددت فيما بعد وصدقها فى غير تمحيص بغضا منه لاسماعيل . اما اللورد كرومر الذى لا يمكن أن يتهم بشدة الاقتصاد فى الطعن على اسماعيل فانه يعترف « بان كل ما يقال من ان اسماعيل كان على علم بالفتنة ليس الا من قبيل الحدس والتخمين » . وغاية ما يستطيع اللورد أن يرمى به اسماعيل هو اشتراكه الاذنى في الفتنة »

تلك هي ملاحظة مستر تيودور روثستين ونضيف نحن اليها أن مستر فيفيان الذى كان قنصلا عاما لانجلترا في ذلك الوقت كتب تقريرا لحكومته برأ فيه اسماعيل من هذه التهمة وقال ان الفتنة كانت نتيجة استياء عام أضيف اليه استياء الضباط

وكان يرى في تذمر الشعب من النظارة الاوربية فرصة صالحة لهذا الغرض فلم يعين خلفا لنوبار وتولى هو رياسة مجلس النظار . ولكنه لم يكد يفعل حتى أبلغته انجلترا وفرنســا أن توليه رياسة النظارة مخالف للامر الصادر منه في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ والذى نزل به عن السلطة للنظار . وأبلغه مستر فيفيان قنصل انجلترا العام أن الحكومة البريطانية تعتبر استقالة نوبار باشا عملا شخصيا وأنها لذلك لا تقبل أن يترتب عليها تغيير في سير الامور . وبعد مفاوضات لم تدم أكثر من أيام اضطر اسماعيل أن يعلن يوم ٩ مارس ان الاتفاق تم على ما يأتي :

أولا — لا يحضر الخديو مداولات مجلس النظار فى أي حال من الاحوال

ثانياً — يتولى الامير توفيق باشا رياسة المجلس

ثالثاً — للعضوين الاوربيين اللذين فى النظارة حق المعارضة المطلقة :— « Veto absolu » — في كل مالا يوافقان عليه . وكل أمر يعارضان فيه لا ينفذ . ولكن لكي تكون معارضتهما صحيحة يجب أن تصدر منهما معا[1]

وهناك شرط رابع يضيفه مسيوجول كوشيرى وهو أن يستشير اسماعيل حكومتى انجلترا وفرنسا في اختيار نظاره الجدد [2]

وهكذا جرب اسماعيل فعرف أنه اذ شد وثاق البلاد بالديون شد بهذه الديون نفسها وثاق نفسه، وأنه اذ عالج أن يخفف ضغط هذا الوثاق باء بالفشل وازداد وثاقه شدة على شدة . وهكذا أيضاً رأى المصريون رأي العين أن حكومتهم لم تبق لهم وأن استقلالهم الذاتي الذى اشتروه بدمائهم فى حروب عديدة والذي سجلته الفرمانات وأيدته المعاهدات الدولية فى سنتي ١٨٤٠ و ١٨٤١ أصارته ديون اسماعيل حبراً على ورق

وثبة من اسماعيل لاسترداد سلطته

وكان المصريون ينظرون الى هذه الحال متألمين ، وكانت الشدائد التي قاسوها طول حكم اسماعيل قد ملأت صدورهم مرارة ، وكان المتألمون قد عرفوا من المثل

---

(١) فرى فريسينيه ص ١٧٣

(٢) الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٨١

الذي ضرب به لهم الضباط فى مهاجمتهم نوبار باشا والسير ولسن أن الألم لا يفيد ما لم يصحبه عمل وانه ان أراد الشعب أن يسترد استقلاله الذاتي وأن يضع حداً لاستغلاله لمصلحة اسماعيل تارة ولمصلحة الدائنين الاجانب تارة أخرى فعليه أن يعمل لهذه الغاية . وذلك ما صمم عليه أعيان المصريين فأخذوا يعقدون الاجتماعات يوحدون بها الكلمة ويرسمون الخطة حتى اذا تم لهم ذلك كتبوا العرائض وجعلوا يرسلونها تارة الى النظارة وتارة الى اسماعيل يطلبون فيها أن تكون الحكومة وطنية وأن تكون للأمة رقابة عليها (١)

ولا جدال فى أن اسماعيل نظر الى هذه الحركة بعين الرضى لأنه كان يرى فيها وسيلة للخلاص من نير السلطة الاجنبية على العموم والنظارة الاوربية على الخصوص، ولكن لا جدال أيضاً فى أنها كانت ضده كما كانت ضد النفوذ الاجنبي، وقد رأينا فى ما تقدم أنه كان من بعض اعراضها التفكير فى قتله وسنرى فى ما يلي أنه لما أراد أن يخضعها لاهوائه بعد أن تخلص بها من النظارة الاوربية أبت ووقفت في وجهه تطلب أن تكون رقابتها على سلطته فعلية (٢)

وأجاب السير ريفرز ولسن على هذه الحركة بان أعلن بصفته ناظراً للمالية تأجيل « كوبون » ابريل شهراً فكان هذا بمثابة اعلان لافلاس الحكومة المصرية وكان من الضرورى أن تتبعه قيود جديدة وأعباء مالية جديدة . وكان السير رفرز ولسن يظن أنه بذلك يضرب اسماعيل والحركة الوطنية ضربة تخمد أنفاسهما فلم يصح حسابه وازداد بالعكس هياج الافكار وكتب الاعيان مذكرة وقعها منهم سبعون من العلماء فيهم شيخ الاسلام وبطريرك الاقباط وحاخام اليهود وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الاعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش طلبوا فيها عزل

---

(١) التيمس فى ٣١ مارس سنة ١٨٧٩ — وكتاب تيودور رونستين ص ٨٤ من الترجمة

(٢) يذهب كثير من المؤرخين الاوربيين الى أن اسماعيل هو الذى خلق هذه الحركة وأن المصريين كانوا فيها آلات مسخرة فى يده ولكن الحوادث أثبتت فساد هذا الزعم

السير ريفرز ولسن وتأليف وزارة وطنية وايجاد مجلس نواب تكون له سلطة المراقبة على أعمال الحكومة وتكون الوزارة مسئولة أمامه [1].

وفى مساء ٧ ابريل استدعى اسماعيل قناصل الدول وطلب منهم أن يبلغوا حكوماتهم أنه لم يبق فى وسعه أمام هياج الرأى العام فى مصر الا أن يحكم بنظارة وطنية مسئولة أمام مجلس نواب وأن ابنه توفيق باشا استقال وأن شريف باشا عين خلفاً له فى رياسة مجلس النظار . وقدم القناصل في الوقت نفسه مشروعا مالياً جديداً بتسديد الديون فى ٦٥ عاماً وتخفيض الفائدة الى ٥ فى المئة وتخصيص ٤ ملايين جنيه من دخل الحكومة للشؤون الادارية . وأعلن أن المراقبة الثنائية التي كانت قائمة قبل تأليف الوزارة الاوربية تعود الى ما كانت عليه

ولما علم الوزيران الاوربيان بذلك احتجا على اسماعيل واتهماه بانه هو الذي دبر هذه الحركة ليتخلص من تعهداته . ثم استقالت لجنة التحقيق بعد ثلاثة أيام فقبل اسماعيل استقالتها فى ١٣ ابريل وأصدر في ٢٢ ابريل امراً عالياً بتنفيذ المشروع الذى قدمه للقناصل

عزل اسماعيل

هنا أخذت الحوادث تجري سراعا فتعلم اسماعيل أنه اذ ألقى بالبلاد فى هاوية الديون ألقى بنفسه فى أيدى الاجانب وأنه اذ أضاع استقلال حكومته بالمراقبة الثنائية ثم بالنظارة الاوربية أضاع عرشه وأضاع نفسه ، وتلك هى دائما عاقبة من لا يكترث للعواقب

تألفت الوزارة الوطنية برياسة شريف باشا كما تقدم وأعلن اسماعيل في الامر الذى أصدره بتشكيلها أنه يريدها مسئولة أمام النواب ثم أراد أن يرد نظام المراقبة الثنائية الى ما كان عليه فطلب من السير افلنج بارنج (اللورد كرومر) العضو الانجليزي فى صندوق الدين ومن زميله العضو الفرنسى أن يتوليا المراقبة فرفضا وأضرب جميع

(١) جريدة الوطن عدد ٧٤ فى ١٢ أبريل سنة ١٨٧٩ — التيمس فى ١٩ ابريل سنة ١٨٧٩

الموظفين الاوربيين عن العمل [1] في مصالح الحكومة. وأراد شريف باشا أن يدفع كوبون مايو باعتبار الفائدة ٥ فى المائة فرفض صندوق الدين أن يتسلم شيئاً. وأرسل وزير فرنسا مسيو وادنجتون الى قنصل فرنسا العام فى القاهرة يطلب منه أن يبلغ اسماعيل أنه يعتبر عمله « نقصاً متعمدا في الرعاية الواجبة لفرنسا وانجلترا » ثم أرسل فى ٢٥ ابريل تلغرافاً آخر كان فيه أصرح منه فى تلغرافه الاول فقال [2] : « اذا استمر الخديو علي الامتناع عن الرضى بمعاونة الناظرين الاوربيين لحكومته لا يبقى أمام فرنسا وانجلترا الا أن تحتفظا بحريتهما التامة فى تقدير الحالة وفى العمل لحماية مصالح رعاياهما ثم فى البحث عن أفضل الوسائل التى تضمن لمصر حكومة صالحة » .

وكان هذا تهديداً صريحاً ولكن اسماعيل كان قد تحمل من ذل الاذعان مالم يبق معه مزيد وكان في وقت ثورة ثارتها نفسه على هذا الذل فاجاب فى ٤ مايو [3] : « بان الحالة التي صار اليها الرأى العام المصرى لا تسمح بعودة الناظرين الاوربيين الى النظارة »

وحينئذ تفاوضت فرنسا وانجلترا في ما تفعلانه وطلبتا من الدول الاخرى أن تؤازرهما فيما هما عازمتان عليه . وكان رأى بسمرك هو الذى يهمهما اكثر من غيره فسعى السير ريفرز ولسن حتى حصل عليه وأرسلت المانيا والنمسا في ١٨ مايو تحتجان علي الامر الذي أصدره اسماعيل في ٢٢ ابريل خاصاً بتسوية الديون وتخفيض فائدته ثم تلتهما روسيا وايطاليا. وبعد ذلك أى في ١١ يونيو تقدمت انجلترا وفرنسا للعمل فارسلتا احتجاجا قالتا فيه أنهما « لا تعترفان لامر ٢٢ ابريل باية قيمة قانونية » .

واذ ذاك شعر اسماعيل بان العاصفة تجمعت وستهب فاخذه الرعب وحاول أن يتقيها بان كتب شريف باشا فى ١٥ يونيو [4] الى الدول يبلغها على عجل أن الامر ألغي ، ولكن العاصفة كانت أقوى من أن يردها هذا العلاج ، وغضب انجلترا وفرنسا مما كانت تعتبرانه ثورة عليهما من اسماعيل كان أشد من أن يسكنه هذا الاذعان المتأخر ، فأرسلت الحكومة الفرنسية الى قنصلها العام فى القاهرة

---

(١) كتاب « مصر الحديثة » للورد كرومر — الجزء الاول ص ٣٠١

(٢) دي فريسينيه ص ٥٧١ الحالة الدولية لمصر والسودان ص ٨٢

(٣) دى فريسينيه ص ١٧٦

(٤) تلغراف من روتر نشر فى التيمس فى ١٦ يونيو سنة ١٨٧٩

يوم ١٨ يونيو تلغرافا قالت فيه [١] : « اننا متفقون اليوم مع الحكومة البريطانية على أن ننصح للخديو بأن ينزل عن عرشه وأن يغادر مصر . فان أطاع هذا النصح فسنعمل معاً لترتيب معاش له ولبقاء وراثة العرش لابنه توفيق » . وأرسلت يوم ٢٠ تلغرافا آخر قالت فيه [٢] : « اذا رفض الخديو أن يصغى لنصحنا فلن نتردد فى الالتجاء الى الدولة صاحبة السيادة على مصر لنطلب من السلطان عزل هذا الامير الذى أنكر واجباته انكاراً خطيراً وتعيين خلف له » . وفى الوقت نفسه أرسلت الحكومة البريطانية الى قنصلها العام فى القاهرة مثل هذه الاوامر . فتردد اسماعيل أياما، وعلم الباب العالي أن انجلترا وفرنسا لاجئتان اليه لتطلبا منه عزله وأنه سوف لا يرفض طلبهما ففضل ان يسبقهما اليه ليظهر بمظهر صاحب السلطة [٣] فأرسل في ٢٥ يونيو وقبل ان تطلب الدولتان منه شيئا تلغرافا الى اسماعيل بعزله وأرسل فى ٢٦ يونيو تلغرافا الى توفيق بتوليته مكان أبيه [٤] . وفي ٣٠ يونيو ودع اسماعيل ابنه باكيا وهو يقول له : « كن أسعد حالا من أبيك » [٥]

وعاش اسماعيل بقية حياته فى ايطاليا ثم فى الاستانة الى أن توفى فى ٣ مارس سنة ١٨٩٥ فنقلت جثته الى مصر فوصلت الى قصر رأس التين مساء يوم ١١ مارس. وفي هذا المساء نفسه كانت فرقة أوربية تمثل في مسرح الأوبرا بالقاهرة ، أى فى المسرح الذى بناه أيام مجده وملذاته ليسر به ملوك أوربا وملكاتها وهو يستقبلهم فى عاصمة ملكه ، كانت فرقة تمثل نفس الرواية التى أوصى بها فوضعت ومثلت خصيصاً في نفس المسرح : لاولئك الملوك والملكات : أريد رواية « عايدة » . فيالها كانت سخرية للقدر جاءته على يد الاوربيين الذين أعطاهم كل مافى مصر من مال وحكومة لا على يد المصريين الذين أشقاهم وأشقى معهم مصر الى زمان طويل

---

(١) دي فريسينية ص ١٧٨

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

(٤) يقول هنا مستر تيودور روتستين ان اسماعيل نزل عن العرش بمحضر من أعيان مصر ولكن هذا غير صحيح

(٥) كتاب مصر للمصريين جزء ٤ ص ٩

الحياة النيابية فى مصر

ليس من قصدى كما قلت أن أكتب تاريخاً وانما كل قصدى ان أمهد لكتاب مستر بلنت بنظرة سريعة يستعين بها القارئ على استحضار الحوادث التى تناولها هذا الكتاب أثناء تلاوته . وهذه الحوادث سلسلة واحدة عقدت حلقاتها الاولى فى عهد اسماعيل وحلقاتها الثانية فى عهد ابنه توفيق ، وقد مررنا بالحلقات الاولى فرأينا فيها اسماعيل يتسلم زمام مصر فى سنة ١٨٦٣ وليس عليها من الديون الا ثلاثة ملايين وحكومتها مستقلة لا سيطرة عليها لغير الوالى ولا يد فيها لغير أهلها فما أخرج عنها فى سنة ١٨٧٩ حتى كان دينها قريبا من ٩٩ مليونا وكانت السيطرة على حكومتها لانجلترا وفرنسا من دون خديوها وكانت اليد العاملة فيها للاوربيين من دون المصريين. والآن نصل الى الحلقات الثانية حلقات الحوادث فى سنتى ١٨٨١ و ١٨٨٢ وفيها ومن أجلها وضع هذا الكتاب فلنترك مستر بلنت يتكلم ليقول لنا ما عرفه وما جرى على يديه منها

ولكننا وقد رأينا أنه كان للحياة النيابية فى آخر أيام اسماعيل شأن مذكور نرى أن نلم هنا بطرف منها ثم بطرف آخر منها في عهد توفيق ليعرف من لم يعرف أن لهذه الحياة عروقا ذاهبة الى الاعماق فى أرض مصر وأن المصريين الذين نادوا بسلطة الامة فى سنة ١٨٧٩ ، ثم فى سنة ١٨٨٢ ، لا يمكن ان ينصرفوا عنها في سنة ١٩٢٨

من نابليون الى اسماعيل

يمكن أن يقال ان النواة الاولى للحياة النيابية فى تاريخ مصر الحديث كانت هى التى وضعها نابليون بونابرت فى يوم الخميس ٢٧ يوليه سنة ١٧٩٨ اذ طلب من العلماء والاعيان ورؤساء الفرق أن ينتخبوا من بينهم عشرة يتألف منهم « ديوان للنظر فى الامور الداخلية والفصل في الدعاوى » فوقع اختيارهم على عشرة كان منهم الشيخ عبد الرحمن الشرقاوي والشيخ خليل البكرى والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد المهدى .

كان هذا الديوان ظاهرة أولى ضئيلة من ظواهر سلطة الأمة ثم جاءت الظاهرة الثانية قوية يوم كره المصريون واليهم خورشيد باشا وسئموا مظالمه فسار علماؤهم ومشايخهم ورؤساء جنودهم الى محمد على،وكان ذلك في ٦ مايو سنة ١٨٠٥ ، وقالوا له لا نريد هذا الباشا حاكما علينا . فقال ومن تريدون اذن . قالوا لا نرضى إلا بك لما نتوسمه فيك من حب العدل والخير . قيل فتمنع محمد على ثم رضى فاحضروا له كركا وعليه قفطان وقام اليه السيد عمر والشيخ الشرقاوى فالبساه ثم بعثوا الى خورشيد باشا بذلك فقال انى مولى من قبل السلطان فلا أعزل بأمر الفلاحين ولا أنزل من القلعة الا بأمر من السلطنة . فحاصروه فى القلعة وكتبوا الى الباب العالى يطلبون تنصيب محمد على وما زالوا حتى صدر الفرمان بذلك ووصل الى القاهرة يوم ٩ يولية سنة ١٨٠٥

وبعد أن استتب الامر لمحمد على وشرع ينظم حكومته أنشأ مجلساً كان يسمى «مجلس المشورة» فما كان يقر أمراً إلا بعد عرضه عليه . وها هو ذا ما نشرته فى ذلك « الوقائع المصرية » في عددها رقم ٤٩ الصادر فى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٢٨ :

« بيان كيفية ترتيب المجلس »

«ان حضرة افندينا ولى النعم الاكرم منبع الشفقة والمراحم مابرح متفكرا فى عمار الملك والملة وفي راحة أهالى الامصار والبلاد ورفاهية الرعايا والعباد ولا يزال يتصور تحصيل أسباب الامور الخيرية ساعيا ومجتهدا في استخراج أسبابها من القوة إلى الفعل ولاجل ذلك أوصى حضرة افندينا ابراهيم باشا ولى النعم قبل أن أرسله من الاسكندرية الى مصر بان يجمع مأمورى الاقاليم المصرية العظام ومشايخ البلاد الكرام وينعقد بمجلس المشورة كل يوم ويبدي كل منهم مافى باله ويقولون مرادهم من غير تعصب وعناد أي لا يمارون بما يرون بل يقولون على وجه الحق والانصاف لينتج منها القضية الخيرية فيحصل رضاه السنى . وأمر ايضا بان يجتمع فى ذلك المجلس اشراف العلماء المصرية لكي لا يبدو انحراف عن تلك الأصول المستحسنة التى يراد تأسيسها على جادة الشريعة المطهرة فاجتهد سعادة المشار اليه بتحصيل رضا سعادته بما كان مفطورا عليه من حسن المسعى والاجتهاد حيث جمع المذكورين كلهم الى قصره بعد مضى يومين من وقت تشريفه مصر وأوضح لهم ماسمع من أبيه الاكرم من الوصايا والنصائح فلذلك انعقد المجلس فى القصر العالى فى اليوم الثالث من شهر ربيع الاول بعد العصر وسئل كل منهم عما لاح في ضميرهم وتقرر ان يضبط الوقائع ما ل ما جرى ويجرى فى ذلك المجلس »

وبقيت الحياة النيابية واقفة عند حد هذا المجلس الى أن تولى اسماعيل فأنشأ فى آخر سنة ١٨٦٦ «مجلس شورى النواب» ووضع له «لائحة أساسية» و«نظامنامة» عرفتا بلائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ (١)

---

(١) هذه «اللائحة» تشتمل كما قلنا على قانونين احدهما «اللائحة الاساسية» والثانى قانون المجلس وكان يسمى «النظامنامة» ونحن نوردهما هنا بنصهما :

اللائحة الاساسية لمجلس شورى النواب

(١) تأسيس هذا المجلس مبنى على المداولة فى المنافع الداخلية . والتصورات التى تراها الحكومة انها من خصائص المجلس يصير المذاكرة واعطاء الرأى عنها وعرض جميع ذلك للحضرة الخديوية

(٢) يجوز انتخاب من بلغ عمره ٢٥ سنة وما فوق ذلك بشرط أن يكون موصوفا بالرشد والكمال وأن يكون من الاشخاص المعلومين عند الحكومة بانه من الاهالى التابعين لها ومن أولاد الوطن

(٣) يحرم من صلاحية الانتخاب الاشخاص الذين حكم على أموالهم وأملاكهم باحكام الافلاس وتعلقت بهم حقوق للغير الا اذا أعيدت تلك الحقوق التى حرموا منها وأيضا الفقراء والمحتاجون والاشخاص الذين أعينوا على حالهم قبل الانتخاب بسنة والاشخاص الذين صار مجازاتهم باللبان والطرد بحكم

(٤) ان الاشخاص الذين انتخبون النواب يلزم أن يكونوا من الذين لم يحكم على أموالهم وأملاكهم باحكام الافلاس وتعلقت بهم حقوق للغير الا اذا أعيدت تلك الحقوق اليهم وأن لايكون سبق مجازاتهم باللبان والطرد بحكم وأن لا يكونوا من الاشخاص الداخلين سلك العسكرية تحت السلاح

(٥) المستخدمون فى الخدمات الميرية والمستخدمون فى الجهات الخارجة عن الميرى سواء كانوا من العمد والوجوه أو غيرهم وكذا الداخلون سلك العسكرية سواء كانوا تحت السلاح أو امداديين لايجوز انتخابهم ليكونوا من أعضاء المجلس وأما من رفتوا من المستخدمين بلا جنحة حسب الايجاب أو انقضت مدتهم من الامداديين فيجوز الانتخاب منهم ان كانوا حائزين الاوصاف المعتبرة المذكورة

مجلس شورى النواب

فتح هذا المجلس فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٦٦ والقي فيه اسماعيل خطاب الافتتاح فطلب من النواب أن يساعدوا الحكومة على تنفيذ الاشغال العمومية وتحديد مواعيد سنوية لجباية الاموال وغير ذلك مما تريد الحكومة أن تستشيرهم فيه . وكان

---

(٦) ان انتخاب الاعضاء من الاقاليم يلزم أن يكون على حسب التعداد فلذا لزم انتخاب واحد أو اثنين من كل قسم من أقسام المديريات بحسب كبر القسم وصغره ويصير انتخاب ثلاثة من مصر واثنين من اسكندرية وواحد من دمياط

(٧) حيث ان كل بلد عليه مشايخ معينون برغبة الاهالى فبالطبع هم المنتخبون من طرف أهالى ذلك البلد والنائبون عنهم لا نتخاب العضو المطلوب انتخابه من القسم واذا كان اولئك المشايخ حائزين الاوصاف المعتبرة المذكورة فهؤلاء المشايخ يحضرون الى المديرية ويكتب كل أحد منهم اسم من ينتخبه من القسم فى ورقة مخصوصة ويضعها مقفولة بالصندوق المعد لقسمه بالمديرية

(٨) بعد مايتم وضع الاوراق بالصناديق تفتح على يد المدير والوكيل وناظر قلم الدعاوى وقاضي المديرية فينظر اذا كانت أكثر الآراء متفقة على انتخاب واحد من القسم فيصير هو نائبا عن القسم وان تساوت الآراء فى انتخاب اثنين أوثلاثة فيقرع بينهم بحضورهم والذى تصيبه القرعة يصير نائبا عن القسم وفى كلا الحالين يؤخذ من المشايخ الحاضرين بالمديرية من البلاد ورقة باختامهم بمااستقرعليه الحال فى انتخاب اولئك النواب واما الانتخاب فى مصر واسكندرية ودمياط فيصير باتفاق أو اكثرية آراء وجوه واعيان تلك المدن

(٩) يصير تجديد انتخاب الاعضاء فى كل ثلاث سنين حسبما هو موضح بالبند السابع والثامن

(١٠) اعضاء المجلس لايزيدون عن خمسة وسبعين شخصا

(١١) لا يعقد المجلس اذا غاب من اعضائه اكثر من الثلث وان كان احد اعضائه له عذر ضروري فيلزم عرض عذره على رئيس المجلس قبل انعقاده بشهر فان قبل عذره بالمجلس فبها والا فان لم يحضر بعد اعلان عدم قبول عذره فيصير انتخاب غيره بدله من قسمه وجهته حسب اللائحة

(١٢) لا يسوغ التوكيل عن أحد الاعضاء بل هو يحضر المجلس بنفسه

اختصاص هذا المجلس ، كما يرى في المادة الاولى من لائحته الاساسية ، مقتصرا على المداولة فى « التصورات التى تراها الحكومة أنها من خصائص المجلس » ونتيجة المداولة فى هذه « التصورات » تعرض على الخديو دون أن يكون مقيداً بشيء منها . وهذا معناه أولا أن اختصاص المجلس بالنظر في مسألة من المسائل كان متروكا للحكومة

(١٣) يصير تحقيق حال كل عضو من اعضاء المجلس حين اجتماعهم بمعرفة قومسيون فان وجد مستكمل الشروط المعتبرة المحررة فى البنود السابقة يقبل والا فتلغى نيابته و ينتخب غيره من قسمه وجهته

(١٤) بعد مايصير تحقيق احوال النواب المنتخبين بالقومسيون ويوجدون حائزين الاوصاف المذكورة فى البنود السابقة فيعطى قرار عنهم بالقومسيون ويعرض منه الى رئيس المجلس ومنه ايضا الى الاعتاب الخديوية ليعطى كل واحد منهم بيورلدى يتضمن كونه منتخبا في ظرف ثلاث سنين فى شورى النواب

(١٥) حيث من المعلوم ان كل مجلس من المجالس المماثلة لهذا له حدود ونظامنامة فبالطبع حدود ونظامنامة هذا المجلس ستعطي له

(١٦) ان عقد المجلس سيكون فى هذا العام من ١٠ هاتور لغاية ١٠ طوبه واما فى السنين الآتية فيصير انعقاده من ١٥ كيهك لغاية ١٥ امشير

(١٧) لولى الامر جمع المجلس او تاخيره او تحديد مدته اوتبديل اعضائه وانتخاب غيرهم فى مدة معلومة حسبما هو موضح بهذه اللائحة

(١٨) لا يجوز قبول عرضحالات من احد ما بالمجلس

حدود ونظامنامة مجلس شوري النواب

(١) مجلس الشورى يكون بمحروسة مصر

(٢) مجلس الشورى وظيفته المداولة في المنافع الداخلية . والتصورات التى تراها الحكومة انها من خصائصه تصير المذاكرة فيها واعطاء الرأي عنها كما هو مذكور في البند الاول من اللائحة الاساسية فما تحصل المداولة فيه بمجلس الشورى فيما يتعلق بالمنافع الداخلية يرسل من طرف الرئيس الى المجلس الخصوصي ويجرى المذاكرة عنه بالاقلام والقومسيونات بمجلس الشورى حسبما يأتى بعده بما يتعلق

ان شاءت سمحت به وان شاءت منعته وثانياً أن رأيه الذي يبديه فى ما تعرضه الحكومة عليه استشاري محض

وقد أذاع بعض الاوربيين عن هذا المجلس خرافة من الخرافات التي ألفوا أن يلصقوها بالمصريين فزعم مسيو ماك كون فى كتابه « مصر كما هى » — ص ١٠٨ —

بالتصورات من البند ١٦ الى البند ٢٠ والبند ٢٣ من هذه اللائحة وبعد إعطاء التقارير عنها تنظر بمجلس الشورى ايضا كما فى البند ٢١ و ٢٢ وباتمام المذاكرة وإعطاء الرأى يعرض جميع ذلك للحضرة الخديوية

(٣) رئيس مجلس شورى النواب ووكيله ينصبان من طرف الحضرة الخديوية

(٤) افتتاح مجلس شورى النواب اما ان يكون بذات الحضرة الخديوية او من يوكل لذلك بالارادة السنية وتقرأ فيه مقالة فان كان افتتاحه بالحضرة الخديوية فقراءة المقالة بالنطق الخديوى أو من يتوكل من قراءتها متعلق بالارادة العلية وان افتتحه الوكيل فاما ان تكون المقالة من الحضرة الخديوية و يقرأها الوكيل بالافتتاح او انها تكون من الوكيل بالافتتاح وهو الذى يقرأها بموجب الامر

(٥) بعد افتتاح مجلس شورى النواب وقراءة المقالة يكون لاربابه الحق فى ان يقدموا جوابا عنها فى مدة يومين وهذا الجواب لم يكن الا من قبيل الرسوم بحيث لا يقطع فيه بشىء عن امر من الامور المقتضى نظرها بمجلس الشورى

(٦) اذا كانت المقالة من الحضرة الخديوية فبعد تحرير جوابها فى مجلس الشورى يجب تقديمه للاعتاب الكريمة بواسطة رئيس مجلس الشورى و يكون معه من كل قلم اثنان من الاعضاء بالملابس الرسمية بعد تسميتهم بمعرفة جميع الاعضاء

(٧) حيث تقرر فى البند ٢ و ٣ و ٥ من اللائحة الاساسية الاوصاف اللازمة فى حق من يحصل انتخابه لوظيفة العضوية ففى حال الانتخاب بالمديرية اذا كان المجوز لهم انتخاب النواب يعينون أشخاصا من الغير جائز تعيينهم لذلك فبالطبيعة بحسب الموضح بالبند ١٣ من اللائحة الاساسية يصير الايضاح من المديرية الى مفتش العموم عن كيفيتهم ومن طرفه يجرى تبيين ذلك بالكشف الذى يرسل لرئيس مجلس الشورى باسماء النواب الذين يعينون لاجل اجراء منطوق البند المشار اليه

(٨) من بعد افتتاح مجلس الشورى وقراءة المقالة يصير تقسيم الاعضاء الى خمسة اقلام بانتخاب نفس الاعضاء بعضهم بعضا ورؤساء الاقلام يكون انتخابهم بمعرفة

أن شريف باشا أراد يوما ان يوضح لاعضائه النظام الذى ينبغى أن يتبعوه في جلوسهم فقال ان العادة جرت فى البرلمانات الاوربية بان مجلس مؤيدو الحكومة في مقاعد اليمين ومعارضوها فى مقاعد الشمال فما كان من الاعضاء جميعا الا ان انتقلوا الى مقاعد اليمين وقالوا « نحن عبيد افندينا » . وزعم كتاب اوربيون آخرون

الاعضاء ايضا وفى الاقلام المذكورة يجرى التفحص عن المنتخبين حسب المدون بالبند ١٣ من اللائحة الاساسية بمعنى ان كل قلم يتفحص عن احوال المنتخبين الذين هم بقلم آخر واعضاء القلم الجارى فيه التفحص المذكور يصير التفحص عنهم بمعرفة قلم من الاقلام الاخرى و بعد اعطاء القرارات اللازمة عن ذلك يصير اعطاؤهم الى رئيس مجلس الشورى لعرضهم للحضرة الخديوية كما في البند ١٤ من اللائحة الاساسية .

(٩) متى تم تحقيق صحة الانتخاب لزم رئيس مجلس شورى النواب ان يعرض للحضرة الخديوية بذلك ولا ينتظر صدور الحكم بخصوص الانتخابات الموقوفة او المتنازع فيها متى كان الذين صح انتخابهم يجوز انعقاد مجلس الشورى بهم كالموضح بالبند ١١ من اللائحة الاساسية

(١٠) ترتيب اشغال مجلس الشورى يكون بالنمر بحسب ما يراه رئيسه ويكون لذلك دفتر واضح ببيان تلك الاشغال مادة مادة بغاية الاختصار وتواريخ ورودها والنمر التى وضعت عليها بالنسبة لترتيب رؤيتها وملحوظ يتاشر فيه عما يجرى فيها

(١١) من يؤمر من الذوات من طرف الحكومة بالمباحثة فى شان تصور من التصورات المعروضة للمذاكرة بمجلس شورى النواب متى طلب أن يتكلم لزم الاذن بذلك ولا يقتضي الزامه بالانتظار للنوبة حسب المقيد بدفتر النوبة

(١٢) مجلس شورى النواب له ان يجبر على الحضور بالشوري كل من لم يمنعه مانع صحيح معتبر وذلك بواسطة ترتيب عقوبات على من لم يحضر مجلس الشورى وكل رئيس قلم من الاقلام يعطى الى رئيس مجلس الشوري قائمة كل يوم صباحا بمن حضر من الاعضاء ومن لم يحضر

(١٣) اذا كان عدد مجلس الشورى فى يوم من الايام أقل من القدر الموضح عنه بالبند ١١ من اللائحة الاساسية لزم تأخير عقده الى اليوم الذي يليه وهكذا فى كل

ان الخديو اسماعيل ، وليس شريف باشا ، هو الذي حدثت معه هذه الحادثة . ولكن لا ريب في أن هذه الرواية مكذوبة لانها لا تستند الا الى دعاوى أولئك الاجانب الذين نعرف نحن الآن مبلغ ما يدعونه علينا من الكذب ، وهم يكذبون علينا بالرغم من معرفتهم ان اتصالنا بعالم المدنية وثيق وان كذبهم لا يكاد يظهر

يوم متى اتضح الحال على هذا الوجه يجب على الرئيس أن يؤخره الى اليوم الذى يليه

(١٤) اذا كان عدد مجلس الشورى فى يوم من الايام أقل من القدر الموضح عنه بالبند ١١ من اللائحة الاساسية لكن نفس الاقلام يوجد بعضهم مستوفيا بقدر الثلثين بالنسبة لاصل اعضائهم فالقلم الذى يكون بهذه الصيغة لا يصير تعطيله بل ينظر في الاشغال المحولة عليه

(١٥) الذى يامر بافتتاح كل جلسة من جلسات مجلس شورى النواب وقفلها هو الرئيس ويقتضي في كل آخر جلسة ان يعين الرئيس من بعد السؤال من الاعضاء ساعة افتتاح الجلسة التى تليها وترتيب الاشغال بالاوقات المقتضية ويعلق الترتيب المذكور فى محل مجلس الشورى وترسل صورة الترتيب فى الحال الى كاتب الديوان الخديوى ويقتضى ان يجرى الرئيس مايلزم من طرفه بوصول الاخباريات والتبليغات اللازمة اليه باوقاتها المقتضية

(١٦) التصورات التي تراها الحكومة تتلى صورتها بمجلس شورى النواب بمعرفة من ينوب لهذه المأمورية من طرف الحكومة

(١٧) بعد قراءة التصورات المذكورة فى البند ١٦ يصير طبعها وتوزيعها على الاقلام للنظر فيها باوقاتها فتبحث فيها وتعين الاقلام من مجموعها قومسيون مركبا من خمسة أعضاء يصير انتخابهم بطريقة اعطاء الرأى عنهم بالصندوق سرا وبالقومسيون المذكور ينظر فى تلك التصورات ويتحرر التقرير اللازم عنها

(١٨) اذا صدر رأى من واحد او جماعة من الاعضاء الغير داخلين بالقومسيون المذكور فى البند ١٧ من اللائحة بخصوص مادة من المواد المندرجة بالتصورات المرسلة من طرف الحكومة ولم يكن ذلك من الملحوظات المذكور عنها بالبند ٢٣ من هذه اللائحة يقتضي ان يصير تسليم ذلك الرأى الى رئيس مجلس الشورى وهو يوصله الى القومسيون المختص بالنظر في ذلك ولايجوز قبول أى رأى كان فيما يتعلق بمادة

حتى ينفضح فكيف بهم فى سنة ١٨٦٦ والصلة بين مصر وعالم المدنية مقطوعة وقد كان للمصريين فى هذا العالم أعداء طبيعيون هم المرابون والافاقيون الذين كان يسرهم أن تذاع عن الامة المصرية كل النقائص ليعاونوا اسماعيل على ضغطها بيديه فيبقى لهم الخير الذى تدره عليهم أصابعه . وسنرى فى ما يلى ان هذا

من ذلك متى تقدم التقرير فى شأنها من ذلك القومسيون الى مجلس الشورى وانما عند تلاوة ذلك التقرير بمجلس الشورى يجرى ما يلزم له من المذاكرة وأخذ الآراء حسب الوارد ببنود اللائحة من البند ٢٠ الى البند ٢٢

(١٩) كل من أورد رأيا بخصوص مادة من المواد المندرجة بتلك التصورات كما ذكر فى البند ١٨ من هذه اللائحة كان له حق التكلم فى هذا الخصوص بالقومسيون المختص بالنظر فى ذلك

(٢٠) متى تقدم التقرير الصادر من القومسيون بخصوص صورة مادة لزم ان يتلى بمجلس الشورى ويطبع ويوزع علي اعضاء مجلس الشورى قبل المذاكرة باربع وعشرين ساعة على الاقل

(٢١) تفتح المذاكرة بخصوص التقرير المذكور عنه فى البند ٢٠ من هذه اللائحة فى الوقت المعين له فى ترتيب اشغال مجلس الشورى ويقتضى افتتاح المذاكرة أولا فيما يتعلق بكل قلم أو باب منها خاصة

(٢٢) من بعد أخذ الآراء عن كل مادة خاصة من المواد المتركب منها التصورات المذكورة يجب أخذ الآراء أيضا بخصوص مجموع تلك التصورات على وجه العموم

(٢٣) اذا تراءى للقومسيون المختص بالنظر في احدى التصورات المرسلة من طرف الحكومة ملحوظات فيما يتعلق بذلك تتقدم الى رئيس مجلس الشورى وقبل تلاوتها بمجلس الشورى تبعث من طرفه للحكومة

(٢٤) المسائل التى يلزم التداول فيها بمجلس شورى النواب بواقع ترتيب اشغاله بحسب ما يستقر عليه الحال فى آخر كل جلسة كما ذكر بالبند ٢٥ من هذه اللائحة يلزم فى الجلسة الثانية ان كل مسالة منها قبل وضعها فى ديوان المداولة يؤخذ راي مجلس الشورى عن لزوم او عدم لزوم المداولة فيها وعلى واقع ما ينتهى عليه الحال في ذلك يجري العمل

(٢٥) المواد المتعلقة بالمنافع الداخلية التى يلزم التداول فيها بمجلس الشورى بواقع

المجلس نفسه أثار فى وجه الحكومة عاصفة من المعارضة ونادى ، على الرغم من ضيق اختصاصه ، بان سلطة الامة تتمثل فيه وأن من حقه أن يخضع النظار لمراقبته

ويتلخص تاريخ هذا المجلس من سنة ١٨٦٦ الى نهاية سنة ١٨٧٨ فى انه كان للحكومة نعم المرشد فى كثير من المشروعات الزراعية والصناعية وأعمال الري كما

ترتيب أشغاله كما فى البند ١٥ من هذه اللائحة يلزم ان كل مسالة منها قبل وضعها فى ميدان المذاكرة يؤخذ الرأى من مجلس الشورى عن لزوم المذاكرة فيها وقتئذ أو تاخيرها لوقت آخر او نحو ذلك

(٢٦) اذا طلب الكلام اثنان او ثلاثة من اعضاء مجلس الشورى فى آن واحد لزم أعمال القرعة المقتضية فى تقديم أحدهم على الآخرين بمعرفة رئيس مجلس الشورى

(٢٧) في حالة المكالمة بمجلس الشورى في مسالة لا يجوز افتتاح المكالمة فى مسالة أخرى

(٢٨) فى حالة المكالمة اذا تكلم احد الاعضاء فيما هو التكلم جار من اجله لا يتكلم غيره قبل اتمام كلامه

(٢٩) لا يجوز لاحد ان يتكلم فى كل مسالة بمجلس الشورى الا مرة واحدة ما لم تقض الحال على بعض الاعضاء بالتكلم غير مرة اذا احتاج الامر الى اعطاء ايضاحات او اعطاء جواب مرة ثانية بناء على طلب عضو آخر واما فى القومسيونات التى تشكل بمجلس الشورى فلكل عضو من اعضائها حق التكلم متى شاء

(٣٠) لا يجوز لاحد ان يتكلم الا اذا طلب الكلام واذن له الرئيس بذلك ولا يتكلم الا وهو فى موضعه

(٣١) اذا اراد الرئيس ان يتكلم بنفسه وجب الاصغاء اليه

(٣٢) يجب ان يكون اخذ الاراء بالصندوق فى الجهر و بطريق الا كثرية المطلقة

(٣٣) تفريغ صندوق الاراء يكون بمعرفة كاتب السر

(٣٤) لا تكون عملية اخذ الاراء صحيحة معتمدة الا اذا كان الحاضر بمجلس الشورى كما في البند ١١ من اللائحة الاساسية

(٣٥) يجب على مجلس الشورى احترام حق العدد الاقل وفى ضمن المذاكرات به يجب الاصغاء للعدد الاقل وان تسمع الملحوظات الصادرة منهم

كان في كثير من الاحيان يردد صدى الشكاوى الجة التى كان الاهالى يشكونها من فداحة الضرائب وعدم النظام فى جبايتها . ثم لما كثرت ديون اسماعيل وارتبكت بها الحكومة وأخذ النفوذ الاجنبي يسيطر على البلاد كان النواب أول المتذمرين ، وفيهم وفي الضباط وفي جماعة من الاعيان والعلماء وجدت حينذاك فكرة

---

(٣٦) اذا كان عدد الاعضاء المأخوذ رأيهم هو الاقل واما الاكثر لم يعطوا رأيا فى المادة المعروضة لزم الرئيس ان يسال باقى الاعضاء عن رأيهم

(٣٧) رئيس مجلس شورى النواب هو الذي يؤدى وظيفة الرياسة عليه فقط ان يسال ارباب مجلس الشورى عن رايهم وليس له رأى مطلقا الا فى صورة انقسام الآراء الى طرفين متساويين وأما فيما عدا ذلك من الاحوال فلا يدخل بنفسه فى رأى من جملة الآراء بمجلس الشورى وليس له أن يتدخل فى مذكرات مطلقاً

(٣٨) متى صار التصديق على صورة مادة بمجلس الشورى لزم ان تكون نسختها الاصلية مقيدة فى دفتر مخصوص لذلك ويختم عليها الرئيس والاعضاء وتتحرر نسخة اخرى عليها علامة كاتب السر وختم الرئيس وتقدم للحضرة الخديوية

(٣٩) المجيء الى مجلس الشورى يوميا والذهاب منه يكون بحسب ما يراه رئيسه باستنساب المجلس

(٤٠) اعضاء مجلس الشورى يحضرون الى المجلس بملابس الحشمة اللائقة وجلوسهم فيه يكون بهيئة الادب

(٤١) لا يجوز لاحد من اعضاء مجلس شورى النواب ان يغيب بدون اذن يصدر اليه منه وتتحرر له تذكرة رخصته من طرف الرئيس ولا يجوز له ان يحرر تذاكر رخصة الا من بعد صدور الاذن من مجلس الشورى مالم تقض الضرورة الشديدة بتحرير التذكرة على وجه العجلة وبعد تحريرها على هذه الكيفية يخبر الرئيس مجلس الشورى بذلك

(٤٢) المحاضر التى تتحرر لاثبات وقائع مجلس شورى النواب تكون مشتملة على أسماء الاعضاء الذين تكلموا بالشورى ورأى كل منهم بالاختصار

(٤٣) المحاضر المذكورة فى البند ٤٢ تقيد بدفتر مخصوص لذلك ويقرأها كاتب

تأليف الحزب الوطنى ، ومن بعضهم الفت جمعيات سرية ،وعلى السنة هذه الجمعيات وهؤلاء المتذمرين جرت لاول مرة فى تاريخ مصر الحديث كلمة : «مصر للمصريين».

وكل هذا كان كما قلنا الى ما قبل سنة ١٨٧٩ أما فى هذه السنة فلمجلس شورى النواب شأن آخر

السر فى أول مجلس الشورى المنعقد فى اليوم الذى يلى يومها ويضع الرئيس امضاءه على ذات الدفتر فى كل يوم

(٤٤) الاوامر التى تصدر من الحضرة الخديوية فيما يتعلق باحدى الخصوصيات المذكورة بالبند ١٧ من اللائحة الاساسية تتلى بمجلس الشورى في الحال ويجرى العمل على مقتضاها

(٤٥) التنبيه بارجاع ما يخرج عما يليق بحسب الاصول انما هو من وظائف الرئيس وحده

(٤٦) اذا خرج المتكلم فى مادة من المواد عن المسالة المقتضي الكلام فيها لزم الرئيس أن ينبه عليه بالرجوع اليها وعدم الخروج عنها ولا يجوز للرئيس ان ياذن بالكلام فيما يتعلق باسباب الرجوع الى المسالة المقتضي الكلام فيها

(٤٧) يؤذن بالكلام لمن خرج عن الاصول وتنبه عليه بالرجوع اليها فرجع وطلب الكلام ليعتذر ولا يؤذن بالكلام للخارج عن الاصول فى غير الصورة المذكورة

(٤٨) اذا خرج المتكلم عن الاصول وتنبه عليه بالرجوع اليها مرتين فى مسألة واحدة وطلب الكلام للاعتذار يلزم الرئيس أن يسأل أرباب مجلس الشورى عن لزوم منعه من الكلام فى بقية الجلسة فيما يتعلق بالمسألة ويقتضي أن يحكم مجلس الشورى فى هذا الامر بالاغلبية

(٤٩) اذا خرج المتكلم عن المسألة المقتضى الكلام فيها وصار ارجاعه اليها مرتين فى مسألة واحدة ثم هم بالخروج عنها مرة ثالثة لزم الرئيس أن يسال أرباب المجلس عن لزوم منعه عن الكلام فى باقى الجلسة بخصوص المسألة المتكلم فيها ويقتضى أن يحكم مجلس الشورى في هذا الامر بالاغلبية

(٥٠) اذا اقتضت الحال الى التنبيه على أحد من الاعضاء بالسكوت لكونه تكلم فى غير محله وقطع الكلام على غيره فيقتضى أن لا يؤذن له بالكلام فى بقية الجلسة

مجلس شورى النواب فى سنة ١٨٧٩

انتهت سنة ١٨٧٨ ومجلس شورى النواب فى عطلة فصدر أمر عال بدعوته للاجتماع هذا نصه :

« نحن خديو مصر

بناء على ما عرض علينا من مجلس وزرائنا نامر :

---

(٥١) لا يسوغ لاحد بمجلس الشورى أن يصدر منه مسبة لاحد ولا اشارة بالاقرار أو بعدمه على قول أحد بمجلس الشورى

(٥٢) اذا حصل من أحد الاعضاء أمر يخل بانتظام حال مجلس الشورى لزم أن ينبه عليه بالرجوع عن ذلك بالاسم من طرف الرئيس فان أصر على ذلك ولم يرجع لزم الرئيس ان يامر بقيد التنبيه عليه فى ضمن المحضر الذى يتحرر بما يقع فى مجلس الشورى فى ذلك اليوم وفى صورة ماذا أصر على عدم الرجوع عن الامر المخل بانتظام مجلس الشورى يلزم المجلس بناء على طلب الرئيس ان يحكم من غير مذاكرة باخراجه من محل مجلس الشورى بمدة لا يقتضى ان تزيد على خمسة ايام فقط ولا باس ان يامر أيضا باعلان صورة المذكور بالجهةالتى يكونا نتخاب النائب المحكوم عليه بذلك من طرفها

(٥٣) فى مدة افتتاح مجلس الشورى فى الايام المحددة له لا تعمل دعوى على احد من اعضائه بوجه من الوجوه الا ان كان لاسمح الله حصل من احد منهم مادة قتل فطبعا لا يعدمن أعضاء مجلس الشورى ويتعين بدله حسبما هو مدون فى البند ١١ من اللائحة الاساسية

(٥٤) لايجوز لاحد من اعضاء مجلس الشورى ان يطبع وينشر المقالة التىقالها بمجلس الشورى او المذاكرات التى حصلت بها من غير ترخيص رئيس المجلس بذلك له فان طبع ونشر بدون ترخيص يترتب عليه الجزاء اللازم بقرارمن قومسيون يتعين من القلم الذى هو من اعضائه

(٥٥) فى مدة العضوية اذا حصل من احد الاعضاء مايمنع لياقة وجوده عضواً بمجلس شورى النواب مما هو واضح بالبند ٢ و ٣ و ٥ من اللائحة الاساسية يسقط حقه من العضوية ويعين بدله كما فى البند ١٣ من اللائحة الاساسية

(٥٦) فى مدة دوام انفتاح مجلس الشورى في الايام المحددة له لا يقبل الاستعفاء

أولا بالتئام مجلس شورى النواب فى يوم ٢٩ ديسمبر الجارى

ثانيا بتعيين احمد رشيد باشا رئيسا على هذا المجلس . ونكلف ناظر داخليتنا بتنفيذ امرنا هذا

تحريرا بمحروسة مصر فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٧٨ اسماعيل

بأمر الخديو : رئيس مجلس النظار — نوبار

من أحد من الاعضاء وفى اوقات تعطيله اذا اراد احد منهم ان يستعفى لزم ان يقدم الاستعفاء الى رئيس المجلس ويوصله الى يد الرئيس قبل انعقاد المجلس بثلاثين يوما في الاقل وحينئذ تجري المكاتبة لجهته لاجل تسمية غيره كما في البند ١٣ من اللائحة الاساسية

(٥٧) رئيس مجلس شورى النواب هو المنوط بالضبط اللازم فى أثناء الجلسات المنعقدة وفيما يتعلق بداخل المحل المعد لاقامة المجلس

(٥٨) اذا تراءى لرئيس مجلس الشورى تاخير عقد المجلس فى يوم واحد من الايام الى اليوم الذى يليه ولو كان عدد الاعضاء مستوفيا كما كان فى البند ١١ من اللائحة الاساسية فلا مانع من تاخير عقده فى ذلك اليوم فقط ويعرض الرئيس للحضرة الخديوية عن ذلك فى الحال

(٥٩) يرسل القدر اللازم من الخفراء لجهة مجلس النواب من طرف الحكومة

(٦٠) لا يدخل جهة مجلس شورى النواب الا الاعضاء المنتخبون والاشخاص المتعلقون بمجلس الشورى ومن يرسل من طرف الحكومة بمامورية تختص باشغال الشورى وهذا يتبع اجراؤه لحد ما يصدر الامر من الحضرة الخديوية بتجويز دخول من يتصرح له بذلك بموجب التذاكر التى تعطى لهم حين ذاك من طرف رئيس مجلس الشورى

(٦١) حيث ذكر في البند ٢ و٣ و٤ و٥ من اللائحة الاساسية الاوصاف اللازمة فى حق من يحصل انتخابهم بوظيفة العضوية بمجلس شورى النواب ومن يجوز لهم انتخاب النواب ففي الانتخاب السابع يقتضي ان الذين يحصل انتخابهم للعضوية يكون لهم دراية بالقراءة والكتابة زيادة على الاوصاف المقررة فى حقهم وفى الانتخاب الحادى عشر يحتاج ان الذين يجوز لهم انتخاب النواب يكون لهم المام بالقراءة والكتابة علاوة على الاوصاف المنصوصة فى شأنهم أيضا

ولكن لما جاء يوم ٢٩ ديسمبر لم يتيسر لعدد كبير من النواب أن يحضروا فتأخر فتح المجلس الى ٢ يناير سنة ١٨٧٩ . ووصفت « الوقايع المصرية» هذا الفتح في عددها الصادر في ٢٦ يناير فقالت :

« . . . . صار افتتاح مجلس شورى النواب الساعة ٥ ونصف عربى بحضور سعادة الخديو الاكرم وبين يديه دولتلو افندم محمد توفيق باشا ولى عهده ودولتلو افندم حسن باشا ثالث انجاله ودولتلو نوبار باشا ناظر مجلس النظار وناظر الخارجية والحقانية وجناب المسيو ريفرز ولسن ناظر المالية وسعادة محمد راتب باشا ناظر الجهادية وسعادة مصطفى رياض باشا ناظر الداخلية وسعادة على مبارك باشا ناظر الاوقاف والمعارف وجناب مسيو دوبلنيير ناظر الاشغال العمومية وسعادة احمد خيرى باشا مهردار الحضرة الخديوية وتليت مقالة النطق الكريم وصورتها ادناه:

«أبدى لكم ممنونيتى من اجتماعكم بهذا المجلس واخبركم بان سبب اجتماعكم هو ان نظار حكومتى سيتذاكرون معكم فى بعض مسائل مالية واشغال داخلية فنرجو من المولى الكريم ان تتم المذاكرة فى ذلك على احسن حال والله الموفق للصواب »

وكان الرأى العام يعلق آمالا كبيرة على هذا المجلس وكان يريد منه أن يخرج عن الطوق الضيق الذى حدد فيه اختصاصه فكتبت جريدة الوطن فى عددها الصادر فى ٤ يناير تقول : « ان الآمال جميعها متعلقة بان المجلس المذكور يحذو في هذه المرة حذو مجالس أوربا فى استعمال حرية الافكار في جميع مناظراته ومداولاته فان ذلك هو السبب الاقوى للعمران المشاهد في عموم أوربا للعيان »

وفى يوم الافتتاح ألف المجلس لجنة منه للرد على « مقالة » الخديو ثم وضعت اللجنة الرد ووافق المجلس عليه وقدمه وفد للخديو يوم ٦ يناير في قصر عابدين بحضور جمع من الامراء والنظار والكبراء . وفي هذا الرد جهر المجلس بأن «النواب هم وكلاء الامة والمدافعون عن حقوقها » ثم جهر بمعنى آخر كان يعتبر جريئاً فى ذلك الوقت وهو أن مجلس النظار مسئول أمام الامة ومتمم لمجلس النواب . وها هو الرد ننقله بنصه عن جريدة الوطن الصادرة في ١١ يناير سنة ١٨٧٩ :

« نحن نواب الامة المصرية ووكلاؤها المدافعون عن حقوقها الطالبون لمصلحتها التي هي في نفس الامر مصلحة الحكومة نرفع الى مقام الحضرة الخديوية الفخيمة الشكر الجميل حيث عنيت بتشكيل مجلس شورى النواب الذى هو اساس المدنية والنظام وعليه مدار العمران وهو السبب الموجب لنوال الحرية التى هى منبع التقدم والترقي وهو الباعث الحقيق على بث المساواة فى الحقوق التى هى جوهر العدل وروح الانصاف .

« ونكرر الشكر لهذه الحضرة الجليلة حيث شكلت مجلس وزراء جملته مسئولا كافلا أمام الامة تاييدا لمجلس النواب وتتميما له . ولذلك حينما تعلقت ارادتها السامية بان ينظر الوزراء فى أمور المالية والاشغال الداخلية دعت نواب الامة ليتداولوا معهم في ذلك حفظا لحقوق الرعية ومصلحة الحكومة »

ثم استمر الرد فذكر ان ما جاء فى « مقالة » الخديو من أن المقصود باجتماع المجلس هو المداولة مع النظار فى المسائل المتعلقة بالمالية والاشغال والداخلية بعث فى النواب « روح العصر الجديد وأحيا آمال الامة »

وهذا كله يدل على أن المجلس كان يستقبل في تلك السنة روحا قوية في البلاد هى روح الالم مما وصلت اليه الحال على يد اسماعيل والرغبة فى أن تتولى الامة أمرها بيدها لتدرأ الخطر عن نفسها . فلننظر ماذا فعل بعد ذلك وكيف كان مسلكه بازاء الحكومة

كان الوقت وقت النظارة الاوربية ، ونحب أن يلاحظ القارىء أن الوقت كان أيضاً وقت رضا اسماعيل بالنظارة الاوربية لانه لم يثر عليها الا فى ابريل ونحن الآن فى يناير ، فلما عقد المجلس جلساته الاولى بدأ فأخذ على النظار أنهم لا يحضرون اجتماعاته ولا يقدمون اليه المسائل ذات الاهمية . وعلم النظار بهذا الانتقاد فخضع له ناظر الاشغال مسيو دي بلنيير فجاء وتناقش مع المجلس وسمع ملاحظاته أكثر من مرة واقتنع بما سمعه من جوابه . أما رئيس النظار نوبار باشا وناظر المالية السير ريفرز ولسن فقد كان لكل منهما موقف يستحق أن يذكر على حدة .

ونبدأ بناظر المالية فنقول إنه كتب الى المجلس يطلب منه أن ينتخب بعض اعضائه

ليذهبوا اليه فى وزارة المالية (١) ويتداولوا معه في بعض المسائل فرفض المجلس وقال ان رأيه لا ينحصر في فريق منه ولكنه قبل مع ذلك أن ينتدب خمسة أو ستة منه على شرط أن تكون كل مهمتهم سماع ما يريد الناظر تبليغهم إياه وان يعودوا الى المجلس ليعرضوا عليه ما سمعوه . ولا ريب في أن هذا كان خطأ من المجلس لان النواب ليسوا سعاة بريد ولأن على كل ناظر أن يتقدم بنفسه بما لديه ، ولكن لعل المجلس ظن أنه بذلك يبعد عن نفسه تهمة التعصب على النظارة الاوربية والناظر الاوربي وقد كانت هذه التهمة دائرة في ذلك الوقت على لسان كل طاعن فى المصريين

على أن ناظر المالية استمر بعد هذا ممتنعا عن أن يقدم شيئا فاستعجله المجلس

---

(١) ننقل هنا من محضر جلسة المجلس فى يوم ١٦ محرم سنة ١٢٩٦ — ٩ يناير سنة ١٨٧٩ ما يأتى بنصه :

« سعادة رئيس المجلس اخبر بانه وردت افادة من ناظر المالية صورتها : « من حيث اننا نريد المكالمة مع ارباب شورى النواب فى مسائل مهمة تتعلق بامور مالية الحكومة والاسترشاد من معلوماتهم وتجاربهم المحلية فمنظور انه اذا امكن المداولة مع بعض من حضرات الاعضاء الذين يصير انتخابهم بمعرفة المجلس ويحضرون المالية يكون ذلك مناسبا لظروف الاحوال ويتاتى منه تسهيلات لماموريتنا. فالرجاء تبليغ ذلك للمجلس والترجى منه بالقبول حسب ما يقتضيه الحال »

«ومحمود بك العطار قال المجلس لا ينحصر رأيه فى بعض الاعضاء بل لا بد من المذاكرة بحضور جميع الاعضاء . وانما من حيث ان سعادة ناظر المالية طالب بعض ارباب المجلس للاسترشاد فلا باس من تعيين قدر خمسة او ستة منهم بحيث ان لا يكون لهم راى ولا قول فى اي مسألة كانت وانما ما هو لازم الاستفهام عنه يصير تبليغه لهم ويحضر معهم مكاتبة للمجلس بالكيفية وعندها ينظر ويعطى القول اللازم

« استقر راى المجلس على ذلك وان الذين يتوجهون هم.....الخ»

فلم يرد عليه فاضطر المجلس أن يجهر بذلك في جلسة ١٩ يناير [١] وأن يعود فيكتب استعجالا ثانيا . ثم مضت ثلاثة أيام أخرى وناظر المالية لايزال ساكتا فلما انعقد المجلس في ٢٢ يناير شكا اعضاؤه بلسان مر من هذا السكوت [٢] ثم جددوا الا أن يبدوا مالديهم من الملاحقات على الشؤون المالية

وهل تظن ان المتغطرس ريفرز ولسن أصغى بعد ذلك لهذه الشكوى ؟ كلا لم يصغ اليها وكأنه لم يشعر بها ولا بوجود المجلس . ولو أنه كان موظفاً مصريا لا يستند في منصبه الا الي سلطة الحكومة المصرية ما استطاع أن ينكر المجلس هذا الانكار

---

(١) ننقل هنا من محضر الجلسة فى يوم ٢٦ محرم سنة ١٢٩٦ — ١٩ يناير سنة ١٨٧٩ ما يأتي بنصه :

« عبد السلام بك المويلحى — قال حيث افتتاح المجلس كان اصل مبناه كما هو من مقتضى المقالة الخديوية النظر فى مسائل مالية واشغال داخلية وتقدم تقرير بالمجلس عن لزوم حضور ذلك وقد حضرت افادة من الداخلية عن مسائل لاشغال وحصل الوعد عن حضور مسائل المالية . ولما لم يحضر تحرر استعجال وللآن لم تأت والمجلس لم يزل فى الانتظار . وقبل افتتاح المجلس معلوم عند سعادة ناظر المالية اهمية المسائل المقتضى تقديمها للمجلس وها هو لحد الآن ماورد منها شيء فان وافق يكون استعجال حضورها — استقر الراى على ذلك »

(٢) ننقل من محضر جلسة ٢٩ محرم — ٢٢ يناير ما يأتى بنصه :

« تقدم انهاء من حنا افندى يوسف والشيخ عثمان الهرميل والسيد احمد السرسي وبخوم افندى لطف الله واحمد أغا عبدالصادق والشيخ فضل الزمر ويوسف افندي رزق وعبد الشهيد افندى بطرس والشيخ خضر ابراهيم والشيخ حسن عبد الله والشيخ احمد جاد الله والشيخ محمود عبد الله والشيخ ابراهيم الجيار والسيد اللوزى والسيد سليمان الغربي والشيخ محمد فرج ومحمود بك العطار . صار تلاوته وصورته أدناه:

« مبنى افتتاح المجلس انما هو عن رؤية مسائل مالية واشغال داخلية حسب المنصوص في المقالة الخديوية التى تليت يوم الافتتاح وقد صار الانتظار لورود مسائل المالية ومع تحرير الاستعجالات عنها المرة بعد المرة ما كانت ترد . وقد مضى على المجلس من يوم افتتاحه لحد تاريخه نحو العشرين يوما وقد سبق القول بالمجلس ان بعض حضرات الاعضاء عندهم ملحوظات يرغبون ابداءها لكن منتظرون ورود تلك المسائل وحيث انها ما وردت فقد ألجأت الضرورة لان نوضح ما عندنا من الملحوظات ....الخ »

ولكنه كان موظفا انجليزيا يستند في منصبه الي انتداب حكومته من جهة والى السلطة التى كان الدائنون قد كسبوها فى داخل الحكومة المصرية من جهة أخري فكان سهلا عليه أن يحتقر المصريين مادام مستطيعاً أن يبتز منهم الاموال بقوة الكرباج للدائنين.
ومن هنا نفهم انه حينما طلب من اسماعيل أن ينزل عن السلطة لمجلس نظاره لم يكن يريد ايجاد حكومة مسئولة وانما كان يريد ايجاد حكومة يمكن أن يدخلها ويكون صاحب السلطة المطلقة فيها

وبقيت الحال كذلك عدة أيام وكان المجلس قد بعث بالملاحظات التى أبداها بعض أعضائه على الشؤون المالية الى الحكومة كي يرد عليها ناظر المالية فانقضت أسابيع ولم يرد الناظر ثم اجتمع المجلس فى ٩ مارس فقدم ٤٩ عضواً من اعضائه احتجاجا على الناظر (١) بينوا فيه مسلك العنت الذى يسلكه وشرحوا الضنك الذى

---

(١) ننقل من محضر جلسة ٢٦ ربيع الاول — ٩ مارس ما يأتى :
« تقدم انهاء من تسعة وأربعين من الاعضاء وصار تلاوته وصورته ادناه :
«لا يخفى ان مبنى افتتاح مجلس النواب فى هذا العام كان من اجل النظر فى مسائل مالية واشغال داخلية لما ان ذلك من مقتضى المقالة الكريمة التى تليت يوم افتتاحه وقد حضرت للمجلس مسائل تتعلق بالعمليات ونظر فيها وتحررت الملحوظات اللازمة عنها وبعثت للداخلية واما المسائل المالية فمع طلبها مراراً وعدم حضورها ومعلوميتنا بما هو حاصل للاهالى من الضنك والمشقة وعدم امكان القيام بوفاء المربوط فتقدم البيان عن التضرر الحاصل من اقلام الايرادات والمجلس التمس حضور سعادة ناظر المالية للمذاكرة معه فى هذا الخصوص ولما لم يحضر كتبت الملحوظات المقتضية وارسلت للداخلية وما كان يرد عنها مجاوبة للآن . وبما ان حقيقة حال الاهالى وما هم عليه من درجات العسر والمشقة معلوم عندنا كما يجب ويلزمنا ايضاح ما هو متراء لنا فى خصوصها بالنسبة لكوننا نوابا عنهم ولا شك فى ان ثقل الاحمال التى كلفوا بها هو الذى صيرهم الى عدم امكان الوفاء بتلك المطاليب....... وحيث قد مضى من وقت افتتاح المجلس لحد تاريخه زيادة عن سبعين يوما اى اكثر من المدة المقررة للائحة وما كانت تحضر المسائل المالية اللازم النظر فيها ولا المجاوبة عن الملحوظات التى تقدمت من المجلس.........فقد التزمنا ايضاح الكيفية بالتفصيل وبينا ما هم عليه الاهالى كما هو من واجبات وظائفنا حتى لا يبقى علينا ادنى ملامة فى المستقبل — المجلس وافق على هذا الانهاء وقرر ارساله الى نظارة الداخلية »

تعانيه البلاد وأشهدوا الامة على أنهم فعلوا واجبهم فلم تبق عليهم ملامة . وعند هذا الحد من النزاع نقف موقتاً لننتقل الي النزاع الثانى الذي قام بين المجلس ونوبار باشا وسترى بعد ذلك كيف انتهى النزاعان

لاحظ اثنان من النواب هما محمود بك العطار وعبد السلام بك المويلحى أن أمراً عاليا صدر فى ٦ يناير — أى بعد افتتاح المجلس بأربعة أيام — ونشر فى عدد ١٦ فبراير من الوقائع المصرية وفيه أن للجنة التحقيق التي عينت لفحص مالية مصر ولمجلس النظار أن يضعا لوائح وقوانين يصدق عليها الخديو ويصدرها بغير أن تعرض على مجلس شورى النواب فاحتجا على ذلك أمام المجلس فأقر المجلس احتجاجهما وطلب حضور نوبار باشا ليستجوبه فى هذا الموضوع . وكانت وقفة المجلس فى ذلك اليوم ، يوم أول فبراير وقبل أن يفكر اسماعيل فى الثورة على النظارة الاوربية بأكثر من شهرين ، وقفة تذكر فى تاريخه وتاريخ الحياة النيابية في مصر ولهذا ننقل من محضر اجتماعه ما يأتي بنصه :

« قال الرئيس تقدم انهاء من حضرتي محمود بك العطار وعبد السلام بك وصار تلاوته وصورته أدناه :

رأينا فى العدد ٧٩٣ من الوقايع المصرية دكريتو مبنى على ماعرضه رئيس مجلس النظار على الحضرة الخديوية ونصه :

بناء على التقرير الذى عرض علينا من رئيس مجلس النظار وبناء على رأى مجلس النظار الموافق ذلك التقرير أصدرنا أمرنا هذا .

أولا أن قومسيون التحقيق الاعلى مكلف بوضع لوايح وقوانين لجميع المواد التى اشتغل فيها وبعد نظرها فى مجلس النظار واستصوابها يرفعها الينا للتصديق عليها ان دعت الحاجة الى ذلك

ثانيا انه من ابتداء التاريخ الذى يعين بعد لايصير تحصيل أموال ولا اجراء أى أمر يختص بعموم الادارة الا بعد صدور قانون من مجلس نظارنا مصدق عليه منا ومنشور فى الصحيفة الرسمية . وقد وكلنا رئيس مجلس النظار بتنفيذ هذا الدكريتو . حرر فى ٦ يناير سنة ١٨٧٩

ولم نر لمجلس النواب فى هذا الدكريتو اسما ولا خبرا مع أن سائر ما يختص بالادارة العمومية من تحصيل أموال وضرب ضرائب ووضع لوائح أو قوانين

لذلك وما كان من هذا القبيل انما يقصد به الاهالى لاغير وكل ما يقصد به الاهالى لا بد أولا من عرضه عليهم ورضاهم به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به.

وحيث انهم انابونا عن أنفسهم نوابا منهم منوطين بالمدافعة عنهم والمحاماة عن حقوقهم والنظر في شئونهم بعين المصلحة فمن الواجب أن يعرض جميع ما يتعلق بهؤلاء الاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه . وذلك لايخفى على دولة رئيس مجلس النظار . وكيف يخفى عليه ان للامة المصرية نوابا وهو يعلم دعوتهم للالتئام وقد شهد يوم اجتماع المجلس وحضر افتتاحه وسمع تلاوة الخطاب الخديوى في أعضائه وحضر يوم اجابة الاعضاء على ذلك الخطاب و وقف على مضمون كل من الخطاب وجوابه وعلم ما فوض اليهم أمر المذاكرة فيه . ومن ثم قد أخذنا العجب وذهب منا الاسف كل مذهب ولا شك فى أنكم معشر النواب قد أخذكم من العجب والاسف ما أخذنا وكيف لا وان مثل دولة رئيس مجلس النظار لا يجهل حقوق مجلس النواب ومقدار احترامها كما لاينكر ان موضوع الدكريتو المحكى عنه ، هو من حقوق ذلك المجلس المقدسة التى لايصح انتهاكها ولذلك كانت الحضرة الخديوية من عهد تشكيل مجلس النواب لا تبرم غالب الامور المهمة التى تكون من هذا القبيل الا بعد أن تعرض على أعضائه ولا يقضى فيها الا بعد اقرارهم على وضعها مع أن تلك الحضرة هى التى منحت الامة تشكيل هذا المجلس . واذا كانت حقوقه محفوظة في الجملة حيث لم تكن ثم وزارة قائمة على دعائم الحرية مكلفة بأمر الاصلاح ومسئولة عنه فكيف تضيع تلك الحقوق فى عهد تؤمل الامة فيه نوال نوابها كمال حريتهم وغاية حقوقهم علما بأن تلك الوزارة أدرى بشئون البرلمنتو وأعرف بمقداره ـ اهـ

قرر المجلس المداولة فى ذلك وارسال صورة منه الى رئيس مجلس النظار ومطالبة رئيس النظار بالحضور لكي تكون المداولة بحضوره »

فنظن ان كل مطلع على هذا المحضر يوافقنا على أن قول المجلس ان « كل ما يقصد به الاهالى لابد اولا من عرضه عليهم ورضاهم به عن طيب خاطر منهم قبل وضعه وتكليفهم به » وقوله ان « من الواجب أن يعرض جميع مايتعلق بهؤلاء الاهالى على نوابهم لينظروا فيه ويتدبروه » كانا تعبيرا صحيحا عن المطالبة بسلطة الامة وحق نوابها فى التشريع .

وفي ٤ فبراير اجتمع المجلس وحضر نوبار باشا فابتدأ بأن قال انه « يقدم المجلس الاحترامات الفائقة » فقابل المجلس هذه الاحترامات بالشكر ثم تلى تقرير محمود بك العطار وعبد السلام بك المويلحي وطلب من نوبار باشا أن يجيب عليه فقال ما ننقله هنا عن المحضر بنصه وهو :

« المسألة التى قالوا عنها انما هى مسألة أساسية ولو كانت من خصائص الداخلية او المالية او الحقانية او الاشغال كان من الممكن ان اجاوب عنها انا ورفقائى لكن ارجو قبول عذري فى عدم المجاوبة عنها الآن وهذا بالنظر لكونها مسالة اساسية تحتاج للمذاكرة والمشاورة فيها بمجلس النظار والعرض عنها للاعتاب السنية »

فرد عبد السلام بك ومحمود بك العطار بانهما يوافقان رئيس النظار على ان المسألة اساسية ولكنهما يقولان ان هذه الاساسية نفسها هى الموجب لان يكون النظر فيها من حقوق المجلس . ثم قالا وقال المجلس معهما « ان كل مملكة وكل حكومة تقدمت كان اساسها اشتراك النواب فى امثال ذلك » وان « المرجو هو استحصال المجلس على حقوقه » . فلم يجب نوبار باشا بغير أن كرر قوله السابق ثم لجأ بسرعة الى احدى حيله التى اشتهر بها فطلب من النواب أن يشتركوا معه فى اختيار « الموظفين المستقيمى السير » لاصلاح الادارة المصرية ! ! ورجا منهم ان يأتوا اليه فى ديوانه لهذا الغرض ! !

ولم يعد نوبار بعد ذلك الى المجلس بالجواب الذى وعد به ولكن مجلس النظار اجتمع في النصف الاخير من مارس وقرر فض المجلس بدعوى ان مدته انتهت واستصدر من الخديو امراً هذا نصه :

« بناء على ماحواه البند التاسع من مجلس شورى النواب من ان مدة توكيلهم عن الاهالى تكون ثلاث سنوات وماعرض علينا من مجلس النظار من ان المدة قد انقضت أصدرنا أمرنا بانفضاض المجلس وكلفنا ناظر داخليتنا بتنفيذ ذلك فى ٢٦ مارس سنة ١٨٧٩ . »

فكان هذا الامر جواب النظارة على النزاعين اللذين قاما بين رئيسها وناظر ماليتها من جانب والمجلس من جانب آخر ، كما كان دليلا على ان النظارة الاوربية كانت تريد ان تخلص بهذه الطريقة من مراقبة المجلس ومن الروح القوية التي كانت تراها فيه . ولكنها لم تخلص وما كان الامر الذى استصدرته بفض المجلس

الا سيما لازدياد السخط في البلاد واذ ذاك شعر المجلس بان من حوله قوة كبيرة من الرأى العام تؤيده وتطلب منه المقاومة فقاوم وكان لذلك يوم جليل مشهود

يوم كيوم ميرابو

ذهب رياض باشا ، وكان وزيراً للداخليـة ، الى المجلس وفي يده أمر الفض فتلاه على الاعضاء وهو معتقد أنهم جميعا سيقابلونه بالسمع والطاعة وأنهم قد يتذمرون ولكنهم سيكظمون تذمرهم فى أعماق قلوبهم وسينصرفون . كان هذا هو الذي يعتقده ، فلشدّ ما دهش اذ رأى بعد الفراغ من التلاوة، أن الاعضاء ما زالوا في أماكنهم وأن واحداً منهم هو عبد السلام المويلحي بك وقف وقال في قوة وغضب ان ما تقوله الحكومة من ان مدة توكيل المجلس قد انتهت غير صحيح لان المدة لم تنته بعد ولهذا سيبقى المجلس فى مكانه وسيوالي اجتماعاته حتى يؤدى واجبه نحو الامة . وقام عضو آخر [1] وقال ان هذا رأينا جميعا فاجاب كل الاعضاء بالايجاب . وخرج رياض باشا كما جاء فلم يحمل الى النظارة خبر انفضاض المجلس وانما حمل خبر تمسكه بحقه وثورته عليها . ويحسن هنا أن نترك الكلام لجريدة « الوطن »[2] فقد قالت في عددها الصادر في ٥ ابريل سنة ١٨٧٩ :

« بعد ان تكلمنا مراراً كثيرة عن مجلس النواب وأصل وضعه وحقوقه وواجبات الامة نحوه وذلك فى وقت انعقاد مجلس شورى النواب المصرى شغلتنا عن ذكر مآثره شواغل الايام والآن نقول ان حضرة عطوفتلو رياض باشا حضر أمام المجلس وأخبرهم بلسان حضرة الخديو بانفضاضه وان الحكومة متشكرة لهم على ما أبدوه من المساعى اى النظر فى الاحوال والدعاوى فقام حضرة من اشتهر

---

(١) لم نعثر مع الاسف الشديد على محضر اجتماع هذه الجلسة ولكننا عثرنا على ما كتبتة عنها جريدتا الوطن والتيمس فى ذلك العهد . ولم نجد فى الجريدتين اسم هذا العضو ولكن حضرة يوسف بك المويلحى اطلعنا على مذكرات عنـده تقول انه حسن بك عبد الرازق

(٢) كان مدير جريدة الوطن ورئيس تحريرها فى ذلك الوقت ميخائيل افندى عبد السيد وكان يؤيد الحركة الوطنية تأييداً صادقا

بالفصاحة والبلاغة والمدافعة عن حقوق ابناء وطنه عزتلو عبد السلام بك المويلحى و بين بلسانه العضب و بيانه العذب بانه لا معنى لتشكرات الحكومة فانهم لم يبدوا مأثرة تنشر ولم يفعلوا شيئا مطلقا يذكر وان المجلس يستمر على انعقاده.فقام عضو آخر وقال ان هذا الحكم هو اعراب عن افكارنا ومطابق مطابقة تامة لا نظارنا فاجاب جميع الاعضاء بالايجاب وقالوا له بصوت واحد ان هذا لهو الصواب فان الارتباكات المالية والمشاكل السياسية تستلزم استشارة امثالهم كما هو حاصل في الممالك الثانوية والاولية فانه اذا وقعت أية دولة فى ارتباكات ومشاكل وعقد مدلهمة وشواغل استعانت باستشارة نواب الامة . فاستغرب سعادة ناظر الداخلية من هذه الشهامة والهمة وتطلبهم لحقوقهم المهمة وأخبرهم بانه سيعرض هذه القضية على الحضرة الخديوية وعلى مجلس الوزراء.فاجتمع النواب وحرروا خطابا للناظر الداخلية بينوا فيه بعض الاسباب الموجبة عدم انفضاض المجلس فذكروا انهم لغاية الآن لم يعرفوا ما استقر عليه مجلس الوزراء من جهة الترتيبات وغيرها مع ان وظيفتهم تستلزم الاطلاع على هذه الامور وتقتضي بذل السعي المبرور للم الشعث وضم المنثور وهذا الامر مناسب جداً فانهم لم يأتوا شيئا إذا وإلا اذا سافروا الى نواحيهم وسألهم بعض منتخبيهم عما فعلوه فبأى شيء يجيبونهم .ألا يبتدرونهم قائلين قد رجعتم بخفي حنين بل انتم السبب فى تجريعنا كاس الحين

ثم ختموا جوابهم باقامة الحجة على منع حرية المطبوعات الاهلية .ويقال انه قد اجتمعت جمعية من العلماء وانابت واحدا منهم ليخبر مجلس النواب بانهم مؤيدوهم فى مطلوبهم مساعدوهم على مرغوبهم وانه يجب على كل منهم ان يكتب لاهل ناحيته لتسكين خاطرهم واخماد جاشهم الذى جاش عند بلوغهم بانفضاض المجلس . فهذه هى احوال مجلس النواب فى الوقت الحاضر . ويستفاد من خطابهم الذى حرروه انهم لم يشتغلوا لغاية الان الا بأمور جزئية وانهم لم يميطوا بعد اللثام عن الامور الكلية فلم ينظروا في الميزانية مع انكشافها للبعض ولم يطلعوا بعد على التقرير الذى حرره ناظر المالية وارسله لجميع القناصل وبلاد أوربا ولم يعرفوا الضرائب وغيرها . وبالاختصار انهم لم يطلعوا على الترتيبات الجديدة والنظامات العديدة ومعلوماتهم بهذه الامور لم تخرج عن حد الحدس والتخمين . وزد على ذلك انهم لم يسنوا لانفسهم قانونا ليكون المجلس آلة قوية فى الاصلاح كما حصل فى امارة البلغار »

ونشرت التيمس لمراسلها في القاهرة في ١٦ أبريل ما يأتي :

« ان أعضاء مجلس شورى النواب اظهروا ادلة كثيرة على حياتهم واستقلالهم، وليس آخر هذه الادلة اقلها شأنا فقد ذهب رياض باشا ناظر الداخلية منذ أيام الى المجلس ليعلن رسميا انتهاء دور انعقاده فخطب النواب خطبة لطيفة رقيقة نوه فيها بخدماتهم واشار الى انتهاء واجباتهم كلها. ولكن رياضا لم يحذ حذو اوليفر كرومويل وأبى المجلس ان يرفض وقام أحد النواب خطيبا فرفض تحية رياض الختامية وصرح بالنيابة عن بقية النواب بان النواب على عكس ماقال رياض باشا لم يفعلوا شيئا وان أمامهم عملا كبيرا هو مراقبة الوزراء وانهم من أجل ذلك يابون الارفضاض. وأيد الخطيب زملاؤه كلهم كما أيد الاعيان في ملعب التنس بفرساى خطيبهم ميرابو في احد المواقف المشهورة . وعلى ذلك لايزال مجلس شورى النواب المصرى يعقد اجتماعاته وهو الآن يتشدد في وجوب خضوع النظار الاجانب والمصريين لارادته وصيرورتهم مسئولين أمامه عن تصرفهم في أعمالهم . فالنواب في الواقع ينوون تحويل الحكومة المسئولة اسما الى حكومة مسئولة فعلا »

نحو مجلس تسأل الوزارة أمامه

لم يكد خبر هذا الموقف الذى وقفه مجلس شورى النواب يصل الى الجمهور حتى تحركت في النفوس كوامن الآلام والآمال وانتعشت بان وجدت قائداً يقودها وصوتاً ينادى بما يختلج فيها . وكانت فكرة « مصر للمصريين » قد انتشرت وكانت جمعيات سرية وغير سرية قد ألفت، ثم كانت الفكرة الوطنية قد نمت حتى شملت كما تقدم اسماعيل صديق باشا قبل قتله، وكانت دروس السيد جمال الدين الافغاني قد أنبتت في شيوخ الازهر روحا تتمرد على الفساد وتنادي بالاصلاح ، فالتأم كل ذلك مع ثورة المجلس على نظام الارهاق فكان أن اخذت البلاد كلها تغلى بثورة فكرية هي ثورة المقيد المعذب يريد ان يكسر قيده ليخلص من عذابه

ومامن شك فى أن الخديو اسماعيل باشا كان ينظر الى هذه الحركة بعين الارتياح لانه رأى فيها بابا لاستعادة سلطته والخلاص من اغلال النظارة الاوربية . ويغلب على الظن انه وقد قوي فى نفسه هذا الامل وصحت عزيمته على تحقيقه أراد أن

يوجه الحركة الى الطريق التي يريدها فأوعز الى بعض الوزراء السابقين بان يندمجوا فيها ويتولوا قيادتها . فكان ان عقد اجتماع [1] فى أوائل ابريل فى بيت اسماعيل راغب باشا حضره شريف باشا وشاهين باشا وحسن راسم باشا وجعفر باشا وخيرى باشا والسيد البكرى والشيخ الخلفاوى والشيخ العدوي واتفقوا على كتابة عريضة يطلبون فيها أن تكون النظارة وطنية وأن يعاد نظام المراقبة الثنائية وأن تكون الوزارة مسئولة أمام مجلس النواب . فكتبت العريضة ووقعها الحاضرون جميعا ووقعها معهم بطريرك الاقباط وحاخام الاسرائيليين وسبعون من العلماء وستون من الباشوات وستون من البكوات وأربعون من الاعيان وعدد عظيم من ضباط الجيش . وقد تقدم ذكر هذه العريضة كما تقدم أن الخديو اسماعيل باشا اعتمد عليها فى استدعائه قناصل الدول مساء ٧ ابريل وأبلاغهم انه كلف شريف باشا تأليف وزارة وطنية مسئولة أمام مجلس النواب .

المجلس فى وزارة شريف باشا

وفى الواقع ان الخديوي كان قد أصدر الى شريف باشا فى اليوم نفسه وقبل أن يستدعي القناصل أمرا نذكره هنا بنصه لاهميته وهو :

« اني بصفة كوني رئيس الحكومة ومصريا أرى من الواجب على ان اتبع رأى الامة وأقوم باداء ما يليق بها من جميع الاوجه الشرعية لكنى لما نظرت السير الذى كانت عليه النظارة السابقة حصل لى غاية الاسف من ان ذلك السير كان على غير رضا الملة والاهالى حتى نشأ عنه اضطراب ونفور سرى فى جميع القلوب وحركها وكانت قبل ذلك في غاية الهدوء والسكون . وطالما اخبرت النظار ووكلاء الدول ونبهتهم على تلك الملحوظات فلم يتيقظوا لها ولم يلتفتوا اليها . وزيادة على ذلك فان النتيجة التى حررها ناظر المالية واظهر بها ان القطر في حالة العدم (٢) وابطل العمل بمقتضى القوانين المعتبرة وتجارى فيها على الحقوق الثابتة كانت سببا لتغيير قلوب

(١) جريدة الوطن بتاريخ ١٢ ابريل سنة ١٨٧٩

(٢) تقدم ان السير رفرز ولسن اعلن تأجيل كوبون شهر ابريل فكان هذا بمثابة اعلان لافلاس الحكومة المصرية

الامة ونفورها من هيئة النظارة كل النفور . وحقق لى ذلك المحضر الذى تقدم لى في هذا الخصوص (٢) . فاجابة لما عرض على بذلك وبالنظر لثبوته عندى قدوكلتكم بتشكيل هيئة النظارة بناء على الارادة الصادرة فى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٧٨ وان تكون تلك النظارة مشكلة من اعضاء أهليين مصريين يتبعون في سيرهم الطرق المنصوص عليها فى الادارة المذكورة وان يتحفظوا على مأموريتهم كل التحفظ اذ أنهم مكلفون بالمسئولية لدى مجلس الامة الذى سيجرى انتخابه وتعيين ماموريته بوجه كاف للقيام بتادية مايلزم للحالة الداخلية ومرغوب الامة نفسها »

هذا هو الامر الذى أصدره اسماعيل الى شريف باشا ومن السهل أن يري فيه كل انسان ان اسماعيل تعمد ان يلقي المسئولية فى جميع المصائب التى حلت بالبلاد فى عهده على النظارة الاوربية ليكتسب ميل الامة . وكل من يقرأ تاريخ تلك الايام يري انه كان يحضر اجتماعات وحفلات تقام في بيت البكري وغيره ثم يقف فيها بين الناس فيدعو بالخير للامة ويقرأ الفواتح لاولياء الله كأنه زعيم وطني ورئيس دينى، ولكننا نمر بهذا لاننا لاننظر فيه بل فى شىء آخرهو الحياة النيابية .والمهم لدينا الآن ان هذا الامر نص على تأليف وزارة يكون اعضاؤها « مكلفين بالمسئولية لدى مجلس الامة الذى سيجرى انتخابه » ، وتلك هي اول مرة ألفت فيها وزارة على هذا الاساس .

وبعد اربعة ايام من تأليف وزارة شريف باشا اى فى ١٠ ابريل سنة ١٨٧٩ (١٨ ربيع آخر سنة ١٢٩٦) اجتمع مجلس شوري النواب فتلا عليه رئيسه خطابا جاءه من وزارة الداخلية هذا نصه[٢] :

« ولو انه كان تقرر بمجلس النظار السابق عن انفضاض مجلس شورى النواب لانقضاء مدته حسب ما تحرر لسعادتكم في ربيع آخر سنة ١٢٩٦ نمرة ٣١ لكن حيث ان مقتضيات الاحوال مستلزمة إبقاء للمذاكرة والمفاوضة معه فى بعض مواد مهمة قد تقرر بمجلس النظار الذى تشكل الآن استمراره واقتضي تحريره لسعادتكم للاحاطة بذلك وتفهيم حضرات اعضائه بعدم الانصراف »

---

(١) يريد العريضة التى سبق ذكرها

(٢) الوقايع المصرية فى ٢١ ربيع الآخر سنة ١٢٩٦

وفى جلسة ١٧ مايو حضر شريف باشا وقال [١] : «انه يقدم للمجلس اللائحتين المتعلقتين بأسامى المجلس وبالانتخاب . وقد أحضر معه اللائحة الاساسية [٢] . اما لائحة الانتخاب فهي تحت التبييض والنظر فى مجلس النظار »

وفى اليوم التالى الف المجلس لجنة من بعض أعضائه للنظر فى « اللائحة » التى قدمها اليه شريف باشا . وفى ١٥ يونيو قدمت هذه اللجنة تقريرها وتلى فى المجلس. وفى ٢٥ و ٢٦ يونيو عزل اسماعيل وولى توفيق . وفى ٥ يوليو كان عزل اسماعيل عنوة قد أثر فى النفوس فعقد مجلس شورى النواب آخر جلساته وذلك ان نظارة الداخلية أبلغته انها لاتستطيع أن تقدم اليه لوائح ولا قوانين الا بعد زمن طويل فرأى أعضاؤه أن يقضوا هذا الزمن فى مهامهم الخصوصية وانصرفوا ثم لم يجتمعوا بعد ذلك الا فى ديسمبر سنة ١٨٨١ .

---

(١) الوقايع المصرية فى ٢٧ جمادى الاولى سنة ١٢٩٦

(٢) لم تصدر هذه اللائحة ولذلك لا نرى حاجة لنشرها غير اننا نلخص هنا أهم ما كانت تشتمل عليه وهو : مدة النيابة ثلاث سنين . المسائل التى تقدم من النظار للنواب تصير المذاكرة فيها بمجلس النواب واذا تراءى فيها ملحوظات تجرى المخابرة عنها مع مجلس النظار وانما يكون ذلك مقرونا ببيان الأوجه والاسباب . اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة و بيان الاسباب ولم تستعف النظارة للحضرة الخديوية ان تأمر بفض مجلس النواب وتجديد انتخاب أعضائه على شرط ألا تتجاوز مدة الانتخاب اربعة أشهر من يوم انفضاضه الى يوم اجتماعه . اذا أيد مجلس النواب بعد تجديد انتخابه رأي المجلس السابق وجب تنفيذه ويجوز للامة ان تنتخب نفس النواب السالفين او بعضهم . رئيس المجلس ووكيلاه وكتبته يكون تعيينهم بمعرفة نفس المجلس. مذكرات النواب ومداولاتهم فى الجلسات العمومية تكون علنية . وضع القوانين واللوائح يكون ابتداء بمجلس النظار ثم تعرض على مجلس النواب للنظر فيها وتنقيحها بحيث لا يكون القانون معتبراً دستوراً للعمل ما لم يتل بمجلس النواب بنداً فبنداً و يعط عنه القرار ويجر التصديق عليه من الحضرة الخديوية . لائحة ادارة مجلس النواب الداخلية تعمل بمعرفته . اعضاء مجلس النواب لا يزيدون على ١٢٠ بما فيهم نواب السودان حسب البيانات التى تتوضح بلائحة الانتخاب. النظار مسئولون امام مجلس النواب عن كافة الاحوال والاعمال المختصة بادارتهم و بناء على ذلك يجب على مجلس

شهادات ذات قيمة

والآن وقد فرغنا من هذا الدور من ادوار مجلس شوري النواب يحسن ان نثبت هنا الشهادات الآتية :

نشرت التيمس لمراسلها بالاسكندرية فى ١٥ ابريل سنة ١٨٧٩ كلمة عن المجلس قال فيها : « اظهر مجلس شورى النواب المصر فائدة عظيمة فى مناقشة مشروعات الاصلاح الزراعى وتوسيع نطاق الاعمال العامة »

وقال مسيو ماك كون فى كتابه « مصر كما هى » فى هامش صفحة ١١٨ : « ان النواب عامل مفيد فى سياسة مصر الداخلية »

النظار المبادرة الى وضع قانون لمحاكمة النظار عند الاقتضاء وعرضه على مجلس النواب. لا يجرى العمل بأمر صادر من الحكومة ما لم يكن ممضي من الناظر المختص ومطابقا لقانون معتبر. اذا تراءى للنواب التكلم في بعض مواد خلاف ما يتقدم لهم من النظار فتجرى المداولة فيها ويرسل اخطار بذلك لمجلس النظار وبعد ثمانية أيام من تاريخ إرسال ذلك الاخطار ان لم يرد من مجلس النظار أوجه تمنع من المذاكرة فيها ويقر النواب قبول تلك الاوجه فلهم ان يتمموا مداولتهم ويصدروا قرارهم فيها. النظار ملزمون بالمجاوبة عن كل ما يسألون فيه من مجلس النواب اما بان يتوجهوا بانفسهم او بان ينتدبوا أحد كبار متوظفى دوائرهم للمجاوبة بالنيابة عنهم. من حقوق النواب ان يلاحظوا المصاريف العمومية بالدقة التامة وان يقرروا مقدارها ويجب عليهم ان يعينوا كمية الواردات وكيفيتها وضرب الضرائب والجبايات وطريقة توزيعها وأوقات تحصيلها فلا يجوز ضرب ضريبة من أى نوع كانت ولا توزيعها وتحصيلها ولا تكليف الاهالى بشيء ما الا بعد اقرار مجلس النواب عليها كما لا يجوز صرف شيء من متحصلات الضرائب زيادة عما يقر عليه مجلس النواب. للنواب ان يطلبوا عقب افتتاح المجلس الميزانية العمومية الجارية للواردات والمصروفات لينظروا فيها ومتى قرروا عليها بعد البحث التام لا يعمل بها الا فى تلك السنة ويلزم فى السنة التالية تحرير ميزانية ثانية وعرضها على مجلس النواب كما تقدم وهكذا سنويا. لكل نائب من النواب حق اذا رأى أي قصور من أي مأمور وفى أي ادارة من ادارات الحكومة ان يكتب بذلك للناظر المختصة به الادارة وهذا فقط فى المواد العمومية

وقالت التيمس في مقال افتتاحي في ١٦ ابريل سنة ١٨٧٩ : « ربما كان كثير من الاعضاء صنائع للخديو ولكن مهما تكن طريقة انتخاب هيئة نيابية فلا بد ان تحصل هذه الهيئة على شيء من الاستقلال عند ما تعمل مجتمعة . ويظهر ان مجلس نواب مصر لا يشذ عن هذه القاعدة »

وقد تقدم ما كتبه مراسل التيمس في القاهرة ونشرته هذه الجريدة في ١٦ ابريل سنة ١٨٧٩ عن جلسة مجلس شورى النواب التي رفض الاعضاء فيها ان ينفضوا وان يقبلوا الامر الذى تلاه عليهم رياض باشا

هذه كلها شهادات تدل على ان روح مجلس شوري النواب كانت مستقلة تعمل لمصر لا لاسماعيل . واليك شهادة اخرى تدل على ان المجلس كان محاطا بحركة وطنية منبعثة من الشعب وان هذه الحركة كانت حقيقية لا صورية .

كتبت التيمس في ٣ مارس سنة ١٨٧٩ تصف ثورة الشعب الفكرية على أثر فتنة الضباط التى وقعت في ١٨ فبراير فقالت :

« لقد وقعت الفتنة في جو مفعم بالسخط والتذمر فكانت مثل شعلة متقدة القيت في مستودع بارود فلا تسل عما ابتعثته من انفجار سخط المصريين انفجاراً تمثل في مظاهرات واجتماعات للمشايخ والاعيان والعلماء وأقرت استعجال الغاء النظام (اى نظام الحكم الذى كان موجوداً اذ ذاك) وخرجت منها وفود الى الخديو تعده المعونة فى نزاعه مع سادته الاوربيين وتطلب أن تكون للأمة يد في حكومة البلاد »

وكتب السير فرنك لاسل الذى كان قنصلا عاما لانجلترا في القاهرة فى ذلك الوقت الى وزارة خارجية حكومته تقريراً فى ٢٩ ابريل سنة ١٨٧٩ وصف فيه الاستياء العام الذى كان يشمل الشعب المصرى ثم قال :

« . . . ويؤكدون ان هذا الاستياء عينه من الحال الحاضرة منتشر انتشاراً كبيراً في الجيش وانه ولد شعور عداء للخديو ليس فقط بين أفراد العسكرية المنتسبين الى طبقات الامة المرهقة بل بين الضباط أنفسهم . ويؤكدون لى أيضا ان هؤلاء وان كرهوا كل الكراهة أى تدخل أوربي يعتبرون الخديو مسئولا عن المصائب التى أصابت البلاد »

اذن كان السخط على التدخل الاوربى وعلى اسماعيل شاملا للشعب والجيش معاً. وفى التقارير التى يراها القراء فى ذيل هذا الكتاب بقلم احمد عرابي ما يؤيد هذه الحقيقة. وبدهى انه لولا ان يكون السخط قد شمل الجيش لما نشبت فتنة الضباط.

ولدينا بعد ذلك شهادة قوية أخيرة هى التى كتبها مستر تيودور رونستين فى كتابه « المسألة المصرية » صفحة ٨١ من الترجمة وهى قوله:

« ان ما يفعله المؤرخون الرسميون من تصوير الاعيان والعلماء وغيرهم من الطبقات المصرية الراقيـة فى ذلك الوقت فى صورة آلات فى يد اسماعيل مسـخرة لامره فاقدة الاستقلال الخلقي والفكري لمن قبيل العبث بالحقائق التاريخية وتشويهها. قد يكون النواب بحكم الظروف مستعدين للانقياد لاسماعيل ومساعدته في رفع النير الاوربي عن بلادهم ولكنهم مع ذلك كانوا يمقتونه لانه كان علة شقائهم وبلائهم وقد بلغ بهم الامر بعد الانقلاب السياسى (اى بعد اقالة النظارة الاوربية وتعيين نظارة شريف باشا) ان فكروا فى عزله. ومما يدل حقيقة على مبلغ كره المصريين له انه لما عزل وأخرج من البلاد لم يرتفع صوت واحد بالدفاع عنه »

عهد توفيق باشا

انتهى عهد اسماعيل وجاء عهد ابنه توفيق فلعلنا لا نجد أبلغ من هـذا الابن وصفاً لما خلفه أبوه من الشقاء وايضاحا لما كان على البلاد ان تعانيه من بعده وبسببه من المتاعب. فقد كتب هذا الابن غداة توليه العرش الي شريف باشا يكلفه ان يؤلف النظارة فقال:

« يا وزيرى العزيز

لقد استعفت الوزارة فاكلفك بتشكيل وزارة جديدة ولا أزيدك بحقيقـة الحال علما

« ولما قضت العناية الآلهية بتوليتى أمر بلادى جعلت على واجبات ليس من همي الا النهوض بها بامانة وشهامة على علمى بمقدار صعوبتها وجسامة المطاليب المتراكمة على مع الارتباك والفترة المالية التى انزعجت منها الخواطر اذ وقفت حركة التجارة وأوجدت فترة فى البلاد لم تقع فى مصر من قبل. على اني عظيم الميل الى بلادى شديد الرغبة فى تحقيق آمال الامة التى اظهرت السرور بولايتى وفى اخراجها

من هذه الحال السيئة . ومع هذه العواطف فاني عازما عزم أ كيدا على بذل الجهد وصرف الهمة الى التماس احسن الوسائل لازالة هذا الاختلال المفسد لكثير من المصالح . . . . . الخ »

هذا هو ما خلفه اسماعيل : مطاليب متراكة ، وارتباك ، وحالة مالية ازعجت منها الخواطر ووقفت حركة التجارة ، وفترة لم تقع مصر فى مثلها من قبل ، واختلال مفسد لكثير من المصالح . والذي يقول هـذا هو ابنه توفيق ، وفى نفس اليوم الذى عاد فيه من توديع والده يكفكف الدمع حزنا على هذا الوالد ورثاء لما أصابه . لا جرم كانت البلاد مقبلة على خطر وكان المصريون يشعرون بهذا الخطر ويعرفون انهم لم يستهدفوا له الا لأن حكم الفرد عبث بمصالحهم فى سبيل شهواته فلا منجاة لهم الا بان يتولوا امرهم بأنفسهم وان يقيموا الحكومة النيابية . ولقد كانت صيحات مجلس شورى النواب باسم الامة لا تزال ماثلة فى الاذهان ، ثم كان الامر الذى أصدره اسماعيل لشريف باشا في ١٧ ابريل سنة ١٨٧٩ بتأليف وزارة مسئولة أمام النواب قد اعتبر خطوة غزت بها الامة بعض حقها ، كما كان مشروع القانون الاساسى الذى قدمه شريف باشا لمجلس شورى النواب قد اعتبر متمما لهذه الخطوة ، كان كل ذلك فكانت النفوس متشبعة بالرغبة فى الحكم النيابى متألمة من انها وقد دنت منه حتى أوشكت أن تقبض بيدها عليه جاءت حوادث فصدتها عنه الى حين .

تلك هي الحالة النفسية التي كانت عليها البلاد حينما تولى توفيق العرش . ويجب ان نعتقد انها كانت قوية لان توفيقا اضطر ان يردد صداها فى « أمر كريم » أصدره في ٣ يوليو سنة ١٨٧٩ الى وزارة شريف باشا بعد تأليفها وقد أراد منه ان يكون برنامجا يأخذه على نفسه أمام الامة ، وإليك ما قاله فيه :

«ان العناية الالهية سلمت زمام الحكومة المصرية الى يدنا فضلا منه واحسانا فقد تشرفنا بأمر شريف بذلك من متبوعى الافخم وسلطانى الاعظم نصره الله . . . . ولعلمى ان الحكومة الخديوية يلزم ان تكون شورية ونظارها مسئولين فانى اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسلكا لا أحول عنـه . فعلينا تأييد شوري النواب وتوسيع قوانينها لكى يكون لها الاقتدار فى تنقيح القوانين وتصحيح الموازين وغيرها من الامور المتعلقة بها . . . . الخ »

فى هذا البرنامج قرر توفيق جريا مع الحالة النفسية التى كانت عليها البلاد أولا ان الحكم يجب ان يكون نيابيا،وثانياً ان النظار يجب أن يكونوا مسئولين. نعم انه لم يعين هنا الجهة التى يسأل النظار أمامها أهى مجلس النواب أم الخديو ولكننا لا نظن ان كلمة « مسئولين» كانت تلقي فىذهن الرأي العام فىذلك الوقت شيئا غير المسئولية التى ذكرها اسماعيل فيأمره الصادر فى ابريل ، وخاصة لان توفيقاً يتحدث بعد ذلك عن « تأييد مجلس شورى النواب » و « توسيع قوانينه » كأنه يشير بذلك الى المشروع الذى كان شريف باشا قد قدمه .

ولكن توفيقاً بعد ان ارتبط أمام البلاد بهذا العهد العلنى في ٣ يوليو ترك مجلس شورى النواب ينفض فى ٥ يوليو ، ثم مضت شهور وشهور دون ان يدعوه للاجتماع مصغياً فى ذلك لنصائح المراقبين الاجنبيين اللذين كانا يتمتعان بالسلطة المطلقة في مالية الحكومة فكانا يكرهان ان يوجد بجانبهما مجلس نواب ينازعهما هذه السلطة . ومصغياً أيضا لنصائح قنصلي انجلترا وفرنسا اللذين كان نفوذهما قد تغلغل فىجميع دوائر الحكومة حتى صارا السيدين المطاعين من الخديو والنظارة فلم يكن يسرهما أن يأتي مجلس النواب بعد ذلك فيأخذ منهما هذا النفوذ .

ولم تعش نظارة شريف باشا الا أياما ثم استقالت فتولى توفيق رياسة مجلس النظار بنفسه ثم ارسل فاستدعى رياض باشا من اوربا فلما جاء اصدر اليه فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ أمراً بتأليف النظارة فلم يذكر فيه شيئا لا عن الحكومة التي يجب ان تكون شورية ، ولا عن مجلس شوري النواب الذى يجب توسيع اختصاصه،ولا عن النظار الذين يجب ان يكونوا مسئولين . والف رياض باشا نظارته ورفع بتأليفها كتابا الى توفيق فلم يذكر فيه هو أيضاً شيئا عن الشورى ولا عن المجلس ولا عن مسئولية النظار .

ومضت بعد هذا سبعة عشر شهراً من سبتمبر سنة ١٨٧٩ الىفبراير سنة ١٨٨١ بغير أن يدعي مجلس شورى النواب للاجتماع وبغير أن تبدو على توفيق رغبة فى الوفاء بعهده فاشتد التذمر منه ومن وزارة رياض باشا وكان هذا التذمر واحدا من الاسباب العميقة التي حركت عوامل الاضطراب . نعم ان لهذا الاضطراب الذى ظهرت

بوادره فى حادثة قصر النيل ثم فى طلب عرابي وزملائه عزل عثمان رفقي باشا ناظر الجهادية عوامل أخرى كان أظهرها استياء الضباط المصريين من اختصاص زملائهم الشراكسة بكل مناصب الجيش العالية ، غير ان الحق الذى لا يستطيع أحد إنكاره هو أن هذا الاستياء وحده ما كان كافيا لان يحدث اضطرابا ولا لان يؤدى الى ثورة فلو أن الامر اقتصر عليه وهاج الضباط من أجله لبقى هياجهم محليا ولوجدت الحكومة من سند الامة ما يساعدها على اطفاء الفتنة بانصاف المستائين أو معاقبة المذنبين ، ولكنها لم تجد هذا السند بل وجدت الامة بالعكس مؤيدة المنتقضين عليها متحفزة للوثوب أمامهم الى الثورة فانكمشت يدها وطالت يد الضباط . ولا أحب هنا ان اجادل كثيراً في هل الفكرة الاولى التى صدر عنها هؤلاء الضباط حينما هاجوا وطلبوا عزل رفقى باشا واضرموا بذلك أول شرارة فى نار الثورة العرابية كانت فكرة المناصب وحدها أو كانت المناصب والحكم النيابى (وباب الجدل فى هذا مفتوح لان عرابياً يؤكد انهم طلبوا فى عريضتهم التى قدموها لعزل رفقي باشا إقامة الحكم النيابي [1] بينما الشيخ محمد عبده ينكر ذلك [2]) ولكنى أقول اننا اذا سلمنا بان الفكرة كانت فكرة المناصب وحدها فيجب أن نسلم أيضا بانها لم تكن كذلك الا في نظر الضباط وحدهم أما الشعب فانه رأى فى انتقاضهم على الحكومة انتقاضا على هيئة كان يعتبرها مصدر آلامه وكان يتهم رئيسها الاعلى بانه حرمه من أمله المشتهي بعد اذ دنا منه ونكث في ذلك بعهد على يشينه النكث به . ولهذا السبب وحده ، ولهذا المعنى لا لغيره ، أيد الضباط . فان نحن قلنا ان المسألة كانت فى نظرهم مسألة مناصب فيجب أن نقول انها كانت فى نظر الشعب غير ذلك ، ثم يجب أن نقول ان الضباط شعروا بهذا وعرفوا قوته فاضطروا على عجل أن يلبسوا حركتهم ثوب المطالبة بالحياة النيابية ، لان حادثة قصر النيل لم تكد تنتهي حتى أخذ عرابى يوزع على العلماء والاعيان وعمد البلاد ومشايخ العربان منشورا هذا نصه بعد الديباجة [3] :

---

(١) انظر « تاريخ أحمد عرابى بقلمه » ص ٣٤٩ من هذا الكتاب

(٢) انظر « رأي الشيخ محمد عبده فى تاريخ عرابى » ص ٣٥٥ من هذا الكتاب

(٣) مصر للمصريين جزء ٤ ص ٩٠

« ان الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ولم يكن مقصدها مؤديا الا الى اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من مبيع أراض كثيرة للاجانب ووجود كثير منهم فى ادارات الحكومة ومصالحها بالرواتب الفادحة والسعى فى رفع الاحجار الطبيعية الموجودة فى بوغاز الاسكندرية . وان سكوتنا واضرابنا عن ذلك يعد من العجز والجبن والتفريط فى وطننا ومقر نشأتنا. فاعلموا يا معاشر الوطنيين ان أولادكم المنتظمين فى سلك الجهادية قد اتكلوا على الباري سبحانه وتعالى وعزموا على منع كل ما من شأنه الاجحاف بحقوقكم . وذلك لايتم الا بسقوط وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب ليحصل الوطن على الحرية المبتغاة . فالمطلوب منكم ان توقعوا على الكتابة المرسلة اليكم فى ضمن هذه النشرة والكتابة المقصود بها ان أكون نائبا عنكم فى كل ما يتعلق باحوال البلاد »

ويقول هنا صاحب كتاب « مصر للمصريين » .ان عرابيا « تحصل بهذه الوسيلة على أختام الجميع ماعدا سلطان باشا فانه ابى وقال ان هذه الطلبات لا تعلق لها بالعسكرية » . فنقول نحن ان تحصل عرابى بهذه الوسيلة على أختام الجميع هو البرهان الذي لا يدفع على ان الجميع كانوا يتعطشون الى الحياة النيابية ويتألمون لحرمان البلاد منها ويؤيدون كل من يتقدمهم للمطالبة بها .

مظاهرة الجيش فى عابدين

نحن لانتابع حوادث الثورة العرابية وانما نتابع موضوعا معينا هو الحياة النيابية ولهذا ننتقل دفعة واحدة من حادثة قصر النيل (فى ٤ فبراير سنة ١٨٨١) الى مظاهرة الجيش في عابدين (في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١) ولا نأخذ من هذه المظاهرة الا الجانب الذى يمس ما نحن فيه .

رأينا فيما تقدم أن الحركة العرابية لبست بعد حادثة قصر النيل ثوب المطالبة بالدستور وأن عرابيا زعيم هذه الحركة شرع يأخذ من العلماء والاعيان والعمد ومشايخ العربان توكيلا للمطالبة بعزل وزارة رياض باشا وتشكيل مجلس النواب . فهنا نقول ان الاشهر التي انقضت ما بين فبراير وسبتمبر من تلك السنة كانت كلها اشهر ترديد لكلمات الحرية ، وسيادة الامة ، والحكم النيابى ، والعهد الذى أعطاه

توفيق على نفسه فى كتابه الى شريف باشا بجعل الحكومة شورية وبتوسيع اختصاص مجلس شورى النواب ثم تناسيه هذا العهد وعمله بضده . فلما جاء شهر سبتمبر وعاد توفيق من الاسكندرية الى القاهرة كان الحزب العرابي قد أعد عدته للتظاهر فى ساحة عابدين، ففي اليوم التاسع من هذا الشهر (الجمعة ١٥ شوال سنة ١٨٩٨) اجتمع الجيش فى هذه الساحة وأمر عرابى باقامة الحراس على ابواب عابدين لمنع الدخول اليه والخروج منه، ثم ظهر توفيق واستدعى عرابيا فجاءه راكبا جواده سالا سيفه ومن حوله ضباط الخيالة ، فأمره توفيق بالترجل واغماد سيفه وابعاد الضباط عنه ففعل ثم دار بين الاثنين حديث نقتصر منه على ما يأتى .

قال توفيق ماهى اسباب حضورك الى هنا بالجيش

فاجاب عرابي للحصول على طلبات عادلة

فسأل توفيق وما هي هذه الطلبات

فاجاب عرابي هى اسقاط النظارة وعقد مجلس النواب وزيادة عدد الجيش والتصديق على قانون العسكرية الجديد وعزل شيخ الاسلام

وبعد مفاوضات دارت داخل القصر بين توفيق وقناصل الدول استقر الرأى على اجابة هذه الطلبات تدريجا وابلغ عرابي ذلك فرضي ولكنه اشترط عزل الوزارة قبل انصرافه فعزلت فطلب تعيين شريف باشا فاستدعي وعرض عليه الامر فقبل ان يشكل الوزارة على شرط ان يتعهد رؤساء الحزب العسكرى باطاعة أوامره وان يقدم أعيان البلاد وعمدها ضمانا على هذه الطاعة

عريضة الشعب بطلب الحياة النيابية

وفى اليوم التالى تقدم لشريف باشا كل من سلطان باشا وسليمان أباظه باشا وشريعى باشا ومنشاوي بك وامين الشمسى بك والشيخ على الليثى وعبد السلام المويلحي بك والشيخ الصباحي والشيخ احمد محمود وابراهيم الوكيل افندى ومعهم تقريران احدهما وقعه فريق من العلماء والعمد والاعيان ضمانا لرؤساء الحزب العسكرى والثاني وقعه الف وستمائة من الكبراء والعلماء والعمد بطلب تشكيل المجلس النيابي .

وهذا التقرير الثاني هو الذى يهمنا فى موضوعنا ولذلك نثبت نصه وهو :

« لما كان لا ينتظم نظام العالم ، ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية ، الا بالعدل والحرية ، حتى يكون كل انسان آمنا على نفسه وماله ، حراً فى أفكاره وأعماله ، مما فيه سعادته وحسن مآله . وهذا لا يتاتى الا بايجاد حكومة شورية عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ، ولا تتطرق اليها طوارق الفساد ، اتخذت الممالك المتمدنة العادلة مجالس ملية من نبهاء أممها ، ينوبون عنها في حفظ حقوقها ، تجاه هيئة حكوماتها ، ويكونون الواسطة فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الاحكام العادلة . وعلى هذه القواعد ، ولاجل هـذه المقاصد ، كان قد اتخذ لحكومتنا مجلس نواب فى العهد السابق . وبما ان مقاصد خديوينا المعظم جميعها خيرية ونياته سليمة فطلبا لحفظ بلادنا من بوائق الدهر تجاسرنا بعرض هذا راجين من المراحم الداورية صدور الامر الكريم بتشكيل مجلس نواب لامتنا يكون له ما لمجلس الامم الاوربية المتمدنة من الحقوق الشرعية ازاء هيئة الحكومة و بذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد خولتنا نعمة لا تعادلها نعم وتصير حكومتها العادلة أنموذجا شريفا يبرهن على حسن نتائج العدل والحرية امام العالم . وانا على يقين من قبول التماسنا هـذا وفقا لارادة ولى النعم أدام الله إجلاله »

ولا بد لنا هنا من ملاحظة وهي ان تاريخ هذه العريضة ١٤ شوال (٨سبتمبر) فى حين ان مظاهرة الجيش فى ساحة عابدين وقعت فى ١٥ شوال (٩ سبتمبر) فلا تفسير لذلك فى نظرنا غير ان العريضة كتبت قبل المظاهرة وان عرابيا وزملاءه كانوا يعرفونها . ولعلهم كانوا قد انتظروها قبل ان يتحركوا ليكونوا على بينة من ان الامة تشد عضدهم وليستطيعوا ان يقولوا انهم باسمها يتحركون وبلسانها ينطقون . ويكون المعنى حينئذ ان طلب الامة الحكم النيابي سابق المظاهرة فهو أصل والمظاهرة فرع وليس العكس . اما تقديم العريضة لشريف باشا فى يوم ١٦ شوال فليس دليلا على انها كتبت في ذلك اليوم ، ونظن ان كل انسان يوافقنا على انه كان من المتعذر جمع الف وستمائة توقيع من أعيان القاهرة والاسكندرية وطنطا والمنصورة والمنيا وبنى سويف وأسيوط فى اربع وعشرين ساعة

خطبتان لعرابي

وطلب شريف باشا من عرابي ان يسافر بألايه الى رأس الوادى فاطاع واجتمع خلق كثير لتوديعه في محطة القاهرة ساعة سفره وخطب بعضهم فرد عرابي بخطبة قال فيها :

« بكم ولكم قمنا وطلبنا حرية البلاد وقلعنا عرش الاستبداد ولا ننثنى عن عزمنا حتى تحيا البلاد وأهلها . وما قصدنا بسعينا افسادا ولا تدميرا ولكن لما رأينا اننا بتنا فى اذلال واستعباد ولا يتمتع فى بلادنا الا الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية الى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الامة وقد ساعدتنا العناية الالهية ومنحنا مولانا وأميرنا الخديو ماطلبناه من سقوط وزارة المستبد علينا السائر بنا فى غير طريق الوطنية وتمتعنا بمجلس الشورى لتنظر الامة فى شؤونها وتعرف حقوقها كباقى الامم المتمدنة فى العالم . . . . . »

ولما وصل الي الزقازيق القى خطبة أخرى مثل هذه وفى معناها

اعادة مجلس شورى النواب

وفى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ كان شريف باشا قد أتم البحث فى انشاء مجلس نيابي ذى سلطة فرأى تمهيدا لذلك ان يعاد مجلس شورى النواب ليكون هو الذى يقرر مشروع القانون المنشىء لمجلس النواب المحدد لسلطته واختصاصه وخالفه فى ذلك عرابي وطلب منه انتخاب مجلس النواب دفعة واحدة بتنفيذ مشروعه الذى كان قد قدمه لمجلس شورى النواب في سنة ١٨٧٩ فلم يقبل شريف باشا ورفع الى الخديوى تقريراً هذا نصه :

« لقد أظهرت التجارب في عدة مرار خلل الحالة الموجودة عليها البلاد الآن ولهذا فالاصلاحات التى سنشرع فيها فى ظل الساحة العلية تكون متعلقة باهم صوالح الديار المصرية لانه يترتب على اجرائها تغيير الحالة المذكورة واصلاحها شيئا فشيئا وتوطيد الادارة العمومية على أساسات قوية وثابتة

« انما الاشتغال بمسائل مهمة كهذه والنظر فيما يلزم لاخراجها من حيز التصور للعمل لا يتانى حصوله بانفراد هيئة النظار فقط بل المترائى لهم ان تبادل الافكار فيها باشتراك الرجال الذين يؤهلهم استعدادهم وخبرتهم بالاشغال واستقامتهم ومرتبتهم

لحيازة ثقة ورضاء اخوانهم بهم ولانتخابهم للنيابة عنهم هو الواسطة الوحيدة للحصول على الفائدة المقصودة من تلك الاصلاحات. وقد طابق رأى عمد الاهالى بالنيابة عن عمومهم هذا الرأى الذى رأته هيئة النظار ولذلك نرى انه من الواجب علينا ان نطلب من المراحم الخديوية تلبية التماس أهالى البلاد وجميع أعيان ووجوه القطر لاخذ رأيهم بخصوص احتياجات الاقاليم وعرض الخلل الحاصل فى الادارة عليهم واجراء الاصلاحات اللازمة بمساعدتهم

« وللوصول لهذا الغرض لا يوجد الآن شيء سوى اتباع لائحة مجلس شورى النواب الصادرة فى سنة ١٢٨٣ . نعم ان تلك اللائحة ليست مستوفاة ولا ملائمة لافكار الاهالى ومقاصدهم وكانت قد عملت جملة مشروعات وتقدمت عن هذا الخصوص لكن هيئة النظار باتحادها مع مجلس شورى النواب ستشتغل فى البحث عما يلزم اجراؤه من التنقيحات والتعديلات فى قانون النواب مع مراعاة حقوق الحضرة الخديوية وحالة القطر .

« هذا ومن الجلي الغنى عن البيان ان العهود والترتيبات التى نشات عن الحالة المالية وارتبطت بها الحكومة وكذلك القوانين والاوامر العلية المشتملة على تلك العهود والترتيبات لا تدخل ضمن المسائل الجائز نظرها والبحث فيها بمجلس النواب لانها موضوع عقد حصل مع الدول ولا يجوز تعديلها او تغيير شيء منها الا برضاء الدول التى عقدت معها

« وعلى ذلك فمجلس النواب سيؤدي ماموريته بدون تعرض للمصالح الواجب احترامها وسيكون عضد الحكومة لذاتكم العلية فى اجراء الاصلاحات المشروع فيها وعونا على تامين المصريين تامينا كافيا على النفس والعرض والمال

« ولهذا واتباعا لمادة ١٦ من لائحة مجلس الشورى المؤرخة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ أتشرف بأن أقدم للاعتاب السنية مشروع أمر عال بانتخاب النواب وافتتاح المجلس في ١٥ كيهك سنة ١٥٩٨ الموافق غرة صفر سنة ١٢٩٩ و٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ »

وفى اليوم نفسه صدر الامر العالى بانتخاب النواب « بالصفة والشروط الموضحة في لائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ » وبأن يكون افتتاح المجلس فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٨١ .

وفى ١٨ ديسمبر صدر أمر بتعيين محمد سلطان باشا رئيسا للمجلس وسليمان اباظه باشا وكيلا

ولم يتيسر ان يفتتح المجلس فى الميعاد المحدد له ففتح فى ٢٦ ديسمبر وجاء

الخديو فجلس على مقعد اعدله فى قاعة الاجتماع ثم مثل بين يديه سلطان باشا وقال ان النواب مستعدون لسماع خطابه فوقف وأخذ يعتذر عن نكثه بعهده فقال :

« ابدى لحضرات النواب مسروريتى من اجتماعهم لاجل ان ينوبوا عن الاهالى فى الامور العائدة عليهم بالنفع . وفى علم الجميع انى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تاخر للان بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة فاما الان فنحمد الله تعالي على مايسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ومن تخفيف أحمال الاهالى على قدر الامكان فلم يبق مانع من المبادرة الى ما انا متشوف لحصوله وهو مجلس النواب الذى انا فاتحه في هذا اليوم باجتماعكم »

ثم تكلم عن رغبته في رفاهية الاهالى وتعميم التعليم وأشار الى قرارات لجنة التصفية وتعهدات الحكومة للدول وقال :

« فالواجب علينا الاعتدال والتانى وحسن التبصر وان نكون يدا اواحدة فى اتمام الاعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ومتمسكين بقوة ارتباطنا بالحضرة الشاهانية والدولة العلية ادامها الله ونسأل الله النجاح انه ولى التوفيق »

ولم تكن الجلسة علنيه لان لائحة ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ تقضى كما تقدم بان تكون جلسات مجلس شورى النواب سرية ولكن الحراس لم يستطيعوا منع الجمهور من الدخول فكانت الجلسة علنية في الواقع

وعين المجلس بعد ذلك عشرة من اعضائه لتقديم الرد على خطاب الافتتاح فقدموه فى ٢٩ ديسمبر وفيه قال المجلس انه يشكر للخديو فتحه اياه « اجابة لرغبة الامة ونظرا للمصلحة العامة » .

واقام الناس حفلات عدة فرحا بعودة المجلس نخص بالذكر منها حفلة اقيمت بأمر بطريرك الاقباط فى الكنيسة البطريركية حضرها رجال الاكليروس

مذكرة ٧ يناير

او

انجلترا وفرنسا تحرشان بالمجلس

هنا يقوم البرهان المادي على ان انجلترا وفرنسا ما كانتا تنظران الى وجود المجلس ولا الى نمو الروح الوطنية بعين الاطمئنان لانهما وقد ألفتا بفضل اسماعيل وقروضه ان تسيطرا على الحكومة المصرية كانتا تكرهان أن يتمرد المصريون على هذه السيطرة وأن يوجد مجلس نواب يطالب بحقه الشرعى فى مراقبة أعمال الحكومة . وقد درج كثير من الكتاب الاوربيين ، الذين كانوا يشايعون انجلترا وفرنسا فى غرضهما هذا ويشايعون الدائنين فى أن تبقى مصر بقرة لهم حلوبا ، على أن يحتقروا الوطنية المصرية فى ذلك الوقت ويهونوا من شأنها ولكن غيرهم من المنصفين اعترفوا بها وقالوا انها كانت جديرة بكل عطف واحترام . ولا نحب ان نذكر في هذا غير شهادتين لرجلين رسميين أحدهما دي فريسينيه وقد كان رئيساً لوزارة فرنسا فى مفتتح سنة ١٨٨١ ثم فى الشهور الاولى من سنة ١٨٨٢ وبقي في منصبه الي ان ضرب الانجليز الاسكندرية وجرت معركة التل الكبير . والثانى بارتلمي سانت هيلير وقد كان وزيراً لخارجية فرنسا فى وزارة جول فيرى في بعض من سنة ١٨٨١

فقد صرح دي فريسينيه فى كتابه « المسألة المصرية » (ص ١٩٤) بانه كان من الحكمة فى ذلك الوقت أن يوسع اختصاص مجلس شورى النواب ثم قال :

« ان كتاب ذلك العصر اجتهدوا فى ان يسخروا من طلب الذين كانوا يطلبون توسيع اختصاص المجلس حتى ليخيل الى الذى يقرأ خطابات بعض الخطباء ان الوطنية المصرية كانت فى ذلك الوقت تلفيقا وان وادى النيل لم يكن يحتوى الاعلى فلاحين تحني العصا ظهورهم . فكل ما نرد به على هؤلاء الكتاب والخطباء هو أن آباءنا كانوا اقل من هذا امتهانا للوطنية المصرية فى عهدهم ، وذلك أن نوابنا فى سنة ١٨٤٠ لم يترددوا فى ان يتكلموا فى خطبهم عن الرعاية الواجبة «للوطنية المصرية الناشئة» . فقد كانت هنالك اذن وطنية مصرية ناشئة تستحق الرعاية فى سنة ١٨٤٠ . ولست في هذا مبالغا ولا انا ممن يحبون المبالغة ولكن لا ريب فى انه كانت توجد فى قلوب

المصريين من اربعين سنة مضت مطامح كان من الممكن ان تراعى في حدود معتدلة. تلك حقيقة لا تحتمل جدلا ، غير أن الذين كانوا يقبضون على حظ مصر لم يكونوا يرون فى المصريين غير قوم مدينين فلم يكونوا يعرفون فى معاملتهم الا مصلحة واحدة هي مصلحة الدائنين الاوربيين التي يجب ان تقدم على ما عداها . وبذلك لم يتنبهوا الى ان مثابرتهم على اعتبار مصر رهنا ومداخلتهم فى شؤونها مداخلة أدت بحكومتها الى ان تصير فى ايدى الاجانب ، كانتا قد انتهتا على طول الايام بان تجرحا شعور الشعب المصرى الذى هو شعب حي مهما يقل القائلون فى تعوده الطاعة والخضوع من أجيال »

أما بارتلمى سانت هيلير فقد كتب الى قنصل فرنسا العام فى مصر في ١٧ اكتوبر سنة ١٨٨١ بيانا بما كانت تراه وزارة خارجية فرنسا حينذاك في المسألة المصرية فاشار فى آخره الي الوطنية المصرية فقال [١] :

« ليس من السهل علينا ان نقدر من هنا (أى من باريس) قوة هـذه المطامع الشرعية (يريد مطامع الوطنية المصرية) ولا كيف يمكن ارضاؤها . ولكن هـذه المطامع حقيقيــة الى أعظم حد، ومبررة من بعض الوجوه الى أعظم حد أيضا ، فلا يمكن اهمالها ولا يمكن على الخصوص التفكير فى خنقها »

هاتان شهادتان من رئيسين لوزارة فرنسا في ذلك العهد هما صريحتان فى أن حركة وطنية شريفة كانت تهز مصر فى ذلك الوقت وأن مجلس شورى النواب كان وليد هذه الحركة ، فلا يبقي بعد هذا الا أن يعرف القراء ان انجلترا وفرنسا أعلنتا الحرب على هذا المجلس ليتضح انهما ما كانتا تحاربان شغبا ولا عصيانا عسكريا بل كانتا تحاربان حركة وطنية فكانتا بذلك تدفعان الي الشغب وتؤججان نار الثورة

ففي ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ سقطت فى باريس وزارة جول فيرى وخلفتها وزارة غامبتا . وتولى غامبتا مع رياسة الوزارة وزارة الخارجية وكان رجلا جريئا واسع

---

(١) دى فريسينيه ص ٢٠١

هذا نص عبارته باللغة الفرنسية :

Il ne nous serait pas aisé de juger d'ici quelle est au juste la puissance de ces aspirations légitimes ni comment on pourrait les satisfaire. Mais ces aspirations sont trop réelles, et à certains égards trop justifiées, pour qu'on puisse les négliger, ni surtout songer à les étouffer.

المطامع وكانت مصر تدخل فى دائرة مطامعه فلم ير أن يترك الحوادث تسير سيرها العادى البطيء ولا أن يترك للحكومة البريطانية قيادة دفتها فكتب في ١٤ ديسمبر يسأل الحكومة البريطانية ألا ترى أن الوقت قد حان لان تتفاهم الدولتان في عمل تعملانه فى مصر؟وهل توافق على أن تكون الخطوة الاولى من هذا العمل أن تعلن الدولتان انهما تؤيدان توفيقاً وأن توحيا اليه بان يثق بهما ثقة مطلقة وأن يعتمد على معونتهما دون غيرها؟ [1] وكانت السياسة التى تجري عليها انجلترا في ذلك الوقت أن تنفرد بالعمل فى مصر فكانت كلما دعتها فرنسا الى الاشتراك معها في عمل تأبت واعتذرت تارة بأن العمل من حق سلطان تركيا وطوراً بان وقته لم يحن ، ولكنها كانت كلما رأت من فرنسا اعراضا عن العمل تقدمت هى وعملت . فلما جاءتها هذه الدعوة من غامبتا سكتت خمسة عشر يوما ثم أجاب وزير خارجيتها اللورد جرنفيل في ٣٠ ديسمبر بانه يخشى أن يكون ذلك معجلا للثورة[2]. فرد غامبتا ، وهنا تظهر النية جلية فى محاربة مجلس شورى النواب، بان من الخطر أن تسكت الدولتان حتى تفاجئهما الحوادث وأن المصلحة صارت قاضية « بشل عناصر الاضطراب المتولدة من عقد مجلس شورى النواب » [3] فرضي اللورد جرنفيل أخيراً وطلب من غامبتا ان يضع مشروع المذكرة التى ترسلها الدولتان فوضعها ووافقت الحكومة البريطانية عليها فكانت مذكرة ٧ يناير ، وهذا نصها :

« حضرة القنصل العام

« كلفناكم غير مرة ان تخبروا الجناب الخديوى وحكومته عن رغبة حكومتى فرنسا وانجلترا فى مساعدته ومساعدة حكومتـه للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق فى القطر المصرى فان الدولتين على وفاق وطيد واتحاد تام فيما يتعلق بمصر لاسيما بعد حدوث الحوادث الاخيرة وأخصها صدور الامر الخديوى

---

(١) أشيل بيوفيس ص ٤٨ — ودى فريسينيه ص ٢٠٧ و ٢٠٨

(٢) مجموعة التلغرافات التى تبودلت بين فرنسا وانجلترا فى سنتى ١٨٨١ بشأن مصر

(٣) أشيل بيوفيس ص ٤٩ — ومجموعة التلغرافات التى مر ذكرها

بجمع مجلس شورى النواب مما أوجب المخابرة بين الدولتين واعادة النظر فى شؤون اتفاقهما المذكور

« و بناء على ذلك نرجوكم ان تصرحوا الآن للجناب الخديوى بان حكومتى فرنسا وانجلترا تريان وجوب تأييده فى الخديوية وفقا للاحكام المقررة في الفرمانات السلطانية التى قبلتها الدولتان قبولا رسميا على اعتبار انها وحدها تكفل الآن و بعد الآن استمرار السلم والسكون وتوجب توسيع نطاق الثروة والعمران في البلاد المصرية مما فيه مصلحة الحكومتين المذكورتين المتفقتين على الاشتراك في السعى الى دفع كل ما من شانه ان يحدث في مصر ارتباكا او يخل بنظامها واحوالها سواء أكان هذا الخلل وهذا الارتباك ناشئين من أسباب خارجية ام من أسباب داخلية

« ولا ريب عندنا في ان هذ التصريح العلنى المبين لمقاصد الحكومتين يمنع حدوث ما عساه ان يطرأ على حكومة الخديو من الاخطار وان حدث فالحكومتان لاتترددان فى دفعه ولا تحجمان عن صده

« وفى أمل الدولتين ان يستمد الخديو من هذا التصريح الثقة والقوة اللتين هو محتاج اليهما لادارة أمور الشعب المصري والبلاد المصرية »

وبينما كانت هذه المفاوضات تدور بين الدولتين كانت مصر هادئة مغتبطة بوزارة شريف باشا وباجتماع مجلس النواب ثم بالامل في تحويل هذا المجلس الى مجلس نواب ذى سلطة . وكان الامن شاملا والنظام تاما وقد تعهدت وزارة شريف باشا باحترام المراقبة الثنائية وقانون التصفية وقبل المجلس هذا التعهد فلم يكن أحد يفكر فى المساس بمصلحة للدائنين أو للاجانب . فلما وصلت مذكرة الدولتين الى الخديو كانت كالقنبلة ألقيت فجأة في جو هادىء بقصد تعكيره ، ورأى فيها كل انسان تحرشا بمجلس شورى النواب لم يكن سبب من الاسباب يقتضيه . ولم يخف على المصريين أن الدولتين تحرضان بذلك توفيقا على مقاومة الحركة الوطنية وتقولان له انهما من أجل ذلك تبسطان حمايتهما عليه وتريدان منه أن يعتمد على هذه الحماية .

وقد كان من واجب توفيق أن يرد على هذه المذكرة وكان على شريف باشا خاصة أن يشجع على هذا الرد حفظا لسمعة نظارته . ويقال انه أعد ردا برفض

فيه توفيق حماية انجلترا وفرنسا ويقول : « ان اليوم الذى تؤيدني فيـه الدولتان ضد ارادة بلادى هو اليوم الذى يحين فيه الساعة الاخيرة . ومتى فصلت الرأس من الجسم لم يبق سبيل الا الى الموت . فأنا إما أن أكون خديوى المصريين أو لا أكون شيئا »[1]. غير أن حكومة فرنسا علمت بالعزم على الردفسعت عند توفيق وشريف كي يعدلا عن عزمهما ويلتزما السكوت فأطاعا وسكتا

ولكن تركيا لم تسكت بل احتجت بمذكرة ارسلتها الى الدولتين في ١٤ يناير فكان مما قالته فيها :

« ان مصر جزء من ممالك الحضرة السلطانية، والسلطة المعطاة للخديو هى لحفظ الراحة العمومية عند اللزوم وللمحافظة على سعادة البلاد وادارتها على محور حسن، فتأييد هـذه السلطة من حقوق الباب العالى وحده ومن اختصاصاته دون سواه . ولهذا كان من الواجب عندما اتضح ان الحالة تدعو الى ارسال تلك المذكرة ان يؤخذ قبل كل شيء رأى الدولة العلية ، وبواسطتها وحدها ترسل التصريحات ، وبواسطتها ايضا يكون الحصول على التاكيدات المطلوبة »

وبسبب مذكرة ٧ يناير هذه وقع خلاف طويل الذيول بين انجلترا وفرنسا فى تحديد ما ارتبطت به كل واحدة منهما فقالت الحكومة البريطانية ، جريا على سنتها فى مراوغة فرنسا حينما تدعوها الى الاقدام ، انها لم ترتبط بعمل معين بل لم ترتبط حتى بالعزم على العمل . وقالت الحكومة الفرنسية أن المذكرة تفقد حينئذ قيمتها وتصبح عبثا. ونحن ندع هذا الخلاف جانبا لانه من تاريخ المسألة السياسية لا من تاريخ الحياة النيابية، غير اننا نقول ان النية التى كان غامبتا يبيتها من وراء تلك المذكرة انفضحت حينما أرسل مكاتب التيمس فى ٣ فبراير (اي بعد ارسال المذكرة بأقل من شهر) الى جريدته يقول ان وزارة غامبتا كانت تعد سرا فى جنوب فرنسا حملة حربية ترسلها الى مصر[2]

---

(١) روى هذه الرواية بحذافيرها مراسل جريدة الطان الباريسية فى القاهرة اذ ذاك ونشرتها الجريدة فى عددها الصادر فى اول مارس سنة ١٨٨١

(٢). فوجئت الحكومة الفرنسية باذاعة هذا الخبر فحاولت ان تقضي عليه فاوعزت الى جريدتى البال مال غازيت والديلي نيوز بتكذيبه فرد مكاتب التيمس على هذا التكذيب بتأكيد الخبر و ببيان الاسلحة والوحدات الحربية التى اعدتها وزارة غامبتا لهذا الغرض ثم ذكر القائد الذى عينته لقيادة هذه القوات ـ (أشيل بيوفيس ص ٥١ و ٥٢)

لائحة شريف باشا

رأينا أن شريف باشا اخذ على نفسه،في كتابه الذى استصدر به فى ١٤ كتوبر سنة ١٨٨١ أمرا بعقد مجلس شورى النواب، ان يقدم لهذا المجلس مشروع « لائحة أساسية » لانشاء مجلس نواب ذى سلطة، ففي يوم ٢ يناير توجه الى مجلس شوري النواب وقدم له « اللائحة » التى وعد بها والقي خطابا نذكر هنا بعض فقراته وهى:

« لما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لاتلائم أفكارنا جميعاً كما أوضحت ذلك من منذ ثلاث سنوات وكررته بالمعروض الذي وقعته أخيراً للسدة الخديوية عن طلب اجتماع مجلسكم هذا فاشتغلت مع رفقائي بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العموم وقد تمت وها أنا الان أقدمها لحضراتكم للنظر فيها

« ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر كان يلزم أن السلطة التى تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدريج شيئا فشيئا ولكن حيث ان مقصدنا جميعا واحد وهو خير البلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم و واجباتهم ومحبتهم للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة فى ابداء آرائكم وحق المراقبة على افعال مأموري الحكومة من أي درجة وأى صنف كانوا ونصرح لكم بنظر الموازين العمومية وابداء رأيكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح . وقد التزمت الحكومة بعدم وضع أى ضريبة ولا نشر أى قانون أو لائحة مالم يكن بتصديق واقرار منكم . وكذلك تعهدت بان تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه اخلال بحقوقهم والغاية فانه لم يحجر عليكم فى شيء ما ولم يخرج أمر مهم عن حد نظركم ومراقبتكم

«انما لا يخفاكم الحالة المالية التى كانت عليها مصر مما أوجب عدم ثقة الحكومات الاجنبية بها ونشأ عن ذلك تكليفها بترتيب مصالح وتعهدها بالتزامات ليست خافية عليكم بعضها بعقود خصوصية والبعض بقانون التصفية فهل يتيسر للحكومة أن تجعل هذه الامور موضعا لنظرها أو نظر النواب ؟ حاشا لانه يجب علينا قبل كل شيء القيام بتعهداتنا وعدم خدشها بشيء ما حتى نصلح خللنا وتزداد ثقة العموم بنا ونكتسب امنية الحكومات الاجنبية . ومتى رأت منا تلك الحكومات

الكفاءة لتنفيذ تعهداتنا بحسن اخلاص بدون مساعدتها فنتخلص شيئا فشيئا مما نحن فيه ..... الخ »

أما « اللائحة » نفسها فلا داعى لاثباتها هنا بحذافيرها لأنها لم تصدر ولكننا نثبت منها مادار الخلاف حوله فكان سببا في سقوط وزارة شريف وهو :

« المادة ٣٠ — ميزانية مصروفات وايرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس النواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالاكثر

« المادة ٣١ — تقدم للمجلس ميزانية عموم الايرادات مع كشوفات عن كل نوع من أنواعها

« المادة ٣٢ — تنقسم ميزانية المصروفات الى أقسام متعددة يختص كل قسم منها بنظارة ثم يشتمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الادارة العمومية بتلك النظارة

« المادة ٣٣ — لمجلس النواب أن ينظر فى الميزانية ويبحث فيها وتعتمد بعد اقراره عليها . وعلى رئيس المجلس أن يبلغ ذلك الى ناظر المالية لغاية اليوم العشرين من شهر ديسمبر بالاكثر

« المادة ٣٤ — لا يجوز المجلس أن ينظر فى دفعيات الويركو المقرر للاستانة أو للدين العمومى أو فيما التزمت به الحكومة فى أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية» (١)

ومن هذه المواد يتضح أن شريف باشا أخرج من اختصاص المجلس ويركو الاستانة والدين العمومي وكل ما التزمت به الحكومة بناء على قانون التصفية او بناء

---

(١) نذكر هنا مواد أخري من مشروع اللائحة لاتخلو من اهمية وهى :

١٨ — اذا قرر قرار النواب على أن يستدعى للحضور بمجلسهم أحد النظار للاستيضاح منه عن مادة فعلى الناظر أن يذهب الى المجلس بنفسه أو يستنيب عنه أحد كبار الموظفين بديوانه ليجيب عما يسأل عنه وله أن يؤخر الجواب لاول مدة الافتتاح الثانى لا أكثر وعليه بيان الاسباب ومسئولية التأخير

١٩ — للنواب حق المراقبة على موظفى الحكومة جميعا فلهم بواسطة رئيس المجلس أن يشعروا كلا من النظار بما يرون لزوم الاخبار عنه من تعد أو خلل أو قصور نسب لاحد موظفى الحكومة التابعين لنظارته

:

على معاهدات عقدت بينها وبين الحكومات الاجنبية ولم يترك للمجلس من الميزانية الا ما دون ذلك أى ما لا يمس بحال أية مصلحة للدول أو للدائنين .وكان المخصص للدين العمومى وويركو الاستانة في ذلك الوقت وبعد قانون التصفية يعادل نصف ميزانية الحكومة أو يزيد عنه قليلا فكأن المجلس كان محروما من النظر فى أكثر من نصف الميزانية .

وقد قبل المجلس هذا الاختصاص المتواضع منذ أن تلى عليه رغبة منه فى أن

---

٢٠ ـ النظار متكافلون فى المسئولية أمام مجلس النواب عن كل ما يتقرر بمجلس النظار

٢١ ـ اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار واصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الاسباب ولم تستعف النظارة فلحضرة الخديوان يأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ان لا تتجاوز الفترة ثلاثة اشهر من تاريخ يوم الانفضاض الى يوم الاجتماع ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا نفس النواب السالفين او بعضهم

٢٢ـ اذا صدق المجلس الثاني على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخلاف عليه فينفذ الرأى المذكور قطعيا

٢٣ـ مشروعات اللوائح والقوانين تعمل بمعرفة الحكومة ويقدمها النظار لمجلس النواب لنظرها والبحث فيها واعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانونا معتبرا دستورا للعمل مالم يتل فى مجلس النواب بنداً فبنداً ويقرر حكما فحكما ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحضرة الخديوية واذا تراءى للمجلس لزوم سن قانون وطلبه من مجلس النظار بواسطة الرئيس فيجاب الى ذلك

٢٤ـ لايجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو عقارات أو ويركو فى الحكومة المصرية الا بمقتضي قانون مصدق عليه من مجلس النواب وعلى ذلك لا يجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوائد جديدة وكل جهة من جهات الحكومة امرت بتحصيل شيء من ذلك وكل مستخدم حرر كشوفات او تعريفات عنها وكل شخص باشر تحصيلها بدون قانون مصدق عليه من مجلس النواب يحاكم كمختلس وترد الحقوق لاربابها

يطمئن الدائنون وتطمئن الحكومات الاجنبية الى أنه ، وهو يعرف أن شطراً كبيراً من قروض اسماعيل لم يدفع وأن تمسك الدائنين به وبفوائده الباهظة ليس سوى سرقة ، يحترم هذه القروض ولا يتعرض لمصلحة مالية من مصالح الاجانب والحكومات الاجنبية بسوء . ولكن انجلترا وفرنسا لم ترضيا حتى بهذا الاعتدال وشرعتا فى الحال تهاجمان المجلس لانهما كانتا تريدان أن تقضيا على نزعته ونزعة الحركة الوطنية على العموم الى انقاذ الحكومة من سيطرتهما وانقاذ البلاد من مهاوى الضياع .

فى ميدان النضال

ولم تتردد انجلترا وفرنسا فى أن تعلنا الحرب على المجلس عملا بمذكرة ٧ يناير فافهمتا شريف باشا أنهما لا توافقان على المادة الثالثة والثلاثين من مشروعه لانها تعطى المجلس حق « تقرير » جزء من الميزانية . فابلغ شريف باشا المجلس ان النظارة من أجل ذلك تعدل المادة الثالثة والثلاثين بما يجعل الرأى الذي يبديه مجلس النواب فى الميزانية استشاريا .

وكان المجلس قد الف لجنة من ستة عشر عضواً من أعضائه برياسة سلطان باشا لدرس المشروع وتقديم تقرير عنه فبدا فى الحال أن هذه اللجنة والنواب جميعا يتشبثون بان يكون لهم الحق المطلق في تقرير الميزانية فيما خلا ما استثنته المادة الرابعة والثلاثون من المشروع ، فما كادت نيتهم هذه تعرف حتى كتب المراقبان الاجنبيان في ١٢ يناير يحتجان عليها فقالا [١] :

« يظهر ان مجلس شورى النواب يتهيأ لان يطلب حق تقرير الميزانية ، ولهذا نرى من واجبنا ان نقول ان اعطاء النواب هذا الحق ، ولو اقتصر على الادارات والمصالح التي لم تخصص ايراداتها للدين ، يفسد الضمانات المعطاة للدائنين ، لانه سيكون من نتائجه الضرورية أن تنتقل ادارة البلاد من يد مجلس النظار الى يد مجلس النواب » .

---

٤٣ ـ كل قرار يترتب عليه مسئولية النظار لا يجوز صدوره الا بالاغلبية المتوفرة منها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالجلسة

(١) دى فريسينيه ص ٢٢٤

وبهذا أعلن المراقبان ان النظرية التي تتمسك بها انجلترا وفرنسا هي أن تبقى ادارة البلاد فى يد مجاس النظار لكي يمكن ان تبقي خاضعة لسيطرتهما ، فما كاد النواب يعرفون ذلك حتى اشتد بهم الاستياء وصمموا على ان يثبتوا فى الدفاع عن حقهم . وقد يحسن أن ننقل هنا ردهم على احتجاج المراقبين فقد روى عنهم دى فريسينيه [1] « أنهم لم يقبلوا أن تكون بلادهم متاعا مرهونا فى يد الدائنين وان يكون عليهم ، لازالة كل شاغل يساور هؤلاء الدائنين ، ان يقبلوا الحرمان من الحقوق الاولية التى تملكها كل أمة متمدينة . وكان مما لاحظوه في ذلك ان هناك حكومات ترزح تحت ديونها أكثر مما ترزح الحكومة المصرية بل هناك حكومات مزقت تعهداتها ورفضت ان تدفع ما عليها ولكنها كلها لم تحرم مع ذلك من حقها في أن تحكم نفسها بنفسها . أمام ، ودائنوهم لا يجدون محلا للشكوى منهم ، فانهم يمنعون من أن يدخلوا على قوانينهم ، بالاتفاق مع خديويهم ، اصلاحات يعترف الكل بفائدتها للحكومات والشعوب »

وننقل أيضاً ما كتبه فى مثل ذلك مسيو سينكويكز قنصل فرنسا العام من تقرير أرسله الى حكومته فى ١٥ يناير وهو [2] : « يصدر مجلس شورى النواب في مطالبته بان يكون صاحب الرأى النافذ فى تقرير الميزانية عن اعتقاده بان له الحق فى أن يراقب باسم الامة سير الادارة في مجموعه والطرق التى تستخدم بها موارد البلاد . ويقول المجلس انه يحترم كل الاتفاقات الدولية ، بل يحترم حتى بقاء الموظفين الاجانب فى وظائفهم ، غير انه يحفظ لنفسه الحق في الاقتصاد ليعجل بسداد الدين العمومي »

ونعود بعد ذلك الى سرد الحوادث فنقول ان لجنة المجلس فرغت فى أيام قليلة من النظر فى مشروع شريف باشا ، وكانت قد أخذت من المجلس تفويضا فى أن تتفاوض مع النظارة رأسا فقدمت لشريف باشا يوم ١٥ يناير التعديلات التى رأت أن تدخلها على المشروع ومنها بقاء المادتين الثالثة والثلاثين والرابعة والثلاثين على أصلهما ، أى أن يكون للمجلس حق تقرير الميزانية فيما خلا الوبركو والدين العمومي

(١) ص ٢٢٤

(٢) دى فريسينيه ص ٢٢٣

وما التزمت به الحكومة في قانون التصفية أو فى المعاهدات الدولية،فلم يقبل شريف باشا هذه التعديلات . وفى هذا اليوم نفسه أرسل غامبتا الى قنصل فرنسا العام التلغراف الآتي [1] :

« اطلعت على المذكرة التى سلمها اليك المراقبان وأنا أوافق عليها وعلى النصائح التى تبذلها لشريف باشا . فثابر على اتخاذ هذا الحزم »

وأرسل اللورد جرنفل الى قنصل انجلترا العام السيرماليت مثل هذه التعليمات. ثم اقترح ماليت على النواب أن يكون رأيهم استشاريا الى ثلاث سنوات وأن يتحول بعد ذلك الى رأي قطعى ، وكاف مستر بلنت أن يقنعهم بقبول هذا الحل، فكتب قنصل فرنسا الىغامبتا يساله رأيه فيه فجاءه الجواب بالرفض ، وفي الوقت نفسه عاد مستربلنتالى ماليت يخبره بان اقتراحه لم يلق من النواب وزعماء الحركة الوطنية غير الرفض واليك ما كتبه فى ذلك [2] :

« بعد ان تداولات مع الشيخ محمد عبده الذى كان كدأبه من الميل الى التبصر والمسالمة اتفقنا على ان التقى في منزله بوفد منهم لاناقشهم وأريهم النتائج المحتملة للمقاومة أى التدخل المسلح . ومن ثم قيدت وجهة نظر المراقبين الماليين مع كلفن (هو المراقب الانجليزى) ووضعت مع ماليت قواعد المناقشة التى عولت على استخدامها . . . . وكانت تعليماتى تنحصر فى ان أذكر لاعضاء الوفد ان اجراءات الميزانية الحاضرة انما هى مسألة دولية لايستطيع شريف باشا ولا البرلمان ان يمسها بغير موافقة الحكومتين الرقيبتين.وكان علىّ ان أقص تاريخ انشاء المراقبة المالية وأريهم مذكرة خاصة وضعها ماليت وفونج قنصل فرنسا الجنرال وارفقها بالمنشور الذى نص على انشاء المراقبة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ وان أطلب اليهم ان يتدبروا هل مع ذلك تكون مسألة تغيير اجراءات اصدار الميزانية مسألة دولية او ليست كذلك.وهل اذا كانت كذلك ألا تكون خارج دائرة اختصاصهم بعد ان اعترفوا بان المسائل الدولية يجب انلا تمس . وخولى لى كلفن ان اقول انه هو شخصيا لا يمانع فى تعديل الاجراءاتالحاضرة تعديلا طفيفا بحيث يعطى للمجلس

---

(١) دى فريسينيه ص ٢٢٥

(٢) ص ١٤٢ من هذا الكتاب

حق استشارى قد يتحول فيما بعد الى حق اقتراع . فاذا قبلوا ذلك عرض ماليت المسألة على حكومته بصورة حسنة وان كان لا يستطيع ان يطمئن على قبولها من جانب انجلترا او فرنسا.اما سائر خلافاتهم مع شريف فعليهم ان يسووها معه بانفسهم.

«على هذه القاعدة وبمساعدة صابونجى والاستاذ الشيخ محمد عبده ناقشتهم طويلا فى المسألة ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتنعت بانهم لا يذعنون . نعم انهم وافقوا على تعديل ثلاث او اربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الاساسية وادمجوا التعديلات التى اقترحتها عليهم فيما يختص بها فى اللائحة ولكنهم تشبثوا برأيهم فى مسألة الميزانية على الرغم من مساعدة الاستاذ محمد عبده لى ولم يقبلوا ان يغيروا سطراً من المادة الخاصة بها . فعدت مطأطىء الرأس لابلغ ماليت حكاية فشلى»

ثم قال مستر بلنت بعد ذلك :

« ومع انى بذلت كل جهدي لاحمل الاعيان (يريد النواب) على الاذعان تحت تأثير اعتقادى بانهم مهددون بالتدخل الاوربى لم يسعنى مع ذلك الا الاعتراف بانهم على حق فى طلبهم السلطة على نصف الميزانية اذا كان الحكم البرلمانى سيكون حقيقة لا تمويها »

وقال بعد ذلك أيضاً :

« وتدل تلغرافات ماليت فى ذلك الحين على ان الاعيان (اى النواب) كانوا يداً واحدة فى هذا الصدد حتى ان سلطان باشا الذى كان بطبعه رجلا ضعيفا يسهل ارهابه اعلن بصريح العبارة ان دستور شريف باشا كالطبلة تحدث صوتا عاليا ولكنها فارغة »

ذلك ما كتبه مستر بلنت عن وساطته وهو ناطق بأن قنصلي فرنسا وانجلترا لم يجدا سببا صحيحا يهاجمان به موقف الحق والاعتدال الذى وقفه النواب ، وانهما لذلك حاولا أن يدخلا عليهم ان النظر في الميزانية مسألة دولية فلم يفلحا لان النواب كانوا من سلامة الفهم بحيث لا تجوز عليهم هذه الخدعة . وها هو ذا مستر بلنت يعترف بانه وان كان قد جادلهم واجتهد فى اقناعهم إلا أنه كان يشعر في داخلية نفسه بانهم على الحق وان ما يريد اقناعهم به هو الباطل . وهم ما ثبتوا فى موقفهم هذا الثبات ولا تشبثوا به هذا التشبث الا لانهم كانوا قد ذاقوا الآلام من جراء

الحكم المطلق ورأوا الخطر داهما على استقلال البلاد فكانوا من أجل ذلك يريدون الحكم البرلماني ، كما يقول مستر بلنت ، حقيقة لا تموبها .

تواضع آخر في طلبات النواب

ولكن الدولتين ترفضانه

فينتصر النواب ويستقيل شريف باشا

واقترحت الحكومة بعد ذلك على النواب أن يبقى رأى المجلس استشاريا ولكن تعدل المادة الثانية والثلاثون بما يجعل ميزانية المصروفات منقسمة الى أبواب اكثر فرفض النواب قائلين ان قسمة الميزانية الى أبواب اكثر أو أقل لاتفيد شيئا ما دام المجلس لا يملك حق التقرير . وأخيراً رأوا أن يقدموا برهانا جديداً على أنهم يذهبون في مسالمتهم وتواضع طلباتهم الى أدنى حد ممكن فاجتمعت لجنتهم يوم ٢٠ يناير وقررت أن تقترح على شريف باشا حسما للخلاف أن يعين المجلس عدداً من أعضائه مماثلا لعدد النظار فيكون هؤلاء وأولئك هم الذين يقررون الميزانية ويكون لرئيس النظار صوت مرجح عند الاختلاف وتساوى الاصوات في الفريقين . وحمل سلطان باشا هذا الاقتراح فى اليوم التالي الى شريف باشا فعرضه هذا على قنصلى انجلترا وفرنسا [١] فقالا انهما سيرفعانه الى حكومتيهما . وفى ٢٣ يناير جاء جواب غامبتا بالرفض القاطع ثم جواب اللورد جرنفيل بالرفض أيضا ولكن مع التلويح باحتمال الاتفاق فى مسائل أخرى جزئية [٢]

ومضى بعد هذا أسبوع وضع شريف باشا فى أثنائه مشروع لائحة جديد حذف منه المادة الخاصة بالميزانية وأدخل على مواده الاخرى شيئا من التعديل ثم أرسله الى المجلس فى ٣١ يناير وأرسل معه كتابا هذا نصه :

« ان جناب قنصلى فرنسا وانجلترا الجنرالين قدما للحكومة مذكرة تتضمن ثلاثة امور وهى اولا ان حكومتى فرنسا وانجلترا تريان أن الاتفاقات الدولية المتعلقة

---

(١) دى فريسينيه ص ٢٢٦

(٢) المصدر السابق

بالامور المالية لا تسمح للحكومة المصرية بان تمنح مجلس النواب حق تقرير الميزانية تقريراً قطعيا. ثانيا ان القنصلين المومأ اليهما مستعدان لفتح مخابرات للاتفاق على هذه المسالة . ثالثا ان فتح المخابرات بناء على طلب الحكومة لا يكون الا بعد تمام الاتفاق قطعيا بين النظارة ومجلس النواب

« وحيث قد علم من القومسيون المذكور (يريد اللجنة التى عينها المجلس للنظر فى مشروع اللائحة) ان النواب يريدون الاشتراك فى تقرير الميزانية ومن الواجب حينئذ ان يحصل الاتفاق على سائر بنود اللائحة ما عدا ما يتعلق بالميزانية فبعد تكرار المذاكرة بين النظارة و بين القومسيون المذكور قبلت الحكومة مشروع اللائحة المرفوقة مع هذا . فارجو من سعادتكم التصديق عليه من المجلس بشرط ان قبول المجلس به لا يعد قطعيا ولا يترتب عليه تنفيذ تلك اللائحة الا بعد الاتفاق على مسالة الميزانية ودرجها بها . اما ما يختص بهذه المسالة فان الحكومة مستعدة للمخابرة انما يلزم ان يكون طلبها صريحا مستوفيا ولهذا فالامل ان مجلس النواب يصرح بافكاره فى هذه المسالة كتابة و يعمل عنها البنود المترائى لها اعمالها حتى تكون اساسا المخابرة »

فقابل النواب هذا الكتاب بالامتعاض لأنهم رأوا فيه ان شريف باشا يدخل انجلترا وفرنسا في مسألة هى من جهة أساسية في نظام الحكم ومن جهة اخرى داخلية ليس لهما أن يدخلا فيها . وكانوا قد امتعضوا منه قبل ذلك لسكوته على مذكرة ٧ يناير كما امتعضوا منه لعدوله عما وضعه بيده فى مشروعه الاول خاصا بسلطة المجلس في الميزانية ولانضمامه الى الدولتين فى وقوفها في وجه المجلس وحيلولتهما دون أن ينقذ الحكومة من السيطرة الاجنبية . فاجتمع فريق كبير منهم فى اليوم نفسه فى بيت سلطان باشا وتداولوا فى ذلك طويلا ، ثم اجتمع المجلس فى اليوم التالى (١٢ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ — أول فبراير سنة ١٨٨٢) اجتماعا غير عادي فبدأ الرئيس فقال :

« اعيدت من جانب مجلس النظار لائحة مجلسنا الاساسية التى نظرت فى اللجنة المعينة لذلك مشفوعة بافادة رياسة مجلس النظار المشار اليه تتعلق باللائحة عموما و ببند النظر فى الميزانية خصوصا فعقدت هذه الجلسة ليعرض ذلك على هيئة المجلس مع تقرير اجمالى من اللجنة المذكورة »

ثم تلى تقرير اللجنة وهذا نصه :

« ان اللجنة التى انتدبتموها للنظر في مشروع لائحة المجلس الاساسية المرسلة من جانب الحكومة قد نهضت بهذه المهمة وعقدت لها جلستها الاولى فى يوم

الثلاثاء ١٣ صفر سنة ١٢٩٩ بوجود عزتلو بطرس بك غالى كاتب اسرار مجلس النظار (سابقا)(١) مندوبا عن الحكومة فقرأت وعدلت وقررت نحو نصف اللائحة بحضور المندوب المشار اليه ثم توالت جلساتها بغير وجوده حتى اتت على آخر الواجب بحثا وتعديلا واستكملت وضع اللائحة الاساسية على الصورة التى حسبتها موافقة للاحوال حافظة لحقوق المجلس مع الرعاية لجميع العهود والمواثيق المرعية

« وبعد أن فرغت من ذلك ارسلت صورة اللائحة على حسب ما انتهت اليه فى تعديلها الى جانب مجلس النظار لتنظر فيه . ثم جرت بينها وبين المجلس المشار اليه مخابرات ومفاوضات شبيهة بالرسمية على عدة بنود من اللائحة فاقامت الادلة على أحقية ما عدلته وما وضعته مقبولا معظم بنودها ومغيراً بعضها ومحذوفا منها بند النظر فى الميزانية لتقريرها فى مجلس النواب . فأما البنود المغيرة فان المقارنة بين الاصل والمرسل من اللجنة والنسخة الواردة من مجلس النظار تبين لحضراتكم ماحصل فيها من التغيير ومكان ذلك من الاهمية أو عدم الاهمية ومحله من القبول اوالرفض واما بند الميزانية فقد كان السبب فى حذفه مايفهم من منطوق الافادة الواردة من رياسة مجلس النظار .

« وقد رأت اللجنة ان واجباتها وحقوقها تقف عند هذا الحد من المخابرة ولذلك فهى تعرض لحضراتكم نص اللائحة الاصلية الواردة اولا من جانب الحكومة ، ثم نص تلك اللائحة بعد تعديلها فى اللجنة ، ثم صورتها الواردة بالامس من جانب مجلس النظار بالتغيير والحذف السابق ذكرها ، مع الافادة المنوه عنها ليعلم بذلك ما اجرته اللجنة وما آل الامر اليه . فاما ان يفوض الينا من لدنكم حق وحدود جديدة فى القبول او الرفض او تتميم المخابرة واما ان يتولى المجلس هذا الامر بنفسه والله ولى الامور »

ثم جرت المناقشة فتقرر أولا أن تجتمع لجنة المجلس لتنظر في التغييرات الاخيرة التى أحدثها مجلس النظار فى مشروع اللائحة وفي الكتاب الوارد مع هذه التغييرات من رياسة مجلس النظار لان اللجنة « ادري باطراف المسألة واعرف بأصولها وفروعها».

---

(١) كلمة (سابقا) هذه موجودة فى صلب تقرير اللجنة وذلك لان بطرس بك غالى كان سكرتيراً لمجلس النظار حينما بدات اللجنة تنظر فى المشروع ثم نقل اثناء نظرها فيه الى منصب آخر

وثانيا ان يكون اجتماع اللجنة لهذا الغرض فى اليوم نفسه وان تقدم تقريرها ظهر اليوم التالى . وثالثا أن يجتمع المجلس ظهر اليوم التـالى ليفصل فى الموضوع كله بقرار حاسم .

وفي الحال اجتمعت اللجنة فبحثت وتناقشت ثم عادت الى الاجتماع صباح اليوم التالى فوضعت تقريرها ورفعته الى المجلس وهو :

« عقدت هذه اللجنة امس الاربعاء الساعة ٩ وربع فاعادت النظر فى مشروع اللائحة الاساسية المعاد الى المجلس من جانب مجلس النظار وجرت مبـادلة الراى بينها و بين اعضاء اللجنة الذين كلفوا بمذاكرة النظـار فى بعض اوجه التسوية . وبعد المفاوضة والمداولة قبلت ما احدثه مجلس النظار من التغيير فى اللائحة وردت البعض الآخر الى اصله باعتقاد انه اوفى بالمصلحة واوقع في بابه . ثم وضعت للنظر في الميزانية والاشتراك فى تقريرها ثلاثة بنود واثبتت هذه البنود فى النسخة المعروضة الان لديكم .

« وقد تلي فيها رقيم دولة رئيس النظار فوقع لديها موقع الاستغراب لعلمها بان المسالة التى بين الحـكومة ومجلس النواب داخلية محضة لاتقتضي ازعاج اى خاطر بالتداخل والوساطة ولا سيما بعد تساهل النواب الى حد الرضا بالمشاركة فى تقرير الميزانية ليس غير

« على انها لم ترد ان تعد لذلك الرقيم جوابا لسببين الاول انها رأته من الاهمية بحيث ينبغى له راى الهيئة بجملتها والثاني انها تؤثر على مطال المراسلة سرعة المشافهة بمعنى انها ترى من الملائم حسم الامر بوجه السرعة اجتنابا للمخابرة وتصريحا بكون المجلس يرى ان تقرير الميزانية من حقوق الحـكومة دون سواها وانها قادرة على اعطاء هذا الحق لمجلس النواب ارضاء للراى العمومى وعملا بما تقتضيه المصلحة الوطنية وحسما للخلاف

« فاذا حسن لدى الهيئة هذا الرأى فليعد على سمعها نص اللائحة ببيان ما احدثته الحكومة فيها من التغيير وما قبلته اللجنة من ذلك وما ردته الى الاصل ولها فى امر تعيين الوفد او توقيع الجواب على رقيم رياسة النظار رايها العالى موفقا للصواب ان شاء الله تعالى »

أما البنود التي جاء في هذا التقرير أن اللجنة وضعتها للنظر في الميزانية والاشتراك في تقريرها فهي :

« تعرض الميزانية على مجلس النواب فينظر ويبحث فيها ويعين من اعضائه لجنة مساوية لمجلس النظار عدداً ورايا ليقرروها جميعا بالاتفاق او الغالبية فان وقع بينهم خلاف وكان العدد متساويا من الجانبين وجب اعادة الميزانية للنواب فاما ان يؤيدوا رأى النظار واما ان يؤيدوا راى لجنة النواب فان كان الاول وجب تنفيذ الميزانية وان كان الثاني ولم يمكن حصول الوفاق كان الحكم فى ذلك حكم بند الخلاف وهو انه عند وقوع الخلاف بين النظار والنواب على امر ما فاما ان يفض مجلس النواب واما ان يستعفى النظار وفي هذه الحال اى اذا ايد النواب راى اللجنة وخالفوا راى النظار تنفذ الميزانية فى المهم الضرورى منها لادارة المصالح وعدم تاخير الاشغال تنفيذا موقتا ويبقى الباقى من أمر الميزانية الى مابعد تسوية المسالة باى طريقة ووسيلة »

ومعنى هذا ان اللجنة نزلت ، كما قالت هي، عن المطالبة بحق تقرير الميزانية واكتفت بطلب المشاركة فيه

ثم عقد المجلس فتلى عليه تقرير اللجنة والتعديل الذى وضعته للمادة الخاصة بالميزانية ثم جرت المناقشة كما يأتى [1] :

« محمد بك الشواربى — لا باس فى تشكيل لجنه تسير الى الجناب الخديوى طالبة من حضرته السنية اقرار اللائحة التى استقرت عليها آراء النواب فذلك ادنى للنتيجة واولى من المراسلة خصوصا بعد ظهور المسالة بالمظهر الجديد المنوه عنه فى رقيم مجلس النظار

« ابراهيم افندى الوكيل — اوافق على راى حضرة محمد بك الشواربى فى ارسال اللجنة . ولكن ارى ان تسير اولا الى دولة رئيس مجلس النظار فتذكر له سوء تأثير رقيمه فى المجلس وتطلب منه التصديق على اللائحة بلا مخابرة ولا تأجيل . فان ابى فاللجنة تقصد الجناب العالى وتساله التصديق على قبول اللائحة سريعا

« احمد افندى عبد الغفار — ارى ان يكتب مع ذلك رد الرقيم بانكار ما فيه لكي لا يحسب السكوت عنه اعترافا به وقبولا

« احمد افندى محمود — ان سير اللجنة على الوجه السابق الذكر كاف فى رد

(١) هذه المناقشة منقولة حرفا بحرف من محضر الجلسة

الرقيم وحاسم للامر بلا مراء . ومع هذا فان تقرير اللجنة الذى تلى الان علينا وقبل مضمونه بالاتفاق رد لا مشاحة فيه يثبت فى سجل المجلس وينشر فيعلم لدى الرأى العمومى

« بعض النواب — احسنت

« الرئيس — يحسن اخذ الاراء على قبول تعيين اللجنة برفع الايدى علامة القبول

« قبول عمومى

« احمد افندى عبد الغفار — ان وافق فليكن عدد اعضاء اللجنة عشرة

« محمد بك الشواربى — بل خمسة عشر

« الجميع — فى محله »

واختار المجلس فى الحال خمسة عشر عضواً من أعضائه يسيرون الى شريف باشا ثم الى الخديو وكلفهم ان يؤدوا مهمتهم قبل أن ينقضي النهار ، فساروا الى شريف باشا في نظارة الداخلية وقدموا اليه التعديل الاخير الذى أقره المجلس لمادة الميزانية وقالوا [١] :

«ان تأخير تنفيذ اللائحة جالب للفشل ولهذا عقدنا النية على ألا نترك هذا اليوم يمضي بغير قبولها او رفضها »

فجعل يلاطفهم وقال : «تعلمون اني منذ أخذتم فى تنظيم لائحتكم هذه لم اتعرض لشيء من امتيازاتكم سوى ما تطلبونه من رؤية ميزانية الخزينة وابداء رأيكم فيها على انى ما زلت لا أتحول عن هذا الرأى فلذلك لم أصادق على ما رأيتموه من أمر الميزانية الا بعد رضا الدول ذوات الشأن »

فقالوا : «ان هذا من خصائصك ولا دخل للدول فيه فان مسألتنا لا تمس مالهم من الحقوق ولا تضر لهم مصلحة »

فقال : « لا سبيل الى ذلك البتة »

فقال جماعة منهم : « انا نأسف جدا ان يصادق لنا على اللائحة غيرك » . يريدون بذلك انهم سيطلبون من الخديو اسقاط وزارته .

---

(١) انظر « الكافى فى تاريخ مصر القديم والحديث » لميخائيل شاروبيم بك جزء ٤ ص ٢٧٣ و ٢٧٤

ثم خرجوا متجهين الى قصر عابدين وفيه قابلوا الخديو وقالوا : «انا جازمون بمحبة مولانا للوطن وميله الى اصلاحه ولهذه الغاية منح الامة المصرية حقوق الشورى وفتح مجلسها فنظمنا له هذه اللائحة وتقحناها وطلبنا الي الوزير محمد شريف باشا ان يوقعها فلم يقبل حالة كوننا لم نتعرض لشيء مما فى العقود الدولية »

فقال الخديو : « اذا كانت الوزارة قد أبت التصديق على اللائحة فماذا تطلبون»

فقالوا : « نطلب ان تعزل فتشكل وزارة اخرى لا تأبى التصديق والعمل معنا »

فسألهم [1] : « وبأى حق تطلبون هذا »

فاجابوا [2] : « تلك هى إرادة الامة »

فوعدهم بالجواب غداً، فانصرفوا وأرسل فاستدعى شريف باشا وقنصلى انجلترا وفرنسا فبعد أن تداول معهم ساعة استقر رأيهم على أن يستقيل شريف باشا وان يترك الخديو للنواب اختيار الوزارة الجديدة[3] وحينئذ لم ينتظر الخديو الى غد بل أرسل فى المساء الى الخمسة عشر نائباً فلما جاءوا أخبرهم باستقالة شريف باشا وسألهم ممن تؤلف الوزارة التى تخلف وزارته . فقالوا ان اختيار الوزراء من حق الخديو. فاصر، فاصرواهم أيضا على الامتناع ،وأخيراً عادوا في الصباح (الجمعة ٣ فبراير) فابلغوه أنهم يشيرون بمحمود سامى لرياسة الوزارة على شرط أن يصدق على اللائحة ، فكان ما أرادوا

انجلترا وفرنسا هما المشريتان

هنا نقف لحظة لنقول ان انجلترا وفرنسا هما اللتان خلقتا بتحرشهما وسوء نيتهما هذه الازمة لانهما بارسالها مذكرة ٧ يناير لغير ما سبب تحرشتا بالمجلس وبادرتاه بالعدوان وحاولاتا أن تعزلا الخديو ، أو بعبارة أخرى الحكومة ،من الامة. ثم لانهما أرادتا بعد ذلك أن تمنعا النواب من أن تكون لهم سلطة على الميزانية حتى فى الجزء الذى

---

(١) و (٢) أشيل بيوفيس ص ٦٥

(٣) المصدر السابق

لا مساس له منها بالدول ولا بالدائنين . وما كان المجلس في كل أدوار الازمة الا واقفاً موقف الدفاع ضد هجمات الدولتين ، وقد تواضع فى طلباته حتى ذهب الى طلب الاشتراك فى تقرير الميزانية ، لا الانفراد بتقريرها ، فاصرت الدولتان على الرفض فكانتا معتديتين أولا وأخيراً وكان اعتداؤهما حلقة من خطة سياسية أريد منها أن تؤدي فى النهاية الى التدخل المسلح . وكل من يقرأ الرسائل والمذكرات التى كانتا تتبادلانها في تلك الايام يرى بسهولة أن نية التدخل والاستيلاء على مصر كانت جلية عندهما على السواء ولكن شيئا واحداً كان يفصلهما وهو أن انجلترا كانت تريد هذا التدخل لها وحدها ، أما فرنسا فكانت تعرف هذا القصد من زميلتها وكانت تخشي أن يتم فكان وزيرها غامبتا يدفع الحوادث دفعاً لكي تتدخل الدولتان معاً ثم لما استقال غامبتا في ٢٦ يناير سنة ١٨٨٢ وخلفه دى فريسينيه في رياسة الوزارة لم تتغير هذه الخطة وانما تغيرت الوسيلة اليها وصارت فرنسا لا تدفع الحوادث توصلا الى التدخل بل تجر أوربا للاشتراك مع الدولتين عسى أن يحول ذلك دون الغرض الذى تعمل له الحكومة البريطانية .

فالدولتان كانتا في شهرى يناير وفبراير تحاربان المجلس والحركة الوطنية كلها عملا بسياسة الاعتداء التى أعلنتاها فى مذكرة ٧ يناير . ولسنا نقول هذا وحدنا وانما يقوله معنا قنصل فرنسا العام اذ ذاك مسيو سينكويكز فقد كتب فى ٢٩ يناير سنة ١٨٨٢ الى حكومته تقريراً قال فيه [1] :

« ان الرغبة البادية على مجلس النواب من جانب فى ان يصير برلمانا ، والخطة القوية التى رأت الدولتان من جانب آخر ان تختاراها والتى كانت مذكرة ٧ يناير تعبيراً عنها ، هما السببان الجوهريان اللذان اصطدم كل منهما بالآخر فاوجدا الموقف الحالى

« وفى الواقع انني كلفت ان أقدم تلك المذكرة بالاتفاق مع السير ادوارد ماليت للخديو فى الوقت الذى بدئ فيه بالتكلم جديا فى اعظم مسألة تشغل الافكار فى الوقت الحاضر وهى مسألة الميزانية . ولهذه المذكرة أهمية عظمى لانها ترسم خطة الدولتين رسما جليا صريحا فتؤكد أن من الضرورى ان يبقى النظام الحالى على ماهو عليه

(١) دى فريسينيه ص ٢٢٨

ولا تعير وجود الحزب الوطني أدنى التفات . . . . ولقد أدركت الدولتان حق الادراك ما كان مقدراً لارادتهما هذه ان تجده من معارضة الحزب الوطني ومعارضة غيره في خارج مصر فصرحتا بانهما مستعدتان لمقاومة الارتباكات الداخلية والخارجية التي يمكن ان تهدد النظام الحالي »

وكتب الى حكومته يوم ٦ فبراير يقول (١) :

« يمكن ان يقال ان الانقلاب الذي أحدثه مجلس النواب المصرى جواب منه على مذكرة ٧ يناير . فلقد أعلنا في هذه المذكرة اننا نحتفظ بالنظام الحالي ضد الجميع فاجاب المجلس على ذلك بان غير هذا النظام تغييراً جوهريا . وبذلك وضعنا أنفسنا في موضع صارت الضرورة قاضية علينا فيه بان نتدخل او نعدل سياستنا » (٢)

وهذا اعتراف جلي بان بالدولتين هما اللتان تعمدتا سياسة تؤدى بهما الى التدخل المسلح

وكتبت جريدة التيمس في ٨ يناير سنة ١٨٨٢ تقول :

« ان السير ادوارد ماليت كتب في ٩ يناير الى رئيسه يقول ان مذكرة ٧ يناير أبعدت عنا كل ثقة . لقد كان كل شيء يسير سيراً حسناً وكان ينظر الى انجلترا كما ينظر الى دولة بارة مخلصة لمصر اما الآن فالمصريون يعتقدون ان انجلترا ألقت بنفسها في احضان فرنسا وان فرنسا تحملها أسباب خاصة بحربها التونسية على التدخل هنا »

المجلس في وزارة محمود سامي

صدر الامر لمحمود سامي في ٤ فبراير بان يؤلف الوزارة فالفها ورفع الى الخديو كتابا طمأن فيه الاجانب على احترام التعهدات الناشئة من قانون التصفية والادارات الخاصة بالدين العمومي ثم قال :

« وقد كان أبدا في خلد عظمتكم ان لا بد من مساعدة مجلس شورى لاتمام الاصلاحات الداخلية بحكمة ووثوق . وبناء على ذلك تشكل مجلس النواب الحالي

(١) أشيل بيوفيس ص ٦٦

(٢) نثبت هنا نص هذه الجملة الاخيرة باللغة الفرنسية وهو :

Nous nous sommes placés ainsi dans la nécessité d'intervenir ou de modifier notre politique.

والوزارة أيضا من هذا الراي وهي ستوجه همتها وعنايتها الى اصلاح المحاكم والمجالس وانتظام الادارة واجراء التحسين اللازم فى أمر المعارف العمومية مساعدة للبلاد على السير فى سبيل المدنية والنجاح . وستنظر فى اتخاذ الوسائل الآيلة الى اتساع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وتصرف عنايتها الى سائر المشروعات الاصلاحية التي كانت موضوع امانى عظمتكم . ولكنها قبل كل شيء ترى من الواجب ان تعين اختصاصات مجلس النواب ليتيسر له ان ياتى الحكومة بما تنتظر منه من المساعدة وان يحقق آمال البلاد المحصورة فيه . ولذلك فاول شيء تشرع فيه الوزارة هو وضع نظام اساسى للمجلس المومأ اليه ويكون من احكام هذا النظام احترام جميع الحقوق الممتازة والعهود الدولية وكل التعهدات المتعلقة بالدين العمومى وما توجب هذه التعهدات درجه فى برنامج الحكومة وتحديد التبعة التى تلحق الوزارة امام المجلس وكيفية المخابرة والمباحثة في أمر القوانين ووضعها وتنظيمها . وسيكون هذا النظام الاساسى محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم بعيداً من ان يكون سببا لقلق البال »

فرد عليه الخديو بكتاب قال فيه :

« . . . . ونوافق على رأيكم المتضمن انه يجب على حكومتنا اتخاذ الوسائل اللازمة لاتمام الاصلاحات القضائية والادارية ونشر قانون أساسي لمجلس النواب ينطبق على الآراء التى أبديتموها فى لائحتكم »

وفى ٦ فبراير نظر مجلس النظار في مشروع اللائحة الاساسية فوضعه فى الصيغة التي ترضي مجلس شورى النواب . وفي ٧ فبراير عقد المجلس وجاءه ناظر المعارف عبدالله فكرى باشا وناظر الاوقاف حسن الشريعى باشا وقدما اليه المشروع في صيغته الجديدة فصادق عليه النواب بالاجماع [1] وهذه هي المواد الخاصة فيه بسلطة المجلس على الميزانية :

« ٣٤ — لايجوز للمجلس ان ينظر فى دفعيات الويركو المقرر للاستانة او الدين العمومى او فيما التزمت به الحكومة فى امر الدين بناء على لائحة التصفية او المعاهدات التى حصلت بينها و بين الحكومات الاجنبية

٣٥ — ترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها (بمراعاة البند السابق) ويعين لها لجنة من اعضائه مساوية بالعدد والرأى لاعضاء مجلس النظار ورئيسه لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروها بالاتفاق أو بالاكثرية

---

(١) نص هذه اللائحة منشور فى ذيل هذا الكتاب من ص٤٤٨ الى ص٤٥٤

٣٦ ـــ اذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى العدد فيه فالميزانية تعود الى مجلس النواب فان أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وان أثبت رأى لجنته فيكون العمل بمقتضي المادة ٢٣ و٢٤ من هـذه اللائحة . وأما ما حصل فيه الخلاف من الميزانية فاذا كان مقررا فى ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصوصا لاعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفذ موقتا الى أن يعقد المجلس الثانى بمقتضى المادة ٢٣

٣٧ ـ اذا أيد المجلس الثانى رأى المجلس الاول فى أمر الميزانيـة وجب تنفيذ الرأى المذكور قطعيا كما في المادة ٢٣ »

اما المادتان ٢٣ و٢٤ اللتان أشير اليهما في هذه المواد فهما :

« ٢٣ ـ اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظـار وأصر كل علي رأيه بعد تكرار المخابرة و بيان الاسباب ولم تستعف النظارة فللحضرة الخديوية أن تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط أن لا تتجاوز الفترة ثلاثة أشهر من تاريخ يوم الانفضاض الى يوم الاجتماع . ويجوز لارباب الانتخاب أن ينتخبوا نفس النواب السالفين أو بعضهم

٢٤ ـ اذا صدق المجلس الثانى على رأى المجلس الاول الذى ترتب الخـلاف عليه ينفذ الرأى المذكور قطعيا »

وفي يوم ٨ فبراير كان مجلس النواب مجتمعا فجاءه محمود سامى ومعه اللائحة وقد صادق عليها الخديو والنظار فقدمها وألقي الخطاب الآتي :

« أيها السادة النواب

أحسب نفسى سعيد الطالع بحضوري بينكم حاملا الى حضراتكم القانون الاساسى الذي سيكون ان شاء الله قاعدة لجميع أعمالكم و يسرنى كل السرور انني لم احمله اليكم إلا بعد تيقنى انه خـير أساس يمكنكم ان ترفعوا عليه من الاعمـال مايعزز شأن البلاد و ينمي ثروتها و يقوى اصول العدالة فيها

وهذه نعمة من الله سيقت الينا على حين احتياجنا اليها والحمد لله قد وصلنا الى المرغوب مع احترامنا شرائع الحكمة ونواميس السكينة ولم يكن شىء من الوسائل يفيدنا لو لم تكن عناية جناب خديوينا الاعظم هى سندنا في جميع اعمالنا ومقاصده السامية هى مرشدنا فى سبيل سيرنا فهو الكريم الذى اجريت هذه النعمة على يديه فاول واجب علينا جميعا ان نقوم لحضرته العلية بفروض الشكر وواجب الثناء

إلا انى اعلم كما تعلمون ان مجرد وضع القانون على اصول الحريه وقواعد العدالة لا يكفى فى وصولنا الى الغاية المقصودة من اجتماع حضراتكم بل لا بد ان ينضم الى ذلك خلوص النية من كل واحد منكم فى المحافظة على حدود هذا القانون ودقة النظر فى الوقوف عندها بحيث تكون جميع الاعمال والافكار منحصرة فى فى دوائرها وقد قال عقلاء السياسيين ان الوصول الى هذا النوع من الكمال اعنى حصر جزئيات الاعمال وكلياتها فى دائرة القانون انما ينال بعدالعناء وطول التجارب لكن لا اعد هذا صعبا عليكم فان العناية الالهية ساعدت سعدالبلاد بوقوع الانتخاب على حضراتكم واتم على اكمل درجات العقل والفضيلة ولا عناء فى اتباع القانون الا على العاجزين

« وفى املى انكم ستحققون ما يظن احياء البلاد فيكم عندماتبتدئون فى الاعمال المهمة التى تهيأتم الآن لمباشرتها بان تستعملوا صادق النظر للوقوف على ما فيه خير بلادكم وتوجهوا الى ذلك ماضى الهمم حتى لا يضيع الزمن الطويل فى الحصول على فائدة قليلة وهذا لا يكون الا بتخليص الافكار وتمحيص الطوايا من شوائب النزعات الشخصية بان نجعل الاعمال وقفا على المصالح العمومية التى نفعها فى الحقيقة عائد عليكم وعلى ابنائكم

« ان التفات النظر الى الخصوصيات يبعث فى القلوب محاسدات ومناظرات تحمل على الخلاف الدائم (نعوذ بالله) وانكم تعلمون ان الذين رقوا الى ذروة العز واوج الشرف لم ينالوا ذلك الا باخلاصهم فى طلب النفع العام فاعترف العالم بفضلهم واجلتهم القلوب فاحلتهم اعلى المنازل فثبتوا فى مكانتهم ماداموا بحلية الاخلاص

« وانى اهنىء نفسى بوقوفى بين عقلاء البلاد العارفين بحقوق بلادهم عليهم العالمين بان شرفهم معقود بشرف اوطانهم الموقنين بانهم لن يكونوا نوابا حقيقيين الا اذا اقاموا على صدقهم براهين من العمل وحججا من العقبات فى خطة الاعتدال حتى يقتنع بها البعيد كما عرفها القريب

« وفى علم حضراتكم ايها السادة انى عند استلامى رياسة النظار رفعت الى جناب خديوينا الاعظم تقريرا ابنت فيه مبادىء الهيئة الحاضرة واظنكم قرأتموه وتأملتم معانيه وقد تكرم الجناب الخديوى بقبوله وانى مؤمل فيكم ان تكونوا عضدا لنا وساعداً قويا على تتميم ما قصدنا ليستقر امر النظام وتتوفر لدينا اسباب الثروة والرفاهية ونحفظ الحقوق التى لنا ونؤدى الواجبات التى علينا ونوفى بجميع عهودنا لمن عاهدناه ونكون بذلك قد ارضينا سلطاننا الاعظم الذى يسره نجاحنا

وتقدمنا وارضينا جميع الدول المتمدنة التي تحب ان ترانا حائزين لشرفنا حافظين لحقوقنا قائمين بعهودنا

« وآخر ما نتواصى به ان لا نجعل للتعصب المشربي دخلا في الاعمال الوطنية التي كلفتكم البلاد ان تقوموا بادائها وان تكون الوطنية الحقة هي الباعث القوى على كل فكر والغاية القصوى من كل قول وعمل

« نسال الله ان يوفقنا جميعا لما فيه رفعة أوطاننا وتقدم بلادنا وان يمتع البلاد ببقاء حضرة خديوينا المعظم أيده الله »

فرد عليه سلطان باشا شاكراً للوزارة انها اجابت طلب النواب. ثم توجه النواب الى الخديو فشكروا له تأليف الوزارة التي لبت طلب الامة. وأقيمت لذلك احتفالات في كثير من انحاء البلاد

وفي ٧ فبراير صدر أمر عال بان نيابة اعضاء مجلس النواب المجتمع اذ ذاك تمتد الى خمس سنوات ابتداء من يوم عقده وبذلك صار مجلس شورى النواب هو نفسه مجلس النواب الذي نص عليه في اللائحة الاساسية

وصدر مع هذا الامر أمر ثان بان يبقى سلطان باشا في رياسة مجلس النواب خمس سنوات .

وأمر ثالث بان انتهاء اجتماع المجلس في هذه السنة يكون في ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢

وعقد المجلس بعد ذلك أكثر من عشرين جلسة ما بين ٦ فبراير و٢٦ مارس فنظر في جملة غير قليلة من شؤون الزراعة والتعليم والري والصحة وغيرها. وقدمت له الوزارة مشروعاً لقانون الانتخاب الذي ينتخب على أساسه مجلس النواب فبحثه وعدل فيه ما عدله ثم صدر قانونا في ٢٥ مارس وهذا أهم ما يشتمل عليه :

« يحق الانتخاب لكل مصري من رعايا الحكومة المحلية سواء كان مولوداً في مصر او متوطناً أقام فيها مدة لا تنقص عن عشر سنوات على شرط ان يكون بالغا من العمر احدى وعشرين سنة كاملة وان يدفع للحكومة من مال الضرائب او الرسوم المقررة أيا كانت ما يبلغ خمسمائة قرش اميري في السنة — (مادة ١)

يثبت حق الانتخاب لمن يأتي ذكرهم ولو لم يكن عليهم المبلغ المقرر وهم أولا العلماء الحائزون رتبة التدريس او المشهورون بصفة العالمية . ثانيا القسس وسائر

الرؤساء الروحانيين من المسيحيين . ثالثا حاخامات الاسرائيليين . رابعا المدرسون في المدارس الميرية والمكاتب الاهلية والحائزون للشهادات من المدارس العالية . خامسا ارباب الوظائف الملكية سواء كانوا فى الوظائف او متقاعدين. سادسا ضباط العسكرية سواء كانوا فى الخدمة او مستودعين او متقاعدين. سابعا وكلاء المرافعات (الافوكاتية) المقبولون فى المجالس النظامية . ثامنا الاجزائية والاطباء والمهندسون. (المادة ٣)

يكون لمصر مائة وخمسة وعشرون نائبا (المادة ٦)

ينتخب الذين لهم حق الانتخاب فى كل دائرة واحدا من كل مائة منهم على شرط ان يكون بالغا من العمر خمسا وعشرين سنة بالاقل والذين يقع عليهم الانتخاب على هذه الصورة هم الذين ينتخبون النواب (المادة ٣٣)

يصح انتخاب كل شخص بلغ من العمر خمسا وعشرين سنة فما فوق ايا كان محل توطنه فى مصر على شرط ان تجتمع فيه الصفات المطلوبة في حق الانتخاب ويكون ساريا عليه احكام قوانين البلاد بما فيها القرعة العسكرية ويكون عارفا بالقراءة والكتابة معرفة كافية - (المادة ٦٧) - »

احتجاج المراقبين

وكان من الجلي الا يرضى المراقبان الاجنبيان عن هذا النظام الجديد لان خضوع النظار للمسئولية امام مجلس النواب واعطاء هذا المجلس حق المشاركة فى تقرير الميزانية ينتشلان الحكومة المصرية من بعض السيطرة التى كانت لذينك المراقبين ويمهدان لها سبيل الاستقلال . ولهذا ما كاد المراقبان يعلمان ان اللائحة الاساسية صدرت حتى احتجا عليها فى خطاب طويل رفعاه الى الخديو [1] زعما فيه ان هذا التغيير الذى حدث بانتقال السلطة من الخديو ونظاره الى مجلس النواب غير ملائم لحالة البلاد السياسية والاجتماعية . ثم أرادا ان يحرضا الخديو على المجلس فقالا انه قضى على سلطته وجعلها كا مهملا وان النواب صاروا يعزلون الوزراء ويعينونهم . الى ان قالا :

« ولقد كان المصدر الوحيد لتأييد قوانا الادبية شخص الخديو والوزراء. أما

(١) الكافى جزء ٤ ص ٢٧٧ و ٢٧٨

الآن فلا بد أن تصير هذه القوة وهمية مع الوزراء الذين انتقام نواب البلاد ورؤساء الجيش »

ثم ادعيا ان قبول وزارة محمود سامي ما قبلته « انتهاك لحرمة نفوذ انجلترا وفرنسا » . وأخيراً انذرا بأن استقلال الحكومة المصرية عن سيطرتهما سيذهب بالاصلاحات كلها بعد أن توطدت أركانها في السنتين الماضيتين

اذن كان هذا الاستقلال كل مايغضب المراقبين وحكومتيهما ، ولكنه كان أيضا كل ماسعى اليه مجلس النواب بعد ان رأى الخطر مخيفا . وليس في الدنيا عقل سليم كان يطلب من المجلس أن يفرط فى استقلال بلاده ليجتنب هذا الغضب

ولم تصغ حكومة محمود سامي لهذا الاحتجاج بأكثر من أنها ردت عليه وأكدت لقنصلي الدولتين ان حقوق الدائنين ستبقي مصونة وأن نظام المراقبة سيبقي محترما

انتهاء دورة المجلس

وفي ٢٦ مارس تقدم محمود سامى الى المجلس ومعه الامر العالى بانتهاء دورة المجلس فالقى كلمة قال فيها :

« ان المدة القصيرة التى اقتمتموها والاعمال الكثيرة التى باشرتموها تدل على شدة ميلكم الى النجاح ورغبتكم فى تقدم البلاد . وحيث ان هذا اليوم هو اليوم المعين لانفضاض المجلس بمقتضى لائحتكم الاساسية قد أتيت بالاصالة عن نفسى والنيابة عن اخواني لاقدم لكم الشكر على مساعيكم المحمودة وأرغب اليكم ان تشغلوا أفكاركم في مدة الاستراحة بالمنافع العامة والمشروعات التى ستوضع فى العام القابل موضع النظر ليسهل تقريرها بالسرعة اللازمة . وهذا هو الامر العالى الكريم الناطق بانفضاض المجلس على مقتضى القانون أقدمه لديكم والله المسئول فى توفيقنا جميعا »

ثم تلا الامر وبعد الفراغ من تلاوته تكلم رئيس المجلس فشكر الوزارة ودعا الله أن يوفق النواب الى الخير والاتحاد . وانفض المجلس فلم يجتمع بعد ذلك لان الانجليز احتلوا القاهرة فكان أول ما فعلوه بعد الاحتلال أن قضوا على الحكم النيابي فبقي معطلا الى أن استردته الامة في سنة ١٩٢٤

والآن ماذا فعل المجلس فى دورته هذه ؟ وكيف كان تأثير وجوده فى الحكومة وفى البلاد ؟

انه اجتمع فى ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١ وانفض فى ٢٦ مارس سنة ١٨٨٢ فالمدة كلها ثلاثة أشهر انقضى منها شهر ونصف فى انتزاع الدستور وتحويل الحكم المطلق الى حكم نيابي . فالشهر والنصف الباقيان هما وحدهما اللذان كان فيهما صاحب سلطة تحسب عليه وهما اللذان انصرف فيهما الى أعمال الاصلاح . فاذا نحن سألنا كيف كان تأثير وجوده فى الحكومة وفي البلاد فيجب أن يكون مفهوما أن وجوده وعمله لم يتعديا هذه المدة القصيرة

كانت مدته قصيرة ومع ذلك اسمع مايشهد به له الكتاب المنصفون والرجال المسئولون . كتب مستر تيودور .روتستين (ص ١٥٦ من الترجمة) يذكر أعماله فقال :

« لم يكن ينتظر ان يعمل المجلس في خلال هذه المدة القصيرة عملا يذكر من الوجهة التشريعية اللهم الا ازالة بعض فضائح الماضي الظاهرة لكل ذى عينين . ومع ذلك كانت النظارات المختلفة اثناء هـذه المدة تكدح فى تهيئة مشروعات الاصلاح لعرضها على المجلس فى دور انعقاده القادم فكانت تعد قانونا جديدا للانتخاب (١) وقانونا لمنع السخرة ومشروعا لاصلاح المحاكم المختلطة التى آذت الفلاحين فيما مضي أذى بليغا وآخر لانشاء مصرف زراعي وما الى ذلك من الاعمال . . . . اما المجلس نفسه فكان اثناء ذلك مكبا على فحص المعاهدات والمعاقدات العامة والخاصة المبرمة بين الحكومة المصرية والحكومات الاجنبية ورعاياها وفى مناقشة النظار فى المساوىء المختلفة التى وصلت الى علمه وأهمها المساوىء الخاصة بمسح الاراضى الذى كان قد تم منذ ثلاث سنين تحت اشراف موظفين من الانجليز ولم يكن له اثر ظاهر غير النفقات الباهظة التى ذهبت فى شكل مرتبات واجور ونفقات انتقال وغير ذلك . وقد انتهي الامر فى هذا الصدد بان ألف المجلس لجنة خاصة لفحص هذا الموضوع فازعج ذلك المساحين الذين قاموا بهذا العمل »

---

(١) تقدم ان المجلس بحثه وصادق عليه وانه صدر فى ٢٥ مارس سنة ١٨٨٢

وكتب وزير فرنسا مسيو دى فريسينيه في كتابه « المسألة المصرية » — (ص ٢٤٩) — يذكر المدة التى وجد فيها مجلس النواب وتولت الحكم وزارة محمود سامي تحت مراقبة هذا المجلس فقال :

« كانت ادارة محمود سامي صالحة نافعة الى حد لا بأس به وانقضي شهر فبراير ومارس فى راحة وهدوء كذبا التنبؤات التى كان المراقبان العامان قد توقعاها [1] »

ولهذه الشهادة الاخيرة من فريسينيه قيمة كبيرة لان صاحبها كان فى ذلك الوقت رئيسا لحكومة فرنسا فكان واقفا على حوادث مصر وأعمال حكومتها ومجلسها النيابي يوما فيوما مطلعا علي المخابرات السياسية التى كانت تدور حينذاك بين فرنسا وانجلترا ثم بينهما وبين دول اوربا فى موضوع المسألة المصرية ، فشهادته هذه للحكم النيابي وللحكومة الدستورية في سنة ١٨٨٢ لاتعدلها شهادة

فلو أن انجلترا تركت مصر وشأنها لزكا فيها هذا النبات الطيب ولعاشت به فى رغد وراحة بال،ولكنها لم تتركها لان غامبتا كان قد استقال وخلفه دى فريسينيه ، وكان هذا عدوا الدولتين في مصر [2] فرأت انجلترا أن الجو خلا أمامها وأن الفرصة التى كانت تنتظرها سنحت فمضت تدس الدسائس وتنصب الحبائل فى مصر واوربا حتي ضربت الاسكندرية فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم احتلت القاهرة فى ١٤ سبتمبر من السنة نفسها. وقد تقدم انه لما ارتبكت مصر بديون اسماعيل كتبت التيمس في ٢٩ يناير سنة ١٨٨٦ تطلب بسط الحماية البريطانية عليها . وتقدم أيضا ان غامبتا ما كان يريد بمذكرة ٧ يناير سنة ١٨٨٢ غير احتلال مصر وانه كان يعد القوة اللازمة لذلك بينما كان يكتب تلك المذكرة . فنضيف الى هذا وذاك ان قنصل

---

(١) هذا هو نص عبارة دى فريسينيه بالفرنسية :

L'administration de Mahmoud fut assez bienfaisante ; les mois de février et de mars s'écoulèrent dans une tranquillité qui donnait un démenti aux prévisions des contrôleurs généraux.

(٢) كان فريق كبير من نواب فرنسا يرون فى ذلك الوقت أنه لايزال على بلادهم ان تضمد جراحها التى خرجت بها من حربها مع المانيا فى سنة ١٨٧٠ وأن اشتراكها مع انجلترا فى عمل مسلح في مصر يخلق بينها و بين انجلترا تنافسا فعداوة وأن ذلك يضعفها في موقفها أمام المانيا وهذه هى السياسة التى جرى عليها دى فريسينيه

فرنسا العام مسيو سينكويكز كان بين ديسمير سنة ١٨٨١ ويناير سنة ١٨٨٢ يكتب الى حكومته فيذكر التدخل المسلح ويقدر القوة اللازمة له باربعين ألف رجل [١]، وأن المفاوضات السياسية التي كانت تدور بين الدول فى سنتى ١٨٨١ و١٨٨٢ بشأن المسألة المصرية كانت تتردد فيها كلها تقريبا كلمة « العمل فى مصر » وكيف يكون وممن يكون . فالعزم على هـذا « العمل » كان قديما ظهرت بوادره من اليوم الذى ارتبكت فيه المالية المصرية وتجسمت اعراضه فى المراقبة الثنائية وفى النظارة الاوربية . وما كانت انجلترا تنتظر أن يوجد مجلس النواب لتعمل وانما كانت تنتظر أن تخلى لها فرنسا الطريق

ومن ذا الذى يرى تعنت الاميرال سيمور في خلق الاعذار لضرب الاسكندرية ولا يحكم بان هذا الضرب لم يكن لانه كان فى مصر مجلس نواب ولا لانه كانت فيها حركة وطنية بل لان الاحتلال كان غرضا مقصوداً

والآن

هذا هو تاريخ الحياة النيابية فى مصر الى سنة ١٨٨٢ أى الى الوقت الذى يقف عنده كتاب مستر بلنت . وقد لا نجاوز هـذا الحد كثيراً اذا نحن أضفنا اليـه أن الحكومة البريطانيـة أرسلت اللورد دوفرين الى القاهرة في نوفمبر سنة ١٨٨٢ ليضع للحكومة المصرية النظام الذى يتفق مع وجود الاحتلال فجاء وكتب تقريراً أشار فيه بالغاء دستور ٧ فبراير سنة ١٨٨٢ وانشاء هيئتين هما الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين تعين الحكومة فريقا غير قليل من اعضائهما ويكون رأيهما مع ذلك استشاريا فانشئت هاتان الهيئتان ورجعت مصر بذلك الى أسوأ مما كانت عليـه حينما أنشىء مجلس شورى النواب فى سنة ١٨٦٦ لان اعضاء هذا المجلس كانوا على الاقل منتخبين.

وخيل الى انجلترا أن الروح الوطنيـة ماتت بعد الاحتلال وان مصر الضعيفة لن تستطيع حراكا تحت ضغطها الشديد فخاب ظنها هـذا وهبت مصر بعد قليـل لا لتطلب الدستور وحده بل لتطلب الدستور والاستقلال . طلبتهـما على لسان

---

(١) دى فريسينيه ص ٢٥١

مجلس الشورى والجمعية العمومية غير مرة ، وعلى لسان صحافتها دائما ، وعلى لسان احزابها السياسية جميعاء فعدل نظام مجالس المديريات في سنة ١٩٠٩ ثم أنشئت الجمعية التشريعية بدل مجلس الشورى والجمعية العمومية سعيا الى استرضاء ذلك الطلب .

ولكن هذا لم يكن الاستقلال ولا الدستور فبقي الطلب على حاله وبقي غضب النفوس يزداد ويتجمع الى ان انفجر فى سنة ١٩١٩ فكان ثورة لم تعرف مصر أعنف منها من قرون وقرون . واشتدت انجلترا فى البطش فاشتدت مصر في المقاومة الى ان انجلت المعركة فى اول سنة ١٩٢٤ ، وبعد خمس سنوات من تضحيات لا تحصى فى الارواح والانفس والاموال ، عن الدستور نظاما للحكم ، فلم تأخذ مصر به جديداً وانما استردت ما كان لها في سنة ١٨٨٢ وما طلبته فأوشكت أن تناله فى سنة ١٨٧٩

وعطلت انجلترا الحكم النيابي مرة أخرى في سنة ١٩٢٥ وسلطت على مصر كل قوى الارهاب والكيد عسى ان تصرفها عن الدستور ، فصبرت مصر للنضال عاما ونصف عام ثم خرجت ظافرة بالدستور .

واليوم ها هو الدستور قد عطل مرة ثالثة فى ١٩ يوليه سنة ١٩٢٨ فمن ظن انه مستطيع ان يمحوه من قلب مصر أو أن مصر تصبر طويلا على تعطيله فهو متعام عن ماضيها هذا الطويل فى طلبه

٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٨ عبد القادر حمزة



مقدمة للمؤلف

عن نشر الكتاب فى سنة ١٩٠٧

منذ ان وضعت المقدمة الموجزة السالفة الذكر حدثت أمور تدل علي ما يظهر على أن الساعة التي تكهنت بها قد حانت أخيرا فاصبح من مصلحة الجمهور وبدون أى خطر ينشأ عن عدم التحفظ حيال الافراد أن تعلن الحقيقة بتمامها أمام العالم .

فني عام ١٩٠٤ روجعت مسودات الكتاب الاصلية مراجعة تامة وصيغ القسم الخاص منها بمصر من جديد فى ظروف تزيد كثيرا من أهميته التاريخية . وذلك ان صديقى القديم الشيخ محمد عبده الذى ذكر اسمه كثيراً فى هذا القسم اتخذ له داراً خلوية بالقرب من ضيعتي المسماة « الشيخ عبيد » بالمطرية واذ ذاك رأيتني مشتبكا بمحادثته فى كل يوم وهي فرصة نادرة لم أضيعها سدى . فهذا الفيلسوف العظيم — الذى فجعنا الدهر بوفاته فى الاسكندرية فى ١١ يوليه سنة ١٩٠٥ وهو يوم الذكرى الثالثة والعشرين لضرب هذه المدينة بالقنابل — بعد أن عبس له الزمان طويلا بلغ فى سنة ١٨٩٩ مرتبة رفيعة بان صار مفتياً للديار المصرية فخطر له وقد أصبح حاصلا على ذلك النفوذ الكبير بين مواطنيه أن يروى لهم قصة حقيقية عن الحوادث التي وقعت فى عصره ، تلك الحوادث التي أصبحوا يسيئون فهمها والتي أحاط بها من الخرافات والاباطيل ما يبعد عن الحقيقة بعد السماء عن الارض

ولطالما حادثني فى ذلك الصدد وأسف لعدم وجود فراغ من الوقت لاتمام ذلك العمل التاريخي . فلما أخبرته بمذكراتي ألح علي فى نشرها وقال إذا لم يتيسر النشر بالانجليزية فلتنشر على الاقل بالعربية بمساعدته . ثم تعهد بمراجعتها مني ليتأكد أن القسم الخاص بالحوادث التي يعرفها قد روى بدقة تامة . وقد لبثنا منذ أول زيارة لى لمصر صديقين حميمين وحليفين سياسيين ولما كانت حديقته ملاصقة لحديقتي كان من السهل أن نتناول ذكرياتنا الرجال والحوادث التى عرفناها . وبهذه الطريقة أخذ تاريخ الحقبة التى تهم كلا منا شكله الختامى . وقد

أسعدنى الحظ باتمامه والحصول منه على الترخيص بطبعه قبل أن يقضي موته الفجائي على المنبع الوحيد للمعلومات عن الحركة السياسية التى أدت الى ثورة سنة ١٨٨١ وعن الدسائس التى عاقتها فى السنة التالية

وقد كانت وفاته خسارة جسيمة بالنسبة الى أيضاً ، وأخرت الى أجل غير مسمي نشر هذا الكتاب باللغة العربية . لا بل ان ما وقع من الحوادث الى هذا العام جعل الوقت غير ملائم من الوجهة السياسية لنشر الكتاب باللغة الانجليزية . بيد أن حوادث سنة ١٩٠٦ وانسحاب اللورد كرومر من المسرح المصرى غيرا الموقف تغييراً كلياً حتى صرت أرى انه لا ينبغي لي التردد أكثر من ذلك . ان واجبي نحو مواطني على الاقل يقضي بالمبادرة . فنحن معاشر الانجليز نجد أنفسنا اليوم — من حيث معاملاتنا مع مصر — إزاء نفس المشكلة التى أخطأنا فيها وخلطنا فيها ذلك الخلط الفاحش منذ جيل ، فاذا كان المسئولون عن تسيير دفة أمورنا العمومية يريدون — كما قلت فى المقدمة الاولي — « أن يعيدوا النظر من جديد فى مركزهم السياسي والادبى فى وادى النيل » بأمانة ولفائدة المجموع فينبغي قبل كل شيء أن توضع أمامهم الحوادث الماضية على حقيقتها لا كما صورتها لهم طول هذه المدة الوثائق الباطلة الواردة فى الكتب الرسمية الزرقاء . ولا اظن انى مبالغ اذا قلت أن الحوادث التى وقعت فى مصر منذ خمسة وعشرين عاماً لا يعرفها بالدقة اللورد كرومر نفسه ولا السير ادوارد غراى بل ولا السير الدون غورست خليفة اللورد كرومر . وهذا بالرغم من اعتراف اللورد كرومر اعترافاً متأخراً بأن حركة سنة ١٨٨١ كانت حركة اصلاح وبالرغم من ثنائه المتكرر على الشيخ محمد عبده كما هو مذكور فى تقريره السنوى الاخير . ويجب أن نذكر هنا أن اللورد كرومر لم يكن فى مصر فى خلال أى دور من أدوار الثورة العرابية وانه كان الي عهد قريب يظن أن « الحقيقة الرسمية » هي وحدها الحقيقة الواقعة

فلهذا السبب عولت نهائياً علي نشر هذا الكتاب وأثبت فيه نصوص مذكراتي بالصفة التى أتممتها بها فى عام سنة ١٩٠٥ . وقد أقرها صديقى الاستاذ فيما عدا بضع فقرات موجزة يستحسن عدم نشرها لانها ماسة بشخصية أفراد

لا يزالون على قيد الحياة . وهي فقرات يمكن الاستغناء عنها دون أن تؤثر فى قيمة الكتاب التاريخيـة . ويمكنني أن أقول باخلاص انني جعلت نصب عيني فى كل ما كتبته هنا كشف الحقائق كما عرفتها مبتغياً بذلك اصلاح الاباطيل التاريخية

واذا كان ثمة سبب آخر يحملني علي النشر فهو راجع الي وعد قديم أعطيته علناً فى « مجلة القرن التاسع عشر » فى عددها الصادر فى سبتمبر سـنة ١٨٨٢ وتعهدت فيه بأن أعمم يوماً ما دفاعي الشخصي عن الحوادث المعاصرة لي ، وذلك أنني فى سبتمبر سنة ١٨٨٢ راعيت خاطر المستر غلادستون وأملت أن يصلح حتى فى تلك اللحظة المتأخرة الخطأ الذى ارتكبه ضد الحرية فى مصر . فأمسكت — في وجه مطاعن عديدة لا نظير لها — عن تبرئة نفسي وإزاحة الستار عن الامور الخفية التى كانت تبرر أعمالي . لأنه لم يكن فى الاستطاعة أن أبرىء نفسي تماماً دون أن أذيع حقائق تعتبر سرية من الوجهة الفنية ولذلك آثرت السكوت .

بيد أن هناك حدوداً لواجب الصمت الذى يلزمه الانسان حيال مسلك الرجال العموميين في الامور العمومية . وانني لواثق من ان احجامي نحو ربع قرن سيكون شفيعي لدي المنصفين اذا هم رأوني الآن ألجأ الى الطريقة الوحيدة الممكنة في سبيل الدفاع عن نفسي وهي كشف الستار بالتفصيل عن رواية الدسيسة المالية والضعف السياسي كما مثلت أمامي وقتئذ مع تقريرها بالوثائق المعاصرة التي ما زالت في حيازتي . فاذا مست تصريحاتى هـذه بعض ذوي الحيثيات فجوابى هو أن عدم صراحتهم هو الذى حملنى على التكلم ، اذ في خلال هذه السنين الطويلة لم يتقدم للدفاع عني ولو بكلمة واحدة شخص ممن عرفوا الحقائق معرفة تامة

الفصل الاول

مصر في عهد اسماعيل

كانت زيارتي الاولى لمصر فى شتاء سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ حيث قضيت بضعة أشهر متنقلا في جهات النيل الادني . وقبل أن أشرح هواجسي فى هذه المرة الاولى التى تعرفت فيها بالمصريين بحسن ، خدمة لهم وخدمة للقراء الاجانب على وجه العموم ، أن أقول كلمتين عن حياتي السابقة من حيث علاقتها بالشؤون العامة . وبذلك يستطيعون أن يعرفوا موقفى بين أبناء وطنى بالضبط فيساعدهم ذلك على أن يفهموا كيف انني بعد ان كنت مجرد مشاهد لما يحدث فى بلادهم أصبحت تدريجاً أهتم ببلادهم سياسياً الى ان كان لي في النهاية ضلع كبير فى الثورة التى حدثت في مصر بعد مرور ستة أعوام على تلك الزيارة . ومع انني وقت هذه الزيارة لم أكن أتجاوز الخمسة والثلاثين ربيعاً فانني كنت قد رأيت الشيء الكثير سواء فيما يختص بالرجال أو بالشؤون العامة

بدأت مبكراً في الحياة ، ونظراً لانتسابي لاحدى الاسر ذوات الضياع في جنوبي انجلترا وذوات التقاليد المحافظة الشديدة ، ثم نظراً لانني كنت على اتصال بزعماء المحافظين فى ذلك العهد ، أدخلت فى سن الثامنة عشرة في الخدمة السياسية أولا بصفة ملحق بالوكالة الانجليزية في أثينا حيث كان « الملك أوثو » لا يزال على عرش اليونان وظللت فيما بعد — لمدة اثنى عشر عاماً — متنقلا بين الوكالات والسفارات الانجليزية في طول اوربا وعرضها فتعلمت بعض الشيء مما يختص بمهمتى وقضيت الوقت في اللهو واتخاذ الاصدقاء . وهكذا أقمت فيما بين عامي ١٨٥٩ و١٨٦٩ بضعة أسابيع في الاستانة على عهد « السلطان عبد المجيد » ثم لبثت عامين في ألمانيا أيام كانت لا تزال مجموعة من ولايات متفرقة ثم عاماً فى أسبانيا أثناء حكم « الملكة ايزابيل » وعاماً آخر في باريس أيام بلغ « الامبراطور نابوليون الثالث »

ذروة المجد والعظمة كما أقمت ردحاً قصيراً من الزمن في سويسرا وفى أميركا الجنوبية وفي البرتغال . ومذكراتى السياسية عن هذه البلاد لذيذة ولكن ليس لها أهمية خاصة فضلا عن أنها خالية من كل أهمية سياسية

وفى السنوات التي أعقبت حرب القرم كانت سياستنا الانجليزية التى أغضبت الميالين منا الي المجازفات الاجنبية على العكس مما أصبحت عليه بعد ذلك . فقد كان قوامها السلام وتجنب العدوان والترفع عن المكر والخبث اللذين أحرز لها شهرة الدهاء والفطنة على حساب الشرف والامانة . فالتحمس الرسمي لم يكن مرغوبا فيه فى الخدم العمومية فضلا عن ان فضيحة أى سياسى حديث السن في نظر وزارة الخارجية كانت لاتحتاج الي أكثر من توجيه سؤال جديد بشكل يتطلب الجواب العلني . وقد أفهمتنا وزارة الخارجية ذلك نحن معاشر الملحقين وصغار السكرتيرين بصراحة تامة كما أنها حظرت علينا التدخل في سياسة أى بلاط أرسلنا لتمثيل بلادنا فيه . بل لقدطلب الينا أن نجعل أنفسنا مرضياً عنا من الوجهة الاجتماعية وأن نقضى الوقت في اللهو — باحتشام اذا أمكن — ولكن بشكل غير جدى على كل حال . ولا أكون مبالغًا اذا قلت انني في طول الاثني عشر عاماً التى سلختها فى الحياة السياسية لم يطلب الى مرة تأدية أى واجب ذى قيمة سياسية ولو طفيفة . فهذا النظام المثبط للعزائم زهدنى — أثناء وجودى في الخدمة — فى السياسة ، فلم أشتغل بها ولم أهتم بها اهتماماً جدياً الا بعد ذلك بفترة طويلة وفى ظروف مختلفة جاءت كلها عن طريق الاتفاق . وكانت أعمالي بصفتى ملحقاً منحصرة فى اللهو والاختلاط الاجتماعي والادب . فنظمت القصائد وكتبت الرسائل وساعدت سياسياً فى احدى الروايات الجدية التى حدثت في أوربا وقتئذ ولكننى فعلت ذلك بصفتى مشاهداً لا بصفتى ممثلا ، أى كرجل ممن لا يسمح لهم بالاطلاع على ما وراء الستار . وعند اقترانى فى سنة ١٨٦٩ الذى أعقبته وفاة شقيقى الا بر وصيرورتى الوارث الوحيد لاملاك الاسرة في مقاطعة سسكس ، اعتزلت الخدمة العمومية غير آسف والتفت الى بعض المسائل الخصوصية التى كانت أهميتها عندى تفوق كل شيء آخر

ومع ذلك ظلت علاقتي المبكرة بوزارة الخارجيـة — ولو انها لم تكن لتجدد مرة أخري بصفة رسمية — قائمة علي أسس من الصداقة . وحسبك انها علاقة رجل اعتزل الخدمة بشرف . وقد أفادتني فيما بعد هـذه العلاقة مضافا اليها تجاريبي في البلاط الانجليزى والعواصم الاجنبية فائدة لاتقدر عند ما رأيت نفسي مرة أخرى مدفوعا بطريق الاتفاق فى تيار الشؤون الدولية . فبواسطتها حصلت علي معرفة أداة السياسة الخارجيـة معرفة دقيقـة . وأصبحت علي اتصال بالاشخاص الذين كانوا يديرون هـذه الاداة . وكان لي أصدقاء عديدون بين هؤلاء الاشخاص وبذلك رأيتني فى مبدأ حياتي العـامة تجمعني الصداقة ا لرسمية « باللورد كرى» الذى ظل عدة أعوام يدير دفة السياسـة في وزارة الخارجيـة و « بالسـير هنرى دروموند وولف» و« بالسير فرانك لاسل» و «بالسير ادوارد ماليت » و« باللورد دوفرين » و «باللورد فيفيان» و «بالسير ريفرد واسون» وكلهم كان لهم ضلع في تـكوين التاريخ المصرى فيما بعد . و «باللورد ليتون» الذي صار حاكما عاما للهنـد فى السنين التى سبقت ازمة سـنة ١٨٨١ مباشرة . كما ارتبطت الصداقة بيني وبين بعض الساسـة الاجانب ومنهم « المسيو نيليدوف » سفير روسـيا فى الاسـتانة و«البارون همبرلي» رئيس وزراء النمسا المتوفى «والمسيو دى ستال» سفير روسيافي لندن لمدة ٢٠ سنة . فقبل زيارتي الاولي لمصر بزمن طويل كانت صداقتى مع جميع هؤلاء الرجال صـداقة متينـة . فاذا تـكلمت عنهم وحكمت عليهم فانما أتكلم عن دراية تامة بأخلاقهم الشخصية جميعاً . ونظراً لانني كنت كأني أحد رجال الـكهنوت لم يجز علي بسرعة الرياء والنفاق اللذان كانا من السلع التجارية المعتادة فى سوق السـياسة ولم أنخدع في عمل من الاعمال فأحسبه سياسة عمومية وهو في أغلب الاحايين سياسة شخصية . ولا يخفى ان الاعتقاد السائد بين الذين ليس لهم تجارب فردية بأعمال السياسة (دبلوماتيكا) هو ان الحوادث العظام فى تاريخ العالم نتيجة التنظيم السياسي المتقن وليست ، كما هو الواقع فعـلا في كثير من الاحوال ، مترتبـة علي مصادفات غير منتظرة وعلي شجاعة أو ضعف — وأحيانا علي ميل شخصي — لدي الاعوان المنوط بهم القيام بعمل من الاعمال

ففي خلال السنوات الاولى التي أعقبت اعتزالي الخدمة شغلت نفسي بشؤوني الداخلية. ولم يكن الا عن طريق الاتفاق — كما قدمت — انني بدأت أهتم بالسياسة . واذ رأيت نفسي في سنة ١٨٧٣ منهوك القوي ، وفراراً من تحمل فصل الربيع الذي بدأ متأخراً في انجلترا ، قررت أن أقوم أنا وقرينتي بأول سياحة مشتركة لنا في البلاد الشرقية . فذهبنا عن طريق بلغراد والدانوب الي الاستانة حيث وجدنا (السير هنري اليوت) في السفارة . وهناك جددنا تعارفنا بالاصدقاء الآخرين المتصلين بها ومن بينهم (الدكتور ديكسون) الذي سأتكلم عنه فيما بعد بمناسبة مصرع السلطان عبد العزيز والذي عالجني بشفقة تامة في نوبة شديدة من نوبات ذات الرئة والذي أصبحت أشعر نحوه بميل كبير . وكانت الامبراطورية العثمانية تتمتع وقتئذ بفترة هدوء نسبي قبل العاصفة التي قدر أن تهب عليها بعد ذلك فلم أحفل كثيراً بمتاعبها الداخلية ولكن عواطفي كانت في ذلك الوقت ، ككل عواطف غالبية الانجليز وقتئذ ، مع الاتراك لا مع المسيحيين العثمانيين . وبعد ابلالي من المرض ابتعت ستة براذين في سوق الخيول باسلامبول ثم عبرنا معها الي اسكودار حيث قضينا ستة أسابيع لذيذة من فصل الصيف متنقلين بين التلال وحقول الخشخاش الاناضولية بعيداً بقدر الامكان عن الطرق المطروقة . ورأينا في ذلك الوقت من حياة الريف التركية بقدر ماسمح به جهلنا التام بلغة البلاد . ولاحظنا — كما لاحظ جميع السياح — طيبة الاهالي وأمانتهم وسوء حكومتهم . والذي جعلنا نلاحظ ذلك سلوك رجال الضبطية الموكلين بحراستنا نحو الاهالي فانهم كانوا يعاملونهم كما لو كانوا جنوداً أجنبية أغارت على البلاد .

ومع ذلك تبينا ان تركيا الريفية كانت بالرغم من كل هذا الارهاق المالي تتمتع بقسط كبير من الحرية الشخصية كالحرية الموجودة في انجلترا المكتظة بشرطتها ومأموريها . والحقيقة ان الشبكة الادارية أينما ذهبت في الشرق وجدتها واسعة الثقوب كثيرة الخروق بحيث تستطيع صغار الاسماك الافلات منها ولا يسمع الانسان في الاوقات العادية باضطهاد الفقراء والمعوزين . واني لاذكر حكاية قصصتها علي الفلاحين الذين جاءوا يشكون الى بواسطة الترجمان الارمني مايجدونه

من تشدد الحكومة في معاملتهم . فقدأخبرتهم ان ثمة بلاداً أسوأ حالا من بلادهم بحيث اذا رؤى أحد الافراد في تلك البلاد ليلا في منعرج احدى الطرقات يجمع قليلا من الاحطاب لطهي طعامه عرض نفسه لخطر الوقوف امام القاضي في اليوم التالى بل للذهاب الي السجن . واني لاذكر جيداً ان سامعي أبوا أن يصدقوا وجود مثل هذا الاستبداد في أى بلد من بلاد العالم وكان الاستنتاج الذى وصلت اليه من هذا الحادث البسيط أول خاطر سياسي اتذكره بالنسبة للاشياء الشرقية

أما الشتاء التالى — أي الاشهر الاولي من سنة ١٨٧٤ — فقد قضيناه في بلاد الجزائر . وهنا اشتركنا في منظر آخر خولنا فرصة للتفكير ، وهو منظر استعباد شعب شرقي استعباداً عنيفاً بواسطة شعب غربى . فان الحرب السبعينية التى خرجت منها فرنسا أعقبتها ثورة عربيــة في بلاد الجزائر امتــدت ألسنتها حتى بلغت أطراف العاصمة نفسها وعندئذ بدأ الاهالى المسلمون يجربون عنف وسائل القمع المسيحية . وقد ظهر هــذا القمع بابشع مظاهره في الجهات التى امتدت الثورة اليها أى في المستعمرة الحقيقية حيث انتهزت الادارة الملكية فرصة اشتعال الثورة لمصادرة أملاك الاهالي والتحيز للمستعمرين الاجانب على حساب أصحاب البلاد . وبالرغم من حبي الشديد لفرنسا (وقد كنت مقيما في باريس خلال الحرب السبعينية وكنت شــديد التحمس في الدفاع عنها أثنــاء الحصار) رأيت عواطفي كلها في صف العرب . أما في الصحراء — فيما وراء جبال الاطلس — حيث ساد الحكم العسكرى فقد كانت الاحوال أحسن نوعاً لان الضباط الفرنسيين هناك كانوا على العموم أكثر تقديراً لصفات العرب النبيلة وأشد احتقاراً للحثالة المختلطة الاوربية — الاسبانية والايطالية والمالطية والفرنسية — التي تتكون منها « الجالية » . كذلك كانت القبائل الكبرى في الصحراء في حالة رخاء مادى ومحتفظة بقسط كبير من فخر الاستقلال القديم ممــا لم يسع القادة العسكريين سوى احترامه . وقد اختلسنا النظرات لاولئك الاعراب وهم في « جبل عمور » وأبصرنا طريقتهم القوية في الحياة فسرنا كل ما رأينــاه منهم . ثم أصغينا الى أغانيهم في امتــداح بطلهم الراحل « عبــد القادر » ، ومع أننا لم نفهمها نظراً لجهلنا لغتهم فقد أعجبنا بهم

وأشفقنا عليهم . ولم تفتنا ملاحظة الفارق الكبير بين حياتهم الدينية تصحبهم جمالهم وجيادهم ، وهي حياة تقاليد عالية مملوءة بذكرى أعمال البطولة وبين الانحطاط الاخلاقي الدنيء للمستعمرين الفرنسيين وخنازيرهم ودور الخمرة . كما أثار فينا ذلك المنظر عاطفة الغضب لعدم التناسق بين هؤلاء الاخيرين سادة البلاد وأولئك الذين يعتبرون خدما لهم . وكان هذا بمثابة درس سياسي جديداً أثر فى أشد تأثير ولو أننى ظللت أعتبره أمراً لاعلاقة له بشخصي بحال من الاحوال .

ذلك كان التدريب التحضيري فى حياتي السياسية وتلك كانت ظروفه الاساسية عند ما زرت مصر أول مرة كما قلت في شتاء سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ . والمسألة الوحيدة الاخرى التي قد تستحق شيئا من التفسير والايضاح وخصوصا للقراء غير الانجليز ، وهي مسألة ستقدرها أوربا قدرها ، هي أن قرينتي « اللادى آن بلنت » التى صحبتنى في سائر هذه الرحلات كانت حفيدة شاعرنا الوطني الطائر الصيت (اللورد بيرون) وبهذا ورثت عنه شيئاً من العطف علي قضية الحرية فى الشرق وهو عطف ترك أثره في أعمالنا اللاحقة فقد بدا لنا فى أثناء وقوع حوادث سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ . ان مؤازرة الحركة العرابية يعتبر عملا مجيداً كالذى مات فى سبيله بيرون فى سنة ١٨٢٧ . ولم يدر بخلد أحد منا نحن الاثنين حتى الآن — أى فى سنة ١٨٧٥ — ان زيارتنا لمصر ستكون شيئاً غير مجرد رحلة لذيذة أخرى فى بلاد الشرق . وكانت خطتنا عند مغادرة انجلترا أن ندخل مصر من الجنوب عن طريق سواكن وكسلا والنيل الازرق ثم نسافر شمالا الى القاهرة فندخلها فى الربيع . ولكن هذه الخطة لم تتحقق — نظراً لسير الحملة الحبشية الذى كان وقتئذ لغير مصلحة مصر — ولم يتحقق سوى جزء واحد من الخطة الاصلية . فبدلا من النزول في الاسكندرية كما كانت العادة المتبعة حينئذ ذهبنا من طريق القنال الى السويس حيث وطئت أقدامنا الاراضي المصرية أول مرة

وكل ما أتذكره وقتذاك عن مصر هو اختراقنا لبحيرة المنزلة في آخر يوم في سنة ١٨٧٥ — وكانت وقتئذ وطناً آمناً لطيور لا حصر لها — وهو منظر عجيب حقيقة

للحياة الطبيعية المسرية فى طريقنا إلى نقطة واقعة على القناة شمالى الاسماعيلية . فلله ما كان أبهج ذلك المنظر ! ان بحيرة المنزلة كادت وقتذاك ان تكون منطقة عذراء وقد فاقت أسراب البشروش والبط والبجع وأبي قردان التي غطتها كل ما يتصوره العقل عن كثرتها . بل ان الميـاه أيضاً ، ميـاه البحيرات وميـاه القناة نفسها ، كانت غاصة بالاسماك ذوات الحجم الـكبير حتي أن سفينتنا اصطدمت بالكثير منها أثناء اجتيازها البحيرة بينما كانت من جهـة أخرى عرضـة للبزاة والاغربة التي كانت واقفـة على العوامات والساريات تربصا بفريستها . وأحسب أن انسياب مياه البحر أول مرة على أراض لم تكن من قبـل مغطاة بالمـاء مكن السمك من التمتع بتربة ذات خصوبة شاذة وهذه مزية فات أوانها منذ ذلك الحين ولـكن الشيء الثابت هو أن السمك والطير أخذا في التلاشى بعـد ذلك بسرعة حتي أنه لا يحتمل على ما يظهر أن تمتع أعين السياح ثانيـة بالمنظر البديع الذى شهدناه فى ذلك الشتاء

ثم نزلنا في السويس في الايام الاولى من عام ١٨٧٥ فكان أول ما قابلنا نبأ الانهزام الشنيع الذى نزل بالجيش المصرى في بلاد الحبشة . ولم تكن تفاصيل الهزيمة قد عرفت بعد ولـكن يظهر أن سبع اورط أو فرق من جنود الخديو قد أبيدت على بكرة أبيها وتناقلت الالسن اشاعة فحواها أن ابن الخديو ـ الامير حسينا ـ وقع في الاسر وان العـدو شوهه تشويها . وهـذه اشاعـة ظهر كذبها فيما بعـد لان الامير ، وكان صبيا في ذلك الحين ، خطف فقط من ساحة القتال في جهة (قور) في طليعة النهار قبل الانهزام كما حدث لنفس راتب باشا قائد الجيش المصرى الذى كان الامير في عهدته . وفقد (لورنج باشا) القائد الامريكي حياته فعلا مع بضعة آلاف من الجنود . وبهذه الهزيمة انتهت أحلام الخديو اسماعيل فى انشاء امبراطورية شاسـعة الأطراف على ضفاف النيـل . وأثرت هذه الهزيمة في خطتنا الصغيرة فجعلت سفرنا بطريق كسلا ضربا من المستحيل علينا وقضت بان نسافر عن طريق آخر أقل خطورة ألا وهو طريق الوجه البحرى

وكنا شديدى الرغبة فى رؤية مصر باقل كلفة مما يراها به السائح العادي .

ونظراً لانه كانت لدينا الخيام اللازمة للرحلة الطويلة استأجرنا جمالا فى السويس وقصدنا القاهرة عن طريق القوافل القديم . وليس من الضرورى أن أقول شيئاً كثيراً عن رحلتنا في الصحراء . فالايام الاربعة التي قضيناها فيها مع الجمالين البدو كانت أول درس عملي لنا في اللغة العربية — لاننا فى بلاد الجزائر كنا تحت رحمة المترجم — كما أنها وضعت أساس علاقاتنا مع القبائل فى صحراء بلاد العرب ، وهي علاقات أصبحت فيما بعد لذيذة ومتينة . ثم وصلنا الي القاهرة فى صبيحة اليوم الخامس

فعند وصولنا الي العباسية حيتنا رصاصات الجنود المصرية وهي فى أثناء التمرين لاننا ضربنا الخيام فى الظلام وبدون علم منا وراء أهدافهم مباشرة . وكانت رماية الجنود غير محكمة فلم تحدث إصابة . ولم يخطر ببالنا وقتئذ أننا قد نهتم يوماً ما بأفعال أولئك الجنود بصفتهم جيشاً أو أن تتجه اليهم يوماً ما عواطفنا فى حرب طاحنة ضد مواطنينا . وكنت وقتئذ ممن يؤمنون ولكن في غير تحمس بالعقيدة الانجليزية الشائعة ألا وهي أن لانجلترا فى الشرق مهمة سماوية وأن حروبنا هناك لم تكن الا من أجل أغراض نزيهة صالحة . ولم يكن شيء أبعد عن ظني من أن نكون نحن معاشر الانجليز مجرمين بانتهاك حرمة العدالة بالسلاح لمجرد أهوائنا ومصالحنا الانانية

كما لا ينبغي أن أقول شيئاً بالتفصيل عن القاهرة التى اجتزناها ذلك اليوم دون أن نمكث فيها غير بضع دقائق للسؤال عن بريدنا فى دار القنصلية . وكان غرضنا أن نري الجهات الريفية لا أن نضيع الوقت فى مدينة هي أوربية فى طريقة حياتها . وقد ظننا أننا سنجد فيما وراء النيل مباشرة أرضاً موافقة نضرب بخيامنا فيها ولذلك واصلنا المسير ولم نفهم توسل الجمالين الينا كي نحط الرحال وندعهم وجمالهم يعودون الى بلادهم كما لم ندرك اننا كنا نسيء اليهم بحملهم علي نقض العادات المتبعة عند القبائل التى يحظر عليهم بصفتهم من بدو الصحراء الشرقية تخطيها الى الصحراء الغربية . وبالرغم من الحاحهم واصلنا المسير عن طريق كوبرى قصر النيل ومن ثم

الى طريق الجيزة . وحينئذ لمحنا الاهرامات عن بعد فأمعنا نحوها بتلهف واشتياق ولم يمنعنا من ادراكها الا اختفاء الضياء الذى خيم علينا وقت غروب الشمس بالقرب من قرية «الطلبية» الصغيرة التى ليس بينها وبين الاهرامات الا قرية أخرى . وهناك حططنا الرحال أول مرة علي تربة النيل السوداء ولم تكن قد جفت بعد من فيضان الخريف . فقابلنا أهالى « الطلبية » الاجواد بكل اكرام كما هى عادتهم . ومع أنهم يعيشون فى طريق السائحين إلى الاهرامات وقد اعتادوا أن يعاملوا السائحين الفرنسيين كما لو كانوا فريسة لهم فان نزولنا فى قريتهم لقضاء سواد الليل أعطانا صفة الضيوف . ولم يحدث قط أن وقف بمنازلهم شخص واحد من جميع الاوربيين الذين مروا بقريتهم طول السنين الخالية . ولذلك كانت علاقتنا معهم ودية من بداية الامر . وقد خدمتنا هذه الصدفة فى تعريفنا إلى قرويين آخرين عند ما استأنفنا المسير من جديد بعد قضاء بضعة أيام بين هؤلاء . ولم يكن أمامنا في ذلك الوقت إلا المكث حيث كنا لان الجمالين رفضوا بتاتا مرافقتنا خطوة أخرى فدفعنا لهم أجورهم فقفلوا راجعين إلى ديارهم تصحبهم جمالهم فتعين علينا استئجار جمال اخرى . وعلى ذلك قضى القدر بأن أقضى الاسبوع الاول فى مصر باحثاً منقباً عن الجمال فى أسواق القرى المجاورة ثم اشتريت السروج والقرب وسائر المعدات اللازمة لمواصلة الرحلة

وكان الفلاحون فى ذلك الوقت فى أشد حالات الضنك . وكان هذا هو العام الاول من الثلاثة الاعوام الاخيرة المروعة فى حكم الخديو اسماعيل . وكان المفتش اسماعيل صديق المشهور لا يزال فى أوج عزه وحملة القراطيس الاجانب يجأرون مطالبين بدفع الاقساط « الكوبون » والمجاعة على أبواب الفلاحين . وكان من الامور النادرة فى تلك الايام أن يرى الانسان شخصاً فى الحقول وعلى رأسه عمامة أو على ظهره شيء أكثر من قميص . وحتى فى ضواحي القاهرة وبالاكثر فى الفيوم التى يممنا بوجوهنا شطرها بمجرد حصولنا على الجمال ، يمكنني أن أقول ان الحالة كانت كذلك . وكان بين مشايخ القرى قليلون يملكون عباءة . وأينما ذهبنا كانت

الحال كذلك . وغصت مدن الارياف فى أيام الاسواق بالنساء اللاتى أتين لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين الاروام لان جامعي الضرائب كانوا فى قراهن والكرباج مشهر فى أيديهم . فابتعنا مصوغاتهن الزهيدة وأصغينا الى قصصهن واشتركنا معهن فى استنزال اللعنات علي الحكومة التيجعلتهن عرايا . ولم نكن فهمنا وقتئذ — أكثر مما فهمه القرويون أنفسهم — ذلك الضغط المالى الآتي من أوربا والذى كان السبب الحقيقي فيهذا الضيق . وعلى ذلك جاريناهم فى القاء اللوم كله علي اسماعيل باشا واسماعيل صديق دون أن يخامرنا شك فى أن الانجليز أيضاً يقع عليهم جانب من اللوم

وكان القرويون فى منتهي الصراحة . وكان الانجليز وقتئذ محبوبين فى سائر البلاد الاسلامية لان الناس كانوا يظنونهم بعيدين عن الدسائس السياسية المعروفة عن الفرنسيين وكانوا يعتبرونهم أكثر من هؤلاء أمانة ونزاهة فى معاملاتهم التجارية . وفى الواقع أن الانجليز كانوا فى مصر علي النقيض مما كان المخاطرون من حثالة الامم الواقعة علي شواطيء البحر الابيض المتوسط كسلفى النقود الطليان والاروام والمالطيين الذين كانوا يمتصون دماء الحيـاة من الفلاحين المسلمين . وكانت ثمة إشاعة بلغت القرية عن احتمال تدخل من جهة أوربا وكانت فكرة التدخل غير مكروهة على شرط أن تكون انجلترا هي التى تنفذها . وكانت الحالة مما لا يمكن احتماله ولذلك كان الاهالى الجائعون ينظرون بعين الابتهاج لاى تغيير أملا فى أن يكون فيه خلاصهم . وقد ظهرت انجلترا فى نظر الفلاحين وهم فى حالة تسول فعلي وبعد أن جردوا من أمتعتهم وضربوا حتى كادوا يموتون جوعاً بمظهر العناية المحسنة والصديقة الغنية البعيدة عن الاغراض المنصفة للمظلومين والصديقة للمقهورين فكانت في نظرهم صورة طبق الاصل مما كان عليه معظم السائحين الانجليز الذين كانوا يروحون ويغدون وقتئذ وأيديهم ووجوههم طافحة بعلامات العطف . وهكذا لم يخامرهم الشك فى الاطماع التجارية الهائلة التى دفعتنا — كأمة — الى اعلان العدوان علي الشعوب المستضعفة فى سائر أنحاء العالم

وفى عام ١٨٧٦ كنت أنا أيضاً — كما قدمت — ممن يؤمنون بانجلترا كما

كنت أدين بالعقيدة الذائعة وقتئذ عن حكمها فى الشرق وكان جل ما أتمناه لمصر أن تشترك مع الهند — التى لم أكن رأيتها بعد — فى التمتع بحمايتنا . وقد كتبت وقتئذ فى مذكراتي مانصه : « إن المصريين شعب طيب أمين ككل شعب حر فى العالم . نعم كل المصريين أى الذين لا يتربعون فى الوظائف العالية لانني لا أعرف شيئا عن هؤلاء . فكل المصريين القرويين لديهم كل الفضائل اللازمة لجعل الجماعة سعيدة ناعمة البال فهم عاملون مبتهجون طائعون للقوانين ثم هم فوق كل شيء مستقيمون لا فيما يختص بالمشروبات الكحولية فقط بل فى كل الملا التى تجنح اليها الطبيعة البشرية . فهم ليسوا مقامرين ولا مشاغبين ولا محبين للدعارة والتهتك . وهم يحبون بيوتهم وزوجاتهم وأطفالهم . وهم آباء وأبناء صالحون كثيرو الشفقة على العجاوات والزمني والمتسولين والمعتوهين . وهم خلو من كل تعصب جنسي وقد يكونون خلوا من التعصب الدينى أيضاً . وغلطتهم الكبرى هي حب المال ولكنها غلطة يستطيع دهاقنة الاقتصاد السياسي التسامح فيها . وقد يصعب أن يعثر الانسان فى أى جهة على شعب أكثر استعداداً من المصريين لادراك الغاية الاقتصادية لاكبر سعادة تشمل أكبر عدد . فكل مطامحهم هي أن يعيشوا ويدعوا غيرهم يعيش وأن يسمح لهم بالعمل والاحتفاظ بنتاج أعمالهم وأن يبيعوا ويشتروا بدون تدخل وأن يفلتوا من الضرائب . ولقد أسيئت معاملتهم وذاقوا الامرين منذ قرون عديدة دون أن تتغير طيبة قلوبهم . وهم ليسوا بالمتحمسين في الوطنية ولا بالمتعصبين ولا بالاسخياء الي درجة الخيالات . ثم انهم خالون من المعايب الشائنة فكل رجل منهم يعمل لنفسه أو لأسرته على الاكثر أما فكرة التضحية الشخصية للمصلحة العامة فغير مفهومة لديهم ولكنهم بريئون من الدسائس لاستعباد أقرانهم .. وبالرغم من الاضطهاد الفظيع الذين هم ضحيته لم نسمع كلمة ثورية وليس ذلك ناشئاً عن أنهم يقدسون حكامهم تقديساً خرافياً بل لان الثورة ليست فى طبائعهم أكثر مما هي فى طبائع قطيع من الغنم . وانهم ليحبون ملكة انجلترا أو البابا أو ملك

اشاتي بلهف متساو لو أن هؤلاء جاءوهم بنعمة تخفيض عبء الضرائب وبمقدار قرش فى الجنيه

تلك كانت خواطرى الاولى عن مصر فى بدء عام ١٨٧٦ وهي صحيحة فى مجموعها غير أنني كنت بعيداً عن نمو الافكار السياسية فى المدن فلم أعرفه . كما أننى لم أفهم تأثير المالية الاوربية فى المشاق التي كان الفلاحون يشكون منها . ومع ذلك رأيت عند عودتنا الى القاهرة في شهر مارس شيئاً مما يجرى وراء الستار . لأن لجنة « المستر كيف » كانت قد وصلت فى إبان تغيبنا وحطت رحالها في احد القصور الواقعة في شارع شبرا . وقد عرفت من أحد أعضائها « فيكتور بكلي » الموظف بوزارة الخارجية والذي كان صديقا قديما لى ومن « الكولونيل ستاونتون» قنصلنا العام شيئاً عن الشؤون المالية . وانضم الى أعضاء اللجنة المالية فيما بعد صديق آخر هو « السير ريفرز ولسون » الذي قدر أن يلعب دوراً مهما فى الشؤون المصرية . ولست بحاجة لان أثبت هنا تفصيلا التقرير الذي وضعوه عن حالة مصر . وقد يساعد على فهم الحالة أن أذكر بالاجمال كيف تألفت هذه اللجنة التى هي الاولى من نوعها

فقد بدأ حكم الخديو اسماعيل فى وقت بلغ فيه رخاء مصر المادي درجة عالية . وكان سلفه سعيد رجلا متنورا قدم للفلاحين كل ضروب التشجيع في المسائل الزراعية . وكان قد تنازل عن دعوي الخديو فى أن يكون وحده مالك الاراضي فى وادى النيل واعترف بحقوق الملكية للأهالي وقضي بان تكون ضريبة الاراضي زهيدة أي ٤٠ قرشاً عن الفدان . فأدى ذلك الى رخاء الاهالى بصفة عامة وأصبح الفلاحون فى كل جهة بعد تحريرهم من حالة العبودية القديمة التى وضعهم فيها باشوات الجراكسة يدخرون الاموال . أي أن مصر فى نهاية حكم سعيد لم تكن فقط أسعد ولايات الامبراطورية العثمانية بل كانت من الوجهة الزراعية فى طليعة الامم الناهضة فى الشرق . وكان ايرادها كان أقل مما هو الآن — لا يزيد علي أربعة ملايين من الجنيهات — وكان يجمع بمنتهي السهولة

ثم كانت نفقات الادارة زهيدة جداً وكان الدين الاهلي لا يتجاوز ثلاثة ملايين من الجنيهات . نعم أن سعيداً فى أواخر حكمه منح امتيازات غير قليلة لبعض الأفاقيين الاجانب بشروط أصبحت تدريجاً حملا ثقيلا علي عاتق الدولة ولكن الرخاء العام فى البلاد كان كبيراً الي حد أن هذه الشروط مما يحتمله نظام الضرائب الخفيف حتى أن الخديو كان لديه بعد دفع سائر النفقات السنوية ما لا يقل عن نحو مليوني جنيه لمصروفاته الحرة . وفى الواقع لم تشهد مصر فى جميع أطوارها مثل ذلك العصر الذى بلغ فيه الاهالي ذلك الحد من الرخاء المادى حتي أن الفلاحين أصبحوا يسمونه « العصر الذهبي » فكان اسماعيل عند تبوئه العرش فى عام ١٨٦٠ أوسع الامراء المسلمين ثروة وحكماً فى بلد يعتبر فى مقدمة البلاد الاسلامية رخاء ويسراً

وكانت أخلاق اسماعيل قبل أن يتبوأ العرش أخلاق رجل واسع الثروة يتبع فى ادارة ضياعه الشاسعة فى الوجه القبلى أحدث الانظمة الزراعية . وكان موضع اعجاب السائحين الاجانب بسبب الآلات الزراعية التي أدخلها والمصروفات التي جعلها تعود بالفوائد . ومما لا ريب فيه أن اسماعيل له أكثر من النصيب العادى من الذكاء الطبيعي والاستعداد التجارى اللذين اشتهرت بهما أسرة محمد علي. وكان اعتلاؤه العرش موضع دهشة له لأنه لم يكن ولي العهد المباشر الي ماقبل وفاة سعيد ببضعة أشهر وكانت آماله آمال رجل مثر . وربما كانت نفحة القدر هذه نفحة غير منتظرة فى أول حكمه هي التي دفعته الى الاسراف . واذ كان ميالا بطبيعته الي المضاربة وشديد الشره فى جمع الاموال فقد حسب — علي ما يظهر — أن ميراثه هذا وتمتعه الفجائى بهذا السلطان المطلق ليسا الا وسيلة لتكديس ثروته . وفى الوقت نفسه كان شديد العجب ولعاً باللهو فضاع صوابه بهذا المركز السامي وبالفرصة التي أصبحت سانحة له كي يظهر أمام العالم بمظهر الامير الواسع الثروة . وفى الحال أحاط به المملقون على اختلاف أنواعهم من وطنيين وأجانب فوعدوه أن يجعلوه من جهة أغني الماليين ومن جهة أخرى أعظم الحكام الشرقيين شأناً .

وخانه ذكاؤه ومهارته التجارية فى اصغائه لهؤلاء الناصحين الذين جعلوه آلة فى أيديهم . وكان قبل تبوئه العرش قد حذق مهنة جمع الاموال بالطريقة التى كانت الاموال تجمع بها وقتئذ في مصر ثم انه كان قد تربى تربيـة أوربية — وهي من نوع التربية التي يحرزها الشرقيون فىشوارع باريس — أي تربية سطحية فيما يختص بالامور الجدية فكانت هذه التربية كافية لاقتناعه بمقدرته على مقاتلة أشرار البورصة بنفس سلاحهم . ولـكنه لسوء الحظ ضل السبيل فى كلا الحالين .

وكانت مناورته الاولى بسيطة وناجحة فى آن واحد . وذلك أنه وجدالايراد المتجمع من ضريبة الاراضى قليلا فرأي أن يزيده برفع الضريبة بين آن وآخر فرفعها من ٤٠ قرشاً عن الفدان — وهو المقدار الذى كان معمولا به عند تبوئه العرش — الي ١٦٠ قرشا ولا تزال كذلك إلي الآن . وكانت البـلاد فى أوائل حكمه فى رخاء وانتعاش فاستطاعت فى البداية أن تحمل ذلك العبء الاضافى أى أن الناس كانوا يدفعون هذه الزيادة من الاموال التي زادت عن حاجتهم وقد استمروا على ذلك بضع سنين دون أن يشعروا بغضاضة ما . بيد أن رفع الضرائب لم يكن سوى جزء من برنامج اسماعيـل الجشع . وقد ذكره مملقوه الوطنيون بان الاراضى برمتها كانت فى عهد جده ملكا خاصاً للوالي وأن محمد علي ظل الي عدة سنوات صاحب الامتياز فى تجارة مصر الخارجيـة فعول على احياء هـذه الحقوق فى شخصه . ومع أنه لم يجترىء — فى مواجهـة الاجانب — على مصادرة الاراضي مصادرة علنية فانه أدرك غايته من طريق آخر وبسرعة مدهشة حتي أن خمس الاراضى الزراعيـة في القطر المصرى أصبح ملكا له ولمـا يمض على حكمـه سوى بضع سـنوات . وكان طريقه فى ذلك الارهاب والضغط الى أن تصبح الاراضي التي يريد اغتصابها عالة علي أصحابها وتضيق فى وجوههم المسالك فيضطروا الى التخلص منها باثمـان زهيدة . وقد حصـل بهذه الوسـيلة كما قدمت على أراض شاسعة وظن أنها ستـكون مصـدر ثروة عظيمة له . ولـكن جشعه هذا كان سبباً فى افلاسه فقد ظهر من الوجهة العملية أن أطيانه لمـا كان من صغار الملاك كانت

تدار ادارة حسنة وعادت عليه بربح كبير بعكس هذه الاملاك الواسعة التى فتحت عليه أبواب الخسارة من عدة طرق . فعبثاً أنفق الاموال الطائلة فى شراء الآلات الزراعية . وعبثاً فرض علي قرى وجهات بأسرها إمداده بعمال السخرة . وعبثاً أنشأ المصانع فى أراضيه وجلب لها المديرين الاجانب بمرتبات فادحة . وقد نهبه أعوانه فى كل جهة الى حد أن المال الذى جمعه من هذه الاراضى كان أقل بكثير مما كان يحصله منها من الضريبة عند ما كانت ملكاللأهالى . وكانت هذه باكورة متاعبه المالية لأنها صادفت هبوط أسعار المحصولات وخصوصاً أسعار القطن فجاءت ضغثاً علي ابالة كما أنها كانت باكورة افلاس الفلاحين الذين أثقلتهم بمختلف الضرائب غير المنظمة لسد عجزه . وكان اسماعيل صديق المفتش المشهور ساعده الايمن فى هذه السياسة الخرقاء

ولم يمض غير قليل حتي اوقع اسماعيل نفسه فى أيد أشد فتكا وتوغل فى مشروعات أبعد خطراً من مشروعاته السابقة . فاننا اذا تركنا جانباً الأموال الهائلة التي بددها يميناً وشمالا كأنها المياه علي ملاذه الشخصية، وحماقته فى بناء القصور ، وطيشه مع النساء الاوربيات ، وخرقه فى إقامة الحفلات الملوكية ، اذا تركنا كل ذلك جانباً فانه كانت توجد إلى جانبه مشروعات أخرى عظيمة تكفى لاستنزاف خزانة أية مملكة فى العالم . فليس يعرف أحد بالدقة كم أنفق اسماعيل من الملايين فى الاستانة للحصول علي لقب الخديوية ولتغيير نظام الوراثة لمصلحة ولده ، ولكن يحتمل أن يكون قد دفع مبالغ طائلة . وهذا عدا الاموال الجسيمة الاخرى التي أنفقها فى مضاربات خرقاء وفى تعهدات قطعها علي نفسه مع بعض الشركات الاجنبية . وأخيراً كانت هناك حملة النيل الأعلى ومحاولته فتح مملكة الحبشة . فلكيما يجد الأموال الكافية لكل هذه المشروعات التجأ إلي الاقتراض أولا بمقياس صغير من أصحاب المصارف المحلية أى من أروام الإسكندرية ثم فيما بعد ، بشكل أشد طيشاً، من البورصات الاوروبية وكان نوبار باشا صديق السوء فى مشروعاته هذه . ونوبار هذا ممول أرمني — أصبح بفضل جهل طبقة معينة من المصريين بالتاريخ يلقب « بالمصرى الوطنى » فى حين أنه الوحيد الذى يتحمل بعد اسماعيل أكبر مسئولية عن خراب

مصر المالي فقد أرسله سيده للبحث عن الأموال بأى سعر للانفاق على حاجاته الباهظة. فعقد له فى اوربا القرض تلو القرض بشروط جعلته لا يستلم أكثر من ٦٠ فى المائة من المبالغ التي استدانها بينما استولى نوبار على عدة من ملايين الجنيهات باسم السمسرة. فقد ثبت أن اسماعيل لم يستلم سوى ٥٤ مليون جنيه تقريباً من الديون التى بلغت ٩٦ مليونا

وفى الوقت الذى كنت أكتب فيه ذلك لم يكن اسماعيل قد عقد اتفاقاته الكثيرة بيد أن فوائد الدين بلغت أربعة ملايين من الجنيهات سنوياً فللحصول على ايراد كاف لتسيير دفة الادارة ولتمويل الحرب الحبشية أصبحت أموال الفلاحين تنهب منهم تحت ضغط الكرباج. فالذين يتكلمون الآن بخفة فيصفون اسماعيل بأنه لم يكن مجرماً بل كان أميراً يستحق بعض الرحمة والعطف لبيعه البلاد مالياً إلى المولين الاجانب انما يجهلون الحقائق ولا يدركون تمام الادراك مبلغ الخراب الذى أنزلته حماقته وأنانيته برعيته الفلاحين. فلقد ثبت بصفة قاطعة أن حكم اسماعيل كلف مصر نحو ٤٠٠ مليون جنيه. وعندى أنه ليس ثمة مبالغة في هذا التقدير لأنه يشمل كل ما ادخره الفلاحون في سني الرخاء العديدة وجميع دوابهم تقريباً وهذا عدا الدين العام. وفضلا عن ذلك خلف اسماعيل الفلاحين مدينين شخصياً لمرابى الاروام وغيرهم بما يقرب من عشرين مليونا من الجنيهات

تلك كانت أسباب تعاسة مصر كما وقفت عليها في القاهرة فى ربيع عام ١٨٧٦ أما فيما يختص باصل تدخلنا المالى فهو يرجع بلا نزاع الى حماقة اسماعيل فى ذلك العهد لا الى أى دافع سياسي — على ما أعلم — من جهة انجلترا. فقد طلب فى خريف سنة ١٨٧٥ بواسطة « الكولونيل ستاونتون » أن تساعده الحكومة الانجليزية ماليا وبشكل لا مناص معه من أن تتخذ تلك المساعدة صفة سياسية. والسبب الذى دعاه الى تفضيل انجلترا على فرنسا وائتمانها على سره هو أنها كانت أقدر من فرنسا على مساعدته، لأن الحكومة الفرنسية كانت لا تزال تئن من نفقات الحرب السبعينية فكانت عاجزة عن مساعدته بأية طريقة عملية. أضف الي ذلك —

كما قدمت — أن الصداقة القديمة بين انجلترا وتركيا وامتناع الانجليز الى ذلك الحين عن الدسائس التجارية فى مصر ربما أقنعاه هو وغيره من مسلمي الشرق بأن انجلترا دولة بعيدة عن المطامع والغايات فيما يختص بالامبراطورية العثمانية. وبما أن خطة الحكومة الفرنسية فى مسألة قناة السويس بوجه خاص كانت موضع الشك فقد كان من الطبيعي عند ما وطد عزمه علي بيع حصته فى أسهم القناة أن يعرض ذلك علي انجلترا لا علي فرنسا. وانى لاذكر جيداً الأثر الذى أحدثته هذه الصفقة فى انجلترا وقتذاك فانها لم تقابل بالرضاء العام بل أن كثيرين لاموا « دزرائيلي » أشد اللوم على توريطه الحكومة فى مسألة كان من المحتم أن تكون لها نتائج سياسية. والامر غير المعروف فى مصر — على ما أظن — هو أن قرار شراء حصة الخديو بمبلغ أربعة ملايين جنيه لم يصدر باجماع رجال الحكومة الانجليزية — لان « اللورد دربي » كان معارضاً فيه — وانما صدر علي مسئولية رئيس الوزراء وحده وهو الذى اتفق — بدون استشارة أحد من زملائه المتغيبين عن لندن سوي اللورد دربي — مع بيت روتشيلد علي تقديم هذا المبلغ. ولا أعرف ماذا كان يجول فى خاطر « دزرائيلى » من الوجهة السياسية فى صدد هذا الشراء ولكن الامر الذى أعرفه تمام المعرفة هو أن « اللورد دربي » الذى كان وقتئذ وزيراً للخارجية لم تدر بخلده أية فكرة سياسية عدوانية بصدد الصفقة. فقد كان رأى «اللورد دربي» من وجهة السياسة الخارجية عدم التدخل بتاتاً كما أن «دزرائيلى» لم يكن قد نجح بعد فى تلقيح حزبه بآرائه الاستعمارية. وعلي كل حال فقد كانت الصفقة نذير الشر بالنسبة لمصر وخصوصاً بسبب الدور الذي لعبه فيها بيت روتشيلد. وسيظهر فيما بعد أن العلاقة المالية بين هذا البيت اليهودى الواسع النفوذ وبين مصر هي السبب الرئيسي فى التدخل العسكرى الانجليزي بعد مرور ست سنوات (١)

وكانت لجنة « المستر كيف » التي ذهبت إلى مصر بعد صفقة الاسهم مباشرة

---

(١) ظهرت منذ كتابة ذلك معلومات رسمية جديدة فيما يتعلق بشراء أسهم قناة السويس تغير السياق المذكور هنا بعض التغيير. أما الحقائق الاساسية الخاصة بعلاقة بيت روتشيلد ودزرائيلي فلا تزال كما أثبتناها هنا

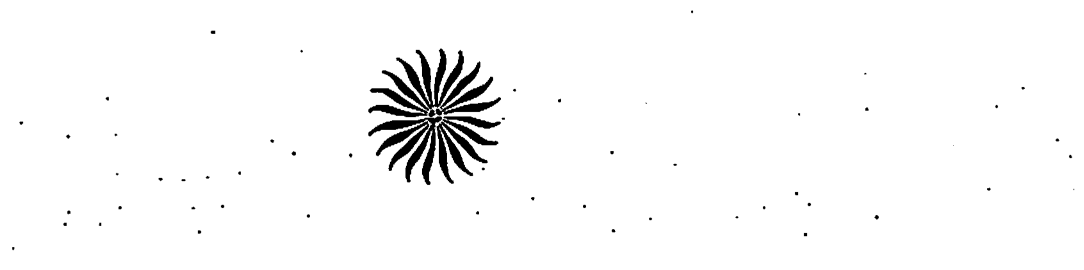
من عمل اسماعيل بلا جدال . وكان الغرض الذى جال فى خاطره عنـد طلبه هذه اللجنة أن يستمر استخدام المنجم الجديد الذى اكتشفه ، منجم المساعدة السياسية الانجليزية ، لعقد قروض أخرى . وتحقيقا لهـذه الفكرة أراد الحصول علي شهادة رسمية ، فى شكل تقرير ينشر علي الملأ ، بأن حالته الماليـة لا تزال بعيـدة عن الارتباك وأنه ما برح قادراً علي تسـديد ديونه لتفتح البورصات الاجنبية أبوابها له من جـديد . فمن أجل هـذا طلب اسماعيـل للكولونيل ستاونتون ارسال لجنة تحقيق انجليزية .

وقد أصابت مناورته قسطا كبيراً من النجاح . وكان « المستر كيف » الذى عينته الحكومة الانجليزية لرياسة اللجنة رجلا مستقيما ونزيهاً علي ما أعتقد ولـكنه نظراً لقلة خبرته بشؤون الشرق كان من السهل أن يخدع . ثم انه كانت تنقصـه الشجاعة اللازمـة لمعالجة جميع الحقائق بالجرأة التى يتطلبها الموقف . وكان اسماعيل كسائر المبذرين حريصاً علي إخفاء بعض حساباته عند ماجاء دور الخوض فيها ، فبمساعدة اسماعيل صديق قدم للمستر كيف ميزانية خيالية لم يتردد هذا الاخير في قبولهـا . وزاد على ذلك أن ذر في عينه الرماد فيما يتعلق بحالة الضنك التى كان الفلاحون يرزحون تحتها . وكان من خطتـه أن يحيط كبـار الزوار الماليين الذين يريد ايقاعهم فى شراكه بمظهر الأثراء والبذخ . ولذلك قوبلت اللجنة بكل حفاوة وطاف بها مندوبوه الي حيث وضعت المعدات اللازمة من قبل وحيل بكل الوسائل بينها وبين رؤية عراء الارض . وعلي ذلك كان تقرير كيف عند نشره بمثابة وصف لبعض الحقائق فحسب

وأظن انه كان فى اسـتطاعة كيف لو ان خلقه كان أقوى ممـا هو أن يتشبث بالحقيقـة التى كانت فى قرار كل صعوبات مصر المـالية ألا وهي ان ديون اسماعيل كانت شخصية لاعمومية في عرف العدل بل فى عرف القانون وأنها يجب أن تحـل على هـذا الاعتبار . وكان ضعف كيف فى هـذه النقطة بداية التدخل السياسي لمصلحة حملة الاسهم فكان تقريره حينئذ أداة لاعتبار ديون اسماعيل ديونا

عموميــة . ومع أن السير رفرز ولسن الذى تلاه كان أقدر منــه فقــد كان مثله غير مدرب ولا مجرب وكان انتخابه في ذلك الوقت راجعاً على ما أعتقــد الي معرفته اللغــة الفرنسية . وقد عرفتــه حق المعرفة وعرفت كيف ولـكن ليس الى هــذا الحد . وبقيت المراسلات متصــلة بيني وبين الاول عدة أعوام فوقفت على كل أعمــاله فى مصر

وآخر ما أذكره من حوادث ذلك الشتاء فى القاهرة مأدبة أدبها الخديو لـكيف وأعضاء لجنته دعيت لها اتفاقا . وقد أدبت فى الـكشك الخديوي القائم على سفح الاهرام وكانت من المآدب الشائقــة التى تعود اسماعيــل أن يبهر بها عيون الاوربيين فلم يكن يعوزها شيء مما يدل على البون الشاسع بين غني صاحبها وفقر أولئك الذين أقيمت المأدبة فى الحقيقــة على حسابهم . ومد لنا السماط على مرأى جمهور من الفلاحين الذين يكادون يموتون جوعا والذين جاء المستر كيف لانقاذهم من الخراب ، ومع ذلك لم يظهر على أحدنا انه تفطن الى هذا التناقض فأكلنا كما شئنا وشربنا أفخر الشمبانيا ومضي كل منا فى وجهته . ولم أستطع الى الآن وبعد الاحاطة بكل ما هنالك أن أدرك حقيقة الحال وما فيها من الشقاء



الفصل الثاني

لجنة السير رفرز ولسن

لما غادرنا القاهرة فى ربيع سنة ١٨٧٦ زرنا حدود بلاد العرب أول مرة ، وكان السياح الاوربيون يومئذ يذهبون من مصر الي سوريا بطريق الصحراء اكثر مما يفعلون الآن . ومن ثم عدنا الى الجمال وحياة الخيام والبدو الذين حرسونا من السويس وعبرنا القناة وقمنا بسياحة طويلة في شبه جزيرة سيناء الى العقبة ومن هذه الى القدس . ولما كنا غرباء عن البلاد التى اجتزناها ولم تكن لنا معرفة باللغة العربية ولم يكن معنا مترجم وقعت لنا حوادث خطرة تسرنا الآن ذكراها وان لم تسرنا يوم حدوثها . منها حادثة أحسب أنها تستحق الذكر وهي حادثة غريبة تتلخص فى أننا كنا نسير على شاطيء خليج العقبة المحلى فى بعض مواضعه بصخور المرجان فوقفنا نفحص ما هنالك من الالوان المختلفة بين أرجوانى وذهبي وقرمزي ونعجب بها هي والاسماك الصغيرة التى لا تحصي والتى تسكن تلك الصخور . فبينا كنت واقفاً علي حافة البحر ممسكا ببندقيتى التى لم تكن تفارقني رأيت اضطرابا عظيما فى الماء علي كثب مني . وقبل أن أدرك سبب هذا الاضطراب رأيت كلب بحر هائلا يترك زملاءه ويأتى علي غرة مني الي حيث وقفت فصار علي بضع ياردات مني قبل أن أدرك أي نوع من السمك هو أو أفطن الى اني أنا المقصود بهجومه . ولم أكد أتمكن من رفع بندقيتى حتى انقلب علي جنبه — كدأب هذا النوع من السمك — وأخرج نصفه من الماء لينقض علي . وكان قد صار قريباً منى فقتله الطلق الذى سددته نحوه ولم تبق حاجة لطلق آخر يجهز عليه . ثم استطعنا بمساعدة جرارة أن نسحبه الى الشاطيء وكان طوله يبلغ عشرة أقدام تقريباً . ولا شك عندى فى انه كان يجرني من الصخرة الى البحر لو أني تهاونت فى شأنه . وقد

ذكرني هذا الحادث بالخطر الذي طالما استهدف له فلاحو مصر من التماسيح في النيل الاعلي . وقد صرت شديد الحذر فيما يختص بالاستحمام فى البحر من ذلك الحين

واتفقت لنا مصاعب أخرى مع بعض الاعراب فى طريقنا لا لشيء غير جهلنا باحوال الصحراء وعاداتها . فلما ضربنا الخيام فى ظاهر العقبة زارنا ابن جاد شيخ العلويين المعروف وهم فرع من عرب الحوايات . وكان له حق حراسة السياح الى بطره فقادنا الجهل الى إساءته فكانت النتيجة أن قمنا بلا حرس ولا دليل وليس معنا من أهل هذه المنطقة الا غلامين عربيين تبعانا من جبل سيناء ولم يعرفا شيئاً عن المنطقة الشمالية . فمع هذين الغلامين جازفنا بالسفر شمالا الى فلسطين ومن ثم نفد منا الماء . وقد وجدنا الآبار التى هدانا اليها حسن الحظ جافة . وبعد معاناة أشد الصعوبات تحت شمس محرقة بلغنا حلة عربية وقد ساءت أحوالنا فى احدي الليالى الى حد أن قررنا أن نترك أمتعتنا ونهيم علي أحسن جمالنا لننقذ حياتنا بالوصول الى البقاع المأهولة اذا نحن لم نعثر على ماء حتى ظهر اليوم التالى . ولكن نهيق حمار أنبأنا بأننا على مقربة من حلة قبل الموعد المضروب بساعة واحدة ثم نظرنا طفلا عربياً جاثيا على كثيب من الرمل فعلمنا منه بالاكراه والتهديد مكان النبع الذى يستقون منه

وكان هذا النبع مجرى بديعاً من ماء المطر يجرى فى تجويف الصخور . وهنا لبثنا طويلا فروينا ظمأنا وملأنا قربنا . وكان عرب العزيزية أصحاب المكان بعيدين عنه لحسن الحظ والا فاني أشك كثيراً فى أنهم كانوا يسمحون لنا بان نأخذ ما شئنا من هذه « النعمة الالهية » لانهم كانوا أصحاب المكان وقد زرعوا الى جانب الماء حقلا من الشعير كما يفعل البدو فى أكثر الاحيان على حدود سوريا معتمدين على نزول المطر . أما هذا الماء فقد أعدوه للاستسقاء على أن ينضج شعيرهم . وقد غضبوا بحق حينما عادوا فاضطررنا أن نقضي الليل ساهرين نترقب خوف هجومهم علينا . ولكنهم لم يظهروا الا فى الصباح وقد ظهروا صارخين مهددين . على أننا كنا قد حملنا الجمال وكنا مسلحين تسليحاً جيداً فغذذنا السير ولم نحفل بهم ، بيد أنني بعد أن عرفت البدو خيراً مما كنت أعرفهم فلست

أشك فى أنه كان فى استطاعتنا أن نجتنب التساحن معهم بقليل من التفاهم وبدفع عن اعتدائنا على حقوقهم ، اذن لاحسنوا استقبالنا ولم يحدث مكدر ، أما والحال كما كانت فقد كنا على قيد أنملة من شر جدى . ويجب أن نحمد الله على وصولنا فى اليوم التالى الي الاراضى الخضراء الواقعة بين غيران وغزة حيث أحسن العرب النازلون هناك لقاءنا وحيث أنستنا صداقتهم الخطر الذى كان قد أوشك أن يحل بنا . وكان هذا آخر سياحتنا فى ذلك العام فعدنا فى أوائل الصيف بطريق البحر الى انجلترا .

على أننا لم نلبث أن عدنا للشرق فى صيف سنة ١٨٧٧ — ١٨٧٨ ببرنامج أوسع فزرنا حلب ثم انحدرنا فى الفرات الى بغداد وعقدنا علاقات المودة أثناء عودتنا مع القبائل العربيـة العظيمة النازلة فى صحراء سوريا والعراق . وكنا قد بدأنا نعرف قليلا من اللغة العربية ونفهم عادات العرب ولم نعد نقع فى مثل الخطأ الذي رويته آنفا . ويعود قسط كبير من الفضل فى هذا الي النصائح الحكيمة التى زودنا بها المستر سكين قنصل بريطانيا فى حلب يومئذ وقد كان واسع العلم بأساليب العرب فأفهمنا كيف نتقرب اليهم من نواحيهم النبيلة تاركين كل خوف من الركون اليهم كاصدقاء . وقد وفت زوجي هذه السياحة المهمة الناجحة حقها من الوصف فى كتابها « قبائل البدو على الفرات » وهو كتاب وضعناه معاً ويمكن أن يرى فيه من يعنون بالامر آرائي الاولي فيما يختص بحرية العرب . ولم يكن عطفى علي العرب فى حروبهم المزمنة مع الاتراك نتيجة أية فكرة اعتنقتها قبل ذلك ولا هو نتيجة أية خطة سياسية ولـكنه كان نتيجة ما رأيت من سوء معاملة الموظفين الاتراك للعرب المقيمين فى تلك البقاع وما رأيته من رفاهية القبائل المستقلة .

وكان ذلك الوقت وقت اضطرابات محلية وكانت الحرب الروسية التركية فى مرحلتها الاخيرة فى القرص وبلفنا . ومع أن أفضل تمنياتنا كانت للجيوش الاسلامية وضد الغزاة الروسيين فان منظر تعساء السوريين والعراقيين اذ يجندون ويساقون فى الاغلال الى شاطيء البحر أثار غضبنا علي الحكومة التركية وهو غضب قواه ما كان يظهره العرب كل يوم من بغض الاتراك . ولم يكن فى طاقة أى انسان يقدر

الجريمة إلا أن يستشعر مثل هذا الغضب اذ يرى سوء حكم الاتراك لولاياتهم العربية

وهنا وصف المستر بلنت أحوال الولايات العربية تحت الحكم العرفى ثم قال :

ولما عدت الى انجلترا فى مايو سنة ١٨٧٨ أخذنى ابن عمي « فيليب كارى » الذى كان سكرتير لورد سلسبرى الخاص وأحد كبار الموظفين ذوى النفوذ فى وزارة الخارجية الى اللورد سلسبرى ، وكان هـذا قد تسلم مقاليـد وزارة الخارجية حديثا وكان يوشك أن يوقع المعاهدة السرية التي عقدها مع سلطان تركيا (وهي الشهيرة باسم معاهدة قبرص) ولم يكن لى علم بشيء من هذا فى ذلك الحين · فأثارت سياحتي فى قلب الولايات العربية اهتمام اللورد وأراد أن يعرف مني شيئاً عن حقيقتها · وقد أجبت على أسئلته فأدليت اليه بكل آرائي بصراحة تامة وأذكر الآن بصفة خاصة ماقلته له عن احتمال استقلال سوريا ذات يوم وانها قد تتحالف مع مصر ضد ظلم الحكومة التركية . فلم يجب علي هذه الاقوال بسوى قوله انه لا توجد رابطة سياسية بين هاتين الولايتين التركيتين وأن لكل منهما أحوالا و نظاماً خاصاً . وقد ظهر عليه التأثر بكلامي حين طعنت فى مشروع السكة الحديدية فى وادي الفرات وكنت أرى في هذا المشروع خطراً جديداً علي استقلال الولايات العربيـة . وقد علمت فيما بعـد أنه اقتنع كثيراً بمـا ادليت به من الحجج فى هذا الصدد وأن وزارته لم تؤيد ذلك المشروع بعد حديثي معه فلم ينفذ الى اليوم .

على أن حديثي مع اللورد سلسبري فى هذه الفرصة أقنعني من ناحية أخرى بسعة اطلاعه فى الشؤون الشرقية . ومع أن آراءه لم تـكن تتفق مع آرائي فى هـذا الصدد فانني كنت واثقاً من كفاءته الشخصية وقد توثقت بيني وبينه بعـد ذلك أواصر صداقة هي وان تـكن غير صميمة إلا أنها كانت ودية . وقد سمح لي أن أكتب له في هذه الشؤون الى النهاية ، ومع أنه لم يوافق علي آرائى الا نادراً فقد كان دائمـا يرد علي خطاباتى بلطف أكثر مما تقتضيه التقاليد الرسمية .

علي أن الخطة التى انتهجها اللورد سلسبري صيف ذلك العام ببرلين لم تلبث

أن بددت كل ما عقدته من الآمال علي اقناعه بآرائي فيما يختص بالعرب فقد أعلن يومئذ أنه يضمن للسلطان سلامة كل ممتلكاته الاسيوية . ولما كانت مداولات مؤتمر برلين السرية قد أثرت فى أحوال مصر تأثيراً غريباًمهما فى الوقت نفسه فلست أجد مندوحة من أن أروي حكايتها هنا وقد عرفت حوادثها عقب وقوعها مباشرة

ويذكر القراء أن شتاء سنة ١٨٧٨ — ١٨٧٧ الفظيع شهد آخر مراحل الحرب بين روسيا وتركيا وان ربيع العام التالي رأى جيوش القيصر على أبواب الاستانة . وقد كان هذا العهد عهد شقاء عظيم فى مصر . وكانت لجنة كيف التي شهدت وصولها الي القاهرة قد تبعتها لجان مالية أقل منها نزاهة وطهارة ذمة . وقد انتهي ذلك كله بالاتفاق المعروف باتفاق « غوشن وجوبير » الذي سويت علي مقتضاه ديون الخديو ، وفي الحق أنها تسوية جبارة وضعت سبعة ملايين جنيه علي عاتق الايرادات المصرية . ولم يكن الحصول علي هذا المبلغ الجسيم من الفلاحين المفلسين ممكناً الا باكراههم تحت الكرباج على ارتهان أراضيهم للمرابين اليونانيين الذين كانوا يرافقون جباة الضرائب فى كل مكان أثناء مرورهم في القرى . وكان الفيضان فى السنتين الاخيرتين قد جاء شديداً جداً وأصيبت البلاد بالقحط فيما بين البحر واسوان وقد قضي كثير من أهل القرى رجالا ونساء وأطفالا — جوعا — في شتاء ذلك العام الذي لم يمر مثيل له من أول القرن .

وكان واضحاً والحالة هذه انه إما أن يفلس الخديو أو يخفض فوائد ديونه بعد اذ أهملت تسوية «غوشن وجوبير» ، وقد كان الحل الاول أعدل الحلين وأفضلهما لخير البلاد ولكنه أهمل كرامة لمصلحة حملة الاسهم الاجانب . وقام هؤلاء بجهد نهائي نجح فى هذه المرة لحمل الدول العظمي على التدخل السياسي للوصول الي تسوية أخرى بين اسماعيل ودائنيه ، وكانت الفرصة ملائمة فيما يخص انجلترا . الاتفاق حدوثها فى الوقت الذى عقد فيه الانجليز نيتهم بارشاد دزرائيلى على القيام بلعبة سياسية جريئة تمثل دوراً هاماً فى شؤون الامبراطورية التركية ، وكان لورد دربي قد تخلف عن رئيسه بعد أن قطع معه وعلى الرغم منه شوطاً فى سياسته الاستعمارية الجديدة . وقد استقال لورد دربى فعلا من وزارة الخارجية وخلفه فيها لورد سلسبرى كا .ر

بك . وقد كان ذلك دليلا على تقدم سياسي عام غير خال من التحدى والتهديد وقد أدخل الاسطول البريطانى الي بحر مرمرة فرعب الجيش الروسي ومنع من دخول الاستانة ووضعت الحرب أوزارها على عقد معاهدة بين السلطان والقيصر تحت ضغط هذه المظاهرة الانجليزية وهي معاهدة «سان استفانو» أما من حيث مصر فقد الفت فى الوقت نفسه لجنة تحقيق دولية بالاسم وانجليزية فى الحقيقة وعين فيها صديقى السير رفرز ولسن ممثلا لانجلترا وأحسب ان أمر تعيينه هو أول أمر وقعه لورد سلسبرى عند استلامه مقاليد وزارة الخارجية فى دونتج ستريت .

ولا يغيب عن الذاكرة أيضاً أنه لم يمض شهران علي ذلك حتي عقدت معاهدة سرية فى الاستانة ، عقدها السير هنري لايارد وهو رجل عظيم الكفاية والدراية بالشرق وكان قد أحرز ثقة السلطان الشاب عبد الحميد . وقضت هذه المعاهدة بتأجير جزيرة قبرص لانجلترا وأعطي ضمان للسلطان بسلامة ممتلكاته الاسيوية فى مقابل وعده باصلاحات تدخل فى آسيا الصغرى لوجود قناصل بريطانيين متنقلين وهم ضباط يقدمون النصائح ويقدمون التقارير بالتقصيرات والشكاوي .

وكانت فكرة معاهدة قبرص فى اعتبار دزرائيلي وسلسبرى اللذين وقعاها ولايارد الذى هو منشئها الحقيقي ترمي لتأسيس حماية بريطانية علي آسيا الصغرى وهي وان تكن غير رسمية إلا أنها لاتقل في مفعولها عن الحماية الرسمية . وكان الحصول علي قبرص فى نظرهم أقل أجزاء الصفقة . وكانت هذه الجزيرة قليلة الاهمية فى الحقيقة بالنسبة لبريطانيا . كمركز عسكري . ولم يكن اختيار هذه الجزيرة يرجع الى صلاحيتها من الوجهة العسكرية بل الى لوثة من لوثات دزرائيلي أثارها تقرير دورى عن ثروتها أرسله اليه قنصل بريطاني ذو مصلحة في الجزيرة . وكان دزرائيلي قد وضع فى سياسته قبل ذلك ببضع سنوات رواية « تانكرد » التى عرض فيها مازحا فكرة انشاء امبراطورية اسيوية تحت الحكم البريطانى وعني بادماج قبرص فيها بصفة خاصة معيداً بهذه الحقيقة التاريخ فان الملك الانجليزى رتشارد قلب الاسد كان يوما من الايام ملكا علي هذه الجزيرة . وقد كانت المسألة فكاهة سياسية ولكن دزرائيلي كان يحب أن يقلب فكاهاته السياسية الى حقائق ويقنع أنصاره

الانجليز الذين كان يحتقرهم كيهودى بسداد أعماله الخرافية وإحكامها . وكان غرض لايارد الحقيقى من عقد المعاهدة هو التحكم فى آسيا الصغرى من الوجهة العسكرية وهو الغرض الذى ظن ادراكه سهلا بواسطة القناصل البريطانيين المتنقلين والواقع أن هذا الغرض يمكن عزوه الي لايارد أكثر من عزوه إلى سلسبرى الذى كان جديداً فى وزارة الخارجية والذى أكسبته تجاريبه فى العام السابق فى الاستانة عطفاً على الأتراك . وكان على هؤلاء القناصل أن يشرفوا على الادارة المدنية فى الولايات ويتأكدوا من أن جباة الضرائب لاينهبون الفلاحين وأن ميادين تدريب الجيوش التركية ليست مزدحمة بسبب سوء الادارة .

ومن ثم ظن بأن زحف روسيا علي البحر الابيض قد يقف عند أسيا الصغرى كما وقف زحفها فى أوربا عند سان استفانو .

واذا نحن أنعمنا نظرنا اليوم فى الموقف ولا سيما بعد العلم بما تلا ذلك من الحوادث والوقوف علي طبائع السلطان عبدالحميد فليس في وسعنا الا الدهش من أن يوقع السلطان عبد الحميد معاهدة كهذه لو نفذت لوضعت تركية أسيا فى الايدى العسكرية البريطانية كما هي حال مصر اليوم . كذلك يدهش المرء من توقع وزارة الخارجية البريطانية نجاح تلك المعاهدة ويلوح له ان اللقب الذى أطلقه عليها غلادستون « بأنها معاهدة مجنونة » كان فى محله على أنه لا يجوز لنا أن ننسى أن السلطان عبد الحميد لم يكن مخيراً مع وجود الجيش الروسي على أبواب عاصمته فقد كان مضطراً لقبول التحالف البريطانى ولو كان معناه الوصاية وقد كانت انجلترا الى ذلك الحين أقامت الحجة على أنها صديق نزيه يعتمد عليه . وكان لايارد على بينة من قوة نفوذه فى القصر كما أنه كان يعرف ما لاسم بريطانيا من الهيبة فى الولايات الاسيوية . وكان للقنصل البريطانى فى تلك الايام نفوذ تام علي ولاة الاتراك وسائر الموظفين منهم وكان له أن يعتقد أن نفوذه لن يكون له آخر .

والواقع أن الشرف البريطاني كان يومئذ عظيما فى نظر الاتراك وكانت السياسة البريطانية مشبعة بالعطف على المسلمين حتي أنه لم يختلج فى صدورهم أى شبهة فى أن لانجلترا مقاصد أنانية . وكان لايارد نفسه حسن الظن بالاتراك وربما كانت له

آمال فى أن يلعب فى قصر يلدز الدور الذى لعبه لورد كرومر فى عابدين . وعندى أنه من المدهش أن يغامر البريطانيون فى أحلام كهذه أو أن يثق المسلمون بنزاهة بريطانيا

وأخيراً يجب أن نذكر انه بعد توقيع المعاهدة السرية بشهر واحد اجتمع المؤتمر الاوربي العظيم فى برلين . وقد اجتمع بناء على رغبة دزرائيلي وكان المفهوم أن يكون أعظم اجتماع أوربى منذ مؤتمر باريس . وكان غرض هذا المؤتمر كغرض سابقه تقرير مصير تركية أوربا ورعاياها المسيحيين وتعديل معاهدة سان استفانو . وقد علق دزرائيلى نجاحه كرجل سياسي علي نجاح المؤتمر فى ذلك . فقد تداخلت انجلترا بدافع سام كأفضل صديق لتركيا منزهة عن الغرض على قول دزرائيلى وأصبح مقامه السياسي فى انجلترا وفى الخارج معلقاً على مصادقة الدول على مزاعمه فى هذا الصدد . وكان نجاح المؤتمر ضروريا لدزرائيلى الى حد أن ذهب اليه بنفسه كرئيس للمفوضية البريطانية وأخذ سلسبرى الذى كان الى ذلك الحين حديث عهد بالسياسة بينما مثل روسيا « غورتشاكوف » ومثل فرنسا وادنجتون وايطاليا الكونت كورتي وتولى البرنس بسمارك رآسة هذه الهيئة الفخمة وقد رافق كورى لورد سلسبرى كما رافق بروتون دزرائيلى .

ولا حاجة بى لوصف اجراءات المؤتمر العامة فهي معروفة للجميع ولكن الذى لم يذع قط من قبل هو هذا الحادث الهام الذى عرفته — كما سيأتي — بعد حدوثه بزمن قصير .

اجتمع المؤتمر يوم ١٣ يونيه وكانت الامور المطروحة علي بساط البحث علي أعظم جانب من الاهمية . ولم يكن ثمة بين المفوضين الا قليل من الشبه فيما يتعلق بامكان تقسيم تركيا فاقترح بعضهم من أول الامر أن يعلم كل مفوض بادىء ذى بدء انه حضر الي المؤتمر غير مقيد بتعهدات سابقة فيما يختص بالمسائل المفروضة للبحث . وقد فوجيء دزرائيلي وسلسبرى بهذا الاقتراح ولم يكونا على استعداد للافضاء باعمالهما السرية مع سلطان تركيا غير أنهما لم يكن لهما من حضور الذهن ما يقويهما على رفضه فقبلاه كغيرهما بصفة رسمية — وقد كان كلاهما حديثى عهد بالسياسة كما أسلفنا . ومن هنا يمكننا أن نصور جسامة الدهش وفداحة الفضيحة

اللذين ثارا بعد بضعة أسابيع فى برلين حين نشرت إحدى صحف المساء فى لندن يوم ٩ يونيه نصوص المعاهـدة السرية . وكان كورى قد استخدم رجلا يدعي « مارفن » تعود السياحة فى الشرق وعرف لغاته فى ترجمة النص التركي . ولم يكن مارفن هذا موظفاً فى وزارة الخارجية فكان من وراء الطيش فى استخدامه أن باع السر بمبلغ كبير الى جريدة « جلوب » فانقض نشر المعاهدة انقضاض الصاعقة علي المفوضين البريطانيين فى برلين ومع أن سلطات لندن نفت صحة النص المنشور فقد كان فوق الطاقة كتمان الحقيقة طويلا فى برلين . وأصبح مفوضونا فى برلين أمام حقيقة لا يمكن تأويلها وهي أنهم خانوا عهد زملائهم الاوربيين خيانة جسيمة واتهموا بكذب صريح مكتوب ومسجل عليهم . وقد هدد ظهور السر مؤتمر برلين بالاخفاق بل بالانفضاض العاجل . وقد أعلن البرنس غورتشاكوف انه أهين وشاركه فى غضبته وادنجتون وتهدد كلاهما بالانسحاب من المؤتمر وأخذ وادنجتون يحزم أمتعته استعداداً للسفر من برلين . وكان الموقف حرجا ولم تنقذه الا خدمات بسمارك المشوبة بالتهكم . وكان قد أعجب بدزرائيلي وعطف عليه لمشابهة بينهما فى خلتي التهكم والجرأة . واستطاع كوسيط أمين أن يوفق بين مفوضي فرنسا وانجلترا على القواعد الآتية :

١ — أن يسمح لفرنسا عند أول فرصة وبغير معارضة من جانب بريطانيا أن تحتل تونس كتعويض عن حصول بريطانيا على قبرص .

٢ — أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا فى التسويات المالية التي تتم فى مصر

٣ — أن تعترف انجلترا بزعم فرنسا القديم فى أن لهـا حق حماية المسيحيين اللاتينيين فى سوريا وعلي قاعدة تسليم دزرائيلي فى هـذه النقط الثلاث . وقبل وادنجتون البقاء فى برلين والاشتراك مع سائر المفوضين فى تسوية مسائل البلقان التي تمت على قواعـد الاقتراحات البريطانيـة تقريباً — ومن الغريب أن الثمن الذي دفعه دزرائيلي الى فرنسا وهو ولاية من ولايات حليفه السلطان مكنه من أن يعود بعد قليـل الي لنـدن ويدعي الفوز والانتصار مفاخرا بأنه عاد يحمل « الشرف والسـلام » وعندى أن هـذا الحادث العجيب يجب أن يعتبر

مبدأ نبذ بريطانيا تقاليدها السياسية المجيدة فى الشرق واتباعها سياسة نهب وخيانة. والى دسيسة قبرص هذه يرجع مباشرة أو غير مباشرة نصف الجرائم التى ارتكبت ضد حرية الشرق وشمال افريقيا وهي الجرائم التى شهدها جيلنا الحاضر . وهي التى ألقت فى روع النمسا فكرة ضم البوسنه فى الحال . وهي التى ساعدت على اخفاق تسوية صحيحة فى مقدونيا . وهي التى وضعت تونس تحت أقدام فرنسا وبدأت عهد تقسيم أفريقيا بين الدول الاوربية وما يتبع ذلك من شتى المخاوف والنكبات التي حاقت بالوطنيين من بيزرتا الى بحيرة تشاد ومن الصومال الى الكونغو وفوق هذا كله أفقدت بريطانيا سمعتها الى الابد فى الامبراطورية العثمانية وغيرت قلوب المسلمين عليها فى عامي ١٨٨١ و ١٨٨٢ وكانت عاملا مهما فى الحوادث العنيفة التي حدثت فى مصر فى تلك الاوقات المضطربة كما سأبين بعد . ثم انها هزمت نفس الغرض الذى رمت اليه فى تركية آسيا ان كان ذلك الغرض المعاونة حقاً علي ادخال الاصلاح.

وقد لفت عمال المؤتمر نظر السلطان الى الخطر الذي يكمن فى المعاونة البريطانية وغيروا قلبه فاتبع سياسة مناقضة للنصائح البريطانية وقد نجح فى سياسته هذه نجاحا تاما وقمع دعاة الحرية والحكومة الذاتية بين رعاياه والي هذا السبب تعزى المظالم التى نكب بها الاحرار فى الاستانة وليس من المبالغة فى شيء أن نعزى له النكبات التي حاقت بالارمن بعد ما أثار فيهم المفوضون البريطانيون فى برلين آمالا كباراً وأوهموهم بأنها تتحقق بمساعدة بريطانيا الادبية — تلك المساعدة التى لم تكن أحوال السياسة البريطانية غير الادبية تسمح لبريطانيا بتقديمها .

أما النتيجة المباشرة للاتفاق مع وادنجتون فيما يختص بمصر فكانت ارسال تلغراف من برلين الى ولسن فى الاسكندرية يتضمن أمراً شديداً أحزنه وأدهشه وهو أن يكون حظ فرنسا كحظ انجلترا تماما فى جميع التعيينات المالية ذات العلاقة بتحقيقه الرسمي .

ومع أن ولسن لم يعرف الحقيقة فى ذلك الحين فقد كان هذا سبب المراقبة

الثنائية (١) — الانجليزية الفرنسية — التي وضعت على المسألة المصرية — بعد مرور عام على هذه الحوادث كانت الاحوال سائرة على هذا المنوال حين وجدت نفسى فى خريف السنة ذاتها — سنة ١٨٧٨ على طريقى للشرق . وكانت سياحتى فى الشتاء السابق إلى بغداد . والنجاح الذى أدركته كان فى مسألة أهم لدى كثيراً من السياسة ، وهى شراء الخيول العربية التى كونت نواة اسطبلى المعروف اليوم جيداً فى « كرابت » — والذى أثار الفضول والتعجب فى انجلترا . ومن ثم قضيت الصيف فى اعداد جريدة امرأتي وتقديمها للمطبعة .

وكنا علي كل حال قانعين بهذا وقد عقدنا النية علي سياحة أشد مجازفة مما حاولنا فى الماضى وقصدنا دمشق التى رسمنا الابتداء منها واختراق الصحراء العربية الوسطي وزيارة نجد وطن الجياد العربية

---

(١) رويت حكاية ماحدث مع وادنجتون كما سمعتها من لورد ليتون فى سملا فى مايو سنة ١٨٧٩ . وكانت التفصيلات مدونة فى خطاب أطلعني عليه . وقد كتب اليه من برلين حين كان المؤتمر يعقد جلساته . أما الذى كتبه له فزميل سياسى وقد تأكدت صحة هذه الحوادث من أكثر من مصدر وان لم تتفق جميع المصادر على تفصيلاتها بالدقة . أما فيما يختص بالنقطة الجوهرية فى الاتفاق وهى الخاصة بتونس فقد وقفني على تفصيلاتها الكونت كورتى فى سنة ١٨٨٤ وكان ممثل ايطاليا فى المؤتمر . ويؤخذ مما قاله لي أن دهش دزرائيلى الناجم من نشر نص المعاهدة السرية كان من الشدة بحيث مرض ولزم غرفته ولم يظهر فى جلسات المؤتمر أربعة أيام متوالية تاركا لورد سلسبرى يؤول المسألة علي أحسن مايستطيع . وقال لي ان المفاوضات لم تقطع بصراحة بين دزرائيلي ووادنجتون وأن هذا عرض المسألة علي زملائه الفرنسيين الذين اتفقوا علي أن المسألة من المسائل التى لا يتنازع فيها علنا وقالوا « اما الحرب أو السكوت » وجرى الاتفاق شفويا بين وادنجتون وسلسبرى ولكنه سجل فى تلغراف كتبه سفير فرنسا فى لندن إلي لورد سلسبرى وذكره فيه بالمحادثات التى دارت فى برلين وبذلك ضمن الاعتراف بهذه المحادثات كتابة

وكانت سياحتنا البحرية من مرسيليا تمر بنا على الاسكندرية واتفق أن وجدت على ظهر الباخرة في مرسيليا صديقي السير رفرز ولسن الذي عين حديثاً وزيراً للمالية المصرية وقضيت السياحة فى صحبته . وقد استطعت فى خلال أيام السياحة الستة أن أقف منه على كل ما حدث فى القاهرة أثناء العامين الفارطين وكانت الحكاية التى رواها لي رهيبة جداً . ومن بين الحوادث التى رواها حادثة وفاة اسماعيل صديق المفتش وما غرسته فى القلوب من النفور

كان اسماعيل صديق جزائري المولد وقد جاء مصر فى شبابه الاول وارتفع بمواهبه وكفاءته فى الخدمة المصرية . وكانت أول علاقة له بالبلاط على ما أعتقد فى عهد عباس الأول كسير للركائب . وشغل فى عهد عباس واسماعيل وظائف كثيرة حتى انتهى أمره كما رأينا بان صار « شيطان اسماعيل » فى ابتزاز مال الفلاحين . وقد استطاع أن يحتفظ بحسن السمعة فى القاهرة على الرغم مما ارتكبه من أعمال القسوة — وقد أظهر براعة لا تنضب فى ابتكار طرق النهب — وكان فحوى ما سمعته فى القاهرة أنه عربي ممتع بفضيلة تقليدية هي الكرم والسخاء فى انفاق الثروة العظيمة التى جمعها . ومن ثم لم يكن مكروها فى مصر وقد شغل منصب وزير المالية فى السنوات الاخيرة من حياته فبرهن دائماً على أنه خادم اسماعيل المخلص الأمين . ولكن انظ خانه قبل بضعة أشهر من الوقت الذي أكتب فيه عنه .

وهنا روى المستر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا المفتش كما سمعها من السير رفرز ولسن ثم قال وقد خضت أنا وولسن فى هذه الاحاديث يوما بعد يوم على الباخرة ودارت بصفة خاصة حول مهمته الخطيرة فقد كان مزمعاً أن يخلف اسماعيل باشا المفتش فى وزارة المالية . وكانت آماله فى نجاح ادارته عظيمة فى ذلك الحين وقد أعرب عن فهم تام للمهمة الخطيرة التى أخذها على عاتقه وهي اعادة مالية مصر سيرتها الاولى من الرفاهية وانقاذ الفلاحين من أصفادهم المالية ولكنه كان كذلك على علم تام بما يواجهه من الصعوبات .

وكان قد تعلم فهم أخلاق الخديو وأساليبه كما كان مستعداً لان يجد فيه خصما

قويا جريئا ولكنه كان يعتمد علي براعته فى التودد وسعة علمه بأمور الدنيا مؤملا أن يستطيع استبقاء العلاقات الودية مع اسماعيل وأن يتجنب كل الاخطار الشخصية التى قد تعرض له . وكان يعتمد فى تحقيق هذا الغرض علي تربيته الفرنسية فقد طالت سكناه فى باريس الى الحد الذي جعله يثق بقدرته علي الاحتفاظ بسلامة الوزارة الفرنسية الانجليزية التى كان عضواً فيها ثم انه كان يعتمد كثيراً علي نوبار باشا ويثق به ثقة لا حد لها معتقداً انه سياسى شرقي مخلص للمصالح البريطانية . وكان يعتقد كذلك أن وزارة الخارجية البريطانية تؤيده كل التأييد بل وهناك تأييد آخر ربما كان أقوي فى أوربا من تأييد وزارة الخارجية وهو تأييد مصرف روتشلد . وكان يعرف أنه يستطيع أن يعتمد علي هذا التأييد بعد نجاحه أثناء مروره بباريس فى اقناع ولاة أمور ذلك المصرف باصدار قرض بتسعة ملايين جنيه بضمانة الممتلكات الخديوية وقد كان من شأن هذا القرض أن يكسب تأييد أصحاب المصرف لحملة الاسهم فى مطالبهم بالتدخل الاوربى متى اقتضت الحال . وقد خيل لى — أنا الذي أعرف ولسن حق المعرفة ومع انى عطفت أشد العطف علي آماله الانسانية وأمانيه الشخصية — أن فى مركزه عناصر معينة من الشك ليس من شأنها أن تساعد علي نجاحه

وقد افترقنا فى الاسكندرية ونحن نرجي أن تستقيم له الامور فى مهمة تدور حول يأس حكومة مفلسة تملأ صدورنا بالشكوك . بيد أننا توقعنا أن يقوم فى سبيله كثير من الصعوبات الشديدة . ومع انى كنت واثقاً من جرأة قلبه وحدة ذهنه فقد خشيت عليه وحققت الايام أني كنت علي حق فى التشاؤم وحدث هذا فى وقت أقصر مما ظننا

وقد كان لاخفاق السير رفرز ولسن في إدارته المالية القصيرة عدة أسباب . منها شؤم ذلك القرض الباهظ الذي يشق علي المرء أن يدرك فى أى غرض جدى استخدمت أمواله . ومنها حدوث اخطاء فى الادارة أوقعت مظالم فادحة بالاهلين ومهدت السبيل — كما سترى بعد — الى شيوع الاستياء والتذمر . علي أنني لست بحاجة الي الدخول في تفصيلات هذه الاخطاء فهي مشهورة وفى طاقة كل انسان أن

يجدها فى الـكتب . أما عذر ولسن فيها فهو أنه اعتمد اعتماداً لاحد له على ارشادات نوبار في جميع شؤون السياسة الداخلية وفى تجاوزه الحد في تقدير كفاية نوبار على تصريفها . ولو كان ولسن سياسياً أكثر مما كان ماليًا لما سقط سقطته فى المصاعب السياسية التي كان يسهل تجنبها لو كان خبيراً بأساليب الحكومة

ولم يكن نوبار الا تكأة مرضوضة ولم يكن يشق على داهية كاسماعيل أن يثير ضده الشعور الاسلامي كمسيحي وأجنبي . واذ كان ولسن يفكر فى ايجاد التوازن المالي فقد خفض مرتبات جماعة من الموظفين المصريين وهكذا خلق طبقة مستاءة أتاحت للخديو فرصة تحويل الاستياء منه الي وزرائه المسيحيين . وسهل عليه الامر انه لم يحصل تخفيض فى مرتبات الموظفين الاجانب . وكان الاتفاق الذي عقد بين فرنسا وانجلترا في برلين يحتم تعيين موظف فرنسي نظير كل موظف بريطاني ومن ثم لم يجرؤ ولسن على أن يمس أحداً من الموظفين الفرنسيين . وكان على ولسن أن يحمل كل ما أثار تصرفه من البغض وفى يده مفاتيح الخزانة المصرية

ولم يدرك كذلك أقل نجاح — برغم نياته الحسنة — في تخفيف العبء عن كواهل الفلاحين . وقد كان في برنامجه أن يبقى الخديو قادراً على الدفع ومعني ذلك أن تدفع فوائد الدين الجسيم في مواعيدها . وقد أنفقت التسعة الملايين التى اقترضت من روتشلد فى المطالب الهامة ولم تخفض الضرائب بل استمر حكم الكرباج بصرامة أشد في القرى وجيء للموقف الزراعي بعامل مرعب جديد هو مسح الاراضي الزراعية تحت الاشراف البريطاني وقد تم ذلك بنفقات فادحة وعلى أسوأ منوال واعتبره الناس على وجه العموم مقدمة لعرض ضرائب جديدة وتم الفشل أخيراً بعد ذيوع الاقتراح الذي عرضه ولسن وهو يقضي بمصادرة أراض تبلغ قيمتها خمسة عشر مليوناً فقد أوقع هذا المشروع عقول أصحاب الاراضي فى اضطراب وجعلهم يعتقدون بقرب وقوع نكبات على يدى الوزير البريطاني أفدح من التي نزلت بهم فى عهد أسلافه . وعندي وقد عرفت مصر الآن معرفة حقيقية انه لم تكن هناك مندوحة من وقوع أى انسان له مثل ذكاء ولسن وحسن مقاصده في مثل هذه الاخطاء . وليس عندى شك في أن الخديو نفسه زين له الكثير منها ليورطه

وبلغ سوء سياسة ولسن ونوبار القمة حين أخـذا يسرحان الجيش المصرى وفيه ٢٥٠٠ ضابط بغير أن يدفعا المرتبات المتأخرة فقـد أوقع ذلك الوزراء الاجانب في قبضة اسماعيل وهذه فرصة لم يتردد اسماعيل في انتهازها

ويجب أن أقص هنا تاريخ أزمة فبراير سنة ١٨٧٩ التى طاحت بوزارة ولسن ونوبار كما حدثت اذ من الصعب أن يجد الانسان حقيقتها منشورة في كتاب آخر

كان الخديو كما ذكرنا تواقا لتحويل البغض العام الذي كان ينظر به اليـه فى مصر إلى وزرائه الجدد لرغبتـه فى تخليص نفسـه من وصايتهم . وكان قد نزل بمنشور يسمي دكريتو سنة ١٨٧٨ عن إدارة المالية والادارة لهم ولما كان قد تعود الحـكم المطلق ١٦ سنة فى مصر فقـد غاظه فقـدان هـذه السلطة . وكان قد وقع الدكريتو كبديل من الافلاس فلما نجا من الافلاس صمم علي نقض عهده . واذ كان داهية فى البصر بالاخلاق تفطن حالا الى موضع الضعف فى الوزارة وعرف كيف أفضي جهـل ولسن وزميله الفرنسى « بلنيير » بالشؤون المصرية إلي اعتمادهما كل الاعتماد علي نوبار فى الاهتداء إلى الخطة التى يسلـكانها كما عرف أيضاً عجز نوبار كمسيحي عن حكم شعب اسلامي

وكانت طبقة الموظفين المسلمين تعـد نوبارا أفاقيا أرمنيا جمع ثروة كبيرة من سمسرته لأصحاب الاموال المستعدين لاعطاء القروض علي حساب الجمهور . أما الفلاحون فكانوا يعرفون فيه الرجل الذى أنشأ المحاكم المختلطة التى يمجدها الاجانب ويمقتها الفلاحون لاعتقادهم أنها وضعتهم فى قبضـة المرابين اليونانيين وفعلت مالم تفعله هيئة غيرها

وكانت هيئة هـذه المحـاكم فى ذلك الحين تستدعي أى فلاح أمضى أية ورقة بسلفة أمام قضاة أجانب وبعـد اجراءات أجنبية لم يتعودها بلغة أجنبية لا يفهمها ، وبغير أن تسنح له فرصة الدفاع عن نفسه ان كان فقيراً ، واقامة الحجة علي أن الارقام قد غيرت أو أن الورقة كلها مزورة تحكم عليه بما قد لا يقل عن تجريده من كل مايمتلـكه قبل أن يتسع له الوقت ليعرف باى شيء هو في الحقيقة مطالب . بهذا كان يعرف نوبار ثم انه لم يكن له أنصار وطنيون ولا كان مؤيداً بأى

رأى الا رأى التجار الاجانب في الاسكندرية . ومن ثم رأى اسماعيل كيف يمكنه الهجوم على نظام الحكم الجديد في شخص نوبار وكيف يمكنه جعله عاجزاً . والواقع أنه لم يكن يقتضى لاسقاط هذا الحكم الا مظاهرة وطنية ضد المسيحي الممقوت وقد سهل تنفيذ هذه الخطة بما حدث من غش ضباط الجيش المسرحين وحرمانهم من المرتبات المتأخرة وحقوق المعاش .

وكان عمال اسماعيل فى احداث أزمة فبراير جاهين باشا أحد موظفى البلاط وأخو زوجة لطيف أفندى سليم الذى سهل له العمل مركزه كمدير للمدرسة الحربية . وقد نظم هذان مظاهرة من تلاميذ المدرسة فسار هؤلاء فى الوقت المعين في شوارع القاهرة معلنين أنهم سيطالبون باسقاط الوزارة الممقوتة ثم انضم اليهم جمهور كبير يتقدمهم الضباط المسرحون وكان الاتفاق معقوداً علي أن تصل المظاهرة الي ديوان الحكومة في الوقت الذى ينصرف فيه الوزراء . وقد وجد المتظاهرون نوبار باشا يركب مركبته فأهانوه واعتدوا عليه وجذبوا شواربه وضربوه بالكفوف ثم قامت في الحال مظاهرة شعبية وهنا ظهرت فى الميدان فرقة الحرس الخديو الاولي بقيادة القائمقام على بك فهمي وكانت على قدم الاستعداد ثم ظهر الخديو بالذات وأطلقت بضع طلقات فى الهواء فوق رؤوس المتظاهرين ثم تفرق الجمهور حين أمره الخديو بأن ينصرف كل الى بيته . وهكذا نجحت الخطة التى اتفق عليها مع علي بك واستطاع الخديو أن يقنع قنصلي فرنسا وانجلترا بضرورة اقالة نوبار وبانه لولا تدخله القوى وسلطانه على الناس لحدثت أمور سيئة العقبي وعلي ذلك نصح القنصلان لنوبار بالاستقالة وحل محله موظف مسلم اختاره الخديو يدعي راغب باشا . وقد عرف اسماعيل أن وجود رجله راغب في وزارة الداخلية يعجز ولسن وبلنيير عن ادارة البلاد ويستتبع سقوطهما عاجلا

وبعد أن تم النجاح فى التخلص من نوبار أصبح قيام ولسن بادارة المالية مستحيلا كما توقع الخديو ثم عجلت حوادث أخرى بسقوطه . وكان قد وقع جفاء بين ولسن وقنصلنا فى مصر حينذاك (المستر فيفيان الذى صار بعد ذلك لورد فيفيان وعين سفيراً فى رومة) بسبب مشاحنة شخصية . فلما طرأت الصعوبات السياسية

وطلب ولسن تأييـده لم يقدمه له أو قدمه بغير اخلاص . ولـكن فشـل ولسن النهائي لم يبطيء بعد ذلك . فقد نظمت حادثة كحادثة فبراير خلال شهر مارس فى الاسكندرية اذ آذاه الجمهور هو وزوجته فلما رفع شكواه لوزارة الخارجيةضنت عليه بالتأييد الكافى لنيل الترضية . ثم نصح له كما نصح لنوبار بالاستقالة ولما لم يجد مناصا استقال وعاد إلى اوربا

وقد كتب لى خطابا هاماً فى ذلك الحين . كتب إلى فى ٣٠ ابريل سنة ١٨٧٩ يقول « أحسب أنك سمعت بما كاد لى الخديو . انه لم يقتلني كما قد تظن ولـكني هوجمت فى الطريق وأسيئت معاملتى وقد حصل الآن على غرضـه وتخلص مني فقـد تركتني حكومة جلالة الملك تحت رحمة القضاء جريا لى عادتها من الاهتمام بوكلائها . . . ان فيفيان هو العامل الرئيسي فى سقوط التدبيرات التى كان عليه أن يتولي حمايتها ويرجع ذلك إلي غيرته مني وإلى نقص فى الذكاء وزيادة فى الخيلاء فقـد انضم إلى الخديو . ومع أن سموه لم يجد أساليب الحـكم أكثر من أجادته التفريق بين الذين يعمل معهم فقد كان يتطلع إلى التفريق بيني وبين بلنيير أو بيننا وبين نوبار . ولـكنه لم يتوقع حتى ولا فى الحلم أن يصير القنصل البريطاني أداة فى يده لاسقاط وزارة فرضتها عليه حكومة بريطانية وأكرهته على قبولها ... سنبحر يوم ٦ ونصل لندن يوم ١٥ ، وأنا الآن مسرور لتخاصى من المسألة كلها فهي سائرة إلى الدمار والبلاد موبوءة بالفساد . ويلوح لي أن حكومتي فرنسا وانجلترا تخشيان العمل وقد طغي الخديو وهو يعصر البلاد لابتزاز آخر قرش . وليس فى الطاقة تأخير الخراب وفى هـذه الاثناء لا يسع الانسان إلا التفجع حين يفكر فيما يحدث الآن من الشقاء والشر

الفصل الثالث

السياحة فى بلاد العرب والهند

بينا كانت تجرى هذه الحوادث فى مصر كنت أسيح بعيداً مع زوجتى فى بلاد العرب الوسطى فلم يكن لي بها ولا بغيرها من حوادث العالم أقل علم

وكنا قد مكثنا عدة أيام فى قبرص ونحن فى طريقنا الي دمشق التى كنا معتزمين أن نبدأ منها سياحتنا . وكان قد دفعنا الفضول الى مشاهدة هذه الجزيرة التى دفعت فيها انجلترا ذلك الثمن الغالى أو بعبارة أخرى تلك الفضيحة الكبيرة . وقد وجدناها تتلقى دروسها الاولى فى الادارة الانجليزية علي يدى السير جارنت ولسلى وكانت الجزيرة لا تزال فى حر الصيف ولم تكن قد سقطت أمطار بعد وكذلك لم تبد لنا الا أحسن قليلا من فلاة ترية . وقد زرنا ولسلى فى مقر الحكم بنيقوسيا ووجدناه يحمل الوحشة على خير ما يستطيع فى عزلته . وقد أثنى فى حديثه معنا على هذه « الجوهرة » الاخيرة التي ضمت للامبراطورية غير انه كان واضحاً أن الجزيرة ليست لها قيمة فى تقديره الفني وكانت أشبه الاشياء بتلك المناظر الكثيرة التى تقرأ فى قصة « فيكار اوف واكفيلد » . انها أحضرت من السوق إلى المنزل . والواقع انه كان يشق علي المرء أن يستبين وجه الاستفادة منها أو طريقة الحصول علي نفقات ادارتها وكان الحصول عليها قد أخل بسمعة انجلترا كما مر لك . وكان المسلمون السوريون يقولون ان انجلترا أخذتها بقشيشاً من السلطان علي خدمتها له

وقد التقينا فى دمشق بكثير من أفذاذ الرجال منهم الامير عبد القادر الجزائرى بطل الحرب بين الجزائر وفرنسا . ومنهم بطل آخر هو مدحت باشا أبو الدستور العثماني . ومع أني كنت ميالا للعطف علي اصلاح المسلمين فانى لم أمل لهذا البطل الاخير . والواقع أن مظهره لم يكن موجباً للتأثر بشخصيته . لم يكن ممتازاً بأى شيء فى مظهره سوى انه كان فخوراً مختالا ولم أجد أثناء محادثتي معه فى موضوع تجديد تركيا واصلاحها أى عمق فى أفكاره بل وجدتها من ذلك الضرب الاوربي العادى

الذى يحل عادة فى الشرق محل النبوغ الحقيق والايمـان الراسخ وكانت كل آرائه فيما يختص باصلاح الامبراطورية عامة وسوريا الذى كان قد عين واليًا عليها خاصة مقصورة علي المـاديات كانشاء الخطوط الحديدية والقنوات وخطوط الترام وكلها أشياء طيبة فى بابها ولـكنه لم يمس في حديثه ما تعوزه الادارة من الاصلاح . ثم انه لم تـكن لديه البتة أموال يستطيع أن ينفذ بها اصلاحاته المـادية فكانت الاصلاحات والحالة هـذه أوهامًا فى أوهام . ولم يتكلم قط عن الامور الـكبيرة الاهمية كالاقتصاد والعدل وحماية الفقراء كما أنه لم يظهر أى عطف علي أهل الولاية التي عين واليًا عليها .

والواقع انه كان أكثر من الاتراك احتقاراً لـكل ما هو عربى ولم يكلف نفسه مشقة كتمان هذا الشعور ولم تـكن طرق معاملته للبدو لائقة بالانسانية . لهذا لم أمل اليه بطبيعة الحال . ومع ذلك أسفت علي عدم محاولتي اثارة عطف الرأى العام البريطانى عليه فى أيام محنته ولو فعلت لـكان أنقذه مسعاى من الجزاء الفظيع الذى أنزله به السلطان . ولـكني لم أعرف الحقائق كاملا فى ذلك الحين وفى سنة ١٨٨٤ عرفت من مصدر أثق به حقيقة ماجرى في محاكمة مدحت فى تهمة قتل كاذب القيت عليه قبل ذلك بثلاث سنوات وهذه مسألة هامة لا أجد داعيا للاعتذار عن ذكراها .

وقد يذكر قرائى انى كنت أصبت أثناء اقامتي في الاستانة بمرض خطير وعني بى طبيب يدعي دكسون كان فى ذلك الحين طبيب السـفارة البريطانيـة وكان قد وشجت بيني وبينـه صلات المودة . وهـذا الشيخ الفاضـل قضي فى الاستانة خمسًا وثلاثين سنة فاستشرق تمامًا وأصبح أدرى بالشؤون العثمانية من أى بريطانى آخر فيما أظن — وكان فوق ذلك عطوفًا علي القوم الذين عاش بينهم هـذا الامد الطويل . وكان يختلج صدره الي جانب هـذا العطف وفاء ونبل علي الطراز الانجليزي القـديم . فكانت مميزاته تجعـله أجـدر الناس بالثقة فيما يتعلق برواية الحوادث التي اتصل بها

لهذا يجب أن تعتبر شهادته حاسمة فيما يختص بالحوادث الواقعة في محيطها .

وقد كنت فى الاستانة في سنة ١٨٨٤ فحدثني بها فظهرت لى من الصحة والاهمية للتاريخ بحيث دونتها فى نفس اليوم الذي سمعتها فيه وهي كما يأتى بالحرف الواحد :

فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٤ ندبت السفارة الانجليزية الدكتور دكسون لتحقيق ما أحاط بوفاة السلطان عبد العزيز فقدم تقريراً مفصلا عن جميع ما رآه فى القصر ذلك اليوم . وكانت لجنة الاطباء مؤلفة من يوناني يدعي ماركو باشا وشيخ انجليزى كان طبيب لورد بيرون الشاعر المشهور وعدة أطباء آخرين . وقد وجدوا الجثة في دار الحرس وفحصوها جيداً . وكان السلطان فى قميص حريرى لا خطوط فيه . وكانت سراويله من الحرير القرنفلي . ولما انتزعت الثياب لم يوجد فى الجثة خدش ولا رض « وكانت أبدع جسم فى العالم » . هذا عدا جرحين فى الجهة الانسية من الذراعين حيث الشرايين . وكان جرح الذراع اليسرى عميقاً بالغاً الى العظم وقد سبر الدكتور دكسون غوره باصبعه أما جرح الذراع اليمنى فلم يكن محكما فلم يؤذ الشريان وكان ظاهراً أن الجرحين سبب الوفاة . وقد قنع الاطباء الآخرون بهذا الفحص وانصرفوا ولكن دكسون والطبيب الانجليزي الآخر أصرا علي سماع شهادة والدة السلطان وقد شهدت بما يأتى :

حاول السلطان عبد العزيز أن ينتحر مرتين منذ أصيب بمرضه . فحاول مرة أن يرمي بنفسه فى بئر . وحاول مرة أخرى رمي نفسه في البوسفور ولكنه منع فى المرتين . وحذرت السلطانة من اعطائه أى اداة يستطيع أن يؤذى نفسه بها . فلما طلب اليها مرآة ومقصاً ليصلح لحيته أعطته أصغر مقص لديها وظنت أنه لا يستطيع أن يؤذى نفسه به . وكانت تسكن غرفة مجاورة لغرفته وكان يقوم علي حراسته فتاة أو فتاتان فى غيابها . فحدث بعد ظهر ذلك اليوم أنه أمر الفتاتين بالخروج وارتج الباب قائلا انه يريد أن يخلو بنفسه ولم يجرؤ الفتاتان علي المعارضة. فلما انقضي نصف ساعة أخبراها بما حدث فانزعجت فى أول الامر ولكنها أمرتهما أن تقفا بالباب وتنصتا . فعادتا اليها وقالتا انهما لم تسمعا شيئاً . وبعد ساعة ذهبت تتبعها وصائفها ودفعت الباب ففتحته فوجدت السلطان راقداً علي جنبه فوق متكأ وقد توفى

وكان المتكأ والستائر من الحرير الاصفر ذى النقوش الحمراء وفحص زميل الدكتور دكسون المكان فوجد جانب المتكأ الايسر مشبعاً بالدم ووجد تحته فوق الارض كثيراً من الدم الكريه الرائحة . ووجد فى وسط المتكأ بقعة دم صغيرة تطابق جرح الذراع اليمني . ومع أنه فحص المكان جيداً فانه لم يعثر على أثر للدم الا فيما لاصق المتكأ ومن ثم لا يمكن أن يكون قد حدث نضال أو اغتيال .

وكما قالت السلطانة « اذا كان قد قتل فلابد أن أكون أنا القاتلة لأني كنت فى الغرفة المجاورة لغرفته وما كان أحد غيرى يستطيع أن يقترب منه » .

وقد أحضروا في محاكمة مدحت ومن معه قميصاً من الكتان لا من الحرير مشقوقاً من الجنب كأنما قطعته طعنة سيف وسراويل صفراء وخضراء ورداء من الفرو . ولم يحضروا الثياب التى كانت على الجثة . وأحضروا غطاء متكأ من الشيت وستائر شيتية ملطخة بالدم ولم يحضروا تلك التى كانت في الغرفة حيث وجدت الجثة . ومن ثم كتب الدكتور ولسن احتجاجا قرر فيه ما يعرفه وأعطاه الى لورد دوفرين ورجاه أن يقدمه كشهادة لرئيس المحكمة . ولكن دوفرين أبى أن يتدخل بلا تعليمات وفى الوقت الذي أرسل فيه تلغرافا أو زعم انه أرسله حكم على مدحت . وقال دكسون ان ماركو باشا لا بد أن يكون قد أغري على أداء الشهادة التي أداها . وكانت حكاية رؤية رجال يتسلقون داخلا وخارجا حكاية سخيفة فقد كانت الغرفة مرتفعة ولم يكن بد من ان يكسر الواثبون منها سيقانهم . هذا والدكتور دكسون شيخ دقيق وهو من أولئك الشهود الذين يقتنع بشهادتهم أى محلفين فى العالم . ولذلك أصدق شهادته كل التصديق مهما ظهر غريباً عند النظرة الاولى أن يكون السلطان قضى منتحراً لا مقتولا . وقد مات مدحت وداماد جوعاً في السلاسل والاغلال منذ بضعة أشهر ، كذلك مات شيخ الاسلام الذى أفتى بخلع عبد العزيز . وهذا الحادث الارهابي هو الذى أعطى عبد الحميد السلطة المطلقة التي يتمتع بها الآن ؛

ومن الاشخاص ذوي الاهمية فى هذا التاريخ والذين قابلتهم بدمشق فى خريف سنة ١٨٧٨ السير ادوارد ماليت . وكان يومئذ سكرتيراً للسفارة الانجليزية فى الاستانة ثم كان يسيح فى سوريا للتنزه من ناحية وجمع المعلومات من ناحية أخرى

وقد عملت تحت رئاسة والده الجليل مرتين أثناء خدمتي السياسية وكانت بيني وبين أسرته وبينه علاقة ود متينة منذ كناملحقين سياسيين معاً . ومن ثم أستطيع أن أتكلم عن علم فيما يختص بصفاته التى أسيء فهمها فى مصر .

كان ماليت رجلا ذا مواهب متوسطة وقد رزق نصيباً وافراً من المثابرة والحرص والتعقل ولما كان قد ولد فى وسط سياسى ثم وضعه أبوه فى الخدمة وهو فى السادسة عشرة فقد كان ذا دراية فنية تامة فكان موظفاً عمومياً كفأ فيما يتعلق بتقاليد عمله وعاداته وكان فى استطاعته أن يكتب بلاغا بلغة واضحة . وكان يمكن أن يوثق من أنه لايقول كلمة واحدة أكثر مما تجيزه تعليماته ، ولا يورط حكومته فى شيء عفواً .

ولديه من المواهب ما هو أنفع وأجدى في أحوال الخدمة العادية التى كان يعمل فيها كالتبصر والتحفظ فى الكلام وانكار الذات وهي الصفات التي يمتاز بها وكلاء الدعاوى . ولا يخفى أن واجبات السياسي تماثل واجبات وكلاء الاشغال الا فى أحوال خاصة نادرة . ولكن ماليت لم تكن له مواهب كسعة الخيال وقوة الابتكار وقوة التصرف تحت مسئوليته فى الفرص التى تستدعي عملا قويا وقراراً سريعاً . وكان آخر رجل يصلح لتدبير الدسائس والقبض على ناصية المواقف الحرجة كما كان لطيفاً غير جذاب وفيه طفولة كثيراً ما ظهرت فى حياته الخاصة وكان كثير المثابرة حسن السلوك . وكانت استقامته ظاهرة بصفة خاصة لصغر سنه وكان يفضل عمله مهما يكن قليل الاهمية علي أى ضرب من ضروب التنزه والاسترواح حتى لقد كان وهو فى الاجازة يقضي بعد ظهر أكثر الايام فى نسخ البيانات في مكتب والده بوزارة الخقانية مفضلا ذلك على عمله فى البحث عن شيء يشغله فى مكان آخر .

وقد عنيت بالدقة في وصفه لانه اتهم فى مصر بالطمع والدس والقلق وكل هذا مناقض لطبعه المادي . فلم تكن لديه روح مجازفة لا فى عمله ولا فى مسراته ولو كان كذلك لرافقنا الي بلاد العرب كما اقترحت عليه ولكنه لم يكن بالرجل الذي يعدل عن الطريق المطروق ومع أني أثرت اهتمامه على قدر طاقتي بمشروعي الروائى فقد فضل السير فى طريق السياحة العادى ومن ثم مضى بعد بضعة أيام الى القدس

أما سياحتنا فكانت تختلف عن ذلك كل الاختلاف . وقد اتفق لنا من الامور الهامة والاحوال الشائقة أكثر مما توقعنا . فنشرت تفصيلاتها بالفرنسية والانجليزية بعنوان « حج الى نجد » : واني لا أرى بأساً فى أن أذكرها هنا بايجاز فى بضع كلمات — سافرنا بطريق الحج العادى الى المزاريب ومن هناك الى جبل حوران حيث أعطانا زعيم درزي من أسرة الاطرش رفيقاً أو ان شئت دليلا وهكذا انحدرنا فى وادى السرحان الى الجوف حيث كان لمحمد عروق بن شيخ تدمر ، وقد كان مسافراً معنا بعض قرابته . وبعد ان قضينا مع هؤلاء بضعة أيام فى اجتياز « نفود » وهو معبر خطر في الصحراء الرملية الكبرى يستغرق قطعه عشرة أيام وصلنا « حائل » حيث استقبلنا الامير محمد بن الرشيد الذى كان يومئذ سلطان نجد المستقلة بكل مظاهر التكريم علي الرغم من اننا لم نحمل اليه خطابات أو توصيات . وقد كانت جنسيتنا الانجليزية جوازاً كافياً فى نظره . وكان قد اتصلت به اشاعات عن زيارتنا فى العام السابق لكثير من مشايخ عنزه وشمر . وكنا قد تعلمنا الى ذلك الحين من اللغة العربية ما يكفى للتحدث وقد وجدناه نبيلا لطيفاً شديد الاهتمام بسماع كل ما لدينا من أنباء العالم العظيم المعزولة عن نجد عزلة تامة بما يحيط بها من الصحراوات . وكان تواقا لمعرفة آرائنا فى كل الشؤون ذات العلاقة بجزيرة العرب ولا سيما فيما يخص شخصيات زعماء البدو من أعدائه أو نظرائه . أما السياسة الاوربية فلم يعن بها الا قليلا وكذلك الحال بالنسبة للاستانة ومصر . ومع أن نجداً كانت تعتبر فى بغداد ولاية عثمانية فان أمراء الوهابيين لم يعترفوا قط بسيادة السلطان عليهم ولم يكن بينهم وبينه أثناء القرن الماضي كله الا العداء . وكانت ذكرى غزوة محمد علي الكبير لنجد لا تزال حية . وكذلك كان استيلاء مدحت باشا على الحساء عند خليج العجم وحملته المكروهة على الجوف يذكران بالمقت فى حائل وكان من دواعي رضائه عنا اننا قدمنا عليه بغير أن يكون ثمة دخل لاية سلطة عثمانية .

وكانت نتيجة هذه الزيارة الودية لعاصمة بلاد العرب المستقلة وما رأيته فيها من نظم الحكومة الحرة التى عاشت فى قلب تلك الجزيرة العجيبة قرونا عديدة أن

زاد تحمسي فى عواطف الحب والاعجاب التى كنت أضمرها للجنس العربي . والواقع أن « حبي السياسي الاول » كان لذلك الجنس المجيد ولقد كان حباً ما برح يستحوذ علي يوماً بعد يوم حتى عقدت النية على أن أبذل من ناحيتي كل معونة أستطيعها لمساعدته على الاحتفاظ بغريزة الاستقلال التي شهدتها فيه . وقد تراءت لى جزيرة العرب أرضاً مقدسة واعتقدت أن لي فيها رسالة يجب أن أؤديها وعندى انى لم أبالغ فى تقدير الفضائل التقليدية التي رأيت القوم دائبين عليها هناك .

ان نظام الحكم البدوى لا يفضل إلا قليـلا فى عرف الشرقيين نظاما يوضع للسلب والنهب . والواقع أنه ينحط الى مايقرب من هذا الدرك على حدود البلدان المتمدينة . أما في قلب بلاد العرب ذاتهـا فليست الحـال كذلك . فقد رأيت « الحرية والمساواة والاخاء » تعيش عيش الحقائق الحية فى نجد ويتمتع بها هناك كل رجل حر ولم أرها كذلك فى أية بلاد أخرى من البلاد التى زرتها فى الشرق والغرب ولا فى أوربا التي نبـاهي فيها بهاتيك النعم وان كنا لا نملـكها فى الحقيقة بل ولا فى فرنسا حيث نجدها معروضة للانظار — كتابة — فى كل مكان . ففى نجد تعيش هيئة اجتماعية طبقا للنظام الذي يحكم به دعاة المثل الاعلى فى بلادنا فلا ضرائب ولا بوليس ولا تجنيد ولا اكراه فى أى شيء . ولا قانون لهذه الهيئة إلا الرأى العام ولا نظام الا ماتمليه مبادىء النبل والشرف . وهنا كذلك أناس فقراء ، قانعون على فقرهم وعائشون فى رخاء نظراً لقـلة احتياجاتهم — أناس أجابوا على كل سؤال القيته عليهم (ويا طالما القيت أسئلتى هذه بنصها في غير هذه البلاد) بقولهم « الحمد لله . لسنا كغيرنا من الامم . ان لدينا هنا حكومة منا ونحن راضون قانعون » وهذا هو الذى ملأني دهشا وسروراً . وهذا هو الذى حولني من رجل لا يعبأ بما يرى من الآلام العالم الشرقي الي رجل يفيض بالغيرة علي بسط نعمة الحرية على الامم التى ترزح تحت الاغلال والقيود . وقد أيدت اعتقادى ورسخت أماني سياحتى خلال الربيع التالى فى العراق وجنوبى ايران تلك البلاد الاكثر مدنيـة وأقل سعادة وهناء من نجد . والواقع أن نجداً انمـا هي نقيض أودية الفرات الدنيا التي يسكنها شعب عربي أنزل به الحـكم العثماني صنوف الفقر والانحطاط .

وأشق من ذلك أهـل عربستان الايرانية . وقد فـكرت فيما يمكن أن يعيد لهؤلاء القوم نبلهم المفقود ورخاءهم واحترامهم لانفسهم وخيل لى لحظة أن الحماية البريطانية قد تـكون وسـيلة النجاة . وكانت هذه الافكار تتـكون وتتجسد فى عقلي أثناء سياحتنا البرية الصعبة من بغداد الى بوشير علي الخليج الفارسى ثم بطريق البحر الي كراشي حتى وصلنا الهندحيث كانت تنتظرنى تجارب من نوع آخر وحيث تلقيت درساً جديداً فى الشؤون الشرقية .

وكان سبب ذهابنا الي الهند بعدسياحتنا الصعبة اننا وجدنا فى بوشير خطابات كتبها لنا لورد ليتون الذى كان صديقى الحميم منـذ عدة سنوات وهو يدعونا فيها لزيارته بسيملا . وكان ليتون الذى لا أقول هنا شيئاً عن صفاته الشخصية الجذابة بعد الذى قمت به قبـل الآن من حقوق ذكراه المحبوبة موظفاً سياسياً مثلى وقد خدمت معه فى لشبونه سـنة ١٨٦٥ وقد قرضنا الشعر معاً وعشنا فى صداقة متينة استمرت إلى اليوم .

فالآن — فى سنة ١٨٧٩ — كان قد مضى عليه عامان حاكما للهند وكاد يختم حملتـه الاولي علي الافغان بنجاح وأمضى معاهدة « جنداماك » خلال أول شهر قضيناه معه . وكان ليتون ممن يؤمنون بالخرافات ويعتقدون بالاوهام رغما من سلامة ايمـانه الدينى فقضى مدة الحرب وهو يرسل فى الهواء مناطيد صغيرة فاذا ارتفعت بسرعة فى الهواء اعتقد أن جيوشه ظافرة والعكس بالعكس . وليس معني ذلك انه كان لصعود هذه المناطيد بسرعة أو ببطء تأثير فى قراراته فقد كان كاملا مجداً متنقلا . ولـكن سرعة المناطيد كانت تهديء أعصابه التى كانت أبداً متوترة لمـا كان يراه فيها من دلالة غير عادية حمل نفسه علي الاعتقاد فيها . وقد قرن بين وصولى سملا وبين التحول الحسن الذى طرأ علي القتال واعتقد أن لى تأثيراً سعيداً فى أحواله ما بقيت معه . وقد أسر لى جميع أفكاره فعرفت منه أموراً هامة فى السياسة العليا لا حاجة بى الى تفصيلها هنا وان كان سوف يوجد بعضها فى هـذه المذكرات بعد . وقد أظهر لى عطفـه علي كرجـل صاحب آراء عربية وروائى

وشاعر وأمر السير الفريد ليال الذى كان سكرتيره للشؤون الخارجية أن يعطينى كل المعلومات الممكنة .

ولم تكن حكومة الهند حينذاك غير راغبة فى أن تخطو الى الامام خطوة فى الخليج الفارسى . وكانت البحرية الهندية قد تعودت فى بضعة الاعوام الاخيرة أن تشمل الموانىء العربية بنوع من الحماية مقصور علي منع القرصنة ومنع القبائل من التقاتل فى البحر مع الامساك عن التدخل معهم فى البر . فكان هذا نوعاً من الحماية محموداً وقد رفضت حكومة كلكتا الاعتراف بمزاعم السيادة العثمانية علي تلك الموانىء وسكانها . وكان السلطان عبد الحميد قد بدأ يزعج سلطاننا في الهند ببث الدعوة للجامعة الاسلامية . وقد ظنوا أن هذه الدعوة أخذت تؤثر فى ولاء مسلمي الهنود . لذلك كانت فكرة الاستقلال العربى مستحسنة من وجهة النظر الرسمية . وقد أحسن السير الفريد ليال الشهادة لي عند لورد ليتون حتي لقد اتفقنا على أن أعود فى الشتاء القادم الى نجد وأحمل رسالة ودية من حاكم الهند الى ابن الرشيد . على انني مسرور الآن بعد أن عرفت أساليب حكومة الهند لعدم تنفيذ ذلك المشروع ولو فعلت لكنت وقفت نفسى موقفاً كاذباً وأكون قد تبرعت غير متعمد بجعل نفسي أداة فى يد سياسة ترمي الي استعبادهم مهما حسنت نيتي وعظمت رغبتي فى مساعدة العرب وخدمة قضية الحرية . فان من سيئات أساليب السياسة الاستعمارية البريطانية أنها لا تستطيع أن تتدخل بين قوم أحرار الا وتنتهي بعمل سيء حتي ولو كانت قد بدأت عملها حسنة النية . ذلك ان هذه السياسة مملوءة بالاغراض الانانية . وكثرة هذه الاغراض تقلب أحسن البدايات الي أسوأ الخواتم

ولكن هذه الاشياء لم تكن كل ما دار عليه البحث بيني وبين ليتون ومرءوسيه — وقد كلف وزيره المالي السير جون ستراتشى من علمني أساليب المالية والاقتصاد الهندية وطرق مكافحة القحط وجباية ضرائب الاراضى والعملة وضرائب الملح وغير ذلك من المسائل الكبرى التي كانت مدار البحث يومئذ . وكان ستراتشي رئيس المدافعين الرسميين عما كان يسمي فى ذلك العهد سياسة الاقتصاد في النفقات

ومن دواعي الاسف أن نتيجة هـذا التعليم لم تـكن زعزعة اعتقادى بامانة حكومة الهند باعتبارها وصية علي مصالح الوطنيين الهنود وسأورد هنا مقتطفات من الخطابات التى كنت أكتبها فى هـذا الحين . ومنها يظهر كيف كانت تؤثر فى النظرات القصيرة التى كنت ألقيها على الشؤون الهندية فى مراكز الحـكم الرئيسية وها هي المقتطفات : « لقد خاب أملي فى الهند التى صرت أعتقد أنها سيئة الحـكم كسائر البلاد الاسيوية مع فارق واحد هو أن النيات هنا حسـنة وهناك سيئة . فالضرائب هنا فادحـة والبلاد في أيدى حكام أجانب ويرى الانسان هنا من الاسراف في الاموال العمومية ما يراه في تركيا فدعنا نعتقد أن المسرفين هنا بلهاء وليسوا لصوصاً . ومع ذلك فالنتيجة واحدة ولست أرى فرقا بين أن يرغم الهنود الذين يتضورون جوعاً علي الاكتتاب لانشاء كنيسة في كلـكتا وبين ارغام البلغاريين على دفع نفقات قصر يشيد علي شاطيء البسفور . ان الفقر يأكل هذه الامبراطورية الـكبيرة في حكومتها المركزية ولا سبيل الي اسعادها الا بشقها وترك كل شق يحكم نفسه » .

وكتبت فى خطاب آخر الى صديق آخر يدعي هارى براند وكان يومئذ عضواً في البرلمـان وهو الآن لورد هامبدن : « ان الوطنيين — كما يسمونهم هنا — ليسوا الا قبيـلا من الرقيق فهم مروعون تعساء وقد هزلت أجسامهم . ومع أني محافظ وعضو فى كارلتون كلوب أعترف باني قد ارتعت من القيود التي تغل الهنود وان ثقتي بالنظم البريطانية ونعمة الحـكم البريطانى قد أصيبت بضربة شديدة . لقد درست ألغاز المـالية البريطانية علي أحسن أساتذتها — وزراء الحـكومة وكبار موظفيها — فانتهيت الى الاعتقاد باننا لو ثابرنا علي « ترقية » البلاد بالسرعة التي نعمل بها الآن فلا مفر لاهل البلاد من أن يلجأوا فى آخر الامر الى أكل بعضهم البعض اذ لا يمكن أن تبقى في البلاد غير أجسادهم الآدمية . ولعمري لست أفهم لماذا نأخذ نحن الانجليز أموال هؤلاء الهنود الذين يتضورون جوعاً لننشيء لهم بها خطوطًا حديدية لا يريدونها وسجونًا وملاجيء للمجانين ومبانى أثرية للسير بارتر فرير . كلا ! ! ولا أعرف لماذا نطعم من أرزهم النزر القليل جيوشًا من رجال البوليس

والحكام والمهندسين . انهم لا يحتاجون شيئاً من هذا ولـكنهم فى أشد حاجة للارز كما يظهر لكل من يرى ضلوعهم البارزة . أما الدين الفادح الذى ألقى علي عاتقهم فالشرف يقضى بانكاره كدين على الهند على الاقل ، وليس فى طاقتى أن أرى الفضل الادبي الذي تدعيه الحـكومات بفرضها ضرائب على قوم لتسديد ديون لم يقترضوها بل اقترضتها الحـكومات . ان جميع الديون العامة حتى فى البلاد التي تحكم نفسها بنفسها قليل أو كثير من الغش اما فى البلاد المستعبدة استعباداً أجنبياً فهي لا تعدو أن تـكون سرقة » .

وعلى العموم كان لزيارتي القصيرة مراكز الحكم فى الهند تأثير كبير فى تـكوين آرائي فيما يختص بمسائل السياسة الاستعمارية الـكبرى وتوجيهها فى الوجهة التى جرت فيها فيما بعد . على انى كنت لا أزال أعتقد قليلا أو كثيراً بحسن المقاصد وان لم أكن أعتقد بحسن النتائج فى حكمنا الشرقي وظننت أن فى الطاقة تحسينه وأن الجمهور البريطانى لا بد أن يصر على ضرورة تحسينه اذا عرف حقيقته .

ومن آخر ذكريات الشهرين اللذين قضيتهما مع ليتون فى بترهوف كما كان يدعي قصر الحاكم يومئذ فى سملا ، عشاء جلست فيه الي جانب كافانارى وكان ذلك فى الليـلة التي بدأ فى صباحها السفر فى مهمته القاتلة الى كابول . وكان هذا رجلا يبعث اهتمام المرء به وقد أخـبرنى انه حفيد تاجر من أهـل فينيسيا كان قد أقرض بونابارت مالا كثيراً حين احتل جيش الجمهورية الفرنسية فينيسيا ولم يسترده قط . على ان الامبراطور كافأه بان جعل ابنه وزيراً خاصاً له فصار هذا الابن من أشد المخلصين للاسرة الامبراطورية . وكان لويس نابليون كافانارى الحفيد هو أيضاً بوناباريتياً مخلصاً وقد اعتقد انه — واسمه كما هو — لا بد أن يكون له رسالة هامة يؤديها . وكان ذا ثقة « بنجمه » وأشهد أن الاخفاق والخطر لم يخطرا له ببال فى الحديث الطويل الذى دار بيننا فى ذلك المساء .

ومع ذلك قد كان واجباً أن يكون له نذير من الانباء المحزنة التى تكلمنا فيها أيضاً وهي أنباء وفاة ولى العهد الامبراطورى فى جنوبى أفريقيا . ولما افترقنا كنا على موعد بان أذهب أنا وامرأتى فى خريف العام القادم لزيارة كابول ، فقال لى

« لا تأت قبل الخريف على كل حال فانى لا أستطيع أن أجهز دار اقامتي قبل ذلك لاستقبال السيدات » ولم يشر أقل اشارة الى أي سبب أشد من هذا خطراً .

ومن الذين عرفتهم فى ذلك العهد والذين لهم صلة بتاريخ محزن « كولى » وكان يومئذ سكرتير ليتون الحربى ومات بعد ذلك بعام علي تل ماجوبا . وكان ليتون يثق كل الثقة بمواهبه الحربية وقد اشتركا معاً فى توجيه الحملة على الافغان من سملا . وأحسب ان خطأه كان فى تجاوزه الحد فى الثقة بنفسه وفي مطامعه . وقد احتل ماجوبا لانه لم يطق أن تنتهي الحملة بغير أن يكون أحرز نجاحاً شخصياً لنفسه . وكان من أصدقائنا في ذلك الزمن ملجند (لورد منتو الآن) ولول كارو ، وبرابازون وكلهم من أركان حرب ليتون وكذلك لورد رالف كير ، وبلودن وباتن وزوجاهما الجيلتان . وقد عدنا من بومباى فى صحبة ملجند والماجور جاك نابر تاركين الهند فى ١٢ يوليو فوصلنا السويس في ٢٥ منه ووصلنا في اليوم نفسه بالقطار الى الاسكندرية .

وأحسب أنها كانت « عدن » تلك الميناء التى عرفنا اذ مررنا بها أعظم أنباء مصر في ذاك الحين وهو عزل الخديو اسماعيل . ولما وصلنا الي الاسكندرية عرفت من زميلي السابق في الخدمة السياسية وهو فرانك لاشيل الذى كان يومئذ قائما بأعمال القنصل الجنرال في الوكالة البريطانية تفصيلات الدور الذى لعبه في هذا الشأن . وليس ثم خلاف يذكر بين ما أخبرنى به وبين التقارير الرسمية التي نشرت في هذا الصدد . لذلك لا أظن أنى في حاجة لذكره هنا ولكن الذي لم يظهر في التقارير الرسمية هو الدور الذى لعبه أصحاب مصرف روتشلد في هذا الصدد . وهو دور لم يعرفه لاشيل يومئذ وقد عرفته من ولسن بعد ذلك والواقع انه كان يحق لولسن أن يفخر بانه استطاع أن ينتقم لنفسه بواسطة هؤلاء . قال لى انه بعد عودته منبوذاً من حكومته ذهب مباشرة الى بيت روتشلد في باريس وأنبأهم بالخطر الذى تستهدف له أموالهم بعد التحول الذي طرأ أخيراً على الاحوال في مصر والاسكندرية فالخديو يريد أن ينكر ديونه ويحتمي وراء اعلان الحكومة الدستورية في مصر . فاذا لم يمنعوا ذلك فقدوا كل شيء . وبذلك نجح في ارهاب آل روتشلد وحملهم

علي استخدام نفوذهم السياسي الكبير في مصلحة التدخل العاجل . وقد بذلوا جهدهم عبثاً أول الامر في وزارتي خارجيتى لندن وباريس . بعد أن كانت الحكومة البريطانية قد أقلعت عن ميلها للتدخل لاشتغالها بمتاعب جنوب أفريقيا، وكذلك لم يكن لحكومة باريس رغبة فيه .

علي أن يأس آل روتشلد الناجم من شدة الخوف على اموالهم دفعهم إلى رفع التماس إلى بسمرك فى برلين . وكان هذا قد شمل بيت روتشلد العبرانى بحمايته منذ ايامه فى فرانكفورت ولم يفعل ذلك عبثاً . وهنا أفهم المستشار الالماني ، وكان يومئذ قويا مرهوب الجانب ، حكومتى لندن وباريس بأنهما اذا لم تستطيعا التدخل فى مصر لمصلحة حماة السندات فان الحكومة الألمانية سوف تجعل قضيتهم قضيتها الخاصة . وكانت هذه الخطوة حاسمة فاتفقت فرنسا وانجلترا علي أن يكون التدخل أقل مايستطاع عنفاً وذلك بأن طلبتا من السلطان أن يعزل تابعه المسرف . وقد أبى اسماعيل إلى اللحظة الأخيرة أن يصدق بأن الباب العالي يتخلي عنه بعد الملايين التي حباه بها بسخاء ومع بدرات الاموال التي كان لايزال مستعداً لاعطائها له — نقول بدرات الاموال لأن اسماعيل كانت لديه كنوز مخبوءة على الرغم من ظواهر افلاسه . وكان الضغط الاوربي عليه شديداً حتى لقد قال ولسن أنه قد رفعت اليه مسألة اختيار خلف اسماعيل من اثنين أحدهما الامير حليم الذى كان يميل اليه السلطان والثانى ولي العهد الامير توفيق وقد فضله ولسن لما يعرفه من ضعفه وصلاحيته ليكون آلة فى يد السياسة . ومهما يكن من الامر فقد نقل الي اسماعيل البيان الساحق الحامل نبأ سقوطه وصيرورة امارة الخديوية إلى ولده توفيق . وقد كان لاشيل هو الذى قدر عليه أن ينقل هذا النبأ الى اسماعيل . وهنا أخذ اسماعيل كل ما كان في المالية من النقود وجمع كل ما استطاع جمعه من النفائس ومضى الي يخته « المحروسة » ومعه مالا تقل قيمته عن ثلاثة ملايين جنيه .

الفصل الرابع

السياسة البريطانية سنة ١٨٨٠

كانت وفاة كافانارى المحزنة فى كابول — تلك الوفاة التى حدثت قبل أن ينتهي صيف سنة ١٨٧٩ والتي ورطت ليتون فىحرب جديدة ومتاعب سياسية لا آخرلها — قد وضعت حداً لمشروع السياحة ذلك العام سواء أكان في أفغانستان أمفى بلاد العرب ومن ثم قضيت اثني عشر شهراً كاملة فى انجلترا وهي من أملأ أيامي بالعمل والمشاغل ومع انى كنت قد بلغت الاربعين من العمر فانى لم أكن الي ذلك الحين قد أديت أى عمل سياسي عام . ولا القيت خطبة على جماعة . ولا كتبت مقالا واحداً لاية مجلة أو خطابا لجريدة . وقد حملني الحياء الذى كنت أشعر به فى شبابى على الانكماش عن أى عمل فى أي شكل كان ولم تزدنى تربيتي السياسية الا مقتاً للظهور . ولا يخفى أن السياسة تؤثر الخفية سواء أكان لديها ما تخفيه أم لم يكن لديها . كما انها لا تثق بالاقوال التي تلقى علانية وتغار غيرة شديدة من قلة تبصر الصحف . ولكن الحال لم تلبث أن تغيرت . ومهما كانت الكيفية التى أقنعت بها نفسي بان لي مهمة أؤديها فى الشرق ، ثم مهما كانت هذه المهمة مبهمة فقد بدأت أتكلم وأكتب وتغلبت على حيائي الي حد انى ظهرت مرتين على منبر . وكانت أول مرة تكلمت فيها على هذا النحو فى اجتماع عقدته الجمعية البريطانية فيشيفلد يوم ٢٢ أغسطس وكنت قد دعيت له كسائح ممتاز ، كما دعي سربابنتو ، وبرازا ، وكاميرون وكلهم ذوو شهرة افريقية وفى هذا الاجتماع عارضت كاميرون فى تحبيذه مد خط حديدي فى وادى الفرات . وكنت أستطيع أن أتكلم فى هذا الشأن بخبرة تزيد على خبرته فانه كان قد أحجم عن السير فى الجانب الوعر من هذه المنطقة فى العام السابق على الرغم من انه بدأ سياحته بضجة كبيرة . وهذا الجزء هوالواقع بين بغداد وبوشير . أما نحن فقد عبرنا الطريق كله من البحر الي البحر . وقد استأنفت معارضتى فىمقال نشرته مجلة « فورتنيتلى رفيو » وهو أول مقال كتبته . وكان جون

مورلي يحرر المجلة حينذاك وقد قدمت له توصية من ليتون واستطعت أن أثير اهتمامه بافكاري الشرقية . وقد عاد علي هذان الحادثان — الخطابة والكتابة — بالثناء الجم وشجعانى على الاستمرار فى نشر دعوتى . وكنت مشغولا كذلك بقرض الشعر . ثم كان هناك أيضاً كتاب زوجتى عن السياحة « حج الى نجد » لأبوبه وأطبعه . فهذا العمل المضاعف شغلني جد الشغل فى الشتاء كله .

على أني لم أشغل نفسي بالسياسة الداخلية قط مع أن الوقت كان وقت أزمة وكان غلادستون — والانتخابات قريبة منه — لاينفك عن الوعظ والخطابة . وكان ميلى مع المحافظين فيما يختص بانجلترا أما فى المسائل الشرقية فقد كنت أعتبر غلادستون متعصبا على قلة حبي للأتراك فى ذلك الزمن . وكان أصدقائي ماعدا براند وهملتون محافظين ثم أن حبي ليتون حجب عن عيني أسوأ آثام دزرائيلي الاستعمارية . وقد تشبثت فى ذلك الحين بفكرة مآلها أن انجلترا قد تصلح أداة خير فى الشرق اذا أحسن تفسير معاهدة قبرص . وكنت لازال أترجح فيما يختص بموقفها الاستعمارى بين الرجاء والخوف ولم استقر علي رأى حتى دونت أفكاري . ومن شواغل ذلك الشتاء الكبيرة عنايتى بتنظيم اصطبلي فى كرابت . و سنت فيما يختص به فى مراسلة مستمرة مع العالم الرياضى . ومن الغرابة بمكان أن آرائي الخاصة بلحوم الخيل كانت أول فرصة مهدت لي الاتصال بغلادستون كتابة .

وكان عطفه المشهور علي يونان القديمة قد أثار فضوله لمعرفة آرائى فى خيلها وطريقة تربيتها فأرسل يستوضحنى كل ذلك بواسطة المستر نولز محرر مجلة « فورتنيتلي رفيو » فهذا وما حدث من تعيين صديقى ادوارد هاملتون سكرتيراً خصوصياً له حين خلف دزرائيلي فى رئاسة الوزارة فى ابريل كونا الحلقات التى أدت بعد ذلك الى تراسلنا فى الشئون المصرية .

ويتيسر معرفة الثورة الفكرية التى كنت أعيش فيها أثناء ذلك العام سواء أكان فى الآداب أم الاجتماع أم السياسة باقتطاف نبذ من مذكرات كنت أخذت فى كتابتها فى ذلك الحين وسأقصر هذه النبذ علي ما كان خاصاً منها بالشرق . والنبذة الاولى يصف فيها لورد ستراد فورد رادكليف الذي لبث سفيراً لبريطانيا

فى الاستانة زمناً طويلا والذى يعيش الآن وقد شاخ فى عزلة مع ابنتيه على حدود كنت وسسكس :

مارس سنة ١٨٨٠ — زيارة للورد رادكليف في فرانت . أعطاني اللورد ورقة عن الاصلاحات فى تركيا . وهو يزمع ارسالها للتيمس وقد قرأتها في فراشي . وهي عمل رجل مسن كلها ابهام وارتباك وليس فيها الا القليل من مضاء العزم . وقد كان الواجب ألا يكتب الشيوخ الا الذكريات . وقد بلغ اللورد الرابعة والتسعين من عمره .

ولكنه مع ذلك شيخ عجيب قد ارتسمت على وجهه أمارات التقوى فلونه مزيج من اللبن وورق الورد وعيناه زرقاوان صافيتان وبياض شعره كبياض الثلج ومع أن سمعه قد ضعف فهو لايزال يجيد الكلام . وقد رددت عليه بمذكرة أودعتها آرائى في تركية آسيا ثم كنت أقضى معه الصباح مصغياً لذكرياته القديمة فقد كان قائماً باعمال السفارة البريطانية فى الاستانة حين مر بها لورد بيرون فى سياحته الموصوفة فى قصيدة « تشيلد هارولد» وقد لبث معه ستة أسابيع فى نزهة يومية . وكان بيرون يومئذ لطيف المعاشرة ولم تكن أحاديثه قد امتلأت بنكاته القاذعة . وكان الشيخ رادكليف قد التقى به قبل ذلك سنة ١٨٠٥ فى ملعب كرة اذ كانت تتبارى مدرستا « اتون وهارو » وكان كل منهما يلعب مع فريق . قال الشيخ « وكان بيرون يلعب الكرة (كركيت) على خير ما يمكنه عرجه » قال وما ملت قط لان أصدق انه كان بين بيرون واللادي كاروتش لام أى خطأ حقيقى ، وكل مافى الامر لم يتجاوز الرحمة والرقة والخير وكلها أمور لا تتفق مع ما اشتهر به بيرون . وقد كنت أفضل جلوسي لاستماع هذه الذكريات القديمة على سماع حديث أجمل امرأة فى لندن .

١٦ مارس — تناولت الفطور مع رفرز ولسن وذارت مناقشات حول شخصية الكولونيل غوردون . والعالم كله متفق على أنه رجل بارع . وقد حكم السودان وحده زهاء أربع سنين واجتث تجارة الرقيق من جذورها . وقد عاد اليوم إلى لندن فلم يكافأ بشيء ولم يره لورد بيوكنسفيلد (دزرائيلي) ولا غيره من الوزراء . وقد اخطأ فى أول الامر فيما يختص بعلاقاته معهم وقد مر بباريس في

عودته واجتمع بلورد ليوتس فى السفارة البريطانية ورجاه فى أن يسعي فى تعيين خلف أوربي له فى السودان . وهدد بأنه اذا لم تفعل الحكومة البريطـانية ذلك يذهب إلى الحكومة الفرنسية . وبعد هذا دارت بينه وبين ليوتس مراسـلات كتب غوردون في خلالها خطابا حاداً يقول في خاتمته « أن من دواعي ارتياحي ثقتي بأنه بعد عشرة أو خمسة عشر عاما يتساوي الجميع . فى صندوق أسود طوله ستة أقدام ونصف وعرضه ثلاثة أقدام تودع الرفات سواء أكانت رفات سفير أم وزير أم رفات خادمك الخاضع المطيع » فهذه الاقوال صيرته مجنوناً في نظر الرجال الرسميين . وكان اليوم قد ترك أوربا ونفض ترابها عن حذائه قاصداً الى زنزبار .

ولست أشك في أن هذه النادرة تمثل أخلاق غوردون كل التمثيل وهي منسجمة مع كثير من الرسائل التي بعث بها الي السير ايفلن بارنج (لورد كرومر) بعد ذلك باربع سـنين . وقد كان موظفونا أبداً يكرهونه لتعوده خرق قواعد سياستهم والاخـلال بمناهجهم الرسمية . وقد اعتقد بعضهم فيه الجنون واعتقد آخرون انه سكير وآخرون انه متعصب ديني اذا عرضت له مشكلة استفتى فيها انجيله أو اقترع عليها بالقاء قطعة من العملة في الهواء . فلم يفهمه أحد ولا وثق به أحد . فى الوقت الذى اكتب عنه — اوائل ربيع سنة ١٨٨٠ — كان غوردون مستاءاً جداً من الحـكومة البريطانية بسبب الدور الذي لعبته في عزل اسماعيل . وكان غوردون لسبب ما يحب اسماعيل ويكره خلفه توفيق فحين علم فى الخرطوم بمـا حدث تخلى عن الحـكم وساءه علي وجه أخص ان خلفه فيه أحد الباشوات الاتراك ولم يخلفه اوربى كما كان يريد . وقد كان غوردون من اهل النبوغ وله كثير من الصفات النبيلة ولـكنه كان كذلك مجموعة مناقضات ويظهر ان للموظفين عذراً فى اعتقادهم ان عقله لم يكن سليما في كل الاوقات وقد كان هـذا هو الرأى الرسمي فيه — كما سيظهر بعد — حتي في الوقت الذي عهد اليه فيه بمأموريته الاخيرة في الخرطوم .

وهناك نبذة أخرى تاريخها ١٦ مارس أيضاً — مررت بالـكردينالماينج وكان حديثاً في السياسة وقد سألني لمن أعطي صوتى في الانتخاب ؟ فقلت سأعطي صوتي للخمسة جنيهات . فقال تريد أن تقول بانك لن تنتخب أبداً فقلت لا أستطيع

أن أثير فى نفسى اهتماماً بمثل هذه الاشياء ، وأنظر الى المدنية كأنها مقضى عليها بالفناء والى السياسة كأنها أداة لا تستطيع أن تقدم النهاية أو تؤخرها . فقال الكردينال هذا هو رأيي وان كنت أبنيه على مسألة أخرى . فى الغالب ان أوربا ترفض المسيحية وترفض معها القانون الادبى . وقد تجدد اليوم حكم القوة على نحو ما كان فى أقدم الاجيال ، ولا يمكن أن يكون لذلك نتيجة غير سفك الدماء والخراب وربما قام على انقاض الكنيسة شيء آخر . ثم تكلمنا عن أشياء فقال ان « رالف كير » أخبره بأن الهنود يعزون خفة وطأة حكمنا هناك الى الخوف وانهم يحترمون الروسيين لانهم يحكمون بالقوانين العرفية . فقلت ان الروسيين أسيويون وهم يحكمون بالطرق الاسيوية — وبالتدليس اذا أمكن — اذا لم يكن بالقوة. وهذا هو مايفهمه الاسيويون . فقال الكردينال ان الروسيين أسيويون كما تقول وأزيد على ذلك ان النيهلست بوذيون وليست النهليستية من نتاج الغرب ولكنها محصول شرقي .

وقد دارت انتخابات سنة ١٨٨٠ على مسائل السياسة الخارجية أكثر منها على أي شيء آخر . وكان غلادستون قد هاجم بكل قوته مشروعات دزرائيلي فى التوسع الاستعمارى. ووصف بفقدان الركن الادبى تداخله فى الاستانة وبرلين لمصلحة الاتراك كما أنحي بأشد اللائمة على استيلائه على قبرص وشرائه أسهم قناة السويس واعتدائه على مصر — كما حمل على حملتي الافغان وعلى حرب جنوبى أفريقيا التى كانت لاتزال ناشبة .

أما فيما يختص بمصر فكان غلادستون قد أعلن آراءه كتابة قبل ذلك اذ كتب مقالا فى عدد أغسطس سنة ١٨٨٧ من « مجلة القرن التاسع » بعنوان « الاعتداء على مصر » وأعرب فيه بعبارة جلية قوية عن معارضة أخذ انجلترا على عاتقها أية مسئولية على ضفاف النيل . وهذا المقال من الشهرة والترفع عن المساوىء التي أصابت مصر على يديه بحيث يجب أن نقتطف شيئاً منه وقد ذكر في هذا المقال أنه يعارض فى اعتداء كهذا لعدة أسباب . أولا — لأنه يزيد فى ثقل الحكم الشرقى الموضوع على عاتق بريطانيا والذى أصبح ثقله عظيما الي الآن . ثانياً — لان توسيع الحكم الاستعمارى لايمكن الا بوسائط شائنة . ثالثاً — لان زعم حماية طريق

الهند باحتلال وادى النيل زعم كاذب لان طريق رأس الرجاء الصالح هو طريق المواصلة العميق . ورابعاً — لان أى تدخل فى قناة السويس أو في القاهرة لا بد أن يؤدى الى مجازفات أخرى فى أفريقيا . قال « وسواء اشترينا وجودنا فى مصر أم سرقناه فلا شك فى أنه سيكون نواة امبراطورية فى شمالى افريقيا وهي امبراطورية لا بد أن تنمو حتى تصل الى منابع البحر الابيض وحتى تصل أيدينا منها — فوق خط الاستواء الى أيدينا الأخرى فى ناتال وكاب تون دع عنك الترنسفال والبرتغال فى الجنوب والحبشة وزنزبار اللتين تبتلعان أثناء السياحة . وقد نقنع من حيث سعة الاراضى بامبراطورية فى كل ركن من الاركان الاربعة ولكننا لن نكون منها آمنين . »

ثم كتب كذلك فى معني المحافظة علي الحكومة الذاتية الاسلامية فى القاهرة فقال « ان الاحساسات التى قد يؤديها فى مصر سوف تكون معقولة وعادله لأنها مأهولة من قرون كثيرة بشعب اسلامي وقد حكمت هذا الشعب سلطات اسلامية. وكان لمصر في وقت من الاوقات سلاطين . وكانت مستقلة استقلالا داخلياً أثناء التبعية التركية وهذه حالة سعيدة فى أى بلاد كانت فلا يجوز لنا أن نغيرها . نعم ان شكاوى الناس هناك جسيمة ولكن لا يوجد دليل علي انها تستعصي على الشفاء . لقد أظهرت التجارب أن الاسلام لا يستطيع أن يؤسس حكومة صالحة علي الشعوب المتمدينة المسيحية ولكن أى دليل لدينا علي أن الحالة لا تكون كذلك. وانه يمكن تحقيق الاغراض السياسية اذا كانت الحكومة الاسلامية مسيطرة على شعب اسلامي حيث لا يوجد مناقضات الدم او الدين أو العادات أو أساليب التعبير » ثم تكهن بالمشكلة التي تنشأ بين بريطانيا وفرنسا علي مصر فقال : « أعتقد أن اليوم الذى يشهد احتلالنا مصر يشهد كذلك توديعنا كل ما بيننا وبين فرنسا من العلاقات السياسية الودية . نعم أنه قد لا يحدث عراك في الحال ولا مظاهرات خارجية ولكن سيكون حقد ساكن متأصل كذلك الحقد الذى كانت تضمره أمريكا لنا أثناء الحرب الاهلية وهو الحقد الذى انطفأ الآن. وغنى عن البيان أن الامم قوية الذاكرات . » وقد ختم هذا المقال بدعوة حارة سأل الله فيها أن يفسد دسائس الوزارات ويحقق تحرير الشرق قال : « ان الارض لم تنعم بمثل هذا الانقاذ

من أجيال طويلة ولا يسعنا نحن الانجليز ألا أن نحزن ونألم لأننا لم نقدم شيئاً فى هذا السبيل على أنه كيفما حدث فانى أرجو أن لانقع في شر من هـذا القعود . وأخيراً لنا الرجاء بعدم الوقوع في الخطأ العمد مضافا إلى التخلي عن الواجب » .

ولم يكن فى طاقتى الا أن أعطف علي هـذه التصريحات النبيلة التي كررها غلادستون فى خطبة أثناء الحملة الانتخابية فى سـنة ١٨٨٠ لو أنها كانت قيلت باخلاص أو على قواعد السياسة التى اعتزم الاحرار أن يسيروا عليها اذا هم تولوا الحـكم . ولـكن غلادستون لم يوح الي في ذلك الحين شيئاً من الثقة وخيل الى أن الفرق بين المحافظين والاحرار كان طفيفا .

٢٠ مارس — تعشى معنا اليوم جون بولن سكرتير لورد ريبون الخاص . وقد تكلمنا في الانتخابات وقلنا انه لا يوجد فرق يذكر بين المحافظين والاحرار . ولن أعطي صوتي . ومع أن سياسة سلسبرى ليست خسيسة كسياسة لورد غرانفيل أو غلادستون فانها اميل الى الالمانيين من أن ترضيني ولا شك في أن نزول المانيا في الاستانة يكون أسوأ من أى شيء يستطيع الروسيون أن يفعلوه .

٦ ابريل — باريس . (كانت الانتخابات قد انتهت وأسفرت عن أغلبية كبرى للاحرار) تناولت الفطور أنا وجود فرى وب بترز (ابن عمي فرنسيس جون كرى) ثم ذهبت إلى السفارة . شفيلد (سكرتير لورد ريبون الخاص) مباه بحكومة الاحرار الجديدة وبما قاله لهرنجتون وبما قاله غرنفيل له . ومع اني معتكف عن السياسة أظن ان نجاح غلادستون نـكبة كبرى . والاحرار اقوياء جداً فلامناص من ان نرى لهم تجـارب كثيرة على الدستور البريطاني . وستعطل الآن كل قوانين الالعاب والاراضى . وكذلك سوف يطرأ على سياستنا الاسيوية من التعديل والتهذيب ما ننوه به . ولا يعرف الاحرار شيئاً عن الشرق وسيجبنون عن عكس سـياسة المحافظين كما يخافون تنفيذها كما هي الي النهاية . وسيعملون على اصلاح تركيا ومتى تعذر عليهم الاصلاح طاشت احلامهم واندفعوا الى الحرب . وقد ساءني هذا التغير شخصياً اذ لا بد ان يستقيل ليتون مع الوزارة فتقوم الموانع بيننا وبين زيارة الهند فى الشتاء القادم ، ولـكن هذه كلها اشياء تافهة فى سير التاريخ .

٩ ابريل — باريس . جاءنى خطاب من آن مفعم بالسياسة . سيأخذ هارنجتون رئاسة الوزارة ويأخذ البحرية غوشن والمالية غلادستون . ولن يتغير شيء فى السياسة الخارجية فستحتفظ بقبرص وتشاكس روسيا وتدار تركيا من غاليبولي ولا يعرف لورد ريبون محله ان كان سيكون له محل . ولا زلت اسمعهم يصفون مدام نوفيكوف (١) بأنها نجمة غلادستون السعيدة ... تعشيت مع آدمز سكرتير السفارة الاول وقابلت هناك رفرز ولسن الذى يذهب غداً الى مصر مع دايسي وسوليفان وسيقوم ولسن بمهمة التصفية.

٢٦ ابريل — عدت الى انجلترا حيث أصبح غلادستون موضوع حديث الناس وقد تقلد رئاسة الوزارة واحاط نفسه بجماعة معدومة الكفاءة مثل تشيلدوز وبرايت وغرانفيل . وسيأخذ رانجتون الذي هو رجل من الطراز الثانى وزارة الهند ويذهب إلي الهند ريبون ولايزال هذا الترتيب الاخير سراً .

وعلى ذلك لم يفعل غلادستون شيئاً جـديا فى سبيل تنفيذ السياسة الذى كان يعظ بها غير ارسال ريبون إلي الهند . فريبون هذا ليس بالرجل التابع ولكنه رجل جد واستقامة . وقد أخذ علي عاتقه مهمة الاحتفاظ بالسلم على الحدود الهندية والشروع فى سياسة جديدة الغرض منهـا تنفيذ المنشور الملكي الخـاص بالحكم الذاتي بين الوطنيين . وقد أخذ معه غوردون كسكرتير خصوصي فاثار دهشة العالم الرسمي الذى كان يعد غوردون مجنونا . وعندي أنه لم يكن يستطيع أن يبرهن علي حسن نيته نحو الهنود بشيء أكثر من هذا . علي أن غوردون لم يكن من طرز السكرتيرين الخصوصيين حتي مع رئيس كريبون فلم يكـد ينزل فى بومباى حتي استقال . ولا أحسب أن ريبون كان مخطئاً فى اختياره بل أعتقد أن الاستقالة ترجع إلى ثورة غوردون على جميع القوانين والعادات . وسأصف حكم ريبون في الهند عند ما أصل إلى سياحتي الهندية الثانية في سنة ١٨٨٤ . ويكفي أن أقول هنا أنه اذا لم يكن أفاد كثيراً فذلك

(١) كانت مدام نوفيكوف امرأة فتانة فى خدمة الحكومة الروسية وكانت قد جاءت الى انجلترا قبل هـذا التاريخ بقليل وزارتنا فى كرابت وقد مكثت معنا اسبوعاً ثم مضت ووفقت الى فتح سياسى مع غلادستون .

رجع إلي جبن الحكومة الانجليزية لا اليه ، وقد مرق مروق السهم في الطريق التى رسمت له في أول أمر ولكنه — كالطفل الذى يسبق اخوانه فيضحكون منه بالتباطؤ والوقوف ليجد نفسه منفرداً — وجد نفسه لشدة دهشه يجرى منفرداً وقد اخذ الوزراء يضحكون من مثابرته بعد أن غيروا آراءهم ولم يخبروه بذلك . ولا بد أن يكون قد تألم كثيراً عند ما اضطر هو أيضاً إلي التسليم . وقد أعطيت جميع المناصب العليا الاخري إلي الاحرار فتقلد لورد غرانفيل وزارة الخارجية وهو نبيل حسن ، لطيف العشرة ، يجيد اللغة الفرنسية ولكنه أصم كسلان . وسياسته من الطراز القديم — طراز التأجيل والتسويف الذى لا يعمل اليوم مايستطيع أن يؤجله للغد . أو كما كان يقول سياسة التخبط وترك الاشيـاء تصلح نفسها ولم يكن ينتظر من مثل هذا الوزير أن يأتي بسياسة جديدة والواقع أنه لم يحاول جديداً في تركيا أو مصر أو في مكان آخر . فلم ترفض معاهدة قبرص ولا حولت إلى أي غرض نافع واذا استثنينا الضغط الضعيف الذى بسط على الباب العالي فيما يختص بحدود الجبل الاسود واليونان نستطيع القول بأن كل قديم بقى على قدمه .

وغاية ماحدث ان استدعى لايارد واضع المعـاهدة من الاستانة وعين غوشن مكانه وهو نفس غوشن الذى كان قبل ثلاث سنين من ذلك العهد اجرى التسوية الظالمة لحملة السندات وقومه ـ شركة غوشن وفرهيج ـ منهم والعمل الوحيد الذى يدل على ان وزير الخارجية كان يذكر حملة غلادستون على الاتراك ، وكل ما عمله ليبرهن على ان غلادستون كان مصيباً كما كان دزرائيلي وسلسبري مخطئين هو انه خلافا لما تقضي به تقاليد وزارة الخارجية ولوائحها نشر تلغرافا سريا كان لايارد قد ناقض فيه جميع ماأعلنه في تلغرافانه غير السرية عن الحالة في الاستانة .

وقد اوضح فى هذه الوثيقة المشئومة كل سوءات عبد الحميد وضعفه ولا سيما جبنه الشخصي . وفصل مالم يكن العالم الخارجي يعرف شيئاً عن حقيقته من نظام الجاسوسية فى حكومته . وكان نشر هذا التلغراف خيانة كبرى للايارد ثم انه كان عملا طائشاً لانزال سياستنا فى الاستانة ترزح تحت اعبائه . وقد كان لايارد صديق عبد الحميد الحميم ونال منجوائزه مالا يناله سفير اجنبي فوق العادة . وقد

اظهر السلطان نفسه للايارد كما يظهر نفسه لصديق يستطيع الاعتماد عليه . فلما انكشف له ما اعتبره هو خيانة من لايارد فقدت انجلترا مودته إلي الابد .

ومع ذلك وعلي الرغم من أن الموقف فى وزارة الخارجية لم يكن مشجعاً صممت رغبة في انجاح دعوتي أن أحصل على عطف رئيس الوزارة علي مشروعاتى وقد شجعنى على ذلك تعيين أحد أصدقائي الحميمين سكرتيراً خاصاً له وهو ادوارد هاملتون « والآن الجنرال السير ادوارد هاملتون » الذى قال انه مهما يكن من تقلب الاحوال الخارجية فان عطف غلادستون على الحرية الشرقية لم يخف . ولم أخف عن هاملتون شيئاً من آرائى ومشروعاتي وقد ذكر لي انه لا يعوزنى لاقناع غلادستون بها الا أن انشرها كتابة . وهناك رسائل أخري اعتقدنا انه يمكن التأثير بها فى غلادستون وهي مفصلة فى مذكراتى .

١٢ يونيو — أخذنى هاملتون لزيارة السيدة ل . التي تسكن بيتاً كبيراً فى ميدان م . وهي ارلندية سمينة طية تبلغ الخمسين كثيرة الكلام والتحريض وليس فيها أثر للجمال ولا لأي شيء آخر . وهي احدي نجوم غلادستون وكانت زيارتنا لها نصف سياسية حيث كان قد بدا لي أن القحها بآرائى العربية والقح رئيس الوزارة بواسطتها . وهي عطوفة علي الذين رأتهم من العرب ولها اهتمام كبير بالشرق . وقد قرأت لنا بحماس رواية كانت تضعها على هيرود وكليوبترا ويوليوس قيصر . وهي رواية كئيبة وان كانت قد اكدت لنا ان غلادستون معجب بها كل الاعجاب .

دعونا رولاند وجون بولن ولورنس ارليفانت للعشاء ، وهذا الاخير ذوشخصية جذابة وقد عاد تواً من الاستانة حيث كان يجتهد في أخذ امتياز من السلطان باراض وراء الاردن ليستعمرها أبناء اسرائيل .

٢٢ يونيو — دعونا آل بلودن للعشاء وكذلك ادوارد هاملتون الذى هو الآن سكرتير غلادستون الخاص . وسيذهب بلودن غداً الي بغداد كمقيم سياسي وقد لقحته هو وهاملتون بآرائى فى المسألة الشرقية .

٢٦ يونيو — زارنا لورد كالثروب وبرسي وندهام . وكبتن ليفيت فى كرابيت وعرضنا الخيل . وقال لي الاول انه اطلع كثيراً من أعضاء نادى ركاب الخيل على

خطابي الخاص بخيل السباق العربية وانه سيعرض المسألة فى اجتماعات النادي خلال الشهر القادم وانه حينئذ يحق لنا أن نقدر النجاح . واذا استطعت أن أدخل انجلترا خيلا عربية أصيلة تتناسل فيها واستطعت أن أحرر بلاد العرب من حكم الاتراك اكون لم أعش عبثاً . ظهر فى جريدة سبيكتيتور خطابى الرابع عن « السياسة فى بلاد العرب الوسطى » وأعلنت. . . . مجلة فورتنيتلى رفيو عن مقالى « وارث السلطان فى آسيا » . ذهبت بعد حين الى وزارة الحربية حيث أثني لورد نورثبروك علي خطاباتي (وهي أول خطابات أرسلتها الى الصحف) وكان السير جارنت ولسلي هناك وهو رجل قصير به نشاط ورعدة . ويشق على المرء أن يتصور أنه قائد عظيم وقد ذكرته بزياراتنا لقبرص فقال « أظن لادى آن تكتب كتابا » فقلت نعم ولكننا لم نذكر فيه شيئا عن قبرص . فقال انكما لم تمكثا فيها وقتا كافياً . فقلت لقد ظننا أنه لا يحسن بنا أن نذكر شيئا عنها .

كانت مقالة « وارث السلطان فى آسيا » قد قصدنا بها كما أسلفت لفت نظر غلادستون الي آرائي وقد نجحت فى ذلك بواسطة هاملتون الذي عرضها لنظره وان كان لم يعجبه فيها الا أقل ما يمكن تنفيذه ، وما كان قليل الاهمية فى نظرى ان تصبح المقاطعات الارمنية كولايات مستقلة فى المستقبل . وكانت الفكرة التى شرحتها هي أنه اذا كان قد منح الاستقلال لجزء من تركية أوربا فقد وجب أن نشجع الأجزاء الاسيوية الاخرى على انحلال الامبراطورية على أن تؤلف من نفسها ايالات مستقلة وفاقا لجنسيتها .

وقد دعوت المستر غلادستون باسمه إلى أن يحقق كلماته التى القاها حديثاً وأكثر منها فى مصلحة حرية الشرق وذلك بأن يستخدم الاداة التى صنعها أسلافه — معاهدة قبرص — لا فى تحقيق مقاصد انجلترا الانانية الاستعمارية بل في مصلحة شعوب الشرق . وكان من وراء نشر هذه المقالة فى مجلة « فورتنيتلى رفيو » ان دعيت الي ديوان الوزارة فى « دوننج استريت » حيث أعطيت فرصة سرد آرائي وتأييدها أمام رئيس الوزارة . وسيتضح أن شخصيته لم تؤثر كثيرا فى هذا اللقاء الاول ولكنني تشجعت على استيفاء أوجه الرأى ومن ذلك الحين كان

غلادستون يعتد بعض الاعتداد بالآراء التى كانت تصله مني بواسطة هاملتون .

٢٧ يونيو — مررت على ا . الذى وجدت معه كوينزبرى فاخذ فى الحال يشرح لنا آراءه الدينية فى حالة انفعال وتحمس . قال ان هنالك كائنا أعلى ، لا آلها آدميا ، ووجدانا يهدى المرء فى بحثه عن الكمال . والقاعدة الرئيسية هي الثقة بالانسانية . والواجب الرئيسي هوالبلوغ بالجسد والروح الى أوج الكمال . ولم يكن الماركيز بالمتكلم الذرب اللسان فاقترح أن يتلو علينا شعراً بدلا من الشرح والبيان . وهو شعر قرضه — وبينما كنا فى انتظار التلاوة دخل فيليب كرى ومعه شيخ قصير ذو أنف طويل وعينين سوداوين وهو ملكام خان السفير الفارسي . وقد جلسا بينما أخذ كوينزبرى يتلو الشعر وهوشعر مبهم وعظي متعصب يبتدىء بالمادة وينتهي بالانسانية . فلما فرغ تكلم الشرقي .

قال « ربما كان يهمكم أن تسمعوا حكاية دين أسس فى فارس قبل مضى عدة سنين وقد كنت زعيمه فى يوم من الايام . وهذه الحكاية تريكم كيف تنشأ الديانات وأن مذهب الانسانية يصلح لآسيا كما يصلح لاوربا .

« وعندى ان أوربا عاجزة عن أن تنشىء ديناً حقيقياً يستولى علي أرواح الرجال كما أن آسيا عاجزة عن أن تنشىء نظاماً سياسياً . ان عقل آسيا خيالى كما أن عقل أوربا عملى . اننا ننتج فى فارس كل يوم «مسيحاً جديداً» وعندنا «أبناء لله» فى كل قرية ، وشهداء فى سبيل الله فى كل بلدة وقد رأيت بنفسي مئات من البابيين يتحملون الموت والتعذيب من أجل ايمانهم برسول لا تختلف تعاليمه عن تعاليم المسيح وقد صلب كما صلب المسيح . ان المسيحية لا تعدو أن تكون ديناً من مئات الاديان التى أظهرها بين الناس ايمان بعضهم بها . ولو أنها بقيت ايماناً أسيوياً لزالت من الوجود منذ زمان طويل كما زال مائة مثلها من التعاليم الادبيـة التى وجدت قبلها وبعدها . وقد أنشأت فى شبابي — كما أخبرتكم ديناً ، كان له فى وقت من الاوقات ٣٠،٠٠٠ تابع . ولقد ولدت أرمنياً مسيحياً ولكني نشأت بين المسلمين وطريقة تفكيرى هي نفس طريقتهم وكنت أخاً فى الرضاعة للشاه . فلما ولي الملك جعلنى رئيس وزارته . فلما بلغت العشرين كنت حاكما مطلقاً على فارس . وقد

رأيت مساويء الحكم وتدهور الرفاهية المادية في البلاد فساورتني فكرة الاصلاح . فذهبت الى أوربا ودرست فيها نظم الدين والاجتماع والسياسة المتبعة في الغرب وعرفت فيها نزعات فرق المسيحية المختلفة وكيفية تنظيم الجمعيات السرية والهيئات الماسونية وألفت مشروعا يجمع بين حكمة أوربا السياسية وحكمة آسيا الدينية .

وقد أدركت عبث الاجتهاد فى تنظيم فارس علي مثال أوربا فصممت على الباس مشروعى اللباس الذى يفهمه الناس هناك — لباس الدين . فلما عدت جمعت زعماء طهران وأصدقائي ممن يري حاجة الاسلام الى الاصلاح موجها توسلاتى الى نبالهم الادبى ومحتدهم . وفي فارس كلمتان يعبر بهما عن الرجل — الانسان من اللغة العربية وآدم التى هي اشتقاق فارسي . وتدل الكلمة الثانية علي الرجل العبقرى — وهو نوع خاص من الحيوان أما الثانية فتدل على كائن أدبي ممتاز فقلت لهم كلكم يفاخر بانه أكثر من مجرد « آدم » وانه لذلك « انسان » ولكي أمكنكم من أن تترووا في هذا الزعم أنصحكم بأن تفعلوا هذا وذاك. وقد وجدوا كلهم كلامي على حق وفي وقت قصير كان لى ٣٠٠٠٠ تابع وتحت ستر الاصلاح الديني نفذت ما استطعت من الاصلاحات المادية . فلنصائحي يرجع الفضل في انشاء التلغراف وتنظيم مصالح الادارة . ولكن كثيراً من هذه الاصلاحات التى حاولناها قد أدركه الفناء ولم يكن لدي في أول الامر نية انشاء دين ولكن أتباعى أرغمونى علي أن أكون قديساً ونبياً فقد لقبونى « بالطيف المقدس » ولقبوا الشاه « بمصلح الاسلام » فوضعت كتابا ، انجيلا بديني وأصر المتحمسون من أتباعي على انى أجيء بالمعجزات . وأخيرا راع الشاه نمو قوتى التي سارت في الحقيقة أعظم من قوته . فصمم رغم صداقتنا على قتلي كما صمم أتباعي علي قتله . وعاش شهرين في خوف دائم من الاغتيال ثم تفاهمنا . لقد كنت أحب الشاه وأحترمه فاستأذنته في السفر وقد ودعني أتباعي بالدموع وقبل الموالون أقدامي فذهبت الى الاستانة معتزماً أن أحصل من السلطان علي اذن بالاقامة في بغداد وقد ذهبت اليها فعلا وصار لى فيها أتباع من الفارسيين المقيمين فيها ومن أهل بغداد الشيعيين ولكن الاتراك خدعونى واضطررت للرحيل قبل أن أتم عملى . وقد طلب أتباعي فى فارس أن أعود اليهم ولكنني لم أعد لعدة

أسباب . فأولا خشيت أن أموت لدين لا يؤمن به . وثانياً كانت صحتي منحرفة . وثالثاً كنت قد تزوجت فكتبت الى الشاه الذى رد باستعداده لتقليدى أى منصب فآثرت البقاء في الخارج وقبلت منصب سفير لدى جميع الدول الاوربية .

وكان من الغرابة بمكان أن يسمع الانسان هـذا الشيخ القصير ذى الملابس الاوربية يتكلم مجيداً الفرنسية الى أقصي حد راويا حكاية جد شرقية . وقد ذهبت معه الى منزله فيما بعد (وكان يسكن على الجانب الآخر من هيدبارك) وفصل لي آراءه فى الشرق والغرب اللذين يعرفهما معرفة دقيقة فتركته معتقداً انه أعظم شخصية التقيت بها فى حياتى ومؤمناً أكثر من كل وقت آخر بتفوق العقل الشرقي فى الذكاء . وأى رجل في أوربا كان يستطيع أن يجعل الانسان يشعر بأنه طفل ...!

وقد كان لهذه المقابلة العرضية فى دار سيدة لطيفة فى بلجرافيا وفى قلب لندن أعمق تأثير في نفسي وقد أحدثت ثورة فى آرائى الى حد ما . والي هذه المقابلة وما أعقبها من الاحاديث مع هذه الشخصية الفريدة يرجع الاعتقاد الذى غمرنى بعد ذلك وهي انى أخطأت في اختيار نقطة الابتداء في كل ما يختص بآرائى في تحرير الشرق واصلاحه وانه اذا لم يكن بد من أن أعمل عملا صالحاً للعرب أو غيرهم من المسلمين الذين يحكمهم الاتراك فانه يجب علي بادىء بدء أن أعرف أفكارهم الدينية حق المعرفة . وكنت الى الآن قد حللت بينهم كغريب عن آرائهم الجديه علي الرغم من عطفي عليهم وان لم تكن ساورتني فيهم آراء كالتي تعرض للمسيحيين

لقد تعلمت أن أحترم الاسلام ولكنى لم أفهمه ولم أتناقش في تعاليمه مع أي عالم تشريعي أو خبير برأيه العصري . وقد رأيت فى الحال ضعف موقفى لا بل عبثه وصممت قبل أن أسير فى طريقى على أن أخصص الشتاء القادم لدرس نقط ذلك الدين الرئيسية علي الاقل من وجهة تأثيرها فى السياسة . وعلى هذا رسمت مشروعات الشتاء وكان رأيى أن أذهب الى جدة فى وقت الحج وهناك أدرس على خير ما أستطيع ثم انتهز الفرصة التي قد تعرض لى لاستئناف العمل . وقد اوفق الى أختراق بلاد العرب مرة أخرى من الحجاز ان امكن أو من اليمن الى نجد . وكنت أحسب انى قد أجد من الوهابيين العلم الذي يلقنني العقيدة العربية في الدين من حيث تعارضها مع

العقيدة التركية فيه ، وانى قد أستطيع أن أقوم معه بحركة اصلاح أضع أنا عناصرها السياسية ويضع هو العناصر الدينية . ومع تهور هذه الفكرة صدقت بها في ذلك الحين واعترافى بذلك يفسر لقرائي المصريين كيف اتفق ان سلكت الخطة التي سلكتها فى القاهرة بعد ذلك بعام .

وكنت متأثراً كذلك فى لندن خلال ذلك الحين بشرقي علامة آخر يدعي صابونجي وكنت قد تعرفت به كأستاذ في العربية . وهو من أصل مسيحي مثل مالكام خان وقد أزمع مرة أن يكون قسيساً واشتغل فى نشر الدعوة فى روما ولكنه صد عن المسوح في آخر الامر وكان كالسفير يعطف علي الدين الاسلامي أكثر من عطفه علي دينه . وكانت له شهرة عظيمة كعالم عربى وله خبرة تامة بالمسائل التى نصفها سياسي ونصفها دينى والتى كان المسلمون يتنافسون فيها فى ذلك الحين . وقد قام بالعمل الرئيسى المرحوم الدكتور بادجر فى القاموس العربي الانجليزى المسمي باسم الدكتور وكان يصدر في لندن يومئذ جريدة عربية اسمها « النحلة » ويكتب فيها كل شهر عظة اسلامية للمسلمين على أساس الآراء العصرية الراقية أما تمويل تلك الجريدة الصغيرة فكان لغزاً وكذلك كانت أغراضه من اصداره وهي أغراض لم أسبر أعماقها قط . وتتلخص روايته لتلك الاغراض فى انه وكيل عن سلطان زنجبار وهو حاكم مستنير حر العقل والتفكير . ولكنى ما اقتنعت قط بهذا التفسير . ولدى من الاسباب التى وقفت عليها بعدئذ ما يحملني على الاعتقاد بان أموالها وبعض وحيها السياسي علي الاقل كان يأتى من الخديو اسماعيل . وكان اسماعيل في ذلك الحين غاضباً على الباب العالى الذى غدر به أمام أوربا . وكانت « النحلة » تحمل على عبد الحميد حملات عنيفة وتتهمه باغتصاب لقب « أمير المؤمنين » .

ولا أذكر الآن هل عرفت أول مرة تاريخ الخلافة وموقفها الحاضر من صابونجي أو من مالكام خان . ولكنها — وأنا علي ما أنا عليه من معارضة الحكم العثمانى — أثرت فى من وجهة أهميتها بالنسبة لنوع الاصلاح الذى كنت أنشده الآن . وفي مذكراتي ما يثبت انى أرسلت مذكرة الي غلادستون في هذا الشأن . ولدى خطاب من هاملتون يدل على أن الوزراء اهتموا بآرائي .

٣ يوليو — حفلة شاى فى منزل ا . ومن المدعوين رولاند ودنرافن واليفانت وقد خلوت بالاخيرين فى احـدى الغرف فكانت النتيجة أن اتفقنا على أن نعمل معاً فى المسألة الشرقية لـكي نؤثر على الرأي العام البريطانى . وصممنا على أن نعقد اجتماعاً تمهيديا عند رولاند يوم الخميس

٨ — مررت ببرسى وندهام واقنعته بمذهبي السياسى . وتلقيت زيادة فى الموضوع نفسه من المستر جيمس العضو فى مجلس النواب . وتعشيت مع دنرافن واليفانت واتواى وبرسى وندهام وهنرى براند وهوتيكر محرر مجلة « اليفانت هرالد » في فندق النمر . والغرض من ذلك ان نضع خطة للعمل بقصد التأثير فى الرأى البريطانى العام فيما يتعلق با سيا . ولم نعمل شيئاً معيناً غير تأليف لجنة لتلقى الاخبار . ذهبت بعد ذلك الى باريس حيث التقيت برجل يدعي روبرتسون سميث وكان حديثاً فى الحجاز (وهو أستاذ معروف)

١٣ يوليو — دعينا الي حفلة عند قرينة غلادستون . وقد بكرنا فى الذهاب وقبل أن يأتي سائر المدعوين تحادثت مع الرجل العظيم عشرين دقيقة ففصلت له آرائى فى احياء الشرق ، فلاح لى انه اهتم بها علي قدر مايستطيع أن يهتم بها رجل يجهل المسئلة . وقد بدت لي ملاحظاته سطحية وكانت أسئلته مناقضة للاسئلة التى ألقاها على سلسبرى منذ ثلاث سنين . وكانت النار قد أطلقت علي باخرة بريطانية فى نهر الدجلة فقال لى انه يخشي أن تـكون هذه الحادثة دليلا على عداء لبريطانيا من ناحية العرب .

وقد اعتبر حالة الامبراطورية العثمانية « حرجة » وقال انه يرجح ان الشرق لم يمر به مثل هذا الوقت العصيب .

ولو ان معاهدة سان استفانو كانت نفذت لما تحرجت حال تركيا اكثر مما هى الآن . ومهما يكن من هذه الآراء أظن اني نجحت فى ارضائه بفكرتين : الاولى هي أن بقاء الخلافة في بيت عثمان ليس ضروريا . والثانية هي أن مدحت باشا كان أبله . ولـكن غلادستون لم يعقد النية علي أمر بل عول علي أن يسير على مقتضي الظروف حتي تقع الواقعة .

١٥ يوليو — حضرت اجتماع عقده المشتغلون بالمسائل الاسيوية . وذهبت بعد الظهر الي الدماستون وهي حديقة أنيقة فيها منزل عصرى متعب وكنت أظن السير هنرى لايارد من أهل الدعاوي والخيلاء ولكني وجدته لطيفاً ومتواضعاً بالنسبة لمركزه ، وهو يحسن التكلم ولا سيما فيما يختص بسياحاتنا ويفهم الشرق حق الفهم وقد ذكرنى بسكين ورولاند وكانا من السائحين فى عهده القديم وعندى أن مذكرات لايارد تبعث من الاهتمام واللذة ما لا تبعثه مذكرات رجل آخر من أبناء هذا الجيل ، ويتضمن ارتقاؤه من افاقي متجول بين الاكراد الى سفير بريطانى لدى الباب العالى كل ما في الحياة البشرية من عناصر الرواية .

١٧ يوليو — اجتمعت بالسير شارلس دايك وكيل وزارة الخارجية فشرحت له فكرتي فى الذهاب الى نجد خلال هذا الخريف مع عبد الله بن السعود ولشد ما دهشت حين خيل لي انه يوافق علي ذلك ، ومع ان محادثتنا لم تكن طويلة قد تركتني مقتنعاً بان دايك رجل عظيم . وكانت أسئلته جلية وفي الموضوع . فلما فهم المسألة كتب مشروع تلغراف الى غوشن في الاستانة . ثم كلفنى أن أذهب الي تنتردن (مدير الخارجية الدائم) لمعرفة التفصيلات . وكانت الفكرة التى استغرقتنى فى ذلك الحين هي الذهاب الى بلاد العرب وترؤس حركة يقصد بها اعادة استقلال العرب .

ولم يكن مضى على السير دايك سنة ١٨٨٠ في وزارة الخارجية الا بضعة أشهر على انه قد قدر له أن يلعب دوراً هاما فى المسأله المصرية سنة ١٨٨٢ . وكان هو وصديقه السياسى شمبرلين وبرايت يمثلون العنصر المتطرف في الحكومة الجديدة . علي أنهما لم يكونا من الطبقة التي يعين الوزراء البريطانيون منها عادة بل كانا من رجال الطبقة المتوسطة ولا زلت أذكر النفور الذى قوبل به تعيين ذلك في وزارة الخارجية حين أن الدعاوى الارستقراطية تقليدية بين الكتبة ولكن ذلك لم يلبث أن ظهر معدنه بالطريق التى قبض بها على عمله فى يده وبما هو أجدى معهم من ذلك ألا وهو استخدام اصطلاحات فرنسية فى حديثه كما هى ميزة موظفي وزارة الخارجية . لذلك لم يمض وقت قصير حتي وجد نفسه لا محتملا فقط ولكن محبوبا

أما عبد الله ابن السعود المشار اليه فى مذكرتى فهو عبد الله ابن ذينيان بن سعود

من بيت الامارة في نجـد . وكان قد وجد سبيله الي الاستانة ولجأ فيها الى السفارة البريطانية طالباً المساعدة ليحصل أو يستفيد مركزاً سياسياً فقده فى بلاده . وقد سمعت به من كري ثم رميت الى هذه النتيجة وهي انه قد يكون الفرصة التي أنشدها فى بلاد العرب . ومن ثم طلبت الىوزارة الخارجية أن تصل بيني وبينه وتوافق على سفرى المرسوم . ولـكن المشروع لم ينته باية نتيجة بالرغم من موافقة وزارة الخارجية كما مر بك وذلك لان لورد تنتردن عارض فى المسألة حين عرضت عليـه قائلا أن المشروع اذا تم بموافقة وزارة الخارجية تعتبر المسألة كانها مهمة سرية ومثل هـذه المهمات لا يتفق مع تقاليد وزارة الخارجية . وعلى ذلك انتهي المشروع . وكانت أنباء هزيمة الجيش البريطانى فى قاندهار بواسطة الافغانيين قد وصلت الى لندن فى ذلك الحين وضاعفت حـذر الوزارة فى دوننج ستريت . وكانت الهزيمة ضربة حاسمة لليتون ولسياسة المجازفة وراء الحدودالهندية وهي السياسة التى استعارها لنفسه . وأظن انه لم يمر وقت ظهر فيهحظ بريطانيا الاستعمارى فى مثل الهبوط الذي ظهر فيه في ذلك الحين.

٥ أغسطس — سافرنا الى بورتسموث لاستقبال ليتون وأسرته الذين جاءنا منهم تلغراف ينبيء بوصولهم غدا أو بعد غـد . وبورتسموث هذه مدينة غريبة على الطرز القديم ليس فيها فندق طيب الى الآن ونزلنا فى فندق «النجمة ورباط الساق» وفى المنزل المقابل للفندق تمثال نصفى لنلسون ويستطيع الانسان أن يري من النافذة سان لنسنت وفكتورى ومهما بلغ من قلة مبـالاة الانسان بوطنه — والله يعلم انى لست كذلك — فلا يسعه الا أن يتأثر بهذه الآثار الدالة على عظمة انجلترا . ولم أكن حتى الآن قد أدركت تدهور حالها منذ ستين عاماً الى الآن . وأى صدمة كان يصاب بها نلسون وزملاؤه لو أنهم رأوا صحف اليوم تملأها انجلترا فى محاربة تركيا بغير معاونة خارجية وبالآمال الدنيئة فى أن ترى فرنسا طريقا لمساعدتنا على اجتياز صعوبات فى الشرق. بل هذه الامور كانت تشغل فـكري فضلا عن اشتغاله بعودة ليتون — ليتون الذي اذا ساءت حال الهند — سوف يسجل عليه التاريخ انه أول الخائنين من نواب الامبراطورية في حكم الهند والمسئول عن ضياعها .

وغني عن البيان ان هذه كلها أمور تورث الانسان حزناً لا يستطيع وصفه . ومع ذلك لم أكن واحداً من أولئك الذين اقاموا مناحة علي سياسة ليتون وطريقة تنفيذها . فقد كانت ضرورية ونفذت بشجاعة ونجاح . وقد ظهر في تاريخ تدهور انجلترا لا بشيء الا انه هو نفسه ظاهر . ولم يكن في استطاعته أن يصد تيار الحوادث فاندفع معها محاولا قيادتها على خير مايستطيع ولكنه لم يستطع أن يعمل أكثر من ذلك . وعندي أن أسباب تدهور انجلترا أسباب واسعة لا يمكن القاء مسئوليتها على رجل فرد أو حزب واحد . اننا نفشل لاننا لم نعد أمناء ولا عادلين ولا مهذبين وحكومتنا « لمامة » وليست هيئة ذات حصافة تؤيدها حصافة الامة . وما وصلنا الى المركز الذى نشغله في العالم الا بالمثابرة العظيمة والحصافة القوية والنبل العظيم فلما انقرضت هذه الوسائل هبطنا الى مستوانا الطبيعي . وقد صنعنا الخير في العالم خلال المائة عام الماضية وسنصنع الشر فيه خلال المائة عام القادمة ثم لا يعود العالم يسمع بنا بعد ذلك

٦ — أغسطس بعد انذارات كاذبة أعطيت اشارة بوصول الباخرة «هيمالايا» وقد التقيت لحسن الحظ بجماعة صغيرة قادمة لتحية ليتون وركبنا الزوارق لمقابلتها في عرض البحر وصعدنا اليها قبيلة « وزبور » وقد وقف ليتون على ظهرها بوجه لوحته الشمس وملابس رديئة عمرها أربع سنوات وفي فمه « السيجارة » التي كلفته حكم الهند . وهي اتفه الاشياء التي يعتمد عليها في النجاح بعض الاحيان !! ولو انه استطاع أن يكف عن التدخين في الوقت الملائم ، ويذهب مع زوجته الى الكنيسة لغفر له الجمهور الانجليزى كل مساوئه ولو تجاوزت الحصر . أما والحال كما هي فقد كان خطأه هذا ملازماً له طول مدة حكمه وقد أثقلت موازينه حين أصابته الهزيمة السياسية . علي انه ما كان يستدعي من الهند لولا هذه . على انه لم يكن يعبأ بمثل هذه الشئون وقد وثق من انه بذل أقصي جهده وأجاد وهو على حق في ذلك . وقد غبطته علي هذا الشعور كما غبطته على تهنئة ذهابه الى داره في نيوبورت .

ولما أوصلناهم البر وتناولنا معهم الشاى في الفندق ودعناهم خير وداع وقد سمعت لادى ليتون تصيح من أعماق قلبها « آه ما أحب منظر أولئك السكارى الاعزاء الذين يسيرون في الشوارع . شد ما أحبهم ».

وكذلك اتفقت آراؤنا على أن آخرة الامبراطورية البريطانية قربت . فاما فيما يختص بي فما كنت أعبأ وقد حان حينها وأما ليتون فكان أكثر مني وطنية ...

٢٩ اكتوبر — كرابت . قضيت اليوم مع ليتون ... وقرأ لى دفاعه المعد لمجلس اللوردات ولا شك لدى فى أن الحق في جانبه وستكون خطبته من أعظم خطب هذا العصر اذا صرح له بان يبرز جميع المستندات الموجودة لديه . وقد اطلعت على هذه المستندات فاذا بمراسلات روسية أخذت فى كابول بنص معاهدة سرية بين شيرعلي والروسيين . وقد أخبرني « شوفاروف » انه مر بها حين كان يتهيأ للذهاب الى الهند واقترح عليه قسمة أفغانستان بين روسيا وانجلترا .

هذا آخر ما قيدته فى مذكراتى يومئذ علي وجه التقريب ويسوءنى أني اهملت القيد فيها مدة عامين بعد ذلك أى بعد سنة ١٨٨٠ . ولم يصرح لليتون بان يشرح قضيته في البرلمان شرحاً وافيا وكان لخطبته وقع فاتر فى مجلس اللوردات بعد أن سلبت أقوى نقطها . على انى سأقتطف هنا نبذة من خطاب كتبه الى فى ١٨ نوفمبر وبه يتم هذا الجزء من قصتى ولهذه النبذة قيمة خاصة من حيث انها تشرح حقيقة الحال السياسية يومئذ . قال ليتون « قرأت فى احدى الصحف أمس أن عبد المطلب ، شريف مكة الجديد ، الذى هو أداة بيد عبد الحميد يعمل بكل نشاط وطبقا للتعليمات التى ترد عليه من الاستانة لاثارة المسلمين علينا فى جميع أنحاء الارض وقد صارت الصيحة الآن : الخليفة في خطر . وعندى أن فرصة الاستفادة من العرب التي عرضت فى العام الماضى قد أعلنت تماماً . ولست أرى نتيجة لما فعله غلادستون سوى انه اعدم نفوذنا فى الاستانة وحوله الي المانيا بغير أن يدبر وسيلة غيره لحكم العالم الاسلامي . ويلوح لي أن خطبته التى انتظرها الناس بفضول كبير ليست الا اعترافا ضعيفاً بالفشل الساحق الذى أصاب سياسة الحكومة البريطانية فهم يطرحون اليونان وأرمينيا وكل شيء آخر باعترافهم أن أصابعهم أخذت تحترق بنار طرف العصا الذى قبضوا عليه منذ تسعة أشهر . ثم انهم يتخبطون في سياستهم الارلندية بما لا يبعد معه ان تكون هذه المسألة سبباً لسقوط الوزارة . والحقيقة هي ان الامة ترفض السياسة التى تريد الوزارة تنفيذها في كل مكان وان الحكومه لا تجرؤ على تنفيذ

السياسة التي تريدها الامة لرغبتها فى المحافظة علي وعودها وتعهداتها . وعلى هـذا كانت النتيجة انه لا توجد سياسة معينة الآن . أما فيما يختص بي فسأبقى سا كتاً حتى يجتمع البرلمان وان كان قلبي يحترق في صدري »

ولم تكن الاسابيع الاخيرة التي قضيتها فى انجلترا من ذلك الخريف مشغولة بالسياسة فقد شغلت بنشر جزء من ديوان شعرى كان ليتون قد حرضنى على نشره وقد تركت له (البروفات) لتصحيحها .وهذا هو الجزء الذى لقى اقبالا كبيراً ونفدت منه عدة طبعات للآن . وقد وضعني هـذا الديوان فى مركز أدبي كان له تأثير في أعمالي السياسية التى اعقبت نشره :



الفصل الخامس

زعماء الاصلاح فى الازهر

أبحرت من انجلترا فى خريف سنة ١٨٨٠ يوم ٣ نوفمبر الى مصر ولم يكن لي قصد غير الذهاب منها الى جدة للتعلم والدرس استعداداً لما عسى أن يعرض فى المستقبل من الفرص وقد خيل لي مؤقتاً ان مشروعاتي الاشد تهوراً ليست عملية فصار أقصى همي أن أحصل على المعلومات الكافية عن الدين الاسلامي وميوله الحاضرة لعلي أصلح للعمل متى سنحت الفرصة وكنت قبل رحيلي من انجلترا اتفقت مع هاملتون على أن تستمر المراسلات بيننا مدة الشتاء وعلى ان أكتب له عن كل شيء قد يستحق الاهتمام من حوادث سياحتى وهو ينقل منه الى غلادستون مايرى محلا لنقله وكان هاملتون قد أكد لي ان غلادستون لا يزال يهتم بآرائي . وكانوا ينظرون الي فيوزارة الخارجية كشيء خيالي أكثر منهجدياً يمكن أن يكون له تأثير يذكر فى وجهة النظر الرسمية للمسألة الشرقية على الرغم من وجود رئيس وزارة متطرف.

ولما نزلت فى القاهرة أدركت بعد بضعة أيام انها قد طرأ عليها تغيير كبير ولكنه تغيير حسن فيما لاح لي . فقد حل عهد المراقبة الانجليزية الفرنسية محل استبداد اسماعيل ونظمت المالية وأكثر فروع الادارة .وقد زرت بعض القرى التى عرفت بؤسها منذ خمس سنوات فوجدت انه قد وضع حد لما كانوا يألمون منه .ومع أن الفلاحين كانوا لايزالون فقراء رازحون تحت عبء الضرائب الفادحة فقد تبدد اليأس الذى حملهم على مكاشفتى بتاريخ شقائهم حين التقيت بهم أول مرة كرجل أجنبي يعطف عليهم . ولما ذهبت الى الوكالة البريطانية سرني ان وجدت فيها « ماليت » قنصلا جنرالا . وقد قص علي تفصيلات الاصلاحات التى أدخلت والتى لا تزال منتواة مصبوغة بصبغة وردية وكان أكثر هذه الاصلاحات لم ينفذ بعد الا فيما يختص بالمالية . وقال ماليت ان الامور تتحرك ببطء ولكن بثبات وفى طريق التحسين ، وان السحب التى لا يرى غيرها في الافق هي أولا فى السودان

الذي هو عبء باهظ على كاهل المالية المصرية وثانياً فى الجيش حيث ظهرت أخيراً شواهد التذمر . وقد أكثر من امتداح الخديو الجديد توفيق وأخذني لزيارته فى القصر ومع انه لم يبعث اهتمامى فقد وجدته يحسن التكلم الاحسان الخليق بالامراء وفى الطاقة أن يستبين المطلع على الخطابات التى كتبتها من مصر يومئذ صدى تفاؤل ماليت وقد كتبت الى هاملتون خطابا أقتطف منه النبذة الآتية :

تحسنت الامور كثيراً عما كانت عليه منذ خمس سنوات . ومهما كانت نقائص حكومة انجلترا السابقة فلها ان تقول انها نجحت في مصر . وقد سمن الناس هنا وظهرت عليهم امارات الرخاء . وقد سمعت الناس الذين كانوا يشكون بحرارة منذ خمس سنوات يثنون على الخديو الجديد ويطرون الادارة . ويلوح لي أن ولاة الامور هنا وقفوا فى طريق العمل وقد اقتصروا على تغيير الاشخاص الذين كانوا مصدر الخطر ولم يغيروا فى الاساليب الا قليلا . لقد كان التخلص من اسمعيل عملا سياسياً كبيراً ولا شك فى أن الرجل الحاضر يستقيم على الجادة مع قليل من التوجيه السديد . وعندي ان ثروة مصر وقلة نفقات حكومتها يضمنان نظام ماليتها متى قصرت مطامعها على توفير الرخاء . على انه توجد صخرة أو صخرتان في الطريق مثال ذلك حكم السودان الذى سوف يبقى مصدراً للانفاق وسبباً للاحتفاظ بجيش . ولا أدرى لماذا تهتم مصر بحكم النيل فيما وراء الشلال الاول الذى هو حدها القديم . أما القضاء على تجارة الرقيق فى افريقيا فسار لا حاجة لان يحصل عليها غير البلاد الغنية . ولا شك فى أن سحب الرقابة والحماية التى تتمتع بها حكومة مصر يكون عملا سيء الحظ والواجب أن يستمرا بضع سنوات على الأقل حتى ينشأ جيل أكثر تعوداً على حسن النظام من الجيل القديم . ولشد ما تتوق نفسي لرؤية سوريا تتمتع بهذا النظام واذا نحن لم نعبأ بالصحراء استطعنا القول بأن سوريا قطر غني وفى الطاقة أن تنفق على نفسها . ولكنها سوف تكون فى حاجة الى اعلان حماية أوروبية بحالة لا تحتمل الشك حتى يمكن أن تستغني عن الاحتفاظ بجيش . أما فيما يختص بحفظ الامن فتكفى لذلك قوة صغيرة . ولست أشك فى أن القوم فى انجلترا يبالغون في صعوبة المحافظة على الامن فى بلاد أهلها مزيج من المسلمين

والمسيحين فان الشقاء الذي بلوه جميعاً في خلال القرون الطويلة الماضية لم يبق أثراً لما في صدورهم من الحزازات .

وقد أسعدني الحظ من أول الامر فيما يختص بما أريد أن أتعلمه من شئون الاسلام وكان روجرزيك أحد المستشرقين الممتازين والذى عرفته قبل ذلك قنصلا فى دمشق قد جاء الى مصر وعين فيوزارة المالية فعرفت منه اسم عالم شاب متصل بالازهر يدعي الشيخ محمد خليل ومن ذلك الحين أخذ هذا الشيخ يتردد علي يوميا لاعطائى درساً فى اللغة العربية وكثيراً مابقى يتحدث معي طول بعد الظهر ومن ثم ظهر لى انه أكثر من أن يكون مجرد استاذ لتعليم لغة القرآن .

ولعل هذا الشيخ أعظم من عرفتهم من المسلمين صراحة واخلاصا وتحمسا وكان من طلاب تلك المدرسة الواسعة التقية التى كان استاذها يومئذ استاذه الشيخ محمد عبده . وكان الشيخ خليل يبلغ الثلاثين من عمره فى ذلك الحين وهو رجل ذكي طيب مجتهد لا أثر فيه للتصنع . وكان كذلك تقياً فخوراً بدينه مجرداً من الرياء والتعصب المذهبي والتحفظ الذى يمليه الصلف على بعض المسلمين فى معاملتهم مع قوم لايدينون بدينهم . لقد كان على نقيض هذا كله . وكان سروره منذ اليوم الاول فى تحصيلي كل مايعرفه . وكان مذهبه فى التفسير أوسع المذاهب . وقداعتبر جميع الديانات التي تنص علي وحدانيـة الله صحيحة ولم تكن اليهودية والمسيحية فى نظره الا صورة مشوشة لذلك الدين الحقيقى دين ابراهيم ونوح ولذلك لم يسمح بسماع أى قدح فى أصحاب هذين الدينين لقربهم فى اعتقادهم من المسلمين . وعنده ان المثالب والحزازات انما هي ميراث الحروب القديمة ويعتقد ان العالم سيرقي الى حالة اجتماعيـة كاملة حيث تنزع الاسلحة ويتوثق الآخاء بين الامم والمذاهب . ويمكن تصور سرورى العظيم اذ شرح لي هذه الآراء وأيدها بذكر التقاليد والقواعد معلناً أنها تعاليم — الاسلام الحقيقية — أقول يمكن تصور سرورى اذ وقفت علي هذه الا راء التى هي قريبة جداً من آرائي ولا سيما حين أكد لى أنها من الآراء التى يعتنقها الجيل الحاضر من الازهريين وغيرهم من الطلبة في العالم

الاسلامي وحكي لي كيف نشأت هذه الآراء في الازهر وكيف كان نشؤها فى أول عهده بالتعلم فى تلك الجامعة الكبرى.

ومن أغرب ماروي ان الفضل فى نشر هذا الاصلاح الدينى الحر بين العلماء فى القاهرة لايعود الى عربى أو مصري أو عثمانى ولكن الى رجل عبقري غريب يدعى السيد جمال الدين الافغاني وهو رجل لم تتجاوز تجاريبه العالمية قبل حضوره الى مصر دائرة آسيا الوسطي وهو أفغاني المولد وتلقى تربيته الدينية في بخارى. وفي ذلك المكان السحيق وبغير أن يتصل بأي أستاذ من الذين يعيشون فى مراكز الافكار الاسلامية الراقية. استنبط من درسه وتفكيره الآراء التي تعزى اليه اليوم. وكانت حركات الاصلاح فى العالم الاسلامي التى قد انحصرت الى ماقبل ذلك في التقهقر القديم ولم تسر فى طريق التطور. وقد جاء في القرنين الاخيرين كثير من الواعظين الذين لم يزيدوا علي ان علة ضعف الاسلام راجعة الى كف منفذيه عن السير على سنن السلف الصالح ووجد كذلك فى مصر وتركيا مصلحون نظموا الادارة على الاساليب الاوروبية لاغراضهم السياسية. ولكن هؤلاء أدخلوا اصلاحهم بالعنف وبالمنشورات التي حصلوا عليها من العلماء بالاكراه. وبغير أن يقفوا بينها وبين قواعد القرآن وتقاليده. وكانت الاصلاحات السياسية تأتي من الطبقة العليا ولم يزل حكم الرأى العام الرشيد قاسيا عليها. أما نبوغ جمال الدين ففي اجتهاده فى حمل الممالك التى وعظ فيها على أن تعيد النظر فى الموقف الاسلامي كله وأن تستبدل التمسك بالقديم بالتحرك الي الامام حركات أدبية منسجمة مع العلم العصرى. وقد مكنه علمه التام بالقرآن والسنة من اقامة الحجة على انهما لو أحسن تأويلهما معا لكان الاسلام كفؤا لاحداث تطور راق عظيم.

ولما أتم دروسه فى سنة ١٨٧٠ وكان يومئذ يبلغ الثلاثين من العمر اخترق الهند الى بومباى وانضم الى الحج في مكة. وبعد أداء الفريضة حضر الى القاهرة ثم ذهب منها الى الاستانة. ولم يلبث فى هذه الزيارة الاولى أكثر من أربعين يوماً فى مصر ولكنه وجد وقتاً كافياً لتوثيق عرى الصداقة مع نفر من طلبة الازهر ولوضع أساس التعاليم التى شادها بعد ذلك.

أما في الاستانة فما أسرع مانبه ذكره بما أوتيه من الفصاحة والتبحر في العلم . وقد عين فى منصب ديني سام وأخذ يلقى المحاضرات فى جميع الموضوعات لسعة معارفه ووفرتها . وكان حاد الذكاء قوى الحافظة حتي قيل انه يستطيع أن يقرأ كتابا برمته في أى موضوع ثم لايشرد من ذهنه كلمة منه بعد ذلك وقد ابتدأ بتعليم النحو ثم علوم اللغة ومنها انتقل الى الفلسفة والدين وقال ان الاسلام السنى يوفق بين نفسه وبين أرقي ماتصبو اليه النفس الانسانية وما تحتاجه الحياة العصرية واذ كان سنياً صحيحا محيطا بالحوادث قد أصغي اليه الناس باحترام ثم لم يمض وقت قصير حتى صار له أتباع من صغار الطلبة . وكان يوحي الشجاعة بجرأته وينقد المذاهب المسلم بها حتى مذهب ابى حنيفة فيقبل الناس نقده بما لايمكن أن يتيسر لرجل غيره وكان همه أن يطلق العقول من الاغلال التي قيدتها طول الاجيال الماضية ويقيم الحجة علي ان الدين الاسلامي ليس شيئًا ميتا ولكنه نظام يصلح للانسانية المتطورة فى جميع العصور فهو لايأبي التطور وكل هذا يماثل ماحدث من أحياء المسيحية باوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر على ان الغريب فى شأن الاسلام الغريب هو أن يعود الفضل فى نشوء روح النقد بين أهله الى رجل تربي فى بلاد رجعية كآسيا الوسطي وتعلم فى جامعة سحيقة كجامعة بخارى.

وقد كانت الفترة التى قضاها الشيخ جمال الدين فيالاستانة زاهرة ولكنها كانت قصيرة فقد كان رجلا غير مقيد وكان كأكثر الافغانيين لا يحفل بالتقاليد المتبعة فى خطاب العظماء وهي التقاليد التي كان لها أعظم اعتبار فىعقلية العقل التركي ومع انه كان محوطاً برعاية على باشاوفؤادباشا اللذين رأيا فى تعاليمه تأييداً لاصلاحهما السياسي ضد قدماء العلماء وقع سوء فهم بينه وبين السلطات الدينية العليا ولا سيما فيما يختص بمسلكه الشخصي نحو شيخ الاسلام فلم تجد هذه السلطات سبيلا لان تجد فى محاضراته محلا للمؤاخذة ولم يمض وقت قصير حتى اقتبست من اقواله فقرات اخذتها دليلا علي الكفر والزيغ . فلما أجاب علي ذلك بانه مستعد لان يناقش المسألة علنا مع متهميه الكبار فزعت الدوائر الرسمية وزعبت وكان هذا التحدى قد أحدث حركة كبيرة بين « السفطاء » فكان الشبان منهم فى جانب جمال الدين

وظهر أن النزاع قد يؤدي الي عواقب وخيمـة . ومن ثم أكره الساسة على انذاره بملائمة العودة الي مصر والبقاع المقدسة فعاد الي مصر فى ظل هـذا الاضطهاد الديني ولـكن بعد أن بذر بذور النقد التى أثمرت بعد عدة سنين اذ اجمع السفطاء على المطالبة بالاصلاح الديني . وهذا هو الجزء الدينى فى الحركة السياسية التى قدر أن تنتهي بالثورة التى قام بها مدحت باشا فى سنه ١٨٧١.

وقد تقدمته شهرته الى الازهر حين عاد الى القاهرة ١٨٧١ وكانت مصر فى عصر ديني مظلم لان فساد الحـكم ولا سيا فىعهد اسمعيل كان قد لوث جميع الطبقات واطفأ جذوة الشجاعة والاستقلال فى صدور العلماء ومع ذلك كان فضول الناس يزداد حول عمال الدين . وقد رحب به الاصدقاء القليلون الذين كان قد تركهم في مصر . رحبوا به سراً ان لم يكن علناً ثم ما لبثت النار والغيرة اللتان يتدفق بهما حديثه ان جمعتا حوله طائفة من الشبان المريدين كما حدث في الاستانة . اما أهم هؤلاء المريدين فهو الشيخ محمد عبده الذى قدر له أن يلعب فيما بعد دوراً هاماً في الشؤون العامة والذى هو الآن مفتى الديار المصرية . والشيخ ابراهيم العجمى الصحفى المعروف . والى هذين استطاع الشيخ أن يفضى بكنوز علمه بلا تحفظ وأن يغرس فيهما روح النقد التى طبع عليها وينفث فيهما كثيراً من جرأته . والحق أن الشجاعة كانت ضرورية لـكل رجل يتكلم في مصر بصراحة . ولم يكن اسماعيل يسمح باقل معارضه وكان حكمه مطلقا حتى فقدت الالفاظ المستقلة من أفواه الرجال . ولم يكن يجرؤ على الشكوى الا الفلاحون المهذبون في قراهم أو غيرهم ممن لا يعتـد بهم من الوجهة السياسية أما السلطات الدينية العليا والموظفون الـكبار فقد طال سكوتهم على الظـلم وآثروا الموافقة ما داموا يحصلون على أنصبتهم من الاسلاب .

وعلي هذه الاحوال السيئة ، إن عقلية أو أدبية ، أشرقت تعاليم جمال الدين الجريئة كما يشرق الضوء الغريب وضمنت له شجاعته مؤقتاً اصغاء الناس بغير تدخل من جانب الحـكومة وقد يكون الفضل فى ذلك الي أن العراك الذى أثاره جمال الدين فى الاستانة قد برره في نظر اسماعيل أو يكون اسماعيل قد اعتبره أضأل من أن يستدعى القمع أو ربما كان قد فـكر — كما فـكر على باشا وفؤاد باشا — في استخدام التعاليم

الجديدة فى حربه الطويلة مع القناصل الاوربيين . ومهما تكن الحقيقة فى ذلك فقد أبيح لجمال الدين أن يصل محاضراته خلال السنوات التى بقيت من حكم اسماعيل ولم يلق القبض عليه الا فى عهد توفيق وبعد انشاء المراقبة الانجليزية الفرنسية . وقد أرسل بلا محاكمة الى الاسكندرية ونفي من القطر . ولكنه كان قد أدى رسالته واعتنق كل زكي نبيه فى الازهر قواعد الاصلاح الحر على الاساسات الدينية . أما عباءة المصلح نفسه فقد ألقيت على خير عاتق يحملها بل لا أغالى اذا قلت أنها القيت على عاتق أقوى من عاتق صاحبها الاصيل وما كل معلمي اللغة العربية — الشيخ محمد خليل ولا يمكن أن يكل من الاستفاضة في وصف أستاذه الروحي — الشيخ محمد عبده — ووصف كفاءاته العقلية وقد خلف هذا جمال الدين فى زعامة حزب الاصلاح الحر في الازهر .

وقد وجدت بين أوراقي مفكرة يوجد فيها ان معلمي الفاضل أخذنى لرؤية الاستاذ الشيخ محمد عبده فى منزله الصغير بحي الازهر للمرة الاولى فى ٢٨ يناير سنة ١٨٨١ وهذا يوم يجب علي أن أميزه علي سائر الايام لانه فتح لى باب صداقة بقيت الآن نحو ربع قرن مع رجل من أحسن وأحكم الرجال العظام . ويجب أن لا يتوهم أحد اني اذ استخدم هذه الالفاظ ألقي القول علي عواهنه أو أبالغ مثقال ذرة ولكني أقولها معتمداً على معرفتي باخلاقه فى ظروف مختلفة وأحوال صعبة فقد عرفته فى أول الامر معلماً دينياً ثم قائداً لحركة الاصلاح الاجتماعى ثم زعيما أدبياً للثورة السياسية ثم أسيراً فى أيدى أعدائه ثم منفياً فى أقطار أجنبية مختلفة ثم تحت مراقبة البوليس فى القاهرة حين ألغي نفيه وأخيراً حين سودته مواهبه العقلية ونصرته من جديد اذ استأنف محاضراته فى الازهر وعين مستشاراً في محكمة الاستئناف ثم عين فى أواخر أيامه مفتياً للديار المصرية فحل فى أسمي مقام دينى وقضائى فى مصر .

وقد كان الشيخ محمد عبده حين رأيته لاول مرة في سنة ١٨٨١ فى الخامسة والثلاثين رفيع القامة أسمر اللون نشيطاً يلوح ذكاؤه السريع فى عينين تنفذان الى الاعماق وهيئة صريحة ودية توحي الثقة فى الحال . أما فى اللباس والمظهر فشرقي بحت يلبس عمامة بيضاء وقفطاناً كما يلبس شيوخ الازهر ولم يكن يعرف حينئذ لغة

أجنبية أو أية لغة أخرى غير لغته وقد بحثت معه بمساعدة محمد خليل الذى أعان بفرنسيته الضعيفة عربيتى فى جميع الموضوعات التى بحثتها قبل ذلك مع محمد خليل وحصلت بهذه الواسطة على آراء واسعة فيما يختص بتعاليم المسلمين الاحرار ومخاوفهم الحاضرة وآمالهم في المستقبل وقد دونت هذه الآراء فى كتاب طبعته فى آخر السنة باسم « مستقبل الاسلام » وكان الشيخ محمد عبده يصر على ان الاسلام في حاجة الى الاصلاح الديني الحقيقي وليس فقط لهيأة سياسية دينية . أما فيما يختص بالخلافة فكان يشاطر كل المسلمين المستنيرين رأيهم في وجوب اصلاحها وتحديدها علي قواعد روحية . وقد شرح لى كيف يؤدي حسن استخدام سلطتها على وجه شرعي الى مساعدة حركة الرقي الادبي وكيف ان أصحاب هذه الخلافة أهملوا بحيث صاروا غير أهل لامارة المؤمنين . والواقع ان الاسرة العثمانية لم تحفل بالخلافة مثقال ذرة خلال القرنين الماضيين ولم يبق لها حق ولا سلطان حق السيف وسلطانه . علي أنهم ما زالوا أقوى الامراء المسلمين ومن ثم يستطيعون القيام بالشطر الاكبر من العمل لخير الجميع أما اذا لم يمكن حملهم على القيام بواجبهم فلا مناص من البحث عن أمير آخر للمؤمنين ولم يكن ثمت شك في حاجة الاسلام الى أساسات سياسية . وكانت آراؤه مشربة بروح الاعتدال وهي آراء زاد في الخامها انها عملية ورشيدة .

وفى أثناء الشتاء ذهبت وعقيلتى لزيارة « جـدة » حيث جمعت كثيراً من المعلومات التى كنت فى حاجة اليها عن نزعات الطوائف الاسلامية المختلفة وأحسب أن تلك كانت خير بقعة للاوربي الباحث عن تلك المعلومات فقد تعرفت فيها بواسطة المدعو يوسف أفندى قدسى بعدد من الاشخاص المسلمين الذين تهم معرفتهم . وكان يوسف أفندى هذا متصلا بالقنصلية الانجليزية . وكان بين الذين تعرفت اليهم الشيخ حسن جوهر وهو من خيرة علماء الصومال الاذكياء والشيخ عبدالرحمن محمود من جهة حيـدر اباد بالهند والشيخ مشعث المكي وعدد من أعضاء أسرة بسام في عنيزة بنجد وهو شيخ بدوى متعلم تعليما راقيا من جنوبي مراكش . ولم أقم فى جدة سوى بضعة أيام فقد أصبت بحمى الملاريا المنتشرة جداً فى تلك الجهات وحال هذا المرض دون فكرة التعمق فى داخلية البلاد . ولقد وجدت أن الوقت لم يكن ملائما

أيضاً لتحقيق تلك الفكرة نظراً للعداوة الجديدة التى أبدتها السلطات فى مكة حيال انجلترا . فان السلطان كان قد بدأ فعلا فى جعل كلمته مسموعة بصفته الزعيم الدينى للسلمين وهو شيء لم يكن معروفا منذ عدة أجيال لاسلافه العثمانيين بل انه أصبح شديد الغيرة على نفوذه فى بلاد العرب بصفة خاصة بينما ان نزاعه مع حكومتنا جعله أكثر ارتيابا فى النفوذ الانجليزى منه فى أى نفوذ آخر . وقبيل زيارتى لجدة بعدة أشهر فقط أراد أن يظهر مقدار سلطته فى مكة فعين لهـا شريفا ذا نزعات رجعية شديدة ضد الاجانب . فالشريف الاسبق حسين يدعون انه كان رجلا ذا أفكار حرة ومعروف بصلاته الودية مع القنصلية الانجليزية فاستحق لذلك غضب السلطان ومات أشنع ميتة . وليس من المستطاع الجزم اذا كان ذلك فى الحقيقة بتدبير السلطان أو بواسطة الوالي ولكن الناس في جدة عند ما كنت فيها كانوا على كل حال يعتقدون بان للسلطان دخلا في القتل .

وقد وقفت على تفاصيل مقتل الشريف حسين من وكيله فى جدة المدعو عمر ناصف الذي عزا القتل للسلطان بلا مراء . وهذه الرواية هي انه في آخر موسم الحج ركب فى صحبة الحجاج قاصداً جدة — كما كانت العادة — لتوديع الحجاج والدعاء لهم . وقد كان سفره ليلا . وفيما هو يوشك أن يدخل بصفة رسمية الى الميناء على ظهر جواده بصحبة الحرس الذى كان بعضه عثمانيين وبعضه الآخر أعراب تقدم اليه أحد الحجاج الافغانيين فى ملابس رثة كما لو كان يطلب صدقة وطعنه فى بطنه وبالرغم من هذا الجرح فان الشريف ظل راكبًا الى أن دخل دار وكيله عمر ناصف ومات فى اليوم نفسه بسبب — كما سمعت — عدم تضميد هذا الجرح غير المميت تضميداً كافياً وكانت هناك ظروف عديدة تفرق بين أن يكون الاعتـداء حادثا مشوبا للتعصب الديني أو حادث قتل عادي . ولم يكن القاتل من جماعة الشيعة كما تبادر الى الذهن بادئ ذي بدء بل كان من متطرفي السنيين . وقد فاه بعد القبض عليه بعبارات تدل على انه كان يعتبر نفسه مكافأ بفعل مافعل فانه قال عند ماسئل عن السبب الذي دعاه لارتكاب هذه الجريمة . «يحكي انه كان يوجد فيل وهو أكبر الحيوانات الموجودة فى الغابة . فجاءته نملة وهي أصغر حيوان فى هذا الوجود فعضته

وأماتته» ولم تكن هناك أيضاً محا كمة علنية للجاني فقد أعدم بعد اعتقاله بأربعة أيام كما اتخذت الاجراءآت الممكنة لاخفاء المسألة .

وكان الشريف عبد المطلب خلف الشريف حسين من بيت آل زيد وهي الاسرة المنافسة لاسرة الشريف حسين وكان أيضاً من أشد الرجعيين المسلمين تطرفا. وقد كان طاعناً في السن بحيث انه كان شريفاً لمكة عند ما كانت فى أيدى الوهابيين الذين انضم الى مبادئهم ولو فى الظاهر .

والآن وقد تقدمت سنه اعيد الى ذلك المنصب بلقب أمير ليقوى حركة الجامعة الاسلامية التى كانت سائدة فى الاستانة . وفى عهد الشريف حسين كان في استطاعة أى فرد انجليزى أن يجتاز الحجاز من أدناه الي أقصاه بدون أى اعتداء بل ان « درتى » والاستاذ « روبرت سميث » حصلا على مساعدته وحمايته والآن فان أى محاولة من هذا القبيل تعتبر خطرة جداً وفي الواقع ان السائح الفرنسي « هيبر » فقد حياته لمحاولته اجتياز الحجاز فى السنة نفسها . ثم عدنا الى السويس فيما بعد ومن ثم الى سوريا عن طريق الاسماعيلية .

وفى أثناء اجتيازنا الاراضي المصرية وصلني الخطابان التاليان من « هملتون» رداً على الخطابين اللذين أرسلتهما اليه . وأهمية الخطابين هى في أن اهتمام الحكومة بالمسائل الشرقية بدأ يتحول الى المشاكل الداخلية كالتى كانت فى ايرلندا . ومن المدهش والمحزن أن نلاحظ كيف ان الضرورة ـ كما سماها الأحرار وهم فى الوزارة ـ فى قمع الوطنية والضغط على الحرية فى ايرلندا أحدثت رد فعل فى الشعور الشريف الذى أبدلوه به — قبل دخولهم الوزارة — عطفاً على الحرية الوطنية في الشرق . ويظهر ان غلادستون — الذي كانت ميوله بلا ريب متجهة نحو إعطاء هاتين الجهتين الحرية انقاد لزملائه الاحرار فى الوزارة الذين كانوا مصممين على السير به فى الطريق التى لا تلائم نزعته وكانت ايرلندا طول العامين التاليين العقبة الكؤود في سياسته وسأبين فى موضعه ان قرار القمع الذى تقرر فى سنة ١٨٨٢ لاستعماله فى ايرلندا كان فى نفس مجلس الوزراء الذى قرر أيضاً استعماله في مصر . فالاشتراك في سوء الحظ بين هاتين البلادين كان مأساة كبيرة لا لمصر وارلندا وحدهما بل لشرف انجلترا

وهاهو الخطاب الاول

رقم ١٠ دوننج ستريت

لقد تجاسرت على عرض خطابك على عدد من الذين أعلم انهم يرغبون فى قراءته ومنهم « اللورد غرانفيل » و« ريفرزولسون » و« بمروك » و« هارى براند » وأظن ان الخطاب سر «ريفرزولسون» بصفة خاصة لان « ريفرز » ينظر بعين الابتهاج الى ماصنعه فى مصر . وقد زاده سروراً أن يسمع من مصدر مستقل بأن العمل الذى كان له يد كبرى فيه قد أنتج هذه النتيجة الحسنة وانى أخشي من أنه يعتبر ان نصيبه فى ادراك هذه النتيجة لم يقدر بعد حق قدره .

« وما برحت ايرلندا تحتكر كل وقت الحكومة ومجهودها وأخشي أن يكون من الصعب المبالغة في الحالة الخطيرة السائدة الآن فى ذلك البلد البائس. وانى لاحمد الله على اننا أصبحنا على مقربة من عودة انعقاد البرلمان . وسيظهر اذا كانت الحكومة بالغت او لم تبالغ فى التذرع بالصبر والتمسك بحبل الاناة وليس لى أن ابدى رأيا فى هذا الصدد . على أن الحالة لهي بلا جدال عار على هذه البلاد (انجلترا) والحكومة ترى نفسها مضطرة الى العودة الى الخطة العتيقة خطة العنف والقمع. وقد بدأت أشعر — بالرغم مني — بأن ايرلندا ليست صالحة للحكومة الدستورية . واننا مهما سعينا لازالة المظالم المشروعة فليس من المستطاع استتباب السكينة فيها بدون العود الى ما يشبه سياسة كروميل . وانه لعمل تنفطر له الافئدة . فاذا لم يحدث تغيير غير عادى فسنصبح فى هذه البلاد معرضين لسقوط وزارة تلو الاخري وهكذا فى خلال بضع السنوات القليلة المقبلة. واني لشديد التشاؤم بالنسبة للمستقبل. وبودى لو استطعنا أن نطبق على ايرلندا شيئاً من التطور فالذى رأيته فى مصر ... أن ايرلندا البائسة هذه كادت تقضي على الحكومة قبل الاوان من حيث السياسة الخارجية . ولا يزال يؤمل أن يستطيعوا ايجاد مكان اليونان فلا يدعوا مسألتها تصبح نهائياً فى زوايا النسيان والا اصبح من المحتم نشوب الحرب بين تركيا واليونان .ان اليونان لاتستطيع وحدها أن تكافح تركيا وقد يعنى دخول تركيا الحرب رفع لواء الثورة العامة فى الروملى الشرقي وفي مقدونيه . ولا ازال أؤمل أن توجد تسوية

لمسألة حدود المملكة اليونانية بتدخل الدول العظمي باعطائهـا قطعة أرض صغيرة فى الشمال وربما أيضاً بتسليمها جزيرة كريد . ولا جدال فى انه يلزم ايجاد وسيلة من الوسائل لتقوية اليونان وتوسيعها ليس لحفظ السلام في الشرق مؤقتـاً فقط بل لوضع الاساس لمـا عساه أن يكون قوة مضادة للعناصر الاسلامية ... ».

وهاك نص الخطاب الثانى :

رقم ١٠ دوننج ستريت

تحريراً فى ١١ فبراير سنة ١٨٨١

لقد تناول الوزراء خطابك على أثر وصوله . وقد تلوت بعض فقراته للمستر غلادستون وقد اتيح للورد غرانفيل والمستر غوشن أن يقرآه بنفسهما وباهتمام علي ما سمعت . أما اللورد غرانفيل فارسل صورة من الملاحظة التى ختمت خطابك بها وهى الخاصة بشؤون الهند الي لورد هارنجتون وأرجو ان لا أكون خنت الثقة التى وضعتها فى باطلاع الدوائر الرسمية على معلوماتك المذكورة فى الخطاب. وقد اطلعت هارى براند عليها أيضاً . ولقد قامت فى وجه والده — رئيس مجلس العموم — مصاعب لم يقم مثلها لاحد من أسلافه فى كرسي الرئاسة. ولـكنه خرج من هذا النضال فائزاً . فاذا صرفنا النظر عن جلسات المجلس التى لا نظير لها والتى استمرت أياماً وليالي ووقف العدد العديد من الاعضاء المشاغبين فقد مررنا فى دور برلمـانى مهيج . وانى لشديد الامل باختفاء شبح العرقـلة الناشيء عن الشعب الخاص بالاراضي الارلندية . فاذا ما صادق البرلمـان على الاجراءات القمعية او بالاحرى الاجراءات الواقية وصار المشروع العادل التام الجرىء الخاص بالاراضي قانونا فلن نصبح مهددين بالـكابوس الارلندى فى القريب العاجل على كل حال .

وفى الوقت نفسه كان اهتمام الجمهور فى خلال الاشهر الماضية موجهاً طبعاً الى تلك المملكة القاحلة ولذا لم يعن الجمهور كثيراً بالشئون الخارجيـة . وعلى كل فالمسألة اليونانية لم تصبح نسياً منسياً . فاللورد غرانفيل مازال يشد طرف الحبل بمهارة تامة وبنجاح كبير على ما أعتقد والعقبة الـكؤود طبعاً في سبيل التقدم بنجاح فى هـذه المسألة المعقدة هي الدور الخزي الذى لعبته فرنسا التي بعـد ان هددت وتوعدت

خفت صوتها وبردت حرارتها . وعلى كل فان بسمارك قد عمل على أن يتولى الامر بنفسه وذلك بعرض اقتراح جديد قد يؤدي الى نتائج حسنة .فأول شرط تتمسك به الدول العظمى هو طبعاً الاحتفاظ بالسلام الاوربي فلولا ان نشوب الحرب بين تركيا واليونان يؤدى حتما الى حدوث القلاقل والقتال فى بلغاريا والروملي الشرقي ولولا أن اليونان لاتستطيع وحدها مكافحة تركيا لكان التمهيد الطبيعي لرفع اليونان نفسها الى صف الدول الاوربية هو الالتجاء الى السيف . فالرومانيون الحديثون ما كانوا لتكون لهم ملوكية متحدة لولا أنهم حاربوا في سبيلها ولا محل لان يشكو اليونان الحديثون اذا رأوا أنفسهم مضطرين لمواجهة أمثال تلك المصاعب والمخاطر . ولكن بصرف النظر عن الحرب التي يلزم أن يخوضها اليونان فان هذه قد أصبحت تحت كنف أوربا فلها الحق فى ألا تتغاضى أوربا عنها الآن . فاذا لم يكن تنفيذ حكم برلين سلمياً — وهذا يظهر انه مسلم به نظراً لعمل فرنسا — فان المنفذ الوحيد هو ايجاد صفقة معادلة لليونان وأقصد بذلك اعطاءها تعويضاً فيجهة أخرى عما لم تأخذه مثل تساليا وابيروس وهما الاقليمان اللذان تقبل أخذهما واللذان يمكن الدول فيما بينهن مساعدتها على الحصول عليهما وربما كان اقتراح منهذا القبيل انحرافا جديدا وأخشى من العلاج الذى تشير به — ولو انه أنجع وأكثر نجاحا — هو من الشدة بحيث لا تستطيع أوربا أن تقبله .

ولا اذكر انني كتبت في خطابي مايبرر كل هذا الحديث الطويل عن اليونان التي لم تهمني بصفة خاصة فى ذلك الوقت . وان عبارة الخطاب لتشبه لهجة المستر غلادستون نفسه الى حد انني أظن أنه لابد أن يكون أملي هذا الخطاب والخطاب الذى سبقه . لهذا رأيت أن أثبتهما بنصيهما ونظراً لاسهابه في شرح المصاعب المملوءة بها سياسة اليونان قد لاح لى أنه ـ اذا حدث عصيان على الحدود اليونانية ـ ربما شجع فى الوقت نفسه عصيان العرب فى سوريا .

وكانت رحلتنا من الاسماعيلية سارة . فبعد أن عبرنا القناة تطوحنا الى جهة الشرق فى طريق تحيط بها الوهاد الرملية الى تل غير مشهور يدعي جبل هلال . وكان هذا الوادى يشبه من بعض الوجوه حالة نجد من حيث الزراعة وترتيب

العواصف الرملية فتعرفنا بقبيلتى عبيده وطباها والى الشمال من ذلك بقليل بقبيلة طرابين وأيضاً قبيلة العزازمة وأيضاً كنا قاب قوسين أو أدني من التصادم معها منذ خمسة أعوام وكانت هذه القبائل كلها مستقلة عن تركيا وقتئذ تقيم في الاراضي التى لاصاحب لها التى تكون الحدود بين سورية ومصر . وقد كانت هذه القبائل كما هي العادة دائما فى جهات بلاد العرب المستقلة — في تشاحن بعضها مع بعض وكانت بينها ثارات الدم ولهذا استمرت الحرب بينها بعضها مع بعض مما سبب كثيراً من القلاقل حتى الى قرب حدود غزة .

فلكي تضع الحكومة العثمانية حداً لهذه الاضطرابات لجأت الى احدى وسائلها المعروفة فأرسلت دعوة الى زعيمي القبيلتين المتنابذتين للاجتماع بمتصرف غزة اجتماعاً ودياً ثم أمرت بالقاء القبض عليهما غدراً وخيانة وقد زجتهما فى سجن القدس كرهينة لحفظ السلام فى الحدود . وفى ذلك الوقت كانت تقاليد النفوذ الانجليزى فى تركيا حية فى اذهان العرب فترتب على ذلك أن طلب الي — نظراً لمعرفتى بالزعيمين المذكورين — أن أتدخل مع الحكومة لاطلاق سراحهما . فقبلت التدخل رأفة بهما . ثم استصحبت معى الشيخ القائم بشؤون قبيلة طباها وهو علي بن عطيه والابن الصغير لشيخ قبيلة طرابين وقد ركبا برفقتنا الى القدس فسرنا بطريق التلال الى أن وصلنا القدس دون أن نعرج على مدينة أو قرية فى أثناء رحلتنا هذه . وفى القدس زرت قنصلنا مور فى الحال فحصلت بواسطته على اذن من الباشا بزيارة السجن وهناك وجدت الشيخين المطلوبين فى طبقة سفلية تحت الارض بالقرب من جامع عمرو . وقد كانا فى حالة يرثي لها إذ كانا يشكوان من الامراض والسجن الطويل فوسطت لهما عند الحاكم على شرط أن يرفرف السلام بين القبائل . وقد تمكنت من جعلهما يوقعان هذا التعهد . ولكن المتصرف أعلن انه ليس فى وسعه اطلاق سراحهما واحالني على رئيسه والى دمشق فهو الذي يستطيع أن يفعل ذلك . فذهبنا الى دمشق بصحبة علي بن عطية وبصحبة قافلة الجمالين عن طريق وادى الاردن وسهل حوران وهى سياحة شيقة ولذيذة لان الارض نظراً لانقطاع الامطار كانت كجنة عدن غاصة بالازهار البهجة .

وفي حوران وجدنا الحرب ناشبة بين الجنود العثمانية والدروز ولكننا تمكنا من المرور بين الجيشين دون أن يمسنا الضرر ووصلنا الى دمشق حيث ألقينا عصا التسيار أمام باب منزل صغير يحتوى على حديقة مساحتها فدان فى حي باب توما كنت ابتعته منذ ثلاثة أعوام عند بدء رحلتنا الى نجد .

وكان منزلنا فى دمشق ملاصقا لمنزل سيدة انجليزية مشهورة تدعي اللادى التيره أو المسز ديجبي كما تدعي الآن فبعد مخاطرات غريبة فى الشرق والغرب تزوجت وهي طاعنة في السن من شيخ بدوى من قبيلة عنيزة وأقامت فى دمشق مع بعلها مجول بعد ان أصبحت لا تحتمل متاعب حياتها السابقة في الصحراء . وقد علمنا منها ومن بعلها المجيد الذى كنا نعرفه جيد المعرفة انخير وسيلة لاطلاق سراح المعتقلين هي الا نعرض قضيتنا على القنصل ولا على الوالي مباشرة بل بطريق غير مباشر على صديقهم الكبير السيد عبد القادر الذى عرفناه فى عام ١٨٧٨ والذى كان له اكبر نفوذ فى الحكومة فى دمشق فى كل ما يختص بالعرب . وكان عبد القادر وقتئذ فى سن الشيخوخة وكان معتكفا على العبادة وكان موضع اجلال جميع سكان المدينة . وكان له بين عرب سورية بصفة خاصة اتباع كثيرون لانه كثيراً ما أظهر انه حاميهم وحامي مصالحهم . وقد أكد لي مجول أن المسألة هى مسألة نقود مع الوالى فاذا تعهد السيد بان يفتح باب المفاوضة وبيده مبلغ كبير فان النجاح محقق. فذهبت معه ومع على ابن عطية الي عبد القادر فوجدناه مع ولده الاكبر محمد وهو رجل مستقيم ولد له من أم من الجزائر أثناء اقامته فى تلك البلاد . فوقفناه علي مهمتنا فقبل السيد بارتياح أن يتوسط لنا لدى الباشا وأن يعمل الترتيب اللازم لاطلاق السجينين على الشرط المذكور وهو الاحتفاظ بالسلام العام بين القبائل. ثم أعطيته كيساً يحتوى علي ٤٠٠ جنيه فرنسي (بنتو) ذهبا فاخبرونى ان المبلغ كاف لتحقيق رغبتنا . وكانت الرشوة من الامور العادية بين الموظفين العثمانيين وقتئذ حتي انني لم اشعر لا أنا ولا السيد ولا أى شخص آخر بيننا باى تردد في تقديم النقود. وكان المبلغ كبيراً ولكن عطفي كان شديدا نحو السجينين المعتقلين وكنت مصمما على الا أرسل على ابن عطيه الى القدس الا مصحوبا بامر الافراج عنهما . وعلى ذلك

قدمت على هذه التضحية ولكن المفاوضات اخفقت فى ادراك الغاية المطلوبة . وبعد بضعة أيام جاءنى محمد ابن عبد القادر ومعه الكيس دون أن يمس بشىء وأخبرنى أن والده كلفه بأن يلغنى تحيات الوالى وأسفه على عدم استطاعته فعل هذا المعروف لانه خارج عن حدود وظيفته . فان المسألة قد أبلغت الى الاستانة وهناك فقط يمكن تسويتها .

وان عاقبة هذا الحادث البسيط لمدهشة ولها علاقة مباشرة بما وقع فى مصر من الحوادث فى السنة التالية . فبعد ان فشلت محاولاتى المحلية عملت بنصيحة الوالي وكتبت من فورى الى غوشن سفيرنا فى الاستانة وعرضت عليه القصة بحذافيرها. ولكيما أزيد اهتمامه بالمسئلة اخبرته ان الحكومة الانجليزية قد تحتاج يوماً من الايام الى حماية ضفة قناة السويس الشرقية من المهاجمة اذا نشبت الحرب بين انجلترا وبين احدى الدول الاخرى . فاتخذ غوشن — على ما أنذكر — بعض الاجراءآت ولما خلفه اللورد دوفرين فى منصب السفارة بعد بضعة أسابيع أوصاه غوشن بالاهتمام بالامر . وفي النهاية أجيب طلبي بعد طول الانتظار وافرج عن الشيخين . على ان اقتراحي بخصوص القبائل قد أثمر فيما بعد ثمرة من نوع لم اكن أتوقعه أو أرغب فيه ذلك لانه لما تقرر فى صيف عام ١٨٨٢ ارسال حملة ولسلي تذكر غوشن أوشخص آخر له صلة بالحكومة اقتراحي السالف فتقرر ارسال مندوب سرى لاستعمال اسمي فى القبائل التي تعرفت بها فى جنوبي غزة لجرها الى عقد تحالف مع القوات الانجليزية ضد الجيش الوطني المصري وكنت اذ ذاك كما قالوا « كالباحث عن حتفي بظلفي » وهذه هى بعثة بالمر الشهيرة التي سأتكلم عنها باسهاب في حينه .

وكانت سورية وحدود بلاد العرب وقتئذ فى حالة تخمر سياسي . فقد كان هناك تياران من الشعور بين المسلمين بخصوص الجامعة الاسلامية أحدهما شعور التعصب الدينى وهذا كان مستمداً من السلطان نفسه والآخر شعور الرغبة في الاصلاحات الحرة . وقد قيل لي فى دمشق ان الشعور ضد السلطان وضد الادارة العثمانية الفاسدة قد بلغ حداً يصح معه توقع الثورة فى أى لحظة وقد حادثت محمد

ابن عبد القادر فى ذلك الصدد فوجدته هو وأباه منتمين لفريق الاحرار وانه — كغيره من علماء العرب — من انصار فكر الخلافة اذا كان في الامكان تحقيقها وقد خطر لى وقتئذ ان ليس بين العرب من هو أحق بهذا اللقب من عبد القادر نفسه . وعلى ذلك رجوت محمداً ان يستطلع رأى أبيه فى ذلك الصدد ويسأله هل يقبل أن يكون زعيم هذه الحركة اذا جد جدها .

وقد فعل محمد ما أشرت به عليه وعاد الي يحمل رسالة من والده يقول فيها انه برغم شيخوخته التى تحول دون الاشتراك فعلياً فى أي حركة من هذا القبيل فان أولاده يقبلون ذلك وانه لا يمانع فى ذكر اسمه كمرشح للخلافة اذا طلب اليه هذا الترشيح . وعلى كل فان الحركة لا يمكن أن تصادف نجاحا الا بمساعدة من الخارج فان الحكومة العثمانية قادرة حربياً على كبح جماح القائمين بها وقد تم الاتفاق بيننا على أن أبلغ رده بصفة سرية الى الحكومة الانجليزية واستطلع ماذا تكون خطتها اذا حدثت ثورة فى سوريا . وهو مافعلته بالفعل عن طريق الوسيط المعتاد بيني وبين مستر غلادستون وهو سكرتيره الخاص هاملتون وقد سألت ما عن نوع المساعدة التى يمكن أن يعتمد العرب عليها . وقد اقترحت عند الاشارة الى خطاب هاملتون الذى سبق نشره انمثل هذه الحركة قد تنظر اليها حكومتنا بعين الارتياح خصوصاً بمناسبة المصاعب التي بينها وبين الباب العالي بخصوص اليونان . ولكن اهتمام غلادستون بالشرق بل بالسياسة الخارجية على العموم كانقد خمد وقتئذ خموداً تاماً ولذلك كان جواب هاملتون موجزاً ومثبطاً للعزائم . فقد كتب يقول « انني أؤمل أن يوجد ما يحول دون وقوع الحرب بين تركيا واليونان واذ ذاك نستغني عن الالتجاء الى مشروعك فى سوريا . وكلما أقوله هو انه يحتمل ان توجد حالة كهذه واذ ذاك يصبح من اللازم استعمال الوسائل التى تشير بها ولكن هذه الحالة لم توجد بعد . ان هذا مبهم وغامض ولكن أخشي ألا أستطيع ان أضيف الى ذلك شيئاً

آخر » . فلم أجد مناصاً من السكوت على ذلك ولكني بادرت بابلاغ النتيجة الى السيد .

ولم يكن لبقية سياحتنا في ذلك الصيف أي غرض سياسي .وقد زرنا أصدقاءنا من آل عنيزة مرة أخرى فوجدناهم ضاربين خيامهم بالقرب من بالميرا ولكن معاملاتنا معهم اقتصرت على شراء الخيول ولم تكن هذه القبيلة تعبأ بالسياسة فيما يخرج عن دائرة الصحراء وكذلك كانت عنايتها بالمسائل الدينية قليلة . والواقع ان الانسان لا يستطيع على وجه التقريب ان يسميهم مسلمين فانهم لا يصومون ولا يصلون ولا يؤدون أي فرض من الفروض الدينية الاسلامية . وكل ما يربطهم بالاسلام هو أنهم لايزالون متمسكين بتقاليد الصحراء وهي التقاليد التى بنيت عليها الشريعة ولكنهم لا يعرفون من عقائد الاسلام الا التوحيد أما الرسل والاولياء والقرآن فذلك ما لا يعرفونه وكذلك لا يعرفون شيئاً عن الدار الآخرة . وقد سحنا معهم الى أقصى حدودهم الشمالية حتى وجدنا أنفسنا في حلب فى أول حرارة الصيف ومنها عدنا سريعاً الى انجلترا (١) .

---

(١) مما يخلق بالذكر بهذه المناسبة اننا تعرفنا في حلب بضابطين بريطانيين لعبا بعد ذلك دوراً كبيراً فى الشؤون المصرية وحرب السودان أحدهما الكولونيل سينوات الذى اشترك مع غوردون فى الدفاع عن الخرطوم ضد حملات المهدي . والثاني الكولونيل السير شارل ولسن الذى قاد القوات البريطانية فى المتامنة بعد واقعة أبو كيلة .وقد ساح سينوات بايعازى فى ذلك الصيف بين بدو عنيزة وشمر ولكنه لم يستطع أن يتفاهم معهم وهذا راجع في الحقيقة الى خلوه من العطف على الشرقيين . أما ولسن الذى كان أوسع منه رأياً فقد صحبنا فى سياحة العودة حتى أزمير التى وصلناها وقت القبض على مدحت باشا . وكان كلاهما فى ذلك الحين قنصلا متنقلا لبريطانيا فى تركية آسيا من النوع الذى نصت عليه معاهدة قبرص .

الفصل السادس

مقدمات الثورة المصرية

قضيت صيف سنة ١٨٨١ كله فى « كرابيت » أكتب الكتاب الذى كان ثمرة تجاريب الشتاء وهو كتاب « مستقبل الاسلام » وقد وضعته في عجلة وأحوال لاتساعد على دقة الحكم فقد ازدحمت علي الحوادث أثر الحوادث خلال كتابته حتى شق علي أن أضع نبوة هادئة عن مصير الاسلام بيد اني أعتبر هذا الكتاب مؤلفاً جدياً رغم ما فيه من نقائص واذا لم تكن له أهمية تاريخية فلا أقل من أنه تصور آمال المسلمين ومخاوفهم فى الوقت الذى كتب فيه. وقد دافعت فى هذا الكتاب بلا تحفظ عن قضية الاسلام باعتبارها قضية افاضة الخير على شطر كبير من الارض وهي قضية يجب علي كل محب للانسانية أن يشجعها لا أن يقمعها . وبينت أصل الاسلام ومفاخره وتدهوره الظاهري الشبيه بالتدهور الذي خيل للناس أنه استولى علي المسيحية منذ أربعمائة عام والذى قد تلافاه الاسلام كما تلافته المسيحية بالاصلاح الدينى وتحرير أفكارها من قيود التقاليد الضيقة التى وقفت تطورها وعرقلت تقدمها . وقد شرحت الآراء كما تعلمتها من الشيخ محمد عبده أستاذ المدرسة الجديدة الحرة وتوسلت الى مواطنى بكل مافيهم من خير أن يعطفوا علي آمال أحرار المسلمين ويؤيدوهم ضد الرجعيين ذوى المكائد والتعصب الأعمي والذين يلجأون فى آخر الأمر الي حل مشكلاتهم الاصلاحية بحد السيوف . وقد خاطبت انجلترا بصفة خاصة اذ كنت أعرف ان صاحبة الهند لابد أن تهتم كثيرا بمستقبل الاسلام طالباً أن تكون ذا سيادة نشطة مصادقة لافضل عناصر الافكار الشرقية فى مكافحتها أسوأ مافيها من العناصر وألا تقتصر علي الاستفادة من حالة الانحطاط لتوسيع منافعها المادية وقلت « ان النقطة الرئيسية هي أن تفى انجلترا بحق الأمانة التى حملتها « باعتبارها وارثة الامبراطورية المغولية وبحق علاقتها القديمة بالشؤون العثمانية » وهى أمانة ترقية عناصر الخير الشرقية لاهدمها . ان

انجلترا لا تستطيع أن تهدم الاسلام ولا أن تقطع علاقتها به لذلك يجب عليها بحق خالق الكون أن تأخذ بيد الاسلام وتعينه علي السير فى طريق الفضيلة . هذه هي الخطة الحكيمة الخليقة بانجلترا وهي لعمري أشرف وأحكم من حرب صليبية تستغرق قرناً بتمامه » .

وقد نشرت هذا الكتاب فصولا شهرية فى مجلة « فورتنتيلي رفيو » فأحدث تأثيراً كبيراً في انجلترا وبين قراء الانجليزية فى الهند وترجمت أكثر الفصول الى العربية فى مصر وكان ظاهراً في الوقت الذي كتبت فيه أن حوادث خطيرة توشك أن تحدث في الشرق بل انها أخذت تحدث بالفعل . فقد بكرت الحكومة الفرنسية في مايو الى غزوة تونس بغير تنبيه أو انذار تنفيذاً للاتفاقية السرية التى عقدت قبل ذلك بثلاث سنوات بين وارنجتون ووزارة الخارجية الانجليزية واحتلت نصف تونس الغربي بحجة حماية الباى من الخطر الذى يهدده به رعاياه — وهو خطر وهمي — وأعلنت الحماية الفرنسية . ولم تكن فى حالة الجار الذى هجم عليه هكذا غدراً مايبرر هذا الهجوم كسوء الحكم أو الخطر علي الاوروبيين أو حتى الضيق المالى . وكان الباى نفسه رجلا طيباً محترم الشخصية ولم يأت بأى شيء يفقده حسن نية الشعب نحوه فكان اعتقاله بواسطة الجنرال « بريرت » واغتصاب سلطته بواسطة الجمهورية الفرنسية من الاعتداءات المعدومة النظير حتي بين ماحدث من الاعتداءات علي الامم الضعيفة فى عصرنا الحاضر اذا استثنينا اعتداءات بونابارت علي مصر سنة ١٧٩٩ . وكان لهذا الاعتداء أسوأ وقع فى انجلترا حيث كان الناس فى جهل باتفاقية برلين السرية . أما فى العالم الاسلامي فقد أوقد نار الغضب والاشمئزاز الذى أخذ يعظم حين افتضح السر .

ولم يكد أهل تونس العربية يطلقون ناراً علي الفرنسيين لفرط ماافجأهم هؤلاء بالاعتداء واضطر الباي الى توقيع معاهدة قدمت له علي ذبابة السيف بواسطة الجنرال « بريرت » فكانت النتيجة أن فقدت تونس استقلالها قبل أن تعرف أين هي . ولكن أهل الشطر الشرقي من تونس نفروا الى أسلحتهم وقبل أن ينتصف الصيف عمت الثورة صحاوى الجزائر وطغى موج الغضب علي النصرانية

الى الشرق وبدأ يؤثر تأثيراً خطراً في مصر كما سأبين بعد كما أنه حفز المصلحين فيها الى الجد فى حركتهم وحمل جيشها علي المطالبة بالحكومة الذاتية .

ومما يخلق بالذكر لاثبات اشتراك الحكومة الانجليزية فى هذا الشأن الفاضح أن لورد جرانفيل سمح لنفسه أن يكتفي بوعد بسيط من الحكومة الفرنسية بأن الاحتلال موقت لاعادة النظام على الرغم من أن النظام لم يكن قط مهدداً وبأن الاحتلال لا يستمر يوما واحداً مما يستلزمه توطيد حكومة الباى. وهذه خطة تزوير قلدها لورد جرانفيل بكل دقة بعد ذلك بسنة واحدة حين انعكس موقفا فرنسا وانجلترا في مصر . كذلك يستحق الذكر انه مع أن البرلمان البريطانى كان معقوداً لزم لورد سلسبري زعيم المعارضة جانب الصمت المطبق فيمايتعلق بتونس على الرغم من أن أتباعه الذين لم يعرفوا شيئاً من سر المسألة أقاموا ضجة كبرى طالبين الشرح والبيان . كذلك سكت بسمارك فى برلين ولم تبد أي دولة من الدول التى كانت ممثلة فى مؤتمر برلين أى اعتراض وان كان الشعب الايطالى قد استاء كثيراً من فعل الحكومة الفرنسية . أما السلطان فقد نشر احتجاجه إذ كانت تونس جزءا من الامبراطورية العثمانية . وقبلت أوربا الحالة كحقيقة واقعة .

ويجب على أن أقص تاريخ الحركة التى عرفت فى صيف سنة ١٨٨١ باسم النهضة الوطنية المصرية ويرجع أصل هذه الحركة فى الحقيقة الى مجاهدة اسماعيل حين وقع الخلاف بينه وبين ولسن واجتهد اسماعيل أن يحتفظ بسلطته ضد الوصاية القنصلية التي أوقعه فيها سوء تصرفه وديونه . وقد أراد اسماعيل أن يسترد مركزه الادبي الذى كان قد فقده ويستعيد حسن ظن رعاياه بنشر نداء عام يطلب فيه تأييدهم ومن ثم أعلن في ربيع سنة ١٨٧٩ عزمه على دعوة جمعية من الوجهاء . ولم يكن شك فى أنه يريد أن يرفض جزءا من الدين على الاقل مستتراً بالرأى المصرى العام . ومع انه لم يعتقد فيه الاخلاص يومئذ الا نضعة من الاوربيين المقيمين فى مصر فان فكرة معالجة السيئات التى كابدها الاهلون بادخال نظم الحكم النيابي أخذت تشيع وتتأصل فى القاهرة من ذلك الحين . وكان الشيخ جمال الدين وتلاميذه قد حكموا بان استبداد أمراء المسلمين الآخذ فى الزيادة مخالف لتعاليم الاسلام الذى

هو فى الحقيقة جمهورية لكل مسلم فيها حق الخطابة فى مجتمعاتها كما أن سلطة الحاكم فيها لا تعتمد الا على حسن قيامه بتنفيذ الشريعة وبيعة الناس وقد طعن علماء الازهر على اسماعيل فقالوا أنه معتد على القانون وظالم سياسى . وكثيراً ما تباحثوا سراً فى ربيع سنة ١٨٧٩ عن كيفية عزله والوسائل التى تمكن من ذلك أو حتي من التخلص منه بالاغتيال. وعندى أن شعور اسماعيل بالخطر المزدوج الذى يهدده من الخارج وفي مصر ذاتها من ناحية آراء الازهريين هو الذي حمله على الظهور بالمظهر الدستورى. وهنا يجب أن نذكر أن الآراء الدستورية لم تكن سائدة فى مصر فقط فى ذلك الحين بل كانت سائدة كذلك فى الاستانة وكان السلطان قد استدعى الجمعية قبل ذلك بخمسة أعوام

لذلك لم يكن للمصلحين بد من الموافقة على حركة اسماعيل مهما تكن ثقتهم فيه قليلة ومن ثم أخذوا يشرحون هذه الحركة على صفحات الصحف اللاتي انشئن فى مصر تحت اشرافهم . وكان الآن بين الموظفين عدد غير قليل يميل الي النظام الدستورى ومن بينهم شريف باشا وعلى مبارك باشا ومحمود باشا سامى البارودى. ولم يقف الامر عند هذا الحد . فقد وقع وارث الخديوية محمد توفيق تحت نفوذ جمال الدين القوى وصار هذا صلة قوية بينه وبين المصلحين الذين وعدهم مرة بعد أخرى بأنه متى وصل الى العرش فسوف لا يحيد شعرة عن جادة الحكم الدستوري . وقد كان توفيق وشريف الدستوريان عضوين فى وزارة اسماعيل الاخيرة التى عمرت ثلاثة أشهر وكانت مقاليد الادارة فى أيديهما حين عزل اسماعيل .

وعلى هذا رحب جمال الدين والمصلحون بارتقاء توفيق منصة العرش واعتبروه دليلا على حسن الطالع . ومع أنهم أسفوا لان المصريين أنفسهم لم يستطيعوا خلع سلطانهم فقد تطلعوا الى العصر الجديد بثقة الرجال الذين خطوا خطوة فى سبيل تحقيق أمانيهم . ولكن الخديو لم يلبث أن غير رأيه حين تسلم مقاليد السلطة ، شأنه فى ذلك شأن غيره من أولياء العهود ولم يمض شهر حتى نسى وعوده وغدر باصدقائه . وقد كان توفيق ضعيفاً . وكان قد ولدته لاسماعيل احدى سراريه فلم يعامله اسماعيل المعاملة الخليقة بولي العهد كما ان والدته كانت تتركه في خوف مستمر من صولة والده فلم تربطه بهذا الوالد رابطة الاخلاص والتقرب . وكانت نشأته بين سيدات الحرم

أ كثر مما هى بين الرجال فنشأ ضعيفاً لا يسعه الا الاذعان لاية ارادة أقوى من ارادته ولكنه يسعى بعد ذلك لتنفيذ ما يريد بالطرق الخفية . ومن ثم كان شديد الغيرة محباً لحوادث الانتقام الصغيرة . أما فيما يختص بحياته المنزلية فكان مستقيما بالقياس الى أسلافه ولم يكن كذلك خلواً من كثير من الفضائل الكريمة ، وكانت سلبية أخلاقه تجعله خطراً كبيراً على أولئك الذين قدر لهم أن يتعاملوا معه . وكان همه الاول أن يخفي الحقيقة ويلقى على الغير تبعة الفشل الذى يكون قد حدث بخطئه . وكذلك لم يكن بغضه للشيء يظهر برفضه اياه صراحة ولكن باصطناع الاقاويل والوقيعة وبالتفريق حيث يريد أن يسود وينتقم . وقد ذكر عنه أنه لم يخلص لشيء قط وانه لم يثق به أحد الا غدر به .

فلما ارتقى توفيق العرش ووجد نفسه بين قوتين متناقضتي الغرض — قوة أصدقائه المصلحين الذين أخذوا يحثونه على الوفاء بعهوده الدستورية وقوة القناصل التي منعته أن ينزل عن شيء من سلطته التى كانوا يريدون أن يستعملوها باسمه أذعن أولا لاقتراح وزيره شريف بأن يصدر منشوراً يمنح به دستوراً ولكنه أبى بناء على إشارة القناصل أن يوقع المنشور . وقد أفضى هذا الى استقالة شريف باشا فحل محله رياض باشا الذى رشحه القناصل لذلك والذى كانوا يعتمدون عليه فى تنفيذ آرائهم الخاصة بالاصلاح الدستورى في الوقت الذى يتمتع فيه بالسلطة المطلقة طبقاً لمنشور سنة ١٨٧٨ ويتصرف فى شؤون الادارة كيف يشاء باسم الخديو وبغير رقابة من أى مجلس أو جمعية .

وقد كان الضعف الذى أظهره توفيق في هذا الشأن وهو أول شأن مهم عرض له فى حكمه سبب كل ما أصابه بعد ذلك من المتاعب . ولو أنه وفى بعهوده للمصلحين ولوزرائه واستدعى مجلس الاعيان لبقى رعاياه موالين له ولما كان قد وجد محل للدسائس التى راجت سوقها فى العامين التاليين والتى مهدت السبيل لثورة سنة ١٨٨٢ أما والحال كما هي فقد وجد نفسه بعد ما أطاع القناصل مجرداً من السلطة وصار القناصل والوزراء يعاملونه كأنه دمية .

وقد اختلف الناس فى الحكم على رياض . وقد كان الوطنيون شديدى الحكم

عليه حين زرت مصر فى خريف سنة ١٨٨١ وكانوا يحملونه تبعة اجراءآت العنف التى اتخذت ولكنى أعتقد الآن ان التبعة كلها لم تكن واقعة عليه وكان رياض باشا من رجال العهد القديم ولم يكن يثق الا بأشد أنواع الحكم اطلاقا وقد أدار الادارة بالطرق التى كانت متبعة في عهد اسماعيل أى بالجاسوسية وقوة البوليس والاعتقال والنفى . على أنه لم يكن ظالمًا أو واشيًا بالطبع وعندى أنه كان محوطًا فى كل أعماله بضرب من الشعور الوطنى. وكانت فكرته فى حكم مصر طوعًا لامر فنصلى فرنسا وانجلترا وعلى رغم الشعب تنحصر كما أكد لى فى رغبة انقاذ مصر من مصاعبها المالية ووفائها بالديون ومن ثم التخلص باسرع ما يمكن من كل تداخل أجنبى . وليس هناك شك في انه بذل في السنة الاولى من حكمه جهداً عظيما لتخليص الفلاحين من أثقالهم المالية . ولكن الوفاء بالديون عملية طويلة بطيئة وليس ثم دليل على انه كان بمكنه أن ينجح فى تحريرها من الوصاية التي ضربت عليها أو حتى تخليص الناس من أفظع ما حاق بهم من سيئات الادارة. والواقع أن المراقبة الثنائية التى خدمها رياض لم تعن إلا بالمسألة المالية طارحة كل ما عداها فى زاوية الاهمال. وقد كان الفلاحون لا يزالون يحكمون بالكرباج. وكانت المحاكم بؤراً للفساد والملاك المدينين يخسرون ممتلكاتهم للدائنين وكانت سلالتا الاتراك والجركس لا تزالان تسودان البلاد .

ولم تقم الحكومة باي تحسين أدبي ولا هي حسنت حتى نظم الادارة . وقد كان هذا موضع ضعف الحكم الانجليزى الفرنسي وسبب فشله فى ارضاء الناس . ومع ذلك يجوز أن نتساءل ألم يكن بد من أن تأتى الازمة بالسرعة التى جاءت بها لو ان الخديو كان مخلصاً لوزيره ممتنعاً عن الدس له ؟ ولكن هكذا كان طبع توفيق كما أسلفت — فهو يخضع ظاهراً للضغط ولكن يحاول تحقيق غرضه بوسائل أخرى لذلك أخذ يدس لرياض من أول الامر وكان غيوراً من سلطته ناقماً عليه القوة التى منحها له . هذا هو التاريخ الصحيح لسلسلة الاوقات التى مرت فيها مصر سنة ١٨٨١ بما فيها القلاقل العسكرية التى انتهت بسقوط رياض من دست الوزارة .

ان تدخل الجيش فى شتاء ١٨٨٠ — ١٨٨١ كقوة سياسية فى مصر له أهمية

كبيرة تستدعى الحال شرحه شرحا وافيا . وقد كان هذا الجيش عاملا من عوامل الاستياء منذ حلت به الهزيمة فى الحبش وقضت على سمعة الخديو زد على ذلك ان الصعوبات المالية جعلت دفع المرتبات عسيراً وغير منتظم . وكان الجنود العائدون من الحرب قد استخفوا بقوادهم الذين برهنوا على قوة كفاءتهم واشترك معهم أكثر الضباط الصغار في عواطف الاستخفاف والاستياء . وقد ساعد على ذلك ان مناصب الجيش العليا كانت مقصورة على الجراكسة الذين يتكلمون اللغة التركية فهذه الطبقة احتكرت السلطة . أما الجنود والضباط الي رتبة يوزباشي فقد كانوا من الفلاحين . وقد اشتد الشعور بكراهة الطبقات حين حرم هؤلاء من مرتباتهم في الوقت الذى كان الرءوس الجراكسة يستولون على مرتباتهم الكبيرة غير منقوصة . وعلي ذلك كان الجنود وصغار الضباط يشاطرون الشعب استياءه فى الثلاث سنوات الاخيرة فى حكم اسمعيل وحدث كثير من المؤامرات التي لم تعلن أبداً بين صغار الضباط الذين وصلوا فى وقت من الاوقات الى الشروع فى استخدام القوة . وكان بين زعماء هذه الحركة منذ سنة ١٨٧٧ احمد بك عرابي الذى خولته رتبته — بكباشي — وهي رتبة قلما شغلها مصرى — نفوذاً قوياً استثنائياً على مواطنيه . وأحسب ان المكان هنا يتسع لكتابة شيء عن هذا الرجل الشهير .

ولد عرابي سنة ١٨٤٠ وهو ابن شيخ صغير فى احدى القرى يملك ثمانية فدادين ونصف فدان في « هرية » الغربية من الزقازيق حيث نشأت أسرته منذ زمن بعيد وكان لها احترام خاص شبه ديني وقد زعم كغيره من الشيوخ ان دماء السادة « سلالة النبي » تجرى في عروقه أما عدا ذلك فهو فلاح قح ولكن هذه السيادة رفعت قدره علي جيرانه الفلاحين ولا أدرى ماهو مبلغ الصحة في زعمه هذا وقد اختلف الناس فيه ولكني أعرف انه حمل الاسرة على العناية بالتربية الدينية التي لا يمكن تحصيلها فى قري الوجه البحرى ومن ثم أرسل عرابي فى شبابه كما أرسل والده الى مصر ومكث عامين يدرس فى الازهر .

وقد اقترع فى الرابعة عشر من عمره وأخذ جنديا ولما كان شاباً طويل القامة باكر النمو وكان سعيد باشا قد وضع مشروعا لتدريب أبناء مشايخ القرى ليكونوا

ضباطاً فقد مرق فى الرتب الصغرى بسرعة وصار ملازماً في السابعة عشر ثم يوزباشياً فى الثامنة عشر وصاغاً فى التاسعة عشر وبكباشياً في العشرين. وقد حدث هذا الترقي السريع المعدوم النظير بالنسبة لابناء الفلاحين تحت حماية القائد الفرنسى الذي كان يعمل تحت امرته وهو سليمان باشا الفرنساوى ولـكن الفضل الحقيقي فيه يرجع لرغبة سعيد باشا الذى اراد أن يكون مصريًا كرعاياه لافرداً من جماعة الاتراك ورغب كذلك فى أن يكون محاطاً بالضباط المصريين . وقد حظي عرابي الذى كان وسيما ووجيها برضائه حتي سمي أركان حرب له ورافق سعيد الي المدينة في السنة التى سبقت وفاته. وعندى ان عرابي كون آراء السياسة الاولي أثناء حديثه مع سيده فى هذه السفرة التي كانا فيها متلازمين وتنحصر هذه الآراء فى المساومة بين الطبقات وفى الاحترام الواجب للفلاح باعتباره العنصر الاساسي المجد في الجيش المصرى . وهذا الدفاع عن حقوق الفلاح هو الذى ميز عرابي على مصلحي ذلك العصر . وغني عن البيان ان حركة الاصلاح الازهرية كانت تشمل المسلمين ولا تميز بين الاجنـاس . أما حركة عرابى فكانت قومية ولذلك كانت الوطنية فيها أظهر واقبال الناس عليهـا أقوى وأكثر .

وكانت وفاة سعيد الفجائية ضربة شديدة على آمال تابعه عرابي فقد زالت الحظوة عن الضباط الفلاحين فى عهد اسمعيل وأعطي التفضيل كله للجراكسة وقد وجد عرابى ان هؤلاء يعاملونه بازدراء ثم أعطيت له مهمات ثانوية فى مصلحة النقل وفي المناصب المدنية فأدى هذا الي انضمامه للمتذمرين والى تفانيه فى الدفاع عن حقوق طبقته . وكان عرابي فصيحاً قادراً على شرح آرائه باللغة التي يفهمها مواطنوه ويحبونها . نعم أنها ليست لغة صحيحة ولـكنها حافلة بالمجازات محلاة بالمقتبسات من القرآن وكان قد استفادها من دروسه فى الازهر . ومن ثم كان له نفوذ كبير عن الذين اتصل بهم .

وفي هذه الاثناء امتزج عرابي بكثير من الاوربيين ولا سيما في الاسكندرية التى كان قد أرسل اليها بمأمورية رسميــة غير عسكرية خاصة بدائرة الخديو وكانت علاقته بهؤلاء الاوربيين ودية وقد ظل عرابي الى اللحظة الاخيرة مجرداً من كل

شائبة من التعصب فيما يختص بالمسيحيين . أما فيما يختص بتدينه فمع أنه كان شديد المحافظة على فروضه الدينية كان كذلك من أحرار المسلمين ثم انه كان محباً للانسانية فى آرائه الخاصة باخاء الامم وأصحاب العقائد المختلفة .

وقد خدم عرابى فى الحرب الحبشية ولكن فى خطوط المواصلات بين مصوع وجبهة القتال . وقد عاد منها كسائر زملائه ساخطا على ماحدث فيها من سوء التصرف . والى هذا يرجع تفرغه الآن للسياسة وتعاظم غيظه الذى كان موجهاً بعد ذلك نحو الخديو . وقد زاد هذا الغيظ حين اعتقل هو والضابط الفلاح على بك الروبى بتهمة كاذبة هى ان لهما علاقة بالهجوم على نوبار وهي مناورة قام بها اسماعيل ليستر وراءه دوره الذاتي . وبعد الافراج عنه اشترك آونة مع بعض الضباط فى مشروع لم ينجح وكان مؤداه خلع الخديو والراجح ان هـذا الخلع كاد يتم حتى لو لم تتداخل أوربا وذلك بواسطة الجيش والاغتيال وغني عن البيان ان هذه الطريقة الاخيرة كانت قد طرحت على بساط البحث بصفة جدية في الازهر وليس هناك شك في أن حزب المصلحين والفلاحين قد سرهم سقوط اسماعيل .

ومن الخطأ أن يظن أحد أن عرابى كان معاديا من أول الامر للحكم الجديد فلم يكن بينه وبين توفيق أو أحد القناصل أي حزازة بل كان يرى على عكس هـذا نفوذاً وديا صالحاً كما كان يرى فى القناصل حماة للفلاحين من ظلامهم القدماء . زد على ذلك انه قلد قيادة أورطة من رجال الحرس وأقام فى أحب الامكنة اليه أى فى ثكنات العباسية . ولو أن مظالم الجنود الحقيقية عولجت بشيء من الحذق والاعتدال وعين وزير للحرب غير معاد للضباط الفلاحين لكان الراجح أن لا يثور عرابي ولا غيره في وجه الحكومة . ولكنه أرغم على الدفاع عن نفسه ولغيرة الخديو توفيق من سلطة وزيره رياض شأن كبير في هذا .

وقد وقعت القلاقل على النحو الآتي : لما ألفت وزارة رياض باشا عين عثمان رفقى باشا وهو ضابط تركي من الطراز القديم لوزارة الحرب . وكان هذا ممن يصلحون لتمثيل تلك الطبقة التى ظلت قروناً طويلة تنظر الى مصر كضيعة خاصة وتنظر الى الفلاحين كعبيدها وخدمها فكان مسلكه بالنسبة للضباط الفلاحين مسلكا عدائيا من

أول الامر وقد أعطي التفضيل للجراكسة لا للفلاحين فى جميع التعيينات والترقيات التى حدثت فى عهده . وساء الجنود انهم كانوا يكلفون باداء مهمات غير واجباتهم الرسمية ثم انهم كانوا معرضين لضروب شتى من الاشغال الشاقة كحفر الترع ومباشرة الاعمال الزراعية فى أراضي الخديو ، وكانوا قد فقدوا بطبيعة الحال عادة الاشتغال بالزراعة .

فلما وقف عرابى فى جانب رجاله وأبى أن يسمح بتشغيلهم في حفر الترعة التوفيقية غضب عليه وزير الحرب وكانت هناك مسألة مرتبات منعت فرفع عنها الضباط الفلاحون مذكرة فى ٢٠ مايو سنة ١٨٨٠ وكان عرابى واحداً من هؤلاء الضباط .

ولم يكن فى المذكرة شيء سياسى وقد رفعت بالطريقة القانونية الي وزارة الحرب فتداخل قنصلا انجلترا وفرنسا والفت لجنة للتحقيق فأقرت اللجنة مطالب الضباط . وقد انتصر المسيو رنج قنصل فرنسا في هذه المسألة للضباط واستمر علي حمايتهم من ذلك العهد الى حد ما خصوصاً اذ قد شجر بينه وبين رياض خلاف أثناء التحقيق . ومع ان عرابى كان يقوم في هذا كله بنصيب كبير قد كان متبصراً معتدلا وقد أرضي القناصل بذلك . وكان قد جدد الصداقة مع زعماء الاصلاح في الازهر منذ عاد الى القاهرة وقلد قيادة الكتيبة الرابعة ثم انه كان متصلا بواسطة زميله علي بك الروبى بوزيرين أحدهما علي باشا مبارك والثاني محمود بك سامي البارودي . وكان هذان على رغم ما عرفا به من الميول الدستورية والتبعية لشريف قد احتفظا بوزارتيهما بعد سقوطه فكان الاول وزيراً للاشغال والثانى وزيرا للاوقاف .

وإذ بلغت الاحوال الى هذا المأزق رأى الخديو فيها فرصة سانحة للدس ضد رياض فاتصل بالضباط بواسطة أركان حربه على بك فهمي وهو ضابط فلاح ولكنه اتصل بالقصر بواسطة زوجته الجركسية الاصل وعين قائداً لكتيبة الحرس الاولي . وكان هذا الضابط رجلا فاضلا . ومع انه لم يوقع المذكرة التى أرسلها الضباط الي وزارة الحرب ولم تكن له آراء سياسية قد كانت صلته بعرابي واخوانه ودية ولم يجد صعوبة فى اقناعهم بان الخديو هو أيضاً في جانبهم وانه أرسله خصيصاً لانذارهم بان رياضاً ورفقته يدبرون لهم تدبيرات سيئة وان الخطر سيظل محدقا بهم أو يستقيل هذان

الوزيران ، وقد سهل اقناع عرابى بذلك لان رياضاً كان الى ذلك الحين قد اعتقل كثيراً من المطالبين بالاصلاح الدستورى ومن بينهم كثير من أصدقائه . وكان الشيخ جمال الدين قد انتهي أمره بسرعة ونفي شاب من ذوى الاملاك في الشرقية يدعي حسن موسي العقاد منذ مدة قصيرة الى النيل الابيض لا لشيء الا لانه طعن على قانون المقابلة الذي كان الخديو اسماعيل قد أصدره وكان طعنه هذا رداً علي خطاب نشره رفرز ولسن ومن ثم اقترح على الضباط أن يسبقوا عثمان رفقى فيطلبوا رفته وان الخديو ينظر فى مثل هذا الطلب بعين الرضاء .

وقد انتهت المسألة الى أزمة فى أواخر سنة ١٨٨٠ حين علم عرابى ذات مساء وهو مع الضباط في منزل نجم الدين باشـا أن الوزارة قررت حرمانه هو وزميله القائمقام عبـد العال بك حلمي قائد الـكتيبة السودانية من مناصبهما ورفتهما من الخدمة . وقد نمي اليه فى الوقت نفسه أن على بك فهمي هذا فى منزله ويريد أن يراه ، فذهب الي داره فوجد فيها علي بك فى انتظاره ومعه عبد العال حلمي الذى أكد له صحة ما بلغه من الانباء . وبعد أن تشاور الثلاثة — لان على فهمي كان قد قرر الاشتراك معهم — قرروا أن يذهبوا الي رئيس الوزارة ويطلبوا منه أن يضع حداً لما يصيبهم من اضطهاد عثمان رفقى بعزله . وقد فعلوا هذا فى اليوم الثاني .

وقد قص على عرابى نفسه ما حدث فى هذا اللقاء ولا شبهة عندى فى صحته قال : ذهبنا بالعريضة الي وزارة الداخليـة وطلبنا مقابلة رياض . أخذنا الى غرفة خارجية وانتظرنا ريثما يقرأ الوزير عريضتنا فى حجرته . ثم خرج الوزير وقال لنـا « ان عريضتكم مهلكة . فهى مسألة شنق . ماذا تريدون ؟ تريدون تغيير الوزارة . فماذا تضعون في محلها . من الذين تطلبون أن يديروا الحكومة؟» قال عرابي فأجبته قائلا : ولـكن يا سعادة الباشا هل مصر امرأة لم تنجب الا ثمـانية أبناء ثم ابتليت بالعقم . وقد أشرت بذلك اليه هو والسبعة الوزراء فغضب جداً من ذلك ولـكنه قال فى النهاية أنه سينظر فى المسألة . وهكذا تركناه .

وقد لعب الخديو دوراً . غادرا فى مجلس الوزراء الذي عقد بعد هذا الحادث مباشرة فقد اقترح اعتقال الضباط ومحاكمتهم رغبة منه فى توريط الوزارة اذ كان يعلم

أن المسيو دي رنج القنصل الفرنسي سيتدخل لحماية الضباط . ولم يكن عثمان رفقى رفض هذا الاقتراح الذى يفضى الى محاكمته هو أيضاً بطبيعة الحال كما أن رياضاً لم يكن يريد أن تفتضح المسألة علناً وبذلك وقف فى جانب الضباط . على انه قد أوعز لرياض سراً أن موقفه قد يساء تأويله فتعتبر معارضته نقصاً فى اخلاصه للخديو فسحب معارضته واتفق فى آخر الامر على أن يترك أمر الضباط لعثمان رفقى للتصرف فيه بالطرق التى كانت متبعة فى عهد اسماعيل . لذلك لم يعمل شيء علناً ضد الضباط ولم يفصل مجلس الوزراء في مسألتهم بقرار .

أما ماتلا ذلك فمعروف . فقد دعي أصحاب العريضة الثلاثة بعد بضعة أيام الى قصر النيل ليتفقوا مع وزير الحرب على الادوار التى تشغلها كتائبهم في الاحتفال بتأهيل الاميرة جميلة . فلما وصلوا هناك وجدوا كثيراً من رؤسائهم الضباط الجراكسة مع عثمان رفقي ولم يمض على وصولهم لحظة حتى اعتقلوا وأهينوا . وقد تمسك عرابى الى آخر الامر بأن المراد كان وضعهم فى باخرة نيلية راسية بجوار القصر والصعود بهم فى النيل واغراقهم وليس ثمة ما يحمل على الشك فى صحة ذلك . فقد كان كل غرض عثمان رفقي أن يتجنب محاكمة قد تفضح ظلمه . ولو أنهم وضعوا في الباخرة وأقلعت بهم لاعلن حالا أن هؤلاء الضباط رفتوا وأرسلوا الى بلادهم . ومهما يكن من ذلك فقد أنقذهم جنود كتيبة على بك فهمي فى الحال وقد زحفوا علي القصر وفتحوا بالقوة أبوابه بقيادة الصاغ محمد عبيد وهو رجل طيب مخلص قتل بعد ذلك في معركة التل الكبير . وقد تقهقر القواد الجراكسة بعد ذلك وأرغم عثمان رفقي علي الفرار من نافذة الدور الارضي ثم سار الضباط الثلاثة فى طليعة جنودهم ووسط قرع الطبلات الى ثكناتهم . وهناك وضعوا خطاباً دونوا فيه ماحدث وقالوا انهم فعلوا ما فعلوا دفاعا عن أنفسهم ولم يوقعوا سلامة أى انسان فى خطر ثم أرسلوا الخطاب الي المسيو دى رنج طالبين توسطه لدي الخديو في عزل عثمان رفقي وتعيين وزير آخر فى محله وقد قبل الخديو ذلك في الحال . ولا شك في أن المسيو دى رنج والخديو اجتهدا كذلك في خلع رياض باعتبار أن رئيس الوزارة هو أول مسئول عما حدث من الاضطراب ولكن رياض كان مؤيداً من جانب المراقبين الماليين

ومن جانب القنصل الالماني بل من جانب ماليت على ما أظن وكان هذا كما أسلفت غير راض عن الضباط فلما رفعت المسألة الي حكومتي باريس ولندن لم تحفلا برغبة الخديو ولم يمض وقت قصير حتي استدعي المسيو دي رنج الى فرنسا يتعثر فى أذيال الخيبة.

وقد حدث هذا الاضطراب العسكرى فى قصر النيل يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ وحدث بينما كنت لا أزال فى مصر ولكني لم أكن فى القاهرة واذكر اني لم اسمع اسم عرابى قبل ذلك . ولكن عمله هذا أكسبه شهرة عامة واسعة وصار اسمه يذكر في الافواه كرجل استطاع أن يتحدي الحكومة بنجاح ويرغمها على تغيير الوزراء. ولم تمض عدة أسابيع حتى صار عرابي قوة يعتد بها فى البلاد وهطلت عليه من انحاء البلاد كلها عرائض المظلومين الذين يشكون اليه ما أصابهم ويطلبون معونته فيه والواقع ان ظهوره بمظهر الدفاع عن مصالح الفلاحين ضد طبقة الاتراك الحاكمة أكسبه حب الناس خارج القاهرة فأقبل كثير من الاعيان والمشايخ على الاتصال به . وكان عرابى يحسن الرد عليهم علي قدر ماتسمح به قوته المحدودة . ومهما يكن من شأن الناس الذين أقبلوا على الاجتماع به فقد كان يؤثر فيهم ابتسامته الجذابة وبيانه العذب ورقته .

وقد كان منظر عرابى فى ذلك الحين حسناً جداً لائقاً بالدور الذي قدر عليه أن يقوم به بالنيابة عن بني جنسه . فهو فلاح أصيل طويل القامة ثقيل الاطراف بطيء الحركة نوعاً كأنما هو يمثل تلك القوة العظيمة التى اشتهر بها الفلاح العامل فى الوجه البحرى .

ولم يكن فى عرابي شيء من شموخ الجندى بل كان فى اشاراته ذلك البطء الذى أعطاه مظاهر النبل والذى يشاهده الانسان فى مشايخ القرى ولم تكن ملامحه تدل على شيء من اليقظة وقت سكوته كما أن نظراته كانت شاردة ولم يكن الانسان يتفطن الى ذكائه الكبير ولطفه إلا حين يبتسم ويتكلم حينئذ كان وجهه يستضيء كما يستضيء الوادى بأشعة الشمس .

والظاهر ان الباشوات الجراكسة والاتراك ما كانوا يحفلون بمثل هيئته وهي هيئة الفلاح الذى سادوه قروناً واستعبدوه وأرغموه على العمل فى حقولهم بغير أجر

فظنوا أنه لايصلح الا أن يكون آلة في فى أيديهم الما كرة . وقد كان رياض يحتقره من أول الامر الى آخره ولم يعتد به مصلحو الازهر الا قليلا . ولكن هذه الظواهر كانت أعظم شفعائه لدى الفلاحين فقد أدركوا أنه واحد منهم وقد تركزت فيه خصالهم فصارت باهرة بما تحلى به من قوة وبما تعلمه فى الازهر من العلم . وهنا يجب علينا أن نذكر انه لم يتفق فى خلال الثلاثة قرون الاخيرة أن صعد أى فلاح مصرى الى ذروة الشهرة السياسية أو ظهر فى لباس المصلحين أو وسوس بكلمة واحدة فيها معنى الثورة . على أنى أشك فى أن خصاله وحدها وقد كانت سلبية لا ايجابية أو مواهبه التى لم يكن برهن على شيء منها بعد كانت تضعه فى الطليعة كزعيم وطني لولا الاضطهاد الطائش الذي انصب عليه من رياض فى الاشهر التى تلت حادثة قصر النيل والذى استطاع دائماً أن يرفضه أو يتخلص منه بواسطة دسائس خصوم الوزير.

وكان أهم أولئك الخصوم وأقدرهم على تحذير عرابى من المخاطر التى تهدده بطبيعة موضعه محمود بك سامي الذي خلف عثمان رفقى في وزارة الحرب بتوصية المسيو دي رنج والذى كان من أعضاء حزب شريف وكان دستورياً متحمسا . ومع أنه لم يكن قد تعرف الى عرابى الى الآن فقد كان يميل اليه ميلا وديا كما انه كان صديقاً حميما لعلي بك الروبى الذى هو أحد الضباط الفلاحين . فلما تقلد وزارة الحرب أصبح في استطاعته أن يساعدهما بالفعل ويطلعهما على ما يصل الى علمه من الدسائس التى تدبر لهما وقد استطاع أن يفعل ذلك بنجاح لاقلاله من الاجتماع بعرابى ولو أنه كان دائم الاتصال به بواسطة علي الروبى . وقد وعد الضباط وعداً صريحا بأن يطلعهم حالا على الحقيقة اذ انضم الخديوي للذين يعملون ضدهم فاذا لم يستطع انذارهم استقال وكان عليهم أن يعدوا استقالته انذاراً لهم .

اما محمود سامي البارودى فقد نال دوره فى ذلك العام وهو سليل أسرة شركسية عاشت فى مصر أجيالا طويلة فكان على هذا من طبقة الحكام ولكنه كان كشريف باشا مصلحاً ووطنياً صادقا . أما من حيث مواهبه فقد كان أسمي بكثير من عرابي بل كان من أعظم الناس علماً وتهذيباً في مصر فقد كان

متضلعاً فى آداب اللغتين التركية والعربية كما انه حجة فى تاريخ مصر وهذا كله فضلا عن مواهبه الشعرية العظيمة الممتازة وقد وصفه الكتاب البريطانيون الذين اهتدوا أو بعبارة أصح ضلوا بما في الكتب الرسمية الذوق اذ قالوا انه كان يدس لوزير ينتمى لحزب غير حزبه ولم يتطوع هو لخدمته . وقد كان محمود سامي فى الوزارة حين تقلد رياض الرئاسة فى سنة ١٨٧٩ . وكان هناك تفاهم على أن يحتفظ هو وعلي باشا مبارك باستقلالهما فى كل مايختص بوزارتيهما . ولم يكن ثمة شك فى أنهما كانا يدسان لرياض فى ربيع سنة ١٨٨١ ولكن غرضهما من ذلك لم يكن إلا اعادة رئيس حزبهما شريف الى السلطة . ومن هذه الناحية يجب أن ينظر الانسان لاعمال محمود سامي ولست أشك ان تاريخ الوزارات البريطانية حافل بهذا الضرب من الدسائس

وقد كان الدور الذى قام به فيما عقب ذلك من الحوادث دور اخلاص لمبادئه الدستورية وللحركة الوطنية وقد دفع فى ثباته ثمناً غاليا فانه كان رجلا غنيا ومن ثم كان معرضاً أكثر من غيره للخسارة .

أما الدور الذى لعبه الخديوي أثناء الشهور السبعة التاليه فلم يكن على شيء من مثل هذه الاستقامة والظاهر انه كان فى خلال هذه المدة فريسة للتردد والغيرة والمخاوف والمطامع . وقد كان خصوم رياض يوهمونه أن هذا الوزير يدس له ويعمل لخلعه والحلول محله . ومع أن هذه فكرة لا يمكن تصورها فقد صدقها الخديوى فى وقت من الاوقات . وفى أوقات أخرى أثارت شهرة عرابي غيرته فكان ينتقل من خوف الى خوف فى الوقت الذى كان فيه يتوق لاستعادة السلطة التي كان يحكم بها والده وقد كانت المراقبة الانجليزية الفرنسية تثير ثائرته ثم انه كان يعرف ان السواد الأعظم يكرهه ويزدريه . وكانت بطانته الجركسية تضمر أشد العداء للضباط الفلاحين ولا تنقطع عن تحريضه على معاملتهم بأقصى الشدة وهذا بينما يستخدم شريف باشا واخوانه الدستوريين على أمل أن يعيدوا تمثيل الظاهرة التى كان يريد أن يتخلص بها من رياض ومن المراقبة الثنائية معا . هذه هي الحالة التي كانت عليها البلاد فى شهر اغسطس سنة ١٨٨١ حيث وقعت الازمة وحيث كان للاختيار الذى عرى العالم الاسلامى من جراء اعتداء فرنسا على تونس تأثير كبير .

الفصل السابع

انتصار المصلحين

ليس من السهولة فى شيء أن يحدد الانسان الدور الذى لعبه الخديو توفيق فى آخر فصول رواية الثورة وهو المظاهرة العسكرية التى جرت يوم ٩ سبتمبر في عابدين وقد ذكر نينت وغيره من الكتاب انه كان هناك اتفاق تام بين توفيق فى ذلك اليوم وبين الزعماء العسكريين ابتغاء اسقاط رياض والتخلص من الوصاية القنصلية التى ضاق بها الخديو ولكن ليس هذا صحيحاً الا من الوجهة العامة وقد أكد لى عرابي انه لم يكن له فى سنة ١٨٨١ علاقة بالخديو خلاف العلاقة الرسمية التي كانت له بصفته قائد كتائب الحرس ولم يخاطبه عرابى شخصياً الا ثلاث مرات ولكن لم يرد للسياسة ذكر فى واحدة منها ومع ذلك لا شك فى أن توفيق ظل يوحي الى الضباط بواسطة أركان حربه على بك فهمي فكرة المظاهرة العسكرية ذات الاغراض المحدودة وكان هذا الضابط قد عاد الي خدمة الخديو علي الرغم من اشتراكه مع عرابي في حادث قصر النيل واعتقاله معه وكان الخديو يستخدمه جاسوسا علي الضباط الفلاحين ووسيطا لديهم فى الوقت نفسه وكان توفيق يظن أن صلة على فهمي بالبلاط بواسطة زوجه ضمان لوفائه ولم يغضب عليه توفيق ذلك الغضب الشديد الا حين انضم نهائياً الى عرابى بالرغم من علاقته بالقصر . وقد كان توفيق كما قلنا متقلباً فبينما كان يعتمد على الجيش فى التخلص من رياض كان ينحرف عنه بدافع الغيرة من شهرة عرابي الآخذة فى الزيادة . وقد برزت شهرة عرابى خلال ذلك الصيف ومكنته من الاتصال بكثير من مشايخ القرى ووجهاء الاقاليم وكان هؤلاء قد فرحوا بفكرة تحرير الفلاح التى كان يلهج بها عرابي . وكانوا يسمونه في الارياف «الواحد» وعندى أنه كان جديراً بهذا الاسم فقد كان الفلاح الوحيد الذى استطاع أن يقمع بنجاح طبقات الحكم الجركسية .

وليس فى الطاقة أن يتجاوز الانسان الحد مهما قال فى التأكيد بان حركة سنة ١٨٨١ الوطنية كانت حركة فلاحية بحتة غرضها تحرير الفلاحين وأنها كانت موجهة

قبل كل شيء آخر ضد حكومة الجراكسة المعدومة الكفاءة والتي خربت البلاد وأنها لم تتجه ضد المراقبة الثنائية الا حين وقفت هذه فى جانب الظلمة وأيدتهم . على انه قد امتزجت شؤون أخرى بالحركة بطبيعة الحال . واذ أقبل كثير من وجهاء البلاد وأعيانها على عرابى والتفوا حوله وصاروا قوة لا يستهان بها أخذ كثير من الدستوريين الذين كان أكثرهم من الطبقة الحاكمة يعاملون عرابي كحليف على الرغم من انهم كانوا فى الحقيقة خصوما لحرية الفلاحين كما كان رياض معه . وكانت فكرة الدستور فى عقول هؤلاء الرجال تنحصر فى تخليص السلطة من يد الخديو ووضعها فى يد طبقة الحكام الجراكسة وهى الطبقة التى اعتبروها وحدها صالحة لحكم البلاد . وكان رأس هؤلاء الدستوريين شريف باشا وقد وجد نفسه فى خلال الصيف متصلا بعرابى من طريق المراسلة وباعتباره واسطة الحصول على دستور يمهد لشريف باشا سبيل الوصول الي رئاسة الوزارة مرة أخرى .

ولما كان عرابي ميالا لفكرة الدستور قد أخذ في تأييدها وخصوصاً ان سلطان باشا الذى كان أقوى وجهاء الفلاحين كان كذلك دستوريا كبيراً وكان واسطة الاتصال بين عرابي وشريف وقد اتفقوا فيما بينهم جميعاً على انه متى حانت فرصة ملائمة يلقى عرابى نفوذ الجيش فى كفة أي ضغط يبذل لحمل الخديو على الموافقة على طلب الدستور . على ان الخديو نفسه لم يكن يكره هذا الطلب لافضائه بطبيعة الحال الي إقالة رياض تلك الاقالة التي كانت غرضاً رئيسياً من أغراض الخديو . ولذلك أوعز الى عرابي بواسطة علي بك فهمي بعبارات التشجيع وأكد له موافقته .

وتدل أول رسالة تلقاها عرابى من توفيق فى هذا الصدد دلالة واضحة على طرق الدس التى كان يسير عليها الخديو .فقد كان يتحدث ذات يوم الى علي فهمي عن الجيش ونماء قوته كعامل سياسي فقال « أنتم الثلاثة عرابى وعبد العال وأنت جنودي وأنتم أربعة بانضمامى اليكم » ثم أمره أن يبلغ هذه الرسالة الى عرابى . ثم تبعت هذه الماعات أكثر وضوحاً حتى اقتنعوا بأن الخديو يؤيد سراً ان لم يكن علناً كل مظاهرة عسكرية يكون الغرض منها اسقاط رياض . وكان يجب لاقناع القناصل أن يظهر بمظهر المضطر للاذعان بحكم القوة حين يقبل الوزارة .

ولكن الشك فى مسلك الخديو لم يلبث أن عاد الى الاذهان حين دقت فعلا ساعة العمل .وقد حدثت الازمة على الوجه الآتى : كان رياض باشا حتى شهر أغسطس قد احتقر حركة الفلاحين الى حد انه لم يحفل البتة بها ولكنه أزعج الآن للمرة الاولى . وكان يعتقد انه يستطيع أن يقمع الحركة العسكرية بوسيلة من تلك الوسائل الشاذة التى تعودت عليها حكومة الجراكسة وكان قد أحاط عرابي وزملاءه بالجواسيس واجتهد أن يورطهم فى مشاجرة شخصية بواسطة رجال البوليس أو فى أي اضطراب آخر يقع فى الشارع فيقعوا في قبضته ولكن محاولاته ذهبت عبثاً فقد كان صديقهم محمود سامى وزير الحرب ينذرهم بكل مشروع جدي يدبر لهم فى الخفاء فكانوا أبداً على قدم الحذر وكان قد انفق بين عرابي ومحمود سامي على أن يتوقع الضباط الفلاحون شراً كبيراً اذا اضطر محمود سامي للاستقالة من وزارة الحرب حتى ولو لم يسمع شيء من جانب محمود . فلما فرغ صبر رياض فى أغسطس ووقع الخصام بينه وبين وزير الحرب وأعلن ان محمود سامي قد استقال اعتقد الضباط فيما يختص بهم أن ساعة العمل أوشكت أن تحين .وكان رياض أراد ان يرغم وزير الحرب على ابعاد الضابطين الرئيسيين وفرقتيهما من القاهرة ووافق الخديو على لك فى نوبة من نوب غيرته من شهرة عرابي فلما عارض محمود سامى فى ذلك أعلن بالرفت فى الحال . وكان الخديو ورياض لايزالان يومئذ فى مصيفهما باسكندرية فارسل رياض الى محمود سامي خطاباً يأمره فيه بترك القاهرة والسفر الى عزبته ولذلك لم يسمح وقته بمخاطبة أصدقائه الضباط . ولكن هؤلاء عرفوا حالا ان عهد المتاعب قد ابتدأ ولا سيما ان ذلك الذى خلف محمود سامي فى وزارة الحرب لم يكن أقل ولا أكثر من داود باشا يكن زوج أخت الخديو وهو جنرال جركسى من شرار الرجعيين . وقد عاد الخديو الى مصر فى أوائل سبتمبر وكان الضباط قد تشاوروا فى الامر مع سلطان باشا وحلفائهم الملكيين وقرروا أن يأخذوا حالا في العمل . وقد صمموا على القيام بالمظاهرة العسكرية مهما تكن خطة الخديو نحوهم وان يصروا على ضرورة استقالة الوزارة كضمان لازم لسلامتهم الشخصية .وكانوا قد رأوا انهم اذا سمحوا بان يبتعدوا من مصر ويفرقوا سهل حينئذ على رياض ان يضربهم واحداً فواحداً وكان أيسر

ما يتوقعونه على يديه ولكن الغالب ان يعمد الى اعتقالهم ومحاكمتهم بتهمة العصيان على ماحدث منهم فى فبراير . وكان فى برنامجهم المطالبة بزيادة الجيش فضموا هذا الطلب الى الدستور الذى اعتقد الجميع انه الضمان الوحيد ضد ظلم الحكومة .

وانتهت المسألة سريعاً الى أزمة في ٨ سبتمبر .فان داود باشا الذى كان كافراد طبقته يسرف في احتقار الضباط الفلاحين ولا يتوقع مقاومة من جانبهم أصدر أمره بسفر أورطة عرابى الى الاسكندرية وأورطة عبد العال الى دمياط . فلما وصل الامر الى الضابطين قررا أن يعملا فى الحال.ولا شك في أنهما اعتمدا على اناة الخديو اذا لم يكن على عطفه وكانا على بينة من ضعفه الخلقى وعرفا انه سينضم الى الجانب الأقوى مهما كان القرار الذى اتخذه قبل ذلك بتأثير رياض . وكانا يعتمدان كذلك على صداقة علي فهمي وان لبثا فى شك من أمره وكانت أورطة علي فهمي لا تزال معسكرة فى ثكنة عابدين ولم يرد لها ذكر فى أمر النقل الذى أصدره وزير الحرب فاذا كان الخديو خصما لهما وكان علي فهمي مطيعاً لهما فحينئذ لا بد من وقوع القتال والا فالراجح اذا لم يحدث شيء من هذا أن تبقى مظاهرتهما سلمية وتنتهي بسلام .ولاجل أن يتوقيا سوء الفهم أرسلا مذكرة للخديو أطلعاه فيها على مشروعهما وقالا فيها انهما لن يذهبا بجنودهما الى قصر الاسماعيلية الذي هو قصره الخصوصي بل يذهبان الى عابدين الذى هو القصر الرسمي والتمسا منه أن يقابلهما ويسمع شكاويهما .

أما ماحدث بعد ذلك فاسمعه من فم عرابي نفسه . قال : كتبت فى صباح اليوم التالي خطاباً الى الخديو فى قصر الاسمعيلية يتضمن مطالبنا وقلت اننا سنذهب الى قصر عابدين في وقت العصر لنتلقى الجواب . أما سبب ذهابنا الى عابدين وليس الى الاسماعيلية فهو أن عابدين مقره الرسمي وكنا أردنا أن نتجنب ازعاج سيدات بيته . على اننا كنا قررنا الذهاب الى الاسماعيلية اذا امتنع الخديو من الحضور الى عابدين . فلما وصل الخطاب الى الخديو استدعى رياض باشا وخيري باشا وستون باشا الامريكي ثم ذهبوا أولا الى ثكنات عابدين حيث خاطب الخديو ورياض الجنود وأمرا علي فهمي أن يحتل قصر عابدين بجنوده . فوافق علي فهمي ووضع جنوده فى

الغرف العليا بحيث لا يراهم أحد وبحيث يستطيعون أن يطلقوا علينا النار من النوافذ. ولكنى لا أعرف هل زودا بخرطوش فيه رش أم لا. ثم ذهب الخديو والجنرالات الى القلعة وخاطبوا الجنود بالمعنى نفسه وطلبوا من فوده بك أن يساعد الخديو علينا وقد أنبه الخديو وهدده بان يضعه فى السجن ولكن الخديو خاف وترك القلعة ثم جاء الى العباسية بنصيحة رياض ليتكلم معى. ولكني كنت سرت بجنودى بطريق الحسينية الى عابدين فسألوا عن المدفعية فقيل لهم انها ذهبت هي الاخرى الى عابدين.

ولما عاد الخديو الي عابدين وجدنا معسكرين فى الميدان وكانت المدفعية والجنود الراكبة واقفة أمام الباب الغربي وكنت واقفاً بجنودى أمام الباب الكبير. وكنت قد أرسلت الى علي فهمي الذى علمت بوجوده وتكلمت معه فسحب جنوده من السراي ووقف بهم معنا. وقد دخل الخديو من الباب الشرقي ثم قدم علينا بقواده وأركان حربه ولكني لم أر كلفن معه وان لم يبعد انه كان هناك. ثم أمرني الخديو بالترجل فترجلت. وأمرنى أن أرفع سيفى فرفعته ولكن زملائي الضباط تقدموا معي خوف الخيانة وكانوا نحو خمسين ضابطا وقد وقف بعضهم بين الخديو وبين القصر فلما بلغت رسالتي وذكرت الطلبات الثلاثة قال «أنا خديو البلد وأعمل زي ما أنا عاوز» فقلت «ونحن لسنا عبيد ولا نورث بعد اليوم» فلم يقل شيئاً بعد ذلك ولكنه أدار ظهره وذهب الى السراي وبعد ذلك أرسلوا لي كوكسن مع مترجم فسألني «لماذا أطلب البرلمان مع اني جندى» فقلت «ليضع حداً لحكم الاستبداد وأشرت الى جماهير الشعب التي احتشدت خلف الجنود لتأييدنا فهددني قائلا «ولكننا سنحضر جيشاً بريطانياً. ثم دارت مناقشة طويلة بيننا. وقد عاد ست أو سبع مرات الى القصر وعاد الي مثلها حتى قال لي أخيراً ان الخديو وافق على كل شيء وانه ذكر حيدر باشا كخلف لرياض فلم أوافق على ذلك ولما سألني ان أذكر خلفه ذكرت شريف باشا الذي كان أعلن عن ميله الى مجلس النواب. وكنت قد تعرفت قليلا بشريف لما كان يخدم فى الجيش. وفى المساء نفسه أرسل الخديو يستدعيني الى قصر الاسماعيلية فشكرته على اجابة مطالبنا ولكنه قال «يكفي. اذهب الآن واحتل عابدين ولا تستصحب الجنود موسيقاها فى الشوارع.»

الى هنا تنتهى رواية عرابى وهي متفقة فى كل شيء مع المعلومات التى وقفت عليها من أوثق المصادر المصرية فيما يختص بحوادث ذلك اليوم بل هي متفقة على العموم مع الكتب الزرق . ولم يكن الدور الذى قام به الخديو فيها ينطوي على شيء من البطولة ولكنها كانت فى الحقيقة مسألة جبن مادي أكثر مما ترينا الروايات الانجليزية الرسمية . وكان الخديو يعرف أن لاخطر عليه من الجنود وهم لم يطلبوا اليه شيئاً لم يكن موافقاً عليه أو كان يتعذر عليه أن يعد بقضائه . ولكنه كان يتردد بين الطرفين بنية الانضمام الي الفائز وكان مسلكه هذا من الغموض بحيث لم يفهمه كالفن ولا كوكسن .

أما هذان الانجليزيان اللذان ذكرهما عرابى فأولهما السير شارلس كوكسن القنصل البريطانى فى الاسكندرية والقائم بأعمال الوكالة البريطانية أثناء غيبة ماليت باجازة في القاهرة . وثانيهما السير أوكلاند كالفن المراقب المالى البريطانى . وكان تمثيل الهيئات الرسمية الاجنبية فى مصر يكاد يكون محصوراً فيهما لان الوكيل الفرنسى الجديد المسيو دى سكوكز لم يكن قد وصل الى مصر بعد وكان المسيو دى بلينجير زميل السير كالفن في المراقبة غائباً أيضا . لذلك كان عليهما عبء النصح للخديو وارسال التقارير للحكومة البريطانيـة . وكان كالفن يميل الى أخذ الامور بالشدة والعنف لسببين أحدهما انه كان قبل ذلك موظفاً فى حكومة الهند ولم يكن يعرف من وسائل تدبير الامور الا التقاليد المرعية في تلك الحكومة وهي تقاليد العنف . وثانيهما انه كان يجهل شبه التفاهم الموجود بين الخديو والضباط . لذلك نصح للخديو بأن يلجأ الى وسائل العنف التى كان يمكن أن يلجأ اليها محمد علي الكبير مع أمثال هؤلاء الضباط قبل ذلك بستين عاماً ولكنها لم تكن مما يلائم الظروف الحاضرة وكانت نصيحته تنحصر فى أن يطلق الخديو بيده مسدساً على عرابي بعد محادثة قصيرة . أما كوكسن الذى كان أدرى منه بضعف توفيق فقد نصح مع جهله بسبق الاتفاق القائم بين الخديو والضباط بالاتفاق واقترح الحل الذى كان يريده الخديو منذ زمن بعيد وهو اقالة رياض باشا وتعيين شريف . ولقد يستفيد الانسان من قراءة مارواه عن هذه الاحوال فى الكتب الرسمية الزرق كما يستفيد من قراءة

رواية كلفن للحوادث ذاتها فى جريدة « التيمس » وفى « البال مال غازيت » التي كان هو مراسلا لها فى مصر . وكانت نتيجة اعلان رأيهما أن أثنت عليهما الحكومة البريطانية وأنعمت على كلفن برتبة « سير » ووضعته فى مركز سياسي لم يكن له قبل ذلك فى مصر وعلى ذلك انتهت الحال . فان رياض الذى اتعظ بما جرى لنوبار وعثمان رفقى فلم يشترك فى مناقشة الضباط بل بقى فى القصر حتي أقيل فى ذلك المساء من الوزارة وسافر الى الاسكندرية ومنها الى أوربا ليبقى حتي يأتيه العون من الدول الحامية وحل محله في رئاسة الوزارة شريف باشا بعد أن أظهر شيئاً من المعارضة والنفور . وقد استيقظت مصر فى صباح اليوم التالى لتعرف ان المسألة لم تكن مسألة عصيان فقط بل كانت ثورة أيضا وأنه قد وضع حد للحكم الاستبدادي الذى طال عليه الزمن . وقد وعد الخديو أن يجمع الاعيان ويمنح الدستور وأن تحكم بلاد الفراعنة والمماليك والباشوات الترك من الآن فصاعدا على مقتضى قوانين الحق والعدل لا بواسطة الاجانب ولكن بواسطة نواب الشعب المصرى أنفسهم .

وكانت الاشهر الثلاثة التي عقبت هذه الحادثة الشهيرة من أسعد الاوقات التى مرت بمصر من الوجهة السياسية . ويسرني أن حظيت بمشاهدتها بعيني رأسي . ولو اني كنت سمعت بها سماعا لشككت فيها وعندى انها لم يكن لها شبيه فى الايام التى رأيتها فى مصر وأخشى أن تكون مقطوعة النظير فى الايام التى يمكن أن أراها فيها . فجميع الاحزاب الوطنيه وجميع سكان القاهرة اتحدوا لتحقيق الفكرة الوطنية وشاركهم الخديو فى ذلك على ماظهر يومئذ للناس . وكان قد سر بعد انقضاء الازمة بنجاح دسيسته ضد رياض والمراقبة الثنائية البغيضة . وقد وثق بان شريفاً لا بد أن يخلصه عاجلا أو آجلا من عرابي . ثم أن شريفاً وزملاءه من وجهاء الاتراك لم يكونوا كذلك أقل سروراً بعودة السيطرة اليهم بل ان الاتراك الرجعيين أنفسهم قد سروا بما سموه انتصارا على أوربا . ونجا العسكريون من كابوس الخطر الذى طالما هددهم وارتاح المصلحون المدنيون للحريات التى اعتقدوا اليوم أنهم لا بد حاصلون عليها . اما الذين شكوا وأساءوا الظن للنهاية . فقد اعترفوا

كذلك بأن النتائج قد بررت الالتجاء للقوة وما كان لها من نصر لم تسفك فيه نقطة دم . وتصاعدت من انحاء مصر صيحة فرح وسرور لم يسمع مثلها على جوانب النيل منذ مئات السنين . وقد حدث فعلا أن الناس كان يستوقف بعضهم بعضاً في شوارع مصر ويتعانقون على غير تعارف سابق ويبتهجون معاً لعصر الحرية المدهش الذى بدا لهم فجأة كما يبدو الفجر بعد ليل مخيف طويل. وكانت الصحف قد أسرعت بنشر الانباء السارة وقد حررتها رقابة الشيخ محمد عبده المستنيرة من قيودها السابقة واستطاع الناس أن يجتمعوا ويتكلموا بلا خوف أينما شاءوا فى الاقاليم وبلا وجل من تدخل البوليس والجواسيس . وقد سرت عدوى السرور الى كل الطبقات فالمسلمون والمسيحيون واليهود قد سروا جميعاً وشاطرهم السرور جماعة الاوربيين الذين كانت لهم صلات وثيقة بالحياة الوطنية . وقد اعترف القناصل الاجنبيون أنفسهم بأن العصر الجديد خير من العصر القديم وان رياضاً قد أخطأ وان أعمال عرابي إذا لم تكن كلها سديدة فليست كلها خطأ .

وكان المسلك الذي سلكه عرابى نحو الخديو والوزراء الجدد مسلكا صحيحاً نبيلا . وقد اجتمع عدة مرات بالخديو فكانت خطته ودية كما أنه أظهر لشريف باشا ومحمود سامي الذى عاد فتقلد وزارة الحرب أنه وقد تم عمله يريد أن ينتحي جانباً ويترك أمر ترقيته واعانه لاصدقائه المدنيين وكل الخطب التى القاها في ذلك العهد — وبعضها مدون فى الكتب الزرق — مشبعة بهذا المعنى الحكيم وتم علي تشبعه هو نفسه باسمي الآراء الانسانية التى كانت من مقومات عمله السياسى. وليس فى هذه الخطب الا العطف الواسع المدى على جميع المذاهب والطبقات ولا يمكن أن تجد فيها أثراً للسخط على المراقبة المالية الاوربية التى كان عرابي فى مقدمة المعترفين بفوائدها وكان المعني السائد على خطبه هو أن الحكم التركي المطلق القديم قد انتهي وابتدأ عصر جديد من الحرية الاهلية والسلام وحسن النية المتبادل بين جميع الناس.

ولم يمض أسبوعان اثنان على تقلد وزارة شريف أزمة الحكم حتي سار عرابى — يوم ٢ اكتوبر — في طليعة فرقته الى رأس الوادي بين هتاف سكان العاصمة المعترفين له بالجميل .

وأخيراً تكلمنا فى علاقة مصر بكل من فرنسا وانجلترا فاعترف عرابى هنا بالخير الذى أصابته مصر اذ تحررت من اسماعيل وانتظمت ماليتها ولكنه قال انه لا يجوز لهاتين الدولتين أن تحولا دون تجدد مصر الاهلى بتأييد حكم الخديو المطلق والباشوات الجراكسة ضد المصريين وكان يتوقع عطف انجلترا على جهاده للحرية أكثر مما يتوقع العطف من جانب فرنسا واكثر ما كان يتوقعه من العطف كان من ناحية المستر غلادستون الذي أظهر صداقته للحرية فى كل مكان ، قال هذا ردا على الشرح الذى أبديته له على آراء غلادستون ولكنه كان يشاطر كل أهل القاهرة قلة الثقة فى ماليت وقد بذلت كل جهدى لاريح خاطره من هذه الناحية ثم افترقنا . وكان لهذا اللقاء الاول من حسن الاثر على رأيى في الضابط الفلاح ما حملنى علي الذهاب فى الحال لصديقى الشيخ محمد عبده لافضي اليه بحقيقة هذا التأثير ثم اقترحت وضع برنامج بما أخبرني عرابي به وأن أتولى ارساله الى غلادستون اذ لم يخالجني شك فى عطفه علي الاماني الوطنية متى عرفها على حقيقتها من مصدر موثوق به . وقد خاطبت ماليت في هذا الشأن فقال ان مثل هذا العمل قد يعود بشيء من الفائدة ومن ثم وضعت أنا والشيخ محمد عبده وآخرون وصابونجي منشوراً يتضمن آراء الحزب الوطنى بكل دقة . وقد أخذ الشيخ محمد عبده هذا المنشور الى محمود سامى الذى كان وزير الحرب وضمن موافقته عليه وكذلك أطلع عرابى على المنشور ووافق عليه . ولما تم هذا قدمت المنشور بعلم ماليت وموافقته الى غلادستون شارحا له الموقف كله طالبا عطفه على حركة متفقة كل الاتفاق مع مبادئه المعروفة وختمت خطابى قائلا : « لا أستطيع أن أفهم أن حكومة الاحرار البريطانية يمكن أن تأسف علي هذا الشعور أو تقضي على مثل هذه الاعمال . وفي الطاقة أن يحسن توجيهها وأظن أن محبي تقدم العرب لا يسعهم الا أن يهنئوا أنفسهم على شواهد الحياة السياسية الغربية وغير المتوقعة التي ظهرت فى بلاد اعتبرت أقل مناطق الشرق الراكد تفكيراً وأذكر ياسيدي انك قلت لى مرة أن أمم الشرق لا تستطيع أن تحيي نفسها الا بتجديد ارادتها الاهلية المفقودة فانظر الى هذه

الارادة الاهليـة الناشئة في مصر والتى تبـذل جهدها لتجد أقوالا تقنع أوربا بوجودها .

وبينما أرسلت « برنامج الحزب الوطنى » هذا الي غلادستون أرسلته فى الوقت نفسه الي جريدة التيمس بناء على اشارة السير وليام جريجورى . ولـكن ماليت لم يوافق علي هذه الخطة لاعتقاده انها تعقد الامور في الاستانة. وهي فكرة رسخت بقوة فى عقله السياسي الرسمي ولكن جريجورى أصر على وجوب نشره والا وضع على الرف فى « دوننج ستريت » وغض عنـه النظر فوافقت على ذلك . وكان جريجورى صديقا شخصياً لشنرى رئيس تحرير التيمس الذى خدم القضية الوطنية المصرية فى وقته أعظم الخدمات . وكان شنرى رجلا واسع العقل اذ يفكر فى الشؤون الشرقية وكان على جانب عظيم من العلم باللغه العربية وقد ترجم ونشر قطعاً شائقة من مقامات الحريرى ومن ثم كان واسع النظر فى المسألة المصرية فلم يرها كغيرها من الصحفيين مسألة لا تعني غير بورصة لندن على الرغم من أنه كان هو نفسه من حمـلة أسهم الدين المصرى . ومن ثم عني عناية كبيرة بنشر خطـابات جريجورى كما أنه نشر لى خطابات كثيرة كتبتها اليه في بضعة الاشهر التالية واستمر ينشر لى كل ما أرسله في تأييد الحركة الوطنية حتى بعـد أن وقعت الحرب . وقد تجاوز شنرى كل حد فى الانتصار للحركة المصرية حيث كتب أن عرابي نفسه هو الذى أرسل اليه البرنامج ولكن هذا التجاوز مكن ماليت الذى كان واقفا على الحقيقة من أن يعلن بواسطة شركة روتر أن الوثيقة التي نشرتها التيمس ليست حقيقية .

ويحسن بى هنا أن أشرح الطريقة التى احتكرت بها الصحف البريطانيـة ولا سيما شركة روتر بصفة رسمية فى القاهرة وجعلت خادمة لدسائس السياسة . لم يكن للصحف البريطانية مراسـلون معينون في القاهرة الا التيمس واليال مال غازيت . وكانت هاتان الجريدتان فيما يختص بالسياسة فى يد السر أوكلند كلفن المراقب البريطانى المالى . وهو موظف هندي داهية مشبع العقل باساليب السياسة الهندية . وله تجاريب صحفية مذ كان متصلا بجريدة « بونير » وهي جريدة انكليزية هندية

شديدة فى استعماريتها ، وكان السير كالفن مراسلها في مصر . وكان ايضاً مراسل مورلى رئيس تحرير البال مال غازيت وكان واثقاً من اصغاء الحكومة اليه من هذه الناحية . وستظهر قيمة هذه العلاقة غير العلنية فيما بعد حين يأتي الكلام على المجهود الذى بذله لتحقيق التدخل الانجليزى . وكان كذلك أخيراً يوحي الي التيمس بآرائه بواسطة مراسلها سكوت الذي كان يعتمد عليه فى استقاء المعلومات أما وكالتا روتر وهافاس فكانتا واقعتين تماماً تحت نفوذ المراقبة الثنائية التى كانت تعطي كلا منهما الف جنيه فى العام من الميزانية المصرية الفقيرة . وكانت وكالة روتر بصفة خاصة لسان الوكالة الانجليزية وخادمتها وكانت التلغرافات التى ترسلها الي لندن لاترسل الا بعد مراقبة ماليت .

ويجب أن أشير الى أن احتكار مصادرة الانباء العامة لمصلحة السياسة البريطانية لم يكن مقصوراً على القاهرة ولكنه كان موجوداً في جميع العواصم التي لنا فيها وكلاء سياسيون وأن هذا أسلوب قوي من أساليب تضليل الرأى البريطانى العام . ولا تقوم السيطرة على تلك المصادرة عادة بدفع مبالغ معينة ولكن باعطاء المعلومات السرية الثمينة والامتيازات الاجتماعية الواسعة وكانت السيطرة على الصحف البريطانية تامة فى السر الا فى الاوقات التى كانت تحول فيها كثرة المراسلين وامكان السيطرة عليهم جميعاً ولكن هذا لم يحدث الا فى الاوقات الخطيرة . أما فى الاحوال العادية فقد كانت لموظفينا السيطرة العامة على الاخبار التي يجوز أو لايجوز ارسالها الى لندن والاخبار التي تنشر أو لاتنشر فى مصر من أخبار لندن . ويجب على المؤرخين أن يذكروا دائماً هذه الحقيقة حين يرجعون الى أشهر الصحف ليستقوا منها معلومات عن حوادث تلك السنين .

واذا استثنينا هذا الخلاف البسيط مع ماليت أمكن القول بأن علاقتي به بقيت الي آخر سنة ١٨٨١ . ودية وقد أسر الى شكوكه ومتاعبه وقلقه فيما يختص بالسير على ماتضمره وزارة الخارجية من الخطط وخوفه من أن يأتى فى أبان أزمة بعمل لايجوز الموافقة الرسمية . وقد قرر لى أنه يعطف كل العطف على الامانى الاهلية وأظنه كان فى الحقيقة كذلك واعتمد علي كرجل قادر فى كل حال على وقايته من كل صعوبة

عنيفة حتى يأتيه قرار دونتج ستريت بالسياسة التى يتبعها . وقد دونت فى مذكراتي انه هو والسير اوكلند كلفن الذى كنت قد صادقته والذى لم يكن أقل عطفاً على الوطنيين من ماليت طلبا مني يوم ١٩ ديسمبر أن أساعدهما في حل صعوبة ربط ميزانية الجيش .

كان الوقت وقت ربط الميزانية وقد طلب محمود سامي وزير الحرب لوزارته مبلغ ٠٠٠ ر ٦٠٠ جنيه . ولست أذكر الآن مقدار الزيادة فى هذا المبلغ عن المبلغ الذى ربط لوزارة الحرب سنة ١٨٨١ .

ولم يكن على أفق السياسة المصرية في ذلك الحين الا غيمة واحدة هي مايحتمل من عداء سلطان تركيا لفكرة الدستور وكان عبد الحميد بعد أن داعب هذه الفكرة وقتاً فى الاستانة قد برهن على انه ألد عدو للدستور ، اذ كان في ذلك الصيف بالذات قد أمر بتمثيل مهزلة محاكمة مدحت والحكم عليه وقد كان مدحت أعظم أنصار الدستور فى تلك البلاد . ومن ثم قلق الناس حين حضرت في أوائل اكتوبر الى القاهرة لجنة خاصة من قبل السلطان لتحقيق ما حدث فى مصر ولا سيما مع مبادرة عرابى بالذهاب الي رأس الوادى وتعجيل عبدالعال بالذهاب الى دمياط. علي أن زيارة اللجنة انتهت بسلام واستطاع الوزراء أن يقنعوها بأن الحركة الاهلية التى لم يبق شك فى أنها حركة وطنية لا تنطوى على شيء من قلة الولاء للسلطان.

وكان مصير تونس قد القى فى روع المصريين أن توثق الرابطة بينهم وبين الامبراطورية العثمانية هوعصمتهم الوحيدة من عدوان أوربا وقد اعتقدوا ان الغرض من الثورة لم يكن الا منع المراقبة الثنائية من الاعتداء على استقلالهم . ومن ثم حسنت نية الجميع وساد الرضاء والقنوع . واستطاع على نظامي باشا رئيس اللجنة أن يحمل معه تقريراً طيباً عن الحالة وقد أيده فى ذلك العضو الذي يليه فى اللجنة — احمد باشا راتب . وكان هذا قد تحادث مع عرابي شخصياً في رأس الوادي وهو ذاهب الي السويس فى طريقه الى مكة .

وقد حدث هذا اللقاء الذى كان له فيما بعد أهمية بالنسبة للحالة السياسية فى القطار بين الزقازيق والتل الكبير وقد أكد لي عرابي أنه حدث اتفاقا حين كان

عائداً الي رأس الوادى بعد زيارة صديقه احمد افندى الشمسي وسليمان باشا أباظه في الزقازيق . قال:« كنت عائداً بقطار رأس الوادي فاتفق ان احمد راتب باشا كان فى هذا القطار ذاهباً الى السويس حيث كان قاصداً الي مكة لاداء فريضة الحج . وقد وجدت نفسي فى المركبة التى كان فيها وتبادلنا التحية كغريبين وذكرت له اسمي وذكر لى اسمه وانتواءه الحج ومسائل أخري . ولكنه لم يخبرني عن اللجنة ولا سألته عنها . علي أنى أخبرته بأنى موال للسلطان باعتباره رئيسنا الديني ثم ذكرت له كل ما حدث فقال لى « لقد أحسنت صنعاً » ثم تركته في رأس الوادى . وقد أرسل لى مصحفاً شريفاً من جدة ولما عاد الى الاستانة كتب الى بانه أحسن الشهادة في حقي للسلطان ثم تناولت بعد ذلك الخطاب الذى أملاه السلطان على الشيخ محمد ظافر والذى يحتوى علي الامور التي نعرفها » وعلي هذا انقضت مهمة اللجنة العثمانية بغير أن تحدث اضطرابا أو متاعب . وقد اتفق أن وصل معها الى ميناء الاسكندرية مدفعيتان بحريتان احداهما فرنسية والثانية بريطانية وكانت حكومتا انجلترا وفرنسا أرسلتهما حين اتصل بهما نبأ المظاهرة العسكرية فى عابدين. ثم أبحرت المدفعيتان في نفس اليوم الذي سافرت فيه اللجنة من شهر اكتوبر. وكان ماليت قد عاد في هذه الاثناء الى مقر وظيفته وكذلك كان سنكوكز المعتمد الفرنسي قد حضر واتفق الاثنان على أن الحالة ليست فى حاجة الى تدخل من قبلهما . وقد أحسن ماليت الشهادة أمام حكومته يومئذ فى حق الوزراء الجدد وعرابى الذي بدأ ماليت يعتقد الآن أمانته وصدق وطنيته .

وقد عدت الى القاهرة فى أوائل نوفمبر حين كانت الحال كما وصفت ولم تكن قد وصلت الي أنباء جديدة من أصحابي الازهريين ولم أعرف مما حدث فى أثناء ذلك الصنف غير ما كان يعرفه الناس جميعاً ولا كنت أقصد الى اكثر من بور قناة السويس فى طريقي الى بلاد العرب حيث كنت قررت الذهاب اليها في الشتاء. وكان اهتمامي قد اشتد بالازمة التى أخذ العالم الاسلامي يقطعها كما كنت على أمل من أن أقوم أنا بنفسي بدور فى الحوادث المهمة — التى كنت أتوقعها وان لم أكن أعرف ماهيتها فيما عدا أنها سوف تساعد على تحرير العرب والاسلام . وكنت لما

ثارت الجزائر بسبب اعتداء فرنسا علي تونس كتبت الى صاحبي السيد محمد عبد القادر فى دمشق أطلب منه خطابا يقدمنى فيه لزعيم الثورة « أبى عمامة » ولكنه لم يستطع ذلك . ثم ذهبت عبثاً كل الجهود التي بذلتها لمعرفة مقر السيد جمال الدين الافغانى في أمريكا حيث قيل لى انه ذهب اليها بعد أن قضى عامين متجولا فى الهند واتجهت أفكارى الآن الى جزيرة العرب التى بدأت أنظر اليها كأرض مقدسة واعتبرها مهد الحرية الشرقية ومهبط الدين الصحيح . ومن الغريب أني لم انتبه الى ان هدف اهتمامي بالاسلام ماثل بجانبي فى الثورة المصرية . وأني لم أعقد النية على القيام بأى دور فيها — ولو كان دور المشاهدة — إلا بتأثير حادث عرضي.

ولعل السبب فى عدم اهتمامي يرجع الى أن الصحف البريطانية صبغن ما وقع في مصر من الحوادث اثناء الصيف بصبغة عسكرية فلم يدرك أحد مغزى تلك الحوادث حتي ولا وزارة الخارجية وقد كنت اشاطر أنصار الحرية ومحبيها قلة الثقة برجال العسكريةواعتقد انهم لا ينتصرون الا للظلم فلم استطع أن أصدق حتى ولا كما صدق ماليت أن عرابي أمين القصد فيما فعل . ثم أني كنت أعلم أن الشيخ محمدعبده وغيره من اصدقائي الازهريين الذين لايميلون الي استخدام القوة وأن تنفيذ الاصلاحات يستغرق فيما يعتقدون وقتاً طويلا وقد ظننت أنه من المستحيل أن تنجح حوادث ذلك الصيف وحدها فى تحقيق تلك الاصلاحات أما عن الدستور الموعود فقد ذكرت الصحف البريطانية انه كلام فى كلام لايعدو أن يكون دعوى كتلك التى استخدمها اسمعيل ضد رفرز ولسن . وقلن أن ماليت اعلن بان هذا الدستور سيبقي مجرد وعدلان السلطان الذى اجتمع به فى الاستانة اثناء عودته الى مصر لا يمكن أن يسمح بتحقيقه .

ومما زاد فى ارتيابي وجود لجنة التحقيق العثمانية ـ ذلك بمطالبة عرابي بزيادة قوة الجيش ليكون ١٨٫٠٠٠ وهذه هي الاراء التي كانت شائعة يومئذ فى لندن ولم تكن لدى أنباء خاصة تصحيحها . واذكر أني حين مررت قبل مبارحة لندن بوقت قصير بابن عمي فيليب كرى فى وزارة الخارجية دهشت حين قال ربما كان فى الحركة الوطنية المصرية أكثر مما تدل عليه الظواهر وقد قال لى حينئذ أن ماليت

أصبح ميالا الي اعتقاد ذلك . ثم أظهر تعجبه من عدم ذهابي الى مصر وقال لى انى وجدت فى بلاد العرب الآن الرجل الذى ابحث عنه . وكان فيليب يعرف بطبيعة الحال آرائي التي لم يأخذها قط بصفة جدية ولم يعتقد انها أكثر من خيالات روائية. وقد قال لي ما قال بلهجة مزاح فضحكنا ولم نتناقش فى المسألة . ولكنى ذكرت بعد ذلك أقواله ودهشت من قلة تأثرى بها ولكن الحقيقة هي أن أفكاري كانت موجهة الى ناحية أخرى .

ومما يستحق الذكر أنى دعوت في عشية يوم سفرى الى غداء في نادي السياح ثلاثة من أصدقائي الحميمين هم جون مورلي الذى كان قد عين حديثاً رئيساً لتحرير « البال مال غازيت » فضلا عن قيامه برئاسة تحرير « الفورتنيتلى رفيو » والسير الفريد لايال قنصلنا في جدة . وزهراب .

وقد تكلمت مع هؤلاء طويلا فى الشئون الشرقية واتفقت مع مورلى على أن أخبره اذا عثرت على بطل الاصلاح الشرقي الذى أبحث عنه وأن يتولي هو عرض قضيته باحسن ما يستطيع على الرأى العام البريطاني . ولم يكن مورلى قد دخل بعد فى البرلمان ولكنه كان ذا نفوذ كبير فى الحكومة لعلاقته بشمبرلن وكانت جريدة « البال مال غازيت » من الصحف القليلة التى يقرأها غلادستون بل الصحيفة الوحيدة التى يعتقد أن فى آرائها شيئاً من السداد ويوليها شيئاً من ثقته .

وقد كان عشاء ساراً وكنا متحمسين فى عطفنا علي الفرص التى يمكن أن تعرض للاسلام أما فيما يختص بمصر فمن سوء الحظ أن مورلى كان واقعاً تحت تأثير نفوذ غير نفوذى وقد كان مراسله « للبال مال غازيت » السير أوكلند كلفن عضو المراقبة الثنائية عن بريطانيا فلما وقعت الأزمة فى الربيع ظهر مورلي على غيرما كان ينتظر منه لو أن كلفن لم يكن مراسلا له . أما والحال كما كانت فقد كان فى جانب الرأى البريطاني الرسمي ومن أقوى القائلين بوجوب استخدام أشد وسائل العنف لقمع الحرية .

وقد اتفقت لى أثناء عودتى الى مصر حادثة سأعود الى ذكرها حين يأتى السياق الذى تظهر فيه أهميتها . فقد وجدت فى محطة « شارنج كروس » بلندن

المستر ديلك وسكرتيره أوستن لى مسافرين مثلى الى باريس فقضيت السياحة كلها معهما . وكان ديلك منشرح الصدر طروبا فان صديقه الحميم « غمبتا » كان قدخلف فى ١٥ نوفمبر المسيو سانت هيلير في رئاسة الوزارة الفرنسية وكان ديلك عائداً الى باريس ليستأنف مفاوضة الحكومة الفرنسية فى تجديد المعاهدة التجارية المعقودة بينها وبين حكومة بريطانيا بعد أن تعذر عليه النجاح فى الستة الاشهر السابقة أما وقد تقلد غمبتا رئاسة الوزارة فقد كان ديلك واثقاً من النجاح . وكان لغمبتا مشروع خاص يستطيع أن يستفيد فيه بديلك الذى كان وكيلا لوزارة الخارجية البريطانية . وكان سانت هيلير قد أحدث ارتباكا كبيراً فى غزوة تونس وترك خلفه شمالي أفريقيا يضطرم ناراً . وكان غمبتا قد تقلد رئاسة الوزارة مصمما على استخدام الشدة والقبض على ناصية الحال وكان مملوءاً بالمخاوف من ثورة اسلامية ثم انه لم ير في الحركة الوطنية المصرية الا مظهراً من مظاهر التعصب الاسلامي وكان أصله الاسرائيلي قد جعله مرتبطاً بالمصالح الماليه فى مصر . وقد عقد النية علي أن يضيف الى اعتداء سانت هيلير على تونس التدخل بالقوة في مصر .

وقد أراد أن تنضم له الحكومة البريطانية في ذلك وتقوم الحكومتان بحرب صليبية باسم التمدين وان يبدأ فى ذلك بتقوية المراقبة الاوربية فى مصر . وقد حدثني ديلك طويلا عن مسألتي المعاهدة التجارية ومصر باعتبار الأولى مصلحة انجليزية والثانية مصلحة فرنسية . وكانت المسألة الأولى تتعلق بشرف حكومة الأحرار الحزبى فقد أرادت أن تقيم الحجة على انها إذا كانت تتمسك بحرية التجارة فلها ان تحمل الحكومات الاجنبية على معاملتها بالمثل .

وقد عرف ديلك أن نجاحه فى هذه المهمة وحمله الحكومة الفرنسيةعلى تجديد الامتيازات التجارية يعد فخراً عظيما له . وكان ديلك متحمساً الى حد انى لم يسعني عند الفراق إلا أن أخاطب نفسي بصوت مسموع قائلا . « انهذا الرجل يريد أن يبيع مصر لفرنسا بالمعاهدة التجارية » وقد أثبتت الحوادث أن الحقيقة لم تكن الا كذلك . وسيظهر فيما بعد كيف ان حرية مصر كلها كانت مرهونة بتخفيض لميل فى الضرائب التى تجبيها فرنسا على الصادرات الانجليزية . نعم بيعت حرية

مصر وفكرة الاصلاح في العالم الاسلامي كله وضحتها حكومة الاحرار الانجليزية بهذا الثمن الزهيد . ولـكن الكلام على هذا لم يحن بعد .

وقد أسلفت ان ذهابي الى القاهرة فى ذلك الشتاء كان اتفاقا وأحرى بي أن أقول بانه كان بتدبير العناية الالهية لولا انى أخشى أن أعير ما فعلته فى مصر معني عظيم السمو وأهميته كبيرة . وقد شحطت الباخرة التى حضر عليها خدمي وادوات معسكري فى قناة السويس بعد أن كادت تعرق فى خليج بسكاى فاضطررت الى الذهاب الي السويس ثم برحت هذه الى القاهرة حيث اعتزمت قضاء بضعة ايام . وكان قد شاع فى انجلترا أن مصلحي الازهر نبذوا فـكرة الاصلاح وانضموا الي السلطان فى آرائه الرجعية . واذ خالجني هذا الشك أرسلت أولى رسائلى الى أول أصدقائي من رجال تلك الجامعة وهو الشيخ محمد خليل وهنا حدث حادث غريب فبدلا من أن يأتي الى الشيـخ محمد خليل فى فندق النيل الذى نزلت فيه ورجوت منه أن يحضر لزيارتى جاءنى شيـخ آخر بالاسم نفسه . جاءنى الشيـخ محمد خليل الهجرسي وحياني تحية الغريب للغريب اذا كان احد منهما لم يرى الآخر من قبل . وكان هذا القادم الجديد قد استلم رسالتى فظن أنها من تاجر اوربى بينهوبينهمعاملة ترجع الى قريبه فى الشرقية وجاء معه الخادم الذى حمل الرسالة .ومعأنهذا الشيـخ كان أقل قيمة ذاتية من صاحبي الا انه كان ذا مركز هام فى الازهر .

ثم ظهر لى انه قد يكون أحرى باهتمامي من صاحبي فى ذلك الحين لتوثيق الصلة بينه وبين الحزب العسكرى فى القاهرة ولعلاقتهالشخصية بعرابي ولو لم يكن للشيخ محمد خليل صاحبي ولا رئيسه الشيخ محمد عبـده صلة من هـذا القبيل ولا كانا يستطيعان أن يفيدانى أقل فائدة من هذه الناحية بعد ان لم يوافقا على تداخل جماعة العسكريين في الشؤون السياسية فىسبتمبر وكانا لايزالانهما وسائر مصلحي الازهر مبتعدين عن العسـكريين على الرغم من فرحهم بنتيجة عملهم فلما أفاق الهجرسي من الذهول الذى استولى عليه حين وجدنى انجليزيا وعرف أنى لست بصاحبه التاجر لم يأنف مع ذلك ان يتحدث معي عن عرابى واعماله ولما افضيتاليه بارآئي الخاصة بالاصلاح الاسلامي على قاعدة عربية أسرع الى آراءه التى لم تـكن تختلف كثيراً عن

آرائي . وقد أخبرنى انه أحد شيوخ السادة الشافعية وان له علاقة متينة بجماعة الاصلاح الاحرار بمكة وكان هؤلاء يجيرون بمعارضتهم للسلطان عبد الحميد ويتطلعون الى خلافة عربية . وكانت هذه نقطة اتفاق بيننا فلم يمض وقت قصير حتى تبادلنا كل ما لدينا من الآراء . وعندى انه ليس أدل على حرية الرأى والقول التى سادت يومئذ فى مصر من ان الشيخ الذى لاشك فى انه كان يكتم هذه الاراء في صدره حتى عن أصدقائه قبل عام واحد قد اجابني بكل صدق وصراحة على أسئلتى وأفضى الي باشد امانيه خطراً على حين انى أوربي وغريب عنه . ولا شك ان بعض هذه الصراحة راجع الى أن أستاذى العلامة صابونجى الذى كان معي وكنت قد احضرته معي من لندن ليساعد ضعفى فى اللغة العربية .

من الهجرسى علمت أول مرة ما حصل فى مصر اثناء الصيف ومنه عرفت موقف العسكريين الحقيقى تجاه الحزب الوطني وهي حقائق ايدت صحتها عدة مصادر كما ايدها صاحبي الشيخ محمد خليل .

أما صابونجي الذى كانت له براعة خاصة في هذا الضرب من الاعمال فقد أخذ يطوف فى القاهرة من أدناها الي أقصاها ليجمع لي الاخبار حتى انه لم تمض بضعة أيام الا كنا قد عرفنا كل شيء تقريبـاً من مجريات الحال . كذلك لم يمض وقت قصير حتى تعرفنا الى بعض الضباط الفلاحين الذين اشتركوا مع عرابي فى المظاهرة وخصوصـاً عيد دياب وعلى فهمي اللذين كان لمعرفتى بهما وقع حسن فى نفسي وكانت الامور التى يدور عليها البحث فى ذلك الحين خلق الخديو وهل يفي أو لا يفى بوعده . لقد وعد بالدستور ولكن هل يكون هذا نزولا حقيقاً عن السلطة للوزراء مسئولين أمام مجلس الممثلين أو المسألة لن تخرج عن دعوة جماعة من الاعيان يكون لهم رأي استشارى ؛ ولم يكن الناس يثقون بتوفيق فى هذه النقطة بل كانوا يعتقدون أن ما ليت يغريه بأن يحنث بالوعد وكان هذا قد عاد حديثاً من الاستانة وأعلن أن السلطان لا يوافق على دستور حقيق .

ثم لو كانت الطبقات المستنيرة قد غضبت من الاسرة العلوية ولا سيما فرعها الذى ينتمي إليه توفيق وكانوا يذكرون ما أصابهم فى عهد اسماعيل وجده ابراهيم من

المظالم التى قضت عليهم أدبياً وخربتهم مالياً وجلبت عليهم نكبة التدخل الأجنبي.
وقد بدأت الصحافة بعد أن تحررت من قيودها توجه المطاعن تلو المطاعن على اجحاف نظام الضرائب الذى وضعته المراقبة الأوربية فاعفت الأوربيين وألقت العبء كله على كاهل الوطنيين كما انها أنحت بأشد اللائمة على كثرة تعيين الفرنسيين والانجليز فى الوظائف التى لا لزوم لها والتى تدفع فيها مرتبات باهظة كما أنحت على سيطرة هؤلاء الأجانب علي مصلحة السكك الحديدية والأراضي التى يقوم على ادارتها مندوبو بنك روتشلد وعلى فضيحة التسعة آلاف جنيه التى كانت تدفع لجوقة الأوبرا الأجنبية على الرغم من فقر البلاد .

وكانت جريدة «الطيف» التى كان يحررها رجل حاد نابغ هو «عبدالله النديم» تحمل حملة شديدة على الترخيص بادارة المواخير والحانات والمراقص والمغاني التي هجمت على القاهرة تحت حماية الامتيازات الأجنبية فاستاء منها كل مسلم تقى وكان في مصر صدى لاعتداء فرنسا على تونس واشتد النفور مما اتصل بالمصريين من استباحة الفرنسيين حرم المساجد واعتدائهم على النساء . ومع ذلك كانت العلاقة بين مسلمى مصر وقبطها ودية للغاية . وكان الاقباط على العموم فى جانب الوزارة وكانت العلاقات بين البطريرك والوزارة التي كان بطرس غالى أحد كبار أعضائها ودية جداً وكذلك كان اليهود والوطنيون بزعامة الرباعي يطلبون الحكم الدستوري. وكان أهم ما يعنى به الضباط يومئذ مسألة زيادة الجيش التي قالوا بأنها واجبة الآن بعد اعتداء فرنسا على تونس حيث لم يكن الباى علي استعداد عسكرى كاف للدفاع عن بلاده وكانت الفرمانات تخول مصر أن تؤلف جيشاً من ١٨٠٠٠ جندي وقد طلب الضباط أن تكون القوة كاملة .

وقد حدث أول تدخل فعلى من جانبي مع الوطنيين على الوجه الآتي : أخبرنى الشيخ محمد الهجرسى ان بين طلبة مذهبي الشافعي والمالكي هياجاً يراد به التخلص من شيخ الاسلام أو بعبارة أخرى شيخ الجامع الشيخ محمد العباسى الذى كان حنفياً . وقيل لى ان السبب فى ذلك عائد الى قلة الثقة فى ان يفتى هذا الشيخ فتوى فى مصلحة النظام الدستورى. فاذا لم يفت وجرى فى ذلك على رغبة الخديوي الذى

عينه استطاع الخديوى ان يجد عذراً للحنث بوعده . وقد كان المذهب الحنفى المذهب الرسمي في مصر وكذلك كان مذهب الولاة الترك من عهد السلطان سليم وكانت الحكومة تختار شيخاً حنفياً لرئاسة الجامع الازهر ولكن الغالبية العظمي من الطلبة الذى كان يبلغ عددهم ١٥٫٠٠٠ كانت دائماً من اتباع المذهبين الآخرين وقد أراد الطلبة الآن اتباعاً لتقاليد ثورة اليوم أن يعودوا الى طريق تعيين الرئيس الديني الاعلى القديمة وهي طريقة الانتخاب . وقال لى المهجرسى انه جاء ليستشيرنى فى الموضوع لانهم يعتقدون ان ما ليت يؤيد الخديوى فى تأييده الشيخ محمد العباسي وفي سعى الخديوى للتخلص من وعده بالدستور وقد ظن ان فى استطاعتى أن أزيل الصعوبات اذا استخدمت نفوذى عند ما ليت . وقد وافقت على ذلك فى الحال فاتضح لى ان ماليت يجهل كل الجهل المسألة كلها وانه لا يريد تدخلا فى مصلحة أى طرف من طرفى هذا النزاع الدينى . وفى ٥ ديسمبر خلع العباسي من وظيفته بقرار أغلبية الطلبة وعين الشيخ الامبابي خلفاً له . ولم يكن الشيخ الامبابى أشهر المشايخ وأحبهم لدى الطلبة الذين كانوا يميلون فى الحقيقة الى الشيخ عليش المالكي وهو رجل ذو شجاعة كبيرة ونفوذ دينى عظيم وقد لعب دوراً هاما فى الحرب التى وقعت بعد ذلك ومات في السجن خلال أشهر الاحتلال الاوربي . والمفهوم انه مات مسموما كما اتضح من الشهادات الصريحة التى ألقيت فى محاكمة عرابي . وكان اختيار الانبابي نتيجة رفض الخديوي تعيين الشيخ عليش . وقد صوت أربعة آلاف من طلبة الازهر فى هذه الفرصة فكانت عدة الذين لم ينتخبوا الشيخ عليش منهم خمسة وعشرين . وكان من شأن الخدمة الصغيرة التى أديتها لهم أن وثق الشيوخ الوطنيون بحسن نيتى نحوهم وقدرتى على مساعدتهم ومن ثم طلبوا الى أن أؤجل سفرى أو أنتظر ريثما أراهم يخلصون من مصاعبهم فأجبت طلبهم فى الحال وقد رأيت أن العمل الذي يطلبونه منى هو نفس العمل الذى أسعي اليه وأرغب فيه فضلا عن استطاعتى أن أؤدى خدمة حقيقية فيه بالاعراب عن مطالبهم لحقة المشروعة الى ماليت هنا وغلادستون فى انجلترا .

وكنت أجتمع بماليت يومياً تقريباً خلال بضعة الاسابيع التالية وصار لى نفوذ

كبير لديه . وقد وجدته قليل العلم بحقيقة أغراضهم علي الرغم من أنه لم يكن مجرداً من العطف عليهم . ولم يكن يعرف شخصيا من زعماء المصلحين غير شريف باشا فكان يعتمد في توجيه الحالة الى مايستصوب كل من شريف والخديوى أن يخبراه به . أما من حيث الحوادث اليومية فلم يكن يعتمد فى العلم بها الا على مترجمه اليوناني ارانجي الذى كان يلتقط الانباء من قهوات الاحياء الاوربية . ومن ثم لم يكن لديه الا قليل من الوسائل التى يستطيع أن يعرف بها حقيقة الموقف ، ولم يكن زميله القنصل الفرنسى الجديد « سنكوكز » أفضل منه من حيث وسائل الاستخبار . وكان ماليت كذلك فى حيرة من أمر مقاصد الحكومة البريطانية الحقيقية . وكان لورد غرانفيل قد أرسل اليه حديثا تلغرافه المشهور في ٤ نوفمبر وهو التلغراف الذى ذكر فيه بابهام وغموض عطف حكومة جلالة الملكة على الاصلاحات فى مصر .

ولكن هذا التلغراف كان واسع مدى التأويل ولم يكن فيه شيء خاص يرشد ماليت الى الوجهة التى يتجه اليها اذا قام شجار جديد بين الخديوى والمصلحين أو بينهم جميعا وبين المراقبين الماليين . وكان كذلك فى شك من رأى المستر غلادستون فى مسألة الدستور . لذلك كان من دواعى ارتياحه أن يجد رجلا مثلى ذا سياسة معينة وقد كانت سياستى واضحة فى وجوب مساعدة الوطنيين .

وقد استطعت أن أؤكد له بأن غلادستون نفسه سيكون فى جانب الدستور متى وقف على الحقيقة . وقد أيدنى فى ذلك عند ماليت أصدقاء بريطانيون كانوا يسيحون حينئذ فى مصر واستطعت أن أقنعهم بآرائي .

كان أشهر هؤلاء الاصدقاء عضوا برلمان سابقان أحدهما لورد هاوتون الذي كان فى أوائل أيامه مدافعاً متحمساً عن حرية الشرق والسير وليام جريجورى أحد أتباع غلادستون القدماء وعضو من الاحرار المعروفين ولم ينتصف شهر ديسمبر حتى كنت قد استطعت أن أضم الى رأيي أكثر البريطانيين الموجودين فى مصر حتى إن السير أوكلاند كلفن المراقب البريطاني الذي كان قد نصح للخديو قبل ذلك بثلاثة أشهر بأن يطلق النار بيده علي عرابى اعترف بأنه تحول عن رأيه إلى رأيي وأصبح ميالا لعقد الصلح مع الثورة .

الفصل الثامن

﴿ سياسة غمبتا — المذكرة المشتركة ﴾

كان عرابى قد احتفظ بعزلته فى رأس الوادى وهي نقطة عسكرية قريبة من التل الكبير الى ذلك الحين ولكنه حضر الي القاهرة فى ٦ ديسمبر ورأيته شخصياً أول مرة فى ١٢ منه . وقد استأجر منزلا بجانب منزل صديقه على فهمي الذى كان معه الآن قلباً وقالباً . وكان هذا المنزل قريباً من ثكنات عابدين . وقد ذهبت اليه مع عيد دياب وصابونجي بعد أن اتفقت معه علي المقابلة بواسطة أصدقائنا المشتركين . وكان عرابى يومئذ في قمة شهرته إذ كانوا يطلقون عليه فى طول مصر وعرضها لقب « الواحد » وكان الناس يتسابقون من جميع أنحاء القاهرة ليبثوه شكاويهم . وكانت غرفته الخارجيه بل كان الشارع الموصل الى المنزل يمتلىء كل يوم بجماعة الشاكين . وكان قد اتصل به نبأ عطفى على الحركة ورغبتى فى مساعدة الفلاح فاستقبلنى باسمى مظاهر المودة لهذا السبب وللصلة التي تربط أسرتى باللورد بيرون الذي قد كان عرابى وإن لم يعرف شيئاً من شعره يمجده لدفاعه عن حرية اليونانيين . وقد عنيت بذكر هذه النقطة لدلالتها علي عطف عرابى على الانسانية كلها وعدم تفريقه في ذلك بين الاجناس والأديان وقد كان عرابي مجرداً من التعصب اذا كان معني التعصب الكراهية الدينية وكان أبداً مستعداً لعقد الخناصر مع المسيحيين واليهود وحتى مع المشركين والكفرة للدفاع عن الحرية وان لم يؤثر استعداده هذا مثقال ذرة فى تقواه .

وقد تحدثت معه بصراحة تامة وبغير تحفظ في كل مسائل اليوم فوجدته صريحاً الى أبعد حدود الصراحة . وقد أعرب عن الولاء للخديو « فبقى محافظاً علي وعوده ولم يحاول أن يحول بين المصريين وبين حريتهم الموعودة » على انه كان ظاهراً أنه لم يكن يثق بالخديو وأنه كان يعتقد أن واجبه يقضى عليه بمراقبته مراقبة دقيقة لئلا ينحرف عن الجادة . وقد قلت فى خطاب كتبته للمستر غلادستون فى ٢٠ ديسمبر

بعد أن كان قد كثر اجتماعي بعرابي ومباحثتي معـه « إن الآراء التي يعرب عنها عرابي ليست مجرد ترديد للعبارات التي تستعملها أوربا الحديثة ولكنها آراء تعتمد علي العلم بالتاريخ وعلى تقاليد الافكار العربية الحرة الموروثة من أيام حرية الاسلام. انه يفهم الاسلام الواسع الذى وجد قبل محمد يفهم رابطة عبادة إله واحد التي تربط دينه بالاسرائيلية والمسيحية وليس لعرابي مطامع شخصية ولا شك في أن الجيش والبلاد مخلصان له كل الاخلاص ... أما عن مركزه الخاص فيتكلم بتواضع شديد. فهو يقول أنه ممثل الجيش لأن الظروف أرادت أن يثق الجيش به ولكن الجيش نفسه هو الذى مثل الأمة وهو حاميها ومرشدها حتى تستغني عن ارشاده . ويقول ان الجيش هو القوة الواقفة الآن بين مصر وحكامها الاتراك الذين لا يحجمون عن تجديد مظالم اسماعيل فى أى وقت إذا لاحت لهم فرصة ويقول أن المراقبة الاوربية تحول بصفة جزئية بين أولئك الحكام وما يريدون ولكنها لا تؤهل البلاد لحكم نفسها حين ينقضى أجل المراقبة . وهذا هو الذى يجب عليه أن ينظر فيه ويعنى به . ويقول لقد كسبنا للناس حق التكلم فى مجلس الاعيان ونحن نؤيدهم حتي لا يخدعوا أو يزعجوا من ثم بالقوة . ولسنا نعمل فى هذا لأنفسنا بل لأبنائنا ولأولئك الذين وثقوا بنا . إننا نحن الجنود نقف اليوم فى مثل موقف ذلك الاعرابى الذى رد علي عمر في أواخر أيام حكمه إذ كان يسأل هل الناس راضون عن حكمه وهل جرى فى كل أعماله فى مجرى العدل فقال له ذلك الاعرابى لو رأينا يا ابن الخطاب فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا

ويقول عرابى اننا نحن المصريين لا نحب الدماء ولا نود أن يسفك شيء منها ومتى عرف برلماننا كيف يتكلم تنتهى مهمتنا نحن الجنود ولكننا مصممون على حراسة حقوق الشعب حتى يتحقق هذا ولا نبالي بعون الله بقيمة الثمن الذى تقتضيه هذه الحراسة أو الذى يجب أن ندفعه فى مقابل حراسة الشعب للذين يحاولون اسكات صوته » .

وقد تأثرت كثيراً بهذه اللهجة البعيدة عن اللهجات التى يتكلم بها ساسة الشرق للاوربيين ولم يسعني أن أوازن بين عرابي وبطل الحرية الآخر الذى قابلتـه في

دمشق وهو مدحت باشا فشد ما كانت النتيجة فى مصلحة عرابي . لم يخلط عرابي في أقواله فليس فيهـا سكك حديدية ولا ترع ولا تراموايات يمكن أن ترد للشرق حريته بل فيها كلمات تنفذ الى جـذور الأشياء وأصولها وتضع مسئولية الحكومة الصالحةعلي العواتق التى تستطيع حملها وقد شعرت أن مثل هذه الاقوال قد تسمع اذا قيلت فى مجلس النواب البريطاني على الرغم من امتلاء جوه بالشؤون التافهة والمهاترة .

وكان رأى عرابي جلياً فيما يتعلق بالسلطان وعلاقة مصر بتركيا . وقد ذكر لى أنه لا يضمر حباً للاتراك وقد أساءوا حكم مصر قروناً وانه لا يقبـل أى تداخل من جانب الاستانة فى شؤون مصر الداخلية ولكنه فرق بين الحكومة العثمانيـة وبين السلطة الدينية للسلطان الذى قال عرابى بأن طاعته واجبة عليه باعتباره أمير المؤمنين ما دام يحكم بالانصاف والعدل . وان مثل تونس التى فصلتها فرنسا أولا من الامبراطورية العثمانيـة ثم ضمتها بعد ذلك الى أملاكها لتحمل المصريين على التشبث بالعلاقة التى تربطهم برئيس العالم الاسـلامي . وقال عرابي « كلنا أبناء السلطان ويجب علينا أن نعيش كأسرة فى منزل . وكما أن أعضاء الأسرة الواحدة يكون لـكل منهم غرفة ينظمهـا حسب ما يهوى ولا يحق لرب البيت أن يستبيح حرمتها فـكذلك لـكل شعب من الشعوب الاسلامية بلاد يعيش فيها وينظمها على ما يحب ويهوي . وقد كسبت مصر استقلالها بالفرمانات وسنبذل كل جهـدنا فى المحافظة على ذلك الاستقلال ولـكننا نخطيء اذا طلبنا اكثر من ذلك ولا يبعـد أن نفقد حريتنا فى مثل هذه المجازفة (١) ».

وقد سألته هل بينه وبين الأستانة مخاطبات كما كان قد شاع يومئذ فأبدى لى انه يلزم جانب التحفظ فى هذه النقطة وراغ من السؤال . ولاشك عندي في أن ذكرى حديثه مع أحمد راتب باشا عرضت لذهنه وقتئذ وكان ذلك سبب تردده ولـكنه لم يشر الى شيء من ذلك فى كل حال وقد كنت فى ذلك جاهلا أمر هـذه الحادثة التى رويت حكايتها فيما سبق .

---

(١) نشر السير وليـام جريجورى فى التيمس أقوالا كهذه لعرابى وكان قد سمعها منه فى نحو الوقت الذي سمعت فيه هذه الاقوال منه.

وقال محمود سامي انه طلب هذه الزيادة نظراً لوعد الخديو برفع قوة الجيش الي الحـد الأقصي الذى تسمح به الفرمانات أى الى ١٨٫٠٠٠ وبرر الوزير أصراره بقوله ان رفض الزيادة قد يؤدى الى مظاهرة عسكريه جديدة وقد كافت أن أعرف المبلغ الذي يرضي الجيش على وجه التحقيق وخولني كلفن سلطة الاتفاق على مبلغ لا يتجاوز ٥٢٢٫٠٠٠ جنيه وان أخبر عرابي وزملاءه الضباط بانه لا يمكن اعطاؤهم اكثر من من هذا من الوجهة المالية . وقال لى كلفن أنه لا يمانع فى زيادة الجيش بشرط الا يزيد المربوط وانه يظن أن المبلغ كاف لجيش عدده ١٥٫٠٠٠ وعلى ذلك ذهبت الى عرابى وناقشتــه هو وزملاءه الضباط فى المسألة وتمكنت من حملهم على الكف عن المعارضــة مؤكداً لهم أن فى استطاعتهــم أن يعتمدوا على كلمة كلفن فقالوا انهم يقبلون مبلغ ٥٢٢٫٠٠٠ جنيه وسـيزيدون الجيش الى أقصي حد يسمح به هذا المبلغ . وقالوا انهــم سيقتصدون فى وجوه يعرفونها ويبلغون الجيش أقصي قوته . وقد وعدوني فى هــذه الفرصة أن يصـبروا ولا يقوموا بمظاهرات مسلحة أخرى ثم وفوا بهذا الوعد الى اللحظة الاخيرة . وكانت آخر عبارة سمعتها من عرابى يومئذ « من صبر ظفر » وقد أرسلت فى اليوم نفسه مذكرة الى كلفن أخبرته فيها بالنتيجة ثم شكرني ما ليت على اخراجي لهما من الصعوبة التي كانا يقاسيانها . على أن ما ليت لم يلبث أن أدهشني بعد ذلك باسبوع واحــد حين أطلعني وأنا ألاعبه كرة التنس فى دار الوكالة البريطانيــة بعد ظهر يوم ٢٨ ديسمبر علي صورة تلغراف أرسله لوزارة الخارجية وقد ذكر فيه زيارتى لمصر والتشجيع الذى قدمته للوطنيين . ولم يذكر فى هذا التلغراف شيئاً عن المساعدة التى قدمتها له ولـكنه شكا من ارسالى البرنامج الى جريدة التيمس على الرغم من معارضته فى ارساله . ولـما كنا قد عملنا الى ذلك الحين باتفاق وولاء تام ولم يحدث مكدراً أكثر من نشر البرنامج فقد أنبته على سوء نيته فى اخفاء الخدمات التى أديتها لسياسته وأصررت على أن يرسل تلغرافا يلغى به تلغرافه الاول فلم يسعه الا أن يفعل ذلك امامي وأرسل تلغرافاً آخر أصلح به بعض الحيف الذي أنزله بى . ولم أستطع قط أن أفهــم غرض ماليت من هــذه المناورة . وقد حملتها فى ذلك الحين على محمل الغـيرة العارضة وكراهيته ان تعرف

وزارة الخارجية انه كان لى شأن فى تحسن الصلات بينه وبين الوطنيين . ولكنى بعد انعام النظر حملت هذه المناورة على حذره الطبيعي الذى أوحي اليه أن يحتاط ليدرأ عن نفسه كل مسئولية امام الرأى العام فيما يختص برأيي في الوطنيين المصريين اذا بدأ للوزارة الانجليزية أن تطعن على هذا الرأى. ولعل هذا هو السبب الحقيق والذى يؤيد ذلك أن ذمته لم ترتح الا حين كاشفني باجراءاته الرسمية هذه . ومع انه ندم على غدره قد كان لى من عمله هذا محذراً لم أنسه فيما بعد فكنت أشعر بشيء من توقع الغدر علي يديه فى بضعة الاسابيع التى كنت أذهب فيها الي الوكالة البريطانية بعد ذلك . علي انى كنت مستعداً لمساعدته ولم يمض وقت قصير حتى اضطرته الاحوال القاهرة الناشئة من عزلته السياسية فى القاهرة الى الالتجاء الى خدماتى. فأرسلنى حين طغى عليه الموج كرسول السلام الى عرابى وأخوانه الضباط.

وقد سار كل شيء على ما يرام الى آخر ذلك العام وفى خلال الاسبوع الاول من سنة ١٨٨٢ كان الاتفاق قد ساد بين جميع الاحزاب المصرية وهدأ الجيش واعتدلت لهجة الصحف تحت رقابة الشيخ محمد عبده المحبوبة لدي الجميع، وأخذ الوزراء الوطنيون وقد اطمأنوا ولم يعد أحد يهددهم يضعون مشروع القانون الاساسي الذي يمنح البلاد حرياتها وفى ٢٦ ديسمبر اجتمع مجلس النواب للمداولة فى نصوص الدستور بالقاهرة وفتح بخطبة تدعو الى الثقة من الخديوى بالذات . وكان هذا قد أحسن السلوك نحو الحركة الوطنية الى حد أن كتب ماليت عنه الي لورد غرانفيل يقول « وجدت سموه منشرحا لاول مرة منذ عودتى في سبتمبر وقد صار الآن كبير الامل من تحسن الاحوال . ولم يستطع الانسان الا أن يرى هذا التغير الكبير فيه والظاهر أنه راض بالحالة كما هي » وكان عرابى قد كف عن شغل نفسه بشكاوى الناس . واتفق معتمدا فرنسا وانجلترا على أن ينظم عرابي مركزه بقبول المسئولية المترتبة على نفوذه السياسي وذلك بأن يتقلد وزارة الحرب، وقد قصدا بذلك التوقي من خطره ووضعه الى جانب المحافظة على النظام.

ولم يبق محل للشك الا سلوك النواب حيال نصوص الدستور الذى اجتمعوا لمناقشتها . على ان اغلبيتهم بدت كاصدقائي الازهريين ميالة للاعتدال . وقال الشيخ

محمد عبده « لقد لبثنا عدة قرون في انتظار حريتنا فلا يشق علينا أن ننتظر الآن بضعة أشهر » ولست أشك فى أن ماليت وكافن وستكوكز كانوا فى ذلك الحين يعطفون على طلب الوطنيين للبرلمان عطفاً حقيقيا . وقد بدأوا يرون ان هذا هو المطلب الوطنى العام وان البرلمان يقى من شر الافكار الاشد تطرفاً . ولو ان حكومتى فرنسا وانجلترا أعلنتا فى ذلك الحين حسن النية حيال الامانى الوطنية لكان فى الطاقة ان يوضع نظام حسن للعمل بين المراقبة الثنائية والحكومة الوطنية ولو تم هذا لضمن مصلحة حملة الاسهم كما ضمن حرية مصر . وقد حسبنا يومئذ ان الحكومتين لا تبطئان فى اعلان كهذا .

وقد نشر البرنامج الذى أرسلته الى التيمس فى عددها الذى صدر فى اول يوم من أيام سنة ١٨٨٢ مصحوبا بمقال افتتاحي يتضمن الموافقة والاستحسان : وقد أحسنت أوربا تلقى هذا المنشور علي الرغم من تطير ماليت بالسوء ولم يكن له في الاستانة وقع سيئ . وكان هذا البرنامج من اعتدال اللهجة والصراحة واستقامة المنطق بحيث خيل الينا انه لا يمكن ان يسيء أحد فهم حقيقة الموقف فى مصر بعد الاطلاع عليه . وكذلك لم يتصور أحد أن تسيء انجلترا استقباله مع وجود أغلبية حرة في مجلس النواب ومع وجود المستر غلادستون فى رئاسة حكومة حرة . نعم لم نتصور ذلك نحن الذين كنا ننتظر رد غلادستون ولم يخطر على بال أحد منا ان وزارة الخارجية البريطانية كانت في ذلك الحين تعد عدة التحدى والتدخل المسلح. ولكن من سوء الحظ ان هذه الوزارة كانت قد قررت مناهضة أماني المصريين وان لم يعرف أحد منا ذلك ولا ماليت نفسه . والظاهر ان البرنامج وصل الى غلادستون بعد الوقت الملائم بأسبوعين.وبينما كنا ننتظر رسالة سلمية اذا بمذكرة ٦ يناير المشتركة تقع علينا وقع الصاعقة . وقد نقضت هذه المذكرة كل آمالنا وضيعت حسابنا وقدمت مصر في جومة بحر لجي من المتاعب .

وهنا يجب على ان أقص الحقيقة فى كيفية تكون فكرة هذه المذكرة المشئومة التى يرجع اليها كل ما حدث من المتاعب فى خلال ذلك العام ، والتى أفقدت مصر حريتها كما أفقدت غلادستون شرفه وأفقدت فرنسا نفوذها على جانبي النيل . وقد

يمكن ان يعرف الانسان شيئاً عنها من الوثائق الرسمية التي نشرت انجليزية كانت أو فرنسية ولكن الذي يمكن معرفته من هذه الوثائق ليس الا بعض الحقيقة ثم لا يمكن معرفته الا بطريقة غير مباشرة . وربما كنت أنا الشخص الوحيد الذى يستطيع ان يقص قصتها كاملة اذا استثنينا الذين وضعوها وكانت لهم علاقة رسمية بها

وقد اعتقد المصريون بطبيعة الحال ونظراً لاستخدام المذكرة في مصلحة الاعتداء البريطانى انها من وضع وزارة الخارجية البريطانية وقد وضعتها لاستخدامها في قضاء اغراضها الخاصة ولكن الحقيقة ليست كذلك فلم توضع المذكرة فى خارجية بريطانيا بل فى خارجية فرنسا ولخدمة المطامع الفرنسية التى لم تكن سياسية فقط بل كانت مالية أيضاً .

وقد ذكرت كيف سافرت مع السير شارلس ديلك من لندن الى باريس وسردت المحادثات التى دارت بيننا فى الطريق والتأثير الذي تركته في نفسي من حيث اعتزامه بيع حرية مصر بالمعاهدة التجارية وهذا هو نفس ما حدث تماماً

فى ١٥ نوفمبر استقال سانت هيلير وخلفه غمبتا الذى وجد امامه ثورة اسلامية على الحكومة الفرنسية فى تونس والجزائر . وقد ازعجته صبغتها الاسلامية وعزاها الى نشر الدعوة الذى يقوم به السلطان عبد الحميد وقد ظن أن الحركة المصرية قائمة على الاساس ذاته وكذلك كان يعدد دسائس اسمعيل وحليم وغيرهما . وكانت فرنسا معادية من أول الامر للحقوق التى يدعيها الباب العالى في شمالي افريقيا وقد تقلد غمبتا الوزارة مصمما على مقاومة تلك الحقوق بالقوة والصرامة . واذ كان غمبتا يهوديا فقد كان متصلا بالمصالح المالية فى بورصة باريس وكان كذلك ذا صلة متينة ببيت روتشلد وغيره من أصحاب الاموال الذين اشتروا بملايينهم سندات الدين المصرى . وكان نوبار باشا ورفرز ولسن يعيشان يومئذ فى باريس فكانا اخص من ينتصح بارائهم في المسألة المصرية وقد كون رأيه فى الموقف بناء على المعلومات التى كان يستمدها منهما.

فلم يمض عليه بضعة أيام فى الوزارة حتى اخذ يفاوض وزارة الخارجية البريطانية ابتغاء حمل انجلترا على الاشتراك مع فرنسا في القيام بعمل عنيف ضد الحركة الوطنية

وان يكون ذلك بمثابة حملة صليبية تقوم بها الدولتان تحت ستار الدفاع عن المدنية وتنظيم مالية مصر. وكانت وزارة الخارجية البريطانية تريد ان تجدد المعاهدة التجارية المعقودة بين فرنسا وانجلترا التي أوشكت أن يحين أجلها بأسرع ما يمكن. وقد ارادت الحكومة البريطانية أن تنتهز فرصة الصداقة الموثقة بين رئيس الحكومة الفرنسية الجديد والسير ديلك وكيل خارجية بريطانيا لاستكمال المفاوضة في هذا الصدد. وكانت قد ألفت لجنة لهذا الغرض فى باريس منذ شهر مايو وقد مثل فيها ديلك وولسن انجلترا ولكنها لم تصل الى نتيجة. وقد استقر الرأى على أن يعود ديلك الى باريس ليفاوض فى مسألتي مصر والمعاهدة التجارية ولم يمض أكثر من اسبوع على تقلد غمبتا رئاسة الوزارة. واذا راجعنا الصحف التى كانت تصدر فى نوفمبر سنة ١٨٨١ نجد المفاوضة بين الدولتين كانت قد وصلت الى نقطة حرجة حتى لقد أشيع أكثر من مرة انها قطعت. ولكن عودة ديلك أحيت المفاوضات أو على الاقل حالت دون انقطاعها. ولبث ديلك يروح ويغدو بين فرنسا وانجلترا من ٢٢ نوفمبر الي ١٥ ديسمبر وقد جاء فى الكتاب الازرق الذى صدر فى سنة ١٨٨٢ برقم ٥ ان غمبتا أرسل الى لورد ليونس السفير البريطانى في باريس يوم ١٥ ديسمبر مشروعا يقضي بالتدخل المشترك فى مصر. وقد ذكر في مشروعه انه يرى التدخل ضروريا لتقوية سيطرة الخديو توفيق. وقال « انه يجب بذل كل جهد لحمله على الثقة بتأييد فرنسا وانجلترا وحضه على الحزم والثبات وانه يجب اقناع أنصار اسمعيل باشا وحليم باشا كما يجب اقناع المصريين عموماً بانه ليس فى استطاعتهم أن يخلعوا توفيق وانه مما يرغب فيه ان يوضع حد حاسم لدسائس الاستانة الخ. » وقد بلغ لورد ليونس هذه العبارات الى وزارة الخارجية البريطانية وفى ١٩ ديسمبر. « وافق لورد غرنفيل على انه قد حان الوقت لتنظر الحكومتان فيما يجب اجراؤه » وبعد هذا التشجيع انتهز غمبتا فى يوم ٢٤ ديسمبر فرصة التئام مجلس الاعيان المصرى ليقوم « بمظاهرة جلية على اتحاد انجلترا وفرنسا في تقوية مركز توفيق باشا واضعاف العاملين على الاخلال بالنظام » وقد التأم المجلس المصري يوم ٢٦ وذكرت التيمس ان ديلك الذى عاد الي باريس يوم ٢٧ اجتمع بغامبتا يوم ٢٨ وحادثه طويلا بشأن

المعاهدة التجارية بينما اعلن لورد غرنفيل فى اليوم نفسه موافقتــه على « أن يعطي توفيق باشا تأكيـداً بعطف انجلترا وفرنسا وتأييدهما له وأن يشجع سمـوه على الاحتفاظ بسلطته واظهارها فعلا » .

وغنى عن البيان أن اتفاق التاريخين كاف وحده لاثبـات العلاقة بين المسألتين . وانه يعين اللحظة التى حدث فيها الاتفاق الخطر وان البرنامج الذى أرسله الى غلادستون فى ٢٠ ديسمبر وصل متأخراً عن الوقت الذى كان يمكن أن يحول فيه دون وقوع النكبة . وكان وصول الخطابات الى لندن يستغرق فى ذلك الحين أسبوعا وكان غلادستون متغيباً عنها باجازة عيد الميلاد فلم يتسع الوقت لان يرسله الى وزارة الخارجية مهما كان ميله الى ذلك .

وعلى هذا المنوال تورطت حكومتنا فى سياسة غمبتا ومن ثم قدم هذا فى ٣١ ديسمبر سنة ١٨٨١ الى لورد ليونس مشروع المذكرة المشتركة (راجع الـكتاب الازرق رقم ٥ لســنة ١٨٨٢) مكتوبا بخط يده لترسل المذكرة الى مصر تأييداً لرسالته المؤرخة ٢٤ ديسمبر وهنا يجب علينا أن نذكر أنه أعلن فى اليوم نفسه أن المفاوضات الخاصة بالمعاهدة التجارية استؤنفت رسمياً .

وفى أول يناير أرسل مراسل التيمس في باريس الى جريدته تحوي المذكرة الثنائية قائلا انه يقدمها الآن اتباعاً لتعليمات غمبتا الذى قال له أن لا يذيعها الا « في الوقت الملائم » . وقد دل هذا على أن ديلك نجح فى مهمته التجارية وقد عاد في اليوم التالى ، ٢ يناير ، الى لندن . وانى لأجد تأثير الخطاب الذى أرســلته الى غلادستون في تأخير خمسة الايام التي مضت قبل أن يوقع غرنفيل المذكرة على كراهية للتوقيع وفى تحفظه الذى ذكر فيه « أن حكومة جلالة الملك لا تعتبر نفسها مقيدة بهذا التوقيع بالعمل بأية خطة خاصة . » وهو تحفظ خليق بغرنفيل دال على تناقض الآراء فى ذهنه وقد ظهر هــذا التناقض بعد ذلك بين غلادســتون وبين وزارة الخارجية ومن ورائها السير ديلك .

هذه هي الشواهد التى أمكن استخراجها من الوثائق التى نشرت يومئذ على أن عندى خطابا من رفرز ولسن جاءنى بعد ذلك بعدة أيام ـ فى ١٣ يناير ـ رداً

على خطاب لي . وخطاب ولسن هذا يوضح المسألة فى بضع كلمات . قال في هـذا الخطاب « يسرنى اهتمامك بالشؤون المصرية وانت تؤيد ما اعتقد أنه الحقيقة فى نقطتين على الاقل وهما أن الضباط يعربون عن الرأى المصرى العام وان الخديو توفيق يعمل بالاشتراك مع السلطان . وعندي أنه لامحل للدهش فى هـذه النقطة الاخيرة فقد قال غمبتا منذ ستة أسابيع « أن الخديو فى حجر السلطان » والسبب فى هذا ظاهر فتوفيق ضعيف مجرد من الشجاعة ، والجيش قائم ضده والحريم يكرهه فلا يجد منهن المعونة التى يتطلع لها منهن بطبيعة الحال فلم يجد بدآ من ان يلتفت الى ناحية يمكن أن يأتي منها الحلف ورعاجاءت منها المعونة المادية أيضاً وهى ناحية حكومتى انجلترا وفرنسا

وانه لمعالجة هذه الحالة فكرت الحكومتان فى نشر المذكرة الثنائية مهما كانت الاسباب التى تنتحل لاصدارها الآن . وسيكون أسفى عظيما اذا أخفقت المذكرة في استحداث هذه النتيجة ولم تلق فيروع الضباط والعلماء والاعيان ان تجديد الاضطراب لا يكون له بعد الآن معنى الا تدخل أوروبا المسلح . وقد لاتحب حكومتنا مثل هذا التدخل ولكنها أصبحت مقيدة بفرنسا بصفة رسمية ولم يعد يسعها الانسحاب » .

ومتى ذكرنا المنصب الرسمي الذى كان يشغله رفرز ولسن في باريس وأضفنا اليه اتصاله التام بديلك وغمبتا عرفنا ان هذا الخطاب وثيقة تاريخية مهمة وقد رأينا كيف انه وضع على الحكومة الفرنسية بصفة قاطعة مسئولية اقتراح التدخل المراد وهـذه مسألة تؤيدها الكتب الصفر ذاتها رغماً عن عـدم وضوحها . وقد سمعت حينئذ وأصـدق الآن أن كيفية التداخل التى اقترحها غمبتـا هي أن تقوم انجلترا بمظاهرة بحرية وأن تترك فرنسا جنوداً فى مصر . ولو حدث لما كان هناك شك في أن النفوذ الفرنسي كان يسود مصر اليوم . وقد كان هذا هو الذى يكون لولا ان حال دونه سقوط غمبتا اذ صوت مجلس النواب ضد حكومته في مسألة داخلية على غير انتظار فى آخر شهر يناير لان غلادستون كان في ذلك الوقت أبعد عن الميل الى استخدام وسائل العنف من أن يرسل أسطولا بريطانيا مع جيش فرنسي فلم يكن بد حينئذ من أن تتوسع فرنسا فى حركتها البرية .

وفي الطاقة أن يستخرج الانسان أكثر من نتيجة واحدة من هـذه القصـة التاريخية .وربما كان من اهم هذه النتائج أن الوزيرين أخفق كل منهما فى تنفيذ غرضه على الرغم من اشتهار كل منهما بالبراعة السياسـية فى دائرته وعلى أسلوبه الخاص . ولا شك فى أن غمبتا وغرنفيل تباهيا فى الاسابيع الاولى من شهر يناير بفوزهما فى تحقيق غرض مهم وتقويتهما العلاقات الودية بين حكومتيهما بما حدث من الاتفاق وقد فاز غمبتا بالمذكرة كما فاز غرنفيل بالمعاهدة التجارية . ولكن الحقيقة هي انه لم يستطع أحد من هذين الشاطرين أن يجلب السلب الى بلاده فقد عجز غمبتا مع كل مهارته عن حمل أغلبيـة مجلس النواب الفرنسي على الموافقة على المعاهـدة التجارية فسقطت المعاهدة وسقط معها ما زعمه حزب الاحرار البريطانيين من أن حرية التجارة لا تجعل انجلترا فى عزلة .ومن ناحية أخرى وجد غمبتا انه لم يعد — اذ نجح في اكراه غرنفيل على توقيع المذكرة التى اعتقد انه سوف يستخدمها لاعلاء شأن فرنسا — ان صانع سلاحا لا يستطيع هو نفسه أن يحسن استخدامه . وهو سلاح لم يمض عليه ستة أشهر حتى تحول الى يد مزاحمه فى الوقت الذى ظهر فيه ان الاتفاقية الودية قد هدمت بمجرد حدوثها كل الشعور الودى الذى كان متبادلا بين الامتين اثناء جيل كامل .وفى استطاعتى أن أفرق بين اخفاق الدساسين وبين تنافس مصالح أمتيهما أما المأساة الحقيقية فهي ان أملا وطنياً قد خاب واصـلاحا دينياً قد تأجل سنين عديدة كرامة لمطامع دنيئة وشهوات أدنأ منها .

كان تحدى غمبتا للحزب الوطني خطراً على السلام فى القاهرة . وقد كنت مع ماليت بعد وصول المذكرة اليه بوقت قصـير فأعطانيها لاقرأها ثم سألني رأيي فيها فقلت «سيعتبرونها اعلان حرب» فقال «ليس المقصود بها غرضاً عدائياً» .ثم شرح لي كيف يمكن تفسيرها بما يوافق الاماني الوطنية . وقد طلب مني أن أذهب الى ثكنة قصر النيـل وأطلب الى عرابي الذى كان قد عين حديثاً وكيلا لوزارة الحرب أن يقبلها بهـذا المعنى ثم خولني أن أقول له « ان معنى المذكرة كما تفهمه الحـكومة البريطانيـة هي أنها لا تسمح بان يتدخل السلطان فى مصر ولا تسـمح للخديو أن يحنث بوعد، ويؤذى البرلمان : » وأخبرنى انه يرجى أن ينال إذناً بنشر تفسـير

مكتوب للمذكرة بالمعنى المتقدم ولـكنه لم يخولني سلطة قول ذلك لعرابي . وأعرف انه أرسل أ كثر من تلغراف طالباً مثل هذا الاذن وانه كتب ينتقد المذكرة بشدة ويقول انها خطرة مجردة من السياسة ولـكنك لا تجد شيئاً من هـذه الطلبات والاحتجاجات فيالكتب الزرق وان كانت تلك الكتب تظهر اهتمام لورد غرنفيل بها الى حد اظهار رغبته فى نشر تفسير للمذكرة ولكن غمبتا منعه من ذلك .والظاهر ان سنكويكز طلب هو أيضاً من حكومته أن تأذن له بتفسير المذكرة ولكنه منع من ذلك .وكذلك أنحى السير أوكلند كلفن على المذكرة اثناء حديثه معي بأشد اللائمة كما فعل ماليت .

وقد ذهبت الى ثكنة قصر النيل فى ظهر يوم ٩ (وكانت المذكرة قد وصلت يوم ٨) فوجد عرابي وحده فى مكتبه . وهذه هي المرة الاولى والاخيرة التي رأيته فيها غاضباً . وكان وجهه كسحابة الرعد . وكان فى عينه بريق خاص . وقد رأى نص المذكرة وان كان لم ينشر بعد وقد سألته كيف فهمها فقال « اخبرنى كيف تفهمها أنت » وحينئذ أديت رسالتى فقال « لاشـك فى ان السير أدوارد ماليت يحسبنا اطفالا لانفهم معنى الكلمات . هذه لغة تحد وتهديد وليس فى هذه الادارة كاتب يستخدم مثل هذه الالفاظ لغير هذا المعنى » ثم أشار الى الفقرة الاولى التى ذكر فيها الاعيان وقال « هـذا تحد لحرياتنا ، وليس لاعلان اتحاد فرنسا وانجلترا معني الا ان انجلترا ستغزو مصر كما غزت فرنسا تونس » ثم قال « دعهـم يأتون فكل رجل وطفل فى مصر سيقاتلهم . ليس من مبادئنا ان نضرب الضربة الاولى ولكننا سنعرف كيف نردها » ثم قال فيما يختص بالمحافظة على عرش توفيق « ان السلطان هو الذى يحافظ على عرش توفيق فليس هو فى حاجة الى ضمان أجنبي ولك ان تخبرنى بمـا تشاء ولـكني أعرف معنى الـكلمات أحسن ممـا يعرف ماليت » والواقع ان تفسـير ماليت كان هراء فى هراء وقد شعرت لمـا صرت امام عرابي بغفلتي وخجلت من حملي اليه مثل هذا الهراء ولـكنى أ كدت له انى أديت الرسالة كما ألقاها الى السير أدوارد ثم قلت وهو يرجوك ان تصدقها وأنا كذلك » ولم يبد عليه شيء من آثار الرقة الا حين استأذنت في الذهاب فتناول ذراعى ورافقنى الى

الباب ودعانى لزيارة منزله كما كنت أفعل قبل ذلك. فقلت « سأجيء عند ماتكون لدى أنباء أفضل من هذه » وقد ألمعت بهـذا الى التفسير الذى أستأذن ماليت في نشره . علي ان الاذن لم يأت . كما انى لم أر عرابي فى الاسابيع الثالثة التاليـة ولـكني رأيتـه بعد ذلك حين وصل الى خطاب من المستر غلادستون ففسرته بما أملاه على التفاؤل وكان هذا الخطاب سبب سرورنا» .

وقد عدت الى الوكالة البريطانية وسألني ماليت كيف أديت الرسالة فقلت « لقد نفروا وأصبحت مصالحتهم مستحيلة وقد قذفت المذكرة بهم فى أحضان السلطان » والواقع ان هذه كانت الحقيقـة ليس فيما يتعلق بالحزب الوطنى وحده بل فيما يتعلق بجميع الاحزاب والطبقات . ولقد فشل غمبتا وباء بالخيبـة اذا كان قد أراد تقوية يدى توفيق بمذكرته الحمقاء هذه فقد رعب الخديوى أما الوطنيون فقـد هاجوا ولم يخافوا . وهنا وجد المصريون أنفسهم متحدين لاول مرة .

وانضم الشيخ محمد عبـده والازهريون المعتـدلون الى الحزب المتطرف بكل قوتهم وحنق كل الناس ومن بينهم الجراكسة من التهـديد الاجنبي ورأى اعداء الترك كصديقى الهجرسي ان عرابي كان بعيد النظر محقاً ان اعتمد سراً الي السلطان وبهذا كسب عرابي شهرة عظيمة واحتراماً رهيباً ومضت عدت أيام لم أسمع خلالها من أصحابى المصريين الا كلاماً في الرابطة الاسلامية وكان كل من ألقاه يقول هذه سياسة روستانيه (١) وقد بذلت جهدى فى التهدئة حتى يصل التفسير الذى وعدنا به ماليت ولكن جهدى ذهب عبثاً . وكانت هذه الاسابيع الثلاثة مزعجة للجميع وهي الاسابيع التي أنقضت منذ أرسل غمبتا مذكرته حتي سقط وكان يأتى فى هذه الاثناء أنباء بان قوة فرنسـية تحشد في طولون اسـتعداداً للابحار . وقد كان هذا شكل التدخل الذى توقعه الجميع . وعندى ان سقوط غمبتا أنقذ مصر من مصيبة ربما كانت أكبر من مصيبتها الحاضرة — مصيبة غزوة فرنسيه موجهة علناً ضـد الاسلام وفى مصلحة المصالح الاوروبية وحدها .

---

(١) نسبة الى روستان الذى أعد مشروع الهجوم على تونس

الفصل التاسع

﴿ استقالة شريف ﴾

ولم ينتصف شهر حتي ظهر فى القاهرة أن الازمة السياسية تقترب بسرعة والواقع انه لم يبق ريب فيها. وقد اتفق أن نشرت المذكرة الثانية والقانون الاساسي فى وقت واحد. وكان المراقبون الماليون قد ألحوا على الوزارة فى أن لاتمس سلطتهم فى وضع الميزانية على مقتضى اعتقادهم في الحاجات الاقتصادية وان لا يتعرض المجلس الجديد لها ببحث أو اقتراح فوافق شريف باشا على ذلك ووضع المشروع بغير أن يجعل للمجلس أى حق في المسائل المالية. ولم يكن غير طبيعى ان تستاء أكثرية النواب من ذلك وقد قالوا أن المراقبة المالية الاجنبية ليس لها شأن الا الاشراف على كل ما يختص بمسألة الديون ولما كانت فائدة الدين تبلغ نصف الايراد فقد وجب أن تكون الامة حرة فى التصرف بالنصف الثانى.

ومع ذلك فليس ثم محل لان نعتقد بان النواب كانوا يصرون على المعارضة لاسيما أن سلطان باشا الذى انتخب لرئاسة المجلس كان متفقاً مع شريف في أن الفطنة تقضي بالاذعان. ولكن الاحوال تغيرت فى آخر الشهر عما كانت عليه في أوله. وقد رأينا كيف سهل الاتفاق بين وزارة الحرب والمراقبين الماليين علي ميزانيةهذه الوزارة. ولكن الاعيان صاروا الآن — أي تحت تأثير المذكرة — بعيدين عن فكرة المسالمة فقابلوا مشروع شريف بمشروع وضعوه بانفسهم وضمنوه عدة مواد توسع سلطتهم البرلمانية وتضع نصف الايراد الذى ليس للديون به شأن تحت تصرفهم. ومن ثم وقع الخلاف الفعلي بينهم وبين المراقبين. وقد تولى بلنجير القيادة وجر كلفن وراءه. وقد أعلن المراقبان انه لامناص من بقاء الميزانية كلها تحت تصرفهم المطلق وقالوا أن المشروع الذي قدمه النواب ليس مشروع لائحة برلمانية بل مشروع « معاهدة » ولا شك أن هذه العبارة مقتبسة من اصطلاحات الثورة الفرنسية وان بلنجير هو الذى وضعها فتلقفها منه كلفن وارغم ماليت على ازدرادها. وكان الخلاف جدياً وربما أفضي الى الشر الذى كان يخشاه ماليت ويعطي للحكومة

الفرنسية فرصة التدخل التي تنشدها . ومن ناحية أخرى كان شريف قد ربط نفسه بوجهة نظر المراقبين وكان هذان يلحان عليه فى الثبات أما موقف الخديوى فكان مشكوكا فيه . وكانت فرصة وقوع الخلاف بين الخديوى والنواب على الميزانية المرتبطة بالديون الاوروبية هى نفس الفرصة التى تنتظر الحكومة الفرنسية أن تنتهزها بعمل السوء وكان غمبتا لايزال في رئاسة الوزارة.

في هذه الشدة العصيبة طلب منا ماليت وكلفن الذي كان يود أن ينفذ رأيه كمراقب مالى وان لم يكن يرضى عن تدخل فرنسا ان أساعدهما مرة أخري بان أبذل جهداً جديداً لحمل المتطرفين من الاعيان على النزول عن بعض ما يطلبون . وبعد ان تداولت مع الشيخ محمد عبده الذي كان كدأبه من الميل الى التبصر والمسالمة اتفقنا على أن التقى فى منزله بوفد منهم لاناقشهم فى المسائل وأريهم النتائج المحتملة للمقاومة أي التدخل المسلح ومن ثم قدمت وجهة نظر المراقبين الماليين مع كلفن ووضعت مع ماليت قواعد المناقشة التى عولت على استخدامها وكلها مدونة لدى فى مذكرة عنوانها « مذكرة بالامور التي سأقولها لاعضاء البرلمان المصرى فى ١٧ يناير سنة ١٨٨٢ »

ويؤخذ من هذه المذكرة أن تعليماتي كانت تنحصر فى أن أذكر لاعضاء الوفد ان اجراءآت الميزانية الحاضرة انما هي مسألة دولية لا يستطيع شريف باشا ولا البرلمان أن يمسها بغير موافقة الحكومتين الرقيبتين . وكان على أن أقص تاريخ انشاء المراقبة المالية وأريهم مذكرة خاصة وضعها ماليت وفونج قنصل فرنسا الجنرال وارفقها بالمنشور الذى نص على انشاء المراقبة فى ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٩ وان أطلب اليهم أن يتدبروا هل مع ذلك تكون مسألة تغيير اجراءآت اصدار الميزانية مسألة دولية وليست كذلك . وهل اذا كانت كذلك ألا تكون خارج دائرة اختصاصهم وقد اعترفوا بان المسائل الدولية يجب أن لا تمس . ومسألة الميزانية مسألة دولية وعلى ذلك يجب أن لا تمسوها . وقد خولنى كلفن أن أقول بانه هو شخصياً لايمانع فى تعديل الاجراءآت الحاضرة تعديلا طفيفاً بحيث يعطي للمجلس حقاً استشاريا قد يتحول فيما بعد الى حق اقتراح . فاذا قبلوا ذلك عرض

ماليت المسألة على حكومته بصورة حسنة وان كان لا يستطيع أن يطمئن علي قبولها من جانب انجلترا أو فرنسا . أما سائر خلافاتهم مع شريف فعليهم أن يسووها معه بانفسهم .الخ.الخ .

على هذه القاعدة وبمساعدة صابونجي والاستاذ الشيخ محمد عبده ناقشتهم طويلا فى المسألة ولم أكف عن المناقشة الا حين اقتنعت بانهم لا يذعنون. نعم انهم وافقوا على تعديل ثلاث أو أربع مواد كانت محل معارضة المراقبين الاساسية وأدمجوا التعديلات التى اقترحتها عليهم فيما يختص بها فى اللائحة التي نشرت ولكنهم تشبثوا برأيهم فى مسألة الميزانية على الرغم من مساعدة الاستاذ محمد عبده لى ولم يقبلوا أن يغيروا سطراً من المادة الخاصة بها وعدت مطأطئ الرأس لأبلغ ماليت حكاية فشلي ولم أتوسط بعد ذلك بينه وبين الوطنيين . فقد بذلت أقصى جهدى لاساعده علي حل مصاعبه حلا سلمياً ولكن شقة الخلاف بين وجهتى نظرنا اتسعت منذ ذلك الحين حتي لم يبق محل لتعاونى معه . ومع أنى بذلت كل جهدى لاحمل الاعيان على الاذعان تحت تأثير اعتقادى بانهم مهددون بالتداخل الاوربي لم يسعنى مع ذلك الا الاعتراف بانهم على حق فى طلبهم السلطة على نصف الميزانية اذا كان الحكم البرلمانى سيكون حقيقة لا تمويهاً . وتدل تلغرافات ماليت فى ذلك الحين على ان الاعيان كانوا يداً واحدة فى هذا الصدد حتى ان سلطان باشا الذى كان بطبعه رجلا ضعيفاً يسهل ارهابه أعلن بصريح العبارة أن دستور شريف باشا « كالطبلة » تحدث صوتاً عالياً ولكنها فارغة .

وقد حملتني كراهتى للاشتراك على الانضمام للوطنيين في النضال الذى نشب بعد ذلك بينهم وبين شريف باشا . وكنت قد زرت شريف قبل ذلك بناء علي رغبة ماليت وبحثت معه فى المسألة وخرجت من البحث غير راض .

كان شريف تركياً متفرنجاً طيب العنصر والاخلاق ولكنه لم يخل من شيء من الغطرسة واحتقار الفلاحين وهما الوصفان اللذان كانا من مميزات طبقته في القاهرة .وكان ماليت يقدره قدراً كبيراً لاجادته معرفة اللغة الفرنسية وعلومها وسهولة التعامل معه لا سيما في الشؤون السياسية العادية ولكن تفرنسه هذا لم يكن يروقني كلما وازنت

بينه وبين الرجال المصلحين ذوي الفكر الساميــة الذين كانوا نواة الحركة الوطنية الحقيقية والذين لم يكن يعتبرهم شريف الا بمثل الاحتقار الذى قد يستشعره رجل فرنسي نحوهم وقد كان شريف واثقاً من كفاءته لحكمهم وقلة كفاءتهم .وقد قال لي «ان المصريين أطفال ويجب أن يعاملوا معاملة الاطفال ، وقد قدمت لهم الدستور الخليق بهم فاذا لم يرضهم كان عليهم أن يعملوا بدونه .اني أنا الذي أنشأت الحزب الوطني وسيجدون انهم لا يستطيعون العمل بدونى .ولا شك في أن هؤلاء الفلاحين فى حاجة للارشاد» ومن ثم لم يشق علي أن أختار الجانب الذى أوليه عطفى حين نشب بينه وبينهم النضال العلني بعد ذلك بزمن قصير .

ولم أكن فى القاهرة عند مابلغتني أنباء استقالة شريف فى ٢ فبراير وكان فشلي فى مفاوضة الاعيان قد نكدنى وشعرت أن قيامي بمفاوضتهم قد أفقدنى مودة أصدقائي الاوربيين وانهم ربما يسيئون بى الظن لمحاولتي اقناعهم بخطة لا تتفق مع الخطة التي عقدوا عليها عزائمهم فبعدت عن النضال الذي لم تبق لي عليه سلطة ولا عدت قادراً على أن أقوم فيه بخدمة غرض طيب ومع انى كنت مقيما اثناء الشتاء فى فندق النيل . فقد كان لي خارج المدينة خيام وجمال وخدم من العرب وكنت أزور هذه الخيام أحياناً ولكني الآن قبعت فيها . وكانت الخيام مضروبة فى الصحراء بين قصر القبة والمطرية فى نقطة اسمها الزيتون وكانت هـذه المنطقة كلها لا تزال صحراء قاحلة فى ذلك الحين والخيام قائمة الى جانب بقايا شادوف وهى الأثر الوحيد الذى يدل على انه كان فى هذا المكان سكان .وقد كنا منفردين فى هذا المكان لولا معسكر الامير أحمد الذى كان خارج دائرة المطرية ولم يكن يوجد أي نوع من أنواع المواصلات العامة بيننا وبين القاهرة فكنا اذا أردنا الذهاب الى القاهرة نركب جمالنا الى مكان بين الفجالة والعباسية حيث نستطيع أن نكترى الحمير . ولم يكن يوجد ولا منزل واحد فى الرمل بعد العباسية من الناحية الشمالية الشرقية .وعلى هذا استطعت أن أنسى السياسة لحظة وأن أتمتع بالعيش فى الهواء الطلق وهو ما كنت ولا أزال أفضله علي كل شيء على انى كنت قد قمت لاصحابى بخدمة أخيرة اذ كتبت في التيمس دفاعًا حاراً عن الوطنيين . وقد حضنى على ذلك السير جرجورى الذى

أرسل أكثر من خطاب قوي بالمعنى ذاته الى التيمس التى كانت تعد فى ذلك الحين أقوى صحيفة في أوربا بلا نزاع .

وليس فى الطاقة أن أبالغ فى أهمية أي خطاب ينشر فى التيمس في تلك الايام كما انه لاشك فى اهتمام الساسة الذين لهم علاقة بالخطاب المنشور بالاطلاع عليه والعناية بأمره . كذلك ليس من المبالغة القول بان خطاباتي وخطابات السير جرجورى بصفة خاصة كان فيها وقاية لمصر من كثير من الاخطار التى كانت تهددها . وقد وثق بنا أصدقاؤنا المصريون لما وصلت التيمس تحمل هـذه الخطابات وترجمت الى اللغة العربية وتجدد اعتمادهم علينا . ولـكن هذا ضايق ماليت . فقد كان مثله كمثل كل رجال السياسة فى بغض العلانيـة وقد حنق منا نحن الذين كنا موظفين فى خدمة الحـكومة اذ تجاوزناه هو ووزارة الخارجية ولجأنا الى الصحافة .وكان يعرف كيف يتصرف مع مراسـلي الصحف ولـكنه لم يعرف كيف يفعل معنـا نحن الـكتاب الاحرار ولا اسـتطاع أن يراقب آراءنا أقل مراقبة . ومن ثم انتهى عهد الصـداقة التي كانت بيني وبين الوكالة الى ذلك الحين رغم ماحدث من الخلافات الصغيرة . وكان هذا من سوء الحظ الذى قذف بماليت — الذى كان دائماً فى حاجة الى الاعتماد على من هم أقوى منه — فى أحضان قوم أقل ميلا منا الى المسالمة والصلح .

وفى مذكراتي أجد اني ذهبت فى يوم ٣١ يناير وهو اليوم الذي سقطت فيه وزارة غمبتا الى القاهرة وقابلت كلفن وتحادثت معه حديثاً خطيراً . وقد استحدثت الحوادث التى جاءت بعد ذلك لهذا الحديث أهمية تاريخية لمجيئه في تاريخ على مدى بضعة أيام من الوقت الذي غير فيه المراقب البريطاني مسلكه ففرت معه سـياستنا نحو الوطنية المصرية كما انه يضع على كاهل كلفن مسئولية القطيعة التى جلبها بأعماله. لقد ذكرت فيما سـبق طرفا من أخلاق السير أوكلاند كلفن فهو نموذج الموظفين فى خدمة الهند قوي الاعتماد على نفسه وضار معتاداً على الاساليب المتبعة منذ زمن طويل في الهند ولـكنها تعتبر معه هذا جديدة بالنسبة للسياسة الاوربية ولا يميل الى الشرق الا الميل الذي يجعله يستخدمه للاغراض البريطانيـة بغير ان يحبه وهو فوق هـذا كله بارد الطبع غير جذاب . وكنت قبل ذلك التاريخ قد أخذت الاسـتاذ الشيخ

محمد عبده لزيارته ابتغاء التقريب بينهما وكذلك فعلت مع الضباط ولكن أخلاقه نفرت الشيخ منه وكان الضباط أشد حياء من أن يذهبوا اليه معي . وكان كلفن فى بعض الاحيان مدهشاً فى صراحته ولا زلت أذكر قوله لي ذات يوم اذ كان يتحدث عن الاعمال الخفية التى اشتهر بها الشرقيون . انه مخطئ من يظن ان الشرقيين يفوقوننا فى ذلك . قال ان فى استطاعة أي انجليزي يعرف اللعبة ان يغلبهم بأسلحتهم وهم أطفال في الغش متى قام بيننا وبينهم النضال.

وقد كان فى الفرصة الحاضرة أشد صراحة منه في أي وقت آخر . وكان الخلاف بين الاعيان وشريف فى أشد أطواره فسألته عن رأيه فى الموقف فقال انه يعتبره خطيراً . فقد ظهر أن الوطنيين عقدوا النية على اسقاط شريف فاذا نجحوا قطع كلفن علاقته بهم . وقال لي انه غير فكره تماماً بالنسبة اليهم . فقد كان يظنهم معقولين ولكنه وجدهم خياليين وسيبذل كل جهده فى هدمهم اذا تقلدوا أزمة السلطة . فسألته كيف يفعل ذلك وكيف يقف حركة وافق عليها حديثاً وان كان قيادها خرج الآن من طوق كل انسان . كيف يعقل ذلك بغير ذلك التدخل الذى اجتهدنا جميعاً أن نحول دونه . فقال انه غير فكره فيما يختص بهذا التدخل أيضاً وانه يعتقد أنه صار الآن ضرورياً ولا مفر منه وانه لا يضن ببذل جهد فى تحقيقه . فجادلته فى ذلك وقلت ان التداخل معناه الحرب والحرب معناها الضم . فقال انه يفهمه بهذا المعنى وانه شهد هذه المسألة تكررت مرة بعد أخرى في الهند . وليس فى الطاقة أن ترفع انجلترا القدم التى وضعتها في مصر ولا فائدة البتة من التحدث عن حقوق المصريين أو اخطائهم النظرية . فليس ثم محل لاعتبار مثل هذه الشؤون . وقد كرر ماقاله عن تدمير الحزب الوطني وقال انه أعلن عزمه هذا ولم يبق سراً وسيعمل للتدخل والضم اذا لزمت الحال .

هذا واني واثق من اني لم أحرف شيئاً من العناصر الرئيسية في هذا الحديث فلم تكن المسألة مسألة كلمات قليلة تبودلت على عجل ولكنها كانت مناقشة استغرقت نصف ساعة وقد بلغ من تأثري منها ان قررت تحذير أصدقائي المصريين الذين كنت قد أكدت لهم فيما سبق حسن شعور كلفن نحوهم وقد وجب الآن أن

يتوقعوا أسوأ الشر من جانبه . وقد أجابوني بانهم يعرفون ذلك وانهم قد وصلت اليهم أنباء كهذه عنه .

وقد فتح هذا الحديث عيني لخطر جديد . وكان قد وصل الى قبل ذلك بيومين خطابان أحدهما من معسكر المحافظين في انجلترا وكلاهما يحمل مثل هذا الانذار . فقد كتب الى جون موربى رداً علي خطاب طلبت فيه مساعدته للقضية الوطنية المصرية يقول فيه « اني أشك الآن فى أن تصيب مشروعاتك أي نجاح. فمصر اسوء حظ أهلها ميدان المنافسات الأوربية وستحول مصلحة فرنسادون حل مسألتها حلا يتفق مع مصلحة أهلها . ولست أجد مهربا من هذا . انها لعنة الدنيا تلك العظمة السياسية التى سوف تفسد كل شيء » .

أما الخطاب الثاني فمن بيتون وقد جاء فيه ما يأتى « ان الجمهور الصغير الذى يعني بمسائل السياسة الخارجية فى قلق من جراء المركز الكاذب الذى نسوق أنفسنا اليه في مصر وهو يخشي أن يرفع صوته ويتكلم فى المسألة . ويلوح لي أن آراءهم مع ذلك ليست واضحة . وعندى ان هذه هى أولي ثمرات سياسية مبنية علي خطأ وقد أفقدتنا معونة المانيا والنمسا ووضعتنا تحت رحمة فرنسا التى لا يمكن أن يكون بيننا وبينها أى تحالف حقيقى فى أى يوم » وقد كتب الخطابان قبل سقوط غمبتا ويخيل لى الآن انى أسمع صدى ما فيهما من الكلمات ولا سيا كلمات مورلي عن العظمة السياسية من رجل فى استطاعته أن يفسد حلا عادلا لارضاء مصلحة فرنسا وكذلك مصلحة بريطانيا . والحق انه قد استولى علي الخوف وندمت على أن صدرت مني الكلمات التى قلتها لكلفن فى هذه الفرصة . فقد قلت له « انى أتحداك لتحقق ما تزعمه من التداخل أو الضم البريطاني » وكان ندمى راجعاً الى أن هذه الكلمات حركته من ناحية شخصية فضلا عن الناحية السياسية لتنفيذ مافعله بعد ذلك فقد صارت المسألة مسألة مباراة بيننا .

ولما وجد شريف باشا بعد يومين أى فى يوم ٢ فبراير انه لا يستطيع أن يطوى النواب الوطنيين لارادته قدم استقالته متأثراً بتهديد كلفن بالتداخل فيما اعتقد خلفه.

محمود باشا سامي البارودى الذى اختاره النواب وعين عرابي وزيراً للحرب فكانت الوزارة مزيجاً وطنياً ابتهجت به البلاد (١)

وقد جاءتني الانباء فى عزلتى بالصحراء فقابلتها بشعور من مزيج الفرح والقلق ولم يخف قلقى الا فى ٢٧ فبراير حين وصل الى رد المستر غلادستون علي الخطاب الذى كنت أرسلته له منذ ستة أسابيع وأرسلت معه البرنامج الوطني . ولا شك فى أن التأخر في الرد راجع الي الحيرة التى ورطته فيها ارتباطات غرنفيل مع غمبتا . ولكن سقوط غمبتا اطلق الحرية لحكومتنا فأدمجت فى خطاب الملكة عند افتتاح البرلمان فقرة تتضمن العطف علي الامانى الوطنية المصرية . وهنا ارسل الى المستر غلادستون رده وختمه بالعبارة الآتية « انا واثق من استطاعتنا حل المسألة على وجه مرض اذا لم يقع من أحد الطرفين أو كليهما أو على الأصح من الجميع خطأ كبير . أما رأيي فى المسألة المصرية فقد أعربت عنه في مجلة « القرن التاسع عشر » قبل أن أتقلد الوزارة بوقت قصير ولست علي بينة من أن هناك ما يستوجب تغييره الى الآن »

وكانت اشارته الى مقاله هذا الذى عنوانه « الاعتداء على مصر » علي جانب كبير من الاهمية لان المقالة كانت حكماً صارماً على سياسة التدخل والضم التي أعلنها

---

(١) كان فى الوزارة نقطة ضعف أو نقطتان أهمها ما يختص باختيار وزير الخارجية . ولم يكن محمود سامي أو عرابي أو غيرهما من الضباط المصريين يعرف لغة أجنبية . ولما كانت معرفة الفرنسية ضرورية للتفاهم مع القناصل فقد اختاروا رجلا يعرفها ولكنه ليس من حزبهم ولا يرتأي مثل آرائهم . وكان هذا الرجل مصطفي باشا فهمي من طبقة الحكام وأحد أتباع شريف وأركان حرب اسمعيل فى سنة ١٨٧٨ والذى اشترك فى مأساة اسمعيل باشا المفتش . وكان فزعه من تلك الحادثة هو سبب تحوله الي المبادىء الدستورية . ولكنه كان مثل شريف يحتقر زملاءه الفلاحين. وقد أصابهم بضرر بليغ بعد ذلك بشهرين اذ كان يصور قضيتهم فى مراسلاته تصويراً سيئاً . ولم يستطيعوا أن يدركوا هذه الحقيقة لجهلهم الفرنسية الا بعد فوات الاوان ..

الى كلفن فلما حصلت على هـذا البرهان الدامغ على حسن نية غلادستون عدت بسرور الى القاهرة واستطعت ان أخـبر عرابي انى لم أؤكد له عطفي عبثاً . وقد وجدته فى وزارة الحرب يحيط به أصدقاؤه وهو البطريرك القبطي وبعض المشارقة والاوروبيين الذين قدموا لتحيـة الشمس المشرقة . وكان عرابى يتحرك بمظاهر السيادة والنبل فى هذا المحيط وشـد ما كانت تخيل عليه تلك المظاهر . ولم يكن الآن مجرد قائد فرقة بل كان رجلا اكسبته المسئوليـة الجديدة التى ألقيت على عاتقه كثيراً من الرصانة . وكان لايزال مع ذلك فلاحا ووطنياً وان اكتسى مظاهر الرجل السياسى . وقد انفرد بى فاطلعتـه على خطاب غلادستون وابتهجنا به معاً كبشارة سعيدة .

على اننا لم ننتظر طويلا أولى ثمرات عداوة كلفن . ولست أدرى مصـدر الكذبة بالضبط ولكني ارجح أن يكون الخديوى هو الذى حملته غيرته السيئة من سلطه الوزراء على اذاعتها . فقد أرسلت شركة روتر تلغرافا قالت فيه ان استقالة شريف باشا حدثت تحت التهديد العسكرى . ثم قصت التيمس قصة طويلة مفادها ان سلطاناً باشا رئيس المجلس لم يذعن الا تحت تأثير التهـديد الشخصى وان عرابي استل سيفه امامه وهدد بتيتيم أطفاله وقد كانت هذه قصة طائشة فان سلطاناً باشا لم يكن له أبناء فلم يسع كل من عرف هـذه الحقيقة فى مصر الا ان يضحك من هذه القصـة ولا سيما أولئك الذين عرفوا متانة العلاقة بين عرابى وسلطان باشا ولكن هذه القصـة كانت كافية مع ذلك ليتخذ منها كلفن سـلاحا « لتدمير الوطنيين » فمرت بسهولة من رقابة الوكالة البريطانيـة وذكرها ماليت في بلاغاته اليوميـة هي وحكاية أخرى مفادها ان الخديو قبل اسـتقالة شريف تحت تأثير تهديد كهذا .

ومهما يكن من سخافة القصـة فقد استاء منها سلطان باشا وطلب مني بعد ان كان النواب قد عرفوا اصدقائى لهم ان اكذبها تكذيباً باتاً لدى ماليت . وقد ذهبت الى منزل سلطان باشا فوجدت فيه طائفة كبيرة من النواب وكثيرين من ذوى الحيثيات والمكانة فى مصر وهم الشيخ العباسي وعبد السلام باشا المويلحي

واحمد بك السيوفى وهمام افندى حمادى وشديد بطرس احد كبار النواب الاقباط وغيرهم .

وقد أنكر هؤلاء جميعاً هم وسلطان باشا أنهم عملوا تحت تأثير أى تهديد وتكلم سلطان باشا بلهجة شديدة ،ستنكراً القصة التى اخترعت عنه وقال « ان احمد عرابي انما هو بمثابة ابن لى وهو يعرف حقى وواجبه فمكانه في وزارة الحرب ومكاني فى البرلمان . وهو ينتصح لرأيى وليس يعتدى على حقوقي . أما من حيث استلامه السيف أمامى فهو لا يفعل ذلك الا اذا رأي أعداء يهاجمونى . وهذه حكايات لا يصدقها رجل يعرفنا نحن الاثنين وهى حكايات كاذبة لا أساس لها من الصحة . ولك أن تثق بأن أصغر نائب هنا يمثل الناس يحسن الحكم على ما يحتاجه أولئك الناس أفضل من أعظم جندى . ونحن نحترم أحمد عرابي لاننا نعرف انه صادق الوطنية عظيم المواهب السياسية وليس لانه جندى » وقد نقلت كلمات سلطان باشا هذه عن مذكرة لى أثبتها فيها يومئذ . وقد انحي الشيخ على ماليت لنشره مختلف الاباطيل وطلب مني أن أنقل اليه الحقائق وأن أبلغها لغلادستون وأنشرها في الصحف وقد أرسلت الحكاية بالتفصيل الي التيمس ولكنها لسبب لا أعرفه لم تنشرها وأرسلت تلغرافا بالمعنى نفسه للمستر غلادستون ثم أرسلت خطاباً مستفيضاً ضمنته رأيى فى الموقف كله .

وقد ذهبت في الحال من منزل سلطان باشا الى ماليت وجادلته فى المسألة بحدة . ولكنه أصر على أن حكايته هي الحقيقة وانه استقاها من سلطان باشا بالذات فلما علم أني قادم من منزل سلطان عاد فقال انه استقاها « من ثقة » فلما شددت عليه النكير وسألته عن هذا « الثقة » حنق وقال انى لا حق لي فى استجوابه . وكان ذلك آخر حديث لى معه فى السياسة . وقد فهمت من مسلك ماليت هذا انه مثل كافن انضم الى معسكر العدو وانه لم يبق محل للركون اليه . وقد ظهر لي خطر الموقف ملموساً لان الصحف ووزارة الخارجية كانتا بين أيديهم وقد شعرت بضعف مركزى في مناضلتها على الرغم من اصغاء رئيس الوزارة لى وعدم ضن التيمس بنشر آرائى . لذلك قررت أن لا أؤخر عودتي الى انجلترا حيث أستطيع

أن أخدم المصريين أكثر مما أستطيع ذلك فى القاهرة وذلك بالخطابة وبالتكلم مباشرة مع غلادستون . وقد تحدثت مع كبار النواب وأصدقائي الأزهريين قبل سفرى واطلعتهم على مشروعاتى فوافقوا عليها واتفقت مع السير وليام جريجورى على أن يتولى فى غيبتى الدفاع عن القضية المصرية التى كان متحمساً لها مثلى فى التيمس وبالخطابات يرسلها الى أصدقائه فى انجلترا . وكنت أحسب أني سأعود الى مصر فى ظرف بضعة أسابيع وأن أشترك في التطورات التى قد تقع.

وزرت عرابي آخر مرة يوم ٢٧ فبراير وهو اليوم الذي سافرت فيه الى انجلترا. وكان قد مضى علي أكثر من ثلاثة أشهر فى مصر وقد بدت لي كأنها عمر بما أثارته فى من بواعث الاهتمام . وقد نظرت الى مصر كأنها وطن لى ثان واعتزمت علي أن أقف الى جانب المصريين كأنهم هم مواطني . وقد شعرت بالبعد عن مواطنى فى اليوم ما عدا السير جريجورى الذى كانت تتألف منه الجالية البريطانية فى مصر

وقد انقاد الجميع لآراء كالفن كما تنقاد الغنم وصاروا جميعاً يقولون بالتدخل . ولم يكن التدخل الذي يتكلمون عنه تدخلا فرنسياً بل تدخلا انجليزيا وقد تحول فصار الآن واجباً بعد أن كان محض اعتداء كما كان مفهوما أنه سيكون من جانب فرنسا . نعم كان التدخل بغيضاً وكان اعتداءاً محضاً لما هدد به غمبتا ولكنه صار عادلا ومرغوبا فيه بل صار واجباً وطنياً لما نادي به غرنفيل وكذلك حدث مع الجالية الفرنسية فى مصر فقد صارت فى جانب المسالمة لما تغير رئيس الوزارة الفرنسية وخلفه المسيو فرسينيه وعكس سياسة سلفه . ولم يشذ عن هذه القاعدة من الجالية كلها الا المسيو بلنجيير وغيره من الفرنسيين ذوى الوظائف الرسمية الذين خافوا الضغط في العهد الجديد.

وقد جد كالفن وبلنجيير فى بث الرعب بين أصحاب الوظائف وكان من دواعي الدهش أن غير الشاعر لورد هاوتون موقف العطف الذى كان قد اتخذه حيال القضية الوطنية حين أخبره زوج ابنته فتزجرالد أن عيشه اليومى أصبح مهدداً. وكان مفهوما ان البرنامج الوطنى يقضي بالاقتصاد في المرتبات غير الضرورية وعدم السماح بأن يشغل رجل واحد وظيفتين ويتناول مرتبين . ولم يعز كالفن هذه الخطة

لسببها الحقيقي وهو الاقتصاد المشروع ولكنه عزاه الى « التعصب » وهذا لفظ يلائم الاغراض الجديدة . وقد بدأوا يكثرون من استخدامه فى وصف الحركة الوطنية . أما الذى استندوا فى الحكم عليه فقد كان ماسماه جماعة الموظفين البريطانيين « قرار مجلس النواب المصرى الفظيع » اذا هو تمكن من السيطرة على الميزانية علي قطع الالاف الجنيه التى كانت تعطى لشركة روتر . وكان يخيل لهم انه اذا قطعت هذه الاعانة استحال عليهم أن يعرفوا تفصيلات ما يجرى فى سباق القوارب بين جامعتى كمبردج واكسفورد !! أو تفصيلات الحصول على جائزة سباق دربي ... وكانوا كذلك يقولون أن المجلس سوف لا يبقى التسعة الآلاف التى تعطي للاوبرا وشد ما كان فنزجر الد بدي، ويعيد فى هذه القصة ويؤكد انها نتيجة التعصب الفظيع . وكانت هذه الترهات وأمثالها من التافهات قد اعتبرت جرائم هائلة ضد المجلس وضد الوزارة التى كان يقال انها متفقة مع المجلس فى وجهة النظر . وقد تعودت أن أسمع قصة هذه الشكايات من جريجورى الذى كان الصق بالجالية الانجليزية الآن مني . وقد بدا لى أن أظهر ثقتى فى نجاح القضية الوطنية — بعد أن أخذ أثر التهديد بالتداخل يظهر فى انخفاض أسعار أسهم الدين المصرى والأراضي المصرية — فاشتريت جنينة الشيخ عبيد وهي أربعون فدانا بين المرج والمطرية ونويت أن أقيم فيها في المستقبل

وقد يعنى القراء المصريون أن يعرفوا سعر أراضي تلك المنطقة فى ذلك الحين. ولم يكن قد بنى ولا منزل واحد كما أسلفت في شقة الصحراء بين العباسية وكفر الجاموس وكانت الحكومة راغبة فى بيع الصحراء لكل من يقبل أن يدفع في الفدان بضعة قروش . وقد فكرت ذات يوم أن أنشيء لنفسي مقراً فى المكان الذى ضربت فيه الخيام وتحريت من صديقى روجرز بك الذى كان فى مصلحة الأراضى بوزارة المالية عن الأسعار وقدمت طلباً لمشترى مائة فدان فى الزيتون على أن أدفع في الفدان خمسة عشر قرشاً . وهذه الاراضى يساوى الفدان منها الآن ، في سنة ١٩٠٤ مائتى جنيه . ولكن حدث انى حين كنت أساوم فيها علمت أن جنينة الشيخ عبيد معروضة للبيع فاشتريتها بالمزاد من لجنة الدومين بألف وخمسمائة جنيه . وقد كانت

حينئذ أحسن حديقة للفاكهة فى مصر يحيط بها سور وتروى من ماء نمير وكان فيها شجرة من شجر الفاكهة في أحسن حال .

ولهذه الحديقة تاريخ لا بأس بايراده . فهي قطعة أرض خصبة على حافة الصحراء وكان يملكها فى أوائل القرن التاسع عشر أمام جيش ابراهيم باشا الذي غزا به بلاد العرب . ولكن الامام وقع فى أزمة فاشتراها منه ابراهيم باشا وسور منها ثلاثة وثلاثين فدانًا واحتفر السواقي ونظمها كما هي الآن . وقد حدث هذا كله من الثلاثين سنة الاولى من القرن الماضى . وقد جلب بعض الشجر المغروس فيها من الطائف فى الحجاز وبعضه من سوريا . وكان ابراهيم باشا قد عني بأن يجعلها أحسن حديقة من نوعها وكان ايراد بيع فاكهتها في عصره وعصر ابن أخته مصطفى الذى ورث الحديقة يبلغ ٠٠٠٫٠ جنيه. أما العمل فيها فكان سخرة على الفلاحين المجاورين وكان رمانها من كبر الحجم بحيث شاعت بين البستانيين قصة فحواها ان الجمل لايحمل اكثر من ثلاثين رمانة من رمانها وانه كانت ترسل كل عام هدية من هذا الرمان للسلطان . والذى أعرفه هو أنه فى زمن توفيق حفيد ابراهيم وفى الوقت الذى كان توفيق فيه يعيش فى عزلة أثناء حياة أبيه اسماعيل بقصر القبة كان سيدات الحرم يذهبن الى هذه الحديقة يومًا فى الاسبوع للرياضة فى فصل الربيع. فلما خلع اسمعيل فى سنة ١٨٧٩ وقعت هذه الحديقة فى أيدى المصفين وكانت من المناطق الصغيرة التى استقر رأيهم على بيعها وهذا هو الطريق الذى وصلت منه الى السوق . وكنا في العام السابق قد ضربنا خيامًا خارج أسوارها ونحن فى الطريق الى سوريا وقد شاقنا ما فيها من جمال ولا سيما شجر المشمش الذى كان يومئذ فى ابان ازهاره لذلك ما أسرع ماأقبلت عليها ونبذت كل مشروعات الشراء الاخرى حين علمت أن فى الطاقة الحصول عليها وهأنا أكتب الآن في ظل احدى مجاليها الظليلة .

والآن أعود لزيارة الوداع التى زرتها لعرابي .ففي هذه الزيارة تناقشنا فى كل الموضوعات التي كانت محل الكلام يومئذ فى الدوائر الوطنية بما فيها من مشروعات للاصلاح وأمان ومخاوف فى الداخل والخارج . وكانت بضعة الاسابيع التي قضاها

عرابي في مركزه الجديد — وزير الحرب — قد أنضجته وقوته فناقشني فى كل الموضوعات برصانة واعتدال عظيمين سواء في التفكير او فى اللهجة . وقد أكد لي انه هو وزملاؤه الوزراء يرغبون كثيراً فى أن يصلوا الى تفاهم ودي مع الحكومة البريطانية فى كل المسائل التى يختلفون فيها مع الوكالة البريطانية فى القاهرة وطلب الي أن أبلغ رسالته هذه بصفة رسمية الى غلادستون .وقد شكا شكوى مرة من كلفن وماليت اللذين ظهر مسلكهما العدائي من الخطة التى جريا عليها فيما يختص بتشويه سمعة الوطنيين فى الصحف البريطانية .وقال لي « ان السلام لا يمكن أن يوطد فى القاهرة ما بقى هذان وما بقيت علاقتنا مقصورة عليهما فاننا نعرف انهما يعملان لايذائنا سراً ان لم يكن علناً . وسنقف بمعزل عنهما جميعاً . ولكننا لا نريد أن نختلف مع انجلترا كرامة لهما .دع المستر غلادستون يرسل لنا أيا كان خلافهما لنتفاهم معه ونحن نستقبله بأذرع مفتوحة» وقد أطنب كذلك فى تفصيل مشروعات الاصلاح التى ينويها محمود سامي وزملاؤه الوزراء . وقد نفذ كثير من تلك الاصلاحات بعد ان عزى للموظفين البريطانيين في عهد الاحتلال وادعى لورد كرومر انه مبتكر كثير منها .فمن ذلك الغاء السخرة التى كان يضربها الباشوات الترك على الفلاحين واحتكار بيع الماء فى مدة الفيضان وحماية الفلاحين من المرابين اليونانيين الذين أنشبوا فيهم الاظفار بسبب فقدان العدل فى المحاكم المختلطة . ومن هذه الاصلاحات أيضا انشاء بنك زراعى تشرف عليه الحكومة . وهذا هو البنك الذى باهى به كثيراً المرحوم اللورد كرومر .

كذلك تناقشنا فى الاصلاحات القضائية وكانت دوائر القضاء يعمها الفساد كذلك تكلمنا فى نظم تربية الذكور والاناث وفى طريقة الانتخاب للبرلمان الجديد ومسألة الرقيق . وقد أطال عرابي الكلام فى هذه المسألة الاخيرة وكان الموظفون الاجانب في مصلحة الرقيق قد خشوا أن يتناول الاقتصاد فى المرتبات مراكزهم ومن ثم كانوا يزعمون أن احياء الاسلام معناه احياء الاسترقاق . وقد أظهر لي عرابي ضعف هذا الزعم وما فيه من الافتراء وبين لي انه ليس فى مصر من يود أن يكون لعبيد غير أمراء البيت الخديو والباشوات الاتراك الذين تعودوا استعباد الفلاحين

وان الاصلاحات الجديدة سوف توطد المساواة بين الناس مهما اختلفوا في الجنس واللون والدين وليس مع هـذا الاصـلاح محل للاسترقاق . أما فيما يختص بضرورة الاستعداد لحرب محتملة — ذلك الاستعداد الذى يجب أن يشغل ذهن وزير الحرب فقد تكلم عنه بصراحة وقوة فقال ان الحكومة الوطنية لا تنزع سلاحها ولا تخفضه حتى يوطد الحكم الدستورى وتعترف أوربا به . وكان يرجو ألا يتجاوز مربوط وزارة الحرب الذى اتفق عليـه مع كافن والا يضطر الى زيادة عدد رجال الجيش عن ١٨٫٠٠٠ .أما اذا استمر التهديد بالتدخل فلا مناص له من اتباع الطريقة البروسية أي التجنيد العام لمدة قصيرة ليتمكن من انشاء احتياطي كبير . وقد سأل عن رأيي في احتمال وقوع الحرب فقلت له صراحة انى بما علمته من اجتهاد كافن فى احداث التداخل وبما أراه من الهياج الذى بثه فى الصحف أعتبر أن الخطر حقيقى وانى ذاهب الى انجلترا لا لشيء الا لأضـع حداً لحملة الـكذب التى ثارت في الصحف .وستكون مهمتى هناك نشر الدعوة للسلام وحسن النية .وفي الوقت نفسه لم أستطع أن أنصح له الا بالثبات والحزم في موقفه وبان أفضل وسيلة لضمان السلم انما هي الاستعداد للدفاع . وقلت ان شر أعداء مصر ليس الحكومات الاوربيـة بل الماليين الاوربيين وان هؤلاء لا بد أن يفكروا طويلا قبل أن يعرضوا مصالحهم للخطر بالحض على اثارة حرب طويلة ذات نفقات طائلة . وقل أن يسيء أحد الى أمة مسلحة مستعدة للدفاع عن حقوقها .واذكر انى اقتبست له من شعر لورد بيرون قوله « لا تأمن الفرنج على الحرية» فوافق عرابى على ذلك وكانت هذه فيما أظن آخر كلماتنا .وقد وعدته بان أعود وأنضم الى الوطنيين اذا شاء القضاء ووقع السوء

الفصل العاشر

توسلي فى « دوننج ستريت »

هذه قصة الدور الذى قمت به فى مصر اثناء ذلك الشتاء قد رويتها تفصيلا وبكل أمانة ودقة . وقد اعتمدت فى مراجعة حوادثه المهمة وضبطها على الخطابات والمذكرات الموجزة التي وجدتها بين أوراقي ولكن أكثر اعتمادي كان على قصصها الذى وضعته خلال حرب سنة ١٨٨٢ ونشرته فى عدد سبتمبر في مجلة « القرن التاسع عشر فى ذلك العام » والواقع ان قصتى الحاضرة ليست الا تفصيلا لتلك القصة .

أما قصصي الآتى فسيكون جديداً لاني اذا كنت قد كتبت قطعاً منه ونشرتها فى أوقات مختلفة فانى لم أجد بعد فراغا لاستكمال ما كتبته منه واعتمادي فى تقرير ما سوف أذكره من التواريخ والحوادث سيكون علي مذكراتى اليومية التى استأنفت تدوينها منذ عدت الآن الي انجلترا وعلي الخطابات الكثيرة التى نشرت أو لم تنشر ولا تزال عندى وهي الخطابات التى تبادلتها مع كبار الساسة الذين وجدت نفسي متصلا بهم فى الأربعة الاشهر التى انقضت بين وصولى الي انجلترا وضرب الاسكندرية والتى تبودلت بينى وبين الذين كانوا يقولون بمحاكمة عرابي بعد موقعة التل الكبير . فهذه شهادات سوف أثبتها متى اقتضت الحال سواء فى القصة ذاتها أو فى ملحقها . وسيظهر أن هذه الحسابات وحدها تقص القصة بذاتها متى حبك بعضها الى بعض بالشرح الضرورى ونسرد علي القراء أسباب الحرب

وقد كان الموقف السياسي الذى وجدته في لندن عند وصولى اليها في ٦ مارس يناقض الموقف الذى تركته ورائي فى القاهرة منذ اسبوع مناقضة غريبة . كان قد مضي عامان على تقلد غلادستون رئاسة الوزارة وكان تحمسه للقوميات الشرقية والحرية الشرقية ذلك التحمس الذى رفعه فى انتخابات سنة ١٨٨٠ الى فرصة السلطة قد فتر في كل مكان ثم خلفته فى الدوائر الرسمية آراء العنف الاستعمارى ولا سيا مع الوطنيين الارلنديين فلم يكن في ذلك فأل طيب لمصر . وكان مجلس الوزراء قد

انشطر شطرين فكان كبار زعماء الاحرار المتسيطرين على مصالح الحكومة المهمة وهم هارنجتون ونورث بروك وتشيلدرز يميلون الى استخدام وسائل العنف والشدة. وكان غلادستون وهاركورت وبرايت وخدهم تقريباً يميلون الى المسالمة أما الشعور العام في البلاد فكان قويا ضد « العصيان ومخالفة القانون » في كل مكان وكان قانون « القاء القبض » Habeas Gorpus قد علق فى ارلندا والقى القبض على بارنل ومعه عشرون من أعضاء البرلمان الوطنيين والقوا بغير محاكمة فى سجن « كيلمانهام » وكان سائر أعضاء البرلمان الارلنديين قد أخذوا يعطلون العمل فى مجلس النواب وصارت كل « قومية » قذي فى أعين حزب الاحرار . ومن ثم لم يكن جو « وستمنستر » وغيره من الوزارات صالحا لقيامي بنشر الدعوة لمصلحة القومية المصرية . وكان الاشخاص القليلون الذين يهتمون بمصر حقاً هم حملة سندات الدين وهؤلاء أقنعهم كلفن الذى كان قد احتكر الصحف على مامر بك بان عرابي والحزب الوطني انما هم عصبة من المهيجين المتعصبين الذين لا يحجمون عن احراق بورصة لندن اذا وجدوا لذلك سبيلا والذين نجحوا فعلا فى تخفيض قيم الضمان وجعلوا القطع صعباً وخطراً .

أما فى وزارة الخارجية فكان الموقف فيما يختص بمصر كما يأتى : كان غرانفيل، الهرم الاصم المكسال، حين وجد نفسه قد خلص من كابوس سياسة غمبتا الجريئة قد استسلم الى غريزته التى من شأنها فعل لا شيء وترك الشؤون تسوى نفسها بالهدوء الذى تسمح به الاحوال . فلم يكن راغباً في التدخل ولا كان يريد أن يقوم بأي عمل عدائي نحو الوطنيين ولا بأي عمل على الاطلاق فى الحقيقة . ولم يكلف نفسه مشقة قراءة البلاغات ولكنه ترك الى سكرتاريه الخصوصيين مهمة العلم بما يجرى حوله وكان جل اعتماده على وكيله السير ديلك الذى كان في استطاعته أن يفحص له الانباء ويعرض له ما يختاره من الحقائق ويلائمه من الآراء . وكان ديلك الذى شاطر غمبتا مسئولية المذكرة المشتركة المؤرخة ٦ يناير قد أصبح عاملا رئيسيا فى سياسة التدخل بعد اختفاء غمبتا من قيادة الشؤون الفرنسية وكان يعمل بالاتفاق مع كلفن والماليين على دفع الامور الى مأزق لا يسع رئيسه المتحرج منه الا أن يتدخل. ومع

أن ديلك نفسه لم يكن وزيراً فقد كان يعتمد في هـذا الصدد علي تأييد قوى من وزارة شمبرلين وهو صديق شخصي له وحليف ليس فى طاقتــه أن يفهم الشؤون الخارجية . وكانت سمعته هو وزميله هذا هي أنهما أشد عناصر الوزارة تطرفا ولذلك كان لهما نفوذ على قسم من حزب الاحرار يميل الى المجازفات الخارجية وكان سواد المتطرفين في البرلمان لا يعرف شيئاً من حقيقة الحال ولا يبالى بالمسائل المختلف عليها ما دامت على بعد شاسع .

بيـد أنى وجدت في استطاعتي لفت كثير من الانظار وكان قد كثر اطلاع المطلعين على خطاباتى التى نشرتها التيمس ثم كان الناس يقبلون بشوق لسماع كلامي وقد استطعت أنا والسير جريجورى أن نلف عرابى فى بهجة البطولة التي كان خليقاً بها بصفته مدافعاً عن حقوق الفلاحين وكنت استطيع أن أجد من يسمعون لي من هذه الناحية دائماً . وكانت الاشاعات المختلفة لاتفتأ تدور حوله وكذلك الحكايات المضحكة التي تصوره كفرنسى أو أسباني فى أهاب مصرى أو كأجور من مأجورى الخديو اسماعيل أو الدعي حليم أو السلطان أو أي شيء آخر الا الشىء الحقيقى . أما أنا الذى رأي عرابي رأي العين فقد كان في استطاعتى أن أشرح الحقيقة على انه لم يكن أحد يهتم بالمسألة اهتماما جديا ولكن كانت مسألة فضول وكنت أجد من الناس أصغاءاً .

وكانت أول زياراتي بعد وصولي الي لندن لديوان رئيس الوزارة ومع انى لم أقابل المستر غلادستون شخصياً فقد قابلت صديقى هاملتون سكرتيره الخاص وتحدثت معه حديثاً طويلا مرضياً . وكنت بعد اختــلافى مع ماليت فى شك من الطريقة التى يستقبلونني بها ولكنه أسرع فاخبرنى أن تداخلي فى سياسة ماليت لم يغضب رئيسه ولكن المستر غلادستون بعكس ذلك ممنون من خطاباتي ومن الخطة التى سلكتها فى مصر . وكانت المسألة الارلندية تكشف كل ما عداها فى ذهن غلادستون ولكني مع ذلك أستطيع أن اطمئن نفسي من ناحية المخاطر التي يلوح لى أنها توشك أن تحل بالقاهرة فهذه المخاطر لا يمكن أن تفضي الى متاعب جدية ومهما كانت آراء وزارة الخارجية فسيحول المستر غلادستون دون تنفيذها . وان

التداخل المسلح « مستحيل » ما بقي غلادستون في رئاسة الوزارة . ولا ريب في أن الفكرة في ذاتها مضحكة . وسنستأنف الكلام في ذلك بعد كما أني سوف أقابل المستر غلادستون . وفي هذه الاثناء سيعني هاملتون بان يقف لورد غرنفيل على نبأ حضوري . وأخيراً تركت هاملتون وثقتي كبيرة .

في صباح اليوم نفسه زرت ابن عمي الجرنون بورك وكان يومئذ معروفا من أصدقائه باسم « باتون » (١) وكان مقدورا أن يكون دوره في المسألة المصرية في ذلك العام دورا مهما ومن ثم كثر ما تكرر اسمه في مذكراتي وكان موقفه في الحياة الاجتماعيــة موقف شاب على الطراز الاخير وثيق الاتصال بالعالم الرسمي فانه كان الابن الاصغر للورد مايو الذي حكم الهنـد وكان ابن أخي النائب روبرت بورك (الذي صار بعد ذلك لورد كونيارا) الذي كان وكيلا لوزارة الخارجية وكان اليوم أي في سنة ١٨٨٢ زعيم معارضة المحافظين في مجلس العموم في مسائل السياسة الخارجية

وكان باتون أيضاً له مركز في تحرير التيمس لا كمحرر ولكن كوسيط بين شنبري رئيس التحرير ورجال السياسة . واذ كان ابن نبيل من ذوي الرتب كان يستطيع ان يدخل ابهاء المجلسين . وكان يعرف كل انسان هناك وكل ما يجري من الشئون ثم كان ذا صلة متينة برجال البلاط وبأصحاب الاموال وبجميع القابضين على أزمة الشئون المهمة في الدولة . وكانت صداقتنا متينة وكان اخلص نصحائي واكبر ثقاتي في بضعة الاشهر العصيبة التالية بما كان له من حكمة دنيوية لا أستطيع أن أزهي بمثلها وما كان في ذهنه من خصب وسعة حيلة يعجب بهما . واليه يرجع ثلاثة ارباع الفضــل في ذيوع كتاباتي في الصحف وفي المعونة التي بذلت في البرلمان . ولما التقيت به رويت له كل ماحدث في مصر خلال الشتاء كما أفضيت اليه بمشروعاتي التي أعددتها للمستقبل . وكان رأيه في المعارضـة يختلف كل الاختلاف عن رأي هاملتون لان معرفته بآل روتشلد صيرته علي بينة من الحبال المالية التي يشدونها لتحقيق فكرة التداخل . ثم كان قليل الثقة بقدرة غلادستون علي فهم المسائل السياسية

---

(١) زر

الخارجية او التصرف فى مسألة فيها من المصالح المالية أحدثت كل هذا التأثير على أسعار بورصات اوربا . ومع ذلك كان ينصح لى بالمحافظة على المركز الذى نلته في رئاسة الوزارة وان استخدم نفوذى كأحسن ما استطيع فاذا أخفق الاعتماد على غلادستون استطعت أن أعتمد على المعارضة فى مجلس النواب . وقد أكد لى حصولى عليها متى اقتضت الحال . فلم يبق لى فى تلك اللحظة إلا أن أحادث كل من أعرفهم من أعضاء المجلسين فى هذا الصدد والا ان استمر على مراسلة التيمس وقد أخذت بهذه النصيحة الحكيمة ونفذتها بلا بطء

وفي مذكراتي أجدنى ذهبت يوم ٩ مارس لزيارة جورج هوارد (والان اورد كارليل) وعقيلته ونجحت فى حملها ولا سيما السيدة على الانضمام لآرائى . وكانت يومئذ كما هي الآن سياسية قوية وكانت عظيمة الثقة في غلادستون وقد نصحت لى بأن أضع كل ثقتى فيه وانه لاشك فى انه سيحول دون وقوع أى أذي بالحرية . وكان . أما زوجها فكان أقل ثقة ولكنه بادر الى الموافقة على اخذى لمجلس العموم الذي كان عضواً فيه ليقدمنى بعد ظهر ذلك اليوم الي زملائه أعضاء حزب الاحرار الذين يعتقد أنهم أقدر على مساعدتي . ومن ثم ذهبنا معا وتعرفت الى دلوان برايس وغيره من الاعضاء ذوي النفوذ ولا سيما الذين كانوا منهم يعنون بمسألتى بلغاريا وأرمينيا حين عقد مؤتمر برلين . وقد وعدني كل هؤلاء بالمساعدة كما وعدني بمساعدته ذلك الرجل الفاضل تشسون الذى تحادثت طويلا معه ومع ستانلى زوج أخت هوارد في غرفة الشاى . وكان تشسون ذا قوة سياسية كبيرة على الرغم من أنه لم يكن عضواً فى البرلمان وذلك انه كان يحترف السياسة اذ كان سكرتيراً لجمعية « حماية اهل البلاد الاصلاء » وكان يثير هياجا كلما اعتدت أوربا على قوم غير أوربيين وقد دلت الحوادث علي عظم قيمة المساعدة التى قدمها لى فى أوربا من ابتداء الامر الى آخره فقد كان دائم الاتصال اليومي بجميع أعضاء البرلمان المتطرفين. وقد نصح لى هوارد بالا أضع القضية فى أيدى جماعة « المحترفين بمقاومة التدخل » وان أقوم بنشر دعوتى على أساس مستقل . وكنت فى ذلك الحين جديد غير متمرس باحوال السياسة الانجليزية .

ولقد كنت قليل التمرس الى حد ان هذه كانت أول مرة دخلت فيها الى حجر مجلس العموم مع انى كنت في سن الحادية والاربعين . ومنذ ذلك اليوم أصبحت كثير التردد على ذلك المجلس .

وفي اليوم نفسه حادثت فيليب كرى مليًا في وزارة الخارجية وتناقشنا طويلا فى المسألة المصرية .وقد لمحت بادئ ذي بدء انه مستاء مما عملته في القاهرة — بسبب شكوى ماليت مني — ظانًا انى ألعب « لعبة كبرى عملية على حساب وزارة الخارجية » ولكن مالبث أن تلاشى هذا الزعم لانني ماأسرع ماأقنعته بخطورة المسألة وباهتمامي بها بصفة جدية وبانى مصيب في آرائي فأشار علي بمقابلة ديلك وغرانفيل فى اليوم التالي .

ثم انى أجدنى أيضا في اليوم نفسه حادثت اللورد ملتون أحد لوردات ايرلندا مما يظهر الصلة الغريبة بين مصر وايرلندا فى الافكار السياسية وقتئذ . وهاك ما كتبته عن محادثته « ان قصته — أي قصة ملتون — عن شؤون ايرلندا لتشبه كل الشبه القصة التى يرويها الموظفون الاجانب عن مصر . فهو يرى أن المصاعب الموجودة فى ايرلندا ليست الا من عمل المشاغبين وان الفلاحين الايرلنديين لا يميلون بتاتًا الى الحزب الوطني وان التدخل بقوة السلاح كفيل بأن يعيد الامور الى مجاريها الطبيعية » .

وفى يوم ١٠ قابلت ديلك فى وزارة الخارجية بعد ان زرته في داره في سلون ستريت .وقد كان في حالة غضب . فبدلا من أن يصغى لاقوالي شرع يشكو الي من الوزارة المصرية الجديدة قائلا ان وزارة عرابي منذ تربعها فى دست الحكم أنفقت على الجيش ما ينيف على نصف « مليون جنيه » وانها أتت أعمالا صبيانية أخرى . وكنت أعلم أن تلك الحكاية لا يمكن أن تكون صحيحة لان الوطنيين لم يمر عليهم في كرسي الحكم سوى ستة أسابيع فقط . فذهبت الى ساندرسون وكان وقتئذ السكرتير الخاص للورد غرنفيل (وهو الان سير توماس ساندرسون رئيس وزارة الخارجية) وطلبت اليه أن يحقق خرافة النصف مليون الجنيه فوجدنا بعد مراجعة الرسالة الخاصة بها أن المبلغ المذكور لم ينفق كما أخبرنى ديلك فى « الستة الاسابيع »

الماضية بل فى «السنة» الماضية .على ان هذا التشويه الغريب من جهة ديلك — الذى قرر ما قرره كما لو كان حقيقة لا تقبل الجدل — ربما كان مجرد غلطة شنيعة ولكن الصحف رددت تلك الخرافة فى ذلك اليوم مع أن عدداً غير قليل من تلك الصحف كان يستمد الوحي من ديلك مباشرة .وهو مثل للطريقة التى كان ينشر بها الاخبار الضارة بسمعة الوطنيين المصريين بقطع النظر عن سخافة هذه الاخبار .

وكان مورلي هو البوق الرئيسي لديلك .كما ان البال مال غازيت (وهي الجريدة الوحيدة التى كان غلادستون يقرأها بامعان) أصبحت طول الربيع وأوائل صيف ١٨٨٢ بسبب تأثير ديلك وكافن معرض الاكاذيب الفاضحة والقائلة بوجوب التدخل . فقد حمل مورلي نفسه — على ما أعتقد — على تصديق ما ابلغ اليه فراح يعمل بسلامة نيته ولكن الشيء الاكيد بالرغم من ذلك كله هو ان مورلي يقع على رأسه أكثر من أي حي آخر مسئولية حمل غلادستون علي الالتجاء الى القوة فى مصر وهي أكبر خطيئة في تاريخ حياة غلادستون العمومية .ولم يكن موقف مورلى وقتئذ موقفاً مستقلا كما انه لم يكن هو صاحب الآراء المنشورة المعزوة اليه ولم يكن قد دخل البرلمان وقتئذ بل كان ينتظر فراغ كرسي .فكل آماله فى الحياة السياسية كانت قائمة علي مساعدة أصدقائه السياسيين مثل ديلك وتشمبرلن .

فلم يكن له والحالة هكذا مناصر — اذا لم يشأ العدول عن مطامعه الشخصية — في أعلى الخطة التى رسمها له ديلك فى الشؤون المصرية . ولكم كان أسفه شديداً فيما بعد على ما فعل حتى انه على ما أظن — ما كان يحب أن يتذكر الدور الذى لعبه وقتئذ . ولكن لا ريب فى أن مسئوليته عن اشعال نار الحرب كانت عظيمة . ولا يفوتنا أن نلاحظ أن مورلى فى كتابه المسمى «حياة غلادستون قد أخفى حقيقة الرواية المصرية واكتفى بتلخيصها تلخيصاً مشوهاً فى بضع صفحات. ولكن التاريخ تاريخ ولا مفر من إثبات سلطته .

فبعد تسوية هذه المسألة مع ساندرسن أخذني كري لرؤية لورد غرانفيل ولم أكن عرفته قبل الآن وهناك حدثت مناقشة أخرى .

وكان لورد غرانفيل على جانب عظيم من التهذيب وقد أخذ يسأل عن خيلي

العربية ويطريني من أجلها ثم تحول الى موضوع المسألة المصرية وأخبرني « ان لديه معلومات موثوق بها تدل على أن عرابى انما هو صنيعة اسماعيل وأن المسألة كلها مسألة دسيسة يراد بها رجع اسماعيل ! » وكانت هذه أيضا حكاية من الحكايات غير المعقولة التي دست لوزارة الخارجية وللجمهور لحمل الرأي العام على سوء الظن بالمسألة المصرية . وقد نمت الى وزارة الخارجية فيما أعلم من تلغراف أو خطاب خصوصي أرسله اليها السير أوغسطس باجيت سفيرنا فى رومه الذى قال له اسماعيل مباهيا على ما يظهر « ان عرابي فى جيبه ».

وليس ضروريا ان نبحث هنا الاسباب التى حدت اسماعيل الى ذلك فان كلمته هذه لم يكن لها أى قيمة ولا شك فى أن مسلك عرابى من أوله الى آخره يدل على عكس ذلك تماما . بل أن مسلك عرابى فى ذلك الحين كان أدل منه في أى وقت آخر على عدائه للباشوات الجراكسة ، انصار اسماعيل الذين كانوا يدسون الدسائس لتوفيق . ولم يكن يخفى على كل حال ان لاسماعيل اغراضاً فى اظهار الحركة المصرية كأنما حدثت من اجله . وكان دائم التشبث بفكرة مآلها ان الدول الاوروبية سوف تقدم ذات يوم على خلعه وان ترجع انيه باعتباره الحاكم الوحيد القادر على حكم بلاد اضطربت امورها على اثر غيابه . على اني لم اكن اعرف في ذلك الحين مصدر الحكاية كما انه لم يكن فى استطاعتى نقضها باكثر من التأكيد بان الزعيم المصري أشد الناس معارضة لاسماعيل (١) فعلت ذلك فابلغت الرسالة التي كلفني عرابى ابلاغها الى غلادستون فلم يزد في الجواب على أن قال « هل ينزلون عن حق المجلس فى الاقتراع علي الميزانية ؟ » فقلت له انى أخشي ان لا يكون ثمت أمل فى

---

(١) وجدت بين مذكراتي بعد أعداد هذا للطبع مذكرة تاريخها سنة ١٨٨٤ تؤيد وتصحح عبارة باجيت وهذا نصها . فينا فى ٢٠ سبتمبر . تغذيت في السفارة . وكان السير باجيت أنيسا . وتكلم عن مصر ولايزال يذكر مترجم نوبار . وقد سألني رأيى فى عرابي فسألته هل حقاً أخبره اسماعيل بان عرابي أجيره فقال انه لم يخاطب اسماعيل بشأن عرابى قط ولكنه يذكر ان اسماعيل قال (لقد كلفنى هذا الصبي مالا كثيراً)

ذلك نظراً لاتفاق جميع النواب عليه . فقال « اذن اعتبر انه لا أمل في مسألتهم ولابد أن ننتهي بحملهم على الاذعان بالقوة » فقلت له اني لا أستطيع التصديق بأن الحكومة البريطانية تدخل في هذا الشأن حقاً وأن تصادر الحرية على مثل هذا الاساس . ولكنه احتفظ برأيه وتركته غير راض مصمماً على الا اضيع وقتاً آخر فى اقناع وزارة الخارجية وانما يجب على ان ابذل كل جهدى فى الضغط عليها من الخارج وانه « لابد لى من مقابلة غلادستون » .

وقابلت فى اليوم نفسه موزلى فى مكتب تحريره محاولا أن أشل مفعول الاقتراءات التى كانت تنهال عليه من كل جانب ولكن عبثا حاولت . فقد كان شديد الثقة بكلفن الذي كان مراسله المعين فى مصر . وكان تحت نفوذ آخر يعمل تحت تأثيره وقد شق علي ان أقاوم ذلك النفوذ .

وفى الحادى عشر تغذيت مع « باتون » الذى دعا جماعة لمقابلتى خصيصاً . وكان هؤلاء السير فرنسيس نولي سكرتير ولى العهد ورد جنالك بريت (والآن لورد ايشر) الذى كان يومئذ سكرتير لورد هارنجتون وكايفورد احد كبار كتاب التيمس والجنرال السير جون آيد الذي كان من اصدقاء ولسلي وخدم تحت امرته ذلك العام فى الحملة المصرية وقد بقى مع ذلك عاطفاً على المصريين في كل ما حدث خدمة للانسانية كما سيتضح بعد حادث التل الكبير . وقد قضينا ليلة سارة وأظهر الكل اهتماماً بآرائي المصرية وبقيت أتحدث مع بعضهم الى الساعة الاولي بعد منتصف الليل ولقد أعرف ان نولى تأثر بأقوالى اما بريت الذي كان متصلا بآل روتشيلد وغيرهم من الذين كانوا يلحون بوجوب التداخل فقد ظهر بعد ذلك انه من أعدى أعداء القضية المصرية . وكان يعمل يومئذ لموزلى فى « البال مال غازيت» وأوحي اليه انه لم يكن كتب بنفسه بعض المقالات التى أثرت كثيرا على غلادستون .

وفي ١٣ قابلت غوشن . وكان قد أرسلني اليه هاملتون باقتراح غلادستون باعتباره رجلا تثق به الحكومة وقد خضت معه فى تفصيلات القضية المصرية أكثر مما فعلت مع ديلك وغرنفيل وقد أظهر كثيراً من العطف على آرائى . اظهر أكثر

مما شعر في الحقيقة . باقناعى بانه لا ينظر الى المسألة من وجهة مالية . ولا شك في أن ذلك يرجع الي أنه كان فى الماضي نائباً عن مدايني اسماعيل . وقد وجدته لطيف المسلك ذا صوت جذاب وبقيت معه ساعتين وقال لى « لك أن تطمئن الى شىء واحد علي الاقل وهو ان الحكومة لا تعمل الا وفقا للمبادىء السياسية العامة ولا تعمل وفقاً لمصالح اصحاب الديون وكان هذا القول مرضياً وخيل الى انه متفق كل الاتفاق مع حالة الموقف الراهن فقد كانت الصحف نشرت فى ذاك الصباح انباء استقالة بلنجير من منصبه كرقيب مالى فرنسي فى مصر . واستدل الناس فى لندن من هذا الحادث على أن هناك خلافا بين الحكومة الفرنسية وحكومة القاهرة الوطنية ولكني عرفت ان الحقيقة لم تكن كذلك فقد كان بلنجير أسبق من كافن نفسه فى العمل للتدخل ففهمت من استقالته ان حكومته قد تخلت عنه وهذا هو المعنى الصحيح . ولو كان كافن قد استقال فى ذلك الحين ، ولم يكن ذلك بعيداً فيما اعتقدت فقد كان في الطاقة تجنب كل المتاعب التي حدثت فيما بعد . ولكن كافن كان مؤيداً من ديلك الى حد جعل ذلك عسيراً .

وقد تركت غوشن وذهبت لاتغذى مع باتون فوجدته مع لورد ده لاوار وهو نبيل من المحافظين ، وأحد جيرانى فى سيسلس . وكان قد ذهب في العام السابق الى تونس وتشرب بشيء من العطف على العرب اثناء الغزوة الفرنسية . وقد عملنا معاً بعد ذلك كثيراً فى المسألة المصرية وبرهن على عظم قيمة مساعدته حين تحرجت الامور وانتهت الى أزمة يوليو . وكنت فى ذلك الحين أحض على تأليف لجنة تحقيق تذهب الى مصر وكان يظهر انه لا يبعد أن يرأس هو هذه اللجنة.

وقابلت هاملتون بعد ظهر ذلك اليوم فى « دوننج استريت » وكان قد ظهرت فى ذلك الصباح مقالة شديدة فى «البال مال غايت» عنوانها ايقاد النار فى مصر ولم يكن أكثر ولا أقل من تكرار الحكايات السيئة مضافا اليها حكايات أخرى ترمي الى غرس سوء الظن فى الوطنيين.

وقد أشار هاملتون الى هذه الحكايات باعتبارها أدلة مقنعة لظهورها فى «البال مال» وانى لابد أن أكون مخطئاً والا لما كان مورلى يسمح بسلوك هذا المسلك

المناقض للحرية وهو لا يقل عني انتصاراً لهـا وقد شرحت له موقف كلفن بالنسبة لمورلى ولم أكن شرحته له من قبل وطلبت منه بالحاح أن أجتمع برئيسه . وكنت قد أمسكت الى ذلك الحين عن شكوى الاصدقاء الذين كنت أعمل معهم فى المرحلات الاولى رعياً لصداقتهم ولكن وجدت الآن سكوتى لا ينتج الا الضرر وصممت على اخبار غلادستون بكل ما أعرفه عنهم . وكان مورلي قد أنذرني في اليوم السابق لهذه المقابلة باعتبار اني لايمكنني أن أوافق عليها وطلب مني أن أرد عليها . ولكنى كنت أكثر غضباً من أن أرد الا بمذكرة قصيرة اعقبتها فى اليوم التالي بزيارة الى شارع نورثمبرلاند حيث وبخته على نشر مثل هذا الهراء المؤذى ولكن السوء كان متوقعا فقد سبق النشر طلب قدمه السير جورج كامبل واستخدم له هذه الحكايات الشائنة وقد شهدت مناقشة هذا الطلب الذى تكلم فيها غوشن باسم الحكومة بلهجة المسالمة وان كان لم يذكر الوطنية المصرية بخير وربما كان حديثى معه فى الصباح قد أنقذنا من شر ذلك وعلى كل حال لم يوضع قرار فى مصلحة الحرية .

وقد جاء فى مذكراتي اليومية فى ١٤ مارس حديث جرى بينى وبين سير هنرى رولنسون السفير البريطانى فى فارس وهو من مؤرخي الشرق المشهورين وآراؤه من طراز الآراء التى تسمع عادة من الانجليز المقيمين فى الهند . فقد قال لى ان المصريين كانوا فى الماضي عبيداً وسيبقون كذلك فى المستقبل وستدخل بلادهم ضمن أملاك انجلترا أو روسيا مع سائر بلاد آسيا . وقال ان معرفته بالاسيويين تجعله يدرك انهم لا يستمرئون الحكم الذاتى .

وقد تحادثت أيضا مع والتر صاحب جريدة التيمس الذى اقترح على باتون أن أقابله . فأخذ يتكلم فى أشياء لا قيمة لها ثم وعدنى فى النهاية بان يرسل مكاتباً خاصاً للقاهرة لكي يبعث اليه بالاخبار (ولكنه لم يفعل ذلك لان ماكدونالد مدير الادارة عارض محتجاً بعدم ضرورة صرف هذه المصاريف)

وفي الخامس عشر من هذا الشهر ذهبت الى سير جارنيت ولسلي وتحادثت معه حديثاً جديراً بان أذكره هنا « فبعد ما تكلمنا عن قبرص انتقلنا الى موضوع مصر وامكان مقاومة الوطنيين في حالة التدخل وسألني رأيي عن ذلك . فقلت له انهم

بالطبع سيقاتلون والقتال لن يقتصر على الجنود لان الامة ستنضم اليهم وربما استعملوا طرقا أخرى بعد ذلك وقد أبى أن يصدقني فى قولى بان الجنود ستقاتل . ولكن ثبت على رأيي وقلت له انه اذا كاف بان يذهب لغزو مصر فعليه أن يأخذ معه على أقل تقدير ستين ألف جندى » .

وقد بالغت بلا شك فى هذا التقدير لاني كنت أرمي الى جعل هذه المهمة شاقة فى نظرهم حتى لا تقدم عليها الحكومة الا بعد تردد ومراجعة . « وقد تطوع لى باخبارى بانه قد استشير مرتين أو ثلاثا مدة الشتاء بصدد الغارة على مصر والاحتلال وقد أكد لي أن ليس هنا من يود التدخل وان احتلال مصر سيكون مكروها عند الجنود وانه هو نفسه يكون آسفاً جداً اذا اضطر الى الذهاب الى مصر . ومن رأيه أنه يجب على المصريين أن يسرحوا جيشهم ويثقوا بحماية أوروبا . ولكني أخبرته بأنه ليس من المستطاع لي أن أنصح لهم بذلك وان الامة التى تنوى القتال بنية صادقة قل أن يهاجمها عدو . فقال لى انه ليس هناك شيء يدعى الشرف فى الحروب واذا كانت المسألة مسألة حرب فلا يجب عليهم أن يثقوا بنا ولا بأي دولة أخرى»

ثم أخذ فى الكلام عن الطرق الحربية المؤدية الى القاهرة فذكر بونابرت وطريقه على الشط الايسر بين فرع النيل وطريق الصحراء بين قناة السويس والدلتا حتى شعر بأنه اذا ذهبت الجيوش فستتخذ هذه الطريق ولكني احترست من أن أعطيه أي معلومات تفيده أقل فائدة وا كتفيت بالضحك عند ما سألني عما اذا كنت أوافقه لأدله على الطريق عند ما ترسل الحملة . وكان الأثر الذى تركه ولسلي في ذهني هو : « انه جندى لبق من الارلنديين الذين يعرفون من لهجة كلامهم . ولكنى لم أشعر انه من العبقريين الذين كان يصف نابوليون أحدهم بقوله « قائد عشرة آلاف »

ومن الجدير بالذكر انى عند ما كتبت للشيخ محمد عبده بواسطة سكرتيرى صابونجي أشرت الى الخطر الذى يمكن أن يقع فيه الوطنيون من غارته من جهة الاسماعيلية وأظن أن هذه الاشارة هى التى جعلت عرابي يشرع فى تحصين التل الكبير .

وفي اليوم نفسه رأيت لبال على وشك أن يسافر الى الهند لانه كان قد عين حاكما لاحدى الولايات الشمالية الغربية .

وقد وجدته أقل الموظفين الانجليز فى الهند ارتيابا فى الحركة الوطنية المصرية وفى المساء تعشيت مع هاملتون وجودلى وهما سكرتيرا مستر غلادستون وعرضت عليهما مسودة الخطاب الذي أرسلته للورد جرانفيل وفى هذا الخطاب أثبت بصفة رسمية تحيات عرابى ونياته الحسنة نحو الحكومة البريطانية وشكواه من كلفن وماليت التى لم أذكرها له معمما ذكرته من الاسباب عند ما كنت فى وزارة الخارجية .

وقد وافق السكرتيران على هذه المسودة وكانت الموافقة أكثر من جودلى وقد جعلنى أمحو جملة كنت اعتذرت بها عن تدخلى فى مسألة مهمة كهذه . فقد قال لى مؤكداً : « تدخلك ليس فى حاجة الى الاعتذار »

لقد كان جودلى رجلا عالى الهمة وكان يمثل أحسن مافي أخلاق غلادستون من الحماسة والعطف لما هو طيب فى هذا العالم والاحتقار لكل ردىء . وكان يخالف كل الموظفين الذين يجدهم الانسان عادة في الوظائف العمومية الا من حيث القدرة على الاعمال الرسمية وكان طول الازمة المصرية يعطف على ويساعدنى . أما هاملتون فقد كان يعطف ايضاً ولكن عطفه كان يعزى الى صداقته لا الى حماسته الطبيعية للقضيه التى كنت ادافع عنها وقد كان ختام خطابى ما قدمته من الطلب للحكومة بان ترسل بعثة للبحث والتحرى عن الحقائق الراهنة فى مصر وتفحص المسائل بروح الود والصداقة للمصريين . وأهمية الخطاب تبرر اثباته هنا برمته :—

لندن في ٢٠ مارس سنة ١٨٨٢

ان ما أظهرتموه من التكرم فى سماعكم ماقلته لفخامتكم عن بعض تفاصيل الحالة فى مصر يشجعنى على أن أقدم الاقتراحات التالية لتكون محل الاعتبار . وانى اذا كنت قد فهمت ما فهتم به فخامتكم فانى اعتقد ان حكومة جلالة الملك تنوى ان تتعجل فى الموضوع اذ هى تميل الى قبول حل سلمى — اذا تيسر هذا هذا الحل للخلاف بين المراقبة وبين الحكومة المصرية . وانها لا تلجأ الى القوة الا

فى اللحظة الاخيرة عندما تعجز عن جميع الوسائل للمحافظة على المصالح الانجليزية والتعهدات الدولية من أن يصيبها الوطنيون بسوء .

هذا وانى واقف على آراء الحزب الوطنى أو على الاقل على آراء زعمائه الظاهرين فيه ويمكننى أن أقول وأؤكد انه ليس هناك شيء أحب اليهم من التفاهم مع حكومة جلالة الملكة . بل الواقع أن عرابي بك قد كلفنى بان أؤكد لفخامتكم انه اذا خوطب بلهجة الصداقة فانه يستعمل كل نفوذ حزبه — وهو نفوذ خطير — لأن يخفف من مرارة الشعور الذى نشأ بين المصريين والانجليز وسائر الموظفين الاجانب وانه مستعد لأن يسير الى نصف الطريق اذا فتحت المفاوضات للوصول الى تسوية سلمية .

وقد رجا إلىّ مع ذلك أن أضع أمام فخامتكم مصاعب الحالة اذ قد أعلن المراقب العام الانجليزى عداء شخصياً نحوه كما فعل ذلك أيضاً الوكيل السياسي المفوض لجلالة الملك .

وفخامتكم تعلمون ان سير أوكلاند كولفين قد كان ذا أثر كبير في تغيير الوزارات وفيما يمكن أن يسمي « ثورة » أي تلك الحوادث التى حدثت في مصر في الستة الاشهر الماضية فنى ٩ سبتمبر كان هو نفسه الذى أوعز الى الخديو بان يقبض على عرابى ويضربه بالرصاص . وعرابي الآن هو وزير الحربية . ثم هو لم يكلف نفسه مشقة إخفاء هذه الحقيقة لأنه على ما أفهم أبلغ الصحف الانجليزية هذه التفاصيل

ثم من المشهور عند المصريين انه على صلة بالصحف وانه يكتب عن الحزب الوطني خصوصا الجيش بلهجة عدائية وانه عندما استقال شريف باشا صرح دون أن يتحفظ أنه ينوى تبديد شمل الحزب الوطني وانه سيستعمل كل الوسائل المؤدية الى هذا الغرض فى امكان التداخل. ولو كانت هذه الاشياء لا يعرفها سوى عرابي لأغفلها ولم يعلق عليها أهمية كما قال لى ولكن لسوء الحظ قد صارت هذه الاشياء معروفة مشهورة بين الناس بحيث صار من المحال ان يظهر عرابي علاقة ودية بينه وبين هذا الرجل .

وقد قال عن سير ادوارد ماليت مثل هذا أيضاً بدرجة أخف . فقد كان من

سوء بخت سير ادوارد ان اتفقت زيارته للاستانة مع تفشى الاشاعة عن تدخل الأتراك الذى ذكرته الصحف الانجليزية فى الخريف الماضي . واني مقتنع بان الحكومة الفرنسية هى صاحبة المسئولية في تفشى هذه الاشاعة التى لايمكن استئصالها الآن من أذهان سكان القاهرة وهى أن سير ماليت قد اقترح مرارا مخالفة التدخل العسكري . وانى أعرف أن هذا زعم باطل وان سير ماليت قد استنكر هذا الحل. ولكن هناك بعض حقائق تسوغ هذا الزعم . مثال ذلك انه رفض ان يعتبر طلب المصريين الدستور من الشئون الجدية الى وقت انعقاد مجلس النواب المصرى . ثم انه قد انضم الى سير أوكلاند كولفين فى انحيازه الى شريف باشا وقت النزاع بينه وبين أعضاء المجلس . وقد استاء كثيرون منه لتصريحه بانه يعتقد صحة الرواية المكذوبة التى لا أساس لها وهى ان عرابى قد أهان سلطان باشا رئيس المجلس وسبه.

ومهما يكن من قيمة هذه المزاعم فان الواقع الراهن ان سير اوكلاند كولفين وسير ادوارد ماليت قد قاطعتهما الحكومة المصرية او كادت . فهما لهذا السبب محرومان الآن من معرفة الحقائق والوقوف عليها من مصادرها وقد صار الميدان واسعاً للدساسين من الدول الاخرى الذين ليس لهم مصلحة ما فى اعتدال الوطنيين أو في تجنب انقطاع المفاوضات انقطاعا نهائيا .

فاذا كنتم فخامتكم ترون ما قلته حقاً فاني أستأذن فخامتكم فى تقديم الاقتراحات التالية :

ان الوزراء الوطنيين يشتغلون الآن فى اعداد جملة من الشكاوى عن النظام الذي وضعته فرنسا وانجلترا وصدقت عليه المراقبة . وبعض هذه الشكاوى حقيقى. وهم يرغبون فى فتح باب البحث فيها بروح الاعتدال والصداقة ولكنهم اذا رأوا من المراقبة والدول عداء فمن المحقق أنهم سينظرون فيها بروح العداء أيضاً . فان المسائل المختلف عليها هى حقائق راهنة فى الاكثر فاذا روعى الحق والعدل وكان غرض حكومة جلالة الملكة ان تكسب منزلة أدبية لاشك فيها فيجب ان تفحص هذه المسائل بروح النزاهة وان يعتد ببينات المصريين كما يعتد ببينات الاوربيين واني أقرر لفخامتكم انه من المحال على ممثلى جلالة الملكة أن يحصلوا على هذه

البينات سواء أكانوا ماليين أو سياسيين وان المصريين سينظرون اليهم بعين الاشتباه والريبة . أفليس إذن من الأفضل أن يرسل الى مصر في مدة الستة الأشهر التي ستمر قبل انعقاد البرلمان المصري مندوبون لبحث الحال الراهنة وفهم المسائل التي يشتكون منها بروح الصداقة التي لا يمكن أن تتلافى الكارثة بدونها ؟ .

ولنرجع الآن إلى المذكرات فأقول إني أجدني قد كتبت بواسطة صابونجي سكرتيرى خطاباً مطولا إلى عرابي أخبرته فيه بأني قد اقترحت على الحكومة تعيين مندوبين وان آمالى كبيرة ولكنى قد رجوته أن يكون على حذر كما رجوت ذلك أيضاً من جريجورى الذى كان لا يزال مقيما فى القاهرة . أما الحالة في مصر فى ذلك الوقت فتتلخص فى أن مجلس النواب قد ألح فى اثبات حقه بأن نصف الميزانية لم يكن مقيداً بشروط الدين وان له الحق في التصويت فيه . وأن الخديو قد أصدر لائحة موقعة باسمه بمنح الدستور على الطرق الاوروبية . وأن الوزراء قد عرضوا على المجلس جدولا يتضمن عدة اصلاحات عملية كانت البلاد فى حاجة شديد اليها منذ سنين وقد نفذ بعضها الآن .

فلما انتهى ذلك أجل انعقاد المجلس إلى الخريف القادم . وفي غضون هذه المدة شملت البلاد السكينة التامة ولم يكن من سبب للخلاف مع أوربا سوى مسألة التصويت عن المالية وهي مسألة لن تبلغ درجة الحدة إلا بعد ستة أشهر عند ما يتم ترتيب الميزانية الجديدة . وليس هناك ظل من الشك فى أنه لو كان كولفن قد اقتنع بضرورة انسحابه من البلاد مثل ما فعل زميله الفرنسي مسيو بلانجير ولو كان اقتراحى بشأن ارسال مندوبين قد قبل لكانت الحال فى مصر قد عادت إلى الهدوء ولم يكن ثمت حاجة الى التدخل العسكرى . فان الوزراء المصريين لم يكونوا يرغبون في أكثر من أن يعيشوا فى سلام مع جميع العالم وأن يتفاهموا مع حكومتى المراقبة الثنائية عن جميع المسائل المتنازع عليها .

وفى ٢٠ مارس تناولت الغداء مع بانون لكي أقابل عمه روبرت بورك الذي كان قد نوى أن يضع المسألة المصرية في البرلمان في الاسبوع التالى ويعرضها للمناقشة . وكان بصحبته عضو آخر من المحافظين كان يهتم بمسألة تونس . وكان

هذان من الاسهم التى احتفظت بها فى كنانتى إذا خذلني غلادستون . ثم ذهبت إلى الجمعية الاسيوية وحضرت اجتماعاً فيها وقد كنت انتخبت عضواً فيها . وفى المساء تناولت العشاء مع رفرز ويلسون . ومع ويلسون هذا « قد تشاجرت مشاجرة عنيفة بشأن مصر » وقد قال بأنه قد ساعد فى اعداد مذكرة جديدة على وشك أن ترسل الى ماليت من وزارة الخارجية للالحاح عليه بأن يتقاضى الحكومة المصرية تأدية جميع التعهدات الدولية . وكان القصد من هذه المذكرة أن تكون بمثابة الوعيد للحزب الوطنى ولكني أظن أنها لم ترسل مطلقاً أو انها قد ألغيت إذ لم أجدها فى الكتاب الازرق . وربما كان خطابى الى جرانفيل هو سبب الغائها . وقد كان ولسون يؤكد بأن جميع الحركة الوطنية هي من اختراع اسماعيل وانه اذا فرضنا وذهب الخديوى المنفي الى مصر ونزل في الاسكندرية لأتى اليه جميع المصريين وجثوا له على ركبهم . وبعد هذا العشاء قمت الى دار الليدى كنارى حيث رأيت الليدى سالزبرى وقد انتحت بى ناحية وأخذت تسألنى بلهجة العطف عن القضية المصرية وقد عرضت عليها ذلك بأحسن مااستطعت علماً منى بأن ما أقوله لها سيعاد على مسامع زوجها اللورد سالزبرى . وبديهي أنه لا يوجد عطف حقيقي بين المحافظين على آرائى بصدد الحركة المصرية ولكن كان من مصلحتهم بصفتهم الحزب المعارض أن يتخذوني سبباً الى حد ما فى الحط من كرامة الحكومة والنيل منها : وكان سالزبري من القائلين بالتدخل الملحين فيه . وقد توجهت الى دارى بصحبة هاملتون وأخبرته فى الطريق عن فخر ولسون بالمذكرة الجديدة ورجوته أن يتوسل لى فى مقابلة رئيسه وقد حثنى على ارسال خطابى الى جرانفل وارسال صورة أخرى منه الى غلادستون . وقد فعلت ذلك في الصباح التالى وكلفت هاملتون بايصال الصورة . وكان قد هيأ لى فى ٢١ مارس مقابلة رئيسه فى اليوم التالى . وفى المساء تعشيت مع روبرت بورك والجنرال تيل ومراقب حزب المحافظين والليدى لى وعدد آخر من المحافظين

مارس ٢٢ — كان هذا اليوم من أهم الايام فقد مضى عليّ الآن أسبوعان وأنا بانجلترا ومع اني لم أتهاون أو أهمل في شيء فاني لم أحصل الى الآن على مقابلة

رئيس الوزارة . ولكنى قد نلت حتى اليوم . فاني ذهبت الى شارع دوننج قبل الميعاد المضروب بقليل حتى أتمكن من مقابلة هاملتون والتحدث معه قليلا . وقد قال لى هاملتون ان الرئيس قد قرأ خطابي وعند ما كانت الساعة ١١ والدقيقة ٢٠ استقبلني الرئيس . وقد لحظت ان مستر غلادستون قد تحسنت صحته فهو يخيل الىّ أنه أصغر وأصح عافية مما كان منذ سنتين . فقد رأيته في ذلك الوقت وشعرت كأنه في الهبوط أما الآن فهو نشيط الجسم متنبه الذهن.وقد استقبلني بكل بشاشة وود . وكان خطابي الذى أرسلته للورد جرانفيل أمامه على المنضدة . وكان على ما يظهر لى مشتاقا لسماع ما ألقيه عليه . وقد سألنى أن أفضى اليه بجميع ما عندى وأخذ يستمع لى دون أن يتكلم . وكان اصغاؤه لى بما فيه من العطف والتشجيع باعثاً لى على أن أتكلم بسهولة بل بفصاحة لم أعتدها قبلا . وكنت أرى دلائل الاهتمام بادية عليه فى كل كلمة أفوه بها . وقد تركنى نحو ربع ساعة لا يقاطعني الا بنحو هذه العبارة : « لا تخبرني عن هذا فاني أعرفه » وذلك عند ما كنت أريد أن يؤمن بحقيقة الشعور الوطنى فى مصر . وقد ظهر لى منه أنه كان قلبا وقالباً مع الوطنيين .

ثم سألني عن موقف الجيش والسبب فى ظهوره فى المسائل الوطنية فانه توجس من هذا الظهور . فأوضحت له تاريخ الحركة وأكدت له ان ما قيل عن تدخل الجنود قد بولغ فيه وان تلك الرواية القائلة بان الجنود كانوا يتوعدون النواب ويرهبونهم من الروايات المختلفة وقلت له أيضاً ان الاستعدادات الحربية الحاضرة ليس لها من غرض سوى الخوف من الاعتداء والتدخل . وأوضحت له موقف الحزب نحو الخديو توفيق والخديو المعزول اسماعيل والامير حليم . فسألنى عما اذا كنت قد أفضيت بكل هذه الاخبار الى اللورد جرانفيل . فقلت له : « ان اللورد جرانفيل منعنى من اخباره بهذه التفاصيل بقوله فى ابتداء حديثه ان اسمعيل قد اشترى عرابي . فماذا كان يمكننى أن أقول له ؟ »

وفي هذه اللحظة دخل الينا شخص يقول ان اللورد جرانفيل فى المنزل فخشيت جداً أن يأذن له مستر غلادستون فى الدخول علينا لان دخوله كان يمنعني من تتميم

قصتي . ولكن المستر غلادستون خرج ممتعضاً وسرح لورد جرانفيل وعاد اليّ وهو يفرك يديه فعل من تخلص من ثقيل . فكانت اشارته هذه تشجيعاً آخر لى فأخذت فى الحديث . فذكرت وقدمت اليه جميع رسائل عرابي عن الانجار بالرقيق ومشروعات الاصلاح الأخرى ثم جعلت أشرح له مركز ماليت وكولفن فقال لى بلهجة التأثر : « ما ذا نستطيع أن نفعل ؟ انهما موظفان محترمان وقد نالا الأوسمة لخدمتهما فى مصر » وأخذ يلح ويكرر ذكر لفظة الأوسمة . ثم سألنى أن أخبره شيئاً عن زعماء الحزب الوطنى من غير الجنود فشرحت له أحوال بعضهم مثل الشيخ محمد عبده واحمد محمود وسعد الله حلبي وحسن شريعي وآخرين من النواب وكان آخر من ذكرت له عبد الله نديم الصحفي الخطيب . وكان وصفي لهذا الاخير بأنه « صحفي خطيب » قد لفت نظر مستر غلادستون فكتب اسمه على ورقة صغيرة امامه . ومضينا فى الحديث حتى كانت الساعة الثانية عشرة حيث كان عليه أن يقابل بعض الزائرين . فأكون قد قضيت معه أربعين دقيقة . فما كان أسرع هذه الدقائق . وعند ما خرجت التفت اليه وسألته لخاطر خطر لى عما اذا كان يأذن لى بأن أرسل لعرابي خطاباً أجيبه فيه عن لسانه عن الرسائل التى أرسلها اليه . ففكر قليلا ثم قال: «كلا » ثم قال فى تدبرورويه : « ولكنك تستطيع أن تخبره عما فهمته من احساسي نحوه » ثم غير لهجته وقال كأنه يخاطب مجلس العموم فكان كلامه عندئذ مخالفاً للهجته الشخصية التى كان يخاطبنى بها : « اذا أراد (الوطنيون) أن يحكموا على موقفنا فعليهم أن يقرأوا ما تقوله فى البرلمان وبخاصة ما أقوله أنا لاني أعنى تمام العناية بما أقول فى البرلمان . ونحن فى رسائلنا الرسمية مقيدون برأى أوروبا ولذلك لا تكون هذه الرسائل مطابقة للآراء الحرة فى مصر . فعليهم أن يقرأوا خطبنا » ثم التفت الى المنضدة وأخذ ورقة قد كتبت عليها رسالة موقعة فنظر فيها مليا وشعرت كأنه يتردد في أن يرينيها ولكنه ألقاها على المنضدة . وقد شعرت أيضا أن هذه الرسالة هي التى أخبرنى ولسون انه قد هيأت لترسل الى مصر . ثم عاد الى بشاشته وشكر لى ارسالى الخطابات اليه ورجا الى ان أرسل ما يتجدد من الاخبار . وعند ما سلم

عليّ رأيت في وجهه ولفظه من العطف ما كاد يجعلني أستعبر فخرجت وأنا أحس انى كنت فى حضرة رجل طيب وعظيم معاً وصرت أتعجب كيف يصل مثل هذا الرجل الطيب الى مركز رئاسة الوزارة . فصرت أقول « الحمد لله . الحمد لله . نصر من الله وفتح قريب » .

هذا هو غلادستون الذى رأيته فى ذلك اليوم : رجل يعطف عطفاً كبيراً على كل ما هو طيب ومن يراه يقسم انه لا يحيد قيد شعرة عن محجة الحق . ولكن كان فى شخصه غلادستون آخر هو السياسى الوصولى الذى يغتنم الفرص والذى قد كتب على أن أراه « يلعب ألاعيب هوجاء تجعل الملائكة التى في السماء الأعلى تبكي » .

واليك وصف ما عرفته عنه مدة العشر السنوات التالية :

كان غلادستون ذا شخصيتين . فكان جانبه الانسانى يسر الناظرين ويجذب اليه قلوبهم وكان كبير العطف اذا أحب شيئاً أسرف فى صرف حماسته عليه وكان مع ذلك متواضعاً حتى مع أولئك الذين كانوا أقل منه مكانة فكانوا بذلك يجبرون على حبه والولاء له وكان فى خلقه أشياء من الضعف لم تذكر فى التراجم التى ألفت عنه وكانت هذه الاشياء تجعل الناس يحبونه أيضاً . وكان الشباب أكثر الطوائف تعلقاً به وكان الناس يحبونه أيضاً لهذا السبب .

أما حياته العمومية فكانت زوراً وغشاً كما هي حياة جميع العظماء من رجال البرلمان فان الخدع البرلمانية كانت قد انطبعت فيه . وكان قد شرع فى تعلمها أيام كان طالباً فى المدرسة فلما بلغ سن الثلاثين صار مقياس الحق والباطل في نظره أصوات البرلمان . وكانت مراعاته لهذه الاصوات تضطره الى أن يهمل ميوله الشخصية حتى اذا بلغ آخر سني حياته صارت ميوله هذه أشبه شيء بأذواق منها بمبادىء . فكان يشعر نحوها كما يشعر نحو الموسيقي أو الصينى أو سائر التحف يميل اليها ولكنه يقيد احساسه نحوها بما يشعر انه واجب الاكثرية البرلمانية . وقد كان هذا السبب الاخير فى جميع أعماله بل ضميره الحق الذى كان يضحى له جميع أمانيه العليا . ثم أن حياته العمومية الطويلة قد ولدت فيه نوعاً من الخداع الذاتى

الذى يتولد عند الممثلين . لانه لما كان مضطراً الى التمثيل والظهور بغير المظهر الذى يهواه أتى عليه وقت صار يستطيع فيه أن يتخلق بأى خلق شاء .

فلما اتفق أن وجد نفسه مضطراً الى السير على خطة جديدة لا تتفق عمد الى نفسه فأغراها باعتقاد أن هذه الخطة ليس فيها ما يضيره . ويأخذ نفسه بذلك حتى يؤمن بما يتوهم ويؤالف فى سبيل ذلك جملة او عبارة يكسب بها رضانفسه . ومن هنا كان عدم شعوره بالمغالطات . فكان مثله كمثل البطل في احدي قصص دكنز اذا أراد أن يمثل دور عطيل دهن جلده بالسواد . هذا وأظننى فيما قلته لم أشط فى تقدير غلادستون.والحق ان أعماله في هذه السنة وخيانته للقضية المصرية يثبتان كل ما قلته

وهنا يمكن اختصار ما حدث قبل عيد القيامة فى لندن . فاني ذهبت لقضاء عدة ايام فى كرابيت لاشغال خاصة بي ولكن هذا لم يمنعنى من مراسلة أصدقائي مثل عرابي ومحمد عبده ونديم وكنت أخبرهم عن نجاحى مع غلادستون وأتوصل اليهم لكي يتبصروا في العواقب . وفى ٢٦ منه تسلمت خطابا من باتون وفي الخطاب رقعة من أحد ذوى المناصب العليا . وقد وجدت هذه الرقعة لاتزال بين أوراقي وهى قصيرة وكبيرة الدلالة فلذلك أري من المفيد اثباتها هنا :

« ٢٢ منه . انى فى أشد الاشتياق لكي يذهب مستر بلنت ويقابل ناتي روتشيلد الذى لا يحتاج أحد الى ايضاح مصالحه فى مصر . فانه يكثر من الذهاب الى وزارة الخارجية والى مستر جرانفيل . وهو فى هذا العمل « يموت كل يوم » كما قيل عن القديس بولس . وانه ليخدم الجميع خدمة عظمي اذا هو استطاع ان يوفق بينهم . وقد رغب إليّ أن أسأل عما اذا كان مستر بلنت يمكنه ان يتغدى في نيوكورت يوم الجمعة الآتي الساعة الاولى بعد الظهر فليفعل إذا استطاع . فان هذه المقابلة تكون مفيدة من عدة وجوه » .

فهنا يجد القارىء لب الموضوع فان قرض روتشيلد كان يبلغ تسعة ملايين جنيه وكان لاسرة روتشيلد وحدها نصف هذا المبلغ وكان المعتقد أن هذا المبلغ قد أصبح فى خطر الضياع في مصر . وبناء على هذا ذهبت الى لندن في ٢٧ منه وهو اليوم المتفق عليه ومعي باتون . ولكن لسوء الحظ وجدت ان ناتي روتشيلد قد سافر

خارج انجلترا هذا اليوم لان أحد ذوى قرباه كان مريضاً . فلم نجده و لكني وجدته قد ترك لي رقعة يرجوني فيها أن أ كتب له آرائي . ولقد أسفت على هذه المصادفة التي منعت التقائي به لان مثـل هذا الالتقاء كان يكون لذيذاً وان لم يكن يؤثر على آرائى . ولقد أخذت بعد ذلك أتعجب من معنى « أن يوفق بينهم » وماذا كان يقصد من هذا التوفيق . وقد خامرتنى الشكوك بان الغرض الحقيقى كان ارشاء عرابي بعدد من الاسهم حتى يخون بلاده . ويظهر انه قد عرض على عرابى مثل هذا الغرض بعد ذلك بشهرين عن سبيل أخرى . ولم ينتج عن هذه الزيارة سوى أنى كتبت مذكرة مطولة لا يمكن اثباتها هنا لطولها قلت فيها ان المساهمين يخسرون بالحرب مع مصر أ كثر مما يكسبون وان مصلحتهم هى فى قبول الثورة كما هي فليسكنوا اليها . وقد علمت بعد ذلك ان روتشيلد بعد أن كاد يقتله الهم أيام ضرب الاسكندرية وهو يعتقد وقتئذ ان أمواله قد ذهبت عاد لما استردها با كملها يذكرني بالسوء ويقول اني نبي كاذب . ولكن هذا لم يكن ليهمني . فان مذكرتى إنما كتبت فى مصلحة المدينين المصريين لا في مصلحة الدائنين .

وقد كتبت في ٢٨ منـه في مذكراتي شيئاً على عقلية كتاب جريدة التيمس . فقد ذهبت الي ادارة هذه الجريدة أول مرة فى حياتي وكان باتون أيضاً دليلى . فرأينا هناك مكدونالد مدير الجريدة وخاطبناه بشأن ارسال مكاتب للجريدة في القاهرة يرسل اليها آراءه مستقلا عن أى تأثير وفكرنا فى مكنزي وولاس معتقدين انه يستطيع ان يقوم بهذه المهمة . ولكن مكدونالد كان اسكوتلانديا يعرف قيمة المال فلم يوافق على هذه المغامرة المالية . وقال لنا انه راض كل الرضا عن الاخبار التى تصل اليه من سكوت المكاتب فى الاسكندرية . ثم قال ان للانجليز مصلحتين فى مصر هما قناة السويس وحملة الاسهم وآراء سكوت من هذه الوجهة لاغبار عليها فما عـدا هذا لم يكن ليستحق اهتمام التيمس . ومع ذلك قد شكر لى ما كتبته اليه من الخطابات وهى خطابات لم آخذ عليها أجراً ولذلك هم يشكرونني كل الشكر عليها وسينشرون لى كل ما سأرسله اليهم . ولكن ليس هناك حاجة لارسال مكاتب خاص .

ولكنى الى ذلك الوقت لم تكن قد داخلتني الشكوك فكتبت الى أصدقائى فى القاهرة مسهباً لهم فى الاخبار السارة . اذ ما كنا نخشي وغلادستون قد انضم الى صفوفنا . وكل ما سألتهم أن يتريثوا حتى تصل اليهم اللجنة التى طلبت ارسالها وهناك ما يدل على أن لورد جرانفيل لم يكن صادق النية في تنفيذ الاقتراح أو أن من قاومه فى وزارة الخارجية مثل ذلك لا غير . فقد كتب الىَّ فى الرابع والعشرين من الشهر يسألني أن أتناول الغداء معاً لكي نتحدث معه بشأن اللجنة ولكن لسوء الحظ — وربما لم تكن المسألة قاصرة على الحظ — لم تصلنى الدعوة الا بعد ان فات ميعادها .

وهذه مناورة تكرر حدوثها فى الاسبوع التالي . هذا والكتب الزرق تذكر خير مفاوضات لم تنجح مع فرنسا . وكان الغرض منها بحثاً جديداً للحالة . ولكن المفاوضات وقفت وعاد لورد جرانفيل الى طريقته المألوفة فى عدم الركون الى الجد والعزم . ولم تمض عدة أسابيع حتى كانت الدسائس قد انتهت بالغاية المقصودة منها فى القاهرة فى احداث القلاقل الجديدة وصارت مصاعب التوفيق أشد مما كانت

وكنت أكاتب فى هذا الوقت الين سكرتير جمعية منع النخاسة . وهو رجل ذو جدارة وان يكن محدود الآراء . فقد انتقدني سير وليام موير في جريدة التيمس لاني قلت في أحد خطاباتى ان برنامج الحزب الوطني في مصر يتضمن محو ما بقي من تجارة الرقيق فأخذ يبرهن بواسطة مقتبسات من القرآن على أن الرق من العادات التى كانت ولا تزال صفة دينية فى الاسلام . وقد وجدت أن الين قد غضب غضبا شديداً لقولى بأن عرابي يطلب الغاء الرقيق الذى كان الين يعتبره من الاعمال الخاصة بجمعية منع الرقيق وحدها . فكان غضبه أشبه شيء بغضب صاحب كلاب الصيد التى قد ربضت على صيد الثعالب عند ما يجد أحد المزارعين يقتل ثعلبا بنفسه . فان من آرائه أن محو الرقيق شيء لا يخص المسلمين إذ ماذا تكون فائدة الجمعية اذا فعلوا ذلك؟ وعلي أى حال هذا هو الأثر الذى تركته في ذهني مناقشتى معه .

وقد وجدت أيضا ملاحظة فى أول ابريل بشأن مقابلة ولى العهد الذى رغب الىّ أن أتعشى معه . وكان رب البيت فى تلك الليلة هو ارد فنسنت ولى العهد الحميم . ولكنى لفرط بلادتي لم أذهب الى هذا العشاء الذي كان يمكن ان يكون ذا أهمية لى . وسبب ذلك اني كنت على ميعاد مع الاميرة لويزاف لورن فى ذلك المساء فلم أرغب فى اخلاف وعدى لها . ومع ذلك فقد ذهبت الى منزل فنسنت والتقيت بولى العهد بعد ذلك وتحدثنا معاً عن شؤون مصر ولكن الحديث لم يتناول الموضوعات التى تهمنى أهمية خاصة .

والى هنا يمكن أن أعتبر ان حملتى الاولى في سبيل مصر قد انتهت . فقد سار كل شيء على الرغم من العقبات الكأداء نحو نشر دعوتي . وتقبل الجميع دعوتى عن الوطنية المصرية تقبلا حسناً فى كل مكان وخفتت أصوات القائلين بالتدخل . وكان رجائي في بعض الاحيان عظيما جداً لان باتون كان يؤكد لى ان اللجنة التي اقترحت ارسالها لمصر قد تقرر ارسالها بالفعل وذكر اسم الشخص الذى انتدب لذلك . ولكن وا أسفاه . كان هذا الخبر اشاعة ليس غير . ثم جاءت أجازة العيد فغادر الناس لندن وماهم ان عادوا حتي فاجأتنا المؤامرة الشركسية . فكانت بداية النهاية المشؤومة

الفصل الحادى عشر

المؤامرة الشركسية

يمكن القارىء ان يحكم على الحال الحسنة في مصر فى الاسبوع الاول من شهر ابريل على الرغم من اشاعات القلق التى فشت في أوروبا بخطابين كتبهما لى عرابي وبخطاب آخر أرسله الىّ الشيخ محمد عبده . هذا وان الخلق العظيم الذى يمتاز به الشيخ محمد عبده لزومه الحقائق ثم هذا المركز السامي الذى يملأه الآن فى مصر وهو منصب الافتاء الشرعي — كل هذا — يجعل لشهادته قيمة تاريخية لا يبالغ الانسان مهما قال فى مدحها . وهذه الشهادة يصح وضعها بجانب الكتب

الزرق لادحاض أكاذيبها المختلفة . وكان فى ذلك الوقت رئيساً لتحرير الجريدة الرسمية ومديراً لقلم المراقبة الصحفية فكان مركزه هـذا يجعله على علم بما يدور فى الوزارة الوطنية . بحيث لم يكن ماليت او كولفن أو أى أوروبى آخر ليدعى مثل معرفته بهذه الشئون . فلهذه الاسباب ألفت نظر المؤرخين الى هذه الوثائق :

القاهرة في أول ابريل سنة ١٨٨٢

الى الصديق المحترم المخلص الحر الضمير مستر ولفرد بلنت نجح الله مساعيه

بعد حمد الله غالب الاقوياء وناصر الحق أخبرك بان خطابك رقيم ١٠ مارس قد وصلني وسرني غاية السرور ولا شك فى ان كل رجل حر الضمير يفرح برؤية من هم مثلك من الصادقين فى القول والعمل الذين عقدوا نيتهم علي انفاذ مشروعاتهم التى يرمون بها الى منفعة النوع البشرى عامة ومنفعة بلادهم خاصة

هذا وان محتويات خطابكم تدل علي انكم قد شغفتم بحرية النوع البشرى وانكم تفعلون جهدكم لخدمة مصالح أمتكم الانجليزية وذلك لعلمكم بأن هذه المصالح وبخاصة تلك التى في مصر لا تكون مضمونة مأمونة الا اذا كان المصريون أحراراً فيكسبون بذلك ودهم . ومن الواجب على الانجليز الاحرار ان يساعدوا اولئك الذين يجاهدون فى سبيل الحصول على استقلالهم وعلى الاصلاح وعلى ايجاد حكومة عادلة . وجهودك الجديرة بالشكر ستكسبك بلا شك اسما شريفا بين أبناء وطنك عندما يعرفون الكيفية التى كشفت بها القناع عن المفتريات التي أذاعها أناس ذوو أغراض .

واما بخصوصنا فنحن نشكر الخدمات الجلى التى أديتها لمصر وانجلترا معاً . ونحن نرجو لانجلترا أن تكون أقوى الاصدقاء لمساعدتنا فى ايجاد نظام حسن على أساس الحرية فنسير عندئذ على غرار الامم المتمدينة الحرة . ونحمد الله فاننا سنرى قريبا نجاحك فى جهودك ولهذا نعتبر وصولك سالماً لبلادك فألا حسناً للنجاح المنتظر

أما بخصوص النصيحة التى زودتنا بها فنحن نشكرك ونخبرك باننا لا نقصر في حفظ النظام والهدوء لاننا نعتبر هذا من أهم واجباتنا ونؤكد لك ان كل شيء هنا هادي.. فالهدوء والسلام يسودان البلاد ونحن واخواننا الوطنيون ندافع بأقصى

ما يمكننا عن حقوق جميع السكان بصرف النظر عن الامة التى ينتمون اليها . ونحن نحترم جميع المعاهدات والاتفاقات الدولية ولن نسمح لاحد بمساسها ما دامت أوربا تحفظ وترعى علاقاتها الودية معنا .

اما عن تهديدات الماليين واصحاب المصارف في أوربا فاننا نتقبلها بالحكمة والثبات . واعتقادنا ان هذه التهديدات تعود عليهم وحدهم بالاذى وتغر الدول التى تنخدع بأقاويلهم .

وغايتنا الوحيدة هى تخليص البلاد من العبودية والظلم والجهل وان نرفع السكان الى مركز لا يمكن فيه الاستبداد ان يعود كما كان في الازمنة الماضية ينشر الخراب والدمار فى مصر .

ان هذا الذى اكتبه اليك هو ما يفكر فيه كل مصرى عاقل يحب حرية بلاده وارجو ان اقدم تسليماتي لزوجتك الطيبة واقبل تحيات صديقك المخلص »

احمد عرابي

القاهرة في ٦ ابريل سنة ١٨٨٢

الى صديقنا العزيز مستر ولفرد بلنت

بعد حمد الله لما أنالنا من الحرية والاصلاحات التى أنعم بها علينا أخبرك انى تسلمت خطابك الثاني بعد ان أرسلت لك جوابى على خطابك الاول . وأنا انتهز هذه الفرصة لكي أكرر لك تشكراتى الخاصة لمساعيكم الحسنة . وانى أعتبر من واجباتي كما هو من واجب جميع الناس ذوى الضمائر النقية أن أشكرك لما أديته من الخدمات العظمى . وفي الاعتراف بالصنيعة توثيق الصداقة بين الافراد وكذلك بين الامم . فنحن ميالون أشد الميل الى التفاهم عن المصالح المتبادلة بيننا وبين الدول المرتبطة بنا وليس للدول ذوات المصالح فى بلادنا من سبيل للانتفاع بعقودهم ومعاهداتهم الا اذا كانت الصداقة التي بيننا وبينهم وثيقة . فاذا قطعت هذه الصداقة فالضرر لن يعود علينا وحدنا بل يعود على الدول أيضاً وبخاصة انجلترا وليس هناك سياسي كبير الادراك الا ويفهم قيمة المنافع التى تعود على انجلترا من صداقتها لنا ومعونتها ايانا فى كفاحنا .

أما عن المراقبة فيجب ان تطمئنوا وتعرفوا انها لن تجد منا ما يعطلها عن تأدية واجباتها حسب الحقوق التى خولتها إياها المعاهدات الدولية . هـذا ولم تكن قط مقاصدنا أو مقاصد أي انسان فى هذه البلاد ان تمس المراقبة وتقلل حقوقها أو نعتدى على المراقبة الدولية .

فاذا كان ممثلو الدول فى بلادنا يؤدون واجبهم كما ينبغى لهم ويراعوا مصالح بلادهم فاحسن ما يفعلونه أن يعاونونا على تحقيق أمانينا فيثبتون بالعمل مايعدوننا به بالقول

اننا قد نوينا نية صادقة على ان يكون لامتنا مركز بين الامم المتمدينة بنشر المعارف فى البلاد والمحافظة على الاتحاد والنظام والقضاء بالعدل بين الناس أجمعين ولا يمكن لشىء فى العالم ان يردنا عن قصدنا قيد شعرة. فلن نخشي الوعيد أوالتهديد ولن نخضع الا لحكم الصداقة التى نقدرها ونكبرها .

أما عن الهدوء في مصر فنخبرك انه ليس هنا أى قلق . ونحن الآن نحاول ان نمحو الآثار السيئة التي تركتها لنا الحكومة السالفة .

اما عن عن الاسئلة التي وجهتها الينا فقد أرسلنا بواسطة الشيخ محمد عبده بالتلغراف . والحق ان جميع الاشاعات المنتشرة فى أوربا بخصوص الاستعدادات الحربية العظيمة لا أساس لها البتة . فان المصروفات على الجيش لم تزد بارة ولم تنقص درهمًا عما كانت عليه سابقا . فهي الآن طبق ما كان قد تقرر فى ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨١ في عهد شريف باشا . فيجب ان تطمئن وتعرف ان هذه الاشاعات مفتريات يروجها أناس لا ضمير لهم ، وانه لما يؤسف له ان نجد للاكاذيب مجالا واسعاً في صحف أوربا المتمدينة .

ونحن ندعو الله ان يرشد ساسة اوربا المفكرين الى مواطن الحق حتى يعرفوا حق المعرفة حالة بلادنا . وبذلك يخدمون بلادهم وبلادنا معاً لان فى عملهم هـذا توثيقا للروابط الحسنة . ونبتهل فى الختام الي الله ان يمتعنا ببركات السلام وحسن الاخاء .

احمد عرابي

وكان هذان الخطابان ردين أرسلهما لى عرابي عند ما بعثت اليه أخبره عما لاقيته من شعور غلادستون نحو الحركة الوطنية فى مصر . وقد أرسلت ترجمة هذين

الردين عند وصولها الى مستر غلادستون . وكنت أظن أن مستر غلادستون لو كان قد اطلع على هذين الردين لكان صرف اليهما انتباهه . ولكنه كان فى ذلك الوقت بعيداً عن لندن وقد شغلته أشياء أهم مما كنا فيه — أعني أشياء تهدد كيان الحكومة — وهى الثورة في ارلندا . ثم لم تسنح لى الفرصة لرؤيته أو رؤية هاملتون حتى انتهت اجازة العيد حوالى آخر الشهر . وفى أثناء ذلك دخلت المسألة المصرية فى طور خطير وذلك بسبب المؤامرة الشركسية التى وصلت أخبارها الى لندن في الاسبوع الثالث من شهر ابريل . ولم أعن العناية الكبيرة بهذه المسألة عند أول ظهور أخبارها معتقداً بأنها احدى المفتريات التى تنشر عن مصر . ولكن الاحوال أثبتت أنها خطيرة تستدعى الالتفات . ولم تكن خطورتها متوقفة على حدوثها من حيث هى بل من حيث انها كانت فرصة لحكومتنا ترقبها لكي توقع الخلاف بين الخديو ووزرائه . وكان ماليت قد خضع تمام الخضوع لكولفن في هذا الوقت وصار ينتصح بنصحه ويسير على هواه .

وأصل هذه المؤامرة هو بلا شك الخديو اسماعيل . وأنا أعرف هذا من جملة مصادر أحدها ابراهيم بك المويلحى سكرتيره . فان اسماعيل كان وهو فى نابولى يدبر حركة عصابته فى القاهرة وكان يرسل بواسطة هذه العصابة نصائحه الى ابنه . وكان وكيله رجلا يدعى راتب باشا الذى كنت قد سمعت عنه فى الخريف الماضي بأنه عدو الوطنيين الازرق . وكان هو واسطة المؤامرة . وكان التدبير ينطوى علي ايجاد حركة رجعية بين الضباط الشراكسة في الجيش لمقاومة الفلاحين . فعرابي وسائر الضباط الفلاحين يحكم عليهم بالاعدام . فيؤدى هذا الحكم الى ايجاد حركة أخرى بين الضباط الفلاحين ويحصل التصادم فاذا جرى كل ذلك وأدى الى خلط هرج ومرج وجد اسماعيل ثغرة يدخل منها الى مصر ويعود على عرشه . ولقد كنت أنا مقتنعا تمام الاقتناع بأنه لا أمل لاسماعيل فى تحقيق هذا المشروع ولكن القارىء يذكر أن ريفرز ويلسون كان يعتقد امكانه بل هو صار يفكر في وجوبه باعتباره شيئاً مرغوبا فيه للتخلص من ضعف توفيق الذى لم يقدر على حماية المراقبة وكان توفيق متردداً بين سبيلين فاما أن يسير مع الوزارة الدستورية وعرابي

الذى صار الآن يغار منه أشد الغيرة واما أن ينضم إلى الرجعيين الاتراك ولو كان فى هـذا امكان رجوع والده . وكان شريف وماليت يشتغلان معاً وصار منزل شريف مركزاً للدسائس التى كان يوحيها اليهما كولفن لاسقاط الوزارة . ولست أقول ان كولفن أو ماليت أو شريفاً نفسـه كانوا يعرفون المؤامرة ولكن كان من المعروف المشهور أنهم كانوا يرمون الى وجود أى حزب يرمي الى قلب الوزارة وكان هذا مما زاد ثقة المتآمرين . ومع ذلك قد وصل خبر المؤامرة الى عرابى قبل مايتحقق . فقد حاول المتآمرون أن يقتلوا عبد العال بك فقبض عليهم فى الحال وحبسوا . والقارىء يجد فى الخطاب التالى الذى أرسله الى الشيخ محمد عبده فى ٢٥ ابريل تفاصيل هذه المؤامرة وأخباراً أخرى مفيدة :

« أما عن ترقية الموظفين التى تلغط فيها الصحف الاوروبية فاسمحوا لى بأن أوضح الحقائق . فأقول أولا أن هذه الترقيـات لم تعمل بناء على أمر عرابي باشا وحده ولم تكن بمثابة الرشوة للضباط لاكتساب عطفهم نحو عرابي . كلا . فالواقع أن هذه الترقيات عملت بناء على القانون الحربي الجديد الذى يأمر باحالة الضباط الذين يبلغون سنا معينة أو عرضون ويصابون بعاهة على المعاش . وقد نفذ هـذا القانون في عهد شريف باشا وأحيل على المعاش ٥٥٨ ضابط . ثم أرسل ٩٦ ضابطاً الى حـدود الحبشة وزيلع وأماكن أخرى . بينما قـد أخرج من الجيش نحو مائة ضابط توظفوا في الوظائف المدنية . فعدد جميع هؤلاء ٧٥٤ ضابطاً . فكان اذن من الطبيعي أن تحصل ترقيات لملء الوظائف الخالية . ولا يزال فى الجيش خمسون وظيفة قد حفظت لخريجى المدرسة الحربية .

« والآن أريد أن ازيل من العقول هـذا الوهم السـائد فى ادعاء البعض أن عرابى أو الحزب الحربي او الحزب الوطني آلة في يد الأتراك . فان كل مصرى سواء أكان من العلماء او من الفلاحين او الصناع او التجار او الجنود او الموظفين او السياسيين او غير السياسيين يكره الاتراك ويمقت ذكراهم . ولا يستطيع مصري ان يفكر فى نزول الاتراك فى بلادنا بدون ان يشعر بعاطفة قوية تدفعه الى امتشاق سيفه والهجوم به على هذا المعتدى .

ان الاتراك ظلمة وقد تركوا فى بلادنا من آثار السوء ما لانزال قلوبنا تضرب منه ضربان الجرح . فلسنا نريد رجعهم ولسنا نريد ان نعود الى معرفتهم . وكفى الاتراك مالهم من حقوق الفرمانات . فعليهم أن يقفوا عند هذا الحد ولا يتعدوه . ولكنا إذا علمنا بانهم يحاولون دخول بلادنا فاننا نتلقى هذا الخبر بشيء لا يخلو من الترحيب . ولقد شعرنا نحن بشيء من هذه النية عند الاتراك وكان هذا الشعور سبب استعدادنا . فاننا سنغتنم هذه الفرصة لكي نحقق استقلالنا التام . هذا وساسة البلاد وقادتها يتربصون لحركات الاتراك فى مصر وسيقفونها اذا رأوا انها قد عدت طورها . ولست أنكر ان فى مصر اتراكا وشراكسة يدافعون عن الباب العالى ولكنهم قليلون فى جانب اولئك الذين يحبون بلادهم

« هذا وبخصوص المؤامرة الشركسية لاغتيال عرابى أخبركم انها ليست ذات خطر فان الخديو اسماعيل قد مضت عليه مدة طويلة وهو يضع الالغام لكي يدمر حكومتنا وهو يعتقد ان هذا العمل يرجعه الى مصر . ولكن الله القدير قد بدد آماله في الهواء لان كل مصرى يدرك ان رجوع اسماعيل لا يعنى سوى خراب مصر . فهذا الفرعون قد أرسل الى مصر أحد المنفيين وهو راتب باشا الذي حصل علي إذن بدخوله مصر بوسائط سرية فى عهد شريف حيث اتصل بأخيه محمود افندى طلعت البكباشي ثم استخدم ايضاً يوسف بك نجاتى ومحمود بك فؤاد بن اخت خسرو باشا وعثمان باشا وفقى « وكل من هؤلاء شراكسة » وهؤلاء أخذوا فى نشر دعوتهم وهي قتل الوزراء الحاليين ثم قتل كبار الضباط فى الجيش . ولكن هذا الجزء الاخير قد اضطروا الي تأجيله حتى يجدوا من الاعاليل مايبررون بها عمله . ثم حدث ان تسعة من الضباط الشراكسة رفضوا الذهاب الى السودان . فأخذت عصابة راتب باشا في إغراء هؤلاء الضباط واقترحت عليهم أن يرفضوا الذهاب الا بترقية .

« وكانت الوزارة تعرف منذ زمن شيئاً عن هذه الحركات . فمنذ مجيء راتب باشا الى مصر كان محمود سامي رئيس الوزراء الآن وزيراً للحربية فطلب من شريف باشا أن ينفيه الى خارج القطر . ولكن شريف على الرغم من تحذير محمود سامي

رفض أن يأمر بنفيه وسبب ذلك ان راتبا زوج ابنة شريف باشا والبعض يظن ان الاثنين متواطئان علي رجوع اسماعيل

«وحدث ان عصابة راتب دعت ضابطاً شركسياً يدعى راشد أنور افندى لكي ينضم فأبي ان تكون له بهم أية علاقة . فلما ترك المتآمرين قام تواً وذهب إلى عرابى وكشف له المؤامرة . فألقى القبض عليهم وقدموا للمحاكمة العسكرية

« وقد أحدثت هذه الحادثة قليلا من التهيج بين العامة . والجميع يعرفون ان حياة عرابي مثل حياة أى انسان آخر . وليس بين الناس أحد مهما كان عظيما يستطيع أن يجذب اليه قلوب الجميع دون أن يكون بينهم من يريده بسوء . ولكننا جميعاً نضحك اذا قيل لنا ان انجلترا على وشك الفوضي لان أحد المجانين قد حاول قتل الملكة

« ان عدد الشراكسة فى الجيش لايزيد عن ٨١ ضابطا ولا يمكن عاقلا أن يتصور أن مثل هذا العدد قادر على قلب الحكومة

« أما عن تجارة الرقيق فنبلغكم بأن الوزارة الراهنة تعمل بجد فى الغائها . والدين الاسلامي لا يعارض فى هذا الالغاء بل بالعكس نرى أن أوامر الدين تمنع اتخاذ الرقيق الا من الكفار الذين يقاتلون المسلمين . فالعبد هو فى الواقع أسيرقد أخذ فى حرب مشروعة أو هو أحد أفراد أمة ليست على صفاء فى علاقاتها بأمراء المسلمين وليست بينها وبينهم معاهدات أو محالفات تحميها . زد على ذلك ان الكافر الذى ينتمي الى أمة متحالفة مع أمير مسلم لايمكن أن يؤخذ فى الرق . ومن هذا يتبين لكم ان الدين الاسلامي لا يعارض فى الغاء الرقيق ، كما هو الحادث في هذه الايام بل هو لا يوافق علي استمراره . وأولئك العلماء الذين لا يوافقون علي هذا الرأى فى انجلترا او غيرها عليهم أن تأتوا الينا ويعلمونا نحن شيوخ الازهر أصول إيماننا فان مثل هذا العمل يصير من المناظر المدهشة . فان العالم الاسلامي بأجمعه سيصعق وينعقد لسانه عند ما يعلم أن مسيحياً قد أخذ علي نفسه تعليم علماء أكبر جامعة اسلامية أصول ديانتهم وكيفية شرح القرآن .

« هذا وستصدر فتوي من شيخ الاسلام اعلانًا بأن الغاء الرقيق يوافق روح القرآن والسنة .

« وستجتهد الحكومة المصرية في ازالة جميع العوائق في سبيل هذا الالغاء ولن يهدأ بالها حتى تمحي هذه التجارة من جميع الاراضي المصرية »

« محمد عبده »

وهكذا فشلت مؤامرة ٢٥ ابريل ولم تكن لتستتبع أى ارتباكات أخري لولا تدخل مالت . فبدلا من أن ينصر الوزارة التي كانت هدف هذه المؤامرة مال بكل عواطفه نحو المتآمرين . فقد حوكم هؤلاء المتآمرون أمام محكمة عسكرية وحكم عليهم بالنفى الى البحر الابيض . وليس هذا بالعقوبة الهائلة وكثيراً ماحكم بمثلها فى عهد المراقبة الثنائية . فكتب مالت خطابات الى لندن يقول فيها انالعقوبة لا تقل عن الحكم بالاعدام . وأخذ مكاتبالتيمس ينشرقصة مفتراة فيجريدته مؤداها ان عرابي ذهب الى السجن وعذب أمامه المتهمون . وليس لهذه القصة أساس مطلقاً ومع ذلك فقد ألبسها مالت برسالته شيئًا منالوجاهة لانه ذكر انهذه القصة من الاشاعات الجارية على الالسن وانه سمع صراخ من السجن فى الليل . والحقيقة ان مالت جعل هذه القصة من الاعاليل التى تقدم بها للخديو للسعاية بينه وبينالوزارة لكي ينقل قضية المؤامرة من يدهم الي يد الخديو بغية تخفيف الحكم الى نفي بسيط مع أن هذا العمل طبقًا لقواعد الدستور الجديد لم يكن منحقوق الخديو

ولنعد الآن الي مذكراتى فأقول انى اجد فى ٢٨ ابريل انى ذهبت الى منزل رئيس الوزارة وأنا في أشد الحنق لانه لم يعمل شيء الى هذا الوقت لمصلحة مصر . ولكن هاملتون نصح بالصبر وقال لى ان هناك فكرة ترمى الى ارسال بعثة لمصر تدرس احوالها الآن . وفي اليوم التالي أيضاً هنأني باتون « وقال لى أن هناك ازمة شديدة عن مصر وأن من رأى الباب العالى ارسال الجيوش وخلع توفيق وتولية الاميرحليممكانه واعدامعرابي . ولكن الحكومة الانجليزية والحكومة الفرنسية قد منعتا ذلك وان عرابي سيعاون وسترسل البعثة » وفى يوم الثلاثاء سيكون موعد القاء تصريحمنالحكومة فى مجلس اللوردة خاص بمسألة مصر . وخبر تدخل الباب

العالي هو بلا شك أزمة قد أوجدها رتشيلد بمعاونة بسمارك . فقد توترت العلائق بين الاستانة والحزب الوطني فى مصر في الاسابيع الاخيرة وذلك لظروف عديدة يليق بى تفصيلها هنا الآن مع اثبات المكاتبات الغريبة التي دارت بين السلطان وعرابي وهذه المكاتبات عظيمة الاهمية لانها تثبت سلطة عرابي ونفوذه وظهورهما على سلطة سائر الوزراء

والقاريء يذكر انه عند ما زارت بعثة السلطان مصر فى خريف سنة ١٨٨١ لقى أحمد باشا راتب (وهو غير راتب باشا وكيل اسماعيل) ياور السلطان عرابي فى القطار عند سفره الى السويس لكي يذهب منها الي مكة . وقد تبادلا الافكار والآراء فى هذه السفرة وتصادقا وان ياور السلطان هذا قد وعد بان يذكر عرابى بالخير لدى السلطان ويبين له انه مسلم مخلص يدين بالولاء للخليفة. وجرت مكاتبات بينهما على أثر ذلك وعندى من هذه المكاتبات أصل الوثيقتين التاليتين. وقد وقعتا فى يدى في وقت محاكمة عرابى. وقد كتب هذان الخطابان فى الاسابيع الثلاثة التى تلت وزارة محمود سامي فى فبراير سنة ١٨٨٢ وكان عرابى وزير الحربية فى هذه الحكومة . والخطاب الاول من أحمد راتب والثاني من الشيخ محمد ظافر وهو من كبار رجال الدين فى الاستانة وكان فى ذلك الوقت مكلفاً بملاحظة مكاتبات السلطان السرية . وقد كتب الخطابان بناء على أمر السلطان الشخصى !

« الى وزير الحربية المصرية احمد عرابى باشا

« لقد قصصت على جلالة السلطان الحديث الذى جرى بيننا فى القطار بين محطة الزقازيق والمهدية بعد رجوعى الى الاستانة فامرنى بان أبلغكم تحياته الشاهانية. وقصصت على جلالته مالقيته من حسن رعايتكم لى ولطف آدابكم فى القاهرة وقد سر جلالته غاية السرور لذلك فتضاعف بذلك رضاه عليكم . وقد سبق ان بعض الناس أوهموه ولا أدرى باى كيفية بانكم لا تسيرون على الحق حتى جعلوه يسىء الظن بكم . أما الآن وقد عرضت عليه حقيقة الحال فاني أقسم لكم ان جلالته قد أسف أشد الاسف لما سبق ان اعتقده خطأ بكم . واثباتاً لذلك أمرنى ان اكتب لكم هذا الخطاب وان أخبركم بما يأتي :

« لا يهم جلالته شخص الخديو . وانما على حاكم مصر أن تكون افكاره ونياته وسلوكه موجهة نحو المحافظة على مستقبل مصر وسيادة الخليفة وعليه أن يحافظ على ديانة البلاد وحقوقها

« وهذه الواجبات المذكورة يجب على الجالس على عرش مصر . أن يؤديها وقد عمد اسماعيل باشا ومن سبقه من الولاة الى ارشاء على باشا وفؤاد باشا ومدحت باشا وسائر من يمثلونهم لدى الباب العالى من الخونة فأخفوا الحقائق ، وأخذ ولاة مصر فى البغى والظلم وأثقلوا كواهل المصريين بما طلبوه منهم . ثم هم فضلا عن ذلك قد اقترضوا أموالا جسيمة ووضعوا البلاد تحت نير ثقيل . وان حالة المصريين الآن لما تدعو الى الاسف والتحسر ولكن المسألة فى غاية الدقة وهي تدعو الي العلاج السريع الوافى . فلذلك يجب عليكم قبل كل شيء ان تتوقوا كل ما من شأنه أن يجلب على البلاد التدخل الاجنبي والا تحيدوا عن محجة الصواب والحق والا تسمعوا أقوال الخونة ولكن عليكم أن تتخذوا جميع الوسائل بالعناية التامة لمنع الاجانب من احداث الفتن . هذا هو اكبر مايرجوه السلطان

« وبما اننا سنتكاتب نحن الاثنين في المستقبل يجب عليك ان تحتاط حتى لاتقع خطاباتنا في أيد غريبة . وأسهل طريقة لذلك ان تسلم خطاباتك لهذا الشخص الذى يحمل اليك هذا الخطاب وخطاب الشيخ محمد ظافر

« هذا وأزيد على ما تقدم أنه يجب عليك ان ترسل الى اعتاب جلالة السلطان خفية دون ان يعلم أحد ضابطا من الواقفين على الحقائق فى مصر وممن تثق بهم لكي يخبر جلالته عن حقائق الاحوال بتفاصيلها

« وأرجوك ان ترسل الرد عن يد حامل هذا الخطاب　　　احمد راتب
« ٤ ربيع الثاني — ٢٢ فبراير ١٨٨٢ »　　　ياور السلطان

* * *

الى صاحب السعادة وزير الحربية المصرية

« لقد قدمت كلا خطابيكم الى جلالة السلطان وقد علم من مضمونهما عواطفكم الوطنية ويقظتكم وبخاصة ما ذكرتموه من السعى في رعاية مصالح جلالته وقد طلب

الي جلالته لهذا السبب ان أعبر لكم عن سروره وان اكتب اليكم ما يلي :

بما ان المحافظة على سلافة الخلافة واجب على كل رجل ذي شرف فيجب على المصريين ان يعملوا لتوثيق عرى الاتحاد بين مصر والدولة وان يمنعوا السبل التي تؤدى الى خروج بلادهم من الدولة الى ايدى الاجانب الطامعين فيها كما حصل في تونس . وجلالته يضع ثقته فى شخصك ويطلب اليك أن تستعمل كل نفوذك لمنع وقوع هذا وعليك ان تحترس والا تغفل عن هذه النقطة وان لاتهمل فى اتخاذ جميع الاحتياطات التى يتطلبها زماننا الحاضر واضعاً نصب عينيك في كل وقت الدفاع عن دينك وبلادك . وعليك أيضاً أن تحافظ علي الثقة التى أحرزتها عندنا وأن ترعى الروابط التى تربطك بنا

« ان مصر ذات أهمية كبرى لكلتا فرنسا وانجلترا وبخاصة لانجلترا . وقد حدثت هنا دسائس من رجال هاتين الدولتين يرجون بها تحقيق أغراضهم اللعينة السافلة وقد رأوا أن يمدوا شباك هذه الدسائس الي مصر . فجلالته يرغب اليكم أن تتيقظوا وتحذروا هؤلاء الناس . هذا ونرى من تلغرافات الخديو توفيق باشا أحد أفراد هذا الحزب انه ضعيف يتطوح وراء أهوائه . ونلاحظ أيضاً ان تلغرافاته متناقضة . وزيادة علي ذلك نخبرك ان على نظامي باشا وعلي فؤاد بك قد خاطبا جلالته بشأنك وامتدحاك لديه . وقد ذكر احمد راتب باشا لجلالته الحديث الذى جرى بينكما فى القطار بين الزقازيق والمهدية وجلالته يثق كثيراً بأحمد باشاولهذه المناسبة قد أمرني أن أخبرك بثقته فيك وأن أكرر عليك ضرورة الابتعاد عن كل ما من شأنه ان يكون سبباً فى تدخل الاجانب بأي وجه .

« اما الأوامر التى سيتلقاها راتب باشا في هذا الصدد فسترسل اليك على حدة

وقد كتب هذا الخطاب والخطاب المرسل من احمد راتب باشا احد سكرتيرية جلالته ووضع كل منا ختمه عليه كما وضع ايضاً ختم على كل ظرف

«ثم أخبرك بصفة سرية خاصة ان جلالة السلطان لا يثق باسمعيل او بحليم او بتوفيق ولكن الشخص الذى يفكر في مستقبل مصر ويقوى العلائق التي تربطها بالخلافة والذى يحترم جلالته ويراعى الفرمانات والذي يؤكد استقلاله فى الاستانة

وغيرها والذي لا يدفع الرشي للموظفين . والذى لا ينحرف قيد شعرة عن واجبه والذى يعرف أساليب الدسائس الاوروبية ويحتاط لها ويحافظ على البلاد من شرورها مثل هذا الرجل يسر جلالته ويجد لديه قبولا

« ثم أرجوك الا تؤاخذني اذا كنت قد اختصرت القول فى هذا الخطاب فان احمد راتب باشا قد وصل الي هنا منذ ثلاثة أيام وأخبر جلالته عن ولائكم حتي وثق بكم جلالته تمام الثقة . وهذه التعليمات المذكورة هنا قد تسلمتها امس فقط . واني آمل أن أرسل لك في بريد الاسبوع الآتى خطابا أكبر تفصيلا من هذا . وعلى كل حال يجب ان تحذر لئلا يقع أحد الخطابات فى أيد غريبة وليكن لك رسول خاص . ويحسن أن ترسل الرد بواسطة حامل هذا الخطاب

خادمك — محمد ظافر

« ٤ ربيع الثانى ٢٢ فبراير سنة ١٨٨٢ »

هذان الخطابان عظيما الأهمية التاريخية واذا قدر لى أن أطبع مذكراتى فانى سأضع صورهما الفتوغرافية ازاء ترجمتهما . فهما يوضحان ماحدث بعد ذلك في يونيه وقت بعثة الدراويش . واذا كان عرابي قد اتخذ لنفسه فى ذلك الوقت وفى مدة الحرب سلطة المستبد المستأثر فانه انما فعل ذلك وعنده من الوجهة الشرعية ما يبرر عمله وكذلك عنده من أوامر الخليفة ما يبرر مركزه ايضاً اذ قد ندبه الخليفة للدفاع عن البلاد وحمايتها من اعتداء النصرانية .

وكان الذي دعا الى تغيير هذه الخطة موقف هارنجتون فانه اعتبر مسألة قتل أخيه كأنها ظلامة شخصية له يجب ان تثأر ومن ذلك الوقت صار أعدي أعداء الوطنية الارلندية

وهذه الخطابات توضح ايضاً السبب فى كراهية السلطان عبد الحميد لان يعلن في شهر اغسطس أن عرابي ثائر خارج على الدولة كما تبين ايضاً سخافة هذه التهمة التي قدمت ضده فى وقت المحاكمة

ومع ذلك يجب الا يعتقد القارىء ان عرابى قد رضي بان يكون آلة في يد السلطان في أى شيء مما له علاقة باستقلال البلاد الادارى . فقد كان موقفه من هذه الناحية

موقف ثبات . فقد كان يكره الاتراك ومن المحقق انه كان يقاوم بقوة السلاح أي محاولة منهم فى دخول القطر المصري . وخطاب الشيخ محمد عبده يشهد بذلك. وهو يتفق وما قاله عرابي نفسه لى . فكان مركزه فى بلاط السلطان مقلقلا غير ثابت علي حال واحدة لهذا السبب. فقد كان له صديقان فى الاستانة هما أحمد راتب ومحمد ظافر ولكن كان له بجانبهما اعداء عديدون . وكان احد هؤلاء ثابت باشا السكرتير التركي للخديوي فانه لم يكن يهمل فى أخبار السلطان كل ما يوغر صدره على عرابى . ولا بد انه عند ماحدثت المؤامرة الشركسية وقبض على عدد من وجهاء الاتراك وكان بينهم عثمان باشا رفقى اغتاظ السلطان واستاء كثيراً . ولكن يظهر ان هذا الاستياء لم يدم طويلا لانه عند ما صارت المسألة تنحصر فى مقاومة أوربا عاد عرابي فكسب رضي السلطان ونال حظوته . ولم يكن عند السلطان أى تردد فى أيهما يجب أن يختص بعطفه : توفيق العوبة فرنسا وانجلترا أو عرابي الذى يذود الدول المسيحية عن بلاد اسلامية

وأظن أنه مما يؤسف له ان رغبة السلطان فى خلع الخديوى وتولية حليم مكانه لم تنفذ لانه وان لم يكن لعرابي أى صلة بحزب حليم في مصر فانه لم يكن ليعارض في توليته مادام قد رأى الخديوى توفيق قد ألقى بنفسه فى احضان السياسة الانجليزية. وكانت هذه التولية تقابل بالاستحسان والموافقة عند عدد عظيم من سراة مصر الذين كانوا يعرفون ان حليم أكثر ذكاء وأسمى آراء فى السياسة من الخديوي . ولو تدخل السلطان على هذا الوجه وبهذا القصد لعد تدخله سلمياً ولما كان فى حاجة الى تدخل حربي . وربما كان هذا على وجه العموم أمثل حل للمسألة . ولكن فرنسا كانت ترغب أشد الرغبة فى تدخل السلطان وكان ممثلو حكومتنا في القاهرة يكثرون من التعهدات لتوفيق . وكانت نهاية هذه المساعى أى فكرة ارسال بعثة انجليزية وهو ما كنت اقترحه انا وفكرة تدخل السلطان ان اقترح مسيو فريسينيه ارسال بعثة مؤلفة من قائد فرنسي وآخر انجليزى وآخر تركي « لاعادة النظام فى الجيش المصرى »

وكان اللورد ليونز هو الذى أشار على مسيو فريسينيه بهذا الاقتراح وكان

هذا اللورد بميل الي الاخذ بآراء ماليت . لان هذا الاخير كان سكرتيره الخصوصي مدة طويلة فكانت الثقة فيه لهذا السبب كبيرة

ولم يعمل شئ مما كنت قد وعدت بهمن الوزارة الانجليزية ولاتلك الكلمات القليلة التي وعد غلادستون أن يفوه بها في البرلمان ٠ وحدث لسوء الصدف ان الازمة التي كانت حادثة في مصر قد اتفق وقوعها في وقت الازمة الارلندية ٠ فقد جرب فورستر في أرلندا نظاماً من الحكم ينحصر في التهديد والضغط ٠ فقد قبض على اعضاء من البرلمان وحبسوا دون أن يحاكموا وتمادى رجال البوليس في اتخاذ أساليب صارمة لم تؤد الى تهدئة البلاد . وكان غلادستون قد أقنع وزارته بضرورة تغيير هذه الخطة بخطة المصالحة والمسالمة . وجرى اتفاق سري مع بارتل زعيم الارلنديين وهو في السجن ومع صديقه ديلون وهذا الاتفاق يعرف بمعاهدة كلمنهام أفرج بمقتضاها عنهما . وكانت نتيجة ذلك أن استقال فورستر في ٢ مايو وحمل على الحكومة لضعفها في مجلس العموم . وكان هذا اليوم نفسه أي ٢ مايو قد عين لان يكون اليوم الذي تفوه فيه الحكومة بتصريح عن مصر وكان مقترح هذا التصريح اللورد دلاوار وقد وجدت في مذكراتي مايلي :

٢ مايو — لقيت اللورد دلاوار في مجلس اللوردة . فأخذني الى الداخل وكنت أنتظر ان أسمع شيئاً عن التصريح الخاص بمصر . ولكني بدلا من ذلك سمعت تصريح اللورد جرانفيل عن استقالة فورستر من ولاية أرلندا . وحدث على أثر ذلك هياج عظيم في المجلس وكان يبدو على لورد جرانفيل حيرة وارتباك . فقد وقفه لورد سالزبري مرة أو مرتين وسمعت روزبري يقول بضع كلمات بهيئة مؤثرة ممتلئة وقاراً . أما المسائل المصرية فقد أرجئت باعتبارها غير مهمة » .

فقد أنستنا أرلندا جميع المسائل المصرية وبلغت هذه الحال حداً ان ذهبت مرة الي مورلي في انسادس من الشهر لكي ينشر لي في جريدته خطابا جاءني من الشيخ محمد عبده يوضح فيه المؤامرة الشركسية فرفض مورلي نشر الخطاب معتذراً لي بطوله وقال لي « ليس هنا من يهتم بمصر الآن » .

وكان هذا أول فصول المأساة القادمة . في السابع من الشهر اغتالت عصابة

أرلندية فى دبلين كافنديش شقيق اللورد هارنجتون وأحد أصدقاء غلادستون الحميمين و كان قد عين والياً على أرلندا بدلا من فورستر وفقاً لخطة المسالمة الجديدة وقتل معه أيضاً مستر بورك .ولم يكن لهذه العصابة علاقة بحزب بارنل ولكن الجمهور لم يميز بين الاثنين و كانت النتيجة ان الامة قامت بصوت واحد تطلب اتخاذ تدابير شديدة ضد الثورة فى أرلندا .وصار غلادستون يقاوم هذا التيار وعرض على ذلك أحد الاحرار الذين كانوا مثل مستر تشمبرلن على ولاء مع حزب بارنل أن يعين والياً علي أرلندا ويستمر فى اتخاذ خطة المسالمة . ولكن ذلك لم يرقه هذا المنصب المحفوف بالاخطار ورفضه . وبات من الصعب أن يوجد من يملأ هذا المنصب

فكان امام غلادستون طريقان : إما الاستقالة وإما النزول عن سياسته .وقد وجد الاكثرية فى الوزارة تخالفه فاختار الطريق الثاني ونزل عن سياسته . فأرسل الى دبلين عاصمة ارلندا تريفليان وانعقدت النيات علي اتخاذ خطة حزم وشدة فى أرلندا . وحدث مثل ذلك في مصر . فان غلادستون كان الى هذا الوقت باعتباره صاحب الصوت الاعلي في الوزارة يمنع بشخصه أى تدخل حربي على الرغم من خطة المنافرة والمخاصمة التى التزمتها وزارة الخارجية . أما الآن فقد وجد أكثرية الوزارة قد تبحثت عنه فألقى بمصر الى الذئاب . فكان لسان حال زملائه فى الوزارة يقول : انظر ماذا فعلت سياسة المسالمة فى ارلندا وما جنينا منها »

وإذا كان ما قيل لى صحيحاً فان القرار بشأن سياسة الحزم والشدة فى ارلندا والقرار بشأن التدخل في مصر قد اتخذا فى جلسة واحدة فى الاسبوع التالى من شهر مايو . وإليك بعض مختارات من مذكراتي عن تلك الأيام .

« ٨ مايو — كانت نتيجة الاخبار السيئة عن مصر انى أرسلت « بلاغاً أخيراً » الى غلادستون أرجوه فيه أن يخلصني من الحيرة التى وقعت فيها بسبب صمت الحكومة . فقد قلت انى سأقول الحق اذا لم يفكه اللورد غرانفيل . والناس فى كل مكان فى هياج عن ارلندا فقد جاءت أخبار امس تنبيء باغتيال اللورد كافنديش ومستر بورك وشعر الناس لأول وهلة كأن الحكومة ستوشك ان تستقيل ولكن بارنل قد كتب اليوم ينكر أى صلة أو علاقة بهذه الجريمة وسيقوى

هذا الانـكار مركز غلادستون . وفى يوم الجمعة كنت بمجلس العموم فى إحدى أروقته وكان الى جانبي ارثر براندين رئيس المجلس فأشار بيده الى «الثلاثة الارلنديين المتآمرين » وهم يتحدثون فتأملت بارنل . وهو رجل طويل حسن الوجه يبلغ عمره نحو اثنتين وثلاثين سنة . وليس فى سحنته ما يدل على أنه من القتلة السفاحين . اما ديلون فطويل القامة شاحب جداً أسمر اللون تقريبا . ولو ألبسه الانسان عباءة وأمسكه خنجراً لصار مثل جاي فوكس . وكان منظرهما يتميز عن سائر من حولهما كما يتميز الرجل المهذب من بين أوباش يحيطون به .

« ١٠ مايو — جاءت اخبار سيئة من مصر . فان الخديو رفض ان يوقع على الحـكم فى قضية المؤامرة الشركسية فطلب عرابى اجتماع مجلس النواب . وهم الآن يتحدثون عن خلع توفيق . وقد ذهبت الى منزل رئيس الوزارة ورأيت جودلي فألححت بضرورة حصولي على جواب من غلادستون على اسئلتى الماضية . فقال ان غلادستون غير موجود لانه ذهب لتشييع جنازة الاورد كافنديش واتفقت مع جودلى على أن أعود فى اليـوم التالى لـكي أحصل على اجابة . ورأى جودلى شـدة قلقى فوعدني بهذه الاجابة قائلا أن الوقت الحاضر فرصة سيئة » .

هذا ما كتبته في مذكرتى وانى أتذكر الآن أن جودلى كان يعطف على أشد العطف في هذه المسألة . فقد كنت متأثراً غاية التأثر . فقد تراءى لى عندئذ انه من المحزن أن يتوقف حظ امة بأسرها واحسن الآمال لاصـلاح ديانة وكلتاهما — الامة والديانة — ذات مكانة فى التاريخ علي الحصول على مقابلة رجل مسن والتحدث اليه مقدار نصف ساعة لاني كنت أشعر أني قادر على إقناعه . ولم أكن أعرف احدا فى مجلس الوزراء ولـكن لابد ان جودلى كان يعرف كل شيء وانى أعرف انه كان على الدوام يعارض خطة الوزارة الخارجية نحو مصر وأظن أنه شعر بجناية مستر غلادستون فى اشتراكه فى الخطة عندما وقف يدافع عن التـدخل وإعلان الحرب على حرية الشرقيين لمصلحة الماليين . ولم يمض زمن طويل على تغيير خطة غلادستون حتى تركه جودلى وعين فى وظيفـة أخرى وكنت أشعر على الدوام أنه فعـل ذلك احتجاجاً على مستر غلادستون . وإليك المذكرات .

« ١٢ مايو — لقد صرح فريسنيه بأن الأتراك لن يسمح لهم بالتدخل . وقد ذهبت الى منزل هوارد الذى وافق على ما رسمته وهو أن أنشر جميع الحقائق وعندى جميعها . وستنشرها التيمس . ويظهر أن روتشيلو قد اشتغل بجد لكي يجعل الحكومة الفرنسية توافق علي عزل الخديو ووضع الامير حليم على عرش مصر . هذا وقد أمر أحد الأساطيل بأن يكون على قدم الاستعداد بعد خمسة عشر يوماً فى بليموث . . . وقد قابلت ادى هاملتون وهو يعدنى بالاجابة هذه الليلة . هذا وقد أحدث رفض ذلك لولاية ارلندا غضب هوارد . وقال عنه : « انه سيفقد مكانته الاجتماعية بهذا العمل » فهم ينظرون الي ذلك فى امتناعه عن قبول هذا المنصب كأنه قد أحجم عن خطر ولكن ربما كان الصحيح ان ذلك آثر البقاء فى وزارة الخارجية ليشرف منها على جميع مسائل أوروبا ولو أنه قبل هذا المنصب لكان في قبوله خير لمصر » .

« ١٣ مايو — جاء جواب غلادستون عن أسئلتي وهو لا يستطيع إعطاء التعليمات ولكن اللورد جرانفيل سيخطب يوم الاثنين وهو يرجونى أن أنتظر الي هذا اليوم وكل ما يعد به أن خطة الاحرار ستكون طبق مذاهب الاحرار . وهذا ما يرضيني . وقد كتبت الي غلادستون أقترح أن أذهب وأتوسط لفض الخلاف بين الخديو وعرابي وارسلت التلغراف التالى الى عرابي . « أرجوك الصبر . ولو فعل شيئاً طائشاً أو بدون رأى البرلمان . وأجل ما تنوي أن تعمله مع الخديوى وأنا أشتغل بجد لمصلحتك ولكني في حاجة الى الوقت . ان الخطر حقيقى » وجاءلى خطاب فى الساعة الخامسة من غلادستون يقول فيه أنه يظن ان خطابى الاخير قد كتب قبل أن تصل الاخبار الاخيرة من مصر .

ولا أدرى ماذا يقصد بهذا القول لانه ليس فى جرائد المساء شيء من الاخبار عن مصر وفى المساء جاء رد جوابى : « ١٢ مايو — أشكر لك نصائحك وقد عرض الخلاف على النواب . الهدوء شامل . ليس هناك أقل خوف على الاوربيين . احمد عرابي »

وكنت فى ذلك الوقت فى كرابت وكان معي فان يبننجسن القاضى الهولندى المعروف وأحد المؤلفين وهو مؤلف كتاب « قاض مختلط » وهو من أحسن

الكتب التي ألفت عن مصر فى عهد المراقبة الثنائية . وقد وجدت فيه رجلا شديد العطف على الوطنيين المصريين .

واليوم التالى أي فى ١٥ منه كان اليوم المعين لكي تفوه فيه الحكومة بتصريح عن مصر فى البرلمان . وذهبت الى لندن وكلي رجاء عن الحالة وقد تقويت بالتلغراف الذى أرسله الى الشيخ محمد عبده . ولكن خيبة الامل كانت قد قدرت لى . فقد حدثت مناقشة فى مجلس اللوردات عن مصر ولم يفه اللورد جرانفيل باكثر من التصريح بما يشبه الوعيد باعادة مذكرة غامبتا وبقوله الذي أعتقد انه لم يكن صادقا فيه ان المجلس وجميع الامة فى صف الخديو ضد الوزارة . فهذه اذن هي « خطة الاحرار » التي وعدنى بها هاملتون . فشعرت عندئذ بانى غير مقيد بهذا الصمت الذى التزمته نحو غلادستون الذى ظهر لى كأنه قد لعب بي وخدعني . فتركت مجلس اللوردة عندما انتهي اللورد جرانفيل من القاء خطبته وأنا فى أشد الغيظ وعزوت من ذلك الوقت على الا أرعي الحكومة . وأخذت افكر في المسألة طول الليل لكي أقرر لنفسي خطة وأخيراً قر رأيي على شيء واحد وهو مقاومة الدسائس التى كانت تعمل والعمل لافسادها .

« ١٤ مايو — قرأت فى الابزرفر أن سلطانا باشا قد ذهب أمس الى الخديو لكي يمشي الصلح بين الخديو وبين عرابي . واستنتج من ذلك أن تلغرافى قد أرسل في حينه ووقته الملائم . وتقول الصحف أنه هو والمجلس قد انضما الي الخديو ضد عرابي . ولكني لن أصدق هذا حتى تصل الى الاخبار . والارجح أن سلطانا باشا بعد غضب لاجتماع المجلس اجتماعا غير قانونى وفي وقت غير ملائم . ولا بد أن الجيش لنفوذه الكبير فى الوزارة قد أوجد لنفسه اعداء . فربما كانت هناك غيرة ولكنى لن أصدق أكثر من ذلك . وكل ذلك طبعاً هو من عمل كولفن وماليت وقد تشجع الشركس لامل تدخل الاتراك وقد أمرت بعض البوارج بالابحار الى الاسكندرية وسيكون من تأثير هذا العمل اتحاد الجميع ضد الاوروبيين

« وفى المساء جاء تلغراف من الشيخ محمد عبده لا أكاد أفهمه يقول فيه .

« ليس هناك خلاف بين سلطان باشا والبرلمان والذئب (يعني الخديو المخلوع

اسماعيل) الذى ذكرت لكم اعتقادى اشتراكه في المؤامرة الشركسية قد ثبت الآن انه مشترك فيها . ومسائل الخلاف المهمة قد عرضت على الاعضاء . وليس هناك ما يخشى منه على الامن العام » وحقيقة هذه الازمة التى حدثت فى النصف الاول من شهر مايو فى القاهرة كما علمت بعد ذلك كانت كما يلى :

وجد الخديو نفسه فى الثاني من هذا الشهر أمام الحاج عرابي وزير الحربية مضطراً الى التوقيع على أحكام النفي علي المتآمرين الشركس · وكان من بين هؤلاء المتآمرين أصدقاء لهم عليه دالة الصداقة . فاستدعى ماليت لكي يستشيره فنصح له بأن يمتنع عن التوقيع ووعده بمظاهرة السياسة الانجليزية له . ويجب أن نعتبر هذا الوقت أول فرصة عقد فيها الخديو نيته علي أن يترامي فيأحضان الحكومةالانجليزية ويطلب حمايتها من وزرائه . وكتب ماليت علي أثر ذلك رسالة مهمة طبعت بعد ذلك فى الكتب الزرق تمدح فيها باخلاق الخديو وعده جديرا بثقة حكومة جلالة الملكة . وبناء على هذا رفض الخديو التوقيع مع أنه ليس له حسب قواعد الدستور حق الامتناع عن التوقيع علي أحكام المحكمة العسكرية

وكان هذا الامتناع الذيعرف وذاع فى الحال داعياً الىحنق الوزراء الوطنيين وكان علم الوزراء أنه آت عن قنصل أجنبي مما يزيد حنقهم . وكتب محمود سامى رئيس الوزراء خطابا الى أعضاء البرلمان يستدعيهم للحضور الى القاهرة لانعقاد البرلمان . وكان هذا العمل غيرقانوني لان استدعاء البرلمان من اختصاصات الخديو . ثم أن الوقت لم يكن ملائماً لانعقاد البرلمان من حيث الفصل فاستاء بعض الاعضاء لهذه الدعوة . ومع كل ذلك قد حضر عدد كبير من الاعضاء ولو أنهم لم يجتمعوا اجتماعا رسمياً الا أنهم في اجتماعهم فى منزل سلطان باشا قرروا مؤازرة الوزارة . وقرروا أيضاً باكثرية ٤٥ ضد ٣٠ صوتاً انه اذا استمر الخديو على دسائسه مع القنصلين الفرنسى والانجليزى لم يكن ثم مناص من محاكمته وخلعه . وكان ماليت فى هذا الوقت قد تسلم تلغرافاً من وزارة الخارجية تصدق فيه حتي خطبه . وكان ماليت قد وجد من الخديو تردداً فذهب اليه وأخبره بأن الاسطولين الفرنسي والانجليزى قد أمرا بالابحار الى الاسكندرية لحماية الاجانب . فارسل الخديو الى

سلطان باشا رئيس المجلس وعرض الموقف عليه وألقى فى روعه وصار يلعب على الغيرة التى كانت بينه وبين عرابي حتى أغراه بالانضمام اليـه والثقة بمعاونة اوروبا بدلا من المغامرة بالحرب . فلما اجتمع أعضاء المجلس اجتماعهم غير الرسمي فى المرة التالية صرح سلطان بأنه في جانب الخديو وانه يعارض خطة الوزارة وانضم اليه ستة من الاعضاء فى هذا الرأى . أما الباقون فقد ثبتوا على ولائهم للوزارة . وكان هذا هو الوقت الذى تسلم فيـه عرابى تلغرافى فى القاهرة ويظهر أنه كان له بعض التأثير على سلطان الذي لا بد أنه قد اطلع عليه . ولكن الصحف الانجليزية نشرت في ١٣ منه أن المجلس قد انضم الى الخديو ونشرت فى ١٥ منه أن محمود سامي قد استقال . وما يلى مأخوذ من مذكراتى .

وما هو الا أن جاء وقت فتح مكاتب التلغرافات في الصبـاح حتى أرسلت التلغراف التالى الى القاهرة وذلك فى ١٦ مايو :

« الى عرابي باشا وزير الحربيـة : قال لورد جرانفيل فى البرلمان ان سلطانا باشا والنواب قد انضموا الى الخديو ضدك . فاذا كان هـذا القول غير صحيح فاطلب الى سلطان باشا أن يرسل الي تكذيباً . واذا اتحدتم فلا تخشوا شيئاً ، ألا يمكنكم أن تؤلفوا وزارة يكون سلطان باشا رئيساً لها ؟ وعلى كل حال عليكم بالثبات »

وأرسلت أيضاً هذا التلغراف التالى :

« الى سلطان باشا رئيس مجلس النواب : أعتقد أن جميع أولئك الذين يحبون مصر يجب أن يتحدوا . فلا تتشاجر مع عرابى . ان الخطر عظيم »

وأرسلت الى كل من بطرس باشا و « أبو يوسف » ومحمد باشا الفلكي هذا التلغراف :

« هل الحزب الوطنى مع عرابي الآن ؟ الحكومة الانجليزية تدعى أنه ليس كذلك اذا ذهب اتحادكم ضمنتكم اوروبا الي أملاكها »

وأرسلت هذا التلغراف نفسه الى الاستاذ الشيخ محمد عبده والشيخ المهجرسي وعبد الله نديم الخطيب . وجميع هذه التلغرافات كانت موقعة باسمي وكنت أعرف أنى فى ارسال هذه التلغرافات سأتعرض لغضب وزارة الخارجية ان لم يكن لغضب

مستر غلادستون نفسه . لانه لم يكن من المعقول أن الوكالة البريطانية في القاهرة ستجهلها لان تلغرافات شركة التلغراف الشرقي كانت تذاع في الغالب عند وصولها . ولكنى كنت قد عقدت النية على المخاطرة وكان شكي وارتيابي ينحصران فيما اذا كنت قد أوضحت الخطر للنواب . واعتقدت ان عبارة « اذا ذهب اتحادكم ضمتكم اوروبا الى املاكها » تؤدى غرضى . وذلك لانه وان لم تكن نية انجلترا او فرنسا فى ذلك الوقت ضم مصر الى املاكها فان النهاية كانت نحو هذه الغاية وكانت كلمات كولفن ترن فى أذني . وأعتقد أن الحوادث قد بررت اعتقادى . فلما أن رميت سهمى ذهبت الي كرابت لاستريح وأنتظر ما تجيء به الايام . فجاء الجواب على تلغرافاتى بأسرع مما كنت أنتظر . ففى ذلك المساء وأنا أتناول العشاء تسلمت تلغرافًا من سلطان باشا يقول فيه :

« لقد زال الخلاف الذى كان بين الوزارة وبين الخديو ولم يبق له أثر . وكلنا متفق على المحافظة على الامن والسلام وعلى مناصرة الوزارة الحاضرة . سلطان »

ولشدة سرورى أرسلت هذا التلغراف الى مستر غلادستون كما أرسلته أيضاً الي التيمس لكي تنشره .

وعدت الى لندن في السابع عشر من شهر مايو وأنا فى أشد الغبطة وفي طريق تسلمت التلغرافات الآتية .

« من الشيخ الامبابي شيخ الاسلام . قد سوي الخلاف بين الوزارة والخديو والحزب الوطني راض بعرابى . والامة والجيش متحدان » .

ثم أيضاً هذا التلغراف التالي وهو بلا إمضاء ولا شك انه من أحد الاعضاء :

« جميع البلاد تظاهر عرابى والوزير سامي . والفلاحون والبدو والعلماء متحدون . وليس بيننا سوى واحد يقاوم الحرية المصرية ويجتهد فى افساد الرأى العام » .

وجاءنى تلغراف ثالث من محمد عبده في هذا المعني.

ثم جاءت صحف الصباح فأيدت هذه الاخبار السارة وذكرت أن الخديو بمساعى سلطان باشا قد صفح عن الوزارة . فظهر لى من ذلك اني قد نلت فوزاً

سياسياً مهماً . فذهبت وأنا مسلح بهذه التلغرافات الى شارع دونج حيث منزل رئيس الوزراء فوجدت هاملتون وجودلي فأريتهما التلغرافات .فهنآني على فوزي . وأخبرتهما ان هذه التلغرافات قد كلفتني عشرين جنيهاً فقال هاملتون انه يجب أن يدفع لي هذا المبلغ من مخصصات النفقات السرية . هذا وقد قال هـذا القول طبعاً على سبيل المزاح ولكنه يدل على ان فوزي على وزارة الخارجية قد قوبل بالارتياح وقد نصح لي كل من هاملتون وجودلي بان أكتب الى مستر غلادستون — بما اني لم أره — خطاباً رسمياً أحمل فيه على وزارة الخارجية لتعمدها الكذب .وقد قبلت أن أفعل ذلك وقطعت الليل فى كتابة هذا الخطاب . وقد اتفقت مع باتون على انه اذا طرأت الحاجة ننشر الخطاب فى جريدة التيمس . وفى اثنـاء ذلك أرسلت الى سلطان باشا تلغرافا رجوته فيه أن يهنئ الخديو.

ولكن جاء الصباح فتقوضت آمالي وانقلب فوزى هزيمة . فقد نزلت فى منزلى في لندن فى شارع جيمس رقم ١٠ وأرسلت في طلب الجرائد فوجدت فيهن جميعهن تلغرافا لشركة روتر وفيه نص تلغرافي الى الاعضاء الذي قلت فيه ان أوربا ستضم مصر الى أملاكها .وفيه ان شيخ الاسلام قد تبرأ من الرد الذى جاءني باسمه .

ووجدت فى «ذي ستاندارد» تلغرافا من مكاتبها فى القاهرة يقول فيه انه قد صرح لهمن سلطان باشا بان يكذب التلغراف الذى أرسله لي ونشر في التيمس . وان تلغراف سلطان انما كتب وهو تحت تأثير الارهاب الحربى . فكتبت الى غلادستون خطابا ثانياً وأرسلت اليه الخطابين معرسول قبل الظهر .وكذلك أرسلت الى هاملتون مع نفس هذا الرسول أخبره بوجوب نشر الخطابين . ووجدت باتون فى المنزل ووعدني بأن الخطابين سينشران في التيمس .وقد سر كثيراً منهما وقال لي انهما سيحدثان ضجة بين القراء .

ومع ذلك ومع انه قد صفت حروفها فانهما لم ينشرا. وقد ذكرت سبب ذلك فى مذكراتي .وفى الساعة السادسة وجدت رقعة من ادى هاملتون يقول فيها انه سيكون بالمنزل فى أصيل اليوم التالي فذهبت اليه .فقال لي انى لم أكن أحسن صنعاً في ارسال تلغرافى الى شيخ الاسلام وانه لا يحسن بي ان أنشره.

«فسألته عن الضمان الذي يستطيع أن يقدمه لي عن انه لا يقصد سوءاً بالاسكندرية فقال ان ذهاب الاسطول لا يقصد منه سوى تأمين أرواح الرعايا البريطانيين . ولم يكن يعتقد أن من المرجح أن يطلب تسريح الجيش المصرى أو انزال جنود فى الاسكندرية . وأكد لي أيضاً أن اللجنة التى أشرت بارسالها سترسل الى مصر . وقد سررت بهذا وأرسلت دافيد (خادمى) الى التيمس لكي يقف نشر خطاباتى»

ولست أشك أن هذه التأكيدات التي سمعتها في منزل رئيس الوزارة كانت صادقة . ولكن أعمال وزارة الخارجية كذبتها . وسكوتي عن الرد على التلغرافات وضعني فى موضع غير حسن لدى الجمهور . فقد قالت عني سانت جيمس غازيت أني محرض أبعث الفتن من مراقدها . ورأت الجرائد الاخرى أني لزمت الصمت فاتبعتها في سبي . وكان لهذه الاقوال رد فعل عند الحكومة وأيضاً عند مستر غلادستون ولو انه كان يعرف الحقائق التي كان يجهلها الجمهور . وواصلت زياراتى لمنزل رئيس الوزارة ولكن هـذه الزيارات صارت تفقد بالتدريج الالفة السابقة . ولهذا السبب آسف الآن على انى قد رضيت بالا تنشر خطاباتي فى التيمس . ولو ظهرت هذه الخطابات لما كان هناك مجال لان يصدر البلاغ الاخير فى ٢٥ مايو

الفصل الثاني عشر

الدسائس ومكافحتها

ان تاريخ الستة الاسابيع التالية في مصر من بدء وصول الاسطولين الفرنسي والانجليزي الى ضرب الاسكندرية بالقنابل هو تاريخ محاولة السياسة الانجليزية فى أن تستعيد مركزها الذى فقدته . فلما لم تنجح فى ذلك لجأت الى احداث مصادمة . ومحاولة وزارة الخارجية أيضاً ان تدفع غلادستون الى أن يلجأ الى العنف . وفى كل هذه الاعمال كان المدار على احقاد شخصية اكثر مما كان على السياسة او على النفوذ المالي فلم تكن وزارات اوربا او «البورصات» ملحة الحاحا يجعل التسوية السلمية مستحيلة فقد تراجعت فرنسا فى وزارة فرنسنيه عن خطة غامبتا الاعتدائية . وكانت راضية

بالحال الموجودة بالقاهرة بينما كانت النمسا والمانيا اللتان يمثلهما روتشيلد وبعض الماليين راضيتين بالالتجاء الى العلاج الناجع الذى استعمل فى سنة ١٨٧٩ بدخول السلطان فى المسألة وتولية حليم مكان توفيق . وقد كان هذا حلا سهلا للنزاع بين توفيق والوزارة وقد كانت جميع الاحزاب فى مصر تقبله لحسم النزاع وان لم تكن تعتبره مثل الحلول . اما سائر الامم الاوربية فكانت تعطف علي الوطنيين وكان أشدها عطفاً سويسرا وبلجيكا . وبلغت الحماسة فى ايطاليا على الرغم من أن الحكومة كانت تعضد السياسة الانجليزية ان غاريبالدى كان يهيئ فيلقاً للذهاب الى مصر ومعاونة عرابى . ولم يكن الرأى العام متهيجاً ويطلب اتخاذ خطة نشيطة الا فى انجلترا حيث دأبت الصحف التى اغرتهن وزارة الخارجية على التأثير فيه . أما الاحقاد الشخصية المسألة فتتلخص فيما يلى :

فقد تورط ماليت وكولفن عند تشكيل الوزارة في مقاومتهما من البداية . فكان كل حل يقضى بوجود هذه الوزارة واستقرارها يعنى فى الواقع خزيهما وانهزامهما فقد كان محتوماً على كولفن ان يقال من الخدمة عندئذ ويفعل مثلما فعل زميله الفرنسي دوبلانجير : أما ماليت فانه كان يرسل الى وظيفة صغرى لا تكون لاغلاطه فيها هذا الخطر . ثم كانت وزارة الخارجية مضطرة أيضاً الى المحافظة على كرامتها . فكان ذلك رجلا ذا اطماع وآمال ولم يكن يرضى بالهزيمة . وكان جرانفيل هذا الشيخ المسن على الرغم من حبه للراحة مغرماً بان تكون خطبه جيدة . وعلى هذا نجد من نصف مايو الى ١١ يوليو وهو تاريخ ضرب الاسكندرية عدة مناورات لا تبررها الضرورة بل تخالف ايضاً مبادئ غلادستون وليس فيها أدني مراعاة للضمير والذمة بحيث اني لا أعتقد ان فى وزارة الخارجية ما يماثلها من هذه الوجهة

ومن الجانب الآخر نجد الحزب الوطنى فى الوقت الذى انال فيه مصر حق الحكومة الذاتية وحصل فيه على حق الحرية المدنية والشخصية وهي حقوق لم يسبق في التاريخ ان حصلت عليها مصر . وبعد ان اجتمع برلمانها وانقضي الفصل الاول من اجتماعاته . وعند ماكان النواب يشتغلون بالاصلاح ورغبة الجميع الهدوء والسلام فى هذا الوقت وجد الحزب الوطنى نفسه مهدداً بالمخاطر فى الخارج وبالخيانة التى

تؤازرها الدسائس الاجنبية من الداخل . وقد جاء فى ثلاثة خطابات . الاول والثاني من عرابي والثالث من جون نينيه وهو الوحيد بين العاطفين على الوطنيين الذى بقى فى مصر واشترك مع الجيش . وهذه الخطابات تبين القارئ شعور الوطنيين فى الاسابيع الاولى :

القاهرة في ١٥ مايو سنة ١٨٨٢

الى صديقنا العزيز المخلص المستر بلنت

بعد حمد الله . نخبرك ان خطابك المؤرخ فى ٢٠ ابريل قد وصلنا . وقد قرأناه ونحن فى غاية السرور . ونرجو أن تجني قريباً ثمار مساعيك . والحقيقة ان كل من يعشق الحرية يشهد بفضلك ويحمد لك مساعيك . وقد تضاعف سروري عند ما علمت ان خطابى قد وصلاك في الوقت المناسب . والله برحمته يهدىء بالنا بحسن الحال ويرشدنا الى مافيه صلاح البلاد .

اما عن نشر الخطابين اللذين أرسلتهما لك فقد كان قصدي أن أسفه الاعداء الذين يحملون علي ويتهموتنى بأنني أركب الشطط وأطمح الى الاستبداد والاستئثار بالسلطة . وانت تعرف ان هذا سباب ليس غير وأحب أن أذكرك بصفتى وزير الحربية فأنا مسئول عن وزارتي كما ان كل وزير آخر مسئول عن وزارته . وليس فى الوزارة سوى صوت واحد وأنا أتبع رأى رئيس الوزارة والخطة التى يشير بها على كما يظهر ذلك من الخطاب الذى أرسله الى الخديو عند ما ألف الوزارة . ويمكنك أن تثق بأننا جميعاً غيورون على مصلحة بلادنا مجتهدون في أن نسير على أصول الحق . وقد عزمنا بمعونة الله ان نتغلب على جميع الصعوبات . فاذا كان فى أوروبا أمة تميل الى الخير وتحب نشر الحضارة تود أن تضع يدها في يدنا لكي تعيننا على التقدم فنحن نكون لها من الشاكرين . واذا لم يكن هذا فنحن نشكر الله وحده الذي أعاننا في البداية.

أما عن حالة البلاد فالهدوء شامل . والحيرة الوحيدة التي نعانيها هى فى تلك الاكاذيب التى تنشرها الصحف الاوربية . فان هذا عداء لا مبرر له . ولكن عسي غشاوة الاغرار تزول عن أعينهم؟

احمد عرابى

القاهرة فى ٢١ مايو سنة ١٨٨٢

بعد تقـديم أحسن التحيات والتسليمات نقـدم لكم تشكراتنا على مساعيكم واهتمامكم بمصالح بلادنا وسؤالكم عنا بالتلغرافات والخطابات بعـد الحوادث التي حدثت هنا . وقد أجبنا كم الى ما طلبتم منا كما أجاب أيضـاً جميع الذين سألتموهم وشرحنا الاحوال بالصدق والامانة . واليكم الآن بعض التفصيلات.

ان جميع الاهالي فى حزن لمجيء البوارج الانجليزية والفرنسـية وهم يرون في هذا العمل نيات منطوية على السوء بالبلاد كما أنهم يرون فيه أيضاً اعتداء لاضرورة له ولا مبرراً . وقد قرر المصريون على ألا يسلموا للدولة التى تتدخـل فى شؤونهم أو فى إدارة البلاد الداخليـة . وهم أيضاً مصممون على الاحتفاظ بامتيازاتهم التى تثبتها المعاهدات . ولن يسمحوا لأحد بانتقاص هذه الامتيازات أو مسها مادام فيهم رمق . ثم هم أيضاً سيجهدون فى المحافظة على مصالح الاوروبيين وحيـاتهم وممتلكاتهم ومقامهم ما دام هؤلاء لايتعدون الحدود التى رسمتها لهم القوانين .

ونحن جميعاً نجتهد في تأدية واجباتنا ونتوكل على الله فى الدفاع عن حقوقنا وبمعونته سننال غايتنا . وغايتنا تنحصر فى سعادة الوطن ونشر السلام والأمن بين سكنانه . ونحن نأمل فى عدالة اوروبا ألا تتعدى الدول علينا بل بالعكس ننتظر منهم أن يحسنوا السلوك معنا . لأن هذا فى مصلحتهم ويؤدي الى تحقيق رغائبهم

ويحسن بانجلترا ألا تثق بوكلائها هنا لأن هؤلاء الناس لهم مآرب خفية شخصية يريدون تحقيقها . ونحن نظن أن نجاحهم في تحقيق مآربهم هـذه سيعود بالضرر علي بلادهم . وعلي حكومتهم .

وفى هذا ما يكفي وسيأتيك الغد بما تجهله الآن .

وقد أرسلت طي هذا خطاباً أرجوك أن ترسله الى سير ولیم جريجورى.

وفى الختام أرجوك تقديم تحياتي لصابو نجي والليدى انى بلنت . والله يرعاكم بعنايته.

احمدعرابى

أما خطاب نينه فذو قيمة خاصة من حيث التاريخ لأنه كتب فى ١٩ مايو وهو آخر أيام الحكومة الذاتية فى مصر . فهو يقول :

« إن قلبي وهو قلب وطني سويسرى يتفطر الآن على هذا الظلم الصارخ الذى ارتكبته الدول في مصر . فالأمة بأجمعها قد اتحدت وانضمت الى زعيمها الشريف الذي أنبتته مياه النيل وتكون من غريزة مثل سائر الفلاحين . وقد قبلت الامة المصرية علي نفسها أن تدفع الديون التى استدانها حاكم مستبد لا ضمير له . — هذا الحاكم الذى أنفق وبعثر في ستة عشر عاما نحو ثلثمائة مليون جنيه لكي يملأ جيوبه وجيوب الساسة كباراً وصغاراً وجيوب المرابين النصارى واليهود ... ثم جرت ثورة سلمية بارادة الأمة . ولم يحدث مدة هذا الانقلاب عمل واحد لا يليق بحكومة تراعي الذمة والشرف . ولكن أوربا التي تهتم بالبورصات وبالاسهم اكثر مما تهتم بأماني الشعوب ترسل أساطيلها . ولماذا ؟ لان مجلس النواب قد وجد من المناسب أن يناقش الحكومة عن الميزانية . فاين الحياة هنا ؟ هب أن وزيراً من وزرائكم اختلف مع المملكة فهل ترسل الامم الكاثوليكية اساطيلها الى ارلندا لتهدئتها ؟ ومع ذلك في المشابهة فارق . فان مصر هادئة . ولم يشك فيها أحد من الاوربيين أو المسيحيين . ألا تحرج هذه الحالة الصدور ؟

ومع ذلك فعرابى رجل هادىء عاقل ينتظر الغد بحكمة فلاسفة العصور القديمة. فالجيش والامة والمدن معه . وقنصل فرنسا كان الي الآن صامتاً . أما سير ماليت فقد كان الى الآن يطلب الصدام ولا يرغب في صلح او اتفاق يبذر فى القاهرة وبذر الخوف بدلا من أن يغرس الثقة والطمأنينة فى قلوب الأهالى . ولا تكاد يا سيدى تعرف مبلغ المفتريات التى تنشر فىالتيمس والأستانة والديلى نيوزبواسطة الشركات التلغرافية . ومع كل ذلك لا تسمع كلمة لوم ولا تجد من الاهالىما يسىء أحداً . فقد كنا وما زلنا فى هدوء يشبه هدوء المجتمعين فى بستان ريجنت فى يوم أحد . هذا وينتظر وصول الاساطيل غداً » .

وثم خطابات أخرى تبين الحالة فى تطورها بعد ذلك . وكان هذا الظلم الفادح والهجوم على البلاد أدعي الى تغيظ الأهالي وحنقهم بحيث تعدوا طورهم لان هذه الدولة الهاجمة عليهم كانت الى هذا الوقت تعد فى نظرهم صاحبة الأثر الحسن فى حب الحرية والمذاهب الانسانية التى كان رجالها يدعون اليها بحماسة الرسل . فلم

يكن اذن من المدهش أن يتطوح العقلاء ويتأثروا بخواطر هوجاء وهم قد رأوا أنفسهم مهددين ساعة بالهجوم من جانب انجلترا وساعة أخرى بالهجوم من جانب تركيا بفعل الدسائس الانجليزية . فلم يكن لهم من يثقون به وكانوا يخشون الخيانة فى كل مكان . ثم ليس أيضاً من الغريب أن يرتكب الزعماء بعض الاغلاط وهم فى مثل هذه الظروف المتغيرة المتقلبة الشاقة . وكلما دقق الانسان النظر فيهذه الاغلاط شهد لهؤلاء الزعماء بالفضل . فانه عند ما فشلت دسائس وكلائنا واحدة بعد أخري وتقطعت فى أيديهم أسباب الخيانة التى لجأوا اليها ووجدوا أنفسهم بعد حملتهم حيال هزيمة محزنة — عند ذلك لجأوا الى المدافع والاساطيل لكي تحل عقدة لم يستطيعوا تحملها . وعندئذ فقط تغير المصريون عن موقف الهدوء الذى لزموه الى الا ن . واستطاعت عندئذ وزارة الخارجية الانجليزية أن تدعي الظفر .

وإثبات هذه الاقوال لا يحتاج الى ان ننسب الي عرابى اوالي الزعماء الآخرين صفات من الطراز الاول . إذ لم يكونوا من حيث الادارة او السياسة او العسكرية يبلغون مبلغ خصومهم وكان اكثرهم قليل الخبرة باساليب الحكم وبدقائق السياسة الدولية . وأظن أن أحسن صفات عرابي هو تشبثه بغرضه الأصلي وهو استعداد يصادف جميع العالم مع استعداده أيضاً للدفاع عن البلاد وحمايتها من جميع من يهاجمها من الاعداء . وقد أدى من هذه الوجهة عدة خدمات لابناء وطنه مدة هذه الاسابيع القليلة يجب تذكيرهم بها الآن .

فليس هناك شك فى أنه لو كان عرابي أقل عنادا أو ثباتا مما كان فى عدم مغادرته مصر خوفا من التهديدات أو رغبة فى الرشي ولو أنه لم يحارب لبقى الفلاحون عبيدا لاسيادهم الاتراك كما صاروا عبيداً أيضاً للأوربيين . اذ ماذا كان ينتج عن خضوع عرابي ؟ هل كانت تستمر الحكومة الذاتية ؟ هل كان الحكم الأجنبي يكون أقل شدة مما هو الآن ؟ كلا ثم كلا . انما كان يحدث شيء من نوع النظام الذى أعقب الحرب . أى استبداد الشرطة والجاسوسية والعصابات السرية . يضاف الى ذلك وقوف أوربا عن الاهتمام بالمسائل المصرية وجمود ضميرها الأدبى من هذه الناحية . ومن الممكن أنه كان يؤذن بوجود مجلس من الاعيان يجتمع « شكلا » بضعة أسابيع

ويكون بمثابة هيئة استشارية ولكنه يكون عندئذ خلوا من النفوذ وساقطاً من حيث الدعوة الوطنية . وكان حكم طبقة الأتراك والشراكسة يعود الى ما كان عليه من القسوة وكانت المراقبة المالية بعد أن تكون قد زادت سلطتها التي تستعملها لمصلحة الماليين الاوربيين تقف موقف الجمود فلا تبالي بتحرير الفلاحين من سادتهم الأتراك الذين هم أيضاً عبيد أوربا وكانت قصة الوطنية التي ذاعت عن الفلاحين تزول زوالا مخزيا لان الأمة التي لا تجسر على القتال دفاعا عن كيانها جديرة بأن تحتقر . وكانت الصحف الوطنية تنزل الى الدرك الذى بلغته صحف تونس . لا يكون للحرية الشخصية أو المدنية وجود كما أن حقوق الوطنيين تكون عندئذ لا قيمة لها ولم يعتد بها أحد . بل تكون مصر عندئذ كما كانت فى سنة ١٨٨٣ حيث لم يكن يستطيع أى إنسان أن يتكلم بصوت عال أو يأتمن جاره علي أن لا يؤذيه . فأقل ما فعل عرابي أنه نجى بلاده من هذه الحال . واذا كان قد أخفق باعتباره جنديا فانه لم يخفق باعتباره وطنياً وبلاده مدينة له بذلك . فقد حال دون الاحجام عن الحرب فى وقت كانت فيه الحرب لازمة لانها كانت الفرصة التي أسداها التاريخ للمصريين ليصمدوا ويدافعوا عن حريتهم .

أما وقد قلت هذا فلا فلأرجع إلى قصتى . فأقول أن تاريخ التلغراف الذى أرسل الي من القاهرة كما يأتي :

كانت الحال قد بلغت حدا خطيرا وذلك للموقف الذى اتخذه بعض الاعضاء ضعاف القلوب وبعض الزعماء من غير رجال الجيش . فان هذا الموقف كان يدعو الى الريبة . وكان ماليت قد أغري الخديو بالشجار مع وزرائه وكان الخديو قد أغرى أيضاً سلطان باشا لكي ينحاز اليه وقد توصل الى ذلك بالغيرة التى كانت بين سلطان وعرابى . وذلك أن سلطانا كان يؤمل أن يكون عضوا في وزارة محمود سامى فلما لم يحقق أمله شعر بالخيبة . زد على هذا أن الخديو أخبره بان الأسطولين الفرنسي والانجليزى كانا على وشك الوصول الي الاسكندرية فانضم اليه سلطان وأغري ثلاثين عضوا بالانحياز الى الخديو فبقى مع الوزارة ٤٥ عضوا . واستطاع ماليت أن يرسل الى وزارة الخارجية تلغرافا يقول فيه أن مجلس النواب ينصر

الخديو على عرابي . ولكن تلغرافاتي أعادت الى المترددين ثقتهم وجعلت سلطانا يذهب الى الخديو الذى كان يشتغل وقتئذ فى تأليف وزارة برياسة مصطفى باشا فهمى وزير الخارجية ولم يكن ذا خطة سياسية معينة . فتمكن سلطان من ايجاد صلح بين محمود سامي والخديو . فاعتبر كل أحد أن الأزمة الوزارية قد انفضت . ولكن ما كاد يتم هذا الترتيب حتى عاد فانتكث منه ما انعقد . فان ماليت سمع بتلغرافاتي فأرسل فى الحال في طلب سلطان ثم أخذت فى وعده ساعة ووعيده أخرى بالأسطول حتي أغراه بأن ينحاز الى المراقبة الاوروبية .

وكان سلطان الذى كثيراً ما ندم بعد ذلك على عدم تأديته واجبه نحو القضية الوطنية يقول أن ماليت قد وعده بشرفه فى ذلك الوقت العصيب بأن تراعى حقوق البرلمان . وقد قال لى أصدقاؤه أن سلطانا مات وهو يوبخ نفسه لأنه صدق ما قاله له ماليت . ومع ذلك فأنه لم ينشق بعد ذلك أحد عن القضية الوطنية خلاف سلطان . وكان جميع الذين تصلهم تلغرافاتي يصدقونني أكثر مما يصدقون ماليت وتقوى ساعد عرابي بذلك عند ما جاءت الازمة الكبرى بعد هذه الحوادث بعشرة أيام فان لعبة ماليت من حيث ارسال الأسطول فشلت فشلا تاماً . فقد كان غرض لورد جرانفيل من ارسال الأسطول أن يكون جعجعة بغير طحن لينال غرضه دون أن يلجأ إلى العنف وكان يؤمن بهذه الطريقة . وقد زاده ايماناً بها أنه جربها فى العام المنصرم فى مسألة الحدود اليونانية فى دلسينيو . وكان من الحكم التى تروى عنه قوله « التهديد يفعل فعل الضرب » وكان ماليت الذى يعرف عقلية لورد جرانفيل يعتمد على الحصول على انتصار لا تراق فيه دماء وكان طول الوقت يسيء تقدير العاطفة الوطنية . ولم يلجأ الى العنف والقوة الا عند ما عجز عن تحقيق غرضه بالوسائل السياسية فعمد الى رأى كولفن فاتبعه . وهذا هو تاريخ هذا التطور .

فى ١٧ مايو انضم سلطان باشا الي ماليت . وطلب من الوزارة أن تستقيل .

في ٢٥ مايو أصدر ماليت وسنكيفكس بلاغا أخيراً قالا فيه ان سلطانا قد اقترح عليهما اصداره وطلبا استقالة الوزارة ومغادرة عرابى لمصر .

فى ٢٧ مايو استقالت وزارة محمود سامي

فى ٢٨ مايو هاج أهالى القاهرة وطلبوا رد عرابى الى مركزه وزيراً وأعيد عرابي وصار له شيء شبيه بالقوة الدكتاتورية وكانت الأحوال في انجلترا في هذا الوقت على أسوأ ما تكون وقد زادها سوءاً تخلى سير وليام جريجورى عنى وأنا فى أشد الاحتياج اليه . فان جريجورى قد انحاز مثلى الى الوطنيين منذ ظهور الحركة وقد كتب عدة خطابات قوية فى التيمس يمتدح فيها عرابى ويدافع عنه . وكان نفوذه أكبر جداً من نفوذى فى المراكز الرسمية وكانت له مكانة عند تشنرى رئيس تحرير التيمس . فلما رأى أن ذهاب الأسطول قد يؤدى الى وقوع القتال أخذه الخوف والفزع وصار يكتب فى التيمس خطابات يعلن فيها ارتيابه ويشترط لأقواله السابقة شروطاً . وكان منذ أن ترك مصر فى ابريل يسيح ويتجول فى اوروبا وكنت أؤمل كل يوم أن يصل الى لندن لكي أدعم به دفاعى عن مصر لدى الحكومة . فبدلا من ذلك وجدت ما أحزننى لأنه وان لم يكن يقاومنا الا أنه لم يكن معنا . وكنا قد تواعدنا على أن نذهب معاً الى اجتماع لمقاومة القائلين بالتدخل . ولكنه رفض الذهاب .

واليك مذكراتي :

« ١٩ مايو — لقد خذلنا جريجورى فانه تعشى أمس مع تشنرى الذى ألقى فى قلبه الرعب وهو يرفض الآن أن يذهب الى الاجتماع . وقد ذهبت أنا وألقيت خطبة وأجبت على عدة أسئلة وأوضحت حقيقة مسألة التلغرافات . وقد طلب دلوين من المجتمعين أن يصرحوا بأنى سلكت مسلكا وطنياً »

« ٢٠ مايو — قيل لي ان لورد جرانفيل يسخط علي لأني قد شرحت مسألة التلغرافات »

وفى يوم الاحد ٢١ مايو — بعد ان دونت هاتين المذكرتين التقيت بجرانفيل وكانت مقابلتنا بعد يومين من القاء الخطبة عن التلغرافات مما ضايقنى بعض المضايقة فقد دعينا أنا وزوجتى الى قضاء يومين عند لورد بورتسموث وهو ابن عم زوجتي فى قصره فى بورستبورن وكان لورد جرانفيل وآخرون قد دعوا أيضاً . وأظن ان جرانفيل قد قصد مقابلتي « صدفة » كما هي العادة المألوفة بين السياسيين . ولكن

كانت قد حدثت حوادث خطيرة فلم أكن أحب مقابلته ولم أكن أعرف انه مدعو. فأزعجني حضوره بيننا . واتفق سوء الحظ اننا أحضرنا معنا جريدة الابزرفر التى روت الخجل الذى نال رجال الاسطول بعد ذهابهم الى الاسكندرية . وهاك المذكرات : « وصلنا مع لوويل سفير أميركا فلم نجد أحداً بالقصر لانهم كانوا قد ذهبوا جميعاً للكنيسة . وعند رجوعهم نظرت ففزعت عند رؤية لورد جرانفيل وزوجته قادمين مع سائر الضيوف . ولكن سارت الاحوال علي ماأشتهي لان الجميع كانوا في صفي وخصوصاً عند ما اطلعوا على الخبر القائل بان عرابي عند رؤيته الاسطول فى مياه الاسكندرية طلب في الحال تعبئة الجيش . وان أربعة آلاف من الرديف قد تطوعوا للقتال . والقلق ظاهر على اللورد جرانفيل ولذلك فان حجتى قوية ودفاعى عن الوطنيين لايرد . وقد تحادثت معه عن كل شأن فى العالم الا مصر . وهو رجل تطيب للانسان صحبته فانه محدث من الطراز القديم اذا أورد قصة أتقن ايرادها وقصصه وان لم تناسب المقام كل المناسبة هى على الدوام جيدة . أما مع سائر الضيوف فقد كنت أتحدث عن مصر وأرى العطف والسرور باديين على محيا كل من كنت أحدثهم . فقد كان هنرى كوبر جذاباً وكان لوويل وستوارت راندل يعطفان أشد العطف . وكان ثانيهما لا يبدى عطفه الا عند ما يغيب عنا لورد جرانفيل وكان اليوم جميلا فأخذنا نتمشى فى البستان والحدائق . وكان هنرى كوبر يقص علينا القصص المستملحة . وقد روى لنا قصة عن دزرائيلي بخصوص المسألة الشرقية . فقد سمع دزرائيلي يقول عن تانكرد وهو قصة قد ألفها عن المسألة الشرقية انه كثيراً مايراجع هذا الكتاب للفائدة لا للتسلية ... »

وكان لوويل كما قلت يؤمن أشد الايمان بالحزب الوطني وكان طول الصيف عند ما نجتمع يوافق علي جميع ما أقوله .

ومما هو جدير بالذكر وله علاقة بهذه الزيارة أن لورد جرانفيل أرسل بعد يومين أى في ٢٣ مايو تلغرافاً الى ماليت يفوض له فيه أن يعمل بما يناسب وكانت نتيجة ذلك ارسال البلاغ الأخير فى ٢٥ مايو

وكانت الأحوال كما كان يراها مورلى فى جريدة البال مال كما يلى :

« لا تزال الأحوال فى طور خطير . فعرابي مستمر فى اتخاذ خطة التحدى . وهو الآن يلعب بأحسن ما عنده من الورق . وقد أحضرت جنود الاحتياطي الي القاهرة في السلاسل والجنود ترسل بسرعة الي الساحل لمقاومة نزول البحارة الى البر . وقد أرسلت فرق المدفعية الى الاسكندرية والمدافع تحيط الآن بالبوارج . وربما كان كل هذا فى الأرجح تهويشاً يقصد به عرابي الحصول على شروط اصلح مما ينتظر »

وقال مورلى فى الجريدة أيضاً : « ان تجربة الاحتجاج الشديد بواسطة البوارج قد تمت وقد فشلت تماماً وهاك المذكرات :

« ٢٢ مايو — عدت الى لندن . وقابلت هاري براند الذى قال لى ان ذلك قد أخبره بأن المسألة لن تنتهي الا بالتدخل وقد أرسل هوتون يطلب منى أن يستشيرني عن مصر. وقد قابلته فى بهو مجلس اللوردة وتحادثنا ملياً . وقد نصحت له بأنه اذا كان سيدفع الحكومة الى ارسال جيوش الي مصر أن يرسل الى ابنته في الحال ليستدعيها الى مصر

٢٣ مايو ـ سئل اللورد جرانفيل فى مجلس اللوردة عن شؤون مصر فأجاب اجابات فكاهية

٢٦ مايو ـ تكلم غلادستون عن مصر ففاه بعبارات طويلة كلها خبط بلا معني وكان أهم ما فيها انه أعلن ثقته بان المسألة ستسوى تسوية سلمية . وقد أرسل القناصل بلاغا أخيراً طلبوا فيه أن تعاد الى الخديو سلطته وأن ينفى عرابى

« ٢٧ مايو ـ أنكر سلطان باشا أنه هو الذى اقترح كتابة البلاغ الأخير . رفض البلاغ الأخير . قابلت جريجورى . وكلانا يعتقد أن المصريين لا بد أن يحاربوا وأشعر أنه يجب عليّ أن أذهب الى مصر لكي أنضم اليهم . في تلغراف فى صحف المساء خبر استقالة وزارة عرابى .

« ٢٨ مايو ـ كنت في كرابيت يوم الأحد . جميع الأحوال تدل على أن الأمور تسير نحو الخراب فى مصر . وأظن أن سلطة الخديوستعاد اليه الآن تحت المراقبة . واذا غادر عراني البلاد وسرح الجيش أو أعيد اليه ضباطه الشراكسه فان

مصر ستودع الحرية الوداع الأخير وسيكون نصيبها نصيب تونس . لقد انتصرت يا كولفن .

« ٢٩ مايو – لم أستطع النوم فلما كانت الساعة الثالثة قمت أتمشي . لقد آلمني وعذبني اني لم أذهب الى مصر عند ما ألقى جرانفيل خطبته . فربما كنت أقدر علي تسوية . الآن عاد النور . فقد حدث انقلاب مدهش فى الجرائد فانها أعلنت أن جمهور القاهرة قد هاج وطلب اعادة وزارة عرابى وقد خضع الخديو لهذا الطلب . وهذه الاخبار لا تكاد تصدق لأنها لم تكن تنتظر . ولا يمكن الشك فى صحتها لأن غضب الجرائد يدل على صحتها.

« فقد عدنا الآن الى الحال السابق بل نحن فى حال تفضلها وليس ثم مايخشي منه سوى الباب العالى . وقد استقر رأيى على أن أسافر في الحال الى مصر . . . ذهبت الى لندن وزرت جريجورى وتناولت الغداء عند هوارد وكتبت خطابا الى هاملتون أخبره فيه عن نيتى ».

وهذا هو خطابى الذى كتبته الى هاملتون وأنا متأثر بالجو الغلادستونى :

عزيزى هاملتون .

انه وان يكن مستر غلادستون لم يسره ارسال تلغرافاتي الى مصر منذ أسبوعين فانى لا استصوب الاقدام علي عمل ما فى مسألة مصر دون أن اكون على علم به . وأنا مقتنع بأنه سوف يغفر لي ما فعلته ويستصوب ما أنوى فعله الآن . وأنا واثق تمام الثقة بانه سينحو فى مسألة مصر ذلك النحو الذى تمليه عليه خطة الاحرار وذلك عند ما يقف على الحقائق .

وهأنذا أخبرك بالضبط عما سأقوله لزعماء الوطنيين . فانى سأحضهم بادىء بدء علي أن يزيلوا من بينهم أسباب الخلاف الصغرى وهم الآن حيال خطر عظيم . وسأحضهم أيضاً كما سبق ان فعلت في الماضي على أن لا يشتبكوا مع الخديو فى شجار . واذا سنحت لى الفرصة بمقابلة الخديو فانى سأحثه أيضاً علي أن لا ينقاد الي القناصل الذين يغرونه بالأمة وسأحض عرابى علي البقاء فى وزارة الحربية حتي تكون قيادة الجيش في يده ولكنى سأنصح له بأن يترك جميع المناصب الاخرى لكي يملأها

رجال من غير الجيش وخاصة من أعضاء مجلس النواب . وسأحث المصريين على أن يحتفظوا ببقاء أحسن العلاقات الودية مع السلطان الا فيما يختص بدخول الجيش التركي للبلاد . كما عليهم أيضاً أن يحتفظوا بمثل هذه العلاقات مع الدول الاوربية إلا فيما يختص بحقوقهم الدستورية .

وأيضاً سأنصح لهم بان يسلموا ببعض ما تطلبه منهم المراقبة كما سبق أن نصحت لهم بمثل ذلك فى يناير الماضى . فتنال المراقبة بذلك ماتدعيه بشأن الميزانية. وسأطلب الى النواب تأجيل النظر فى حقوقهم الى العام الآتي . وسأشرح لهم الحالة بمقدار ما يتيسر لي فهمها فأخبرهم بان الحكومة الانجليزية وان تكن ترغب فى بقاء استقلالهم فهي مع ذلك مرتبطة بروابط قد عقد عقدها الوزراء السابقون . وسأخبرهم أيضاً عن مرامي الحكومة الفرنسية التى تجرى على المأثور من خطتها وهي خطة التوسع فى البحر المتوسط وأن الماليين يدفعونها الآن الى الجري على هذه اللحظة . وسأخبرهم عن مرامي الحكومه الالمانية وانها تنوى تحويل اتجاه السياسة الفرنسية من المسائل الداخلية الى المسائل الخارجية والي حل التحالف الانجليزي. ثم أخبرهم أخيراً عن مطامع السلطان واحلامه فى الخلافة وهذه مسألة يفهمونها علي الاقل بمقدار ما أفهمها أنا .

ولست أقصد الى الاشتراك معهم في المسائل الحربية اذا نشب القتال إلا عند الضرورة القصوى اذا كان الاتراك هم المعتدين عليهم لاني لا أعرف شيئاً عن الحرب ونفسي تشمئز منها وتستفظعها.

ولكني سأحض المصريين على أن يقاوموا الغزو من أي الجهات أتاهم . وفي حالة الهزيمة عليهم أن لا يدفعوا الضرائب التي لم تقرها القوانين . أما إذا لم يعتد عليهم أحد فاني أطلب اليهم أن يقوموا بسداد جميع ما عليهم من الديون الى آخر فلس . ولست فى حاجة لأن أخمد فيهم روح التعصب لانهم ليسوا متعصبين ولكني سأضم صوتي الي صوت عرابي فى تفسير قوانين الحرب بما يلائم قواعد المروءة . ثم أني أرغب أن أكون قريباً من الوطنيين حتى أستطيع حماية الاوربيين في بدء القتال .

وأظن أنى لست مخطئاً فى اخبارك بهذه الأشياء . فالخطة التى أرسمها في ذهني لكي يجرى عليها الوطنيون هى أن يتخذوا قاعدة يسيرون عليها تغاير ما يجرى عليه سائر الشرقيين مغايرة تامة . فانى أطلب اليهم أن يقولوا الصدق حتى لأعدائهم . وأن يكون في جنودهم من المروءة أكثر مما عند أندادهم من الجنود الاوروبيين . وأن يكونوا من حيث الذمة أشرف من دائنيهم . لأنهم بهذا فقط يمكنهم أن يحققوا الاصلاح الذي ينشده رجال الدين عندهم وانى المخلص لك

و ـ س بلنت

وقد ذكرت البال مال في هـذا التاريخ أقوالا جديرة بالاثبات هنا . لأنها تظهر كيف أن وزارة الخارجية بواسطة كولفن ويلك وأمثالها كانت تصور الحالة تصويراً كاذباً . فان رسائل ماليت قد جعلت هـذه الوزارة تعتقد أنه ليس وراء عرابى سند من الأمة وأن الخـديو محبوب عند جميع أفراد شعبه . وانه لم تكن الأحوال تستدعي سوى شيء من التظاهر بالمساعدة الخارجية من ناحية الاستانة حتى يتضح الولاء للخديو . واذا كانت هـذه المساعدة الخارجية لا تجعل الجيش يخضع فانها ستحدث حربا أهلية تتطلب التدخل .

وهاك ما تقول البال مال فى ٢٦ مايو :

« ان البلاغ الأخير الذى أرسلته فرنسا وانجلترا للوزارة المصرية سيقبل أو يرفض فى ظرف ٢٤ ساعة . وعلى ذلك ستنحل الأزمة هذا المساء . وسيرسل الى الاستانة فى طلب « الجندرمه » لكي تعيد الى الخديو سلطته تحت مراقبة انجلترا وفرنسا» .

وتقول أيضاً فى ٢٧ مايو . « ان الحالة فى مصر سيفصل فيها فى بضع ساعات وسنرى ما اذا كانت الازمة ستنفرج فى سلم وأمان أو تنتهي بحرب أهلية وتدخل أجنبي . لقد استقالت الوزارة وقبلت الى الآن شروط البلاغ الأخير الذى أرسلته فرنسا وانجلترا . لكن علينا أن نحسب لما سيفعله عرابى حسابا فقد يلقي القناع عنه ويصارح رئيسه بالعداء » .

أما هذه الحرب الاهلية التى تقول عنها البال مال ووضحتها فى اليوم التالى أى فى ٢٨ مايو اذ قالت :

« قضي الخديو ليلة أمس فى قصره بالاسماعيلية يحيط به اثني عشر ألف بدوى من المخلصين لسموه . ووجود أطفال الصحراء هؤلاء في عاصمة مصر سيكون حائلا دون ظهور عرابي وانتصاره . ولا شك أن وقوع قتال بين البدو والجيش المصرى سيكون من الأشياء المزعجة المخيفة . ولكن حدوث هذا القتال سيحل الازمة حلا سلمياً ... فان مركز عرابي لم يعد كما كان قبلا . فانه ليس ينفرد الآن وحده بقوة السيف . لأنه اذا كان الخديو لا يستطيع اخضاع عرابى بمعونة البدو والى ظهره البوارج الانجليزية والفرنسية ومعه مجلس الأعيان فان الحالة يجب أن تكون عندئذ أكثر مما قدرها الناس الى الآن » .

فما أعجب هذه الأقوال : أجل أليس من العجب أن يقال أن اثنى عشر الف بدوى قد أحاطوا بقصر الخديو بالاسماعيلية ؟ وان أعضاء مجلس النواب علي ولاء تام للخديو وان عرابي قد وقف منفرداً يهدد الجميع ويلقي الروع فى قلوبهم ؟ ومع ذلك فان هذه المفتريات التى كان يذيعها جون مورلي « الشريف » هي التى اغرت غلادستون بأن يعاقب الوطنين المصريين الذين لا يخضعون بأن يرسل اليهم الاتراك حتى تفعل بهم جنودهم ما كان يفعله الباشبوزق فى الفظائع البلغارية بل كان يود لو يرسل اليهم « رجل الخطيئة » عبد الحميد نفسه .

ولكن هذا الوهم الذى أذاعته هذه الصحف عن الخديو وانه محبوب عند شعبه لم يعش يومين اثنين . لأننا بعد ذلك نقرأ فى البال مال جازيت فى ٣٠ مايو ما يلى :

« لقد آن الأوان . لأن نقوم بعمل عاجل فى مصر . فان الخديو قد سجن فى سرايه . أما الاثني عشر الف بدوى فقد ذهبوا فى الهواء كأن لم يكونوا .. » الخ .

وكنت في هذه الأثناء أنتظر خطاباً من دار رئيس الوزراء رداً على خطابي السابق وكنت أيضاً أتهيأ للسفر الي مصر في أقرب وقت . وكان مستر غلادستون خارج لندن يقضي بضعة أيام مع لورد روزبرى في دوردان . وكان وجوده خارج

لندن فى ذلك الوقت نذير شؤم لى : فقد كنت أعرف آراء روزبري عن المسألة المصرية لأني كنت قد قابلته في دار رئيس الوزراء قبل ذلك وخرجنا معاً يصحبنا هاملتون وسرنا مدة فى الحديقة الصغيرة القريبة من باب منزله سان جيمس . فسألته ونحن في الطريق عن رأيه في مصر فأجابني جوابا مختصراً بقوله : « ليس لى آراء مطلقاً عن مصر . فان رأيي هو رأى المساهمين » .

فقد كان يهتم بالوجهة المالية فى الموضوع وذلك لان زوجتـه كانت من أسرة روتشيلد ولذلك اعتبرت زيارة غلادستون له في هـذا الوقت نذير شؤم . ولم يكن روزبرى يعد عضواً في الحـكومة ولـكنه كان ذا نفوذ عند غلادستون وقد عرفت من باتون ان روتشيلد كان يدفعه الى تحقيق غاية السياسة . واستمرت الحال على ذلك سنوات وقد كانت المهمة التى سافر من أجلها الى برلين فى سنة ١٨٨٥ يعزى نجاحها الى مساعى روتشـيلد . وبعد ذلك كان يوالى خدمة أسرة روتشيلد في وزارة الخارجيـة ولو اني قد سمعت انه باع أسهمه فى الدين المصرى قبل أن يعين في الحـكومة

واليك شيئاً من المذكرات :

« ٣٠ مايو — لم يصلنى الى الآن رد من هاملتون . ومستر غلادستون ليس فى دوردان الآن . ولـكن كل شيء يسير سيراً حسنا في مصر . فالمعترف به الآن أن عرابي قد امتلك ناصية الحال . وقد وصلتنى رقعة امس من هاوتون يطلب فيها ان يرانى ثانياً . وقد ذهبت اليـه فى منزله في مايفير وأخبرته بعزمى علي السفر الى مصر . وقد شعرت من أسلوبه أن لورد جرانفيل قد دسه لـكي يعجم عودي . وقد أخبرت ادارة المصرف الذى أحفظ به أموالى ان يعد لي ألف جنيه ذهباً فرنسويا لـكي اقفها على مصاريف الحرب . وانى أكره هذا السفر الآن ولـكننى سعيد لانى أؤدى حقاً . وسيسافر معي أيضاً صابونجى .

« ٣١ مايو — بكرت فى الصباح وذهبت الى لندن فوجدت رقعة أخرى من هاوتون يؤكد علي فيها بعدم السفر : وانا متأكد الآن ان ماقاله انما قد أوحي اليه به من مقام رسمي . وفي رقعـة هاوتون ما يستحق الذكر . فهو يقول : « عزيزى

بلنت . أؤكد عليك بأن لا تذهب الى مصر فى هذه الاوقات . فان ما ستقوله أو تفعله هناك سيساء تفسيره ويحمل على محمل لم تقصد اليه . وقد تحالف الحزب العسكرى والباب العالى وهذا التحالف لا يوافق آراءك . وأرجوك أن تخبرنى عما يصلك من الاخبار . هذا وابنتى لا تزال في الاسكندرية ولكني قلق بخصوص فتزجيرالد الذي يكرهه الجيش الآن لاقتصاده الحربى — واقبل صداقة المخلص لك — هاوتون . حاشية . اذا ذهبت فاحضر معك صديقك عرابي وتعال معه الينا هنا لنتناول العشاء معاً »

« وجاءنى أيضاً تلغراف من هاملتون يقول فيه : « وصلنا خطابكم . أرجوك أشد الرجاء ان لا تفعل شيئاً قبل أن تراني . وسأعود هذا المساء » وكان قد ذهب الى سالزبرى وفي الساعة الخامسة والنصف وجدت هاملتون في منزل رئيس الوزارة فرجانى كثيراً أن لا أذهب الى مصر لان مركزى هناك وعلاقتى بمستر غلادستون سيساء فهمها ويحدثان جلبة وضجة هنا . ثم وعدنى بان الجيوش لن ترسل الى مصر ولن يحدث تدخل ما . أما انا فقد سألته الا يعدونى مسئولا عن حوادث قد يمكن وقوعها وكان وجودى هناك يمنع وقوعها هذا . فقال انهم لن يلقوا على هذه المسئولية » .

« وصلتنى رقعة كبيرة من الليدى جرانفيل تدعونى فيها لحضور احتفال سيعقد بوزارة الخارجية فى الثالث من الشهر تذكاراً ليوم ميلاد الملكة . وسأحفظ هذه الرقعة باعتبارها جواباً على التهمة التى يتهمني بها هارى براند بأني أخون بلادى والان أنا فى غاية الرضا وسيذهب صابونجي بدلا مني وسيقوم بجميع ما أرغبه . وقد أرسل الى عرابى تلغرافاً عني جواباً على خطابه لي . وهذا نص التلغراف :

« وصل خطابكم . لا تخش البوارج لن يحدث التدخل . وزع منشورات فى جميع أنحاء البلاد بخصوص سلامة الأجانب »

وكان هذا التلغراف قد أرسل بناء علي اقتراح هاملتون

« أول يونيو » تسير الاحوال كما أشتهى . فعرابى مالك لناصية الحال فى مصر . . . ويظن باتون ان التيمس ستدفع لى ثمن التلغرافات اذا أرسلها اليها صابونجي

وهذا ما أحب . وقد اتفقت مع صابونجي على ان أدفع له مرتباً قدره ثلاثون جنيهاً شهريا غير مصاريفه . . . ذهبت الى مجلس العموم مع نيجل كنجسكوت وهو القيم على خيول ولي العهد . فدخلنا فى قاعة الرئيس . فأعلن غلادستون انه سيعقد مؤتمر في الاستانة . وان تعبأ الجيوش فى الهنـد ولن ترسل جيوش الى مصر . لأن هذا العمل يجعل حياة الاوربيين فى خطر . وقد سأل مكوان رئيس تحرير جريدة الليفانت هيرالد السابق عما اذا كنت سأسافر الى مصر لكي أدبر فتنة هناك . فأجاب ذلك بانه يعتقد انى قد تحولت عن هذه النية .

« ثم صرح غلادستون بهذه العبارة العجيبة وهى : (ان عرابي قد ألقى عنه القناع) وهدد الخديو بالخلع ووضع حليم مكانه على عرش مصر . وهذا القول سخيف ومن واجبي ان انقضـه وهو ايضاً برهان على مبلغ الجهل الذي تتورط فيه وزاراتنا الخارجية . ولا شك ان غلادستون سيغضب من ماليت لانه قد قاده الى هذه الورطة . وقد صاحبني فرانك لاسل فى الطريق وأخبرنى انه رأى تلغراف ماليت الخاص بتصريح غلادستون . وكل مافي التلغراف ان الخديو أخبر ماليت بذلك وانه لا يضمن صحته فبمثل هذه الاخبار تتعلق سياستنا »

وتلغراف ماليت كما ظهر بعد ذلك فى الكتب الزرق يصرح بأقل من هذا وهذا نصه : « ارسل الخديو اليوم في طلبنا انا ومسيو سينكفكز وأخبرنا أنه علم أن الحزب العسكري ينوى خلعه مساء اليوم واعلان حليم باشا خديوياً لمصر . . . وقال لنا الخديو انه لا يكاد يصدق هذا الخبر » ومع ذلك فان مستر غلادستون يتعلق بهذه الاشاعة الواهية مع انه سبق أن صرح لي بأنه لايلقى القول جزافاً فى البرلمان وقد أشار علي أن أنتظر ماسيقوله فى مجلس العموم وان للمصريين سيرون فى أقواله بشرى سعيدة لبلادهم . أقول انه مع كل هذا يفوه بهذه الكذبة بعد مدة طويلة لم يقل فيها كلمة عن مصر . وان هذه العبرة ندرك منها هـذه الطرق التي يتبعها الوزراء والاسباب التي يتعلق بها عقل غلادستون وكان الأثر الذى احدثته خطبة غلادستون في ذهني زوال الشك والأمل فى مسألة مصر من ناحية وزارتنا فلم تطاوعنى نفسي بعد ذلك على أن أثق فى مستر غلادستون أقل ثقة . حتى انه عندما

قام يدافع عن الحكومة الذاتية فى ارلندا وجعل من نفسه زعيما لهذه الحركة لم انخدع به بل اعتبرته رجلا برلمانيا لا أقل ولا أكثر . ولست اقول اني عند ما قابلته في ٢٢ مارس وخاطبني وكله مروءة وحماسة عن الوطنية المصرية لم يكن مخلصاً فيما قال . ولكنى أقول ان عطفه على الحق لم يكن العامل الأكبر فى سياسته التى كانت تمليها عليه بواعث النجاح وانتهاز الفرص . ومن ذلك الوقت زال عنى ما كنت أتوهمه فيه ولم يعد الى رأيي السابق فيه .

واليك المذكرات : « ٢ يونيه . كان بمنزلي لورد دلاوار وجريجورى وبراند وباتون . وكلهم متفائلون عن الحالة إلا براند ولا يزال هارى يقول أنى خائن وان عرابي قد أثرى إثراء عظيما وانه يجب طرده من مصر . ثم اتفق باتون مع صابونجي على رموز لكي يستعملها باتون في ارسال التلغرافات اليه . وقد اعطيته مائة جنيه لمصاريفه سيقدم لى عنها حساباً . وسترسل لى التلغرافات فاحولها أنا بواسطة باتون على التيمس . وقد اعطيت التعليمات اللازمة لصابونجى وأهمها أن يخبر عرابى بان يتصالح مع الخديو وأن لا يذهب الى الاستانة مهما كانت الاسباب . وقد رزمنا له أمتعته وودعناه وليس عندنا من قلق بشأنه سوى الخوف من أنه ربما يحجز فى الاسكندرية . ويقول لى باتون انى لو كنت الححت على الذهاب الى مصر لكانت الحكومة أصدرت الأوامر لسير سيمور بمنعي من النزول في الاسكندرية .. وأنا الآن مطمئن » .

ولو كنت سمعت خطبة غلادستون قبل أن أعد هاملتون بعدم السفر الى مصر لما رجعت عن نيتى في الذهاب . ولكني لا أظن أنه كان ينتظر من هذا السفر شيئا من الفائدة كما دلت علي ذلك الحوادث الثانية . ولو كان قد سمح لى بالنزول فى الاسكندرية لما كان لى من النفوذ لدى عرابى اكثر مما كان لصابونجي . لان صابونجي كان فذاً فى تأدية مثل هذه المهات ولا أعتقد أنى كنت أحصل على خير منه لو لم يقم هو بها . فقد كان رئيساً لتحرير صحيفة تدعي النحلة . وسواء اكانت هذه الصحيفة تحصل على اعانة من اسماعيل أم لم تحصل فانها كانت تدافع عن الابرياء سائرة في سبل التقدم واصلاح الاسلام . فكان لصابونجي مركز عظيم عند رجال

الازهر ثم هو كان مع الحركة الوطنية قلباً وقالباً وكان يقابل بالترحاب عند جميع الوطنيين باعتباره نائبي وكانت الثقة فيه عظيمة جداً وهو أيضاً كان جديراً بهذه الثقة. فان الخطابات التي ائتمنته على ارسالها الى رجال الحركة قد وصلت اليهم وقد أبلغني جميع ما قالوه له. وهذه الخطابات شاهد عدل بل الشاهد الوحيد على مجرى الاحوال فى تلك الاوقات. وفى نهاية هذا المجلد يرى القاريء خلاصة هذه الخطابات. وقد وصل صابونجي الى الاسكندرية في ٧ يونيـه وبقى فيها الى قبيل يوم ضربها بقنابل البوارج.

« وقد بقى صابونجى في خدمتي الى آخر سنة ١٨٨٣. ثم تركني وسافر الى الهند حيث كان له أقارب. وتقلبت به الاحوال حتى انتهت به الي ما ينتهي اليه جميع رجال الثورة الشرقيين. أى سراى يلدز. فقد عين هناك مترجماً ينقل للسلطان ما يريد معرفته من الجرائد الاوربية. وأظن أنه لا يزال هناك الى هذا الوقت أى سنة ١٩٠٧ »

الفصل الثالث عشر

« بعثة درويش »

لقد وصلت الآن الي نقطة فى تاريخ هـذه الدسائس لو لم يكن لدي مواد مطبوعة شبيهة بالرسمية اعتمد عليها لعد القراء ما أرويه لهم قصصاً خيالية لا أصل لها. فان الانسان لا يكاد يصدق أن حكومة حرة على رأسها هذا العظيم الطيب القلب غلادستون تقدم علي عمل يخالف الآداب سواء كان هذا لاسباب سياسية أم مالية أم لضرورة خاصة. وقد وضع جون موزلى ترجمة غلادستون فاغضي عن تاريخ هذه الاقتحامات التى اندفع فيها غلادستون فى مسألة مصر. فلم يذكر عن هذه المسألة فى ترجمته هذه سوى خمس عشرة صفحة مع أن الترجمة تحتوى على الف وخمسمائة صفحة كلها تقريظ. وله الحق فى ذلك لانه لو أراد الاسهاب والتفصيل لما وجد ما يبرر خطـة المترجم له. ومع كل ذلك يجب أن يكون لدى المؤرخين الذين

لا يضطرون الى مراعاة التكتم هذه التفاصيل . لان التاريخ الذى يهمل هذه الاشياء عن احتلال انجلترا لمصر لن يساوى قيمة الورق الذى يطبع عليه .

فانه عندما جاء أول يونيه تبين أن خطة الارهاب والتخويف التي اقتضت مجيء الاسطول للاسكندرية قد فشلت فشلا تاماً . نعم ان وزارة محمود سامى قد استقالت ولكن هذا النجاح الابتدائي قد أعقبه حبوط عظيم .

وكان البلاغ يطلب من عرابي بكل وضوح أن يخرج من مصر . فلم يقابل عرابى هذا البلاغ بالعصيان فقط بل ان الخديو نفسه قد اضطر بقوة الرأى العام أن يرده الى مركز وزارة الحربية ثانياً بعد أن زاد فى سلطته ووجاهة مقامه . فوجدت وزارة الخارجية نفسها بين أمرين . اما أن تكظم غيظها وترضي بهذه الهزيمة العلنية واما أن تبرر ارسالها هذا البلاغ وتقيم لكلماته وزنا فى وقت كانت قد بدأت فيه أوربا تنظر الى عرابى باعتباره بطلا من أبطال الوطنية .

وكانت فرنسا شريكة انجلترا فى هذه المسألة قد أخذت منذ وقت طويل تجهر برغبتها فى الخروج من هذا المأزق . فكادت حكومة مستر غلادستون تكون الوحيدة فى الاستمرار على هذه الخطة . وكانت هذه الخطة من أغرب ما يمكن حكومة متمدينة أن تتبعه وكان وجود مستر غلادستون علي رأس الحكومة الانجليزية مما يزيد هذه الخطة غرابة . فقد كانت تتلخص هذه الخطة فى الرغبة الى الباب العالى أن يتدخل ويخلص مصر من عرابى . ولم يكن هذا التدخل قائماً على استعمال الباب العالى سلطته باعتباره صاحب السيادة على مصر ولا كان أيضاً بارساله « الجندرمه » التى سبق أن ذكرنا الأشاعة التى راجت في وقت ما عنها . كلا . فانما كان هذا التدخل قائماً علي تلك الأساليب التركية القديمة المنطوية علي الخيانة والغدر . وهي أساليب كثيراً ما استعملها الباب العالى فى اخماد حركات الثائرين المسيحيين وغير المسيحيين من رعاياه عندما كان يشتم منهم بارقة النجاح فى ثوراتهم

وأول مايلمح الى هذه التدبيرات ما ذكرته البال مال غازيت فى احدى مقالاتها الموحي اليها بها وذلك فى ١٥ مايو حيث ذكر مورلى بعد ان أوضح رضي الحكومة عن الحالة « ان عرابي قبل مضي زمن طويل ستتخلص البلاد منه بطريقة سلمية

هادئة » وهذه التدابير لم يفش بالطبع سرها فى الكتب الزرق . ولكنها ظهرت بعد ذلك فى البال مال حيث صرحت باشياء صراحة ساذجة كأن كاتبها لم يشعر أقل شعور بعدم اللياقة فيما روى . وخلاصة هذه التدابير أن يرسل السلطان الي مصر مبعوثاً حربيا من طراز الجنود الذين مارسوا الخدمة مدة طويلة وفيهم من النشاط والاستعداد للدوس علي الضمير ما يمكن ان يخيف بها المصريين ويحولهم عن المقاومة . أما عن عرابى فان النية كانت فى ان يغريه بالنزول فى احدي السفن حتى اذا استقلها أبحرت به الي الاستانة . واذا لم ينجح هذا التدبير كان على هذا المبعوث ان يدعو عرابي الى اجتماع ثم يقتله بنفسه . وكان هـذا المقترح يوافق ما كان قد اقترحه كولفن منـذ تسعة أشهر على الخديوى وكا كولفن يفتخر بذلك فلم يكن اذن هذا التدبير بعيد الاحتمال . وعلى ذلك أرسل السلطان رجلا يدعى درويش باشا وكان من حيث الخلق والسوابق يوافق هذه المهمة التي انتدب لها فى القاهرة

وقد قال موزلى في مقال يطفح سروراً لارسال هذا المبعوث العثما مايلى:

« لقـد وصلت الازمة المصرية أقصى حدودها . ولـكن يظهر ان فى القاهرة الآن رجلا يستطيع ان يملك ناصية الاحوال . فان فى وجاهة درويش باشا الهادئة الرصينة شيئاً من التأثير . فهو بلا شك رجل الساعة . فانه مما يريح البال ويزيل القلق انه بعد عدة تقلبات ومراوغات مارسها السياسيون الذين يمثلون الآن هذه الدراسة المصرية نجد رجلا يجعل الآخرين يخضعون لارادته بقوة شخصيته الكبيرة . فليس هناك شيء أكبر أثراً من اثباته لسلطته ولا أبرع من اشارته اشارة عرضـية الى مذبحة المماليك . ان درويشاً رجل من حديد وحق عرابى ان يرتجف أمامه . فما هو ان ينطق بكلمة خرقاء حتى يرى رأســه تتدحرج أمامه على السجاد . أجل ان درويشاً قادر على ان يعالج عرابى بالطريقة الشرقية لا بالطريقة الغربية . ومن المرجح ان الثورة المصرية قد وجدت سيداً لها فى هذا التركي القوي العزيمة »

ثم هناك ما يقوله أيضاً فى ١٥ يونيو « ان تاريخ درويش الماضي حافل بالحوادث التى تزيد هذا الأثر الذى تركه فى القاهرة من حيث نشاطه وقوته . فهو أنشط القواد فى الجيش العثمانى وأقلهم احتفالا بالضمير والذمة . وهو مع انه فى السبعين من عمره

فان ارادته لا تزال كما كانت قديماً من حديد . وقد مارس الحروب أولا في الجبل الاسود وكان الجبليون يرون فيه أخطر القواد الذين يقاتلونهم . وفى آخر قتال حدث بين الباب العالي والجبل الاسود (فى سنة ١٨٥٦) سار درويش الى جراكوفو وهى أبعد بلاد الولاية الشمالية . ومنع بعض الاهالى من التقهقر الى الجنوب فلجأوا الى مغارة واختبأوا فيها . وهذه عادتهم اذا داهمهم غاز . لان هذا الكهف الذى كانوا يأوون اليه كان يمتنع على الغزاة اخراجهم منه لان الطريقة المألوفة فى مثل هذه الحالات وهى التدخين على باب الكهف لم تكن ناجعة فى هذه الحالة . وحاول الاتراك النفوذ الي المغارة ولكنهم ردوا عنها بسهولة . فعمد درويش الى المفاوضات واتفق علي التسليم بشرط أن يحترم حياة المحصورين وأموالهم وحريتهم . وكانت النتيجة ان الاتراك بقيادة درويش حافظوا على شروط هذا الاتفاق بأن قتلوا جميع المحصورين . وكيفية ذلك انهم سيقوا الي مطبق فى القلعة ثم وضعوا فى الاغلال كل اثنين منهم معاً ظهراً لظهر ثم قتلوا . وذلك بأن يقتل أحد الاثنين فيحمله الثانى الى حيث يدفنه . . . وبعض الناس لا يعرف الطريقة التي سلكها درويش فى الحرب الالبانية . فقد ذهب الى البانيا لكي ينفذ قانون التجنيد ففشل فشلا تاماً . وقد أشاع أساطير عن معارك لم يكن لها أصل لأنه لم يلق مقاومة تذكر . ولكنه نجح فى طريقة أخرى وذلك بأنه كان ينزل فى ضياع البيكويات الاغنياء وكان يعتصرهم حتى يخرج منهم آخر فلس . فاذا انتهي من أحدهم ذهب الى غيره . وكان يرسل الى الاستانة . بالنقود ولكنه لم يرسل اليها مجندين . فاذا كنا نبني تنبؤنا بصدد البعثة درويش فى مصر على أعماله السابقة في البانيا والجبل الاسود فاننا نرى انه سينجح فى مصر . فان المصريين أقل ميلا للقول من الجبليين والالبانيين ولكن عقدة المسألة المصرية يحتاج أيضا الي السيف لقطعها »

فهذه أقوال عجيبة وجدير بجون موزلى اذا تذكرها الآن ان يعروه الخزى والخجل لانه قد انخدع بما قاله له أصدقاؤه فى وزارة الخارجية حتى وقف من نفسه في ذلك الصيف محاميا يذود عن جرائمهم . فلا عجب بعد ذلك ان لا يذكر المسألة المصرية الا فى عدة صفحات فى تاريخه . وهذه أعمال عجيبة أيضا من رجل مثل

غلادستون اذ ماذا يقول فيها لو انه دعى الى ايضاحها امام ضميره الرسمي او غير الرسمي . حقاً ان طيف دزرائيلي ليضحك من هذه الاعمال والاقوال !

الا ان بعثة السلطان لم تكن كما توهمت وزارتنا الخارجية مهزلة من الأثم ساذجة فان امير المؤمنين لم تكن له رغبة فى أن يكون آلة مسخرة فى يد الغرب يفعل لهم أفاعيلهم ويحترم جرائمهم . فقد كان راضيا بالتدخل ولكن علي هدى . وكان يجهل الحالة فى مصر وكان يريد ان يستعد لجميع الطوارئ . وكان لعرابى أصدقاء فى البلاط يمثلونه باعتباره مدافعا عن الدين ولم يكن السلطان يثق مطلقا بتوفيق . وكان يرغب أن يضع حليما فى مكانه . فاتبع السلطان طريقته المعهودة فى تعيين وكيلين متعارضين فى الخطة . فانه الى جانب درويش عين شخصا آخر يدعى الشيخ احمد اسعد وكان من مشايخ طرق المدينة وكان يقيم بالاستانة ويستخدمه السلطان فى المهات السرية الخاصة بالمسائل العربية . وكان يستشيره فى جميع المسائل الخاصة بالعرب وبالدعوة الى الجامعة الاسلامية . وكان هذا الشيخ مواليا لعرابي

فلما وصلت البعثة الى الاسكندرية تبين الناس ان لها صفتين . احداهما في شخص درويش وتنطوى على تهديد عرابي . والاخرى فى شخص الشيخ احمد اسعد وتنطوي على المصالحة والمسالمة . وكان من المهات التي عهدت الى هذا الشيخ خاصة ان يبلغ السلطان عن الشعور العام وعن رأى علماء الازهر وكان يخاطب السلطان بأرقام قد اتفق الاثنان عليها قبلا وكان درويش لا يعرف هذه الارقام . وكان عرابي وأخصاؤه قد علموا بذلك قبل وصول البعثة فقابلوها بشيء من الترحاب . فكان منظر استقبالها غريبا . فمن جهة كان الشراكسة والأتراك يرحبون بدرويش بينما كان المصريون يرحبون بشيخ المدينة

وقد أرسل كل من الخديو وعرابي مندوبين لاستقبال البعثة فى الاسكندرية فكان ذو الفقار باشا ينوب عن الخديو وكان يعقوب سامي باشا ينوب عن عرابي وكان عرابي قد سبق فأرسل عبد الله نديم الخطيب لكي يهيء الجمهور حتى يحسن استقبال البعثة ويحتج أيضا على البلاغ الأخير الذى أرسله ماليت وزملاؤه الفرنسيون للحكومة

وعلى هذا استقبل الجمهور المبعوثين وكان كل منهما فى مركبته ومعه مندوب . فكان الجمهور يصيح « الله ينصر السلطان » ثم يلى ذلك : « اللائحة مرفوضة . مرفوضة » يريدون بذلك رفض البلاغ الاخير . وأيضا « ردوا الاساطيل » .

وكان لهذا الهتاف أثره عند درويش فانه احتاط لنفسه من ذلك الوقت . وقد ذهب الى البعثة وهى فى الاسكندرية والقاهرة مندوبون من الاعيان والتجار والموظفين وكان درويش يجيبهم على السواء إجابة عامة . وهي ان السلطان سيجري العدل وانه هو قد أتي لكي يرد للسلطان سلطته ويعيد النظام . ولم يصرح الا للأتراك بأن عرابى سيرسل الى الاستانة . اما للمصريين فانه كان يصرح أن الاساطيل ستغادر الميناء فى أقرب وقت بينما كان الشيخ اسعد يطمئن عرابى ويخبره بان السلطان لا ينوي نحوه الا النيات الحسنة .

أما الصفات التى اعتقدت وزارة الخارجية الانجليزية ومورلي وجودها فى درويش كما تدل على تلك القطعة التى نشرها مورلي واقتبسناها هنا فلم يكن لها تلك المسحة القاسية التي توقعها مورلى . فقد كان درويش رجلا مسنا وكانت غايته أن يملأ جيوبه لا أن يشتبك فى نزاع مع زعيم الفلاحين . وقد تمكن توفيق من أن يدفع له خمسين ألف جنيه وقدم له من هبات الحلى مايقدر ثمنه بخمسة وعشرين ألف جنيه ولكن درويشا مع ذلك لم يحاول ان يضرب عرابي ضربة قاضية . فقد حاول مرة ان يهدد الوطنيين ولكنه تعلم من هذه ألا يعود الى مثلها بعد ذلك . وفى يوم الجمعة التالى لقدومه زار بعض المساجد وعبر عن استيائه من العلماء لأنه عندما خرج من الأزهر تجرأوا على أن يقدموا له عريضة ثم لم يكتفوا بذلك بل زادوا جرأتهم وذهبوا اليه بعد الظهر وزاروه وعبروا عن أفكارهم بحرية لم يألفها .

وكان جميع هؤلاء العلماء باستثناء العباسى شيخ الاسلام السابق والبهرامي والابيارى والسادات فى صف عرابى . أما هؤلاء الاربعة فكانوا فى صف الخديو . وقد طلب العلماء منه أن يرفض البلاغ وبخاصة تلك الفقرة التى تشترط نفى عرابى . فأمرهم درويش عند ذلك أن يلزموا الصمت وقال انه انما أتى لكي يلقى الاوامر لا لكي يسمع النصيحة وطردهم وفي نفس الوقت أنعم بالوسام العثماني على شيخ الاسلام وسائر المنشقين .

ولكن الرأي العام تجلى فى الحال بصورة لاتترك مجالا للشك .فقد عاد هؤلاء المشايخ من لدنه وهم فى أشد الغيظ وأخبروا كل واحد باتجاه التيار حسب مارأوه من لهجة درويش وفى نفس هذا المساء أرسل الوطنيون رسلهم الى المديريات فى قطارات المساء لكي يدبروا الاحتجاجات . وعقدت عدة اجتماعات تلك الليلة فى القاهرة تسخط فيها المجتمعون على البعثة .وفى اليوم التالى عقد اجتماع كبير من الطلبة فى الازهر واحتجوا على الاهانة التى نالت مشايخهم وفى هـذا الاجتماع دعى عبد الله نديم الى الخطابة فخطبهم خطبة بليغة .

فلما بلغ درويشا هذه الحوادث اهتز لها ففقد ثقته ولم تمض ساعات حتى أرسل الى عرابي الذى كان الى ذلك الوقت يرفض مقابلته ودعا أيضا محمود سامي وخاطبهما بواسطة مترجم وبلهجة المصالحة .وكان الشيخ أسعد مع المترجم يساعده فى ايضاح مايريده

وعلى الرغم من أن درويشا لم يقـدم لهم القهوة أو السجاير — وهو مالاحظه عرابي ورفيقه — فان لهجته كانت تميل الى المصالحة . فقد جعلهما يجلسان الى جانبه وأخذ فى فحص الحالة فحصا عليه مسحة الصراحة .فقال : «اننا هنا جميعا اخوان لاننا أبناء السلطان .ويمكنكما أن تنظرا الي والى هذه اللحية البيضاء باعتبارى أبا لكما . ثم ان قصدنا جميعا واحد وهو مقاومة الاجانب ومبارحة الاسطول الذى يهدد سلامة القطر المصرى ويجلب العار بوجوده هنا على السلطان .فالواجب علينا أن ننظر الى هذا الغاية وأن نظهر غيرتنا لمولانا .كل هذا يمكن عمله بان (وهنا وجه الخطاب الى عرابي) تنزل عن سلطتك لي ولو فى الظاهر وتسافر أنت الى الاستانة لكي ترضى السلطان»

فأجاب عرابي بانه مستعد لان يستقيل .ولكن بما ان الحالة خطيرة والمسئولية عظيمة فهو لا يرضى بأن يؤدى نصف العمل .فاذا استقال فيجب أن تكون استقالته بالفعل والقول . ولـكنه لن يستقيل الا اذا تسلم خطابا تدون فيه اقالته . ثم انه لن يكون مسئولا عن الاشياء التى تعزى اليه والتى يعتبر نفسه بريئا منها .فقد سبق ان اتهم بارتكاب المظالم وانتهاب أموال الحكومة وما الى ذلك فهو لن يترك منصبه الا اذا حصل على اقالة مكتوبة تتضمن تبرئته بما عزي اليه . ثم انه يؤجل سفره للاستانة الى وقت تكون قد هدأت فيه الحالة .وعندئذ يذهب باعتباره أحد أفراد

المسلمين ليقدم فروض الطاعة للخليفة .ولم يكن درويش مستعداً لقبول هذا الجواب فلم يستمر ئه وتغيرت هيئته . ولكنه قال : « فلنعتبر ان المسألة قد سويت » ثم أشار الى الهيـاج الذى رآه فى الاسكندرية وقال : « ارسـل تلغرافاً لعمر باشا لطفى (المحافظ).وقائد الحامية فى الاسكندرية . وقل لهما انك قد نزلت عن وظيفتك لى وانك تعمل الآن باعتبارك وكيلي . ويوم الاحـد سيجتمع القناصل بالخديو وسنعطيك الاقالة التى تطلبها » .

فرفض عرابى أن يفعل ذلك قائلا انه لن يستقيل حتى يتسلم خطاب الاقالة . ثم افترقا دون أن يحدث بينهما تفاهم .

هذا هو بيان ما جرى فى هذه الحادثة كما رواها نينه وغيره ممن وقفوا عليها . وكانت هذه المقابلة فى ظهر يوم ١٠ يونيو . وهي ذات أهمية من عدة وجوه وخاصة لما كان لها من العلاقة بما حـدث فى اليوم التالى من الشغب الذى كان في الأصل مشاجرة بسيطة بين مالطي ومكارى مصرى . فقدابتدأت هذه المشاجرة في الساعة الأولي بعـد الظهر وانتهت فى الساعة الخامسة وكانت نتيجتها ان مائتي شخص قتلوا وكان بينهم ضابط من البارجـة « سيوبرب » وقتل أيضاً مائتا اوروبى زيادة علي ذلك . وحدث لكوكسون القنصل البريطانى عدة اصابات خطرة وأصيب أيضاً قنصل ايطاليا وقنصل اليونان بعض اصابات . ولم يهدأ الاضطراب حتى وصلت الجنود النظامية فأخمدته . وكان هذا الاضطراب أول ما حـدث من نوعه بعد عام من الثورة فى مصر . وقد أحدث خبر هـذا الاضطراب الذى ارسل الى اوروبا بالتلغراف ضجة كبيرة وخاصة فى انجلترا .

وبما أن تبعة هـذا الاضطراب الذى عاد شؤمه على القضية المصرية قد القيت علي كاهل رجل هو أكبر من اوذى منه — اعني به عرابي — وبما أن هذا الاضطراب قد أخـذت وزارة الخارجية الانجليزية تستغله لمصلحتها وتعللت به لضرب الاسكندرية لأنها اعتبرت مصر « فى حالة من الفوضي لا يمكن انكارها » فانه يحسن أن نقف هنا قليلا لكي نقرر مكان هذه التبعة وما لحقها من الجرائم .

فاني عند ما سمعت عن هذا الاضطراب فى لندن شعرت لأول وهلة أنه نتيجة

المؤامرة التي دبرها رجال وزارة الخارجية بواسطة درويش لايقاع عرابي في الشراك الذي نصب له والغدر به . ولكني لم أحصل على المستندات الخاصة بهذا الاضطراب الا بعد الحرب . فلم يكن في مقدوري الدفاع عن الوطنيين وتبرئتهم من ارتكاب هذه الجناية الا بعد حصولي على هذه المستندات .

فاننا نعرف الآن جميعاً أن هذا الاضطراب وان كان في الأصل قد حدث دون تدبير سابق فان حزب الخديو كان ينوى احداث مثل هذا الشغب لكي يثبت عدم أهلية عرابي لحفظ النظام في البلاد .

أما الحالة في الاسكندرية فكانت كما يلي :

كانت الاسكندرية أكثر من كل بلدة أخرى في مصر تحتوى على عدد كبير من الأجانب فكان فيها الى جانب المسلمين عدد كبير من اليونان والايطاليين والمالطيين . وجميعهم يشتغلون بالتجارة وأكثرهم يشتغل بالربا . ولم يكن بين الطبقتين الأجانب والوطنيين ود كبير . ثم أن مجيء الأسطول الى الاسكندرية كان الغرض الظاهر منه حماية الأجانب باعثاً على إيغار الصدور . فقد كان محافظ المدينة يحتاج الى صفات الثبات والولاء والرفق لكي يحافظ على النظام كما كان رجال الأسطول أيضاً محتاجين الى الرزانة ولكن كان المحافظ لسوء الحظ وهو عمر باشا لطفي يكره الوطنيين . فانه كان شركسياً وأحد أفراد الحاشية وكان موالياً لاسماعيل وقد خدم توفيقا وقت المؤامرة الشركسية بأن فاوض البدو في الجهات الغربية بأن يكونوا في صف الخديو . فهو لهذا السبب كان يشجع العناصر الوطنية على الشغب . أما اليونان فقد كانوا مسلحين من قبل بواسطة رئيس طائفتهم امبراوز سينادينو وهو رجل مثر وكان أيضاً وكيلا ليت روتشيلد في مصر . وقد تسلح المالطيون أيضاً واغضى عنهم القنصل الانجليزى كوكسون . فكانت جميع الأحوال مهيأة لاحداث شغب منذ الأسبوع الأخير من شهر مايو توقعاً للحرب الأهلية التي يذكر القارئ أن البال مال غازيت قد تنبأت عن حدوثها واعتبرتها حلا لابأس به اذا رفضت الوزارة الوطنية أن تستقيل .

وليس هناك من شك في أن الساسة الانجليز في القاهرة كانوا ينتظرون هذا

الاضطراب ليعتبروه حجة على الفوضى بل انه كان في نظرهم لا ينافى خططهم . ومن السهل أيضاً أن تثبت أن عمر لطفي كان يرغب فى ازالة عرابى من مسرح السياسة .

وقد ورد فى التلغرافات انه عند ما كان البلاغ الأخير يوشك أن يرسل للحكومة المصرية كانت قد هيأت قائمة بأسماء أعضاء الوزارة الشركسية الخديوية المرشحين بعد استقالة وزارة محمود سامى . وقد رشح لوزارة الحربيـة بدل عرابى محافظ الاسكندرية هذا عمر لطفي . ولم يكن هذا الخبر غير مؤسس على حقيقة لأننا نعرف انه بعـد ذلك بأيام دعا الخديو عمر لطفي الى قصر الاسماعيلية وعرض عليه هذا المنصب .

جاء في البال مال غازيت فى ٢٨ مايو ما يأتى : « القاهرة فى ٢٧ منه — اجتمع فى سراى الاسماعيلية ظهر اليوم عمر باشا لطفي وشريف باشا وسلطان رئيس مجلس الأعيان وراغب باشا ... وستكون رئاسة مجلس الوزراء لشريف باشا أو لعمر باشا لطفي ... وسيكون عمر باشا لطفى وزير الحربية » .

وقد سلم البلاغ الأخير في أول يونيو واستقالات الوزارة فى ٢ يونيو وانتظر الوزراء يوماً لأن الخديو أخبرهم بأنه سيرسل تلغرافاً يستشير فيه الاستانة ولكن عند ما جاءه الوزراء فى الصباح أخبرهم بأنه قد قرر أن يقبل البلاغ ولو أنه لم يتسلم من الاستانة جوابا على تلغرافه . فلما كان اليوم الثالث من يونيو ورأى الخديو انه مضطر الي اعادة عرابى بضغط الرأى العام عليه ومظاهرات الجمهور ومناصرة القنصل الالمانى والقنصل النمسوى لعرابى لأنهما كانا يريان فيه أكفأ رجل لحفظ النظام فى مصر كانت خيبة آمال عمر لطفي كبيرة . وكان يرى فى خيبة آماله هذه ما يدفعه الي تفنيد رأى هذين القنصلين باقامة برهان عملى . وهناك زيادة على ذلك شاهد آخر يقوى ظننا في اتهام عمر لطفي . وذلك أن الخديو الذى كانت خيبته لا تقل عن خيبة عمر لطفي أرسل فى ٥ يونيو تلغرافاً قال فيه :

« لقد تعهد عرابي بحفظ النظام وأعلن ذلك فى الجرائد وقبل على نفسه المسئولية أمام القناصل . فاذا نجح فى هذا التعهد فان الدول يثقن به وعندئذ تضيع اعتباراتنا . ثم أن أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية . فعقول الناس مهيجة فالمشاجرات ليست

بعيدة الحدوث بين الاوروبيين وغيرهم . فالآن : اختر لنفسك اذا كنت تنوي خدمة عرابي فتساعده على تعهده أو تنوى خدمتنا » .

وكان فى هذا التلميح ما يجعل عمر لطفي يتخذ اجراءاته . وكان باعتباره محافظا له حق الأمر على المستحفظين وهم يؤلفون بوليس الاسكندرية الشبيه بالحربي وبواسطة هؤلاء أمر أن تجمع النبابيت فى أثمان الأقسام لكى توزع في الوقت المعين ثم أعد الاعدادات اللازمة الاخرى لاحداث الاضطراب المقصود .

وهناك أدلة قوية في الكتب الزرق تثبت اشتراك البوليس في الاضطراب . ولو أن هناك اختلاطاً في التمييز بين رجال البوليس هؤلاء وبين الجنود وذلك لأن لفظة عسكرى تدل في مصر على الاثنين . فان الجنود النظامية كانت بقيادة المحافظ الحربي ولم تشترك في الاضطراب الا عند ما دعيت في الساعة الأخيرة بناء على طلب عمر لطفي عند ما رأى ان الاضطراب قد عدا طوره وانه لا يستطيع امتلاك ناصيته . ومما يلاحظ أن رئيس المستحفظين سيد قنديل وكان من المتصرين لعرابى وهو رجل ضعيف القلب رفض أن يشترك فى أعمال ذلك اليوم واعتذر الى المحافظ بالمرض .

فالاضطراب كان قد دبر عند وصول درويش ورفيقه الى الاسكندرية في ٨ يونيو . والأرجح أن القصد كان أحداثه فى نفس الوقت الذى يقبض فيه على عرابي وذلك لاقامة البرهان أمام مبعوث السلطان بان عرابى غير قادر على حفظ النظام . ولست مقتنعاً بأن درويشاً كان يجهل ما سيحصل وأظن أن الارجح أنه كان يعرف كل شيء قبل حديثه مع عرابى . وأنه لو كان قد نجح فى جعل عرابى يستقيل لكان ألغى تدبير هذا الاضطراب . وهناك ما يدل على ان الاضطراب وقع قبل الوقت الذى كانت النية معقودة على احداثه فيه . لان من المحقق ان حادثة المشاجرة بين المكارى والمالطي كانت حادثة عرضية ولكن المرجح انه لم تصدر أوامر الى البوليس بوقف المشاجرة فاستمرت وفقا للبرنامج الموضوع للاضطراب . ولكن ما لا شك فيه ان الخديوي فى القاهرة وعمر لطفى فى الاسكندرية كانا يحتكران المواصلات التلغرافية بين هاتين المدينتين . وان عمر لطفى كان يؤجل وهو يتعلل بعدة أعذار

طلب الجنود الذين لم يكن لهم الحق فى العمل الا باذنه باعتباره المحافظ الملكي للمدينة. ثم ان هذا الاضطراب كان مدعاة الى اعلان الفرح بين رجال بلاط الخديو بينما هو كان مدعاة الى الاسف عند عرابي والوطنيين الذين أخذوا أيضاً فى التصغير من شأنه ثم ان اللاجنة التي عينها الخديو لتحقيق هذه الحادثة كانت مؤلفة من أعضاء من حزبه ولكيلا يجعل لتحقيقها قيمة جعل عمر لطفي رئيساً لها . وصلة الخديو بعمر لطفي تزداد وضوحا عند ما نعرف انه لما اشتدت شبهة القناصل في عمر لطفي منحه الخديو اجازة . فلما ضربت الاسكندرية ظهر ثانيا ونال ما كان يطمع فيه وهو وزارة الحربية . وقد بقي هذا المنصب فى يده الي شهر مايو سنة١٨٨٣ عند ما أتهمه لورد راندولف تشرشل فى البرلمان هو والخديو . فاستقال عندئذ . وفى ملحق الكتاب براهين أخرى تؤيد اشترا كهما في احداث هذا الاضطراب .

ولكن هناك نقطة فى هذه المسألة المشئومة لاتزال عندى موضع الاشكال.وهذه النقطة هى تقدير المسئولية التي تحملها وكلاؤنا فى القاهرة والاسكندرية من هذه الحوادث . فان في رسائل ماليت ما يفهم منه الانسان انه كان ينتظر حلا عنيفاً للمصاعب السياسية التى كانت تواجهه وذلك فى وقت الذي كان يدبر فيه هذا الاضطراب.ثم ليس من يشك في ان جميع ماكان يحتج به على الوطنيين ان ادارتهم ستؤدى الى الفوضى . ثم من المحقق أيضاً ان كوكسون القنصل الانجليزى باسكندرية قد تغاضي عن تسليح المالطيين . ومع ذلك فهناك فرق شاسع بين هذه الاعمال وبين التواطؤ على احداث هذا الاضطراب . وكل ما أعرفه عن اخلاق ماليت وسلوكه في المستقبل يدعوني الى تبرئته من هذا الاضطراب.

وكان ماليت يثق فى توفيق ويعتبره جديراً بالثقة وكان يصدق جميع ما كان يقصه عليه وقد علمت ان وقوفه على حقيقة توفيق بعد الحرب قد آلمه أشد الالم . وهذا القول يصدق أيضاً عن كولفن . فانه كان يجهل تدبيرات الاضطراب كما كان يجهل أعمال الخديو منذ عام ولو انه من الصعب ان يعتقد الانسان انهما لم يعرفا الحقيقة بعد ذلك بوقت قريب . فانهما كانا متحالفين مع عصبة الشعب

والاضطراب وعند ما حدث الاضطراب سارعا الى تصديق الخديو لانهما رأيا فى تصديقه ما صادف هواهما فلم يبحثا عن الحقيقة .

وكان كلاهما ينظر الى الاضطراب باعتباره اداة تشتغل لتنفيذ مآربهما وكانا يحتجان به على الوطنيين وان ادارتهم ستؤدى الى الخراب والتدخل الاجنبي . فهذه الصلة التى لهما بالاضطراب هى كل ما القيه عليهما من المسئولية .

ويمكن تلخيص ما حدث بعد ذلك فى أسطر قليلة قبلما أعود بالقارىء الى مذكراتي . فأقول : أن نتيجة الاضطراب لم تكن كما توقعها الخديو وأصحابه بالضبط فقد خرج الاضطراب عن الطور الذي عين له قبلا فى برنامجهم حتى دعت الحالة الى ادخال الجنود النظامية لاعادة السكينة . وبدلا من أن تسقط كرامة عرابي به حدث من الرعب بين الاجانب وهم طائفة ترتعد لاقل حادث ما جعلهم ينظرون الى عرابى باعتباره المنجي الوحيد لهم . حتى أن القناصل باستثناء القنصل الانجليزى وافقوه على رأيه . ثم ان النظام الذى أحدثه وجود الجنود النظامية فى الاسكندرية زاد مقام عرابى فى أعينهم . وهنا أقول انه لو كان عرابي رجل أعمال بدلا من أن يكون رجل أحلام وأماني أي لو كان فيه صفات الحاكم القوى التى كانت لسوء الحظ تعوزه كثيراً لاستطاع فى ذلك الوقت أن يكسب المعركة السياسية من خصومه الذين كانوا لا يراعون الذمة او الشرف فيما كانوا يفعلون . فلو كان عرابى حاكما قويا لكان من الضروري أن يتهم المرتكبين لجرائم الاضطراب ومحاكمتهم وكان عندئذ يثبت للجميع انه ليس من يد أقوى من يده وان العقاب سريع النزول بمن يحدث أي خلل بالامن العام . فكان بمكنه أن يناشد أوربا والسلطان بكلمات عليها طابع الحاكم القوى بحيث لم يكن من الممكن عدم المبالاة بها . وفى هذه الحالة لم يكن لحكومتنا أن تشذ عن الجميع وتناوئه .

ولكن عرابي لسوء حظ الحرية لم يكن رجلا قويا وانما كان ذا أماني انسانية وكان فى خلقه شيء من العناد والتشبث لآرائه والرغبة في تحقيقها . فكان يجهل أوروبا جهلا تاماً وكان يجهل أيضاً الطرق والاساليب السياسية الغربية . فضاعت منه الفرصة السانحة وكان ماليت وكولفن قد غرسا الخوف فى قلوب القناصل

وفي الوقت الذى كانا يكلفانه فيه بالمحافظة على النظام فى الاسكندرية كانا يهيئان ضربها بالاسطول . ومن ذلك الوقت زال الامل فى تسوية المسألة بالوسائل السلمية .

فحدث بين عرابي وبين سير بوشامب سيمور قائد الاسطول مشاجرة تشبه ما يقع بين الذئب والحمل . وكان الدافع اليها ان خادم سير سيمور وهو رجل يدعى مستر اكت . قتل فى الاضطراب . فاراد سير سيمور ان ينتقم من الاسكندريين لقتل خادمه بضرب الاسكندرية ولو كان فى الميدان رجل أقوى من عرابى لاستطاع الخروج من هذه الأزمة . ولكن عرابى لم يكن يزيد عن أن يكون فلاحا متفوقا له عدة أفكار قليلة جليلة فكان نصيبه الفشل . ولكنه مع ذلك لا يستحق اللوم الذى القاه عليه بنو وطنه . فانه لم يستطع أحد منهم أن يفعل شيئاً يفضله به (١)

ولنرجع الي المذكرات :

« ٣ يونيو — كنت بوزارة الخارجية ضيفاً عند ليدي جرانفيل وكان جميع السياسيين هناك . وكان جميع المتصلين بالوزارة يرحبون ويبشون . وقد تكلمت عن الحالة مع ولسلى وروانسون والسفير الامريكي « لويل » وغيرهم . وتحادثت أيضاً مع سير الكسندر والليدى ماليت على الرغم من الشجار الناشب بيني وبين ابنهما . فكانا يحدثانني ببشاشة ولطف . ويظهر على الجميع انهم قد تنفسوا الصعداء لتأجيل الازمة المصرية . ولكن ولسلى يقول لي ان السلطان رفض أن يشترك فى مؤتمر . وكان ابن عم الخديو وهو رجل سمين يدعى عثمان باشا احد الضيوف .

---

(١) المرجح ان الذى منع عرابى من محاكمة عمر لطفى هو أولا اضطراره الى وقوفه الى صفه باعتباره مسلماً مثله فى شجار مع غير مسلمين . والثاني انه كان هناك شبهة بتواطؤ الخديو معه . وكان لا يرغب أن يدخل فى شجار مع توفيق فى ذلك الوقت لانه مضي وقت طويل على تصالحه معه . وكان قد اقسم منذ أيام قليلة أن يحافظ على حياته كما يحافظ على نفسه . ففضل أن يلقي اللوم على كوكسون وسينادينو وهما بلا شك يستحقان اللوم . وهذا ظاهر من خطابات صابونجي ووثائق أخرى ملحقة بهذا الكتاب .

وكان حاضراً أيضاً ولي العهد وأمراء آخرون ومما أدهشني تلك البشاشة التى وجدتها فى هنرى ستانلي . فقد قال انه يعجب شديد الاعجاب بعرابى لأنه يبصر الايمان وانه يستحق الترقية وان يبقى هو وتوفيق فى القاهرة . وبما انه يمثل في أقواله هذه آراء الاستانة فقد اطمأننت من هذه الناحية . فاذا لم تطرأ حوادث جديدة فالفوز لنا » .

وهذه الاشارة الاخيرة عن لورد ستانلى ذات أهمية . فانه كان صديقاً حميما لى قديما . ولكننا كنا نختلف في الرأى عن المسألة المصرية وسبب الاختلاف هو هذا :—

فقد كان منذ مدة طويلة ملحقا بسفارتنا فى الاستانة وهناك تشبع بحب الاتراك وكان حب الاتراك فى ذلك الوقت نزعة فاشية بين الانجليز . وفى سنة ١٨٦٠ كان قد سافر الى الهند الشرقية فآمن بالاسلام . وقد عرفته بطريقة غريبة فى ذلك الوقت فقد كنت مسافراً الى انجلترا عن طريق اثينا والاستانة ونزلت فى نهر الدانوب فى احدى البواخر . فلما وصلنا الى إحدى موانى رومانيا نزل الى الباخرة عائلة أمير من امراء الفلاخ ويصحبها انجليزي شاذ الهيئة ساذج اللباس ظننته أولا مربى الصبيان أو سكرتير رب العائلة . ودامت سياحتنا عدة ايام فصادفت هذا السائح وقد لذ لى وقتئذ معرفته الواسعة بالشرق ولكنه لم يخبرني عن اسمه . وعند ماوصلنا الى فينا اقترح على أن يذهب معي الى دار السفارة .

وهناك تحققت من شخصيته وسافرنا من هناك الى مونيخ حيث كان أخوه ليولف ستانلى يتعلم الالمانية . ومن ذلك الوقت عرفته حق المعرفة وانتهز هذه الفرصة الآن لكي أقول انه على الرغم من اطواره الغريبة كان رجلا شريفا بعيدا عن الانانية .

وكان باعتباره مسلما شديد الحماسة والعطف على آرائى ولكنه لم يكن يوافقني على تفضيل العرب على الترك الذين كان يرى فيهم قادة الاسلام . وكان وهو فى لندن على اتصال دائم بالسفارة العثمانية . ولذلك فرأيه عن علاقة

السلطان بعرابي فى الوقت الذي كانت تروج فيه اشاعة ارسال بعثة درويش له قيمة تاريخية عظيمة .

واليك ما كتبته فى مذكراتى بهذا الصدد :

« ٤ يونيو — فى كرابت يوم الاحد . وهو أول يوم لم نفكر فيه بمصر بعد اسابيع عديدة كثر فيها اشتغالى بهذا الموضوع . وأظن ان المسألة قد سويت الآن وقد لعبت التنس بعد الظهر وانا فرح . وكان الجو بديعاً وزارنا ونتورث ونوبل وفرانك لاسل وهنرى وكوبر ومولوني وآخرون .

« ٥ يونيو — عدت الى لندن . . . تقول ليدى جرجورى انهم الآن غير مرتاحين الى سلوك كولفن ويقولون انه غير موافق لمركزه فى مصر . وقائل هذا هو اللورد نورتبروك . وكان لورد جرانفيل قد ارسل الى سير وليام جرجورى يستشيره فى موضوع مصر ».

ومما يلاحظ ان ليدى جرجورى قد بقيت على عهدها الاول موالية للقضية الوطنية بخلاف زوجها . وقد خدم كلاهما عرابي بعد ذلك وبخاصة فى وقت المحاكمة وكانت صحف لندن قد بدأن يهتممن بمصر ويكتبن عنها بشيء من المعرفة وأرسل اكثرهن مكاتبين خصوصيين فى القاهرة والاسكندرية . وكان من بين هؤلاء مكاتب الديلى تلغراف الذى انتصر لعرابى بشدة .

« ٦ يونيو — جريدة الديلى نيوز تهيء نفسها منذ الآن لأن تدعو الى العودة الى الحالة التي كانت قبل ارسال البلاغ الاخير . والارجح ان اكثر الجرائد سيسير وراءها فى القول بهذه الخطة بل جميع الجرائد ماعدا التيمس والبال مال اللتين قد وعظا عن الحق فأبتا أن تتعظا . وليس للرأى العام الانجليزي قيمة الآن . . . . تحادثت مع لاسل محادثة طويلة وأرجو أن أكون قد جعلته فى صف مصر . وفى المساء كنت راكبا مع برترام كراى وقد تطوع ان براهن على انه لن تمضي خمسة عشر يوما حتى يكون قد انتهي عرابى وانهزم.

« ملاحظة : برترام هو شقيق فيليب كرى احد اصحاب المصارف . وهو أيضاً من انصار غلادستون المتصلين به . ورأيه هو بلا شك رأى رئيس الوزارة »

« ٧ يونيو — زارتني ليدى جريجورى وأفضت الى بجعبة أخبار . فأخبرتني بأن لورد جرانفيل قد قال لزوجها ان آمالهم معلقة على بعثة درويش . ومما قاله لورد جرانفيل ان درويشاً عديم الذمة والشرف وسيتخلص من عرابي بطريقة ما وأظن ان هذه الطريقة هي الرشوة (١) ويظهر ان لورد جرانفيل قد ألمع الى غير ذلك فقد تكون طريقة التخلص بواسطة فنجان قهوة ولكني لست أخشي هذا . لان غرض السلطان لا يرمي الى قتل عرابي بل الى حفظه بالاستانة رهينة . ومع ذلك فأنا فى أشد الاشتياق لان يصل صابونجي . ولا يزال يساورني الشك بأنهم لمعرفتهم بصلته بي سيمنعون نزوله الي الاسكندرية . وقد كتب الى رقعة وهو فى القطار زاد فيها بعض علامات سيستعملها في الاصطلاحات التلغرافيـة التي اتفقنا عليها وهي علامات مضحكة . ثم قابلت جريجوري وقد أعاد على جميع ما قالته لي زوجته . وهو يظن انه يجب استدعاء كولفن وماليت .

وقد كتب بمبروك الى برلين يقول له أن حنق وزارة الخارجية على لاحد له . ولكن هذا لا يهمني . . . التقيت باوستين لى فى النادي فسألنى عن آخر ما وصل من الانباء من مصر ولى هذا هو سكرتير ذلك . فقلت له انه بلغنى انكم سترسلون الى مصر عدلا من الملح لتعلقوه في ذنب عرابى . فأجابنى على الفور قائلا : كلا . فان الملح سيستعمل في تمليحه . وقد ركبت فى المساء مع سيريل فلور وقد تزوج من أسرة روتشيلد فنصحت له بأن يبيع اسهمه المصرية . وتناولت العشاء مع برترام فكان أرق من قبل . فهو يؤمن بغلادستون ويعتقد ان أرلندا ستحصل على الاستقلال الذاتى . ومما قاله ان غلادستون يتقدم الزمن الحاضر بجيل فبعد مضي عشرين سنة سنؤمن بقيمة الاهتمام بمسائلنا .

---

(١) اجد فى المذكرات عن سنة ١٨٨٨ مايلى :

« القاهرة فى ٢٢ ديسمبر — تناولت الغداء مع زبير باشا وقال انه حضر محادثة بينه وبين درويش باشا فعرض عليه درويش ان يذهب الى الاستانة بمرتب شهرى قدره ٢٥٠ جنيه . فأجابه عرابى بانه لو رضي هو نفسه لوقف بينه وبين السفينة عشرة آلاف شخص لمنعه من السفر »

« وقد كتب فريدريك هاريسون يحتج على تدخلنا في مصر . وكان مقاله شديد اللهجة وقد نشر في البال مال تحت عنوان : المال . أيها السادة . المال » وقد توالت الخطابات على أثر هذا المقال . وقد أسفت كثيراً على عدم معرفتى بالكاتب قبل الآن فهو أعقل وأشجع من يكتب فى المسائل الخارجية فى حزب الاحرار وأقوي المؤلفين الذين ينشرون الرسائل السياسية ولو كنت قد لقيته منذ شهر أو شهرين لما حصلت الحرب لانه وان لم يكن فى البرلمان قد كان ذا نفوذ عظيم بين الاحرار . ومما يزيد سوء الحظ انه لم يكن فى الحزب أحد ذو مكانة ذهنية فى هذا الصيف باستثناء فريدريك هاريسون . لان الجميع كانوا متقيدين بالوظائف . . .

« ذهبت الى ليدى سولزبرى مدعواً فى سهرة . وتحادثت مع ملتون وكان الاستياء باديا عليه بشأن أعمالى فى المسألة المصرية وذكر تلغرافاتى فلم يتكلم عنها بادب . وتحادثت أيضاً مع مستر اثنير فقال لى انه يود ان يذهب بعشرة آلاف جندى لكي يشنق عرابي . وجرى بينى وبين عثمان باشا وكامل باشا ابني عم الخديو حديث فى غير السياسة . . . وقد وصلت بعثة السلطان الى مصر »

« ٨ يونيو — وصل تلغراف من صابونجي يقول فيه انه قد صرح له بالنزول فى الاسكندرية وبذلك زال عنى همي . وهو يقول ان البعثة التركية قد سافرت الى القاهرة . . . ويرفض هارى براند أن يزورنا في كرابيت حتى يرى ما تنتهي اليه الحال في القاهرة . وأخشى ضياع امواله فى مصر فان جل ما يملكه فيها

« ٩ يونيه — كتب فريد ريك هاريسون خطابا آخر فى البال مال . وقد كتبت اليه اقترح عليه أن أطلعه على مكاتباتى مع مستر غلادستون . وزرت جريجورى . وقد قوبلت البعثة بالترحيب والتهليل في القاهرة وظني أن الناس هناك يتفاءلون بايجاد تسوية . . وكتب الى صابونجي يخبرني بالتلغراف أن عرابى قد أعلن بانه سيقاوم الجنود التركية اذا انزلت فى سواحل مصر . وهو لا يزال فى الاسكندرية وهذا يقلقنى لانه ينبغي أن يكون فى القاهرة الان . وتناولت العشاء فى منزل ونتورث لكي اقابل سير بارتل فرير وهو رجل حلو اللسان ذكي الفؤاد »

« ١٠ يونيو — تناولت الغذاء مع مستر جرين وزوجته وهما يعطفان على مصر

كثيراً » — والاحظ هنا ان مستر جرين هذا هو المؤرخ المعروف . وكانت صحته قد تضعضعت في ذلك الوقت وانى أذكر الآن عطفه عليّ وعلى القضية التى كنت ادافع عنها . وكانت وفاته خسارة كبرى لجميع الذين يدركون قيمة السياسة النيرة .

« لقد ابتدأ القلق يعتريني هذه الايام عن الحالة بعد مضى اسبوعين وأنا مرتاح البال . وتقول صحف المساء أن درويشاً قد نجح وذلك بأن «اشترى» جزءاً كبيراً من الجيش وانه يطالب عرابي بان يذعن له . فاذا لم يصمد له عرابى فان كل شيء يذهب سدي . وبعد تفكير طويل قر رأيي على أن ارسل هذا التلغراف الي صابونجي . الساعة ٧ مساء « اقبضوا علي البعثة . لا تخشوا أحداً الا الله » وبعض هذا التلغراف أرسل بالارقام . ولكني أخشى أن لا يكون قد ذهب صابونجي الى القاهرة . والا فلماذا لا يراسلني . هل حدث له ما يمنعه ؟ ... تناولنا العشاء عند ليولف ستانلى وكان معنا آخرون منهم برابط . وكان كلامه عن مصر كله مروءة وقد افضيت اليه ببعض الحديث وأظنه كان مناسباً . وصرحت له بجملة ما عندى والمسألة الآن تتوقف على مقدار الجراءة التى عند أعضاء الحزب الوطني . وأظن أن أوامر درويش كان القصد منها سبر غور الحزب من هذه الناحية فاذا وجد منهم مراساً شديداً عضدهم. وهو لواستطاع لسحقهم على أيدي الشراكسة ولكننى أرجو أن يسحقوه أو على الاقل يخيفوه . فان السلطان لا يجرؤ على اخماد الحركة بالعنف .

« ١١ يونيه — سافرت فى قطار الصباح الى كرابت وقد كنت قلقاً لئلا أجد فى الجرائد خبرا عن حدوث انقلاب . ولكن الابزرفر تقول انه لم يجد شيء . وتذكر الجرائد بعض الحكايات عن كبرياء درويش وتغطرسه نحو العلماء . ولكن لا أهمية لهذا . . . في الساعة الثانية جاء الينا الامير عثمان والامير كامل وابن عمهما — وفقيهما عارف بك ودليلهما الانجليزي وهو رجل يدعى لمبريير لكي يروا خيولنا وبينما كنا نريهم الخيول جاءني تلغراف من صابونجي هذا نصه :

« القاهرة في ١٠ يونيو الساعة ١٢ — تحادثت مع عرابي . البرلمان والازهر

والجيش يعضدونه الا سلطاناً باشا وشيخ الاسلام . والامة قد قر رأيها على خلع الخديو . والباب العالى لا يميل الى مقترحات أوربا . وعرابى يلح على انه لن يستقر السلام حتى يخرج كولفن وماليت وهو سيقاوم هجوم الاتراك ولن يسافر الى الاستانة . عين الشيخ عليش شيخاً للازهر . قرر الباب العالى خلع الخديو . ماليت يلح على البعثة بان تقبل مقترحات أوربا . خطب عبدالله نديم فى عشرة آلاف نفس

فذم هذه المقترحات وطعن فى الخديو » ولو كان ابنا عم الخديو قد قرءا هذا التلغراف لما استطاعا أن يتغديا . وقد تناقشنا في الموضوع وسنرسل لهم تلغرافاً ننصح لهم فيه باعلان الجمهورية في حالة خلع الخديو . وقد زال عنى الهم الآن لوجود صابونجي بينهم »

واني فيما قلته هنا عن الأميرين عثمان وكامل لم أقل كل الحق . فانهما لم يكونا يحبان توفيقاً وكان أبوهما مصطفي قد طرد من مصر وأخذ اسماعيل أكثر أملاكه وكانا هما على شيء كبير من الوطنية . وقد برهنا على ذلك مدة الحرب اذ كانا ينتصران لعرابى . وقد قدمت أختهما الأميرة نازلى مساعدة كبرى لعرابى وقت محاكمته . وكان عارف بك رجلا ذا كفاءة وكان كرديا فيه شيء من الدم العربي وكان حاصلا على تربية راقية وله مزايا عليا وقد صار بعد ذلك سكرتير مختار باشا فى القاهرة وكان يحرر مجلة أدبية ولكنه انغمس بعد ذلك في الدسائس واختفى . أما الشخص الرابع فكان تركيا متفرنجاً من رجال بلاط السلطان ولم أر اسمه فى المذكرات . وقد أخذنا فى الحديث عن السياسة الشرقية وقت الغداء وان لم نتكلم عن مصر . وكان كلامنا عن الجامعة الاسلامية والأمل فى طرد انجلترا وفرنسا من شمالي أفريقا .

ويحسن بي هنا أن أثبت خطاباً أرسلته الى صابونجى فى التاسع من الشهر وخطاباً آخر أرسله هو إلى يوم ١١ يونيه .

« شارع جيمس رقم ١٠

« ٩ يونيو سنة ١٨٨٢

« ان تلغرافكم الذى تخبروني فيه عن وصولكم للقطر المصرى قد أراح بالى جداً . وأرجو أن تكون قد سافرت الي القاهرة والتقيت بأصحابنا . وأظن أن أفضل ما يعملونه الآن أن يحسنوا علاقاتهم مع رجال البعثة . ولكن يجب عليهم الا يأمنوا جانبهم لانى أعرف أن أعداء مصر يعلقون آمالا عظاماً علي درويش باعتباره رجلا عديم الذمة والشرف في كيفية معاملته للثائرين . فانهم سيحاولون بكل قوتهم أن ينقلوا عرابي الى الاستانة . ولكن يجب الا يفعل ذلك . وسيغرونه ويحاولون ارشاءه ويقولون له ان الغاية من سفره صلاح البلاد . فلا يغترن بهذه الأقوال . ومن الممكن أنهم يحاولون القبض عليه أو دس السم له وان كنت لا أرجح هذا . ولكنهم اذا رأوا انه ثابت لا يتزعزع أمامهم وان الأمة من ورائه تنصره فانهم لن يتشاجروا معه ونصيحتى الوحيدة له هي أن يخضع لتوفيق باعتباره والى السلطان على شريطة أن يبقى وزيراً للحربية . فاذا قبل ذلك لم يعد لدى الحكومة الفرنسية أو الانجليزية مجال للمشاجرة معه واذا اجتمع المؤتمر الاوربي فانه لن يشير بالتدخل . وأنا متأكد بأن حكومتنا لن تلح على تنفيذ شروط البلاغ الأخير بخصوص نفي عرابى من البلاد . ولكن الحكومتين الانجليزية والفرنسية مضطرتان الي تعضيد توفيق باعتباره حاكم مصر الاسمي . فعلى عرابى أن يحتفظ بمركزه بحيث يصير الحاكم الحقيقي للبلاد . والناس هنا ساخطون عليّ ولكنى لا أعبأ بذلك ما دامت مصر تنال حريتها » .

وهناك خطابا أرسله لى صابونجي من القاهرة يوم حدوث الاضطراب فى الاسكندرية ولكن قبل أن يعلم به :

القاهرة في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

عند وصولى ذهبت الى عرابى ومحمود سامي وغيرهما من أعضاء الحزب . وقد قابلونى بحماسة وسألوني عنكم . وقال لي محمد عبده انه قد بلغه أن بعضهم قد نصح لك بأن لا تجيء الى مصر . وقد غمرني عرابى بالسرور والطرب عند ما رآني . وقبل وصولى بأسبوع خطب فى اجتماع وقرأ خطاباً مني أنصح له فيه بالاتحاد . . .

أما الحالة فهي كما يلى :

لقد أخبرتكم فى تلغرافاتي عن جميع ما حـدث من قبيل استكشاف المؤامرة الشركسية الي هذا اليوم . وقد أصدر الشيخ عليش شيخ الجامع الأزهر فتوى قال فيها بما ان الخديو قد حاول أن يبيع البلاد للأجانب وأطاع اشارات قناصل اوربا فانه لم يعد يصلح لان يكون والياً على المسلمين المصريين ويجب لذلك خلعه . وقد قبل جميع علماء الازهر هذه الفتوى وزكوها لأنها صادرة من رجل هو زعيمهم الروحانى . وقد ذهب الشيخ محمد خضير ومعه ٢٢ من الاعيان الى درويش باشا وقدموا له عريضة وقع عليها عشرة آلاف نفس طلبوا بها منـه أن يرفض طلبات الدول ويخلع الخديو . وفي مصر ١٤ مديرية ومع ذلك فليس بها سوى ثلاثة مديرين يكرهون عرابى . أما الفلاحون أقباطاً ومسلمين فجميعهم فى صف عرابي ينصرونه ويؤيدونه ... أما الامبابي شيخ الاسلام فانه قد وقف على الحياد وذلك لخوفه من الخديو ومن الحزب الوطني ولايتدخل فى السياسة متعللا بسوء صحته . وقدأخبرني عرابي بأنه لن يخضع لاوربا أو لتركيا وقال لى : « فليرسلوا لنا جيوشاً اوروبية أو هندية أو تركية فانى ما دمت وبى رمق فاني سأدافع عن بلادى وعند ما نموت جميعاً يمكنهم أن يمتلكوا البلاد وهي خراب وحسبنا فخر الدفاع عن الوطن . وليس هذا فقط فان حرباً دينية ستنشب فى أثر الحرب السياسـية وتبعة ذلك تقع على الذين يثيرون الحرب الآ ن .

فهو مصمم على المقاومة ولن يذهب الى الاستانة وا كثرية الامة تؤيده . فليس بين الأعضاء من يعارضه سوي تسعة فقط . وقد تركه سلطان باشا وانضم الي الخديو لأنه خاف من ماليت ومن الاسطول . وجميع المصريين ينظرون اليه والى الخديو كأنهما خائنان . وجاء من المديريات مندوبون يطلبون خلع الخديو ولا يمكن أن يقال أن عرابي قد أجبرهم على ذلك . وقد وقع تسعون الفا العرائض يطلبون من درويش رفض طلبات أوربا وابقاء عرابي فى منصبه .

وجميع علماء الازهر الا الامبابى (امبابة ؟) والعباسى والسـادات يؤيدون عرابى وكذلك عبد الرحمن البحراوى . وقد عقد اجتماع من عشرة آلاف نفس في الاسكندرية فخطبهم نديم وطلب رفض طلبات اوربا وعدم كفاية الخديو للحكم

وكان يستشهد بآيات قرآنية وأحاديث نبوية وشواهد تاريخيـة لكي يبرهن على صحة ما يقول ويقنع السامعين بصحة حججه . وخطب عرابى أيضاً خطبة حماسية فندد بمظالم الأسرة المالكة من عهد محمد علي الى توفيق . وقد تكلمت مع عبده ونديم وآخرين عن وجوب كتابة خطابات نرسل لكم يوقعها الاعيان والعلماء والفلاحون والتجار لكي يثبتوا بذلك حقيقة وجود الحركة الوطنيـة . وقد اتفقوا معى على أن يعدوا هذه الوثائق فى ظرف عشرة أيام وسأرسلها لكم.

وقد ظهر لى أننا كنا مخطئين فى تقـدير محمود باشا سامي . فانى تحادثت معه كثيراً وسألت عنه حتى من أعدائه فعلمت أنه كان من مديرى الحركة الوطنية من عهد اسماعيل . وقد كابد كثيراً من المشاق لاجل آرائه ولكنه لم يتزعزع وكثيرون من الحزب الوطني مثل نديم وعبده بل عرابى نفسه يعترفون بأنهم مدينون له بمساعدته لهم وولائه . وقد أغراه اسماعيل على أن يترك الحزب وعرض عليه المال ولكنه رفض . وهو يصرف جميع ايراده الآن علي الحزب ومنزله أشـبه شيء بقافلة قد حطت رحالها فى الطريق . أما حياته الشخصية فحياة فيلسوف فلا يصرف على نفسه شيئاً وهو قانع راض بما يأتي له به الحظ . وهو ليس رجلا جاهلا فانه متضلع فى الآداب العربيـة ويعرفها أكثر من عرابي وكون الاتراك يكرهونه دليل على وطنيته . وسيكتب خطاباً الى اللورد جرانفيل لكي يثبت له فيه حقيقة وجود الشعور الوطني فى مصر ويصرح فيه بصداقة الوطنيين لانجلترا اذ هى نصيرة الحرية وكثيراً ما مدت يدها لاسعاف الامم الناهضة الطامحة الى الحرية . وقد اقترحت عليهم بأن يكتب عرابى والشيخ الامبابي خطابات أخرى مماثلة لمستر غلادستون واللورد جرانفيل وتطوعت بترجمتها وارسالها .

وعند ما أشيع بأن السلطان ينوى ارسال درويش لكي يحض عرابي علي قبول بلاغ الدول الأخير سافر نديم الى الاسكندرية وخطب مدة ساعتين فى عشرة آلاف نفس منددأ بالبلاغ وحث كل فرد من الموجودين على أن يحتج عليه . وقد قوبل مقترح نديم بالابتهاج . وعنـد ما ذهب الناس الى منازلهم أخذوا فى تعليم زوجاتهم وأطفالهم هذا الاحتجاج وعند ما نزل درويش فى الاسكندرية كان الاولاد

يصيحون « اللايحه . اللايحه » فترد النساء قائلات : « مرفوضة . مرفوضة » وقد اعتبر درويش بهذه العبرة وتحول عن موقفه السابق .

أما الشيخ الامبابى فانه بعد أن تظاهر بالعداء للحزب الوطنى لأنه أعلن رضاه عن خلع الخديو عاد الآن وعقد الصلح بينه وبين الاعضاء . ولكن سلطان باشا قد خيب رجاء الجميع . فانه ينصر الخديو علي غير هدي وذلك لخوفه من التدخل الاجنبي ولأنه قد أكد له ماليت بأن عرابى لن يبقى فى منصبه . وهكذا وقع سلطان فى الشرك الذى نصب قبلا لشريف . وهو الآن غير محبوب ولم يفده انقلابه هذا أدنى فائدة .

وحدثت أمس حادثة غريبة فانه عند ما طلب درويش العلماء واستشارهم فى أحسن الوسائل للحصول علي صلح شريف وجد الجميع كانوا في صف الحزب الوطني ولم يجد فى صف الخديو سوى اثنين .

فاغتاظ درويش من ذلك وفض الاجتماع وقلد بالاوسمة الاثنين المنشقين وهما البحراوى والابيارى . فلما علمت النتيجة وذكرتها الجرائد حدث في الازهر حركة شبيهة بالثورة . وقد حضرت عدة اجتماعات للعلماء ولغيرهم وكان الغضب في جميعها شديداً . وكان المتكلمون يكثرون من ذكر القرآن والحديث ويثبتون منها ان توفيقاً لا يصلح أن يكون واليًا علي أمة اسلامية . ولم يكتفوا بعقد الاجتماعات الخاصة بل قرروا أمامي أن يعقدوا اجتماعا عاماً فى الازهر احتجاجاً علي الاهانة التى لحقت بهم . وعقد الاجتماع بالفعل فى الازهر حيث تقام الصلاة وطلب من نديم أن يخطب الحاضرين وكانوا يزيدون على أربعة آلاف نفس . وليس عندى من الوقت ما يسمح لى بوصف التأثير الذى أحدثته خطبة نديم . فقد سمعت أنت نديماً وتعرف كيف يشتاق الناس الى سماعه والى أى حد يتأثرون من فصاحته

صابونجي

الفصل الرابع عشر

توسلاتي الى غلادستون

هكذا كان شعور الوطنيين فى دوائرهم الخاصة فى القاهرة عند ماحدث اضطراب الاسكندرية . وفى اليوم التالي قمت الى لندن وأنا مبتهج ومعى تلغراف صابونجى الذى أرسله فى العاشر من الشهر . وكنت أنوى أن أريه لهاملتون . وأنا في هـذه الحال واذا بالجرائد تطالعنى باخبار الاضطراب .

وهاك المذكرات .

« ١٢ يونيو — رعب جديد . اضطراب فى الاسكندرية جرح فيه كوكسون وقتل ضابط البارجة سيوبرب وخمسون أوستون أوربى.وقدأحدث هذا الاضطراب هياجاً عظيما . ولست على يقين فيما اذا كان هذا الاضطراب فى مصلحة عرابي أملا . فانه سيثبت ان عرابى يملك ناصية الاحوال. هـذا اذا لم يكن دسيسة من درويش يقصد منها ان يسافر عرابى الى الاسكندرية فيقبض عليه هناك. ذهبت الي هاملتون وأخبرته بان تحت يدى مستندات تدل على ان عرابي يحكم البلاد وان توفيقاً معرض لخطر الخلع بالنسبة لشعور الجمهور نحوه وانهم اذا لم يكونوا ينوون ان يلجأوا الى العنف فى حل المسألة فعليهـم أن يسارعوا الى الاتفاق معه . فوعدنى بان يقول لغلادستون جميع ما أخبرته به . وظاهر لي الآن انهـم مستعدون لان يقبلوا أى تسوية مادام توفيق يبقى جالساً على العرش .

« ذهبت الى مجلس العموم . وذهب هاري براند الي أبيـه رئيس المجلس وقال له ان « الثائر بلنت » يطلب تذكرة لكي يدخل احدى شرف المجلس . فقال أبوه « انه لا يستحق » ولكنه أعطاه واحدة . وكان ذلك يجيب عن أسئلة متنوعة عن مصر وهو يوهم ان درويشاً والخديو لايجدان الآن ما يعارضهما . وقد أزعجني هذا الكلام . وهناك اشاعة بان عرابى ودرويشاً قد سافرا الى الاسكندرية (وقد ظهر ان الاشاعة كاذبة) وأخشى الخيانة الآن . وقد أرسل لي صابونجي التلغراف التالي : « زرت عرابي وسلمته رسالتـك . والهدوء شامل . خطب عبد الله نديم فى

أربعة آلاف فى الازهر تحمل على البعثة التركية والخديو. وقد سحبت البعثة مقترحات أوربا واني أؤمل قرب السلام الآن . وشراكسة يدسون الدسائس . وعاد شيخ الاسلام الى الحزب الوطني اما سلطان باشا فلم يفعل ذلك الي الآن . الاضطراب لا أهمية له » .

وقد وضعت رداً على هـذا التلغراف وأنا بالقطار وأرسلته من ثرى بردجس وهـذا نصه « درويش يريد سوءاً . فهو يريد ان يرشي عرابى أو يغتاله . اعقـدوا اجتماعا كبيراً برئاسة نديم وعبده وعلماء الازهر يكون فيه نحو مائة ألف نفس واطلبوا خروج درويش من القطر فاذا لم يخضع لهذا فاقبضوا عليه بالبوليس وابعدوه . واتفقوا مع الخديو ولا تعاكسوا القناصل . وليكن نديم المبتدئ بهذا العمل اما عرابي والجيش فيجب ان يبقيا على الحياد .

« قبـل أن أبرح لندن التقيت بفردريك هاريسون وتحادثت معه عن مصر وكان قد كتب مقالا آخر فى البال مال عن هذا الموضوع . فعرضت عليه خطاباتى لمستر غلادستون وستكون معونته لنا ذات قيمة . وعند ما كنا على وشك مبارحة شارع فليت اندفعت الينا ليدى ماليت وأخذت تسألني عن حقيقة مافعلت فى مصر . فأخبرتها بكل شيء تقريباً . فقالت ان شرفى عرضة للخطر اذا لم أبرئ نفسي من تهمة الدس لوطني والكيد له . ثم توسلت الى ان أهدئ الحالة هناك وقد وعدتهـا باني سأرسل لعرابي خطابا أطلب فيه منه ان لايمس شعرة من رأس ابنها. وسأكتب وفي البريد المسافر غداً اما اليوم فان التلغراف يغني . ولا اعتقد ان هناك أقل خطر على ابنها مسكينة ليدى ماليت اني لاشفق عليها . فقد أخـبرتني ان الناس يقولون بانى أنا ومستر غلادستون نتآمر على احباط سياسة أبنها فى مصر . فأكدت لها بان غلادستون غـير مسئول عن تلغرافاتي وأنا وحدى متحمل هذه المسئوليـة . وقد جعلتني أعدها بان أزورها ولـكنها تنظر الى كما تنظر الى القتلة » .

« ١٣ يونيو — كنت قلقاً طول الليل انتظر خبر القبض على عرابي أو اغتياله ولـكن الصحف تقول ان كل شيء الآن في قبضة يده . والخديو يشكل الآن

وزارة سيكون فيها عرابى وزير حربية كما هو الآن . وليس عليهم إلا أن يبعدوا درويشاً وكل شيء عندئذ يسير سيراً حسناً » .

هذا ما كانت تقوله جرائد لندن ولم يكن يخالفها فى ذلك سوى البال مال التي كانت تعتقد أن المسألة لم تسو بعد . وهى تكتب بايعاز من وزارة الخارجية التى لايرضي موظفوها بأى تسوية تترك مقاليد الامور فى يد الحزب الوطنى . وهذا ما يقوله موزلى : « من الصعب أن يخطئ الانسان هذا الخطأ الذي وقع فيه محرر التيمس هذا الصباح عند ما يعتقد ان التسوية المؤقتة التى تمت بين الخديو ودرويش وعرابي والقناصل هى تسوية نهائية للمسألة المصرية . فان الهياج فى مصر قد بلغ من الشدة درجة صار فيها لا يؤمن على حياة الاوروبيين وليس فى البلاد قوة تستطيع ضبط الرعاع سوى الجيش . وهذا الجيش فى يد عرابى : فالحاجة تضطرنا الآن الى استخدام عرابى لمنع المذابح . ولكن كون درويش يلقى مسئولية النظام على رأس عرابي فهذا لا يمنعه من التصميم على اقرار الحال الراهنة كما ان اتفاق فرنسا وانجلترا مع عرابي انما كان اساسه الحاحها عليه بان يستعمل جنوده في اخماد الاضطراب فى الاسكندرية » .

ولكنا خدعنا نحن في انجلترا كما خدع عرابى فى القاهرة بهذا الاتفاق الذي عقده ماليت وكولفن وكانت نيتهما الغدر والخيانة . فتعهد عرابي لتوفيق وأقسم له بشرفه أن يحميه كما يحمي نفسه مهما حدث . واستعمل الخديو هذا التعهد لمصلحته مع انه كان لا يضمر في قلبه سوى الغدر بعرابى .

وهاك ما أجده في مذكراتي عن ذلك اليوم : « أخبرني باتون امس ان روتشيلد قد عرض على عرابي ان يدفع له اربعة آلاف جنيه في العام اذا رضى بأن يخرج من القطر المصرى (١) . . . وعند ماذهبت الي لندن تسلمت هذا التلغراف :

. . . .

---

(١) أخبرني عرابى بعد ذلك بعدة سنين انه لم يسمع بأن روتشيلد قد عرض معاشاً لكي يعطيه له اذا خرج من مصر . ولكنه قال لى انه بعد ارسال البلاغ الاخير زاره القنصل الفرنسى وسأله عن قيمة مرتبه الشهري ثم أخبره بأنه

« القاهرة فى ١٢ يونيو — كنت فى زيارة عرابى وهو يرسل لك تسليماته ويظن ان مقترحات اوربا لم يعد لها أهمية وان الصلح قد تم . وقد سافر درويش . وبرح الخديو القاهرة الى الاسكندرية وكان عرابى يشيعه بذراعه . والحزب الوطني فى انتصار وقد اشتغلت بجد ولكني نجحت » وقد كادت دموعى تسقط من الفرح عند قراءة هذا التلغراف فأخذته وذهبت به توا الي منزل رئيس الوزارة وأخبرت هاملتون وسيمور بما حدث . وتبين لى انهما يظنان ان غلادستون فى هذه الساعة الاخيرة سيري غلطته ويصالح عرابي . وباتون يظن ان هذا ممكن أيضاً . ولكن وزارة الخارجية ستتصلب . تعشيت في المنزل ثم ذهبت الى حفلة ساهرة فى وزارة البحرية فوجدت هناك جريجورى وسير جولد سمث فتحادثت مع اللورد نورثبروك عن مصر . وقد صرحت له بكل شيء تقريبا . وقلت له : « ان كل شيء يتوقف عليك الآن . فأنت صاحب الامر والكلمة فيما اذا كانت ستسفك دماء في مصر ام لا ».

« ١٤ يونيو — لقد تعبت جدا . التقيت بمسز هوارد فى البستان فقالت لي انى قد تغيرت والحقيقة ان مصر تساورنى منذ الازمة سواء أكنت نائما أم مستيقظا قضيت الصباح وتناولت طعام الفطور مع جولد سمد الذى سيسافر هذه الليلة الى الاستانة فى مهمة خاصة وقد زودته بارائي وعرضت عليه جميع مكاتباتى مع مستر غلادستون .

مستعد ان يدفع له ضعفي هذا المرتب أى خمسمائة جنيه في الشهر اذا خرج من مصر وأقام في باريس فتعامله الحكومة الفرنسية كما تعامل الامير عبد القادر . فأبى ورفض أن يتكلم في الموضوع قائلا ان الواجب يقضي عليه بأن يقاتل ويموت من أجل بلاده لا ان يتركها . وقد وجدت عندي هذه المحادثة ولكنها غير مؤرخة . وفى ١٨ مايو قالت جريدة البال مال :

« يقال ان عرابى يفكر فى زيارة اوربا لان صحته ليست على ما يحب . وهذا قصد حسن ولن يحدث ضرر ما اذا منح مبلغا كبيراً لمصاريفه على شرط أن لا يعود لبلاده »

(ملاحظة — هذا الجنرال جولد سمد عين بعـد ذلك رئيساً لمكتب الاخبار السريعة فى جيش واسلى . وهو رجل ناعم اللسان كنت عرفته منذ عام في القاهرة)

« تغديت مع لاسل وهو حسب ما يظهر منه يوافقنى على آرائي عن مصر »

(وقد فكر بعضهم فى وزارة الخارجية في ارسال لاسل هذا الى القاهرة بدل ماليت لانه كان قد سبق له معرفة مصر . ولو انه عهدت اليه مهمة الاتفاق والصلح لقام بها أحسن قيام . ولكن لسوء الحظ لم يقرر هذا التعيين)

« في الديلي تلغراف اليوم ما يثبت أقوال صابونجي أما الجرائد الأخرى فتعتبران سفر درويش والخديو الى الاسكندرية يقصد منه رد النظام الى نصابه . ويقال أن درويش جمع ١٢٠٠٠ جندى وسيزحف بهم على عرابي الذى ليس له نصير الآن فى القاهرة . وأرسلت الى عرابى هذا التلغراف : « احمدوا الله على هذا النصر »

« وكان هذا آخر أدوار الكفاح الذى كنت أكافح فيه كولفن لكي نتجنب الحرب وكنت الى الآن منتصراً أما بعد هذا فلم أوفق لانتصار . وكان الذى جعل غلادستون ينتهى الى قرار وخطة معينة هو احتجاج بعض البلدان الصناعية فى شمالى انجلترا على توانيه في معالجة المسألة المصرية وان هذا التواني عاد بالضرر على مصالح هذه البلدان التجارية . وكان هذا الاحتجاج يستعمله تشمبران للضغط والتأثير على غلادستون وكان ذلك يحرضه من وراء ذلك »

« ١٥ يونيو — انى قلق على الحالة في الاسكندرية ولكنى أظن ان عرابي يثق برجاله هناك . فان الهجرة اليها متواصلة وكذلك الحال فى القاهرة . ومما يريح بالى أن ماليت غادر القاهرة ودرويش لا يزال بالاسكندرية وهو والخديو يقيمان فى قصر رأس التـين تحت حماية مدافع الاسطول . وجاء تلغراف آخر من صابونجي يقول فيـه : « كثرت الوساوس حول سفر الخديو . هياج . نشاط فى الاستعدادات الحربية . ونديم وعرابي وعبده يتحدون الباب العالى علناً . وعرابي ساهر يقظ يتكلم باعتدال . حدثت مؤامرة لقتل نديم . وهناك خوف من حدوث اضطراب بين الاجانب . ودرويش لا يريد السفر حتى ينسحب الاسطول . نستحلفكم

بالله ان تستدعوا ماليت فالجميع يسخطون عليه وسيقتلونه اذا استمر » وقد ذهبت الى هاملتون ورجوته ان يطلب من ماليت أن يستقل احدى البوارج. فأجاب طلبي ثم أرسلت الى هاملتون خطاباً حذرت فيه الحكومة من الارتكان على الجيوش التركية.

ثم بعثت بهذا الرد الى صابونجي : « مندوب تركيا يطلب من الدولة ارسال جيوش للقطر المصري . وليس من المرجح ان ترسل . ولكن استعدوا . واحفظوا النظام مهما حدث . فان اضطراباً آخر سيقضي على كل شيء . وسيغادر ماليت مصر قريبا . فاصبروا قليلا» وبعد ذلك ذهبت الى لورد دلاور وتناولت العشاء هناك . وعند رجوعي الى البيت علمت ان مواصلة خط تلغراف القاهرة قطعت وسبب ذلك فيما أظن هروب كتبة التلغراف وهذا يقلقني بعض القلق »

« ١٦ يونيو — ذهبت الى باتون فوجدته كله رجاء ولكن ايماني فى غلادستون قد زال وأظن ان الحكومة الانجليزية انطوت على الشر الآن . وقد أعطيت كيجان بول أمس مكاتباتي مع غلادستون لكي يطبعها حتى تكون مهيأة فى حالة حدوث أسوأ ما أنتظره . وقد وصل تلغرافى على الرغم من كل شيء »

وجاء هذا التلغراف أيضا من صابونجي : « وصل الى هنا مندوب جديد بتعليمات غير معروفة . والأمة والجيش يتشاوران كل يوم فى تدبير وسائل الدفاع ولايثقان بالبعثة المزدوجة . أخبرني عن خطة مستر غلادستون ولورد جرانفيل . وعرابى ثابت. عطلت جميع الجرائد فلا يصدر سوى الوطن والجريدة الرسمية . الرعب مستحوذ على الاجانب وقد شكر الخديو عرابي لمحافظته على الأمن . الهدوء شامل . منع نديم من عقد الاجتماعات »

قابلت هاملتون أمس فأخبرني بأنه يحسن أن لا أزوره فى منزل رئيس الوزراء. لانه قد قدمت له ملاحظات عن ذلك واذا كان هناك ما يهم من الاخبار فيحسن ان أرسل له كتابا عنها . وقد كتبت اليه خطابا أسأله فيه بيان خطة غلادستون الحقيقية . فجاءني الرد وهو غير مرض . وفى سانت جمس غازت خبر بصدد الامر بارسال جنود لمصر . ذهبت الى كرابت وأنا فى توتر عصبي شديد . وقد انعقد مجلس الوزراء أمس فى غرفة مستر غلادستون الخاصة انعقاداً عاجلا . فهل كان

القصد من انعقاده ارسال الجنود لمصر ؟ اني لا أمالك من الظن بأنهم يريدون التدخل السريع . ولكن يظهر ان الفرنسيين قد تصالحوا مع عرابي .

وأقول هنا أن جميع الدول وليس فرنسا فقط كن راضيات بالاتفاق مع عرابى وتضحية توفيق حفظاً للنظام والامن . وهاك ما تقوله البال مال فى ١٦ يونيو : « المظنون أن دولتى الوسط ترغبان فى الاتفاق مع عرابي على أساس تنازل توفيق وتولية ابنه القاصر مع وجود وصي . وهناك فوائد لا تنكر لهذا الاتفاق وان كانت فرنسا وانجلترا مضطرتين الى مظاهرة توفيق الذى أطاع نصائحهما وبخاصة نصائح الممثل الانجليزى . ومن المعقول ان خيبة توفيق العملية وهى شخصية وسياسية معاً قد أوهمت الدول بضرورة استبدال آخر به » .

وهذه رسالة ماليت المؤرخة فى ١٤ يونيو : « ارسل وكيلا النمسا والمجر والمانيا الى حكومتيهما أن نتيجة التدخل الحربي الاجنبي مالم يكن مصحوبا بجيوش تركية سيجعل حياة الاوربيين فى خطر . وهما يعتبران المسألة السياسية ثانوية بالنسبة الى حياة رعاياهما . وهما لذلك يؤيدان الرأى القائل بوجوب ترك المسألة فى يد الباب العالى وحده ويعتقدان ان أصلح الطرق لتجنب أهول المصائب أن أخرج أنا من البلاد وأن يبرحها كذلك الاسطول»

وقد سمعت أن ماليت كان يقول لاصدقائه أن حياته السياسية قد قضى عليها . فكان نجاحه هو وكولفن يتوقف على ايجاد الحرب .

« ١٧ يونيو — قضيت ليلة كلها قلق وأرق . ولكن ليس فى جرائد اليوم ما يثبت ارسال الجنود . والسماء صاحية ولذلك عاد الى انتعاشي . وظاهر أن السلطان لا يجرؤ على ارسال الجنود . وقد اتفق الفرنسيون مع عرابي وهناك الماع الى أن النمسا والمانيا ستتفقان معه أيضاً . فلا أهمية لما تفعله انجلترا بعد ذلك .

كان عندنا في كرابيت ابرنجتون . ليمنجتون . فاركهار . هامتون . دالاس . كنجزكوت . بورك . ولتر سيمور . وقد كذب خبر ارسال الجنود . وكل شيء كما نهوى وقد اتفقنا على أن لا نقول شيئاً عن مصر ولكننا لا نستطيع ذلك ».

« ١٨ يونيو — الاحد وهو عيد واترلو . ولم تظهر انجلترا بمظهر السخف

والجنون كما تظهر اليوم . وفي وقت الافطار تسلمت تلغرافاً بان راغباً وعرابي ألفا وزارة ترضي عنها الدولتان الجرمانيتان وتركيا.فنحن الآن في طرب نشكر الله»

ويحسن بي هنا أن أثبت ثلاثة خطابات أرسلها الى صابونجي في تلك الايام الاخيرة وهي توضح حالة الوطنيين وما كان يجرى فى أذهانهم .

القاهرة فى ١٤ يونيو سنة ١٨٨٢

زرت اليوم عرابي باشا بعد وصول تلغرافك اليه بدقائق قليلة . ولقد تحادثنا نحو ساعة ونصف . وسألته عن سبب هذا الرعب المنتشر فى البلاد اذا كان قد اتفق مع الخديو فقال لى : (أما عنى أنا فاني أعتقد ان الخديو مخلص مادام يكون بعيداً عن السير ماليت . فانه قد اقتنع الآن بأن ليس فى الحكومة رجل يستطيع حفظ النظام سوى هذا الرجل الذى يحتقره رجال السياسة الاوربيون احمد عرابى . وقد تصالحت أنا والخديو وعهد إليّ أمام ستة من ممثلى الدول الاوربية وأمام درويش باشا أن أحافظ على الأمن العام . وقد قبلت ذلك وأقسمت أن أحافظ على حياته وحياة جميع من يسكن مصر من أى ملة أو أى أمة . وسأفى بهذا العهد مادامت لى السلطة . ولكن اذا كان هذا الصلح مبنياً على الغش والخداع . فهذا من شؤون الخديو وحده . أما أنا فاني مخلص مع كل من يخلص لى . فالذين يعاملونني بالمكر والغش أعاملهم بالمثل . فقد علمنا الدهر واسماعيل كيف نفهم مكر الاتراك ، وكما نستعمل مدافع الترك وأسلحتهم وذخائرهم كذلك نستعمل مكرهم عندما يضطروننا الى ذلك . فلن نعتدي على أحد ولكننا سنقاوم كل من يحاول الاعتداء علينا . فان أمتنا تعرف الاخلاص وتشكر لكل من يأخذ بيدها ويساعدها على اصلاح البلاد . فلسنا نرغب فى شيء سوى الاصلاح (وهنا أكد هذه اللفظة) .

قال عرابي : « أما الذين يخدعوننا فانهم يجدوننا أشد خداعا منهم فأوروبا وخاصة انجلترا تنظر الينا كما تنظر الى متوحشين وهم يقولون أنهم يقدرون على سحقنا فى أربع وعشرين ساعة فليجربوا ذلك اذا أرادوا ولكنهم سيفقدون دين الحكومة

أي ٨٠ مليون جنيه ودين الاهالي أي ٢٠ مليون جنيه . فان أول رصاصة تطلق ستحررنا من قيود هذين الدينين . والامة في هذه الحالة لا ترغب في شيء افضل من الحرب » .

وقد سمعت هذا الكلام من عدة أناس . والاستعدادات تجرى على ساق وقدم . وقد وجدت ذخائر كثيرة وبنادق عديدة كان قد خبأها اسماعيل عندما كان ينوى أن يستقل عن الباب العالى . وهم يقولون ان هذه الذخائر ستنفعهم في الحرب وقد أخبرتهم بأني أؤمل أن لا تحصل هذه الحرب وهم يقولون أنهم يستطيعون المقاومة سنوات لان الله قد بارك لهم في حاصلات هذا العام حتى بلغت ضعفي ما كانوا يجنونه في السنوات الاعتيادية .

وقد عجمت عود عرابي عن حليم فوجدته يفضل حليما على توفيق ولكنه يقول انه اذا كان توفيق لا يسير وراء ماليت ولا يصغى لاقواله ونصائحه فان الاحوال تستوى ولا يعود هناك مجال للشكاية منه . ورأيه أن كولفن أضل ماليت وأضر بلاده ضرراً بليغاً كما أضر مصر بنشره الاخبار الكاذبة عنها .

في ١٧ يونيو — ذهبت مساء أمس الى منزل شريف باشا حيث كان هناك عرابي ومحمود سامي وعبد العال وعلى فهمي ونديم وهجرسي وكانوا جلوسا يتناولون العشاء . فبعد العشاء أخذنا ندخن ونتحدث عن السياسة واذا بضابط قد دخل علينا ومعه خطاب من سيدة انجليزية تطلب حمايتها لان بعضهم نصح لها بمغادرة القاهرة . وقد صار عرابي في نظر السيدات الاوربيات بطلا وقد سمعتهن يمدحنه لحمايته لهن . وعندما يكون في مركبته تتسارع السيدات لرؤيته من النوافذ والشرف . وكلما قابلت أوربيا دعوته الى مناصرة عرابي .

في ١٨ يونيو — في ظهر أمس عندما أعلن بالتلغراف خبر تعيين راغب باشا رئيساً للوزارة ذهبت الى عرابي فقرأ لى تلغرافا بعث به اليه الخديو يطلب منه فيه ان يتعاون مع راغب باشا باعتباره (أى عرابي) وزيراً للحربية . وبعدما شربنا القهوة كتب رداً يشكر فيه الخديو . وكان الرد غاية في الادب من حيث العبارة . ثم قال لى بعد دقائق . « فلنركب عربة ولنسر في شوارع المدينة لكي نبعث الثقة في صدور الناس » فركب هو وعلى فهمي في عربة وركبت أنا ونديم في أخرى وسرنا في

الفجالة تتقدمنا جنود ونزلنا عند منزل الشيخ الامبابي شيخ الاسلام . وقال لى عرابي « تعال معنا لاعرفك بيطركنا » فنزلت معه وعند ما دخلنا وجدنا الشيخ جالساً على ديوان قصير فوقف وتقدم عدة خطوات فسلم عرابي عليه وقبل يده . أما أنا فحييته بهز يده فقط . ودعانا الى الجلوس فجلسنا . وكان معه كثير من علماء الازهر وكان ابن الشيخ العروسى أحدهم . وبدأوا بالكلام عن الوزارة الجديدة ثم أخذوا في الحديث عن علاقة الشيخ الامبابي بالخديوى فى الحوادث الاخيرة . وقد استطعت أن أعرف من هذا الحديث أن ما أشيع عن وجود فتور بين عرابى والامبابي لا أصل له . وعندما كنا نتناول القهوة قدمني عرابى اليه وبين له انى صديق المستر بلنت فأوضح لى الامبابي مسألة التلغراف فقال لى انه كتب الرد بيده وانه لم يعتذر للخديو عنه . وهو يعتقد ان ماليت سمع عنه من سلطان باشاأو من احد أنصار الخديو .

ثم عرض عرابى على الشيخ منشوراً بصدد حماية أرواح سكان مصر وأملاكهم مهما كانت دياناتهم أو قومياتهم ورجاه ان يكتب هو منشوراً مشابهاً له يقول فيه باعتباره شيخ الاسلام ان الاسلام لا يمنع المسلم من أذى اليهودى او النصراني فقط بل يفرض عليه حمايته لانه في ذمته . فوافق الشيخ الامبابي على ذلك ثم قام فى حضورى وحضور المشايخ الاربعة الآخرين وصلى لله كي يلهمه طريق الصواب فى اصلاح البلاد ووعد أيضاً بان يساعد عرابى لتقوية روح السلام بين المسلمين وغير المسلمين اذ هم فى الحقيقة اخوان وان اختلفوا فى الايمان

ومن هناك يممنا منزل أرتين بك فحيانا وبالغ فى التحية ثم سرنا فى شارع كاوت بك ثم الموسكي وسائر شوارع المدينة وكان الناس يقفون على الجانبين صائحين بقولهم : « الله ينصرك »

وفي نهاية هذه الجولة أخبرني عرابي بانه دعى الى منزل السيد حسن موسى العقاد لتناول العشاء فاخذني معه وكان بصحبته باشوات وضباط ومشايخ وعلماء . وكان منزل هذا السيد على سعته مكتظاً بالضيوف . فكان بينهم عرابي ومحمود سامي واحمد باشا وعبده ونديم وانا وكنا جميعا فى الغرفة الكبرى . وكنا ننشد الاشعار

ونؤلف المدائح والاهاجي وكنا نتسلى بهجو راغب باشا . فنظم عرابى مقطعة ونظم عبده اثنتين أما نديم فنظم أربعا واكتفي سامي باثنتين . وعند العشاء جلست الى جنب عرابي . وقدم لنا ثلاثون لونا تقريبا وهذا غير الفطائر والحلوى الاوربية والشرقية والفواكه .

وبعد العشاء أخذنا فى الحديث عن السياسة وعن أنواع الحكومات وأساليبها . وكان النوع الجمهورى هو المفضل فى الحديث . وأخذ محمود سامي وهو ذو ذكاء ومعارف واسعة يتكلم عن فوائد الحكومة الجهورية لبلاد مثل مصر . ومما قاله : « لقد كنا نرمي منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية مثل سويسرا . وعندئذ كانت تنضم الينا سوريا وبينها الحجاز . ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذه الدعوة لانهم كانوا متأخرين عن زمنهم . ومع ذلك سنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت » .

فى ١٩ يونيو — كنا أنا وعبده ونديم وسامي نتكلم أمس عن الوسائل السلمية التي يمكن اتخاذها لكي تعبر بها مصر أزمتها الحاضرة . فقال عبده انه اجمع رأيه على أن يجمع جميع الوثائق والمستندات التى لديه أو التي يستطيع حيازتها ويذهب بها الى انجلترا لكي يعرضها بنفسه على مستر غلادستون والبرلمان الانجليزى . وسيأخذ معه أحد وجهاء التجار وأحد الاحرار ممن ينوبون عن الفلاحين . فوافق محمود سامى على هذا الرأى وقال انه هو أيضاً يود أن يذهب الى اوربا لهذه الغاية . وعبده يستعد الآن للسفر . وكان نديم والسيد حسن موسى العقاد يريان ذلك أيضا . وهذا الاخير من أغنياء التجار في القاهرة وهو وطنى ذو ثروة عظيمة ونفوذ كبير .

وقد صار راغب رئيساً للوزارة ولكن بما أن خطته تركية فليس من يرضى عنه سوى الشراكسة . والناس يتوجسون من تعيينه ويخشون أن تكون هناك دسيسة تركية . وأنا أهدئهم .

وقد كانت الحوادث الاخيرة باعثاً بين الوطنيين على كراهة الاتراك والشراكسة والسلطان نفسه . وقد سمعت سامي وعبده ونديما يلعنون السلاطين والامم التركية من عهد جنكيز خان وهو لاكو الى عبد الحميد . وقد الف حزب كبير يستعد لاعلان

الاستقلال عن تركيا اذا تدخل الاتراك في مصر تدخلا حربيا . ولكن التركي الماكر قد أدرك الخطر وامتنع عن التدخل . وقد قال نديم ونحن راجعون من شبرا أنه سيهدم عرش السلطان قبل ان يموت .

ويجب أن أخبرك بأنى ألاقي الآن من الحفاوة والاحترام مالم أكن أحلم به. فجميع الباشوات والضباط والمشايخ والتجار يلاقونني بالبشاشة والود والشكر . وقد اتفقت مع نديم على ايلام وليمة اكراما لك وشكراً على ما أسديته من المعونة للوطنيين فى هذا الكفاح .

القاهرة فى ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢

ذهبت الى منزل محمود سامي حيث قابلت جميع أصدقائنا واختلطت بالباشوات وسائر الزعما . وكان حديثنا طول الليل عن السياسة وقد أخبرتهم بفحوى خطابك الذي وصل الى اليوم عن طريق برنديزي ولخصت لهم أيضا أقوال الجرائد التي ارسلتها أنت وليدى آن الى . وبعد ذلك قدمت لمحمود سامي عريضة وقعها الوطنيون يطلبون فيها من مستر غلادستون أن يرسل اليهم معتمداً يفهم أحوال بلادهم . وقد وافق سامي على العريضة وقال أنهم سيوقعونها عند ما يجيء عرابي الى القاهرة وستقدم العريضة بواسطتك الى مستر غلادستون . وفى آخر الشهر قيل لى أن ماليت حرض توفيقا وطلب اليه أربع مرات أن يقبض على عبده ونديم ومحمود سامى وعلي انا أيضاً .

فى ٢٣ يونيو — عند ما صدق الخديو على تعيين راغب باشا استدعانى أنا ونديما الى الاسكندرية . وفي ليلة الاثنين جاءتنى فى الفندق عربة وفيها رجل يدعوني لزيارة حسن باشا الدرملى . فذهبت أنا ونديم لانى خشيت أن أذهب وحدي . فلما وصلنا قوبلنا بحفاوة ثم أخبرني أن راغب باشا عهد اليه بتبليغى رغبته فى رؤيته في الديوان فى الاسكندرية فقلت « لابأس » وقال نديم انه سيذهب معي أيضاً . وخرجنا من المنزل وقد عقدنا نيتنا على أن لاتكون لنا علاقة براغب

وهكذا تعرف انه فى الوقت الذى أرسلت اليك تلغرافا أدعوك فيه الى أن تستدعى ماليت لئلا يقتله المتعصبون كان هو يشير بالقبض عليّ . وقد كنت على الدوام عند مايتكلم شبان المصريين المتحمسين عن اغتيال ماليت أبين لهم خطأهم وانه ليس هناك أقل منفعة للقضية الوطنية من هذا العمل

فى ٢٤ يونيو — كان محمود باشا الفلكي قد ترك الوطنيين لانه لم يتقلد وزارة فى عهد رياسة محمود سامى وقد ترضاه عرابي باعطائه منصب وزير الاشغال

(وأخذ صابونجي هنا في وصف الازمة التى سبقت استقالة وزارة محمود سامي وتوسلات عرابى الى السلطان وبعثة درويش ثم بعثة عثمان بك وكيف أن الوطنيين كانوا يتملقون السلطان باعلان الاخلاص والولاء له)

وهاك مايقوله صابونجي بعد ذلك :

أما عن عقيدتهم الحقيقية فهم لايعنون بعبد الحميد أكثر مما يعنون بسكان القرى فهم يستخدمونه لمصلحتهم ويعتمدون عليه حتى يروا الوقت ملائماً لاعلان الجمهورية المستقلة وقد كان هذا أساس عقيدتهم منذ البداية ولكنهم تبصروا فى العواقب فرأوا أن يسيروا سيراً وئيداً فى هذا الموضوع فنديم يوجه جهوده نحو هذه الغاية ببذر بذورها في أذهان الجيل الجديد ومنذ وصولي الى هنا وأنا ونديم لانفترق . والمشايخ والعلماء والاعيان والتجار والضباط يقابلوننا بأذرع مبسوطة ونحن نحدثهم عن مساعيك وعن الخدمات التى أديتها للقضية الوطنية وكلهم مشتاق الى رؤيتك يسدونك تحياتهم وتسليماتهم . والحقيقة أن هؤلاء الناس الطيبين يستحقون كل عطف ومعونة صابونجي

ولست أذكر بالدقة ذلك الوقت الذي قر فيه رأى غلادستون على أن يبث فتنة فى المصريين ويعول على التدخل الحربى بعد أن أغرى نفسه وأغواها بأن هذا التدخل الحربى ليس فى الحقيقية حربا . ولكنى أظن ان قراره هذا قد انتهى اليه بين ٢٠ يونيو وآخر يونيو . وكانت الاعتبارات التي ألجأته اليه مبنية على الخطط البرلمانية ، فان الاحرار من حزبه كانوا على وشك الانتقاض عليه وكان تشمبرلن يقص عليه القصص عن القلق المنتشر فى انحاء البلاد وكانت هزيمة وزارة

الخارجية واضحة لايمكن اخفاؤها فكان جرانفيل يلجأ الى خطته فى التأجيل ويقول ان التهديد بالحرب يساوى الحرب نفسها فاستعمل هاتين الخطتين وكانت النتيجة أن انجلترا صارت أضحوكة العالم فى معالجتها للمسألة المصرية . وكانت أحوال البورصة غير عادية والتجارة تعانى أزمة دامت زمنا طويلا . وقداستعملت وزارة الخارجية جميع « وسائل الحضارة » فى حل المشكلة وهى تتلخص فى الكذب والخيانة والغش فذهبت كلها هباء . أما عناد الوطنيين فقد أمرت انجلترا على جلالة قدرها وعظم نفوذها عرابي بأن يغادر البلاد فرفض أمرها ، بل حدث عكس ذلك اذ زادت قيمة عرابي فى عين العالم الاسلامى وكانت هذه الزيادة على حساب انجلترا ، فقد ظن كثيرون في ذلك الوقت أن دعاة الجامعة الاسلامية فى الهند سيقومون بفتنة ، وكانت انجلترا فى يوم عيد واترلو أسخف ما كانت في تاريخها كما سبق لى قول هذا ، فقد فزع أكثر الموظفين واستيقظت فى المحافظين عاطفة القتال التى أخمدت منذ هزيمة دزرائيلى في سنة ١٨٨٢ وهبت تدعو الى الدم ، فقسا مستر غلادستون وأخمد ضميره ولست أظن انه عمد الى أخذ المسألة فى يديه يأمر وينهي فيها وانما أظن انه اقتصر على السكوت وترك (المصالح) تعمل ماتراه واجباً ، ومعنى ذلك أن المسألة صارت في أيدى رجال وزارة الخارجية ووزارة البحرية وسيرسيمور وكولفن لان (ماليت كان قد سحب) لكي يحلوا المسألة بأنفسهم . فقد كسبنا نحن القضية من الوجهة السياسية وهزمنا وزارة الخارجية هزيمة تامة فكان لانجلترا أن تهزمنا من الوجهة الحربية

واليك المذكرات :

« ١٩ يونيو — فى بورصة لندن فزع سببه اشاعة استقالة برايط وتشمبرلن (وكان هذا الفزع يدل على جهل الجمهور بحقيقة تشمبرلن اذ قرنوا اسمه الى اسم برايط)

« ٢٠ يونيو — كتبت الديلى نيوز مقالا معقولا ، وينصح لى فريدريك هاريسون بان اكتب لمستر غلادستون خطابا مفتوحا وأطبعه ، وهو يضمن حسن تأثيره فى انحاء البلاد ، وقد بدأت في تحرير هذا الخطاب

« ٢١ يونيو — انتهيت من خطابي وذهبت الى هوارد لاستشارته فطلب الى أن أنقح بعض العبارات حتي لا يقع غلادستون شخصياً تحت المسئولية . وكان لاسل هناك . ثم اتفقت مع باتو على نشره في الغد أو يوم الجمعة على الأكثر ثم أرسلته الى غلادستون .

« ٢٢ يونيو — بكرت فى الصباح وذهبت الى باتون وكلانا يظن أن النية بمصر سيئة وقد كتب هارى براند يقول انه اذا وافقت فرنسا على المذكرة فان الحكومة تعمد الى العمل فى مصر ولو رفضت المانيا الاشتراك . وأنا أشك في ما اذا كانت فرنسا مستعدة لذلك وسألحق خطابى لمستر غلادستون بخطابات أخرى اذا دعت الضرورة وأنا متأكد أنه اذا أنزلت انجلترا جيوشاً في أي مكان في مصر فان السلطان يعلن الجهاد وتحدث فتنة بين مسلمى الهند فنحن الآن فى مأزق عجيب .

وقد ظهر خطابي فى التيمس فى ٢٣ يونيو وهو اليوم الذى انعقد فيه مؤتمر الاستانة . وقد أحدث رجة فى الرأى العام وهذا نصه :

سيدى

ان خطورة الحال الحاضرة فى مصر ومصالح الامة الانجليزية وكرامتها المتعلقتين بهذه الحال الآن تدعوني الى مخاطبتكم عن الامور السياسية التى قادتنا الى المأزق الحاضر والى تدوين بعض الحقائق التى يجب ألا تخفي عن أعضاء المؤتمر القادم اذا كان ينوى أن يقرر خطة جديدة

فأنت تعرف أنتى في الشتاء الماضى توسطت بين سير ادوارد ماليت وسير اوكلاند كولفن من جانب وبين زعماء الحزب الوطني المصرى من جانب آخر وقمت بمفاوضات بينهما هى ان تكن غير رسمية الا انها كانت ذات أهمية وكان شرفى فيها رهيناً بالولاء لوكيلي حكومة جلالة الملكة . ثم انى منذ مجيئي الى انجلترا وانا على اتصال دائم مع هؤلاء الزعماء . فلذلك أجدني الآن فى مركز يجيز لى الكلام عن مسلك هؤلاء الوطنيين وأغراضهم . وتعرف أيضاً أنتي حذرت رجال حكومة جلالة الملكة عدة مرار من الخطر الذى كانوا يتعرضون للوقوع فيه لعدم ادراكهم الحقائق وانني

حثهم على ان يسارعوا الى التفـاهم مع اولئك الذين يقودون الحركة فى مصر . وتعرف أيضاً اننى مراعاة للحق والعدل نصحت للمصريين فى الازمة الاخيرة بان يسووا الخلاف الذى نشأ بينهم وبين الخديو وحثثهم على ذلك بكل ما فى جهدى وقد حصلت بالفعل هذه التسوية الآن . وقد تحملت فى عملى هذا مسئولية عظمى ولكنى أعتقد ان الحوادث بررت عملى .

وأهم الحوادث الماضية التى أريد اثباتها هنا هى :

أولا — فى شهر ديسمبر الماضى عاونت رجال الحزب فى نشر برنامج يلخصون فيه آراءهم وكانت آراء عادلة سخية وقد راعوها مراعاة تامة . وفي ذلك الوقت ثم بعد ذلك الى ٨ يناير حين أرسلت المذكرة الثنائية لم يكن بين المصريين وبين انجلترا او الانجليز ما يدعو الى الخصام او الشجار . ولم يكن بينهم وبين الخديو أو المراقبة الثنائيـة اى خصام بل كانوا يثقون بهاتين الهيئتين ويعتمدون عليهما لمعاونتهم فى السير نحو السبل البرلمانية والحكومة الذاتية الدستورية . وكان غرضهم ولا يزال ان تعود مصر دولة تفتدى دينها وتصلح قضاءها . وكانوا كما هم الآن يثقون بالجيش لكي ينيلهم هذه الحقوق وبالبرلمان لـكي يصل بهم الى غايتهم . وكانوا مستعدين لان يتدرجوا فى تقدمهم لا يحيدون عن الاعتدال

ثانياً — ان المذكرة الثنائية التى أعدها مسيو غامبتا كانت غايته منها ان يورط انجلترا فى سياسته العدائية نحو الاسـلام وقد فهم المصريون انها أول خطوة خطتها انجلترا نحو السياسة التى تتبعها فرنسا فى تونس فصارت ثقتهم من ذلك الوقت في انجلترا توجسا عميقاً . وبدلا من ان تخيفهم هذه المذكرة الجأتهم الى السرعة فى عملهم . فهى التى جعلتهم يلحون فى طلب استقالة شريف باشـا ، الذي كانوا يتهمونه بالخيانة، ويطلبون من الخديو تأليف وزارة وطنية . وهذا الالحاح الذى تقول الصحف الانجليزية انه صدر من الجيش هو فى الواقع صادر من الأمة الممثلة فى نوابها . ويمكننى ان أقدم عدة شواهد على هذا .

ثالثا — ان سقوط مسيو غامبتا الذى لم يكن ينتظر منع تنفيذ الوعيد الذى جاء فى المذكرة الثنائية بالتدخل الحربي . ولـكن فكرة التدخل وان تكن غير

مباشرة قد بقيت . فان المراقبين الانجليزي والفرنسي احتجا على الدستور الذى منحه الخديو في ٦ فبراير وامتنعت الحكومتان الانجليزية والفرنسية عن اعلان رضاهما عنه واعتبرتا المادة التى تسمح للبرلمان بمناقشة نصف الميزانية الذى لم يكن مقيداً بالديون مخالفة للارتباطات الدولية ، وكان المصريون ينكرون حجتهما التى أسساها على بعض فرمانات الباب العالى وديكريتات الخديو .

رابعاً — ان الوكيلين الانجليزيين تبعاً لاوامر حكومتهما (كما هو المفروض) نصبا من نفسيهما في الثلاثة الاشهر الماضية خصمين يبغيان احداث ثورة لقلب النظام الذى أوجدته ارادة الأمة والحرية التى منحها اياها والى البلاد . ولم يتحرج المراقب العام الانجليزى ، مع انه موظف فى الحكومة المصرية، عن أن يشترك فى هذا العمل . ولم يضن وكيل انجلترا بأى تعب فى المداخلة بين الخديو ووزرائه توصلا لهذه الغاية . وامتنع المراقب من حضور جلسات مجلس الوزراء معتمداً على أن الوزارة الجديدة لعدم مرانها ستخطىء ويقف هو من بعيد يحصى عليها اخطاءها .

وكان مكاتبو الصحف الانجليز مقيدين قبلا في نشر آرائهم فما هو ان ظهرت الوزارة المصرية الجديدة حتى أذن لهم في نشر الاخبار التى تؤذيها مع علمهم بكذبها. وانى أجرؤ على ذكر بعض الاخبار المفزعة التى نشرها هؤلاء المكاتبون ولم يكن لها أصل ، فمن ذلك خبر انتشار قطاع الطرق في الوجه البحرى ، وخبر ثورة البدو ، وخبر ثورة السودان ، وخبر عرب الحبشة ، وخبر النفقات الحربية الهائلة ، وخبر امتناع الناس عن دفع الضرائب ، وخبر استقالة مديري المديريات ، وخبر اهمال أعمال الرى ، وخبر الخطر الموشك ان يقع بقناة السويس ، والاخبار القائلة بان عرابي صار مأجوراً لاسماعيل ثم لحليم ثم للسلطان . نعم انه قد يكون هناك أساس واه لبعض هذه الاخبار ولكن ليس لاكثرها أصل البتة ،

وقد خاطبت فى ٢٠ مارس لورد جرانفيل في هذا الموضوع بناء على طلب عرابي وأوضحت له الخطر الحائق بالسلام من مسلك وكلاء انجلترا وألححت في طلب ارسال بعثة لكى تبحث شكايات المصريين

وفى شهر ابريل كشفت مؤامرة لاغتيال الوزراء الوطنيين الذين عرفوا ان يد

اسماعيل هى التي حركت هؤلاء المتآمرين . فأخذ قنصلا انجلترا وفرنسا فى استغلال هذا الحادث لمصلحتهما وصارا يحضان الخديو على مناوأة وزرائه . وكان المتهمون بهذه المؤامرة قد حكم عليهم بالنفي وكانوا من ذوي المقامات العالية يشتركون مع الخديو فى القومية والجنسية لانهم من الاتراك والشركس ولهذا السبب رفض الخديو التصديق على الحكم وقبل اشارة الذين أغروه بالامتناع عن التصديق وأدى هذا الى القطيعة ما بين الخديو ووزرائه . ثم أرسل محمود سامى باشا فى طلب النواب لكي يفصلوا فى الخلاف بين الوزارة وبينه . وجاء النواب ولكن سلطان باشا رفض أن يعقد اجتماعا رسمياً برياسته وذلك للحسد الذى كان غالباً على عواطفه . وأخذ القنصلان فى استغلال هذا الحادث الثاني فصارا يحرضان جميع المعارضين للحزب الوطني بالالتفاف حول الخديو . وخشي بعض سراة المصريين حدوث اضطرابات فانضموا الى الشراكة . وانخدع القنصلان بهذه الحركة فأعدا نفسيهما لضربة نهائية وأرسلا البلاغ الاخير الذى طلبا فيه استقالة الوزارة وابعاد عرابى عن القطر المصرى . وتراءى للناس كأن البلاغ نجح لأن الوزارة استقالت بالفعل ولكن ظهر فى الحال ان القنصلين أساءا فهم الشعور الوطنى ورجع عرابى فى اليوم التالى الى منصبه بقوة ارادة الامة الواضحة

ولست أستطيع أن أفهم ان مسلك وكيلنا فى هذه المسألة يمكن تبريره اوالقول بانه موافق لمبادىء الاحرار وعلى كل حال انه لم يصب نجاحا

خامساً — عندما أرسل الاسطول الى الاسكندرية حاولت ان أحذر ولاة الامور وكان تحذيرى مبنياً على ماعرفته مدة اقامتي من شعور الوطنيين وقد قلت ان وجود الاسطول فى مياه الاسكندرية ونجاحه اذا نزل بعض البحارة الى المدينة قد يحدثان فى الاغلب اضطرابا واقترحت ان اذهب الى مصر لكي اعمل جهدى فى تخفيف بعض النتائج التى كنت اخشى وقوعها

سادساً — فى نفس هذا الوقت رضيت الحكومة الانجليزية بارسال مبعوث تركي الى مصر وكان المفروض ان نفوذ السلطان فى مصر عظيم لدرجة ان الاهالى سيخضعون لأى اشارة تصدر من مندوبه او ان المقاومة لما يشير به ستكون ضعيفة

لا يؤبه لها . وسمح للباب العالي بان يسلك المسلك الذى يرغبه فأرسل درويش باشا. ومما يؤسف له ان وزارة الخارجيـة كانت تعتمد فى حل المسألة على ما كان يشاع عن هذا الرجل من انه كان خلواً من الضمير والذمة فى معاملته للثائرين . وعنـدى ما يدلني على ان ما كان ينتظر منه هو ان يدعو عرابى الى الاستانة فاذا لم ينجح فى هذا فانه يلجأ الى الرشوة فاذا خاب هذا المسعى الثاني أيضا يقتله بنفسه باعتباره ثائراً على السلطان. ولست أناقش الآن فيما اذا كانت هذه تعليمات أمر بها درويش او هي من ابتكاراته . ويظهر لى ان الباب العالى مثـل حكومة جلالة الملكة لم يكن يقدر مبلغ الشعور الوطنى وان اتحاد الأمة المصرية وشجاعتها هما اللذان أقنعا السلطان بأن الوسائل التى استعملت فى البانيا مع الثائرين لن تجدى شيئا فى مصر . وعادت النصائح المعقولة الى مكان هذه الاقوال ونصح لـكل من الخديو وشعبه بالصلح.

فهذا يا سيدي هو بالاختصار تاريخ سياسة انجلترا في مصر فى الستة الاشهر الماضية . وهو مما يؤسف له لصـدوره من وزارة خارجيتنا . ومع ذلك فان المستقبل لا يزال في يدنا وان كان المؤتمر عنـد ما ينعقد لن يحسب لانجلترا سوى صوت واحد . وليس لى الحق فى ان اقترح ما يجب ان يقال فى هذا المؤتمر ولكنى اجرؤ على القول بأنه اذا كان وكيل حكومة جلالة الملكة يتقدم الى المؤتمر ويعترف باخطائه ويعلن عطف انجلترا على مصر فاننا عنـدئذ نكسب ما خسرناه . لانه على الرغم من غضب المصريين للحيل والألاعيب التى استعملتها معهـم وزارة خارجيتنا فانهم يعتقدون ان هناك عطفا عليهم من جانب الأمة الانجليزية يمحو أعمال هذه الوزارة وان هذا العطف لا يسمح باستعبادهم لأوهام عن المصالح المالية وعن قناة السويس . وقد أكدوا لى المرة بعد المرة ان غايتهم هى السلام والاستقلال والاقتصاد وان قناة السويس تكون فى أمن وحمى جميع الدول وان الجميل يرجع الى انجلترا اذا صارت مصر دولة عزيزة الجانب مثل سائر الدول . فحسبكم ان تمدوا الى المصريين يد الصداقة لتنالوا منهم الشكر والحمد

هذا واني خادمكم المطيع «ولفرد سكاون بلنت»

الفصل الخامس عشر

ضرب الاسكندرية

نأتي الآن على ذكر ضرب الاسكندرية وهو قتال دبره الاميرال سيمور بالاتفاق مع كولفن لان خروج ماليت آل الى وضع القوة السياسية كلها في يد كولفن ولم يأخذ لاسل كما كنت أؤمل مكان ماليت بل عين في مركزه كاتب صغير يدعي كارتريت وكان لجهله وعجزه آلة في يد المراقب يفعل به كيفما شاء . وليس عندي ما أزيده على مذكراتي في وصف الاسابيع الثلاثة التى تلت ما تقدم في القاهرة والاسكندرية. وقد جلب عليَّ خطابي المفتوح الى مستر غلادستون عاصفة من السباب من أصدقاء ماليت وكولفن ومن الراغبين فى الحرب ومن العناصر المالية فى الصحافة والبرلمان

واليك المذكرات :

« ٢٤ يونيو — فى جريدة التيمس اليوم خطاب شديد من هنرى ماليت (شقيق ادوارد ماليت الاكبر). وقد أعلن لورد لامنجتون انه سيسأل الحكومة يوم الاثنين عن « مفاوضاتي غير الرسمية » . كلما كثرت المناقشة كان هذا فى مصلحتنا . كان عندنا يوم الاحد في كرابت جماعة كبيرة من الزوار بينهم لاسل

« ٢٥ يونيو — كتبت رداً للتيمس على خطاب هنرى ماليت وأرسلته . وقد لطفت لهجته تهدئة للخواطر . لم تكن لي رغبة فى الشجار مع أصدقائي وكنت قد قررت أن لا أضرب الا عند الاضطرار

« ٢٦ يونيو — ورد خطاب طويل من صابونجى (هو الذى دونته فى الفصل السابق) فهم فى القاهرة يولمون ولمية رسمية اكراما لى . التقيت بلورد دولاوار ولورد لامنجتون (وكانا متصاهرين) فى مجلس اللوردات وقد جعلت اولهما يسأل عن رسالة ماليت التى ارسلها في ٢٦ من شهر دسمبر (وكان ماليت قد قال انه الغاها) وكان لورد لامنجتون ينوى ان يبنى خطبته على رسالة ماليت ولكنى اوضحت له

سخافة هذا العمل . ومع كل قد القى خطبة شديدة عنى وكانت لهجته غاية في الحدة والغضب . فبهت وجه لورد جرانفيل وبان عليه القلق ولكنه صرح باني قد حاولت تهدئة الجيش فى احدي المرات . وهذا تصريح يفيدنا ; وقد انكر هنرى ماليت هذا) ثم قال انه لا يتذكر رسالة ٢٦ يونيو ولكنه سيبحث عنها »

(ان سبب قلق الحكومة وارتبا كها عند ما سئلت الوزارة عن « مفاوضاتي الغير الرسمية » هو انها كانت قد تورطت منذ عام فى مفاوضات غير رسمية مع البابا على يد مستر ارنجتون بصدد موقف الكهنة الارلنديين)

« تناولت العشاء مع هنري مدلتون فى النادى وذهبت معه الى اجتماع عقدته جماعة عدم التدخل فى شارع فارنجتون . وكان سير ولفرد لوسون رئيساً للاجتماع وقد تكلم فاحسن وهو ألذ من سمعت . وقرأ فريدريك هاريسون خطبة لخص فيها المسألة المصرية تلخيصاً معتدلا » الاحظ هنا أن هنرى مدلتون كان يعرف مصر وقد أقام فيها مدة طويلة وكان يعرف الطوائف القبطية . وقد كتب اليه بطريرك الاقباط خطابا مدة الحرب وقد نشر هذا الخطاب . وهذا الخطاب ذو أهمية من حيث انه يظهر كيف أن الاقباط كانوا جميعاً مع عرابى فى ذلك الوقت .

« ٢٧ يونيو — تناولت العشاء عند بمبروك . وكان جميع أعضاء نادى هويلتون هناك وهم يقربون من الاربعين وبعد العشاء تساقينا بعضنا نخب بعض . ودعيت الي الخطابة . وشعرت انى فى وسط لاينظر الى بعين الرضا لأن اكثر المجتمعين كانوا من الراغبين فى الحرب . ولكن هاملتون وقف وشرب نخبي منوهاً بخدماتي العمومية . فلما وقفت للرد قلت ان بعض الناس يخدمون بلادهم بطريقة معينة وبعضهم يخدمها بطريقة أخرى ولكن ما دام الانسان يخدم ويؤدى واجبه فلا أهمية للطريقة التى يتبعها » .

(وهذه الخطب لم تكن بالطبع خطيرة الشأن لأن الاجتماع كان مقصوداً به اللهو وكان الحاضرون من اصدقاء لورد بمبروك الخواص وكانوا يأتون لزيارته مرتين أو ثلاثة في العام لهذا الغرض)

« ٢٨ يونيو — ذهبت الي جورج هوارد وعرضت عليه خطاب صابونجى

ومكاتباتى مع غلادستون . وصابونجي يقول ان الزعماء الوطنيين فى مصر يفكرون فى المجيء الى انجلترا لكي يعرضوا قضيتهم على مستر غلادستون — وقد سألت هوارد أن يتوسط لى فى مقابلة برايط فاني اعتقد أن برايط ينقاد الى الحق اكثر من سواه وربما كان فى معرفته فائدة . وليس هناك شك في أن الاستعدادات الحربية قائمة على ساق وقدم لغرض ما . ولست أعتقد الا أن القصد من هذه الاستعدادات هو تقوية يد دوفرين فى المؤتمر ليس غير . وقد أرسلت تلغرافا الى صابونجي أخبره فيه بانه لم يتقرر بعد شيء بصدد ارسال الجنود وأسأله أيضاً أن ينصح بالصبر .

« ٢٩ يونيو — زرت برايط فى منزله فى بيكاديلي . وكان يتكلم بلهجة الصداقة ولكن عطفه ومعرفته كانا أقل مما رأيته من مستر غلادستون . ولكن النتيجة كانت مع ذلك مرضيه . فهو يؤكد لي أنه لم تتخذ الى الآن اجراءات حربية وهو لا يظن أنها ستتخذ وهو يعتبر قناة السويس قليلة الفائدة الحربية لنا من حيث تدبير الخطط. وهو يوافق غلادستون على تفضيل طريق الكاب للمواصلة مع الهند. وقد أوضحت له رأيي عن الاصلاح الاسلامي وبينت له الاختلاف بين الحركة الموجودة بمصر وبين افكار السلطان النازعة نحو التعصب . وأظن أن زيارتى هذه ستقوى حزب السلام فى الوزارة »

(ألاحظ هنا أن برايط قد استهجن مسألة التدخل واحتمال نشوب القتال في الاسكندرية اكثر مما توهم القارىء هذه المذكرة . وقد أشار على بأن اطمئن من هذه الوجهة . وأنا علي يقين بانه كان يقول ما أعتقد . ولكن هذا المسكين الذى كانت مبادئه تنافى الحرب والقتال كان يجهل ماكان يجرى فى وزارة البحرية ووزارة الحربية وقد أخبرني بعد ذلك أنه قيل له أنه فى حالة التهديد بضرب الاسكندرية سيبقى هذا التهديد حبراً على ورق . وكانت النظرية التى وضعتها وزارة الحربية أمام مجلس الوزراء أن الامة باجمعها فى صف الخديو وليست مع عرابي وانه عند اطلاق أول قنبلة من الاسطول يتسارع الناس ويقبضون على عرابي الذى سينفرد وحده بالمقاومة فيضعونه عند اقدام مولاه الخديو ولما عرف برايط كيف أنه قد أحتيل عليه حتى رضي بضرب الاسكندرية الذي انتهى باحراقها وجعل الحرب

لا مناص منها اغتاظ أشد الغيظ واستقال من الحكومة ولم يغفر لغلادستون اشتراكه في المكر به أو تخليه عن مبادئه).

« زرت ليدى جريجورى التي كتبت مقالا عن مراقبة مصر . وهو مقال يسلي القارىء بعض التسلية وتناولت العشاء عند هوارد وكانت زوجته متحمسة بشأن ترسياني »

« ٣٠ يونيو — يكذب كولفن بواسطة مكاتبة التيمس انه هو أو ماليت قد وسطاني في أي عمل أو استخدماني لأي شيء . وهذا التكذيب سيملكني ناصيته بعد التصريح الذى القاه اللورد جرانفيل بهذا الصدد يوم الاثنين الماضى .

ان هذا التكذيب الصريح لأشياء ليس من المعقول أن يكون كولفن قدنسيها لايحتاج الى وصف منى . ولم يقلل من مسئوليته ما كتبه لى فى خطاب خاص في ٦ يوليو يجحد فيه ما قيل فى تلغراف مكاتب التيمس . وقد قبلت بيانه فى ذلك الوقت واعتبرته مخلصاً فيه ولكنى عند ما طلبت منه أن يجحد ما قيل في التلغراف علناً رفض اجابة طلبي وكان رفضه بمثابة الاصرار على الكذب .

تناولت الفطور مع دلاوار لكي أقابل برودلى مكاتب التيمس في تونس

(برودلى هذا هو نفسه الذى عهدت اليه بعد ذلك الدفاع عن عرابى وذلك بناء على نصيحة دلاوار . فانه كان محامياً يمارس صناعة المحاماة فى المحاكم القنصلية في تونس وكان يكاتب التيمس أيضاً . وكان رجلا ذا كفايات وقد خدم دلاوار فى عدة مهام فكان يقدم له المعلومات التى يحتاج اليها عن المسائل الشرقية التى يشغف دلاوار بالبحث فيها . وكان يحضر له خطبة التى يلقيها فى مجلس اللوردة وذلك عند ما يكون مقيما فى انجلترا . وعند ماغزت فرنسا تونس أخذ هو يدافع عن التونسيين فى التيمس ويبرر ثورتهم والف بعد ذلك كتابا في هذا الموضوع سماه : « الحرب القرطاجينية الاخيرة »

« وهو يقول انهم في تونس وطرابلس ينتظرون مجيء السلطان . والا فان السنوسى يقود المسلمين الى نهضة جديدة ... كتبت خطاباً للتيمس رداً على كولفن وفيه ما يكفي لسحقه . تغديت عند جريجورى .

« كتب إلى هاملتون يقول ان غلادستون لن يرجع عن خطة العطف التى انتواها نحو مصر واستقلالها اذا كان ما أخبرته به صحيحاً . وأظن ان الذى جعل غلادستون يقول هذا هو برايط » .

هذا الخطاب المشار اليه هنا هو ذو أهميـة بالنسبة الى التسوية التي جرت بعد ذلك بصـدد مركز مصر . ثم أيضاً وعد لورد دفرين الذى تعهـد فيه بالمحافظة على استقلال مصر ومعاهدها الحرية . وكان هذا الوعد موعزاً اليـه به من غلادستون. ولولا اني كنت قابضاً على غلادستون من هذه الوجهة لما كان عندى شك فى ان مصر بعد معركة التل الكبير كانت تضم الى الامبراطورية البريطانية . فان جميـع الاحرار فى الوزارة كانوا يقصدون الى ذلك »

« ٢ يوليو — كنت فى بروكث وهي بقعة ريفية لم أر مثلها قط سوى ويلتون. فجميع ما فيها لم يتغير بل هو باق كما كان منذ خمسين أو ستين عاماً في عهد كارولين لام اولون ملبورن. وقد مات هنا لورد بالمرستون.وهي الآن من املاك هنرى كوبر وهو يعطف علي كثيراً . وكنا جماعة مؤلفة من هنرى براند وزوجتـه والسفير الاميركي ولورد هاتون وليمنجتون ولفيسون جاور شقيقق لوردجرانفيل وسكرتيره. وقد تناقشنا كثيراً عن مصر وكانت اللهجة حبية حتى لفيسون نفسه لم يغضب . اما السفير فني صفي . وبعد ان لعبنا التنس أنا وفيسون تحادثنا . وكان يتكلم بلهجة القانط من مستقبل الامبراطورية وقال ان انجلترا يمكنها ان تعيش اذا لم تحدث فيها ثورة . ومثل هـذا الكلام فى بروكث يثير الاشجان . . . فى الابزرفر حملة هوجاء أخرى على .

« ٣ يونيو — كنت فى بروكث . أظن انه اذا قر القرار على التدخل فستكون ايطاليا هي الدولة التى ستفعل ذلك بعد إشارة المؤتمر . وليس هـذا مما يرغب فيه فان الايطاليـين يعطفون الآن على المصريين ولكنهم اذا القوا بانفسهم وغامروا بالفتح فانهم سيلجأون الي طرق التوحش . ثم ان الايطاليـين لا يمكن نقدهم فى مجالسهم النيابية كما هو الحال هنا وفى فرنسا » .

(ألاحظ هنا ان الحكومة الايطالية سئلت لكي تشترك معنا فى التدخل فرفضت

ولو فعلت لوجدت سخطاً من الاحرار حيث كان غريبالدى أحد زعمائهم الشهيرين يهيء نجدة لمعونة عرابي ».

« ذهبت الى كنبورث وتغديت هناك . وقد خطط ليتون طريقاً الي المتنزه هناك . وتكلمنا معاً عن الامبراطورية البريطانيـة وكان يعادلني فى قنوطه . ويظن ان النجاح كان مقدراً لمساعى فى مصر أو لمساع أى واحد غيرى ما دمنا لانرتكن الى الصدفة . وهو يتهبأ بوقوع ثورة فى الهند بين المسلمين مهما كانت الحوادث . . . وفى الليل ذهبت الى براند.

« ٤ يوليو — فى لندن . وجدت تلغرافا يقول ان عرابى لن يذهب الى الاسـتانة وخطابا من صابونجي مزعجاً . إذ يظهر انه فتح في إدارة البريد وما فيـه لو أذيع يؤذي الوطنيين في الاسـتانة . وفى الصحف تلغرافات عن تجدد الشجار بشأن استحكامات الاسكندرية ما وقد سمعت ليدى جريجورى من سـير ارسكين ماى ان سير سيمور قد امر بضرب الاسكندرية فى الغد .

(سير ارسكين ماى هذا كان على ما أعتقد كبير الموظفين الدائمين فى وزارة البحرية.وأول إشارة الي ضرب الاسكندرية فى الكتب الزرق مؤرخة فى ٢٦ يونيو حيث أرسلت وزارة البحرية الي سير سيمور التلغراف التالي : « اذا كانت الجيوش المصرية تستعد للمهاجمة خابر أمير البحر الفرنسي واستعد للقتال » وهذا التلغراف يظهر التعلل الذى كنا نتعلل به لكي نهاجم المصريين.وهو أشبه شيء بقصة الذئب والحمل . ونحن نعرف من جريدة بالمر التى سنشير اليها بعد ان سيمور قد عقد النية على ضرب الاسكندرية منذ ٤ يوليو . ومما جعل الوزارة وغلادستون يقرر ان القرار النهائي ما أذيع من فرية مذبحة بنها التي لم يكن لها أصل مطلقاً وكان الغرض منها تهييج الرأي العام الانجليزى على عرابي »

وتقول ليدى جريجورى أيضاً انها سمعت ان كولفن قد استقال وان استقالته قد قبلت .

ولست أعرف اذا كان هناك أصل لهذه الاشاعة ولكن استقالته فى هذه الساعة جاءت متأخرة فلا تأثيرله الآن على سير الحوادث والارجح ان الاشاعة كانت كاذبة.

اني فى أشد القلق بخصوص التهديد بضرب الاسكندرية وفى الساعة الثانية عشرة ذهبت الي مجلس العموم وسمعت ذلك يقول ان « الاسطول قد أمر بان يسلك مسلكا معيناً اذا حدثت ظروف معينة ».

وقد تغديت مع سير ولفرد لوسون وهو رجل لطيف وقد قرأت له خطابات صابونجي بشأن مقابلاته للوطنيين . وقال لى انه هو وآخرون سيفعلون جهدهم ولكن ليس هناك ما يمكن عمله الآن . وقد طبعت خطاباتى التى كنت أرسلتها الي غلادستون ولكنى لن أنشرها حتى أعرف خطة الباب العالى . . تعشيت عند ليدى زوزا مونت كرستي وكان نولز هناك وقد قال انضرب الاسكندرية سيشرع فيه فى الغد . وفوست فى صفي . واني أخشى الآن أن يخاطر الوطنيون بما عندهم علي منازلة الاسطول لأنهم حتما سينهزمون فتؤدى هزيمتهم الى تثبيط عزائمهم . وأظن أنه يلزمهم أن يتركوا الاسكندرية ثم يحفروا الخنادق ويعسكروا بعيداً عن مدى اطلاق المدافع من الأسطول . ولكني لا أجسر الآن على أن أنصح لهم بشيء ما » .

(قال لي باتون حوالى هذا الوقت أن الخطة التي ستتبعها وزارة البحرية هي انزال الجنود وقت ضرب الاسكندرية والغاية من ذلك قطع الطريق على عرابي اذا أراد أن يتقهقر وكان لهذا الخبر تأثير على تلغرافى فى اليوم التالى وخطابي الذى أرسلته فى السابع من الشهر) .

٥ يوليو ـ أرسل أمير البحر سيمور بلاغاً أخيراً . وقدأرسلت الى صابونجي التلغراف التالى : « يجب ألا تعاكسوا الأسطول . ارسلوا عبده الى غلادستون . » ولا أعرف اذا كنت قد الهمت السداد فى هذا العمل ولكن التبصر ليس فى كل الأحوال ثم أن عرابى سينظر فى الحالة دون النظر الى رأيي وهو لم يخطيء للآن . وقد أرسلت نسخاً من مكاتباتي الى الكاردينالماننج والى نولس والى لورد دفرين . وبعد الغداء ذهبت الي هل رئيس تحرير جريدة الديلى نيوز . وهو الآن بعد فوات الفرصة قد انضم الى جانبنا . وقدوعدنا بأن فكتب مايمكنه . . فى المساء تسلمت خطاباً من صابونجي يقول فيه ان الهدوء شامل فظني أن الصعوبة

قد ارجئت ... كتبت اليوم الى هاملتون.أعده بعرض خطابات صابونجي عليه (وهي التي نشرنها) وهذا علاج المستيئس ولكن هذا هو حكم الظروف .

« ٧ يوليو — ذهبت لزيارة ستانلى والدرلى وحضضته على زيارة موسورس لكي يمنع حدوث أى شقاق بين عرابى وبين السلطان . وقد عرضت عليه حقائق الحالة على وجه التقريب ولكنى فهمته ان الوقت الحاضر ليس من الاوقات المناسبة لوجود شقاق بين المسلمين . ويمكن الأتراك والمصريين تسوية ما بينهما من الخلافات فى المستقبل . ويظهر لى أنه يوافقنى ... ثم كتبت خطابا الى صابونجي أسأله فيه أن ينصح بعدم الشجار مع الاسطول وانما عليهم أن يعسكروا فى خنادق بعيدة عن مدى اطلاق مدافع الاسطول . ولا زلت أعتقد انه لن ترسل حملة انجليزية الى مصر وان المصريين سيضطرون الى مقاتلة الايطاليين أو الأتراك ... والصحف تشير الى تسوية سلمية بين الاسطول وعرابى . فاذا كانت هـذه التسوية قد تمت فى هذا ما يرضي .

« ٨ يوليو — في كرابت . وفى البريد الثاني وجدت خطابا من هاملتون يفهم منه ان غلادستون لا يزال قابلا للمناشقة والاقناع وهذا أكثر مما كنت أنتظر » .

(ان ما كتبه هاملتون فى خطابه هو : « اظن أنه من المسلم به ان رغبة الحكومة هى الوصول الى الحقيقة ولكن يظهر ان هذا ليس سهلا »

« وبناء على هـذا أخذت أكتب ملخصا لخطابات صابونجي . وفي المساء حضر لاسل وآخرون .

٩ يوليو — الاحد . استشرت لاسل فى مسألة ارسال خطابات صابونجي الى غلادستون فقال لى انه يظن أن الوقت قد فات . اذ أن هارنجتون أخبره أنهم يريدون احتلال مصر ووضعها جريا على مبدأ مكماهون القائل : « انى هنا ولن أخرج » وقد قال تشامبرلن : « لقد أحرجنا مركز الرجل (غلادستون) فليس له مناص الآن من الحرب » ولذلك سأنتظر الحوادث . وجريدة الابزرفر تتوقع تهديداً آخر أو بلاغا أخيراً . وعناية الله الآن هي الموكلة على ما يحدث » .

(ان ماذكرته هنا عما أخبرني به لاسل ذو اهمية تاريخية . فقد كان فى مركز

يسمح له بمعرفة ما كان يجرى أ كثر من جميع أصدقائي . وكان ابن عم لورد هارنجتون وكان لذلك واقفاً على أحوال الاحرار وما يقال فى الوزارة .

« ١٠ يوليو — أرسل بلاغ أخير آخر وقد طلبت فيه من عرابى طلبات لا يمكنه قبولها فهم يطلبون منه تسليم الحصون . وقد رفض الفرنسيون أن يشتركوا فى هذه الفرصة . ويقول لى م . ب . وهو متصل برجال البحرية أن أمير البحر سيمور فى فزع شديد لان البارجة « انفنسيل » هى الوحيدة التى لها درع سليمة ولان حالة الاسطول خطرة جداً » .

(أظن أن هناك شيئاً من الصحة فى هذا القول . فان البوارج كن راسيات فى الميناء وكن تحت رحمة مدافع الحصون القريبة . ولو كان الوطنيون عديمي الذمة وساقطى الضمير مثل رجالنا لانتهزوا الفرصة واغرقوا البوارج . ولكن عرابي لم يكن الرجل لمثل هذا العمل وكان فوق ذلك يراعى القاعدة الاسلامية فى أن لا يبدأ العداء . ثم هو لم يكن راغباً فى القتال و كان مصمما عل ان لا يوجد سبباً للتصادم . ولذلك سمح لسيمور بان يخرج بوارجه ويتهيأ للقتال)

« وان يكون عرابى مخطئاً فى قبول تحدى الاسطول له . وعلى أى حال قد وضع البلاغ الاخير فى مركز لا يستطيع فيه أن يرفض القتال . ومن الغريب أني مبتهج ومتحمس . فاني أظن أن ضرب الاسكندرية بالقنابل وما يعقب هذا من سفك الدماء سيحدث في الجمهور انقلابا فى الشعور مهما كانت النتائج بحيث يطالب بوقف هذه الاجراءات . وليس من يرغب الحرب أو الضم سوى الماليين . وهؤلاء يصمتون اذا نطق الجمهور . والأرجح أن الدول سيغضبن من هذا التعدى والمؤتمر لا يزال بعد منعقداً . وقد تنشب حرب بين انجلترا وفرنسا على هذه المسألة وقد تضيع الهند من جراء ذلك .

***

كتب فردريك هاريسون خطاباً كاوياً الى غلادستون قال له فيه ان عمله فى

مصر سيقضي على شهرته الادبية فى التاريخ قضاء مبرماً . وقد هزم غلادستون يوم الجمعة فى المجلس فى مسألة مهمة

تناولت الغداء مع جورج كرى وهو مسرور من حزم الحكومة لانه احد المساهمين وقال لى انهم كانوا يخشون أن لا يعني غلادستون بمصالحهم

ذهبت الى مجلس العموم وقابلت لوسون فسألني عما يمكن عمله فقلت (لاشيء) فان ذلك قد أيد البلاغ الاخير . وقد زارني لورد دلاوار فى الساعة السادسة وطلب إلىَّ أن أرسل تلغرافاً أنصح فيه للوطنيين بقبول تسوية . فأخبرته بأن هذا ليس فى وسعى الآن لان المصريين لا يمكنهم تسليم حصونهم الا اذا فقدوا شرفهم . ذهبت الى دارى فى كرابت

١١ يونيو — فى كرابت . قلت فى نفسي هذا الصباح علي سبيل التفاؤل: اذا كان هذا اليوم صحو فالحال فى مصر حسنة . ثم نظرت واذا بالمطر يهطل . قد عولت على البقاء هنا حتى ينتهي كل شيء ولكني سأذهب الى قصر مارلبورو يوم الخميس حيث أقابل جلالة الملك . سنعرف كل شيء بعد بضع ساعات . وقد توالى المطر الى الساعة الثانية ثم صحا الجو . وبقيت في غرفتى غير قادر على الخروج أو على عمل أى شيء . وفى الساعة الرابعة والنصف أحضر لى دافيد جريدة الجلوب وهي تقول ان ضرب الاسكندريه قد شرع فيه الاسطول في الساعة السابعة وكان الى الساعة الحادية عشرة مستمراً . وفى الساعة الخامسة حضرت آن (زوجته) من لندن ومعها جريدتا البال وسان جيمس وكلتاهما تقول ان الضرب مستمر فى الساعة الاولى والدقيقة الاربعين . فظاهر من ذلك المصريين قد وقفوا وقفة الرجال فلست أخشي شيئاً الآن . فقد يطردون من الحصون ومن الاسكندريه ولكن لن تهزم مصر . وقد سافر الاسطول الفرنسى الى بور سعيد ومن المحال أن لا تقع حرب أوربية . أرسلت مكاتباتي مع غلادستون الى ولي العهد .

« ١٢ يوليو — أسكتت الحصون ولكن المصريين لم يظهروا للآن علامة على الخضوع وتقول الجرائد ان البوارج قد أعادت الضرب اليوم. ان هذا شيء فظيع. ومما يسرني ان السلطان ثابت في هذه المواقف . ولا خطر الآن من حرب دينية

تلى الحرب السياسية . فما تنبأنا به عن غلادستون سيتحقق . أن ضمير هذا الرجل جدير بالدرس الآن وأظن انه لا تكثر عليه أية خيانة أو جريمة . ولست أستطيع عمل شيء وسأبقى هنا . خرجت لصيد السمك فى الغابة وكان اليوم دافئاً صاحياً ولكنه مزج بشيء من نذر الرعد فى الظهر . وتذكر جرائد المساء ان راية المهادنة قد رفعت وان البوارج لم تستطع اطلاق النار لهياج البحر .

« ١٣ يوليو — قابلت باتون وهو يقول ان الاحتلال صار أمراً محتوماً . وكان أدوارد بلاونت فى القطار فقال لى ان الفرنسيين ليسوا في حال تمكنهم من القتال فان بحريتهم في ارتباك وهو يشك فيما اذا كان لديهم ذخائر ويظن ان ستحدث ثورة بعد بضعة أشهر . قابلت سيرلوسون في منزله وتحادثت معه كثيراً ولكنه وافقني على انه آيس من أية فائدة تعود الآن من مخاطبة الحكومة . . . تناولت الغداء عند هوارد الذي تسرب اليه الشك امازوجته فلا تزال علىولائها للقضية .. قرأت وقت رجوعى فى القطار الذى يسير تحت الارض ان النار قد شبت فى الاسكندريه وان الاهالى يجلون عنها وان مذبحة أخرى قد حدثت على أيدى الاوباش . وهذا ما يجب ان ينتظر . وأنا الآن مسرور من شيء واحد وهو ان الجيش قد خرج سالما من الشرك الذى أعدله فقد كنت قلقاً منذ ذهاب عرابي الى الى الاسكندريه وكنت أخشي أن يقع في أيدى اعدائه ولكن يظهر انه قد فعل مانصحت له به فانه تراجع الى مواقع محصنة بعيدة عن نار الاسطول . والناس أو بالاحرى الجرائد تظهر الغضب لانه تراجع محتميا براية المهادنة ولكني لست على علم بأصول الحرب حتى أعرف مكان الخيانة وخصوصاً بعد ان أعلن أمير البحر سيمور انه يفهم من راية المهادنة اخلاء الحصون »

(ألاحظ هنا ان هذه التهمة أى رفع راية المهادنة على غير أصول الحرب قد أتهم بها عرابى بعد ذلك وقت محاكمته وكان غلادستون لسخافته يلح فيها وذلك لانه كان قد تورط فى تصريح له عند ما قال ان التراجع تحت راية المهادنة يخالف قوانين الحرب . وبقيت هذه التهمة فى وجه عرابى حتي عند ما سحبت المحكمة سائر

التهم وبعد ذلك ألف لورد ولسن كتيبا اسمه « مذكرة الجندى » قال فيه ان هذا العمل جائز فى الحرب فبرر بذلك عرابي .

كنت متردداً فى الذهاب الى قصر مارلبورو ولكنى قررت الذهاب لكي أثبت ولائي . فذهبت وكان الجميع بشوشين ماعدا هاوتون الذى كان لا يظهر أقل أدب معى . وكانت أسرة ماليت هناك ولكنى لم أجسر على مخاطبة أحد منهم . وجاءني روبرت بورك وهو في أشد الاغتباط للورطة التى وقعت فيها الحكومة وهذه هي الحياة السياسية الحزبية . وجميع من كانوا هناك كنت أعرفهم . وسلم على ولى العهد مصافحا ولكنه لم يقل شيئاً . وكانت جلالتها مشرقة الطلعة وأظن سبب ذلك اغتباطها بضرب الاسكندرية ! ويقال ان غلادستون قد أعلن في المجلس ان لن يرسل جيشاً الى مصر . وصرح بأنه ليس فى حرب مع أحد . ولكن باتون الذى تناول العشاء معى يؤكد لى ان الجيوش سترسل وان النية عقدت على ضم مصر الى الامبراطورية . وكان معنا فى العشاء لورد بكتيف.

« ١٤ يوليو — تناولت الفطور مع دلاوار وأطلعتـه على خطاب عرابي الى غلادستون فنصح لى بان لا أرسله ولكنه تطوع بان يخاطب ولي العهد عنه . وأظن ان هذا رأى حسن . ولست اجرؤ على ان أضع هذا الخطاب فى يد الحكومة حتي تتقرر مسألة شكل التدخل ونوعه »

ان الخطاب الذى أشرت اليه هنا قد أملاه عرابى على صابونجي فى الاسكندرية وأرسله لى لكي أعرضه على غلادستون ولم يكن موقعاً بامضاء عرابي وكان مكتوبا بالانجليزية ولذلك انكره عرابى وقت المحاكمة عند ما أتهم بانه كاتب مستر غلادستون. فعيرنى اعدائى لذلك وأتهمونى بتزويز الخطاب مع انى قلت انه أملاه ولم يكتبه .

وهذا هو الخطاب المرسل الى مستر غلادستون :

سيدى

« لقد أمرنا القرآن ان لا نثير ثائرة حرب ولا نكون البادئين بها . وأمرنا أيضاً بأن نعتدى على من اعتدى علينا وان نقاوم المعتدي بكل سلاح والا صرنا كافرين . فلتتيقن انجلترا بانه عند ما تطلق أول قنبلة على مصر سيصير المصريون

أحراراً من قيود جميع المعاهدات والعقود والاتفاقات . وان المراقبة الثنائية والديون العمومية ستلغيان وان املاك الاجانب ستصادر وان الترع ستعطل والمواصلات ستقطع وانا سنستخدم رجال الدين فى الحض على إثارة الجهاد أى الحرب الدينية فى سوريا وبلاد العرب والهند . ومصر تقع فى طريق مكة والمدينة وجميع المسلمين يحتم عليهم دينهم تأمين الطريق اليهما . وقد ألقيت مواعظ بهذا الصدد فى مسجد دمشق وحصل اتفاق بهذا الصدد أيضاً مع جميع زعماء الدين فى العالم الاسلامي . فأكرر القول بأن أول قنبلة ترمي بها مصر ستكون سبباً في سفك الدماء فى أسيا وافريقا وان تبعة ذلك كله ستقع على كاهل انجلترا .

« لقد رضيت انجلترا بأن يخدعها وكلاؤها الذين أضاعوا مكانة بلادهم فى قلوب المصريين . واذا حاولت انجلترا ان تسترجع ما فقدته بقوة السيف والمدفع فان خطأها هذا سيكون أعود عليها بالضرر من اخطائها السابقة .

« وهناك وسائل انسانية للوصول الى هذه الغاية . فان مصر لا تزال قابلة بل راغبة في ان تتفق مع انجلترا وان تصادقها أشد الصداقة وان تحافظ على مصالحها وتؤمن طريقها الى الهند وأن تكون حليفتها ولكن على شريطة ألا تخرج عن حدودها . اما اذا كانت تفضل الوعيد والتفاخر بأسطولها وجيوشها الهندية وان تبقى منخدعة بما يقوله وكلاؤها فلها عندئذ الخيار . ولكن لاينبغي لها أن تقلل من شأن وطنية المصريين . فان وكلاؤها لم يخبروها عن التغير الذى حصل للامة من عهد مظالم اسماعيل فالامم فى عصرنا هذا تتقدم بخطوات واسعة فجائية نحو الرقي .

« والخلاصة انه يجب على انجلترا ان تتأكد من اننا مصممون على القتال وان نموت شهداء لبلادنا كما أمرنا بذلك نبينا أو نحوز النصر ونعيش مستقلين سعداء . ونحن فى الحالين نستقبل السعادة ، والامة التى أشرب قلبها هذا الايمان ليس لبسالتها حد « احمد عرابى »

« ذهبت لزيارة جريجوري وقد وجدته مضطرباً لاحراق الاسكندرية وهو يعتقد أن عرابي لم يأمر بذلك . أما أنا فأقول انه أمر بذلك وانه كان مصيباً . وهذه هي خطة الروس فى موسكو وهي توافق جميع الأغراض التى رموا اليها . ولست

أظن أن الضرر كبير في النهاية بل ستتخلص البلدة من اليونان والايطاليين . وبديهي أنه غير مسئول عن المذبحة وان كنت لا أشك فى مبالغة الأخبار الواردة عنها . فان احراق المدينة وقطع المياه عنها والتقهقر الى أماكن موافقة للقتال على السكك الحديدية هو ما يجب أن يفعله كل قائد مصمم على الدفاع » .

(وهذا ما أقوله الآن أيضاً . فان احراق الاسكندرية قد أفسح لعرابى الوقت ليتحصن فى كفر الدوار . ولو أنه أنفذ باقي خطته فى سد قناة السويس لاستطاع ان يطيل أجل الحرب وربما نال النصر بذلك . وسأعود الى هذا عند ما أتكلم عن الحملة) .

« ١٥ يوليو — كتب الى باتون يقول ان ولى العهد يطلب نسخة من خطاب عرابى فأرسلت له أقول بانى أكون سعيداً اذا سمح لى بأن أقرأه لسموه . ولن أخرج هذا الخطاب من يدى الآن . . . حضر الينا سير دونالد كرى لكي يرى خيولنا . وهو يعطف على مصر بعض العطف كما هو شأن كل فرد تقريباً . والجرائد هائجة تصيح صيحة واحدة . وأجدنى مكروبا مهموماً بالمستقبل . فمن المحتمل ان تخرب مصر ولكن مما يعزى الانسان ان المساهمين سيخربون أيضاً . ولكن الله حى لمن يتوكل عليه

« ١٦ يوليو — يظهر ان الاتراك قد رضوا بارسال الجنود وقد أخبرني باتون عن حبوط تدخلهم . فهم سيذهبون ويرجعون بعد ما يقبضون على عرابى وكل هذا يجب ألا يتجاوز شهراً . وهذا من السخافات فانهم اذا ذهبوا فلن يرجعوا . وسيتفقون مع عرابى وكل ما تكسبه انجلترا عندئذ هو اعلان السلطان للحرب . وأظن ان هذا أفضل مقترح اذا اعتبرنا جميع الاعتبارات . والا فالحالة الاخرى هى الضم ثم كتبت خطابا ووضعت عليه « من عرابي الى غلادستون »

« ١٧ يوليو — سافرت الى لندن وقابلت باتون . وقد اتفقت معه على ان ارسل الخطاب لغلادستون ولولى العهد وأرسلته لهما بالفعل . . . وبودى أن يعرف غلادستون عواقب عمله فى مصر لانه قال يوم السبت انه لم يكن يظن ان ضرب الاسكندرية سيؤدى الى تدميرها . فلن يكون له عذر اذا دمرت القاهرة . وقد

استقال برايت وهو رجل شريف وقد صرح بان ضرب الاسكندرية يخالف القوانين الدولية والاداب العمومية » (١)

---

(١) قابلت برايت بعد ذلك أكثر من مرة وقد أخبرنى بلهجة شديدة عن الطريقة التى قادوه بهـا حتى اشركوه فى ضرب الاسكندرية . وهاك ما كتبته فى مذكرانى فى سنة ١٨٨٥

« ٩ يونيو — كنت عند هوارد . وكانت زوجته في المساء السابق تتناول العشاء مع هارنجتون وجرانفيل وبرايت . وقد أخبرها برايت بانه كان حاضراً الجلسة التى تقرر فيها ضرب الاسكندرية ولـكن جرانفيل أوهمه بان هذا لن يحدث . وكان المتفق عليه انه يخرج من الوزارة اذا اطلقت رصاصة واحدة في أي حرب . وقد كانت الحرب سبباً فى آلامه وحزنه ولـكنه لم يقو على أن يقف ويناصب أصدقاءه القدماء العداء . وانما كتب الى مستر غلادستون بعد الحرب يقول له اذا أذن للحكومة المصرية فى ان تحاكم عرابي بنفسها فسيكون هذا العمل فضيحة أبدية »

« ١٦ مارس — كنت عند هوارد حيث تناولت العشاء . وكان الاجتماع مهما بانضمام برايت ومورلي وليفيسون ورايت الخ ... وكان التكلف باديًا علينا أولا . ولكن رايت فتح الحديث بسؤاله برايت عن الشخص الذى تسبب فى ضرب الاسكندرية فاندفع برايت يلعن تلك الحرب ويتكلم على ظلم عرابى فى حبسه فى سيلان وقال ان سيمور طلب ضرب المدينة قبلا ولـكن طلبه رفض . وكان تشمبرلن هو الذى ألح في أن يؤذن له بالضرب . أما هارنجتون فلم يكن له يد فى ذلك » .

(أظن ان غلادستون كان أيضاً يشاطر برايت فى توهمه أن ضرب الاسكندرية لن يقتضي سفك الدماء أو الحريق أو الحرب . وكان هناك فرق بينهما وهو ان برايت عند ما عرف أنه قد خالف مبادئه خرج من الوزارة آسفاً باكيًا . أما غلادستون فانه لم يعن بوخز ضميره بل بقى فى الوزارة يستفيد من تعلق الجمهور به لانه أعلن الحرب)

« وصلت الى البيت متأخراً مغموماً . فقد عملت كل ما فى استطاعتى لتلافى الحرب . ولكن هأنذا لا أرى حلا سوى الحرب »

وهنا لسوء الحظ تنتهي مذكراني عن سنة ١٨٨٢ (١)

الفصل السادس عشر

حملة التل الكبير

بقي عليّ الآن أن أصف الحوادث المهمة فى الحملة المختصرة التى دامت شهرين وقفت فيهما مصر تقاتل عدوها الانجليزى . وليس فى مؤلفات الكتاب الانجليز وصف صادق لهذه الحملة كما انه لا يوجد أيضاً هذا الوصف فى الكتب الفرنسية . فان حكم الارهاب الذى استمر نحو سنة أو أكثر من سنة بعد رجع الخديو والنظام التركي الشركسي فى القاهرة قد أسكت المصريين ومنعهم من ان يروا ما حدث وقت غياب الخديو ومع انه قد ظهر شيء من الحقائق وقت محاكمة عرابي لم يكن بين الصحف المصرية الوطنية ما استطاع أو تجرأ على ان يشير الى هذه الحقائق الا بمقدار ما كانت تسمح به الحكومة . ثم عند ما استردت الصحف بعض شجاعتهن وهن يعتمدن على الحماية الفرنسية كان الزمن قد كسي الحوادث لباساً من الاساطير التى لا تزال تؤثر في عقل المصريين الى الآن

وأول ما يجب إيضاحه وان كانت الكتب الزرق قد شوهته هو تلك الصفة الوطنية التى اتسم بها دفاع المصريين عن بلادهم فى غزو الانجليز لها . فان الرواية الرسمية تقول ان الجيش وحده كان يقاتل الانجليز ويقاوم سيمور ويعارض فى طلباته

---

(١) يظهر للقارىء من الاشارة الى ثورة المسلمين في الهند وفى غير الهند اننا بالغنا فيما كنا نتوقعه . ولكن الافكار الشائعة فى ذلك الوقت كانت تبرر أقوالنا . وربما كان خوف حكومتنا من ثورة فى الشرق هو الذى جعلها تتعجل حل مسألة مصر بالحرب في يونيو من تلك السنة

كما قاوم جيوش ولسلي . ولم تكن كل هذه الاقوال سوى تتمة الاكاذيب الرسمية التي الفتها وزارة الخارجية لكي تعتذر بها عن تصميمها على التدخل لمصلحة الماليين ويمكن أن يراها الانسان فى خطبة لورد دوفرين فيافتتاحه مؤتمر الاستانة وهي بليغة فى الاكاذيب الفجة . فان السفير الانجليزى يقول قبلضرب الاسكندرية ان حالة مصر حالة الفوضى حيث لا تؤمن الارواح أو الاموال وحيت تقع المذابح بواسطة عرابي وجيشه وضباطهالآخرين المتمردين . وكان كل ذلك يمنع الحكومة من ان تعمل لاستتباب الامن أو بلوغ حالة الثبات المالى . وقد أوضحت فيما سبق مبلغ المبالغة في وصف حالة مصر بهذه الاقوال ومبلغ المفتريات والاكاذيب التي فيها . وما نحتاج اليه الآن هو تقرير المسئولية التى تقع على عاتق عرابى فى ضرب الاسكندرية (١)

فليس هناك ريب فى أن عرابى كان يقول بالاستعداد الحربى بعد ارسال

---

(١) قال لورد دوفرين : « ليس من المبالغة ان نقول انه منذ بضعة أشهر قليلة كانت الفوضى التامة منتشرة فى مصر . فقد رأينا عصابة حربية ترتكب الجرائم دون ان تتستر بشيء ما كما هودأب العصابات التيمن هذا النوع حتىصار العصيان تمرداً والتمرد ثورة والثورة استلاباً للسلطة العليا . وكانت النتيجة أن ادارة البلاد وقعت فى الارتباك .

«وقفت حركة التجارة ولم يعد الفلاحون قادرين علىدفع الضرائب لأنه ليس هناك من يشترى غلاتهم . ونزلت ايرادات الحكومة لهذا السبب . وقد أدت هذه الحال الى الاضرار بمصالح التجارة التى يشتغل فيها رعايا الدول العظمى . وليس هذا فقط بل أن الارتباطات التى ارتبطت بها مصر لفرنسا وانجلترا قد جحدتها وقد فصل الموظفون الذين عينوا لكي يراقبوا تنفيذ شروط هذه الارتباطات من وظائفهم وهدم النظام الذى ابتدأ أن يظهر أثره فى منفعة الفلاحين . ولم يخسر الدائنون خسائر جمة فقط بل أن حياة الاوربيين لم تعد في أمن كما تدل على ذلك مذبحة الاسكندرية التى قتل فيها الرعاع عدداً كبيراً من أبرياء الاوربيين »

المذكرة المشتركة فى ٦ يناير ولكنه كان طول هذا الوقت يطلب السلام لا الحرب فقال بالمقاومة لا بالحرب ولم يكن منفرداً بهذا الرأى ثم ان وصول الاسطول لمياه الاسكندرية قوى مركزه وضم الى رأيه رأى الجمهور. ذلك انه كان أمام الجمهور مثال تونس فكان من المحال أن لا يرى المصريون ماذا كان يهيأ لهم على أيدى الدول الاوربية. فانهم كانوا يفهمون معنى ايجاد حالة كاذبة من الفوضى والفتنة تبرر بها الدول التدخل لحماية أرواح الاوربيين وأملاكهم ثم القبض عنوة أو اغراء على حاكم البلاد بدعوى حمايته هو أيضاً من رعاياه الثائرين ثم اجباره على قبول الحماية الحربية. فقد فعل الفرنسيون ذلك فى تونس ونجحوا فكانت النية اعادة هذا العمل فى مصر على يد الانجليز. فلم يكن من الصعب أن يفهم الوطنيون وهم يرون هذه النتيجة المتوقعة ان المقاومة أشرف من التسليم.

وكان صوت عرابي ذا أهمية كبرى في رفض طلبات أمير البحر سيمور فى ١٠ يوليو ولكنه لم يكن فى حاجة الى الالحاح فى هذا الطلب أو التهديد لتنفيذه. فان المجلس العام الذي عقد للقرار على الرد لم يتردد فى الحكم بأنه ليس من حق الخديو أن ينزل عن شيء من أرض مصر طاعة لاوامر دولة أجنبية دون أن يحصل على رضى من السلطان بهذا العمل. ولم يكن الخديو نفسه مخالفاً لهذا الرأى. وكان في هذا المجلس عدد من الممثلين من غير اعضاء الحكومة وكانوا جميعاً يلحون في الدفاع عن الحصون وكان الخديو يشاركهم فى هذه اللهجة الوطنية يعاونه فى ذلك ممثل السلطان درويش باشا. ولم يجرؤ أحد من المسلمين الحاضرين فى هذا المجلس حتى سلطان باشا الذي انضم نهائيا الى الانجليز أن يعلن بأنه يمكن قبول طلبات سيمور.

وكانت النتيجة أنهم قرروا بالاجماع تعيين عرابي وزيراً للحربية والبحرية وان يستعد للدفاع عن الحصون وان يقاتل الانجليز اذا أطلقوا النار على الحصون ووافق الخديو على كل هذا. وأرسلت أوامر مستعجلة لوكيل الحربية فى العاشر من الشهر بأن يعلن في انحاء القطر بأن الحكومة قد عقدت نيتها على الحرب وانها تدعو الرديف وتنوى تأليف فرق جديدة من المجندين. وقد يقال ان الخديوى لم يكن مخلصاً فى موقفه عند ما وافق المجلس على الحرب. وليس من يشك فى ذلك. فان

جميع أعمال توفيق العمومية كانت على الدوام تدل على عدم اخلاصه. والارجح انه هو وسلطان باشا قد اتفقا قبلا على أن يتظاهرا بالوطنية حتى يحتميا بالرأى العام فى حالة ما اذا ثبتت الحصون ولم تنهزم امام الاسطول الانجليزى. ثم يجب ألا ننسى ان مبعوثى السلطان كانا حاضرين فى المجلس وكانت خطة الحكومة الانجليزية فى ذلك الوقت وهي الخطة التي كانت تعلنها على الملأ انها لا ترغب سوى أن يتدخل السلطان فى النزاع وكان توفيق كعادته يلعب دوراً مزدوجا وغايته أن ينضم الى الفريق المنتصر.

وفى الكتب الزرق رسالة غريبة تظهر للقارئ ماقاله الخديوي لمستشاريه الانجليز. فقد أبلغ فى السادس من الشهر عن عزم سيمور على ضرب الاسكندرية وطلب منه كما يظهر ان يذهب الى احدى البوارج الانجليزية لكي يكون بعيداً عن الاذى ولكن هذا الاقتراح لم يتفق ومخاوفه التى كان يحسب حسابها فى المستقبل. فأرسل الى كولفن يخبره عن خطته في المحافظة على نفسه وقت إطلاق النار على المدينة. وهو يقول في رسالته هذه انه ليس له مناص من البقاء فى مصر. فانه لا يستطيع أن يتخلى عن أولئك الذين وقفوا في صفه مدة هذه الازمة وانه لا يستطيع ترك مصر عند هجوم دولة أجنبية لانه يقال عندئذ انه لم يراع سوى سلامته الشخصية. فهو لذلك سيذهب الى قصره على ترعة المحمودية ويبقى هناك مع درويش باشا. وقد لاحظ أيضا فى رسالته هذه انه اذا انتهت هذه المسألة بسرعة كان ذلك أسلم عاقبة له. وكان هذا هو البرنامج الذى اتبعه ولكنه بدلا من أن ينزل في قصر المحمودية نزل في قصره بالرمل وهو يبعد نحو ثمانية أميال عن الاسكندرية وكان آمن من قصره السابق الذكر لبعده عن مدافع سيمور.

وبعد الحرب بمدة قصيرة قابلت سير تشارلس بريسفورد. وكان مدة الضرب يقود البارجة كوندور وعين بعد ذلك أميناً على الاسرى فى الاسكندرية فقال لى أقوالا تدل على تردد توفيق باشا اذ صرح له أحد الايام بالسبب الذى دعاه الى البقاء فى الاسكندرية مدة الحرب وهو عدم تيقنه من معرفة الفريق الغالب. فقد كان المعتقد في مصر ان البوارج سيغرقن وقد قضي يوما كاملا في قصره بالرمل

وهو فى أشد القلق والارتياب فكان يصعد من وقت الى آخر الى سطح القصر وينظر الى الاسطول لكي يطمئن على سلامته ولم يقر رأيه على أن ينضم نهائيا الى سيمور الا عند ما جاء المساء ورأى البوارج كاملة لم تنقض بينما الحصون قد أسكتت وارى هنا من اللازم ان أوضح القارئ ان اقامة بريسفورد القصيرة فى الاسكندرية قد جعلته يحتقر توفيقا أشد الاحتقار كما جعلته يعطف بعض العطف على عرابى والفلاحين الذين حاربوا على الرغم من تخلف أميرهم وعدم قيامه بواجبه.

ولكن سواء أصح هذا الذى ذكرناه أم لم يصح فان رضى توفيق باعطاء اسمه لقرار المجلس بصدد الدفاع عن البلاد الى النهاية قد صبغ الحرب صبغة شرعية بحيث لم يعد لاوامر الخديو التى أصدرها بعد ذلك مخالفة لهذا القرار — وذلك عند ما انضم الى جانب الاعداء ضد بلاده — قيمة شرعية . وعلينا نحن ان نذكر ذلك اذا أردنا أن نفهم موقف الوطنيين وقت المحاكمة وموقفهم بعد ذلك عند ما تجلى لهم غدر الخديو . فان الرأى الاسلامي عن الحرب سهل واضح . فهو يقول بانه متى نشبت الحرب فعلى الوالى والأمة ان يستمرا فيها حتى يحققا النصر أو تنزل بهما الهزيمة . واذا أسر الوالي فليس له حق اعطاء الاوامر . وليس للوالى الخائن من باب أولى هذا الحق أيضا . وكان المصريون ينظرون الى توفيق بهذا الروح حتى رده الانجليز الى مركزه وقلوب الامة نابية عنه وليس فى التواريخ الانجليزية شيء مما ذكرناه هنا بل نرى بعكس ذلك مديحا لتوفيق لولائه لانجلترا وكيفية ثباته على خدمتها دون خجل الى النهاية . وسأعود الى هذا الموضوع .

وهناك نقطة أخرى وهى تحديد المسئولية بصدد حفظ النظام وتنفيذ القانون وقت الحرب وتدبير الخطط فى هذه الحرب ومبلغ اشتراك عرابي وسائر الوطنيين فيها مدة هذين الشهرين الحافلين بالحوادث . فهذه هى الحقائق التى استطعت أن أتحقق منها .

لما تبين انه لا يمكن الامة أن تنظر الى الخديو باعتباره رئيسا للحكومة بزوال حقه في إصدار الاوامر ألف مجلس عمومي ودعى أعضاؤه للنظر فيما يجب عمله . وكان الداعون الى تأليف هذا المجلس من رجال الدين وسائر طبقات الامة أكثر

كثيراً من الداعين اليه من رجال الجيش . ولم يحضر عرابى اجتماع المجلس العمومي لانه كان غائباً مع جيشه في كفر الدوار ولم يزر القاهرة مدة الحرب أو يتدخل في إدارة الشؤون هناك . وكان المجلس حاويا لعدد كبير من الاعضاء . وكان فيه العلماء ورئيس القضاة التركي والمفتى وشيخ الاسلام ورؤساء المذاهب الأربعة وكان كبراء نواب المسلمين هناك وبينهم أربعة من أسرة الخديو آخذون بمذهب الوطنيين . ودعى اليه أيضا عدد كبير من مديرى الاقاليم وعدد كبير آخر من الاعيان وكان هناك أيضا من غير المسلمين بطريرك الاقباط وحاخام اليهود .

فكانت قرارات هـذا المجلس صحيحة من حيث أنه كان مؤلفا من أعضاء ينوبون عن جميع الطبقات والطوائف . وكان أكبر الزعماء فيه ينتمون الى أصل شركسي ولكنهم كانوا باعتبارهم مسلمين مخلصين يرون ان المسألة قد انتهت الى مأزق يضطر الأمة الى مقاتلة دولة أوربية غازية وان هذه الحالة تقتضي أن لا يضن بمجهودات أية كانت فى سبيل الذود عن البلاد بصرف النظر عن الخلافات الحزبية .

وقد قرر هذا المجلس بالاجماع ان الخديو لم يعد في مركز يسمح له بقيادة الامة وان أوامره ما دام فى أيدى الانجليز لا قيمة شرعية لها . وكان أول ما عمله توفيق في موقفه الجديد انه فصل عرابى من وظيفته وهي وزير وزارة الحربية . فقرر المجلس إبقاء عرابي فى وظيفته وأمره بأن يستمر فى الدفاع عن البلاد . وتألف مجلس دائم لكي يعاونه فى اتخاذ سبل الدفاع وكان هذا المجلس برئاسة يعقوب باشا سامي وهو رجل قدير فكان وكيلا لوزارة الحربية . وأخذ فى تهيئة أسباب التجنيد مدة الحرب ومد الجيش بالمؤن والذخائر . أما من جهة إدارة البـلاد فانه بالنسبة لغياب راغب باشا فى الاسكندرية ومعـه سائر الوزراء الذين حجزهم الخديو وحرسه الانجليزى تقرر أن تسير الوزارات على ما ألفته من الاعمال . وسار العمل على هذه الطريقة دون أن يحدث أقل اهمال لأن وزارة راغب كانت فى الحقيقة وزارة اسمية فلم يؤثر غياب الوزراء في سير الاعمال أقل تأثير . والحقيقة ان صلاحيـة الحكومة فى ذلك الوقت لأداء واجباتها كان ظاهراً كل الظهور حتى ليصح أن نقول ان مصر لم تر حكومة أصلح من الحكومة التى أدارت شؤونها وقت الحرب . فكانت وزارة

الداخلية يديرها ابراهيم بك فوزي الوكيل وكان يدير البوايس اسماعيل افندي جودت وكلا الرجلين من أهل الكفاية والدراية وقد حفظا الامن فى ذلك الوقت المضطرب في جميع أنحاء البلاد . وقد حاول اثنان أو ثلاثة من المديرين الشراكسة أن يقلدوا عمر لطفي محافظ الاسكندرية فى احداث القلاقل فى المديريات خدمة لتوفيق فقبض عليهم واعتقلوا الى نهاية الحرب . ولم يحدث بعد هــذا أى اضطراب . وقد حوفظ على الاوروبيــين الذين ظلوا فى القاهرة بعناية تامة وكان أولئك الذين يرغبون فى مغادرة البلاد يخفرون الى بورسعيد .

وليس هناك أكذب من قول لورد دفرين في مؤتمر الاستانة ان المسيحيين يذبحون كل يوم في مصر . وهكذا كانت الحال أيضاً في سائر المصالح والادارات . فلم يتعطل جبي الضرائب ولم يتعطل الصرف على المرافق العامة . ولما انتهت الحرب كانت خزانة الحكومة في حالة التوازن الواضح فلم يظهر أى عجز عند ما سلمت الى موظفى الخديو بعــد معركة التل الكبير ولم يسرق منها أى شيء ولم يظهر في دفاترها أى تلاعب وكانت المحاكم تسير سيرها الطبيعي ولم تكن هناك أى علامة تدل على ان البلاد تعيش فى أوقات شاذة . وعند ما انتهت الحرب كان في مخازن الحربية من المؤن ما يكفى الجيش أربعة أشهر استولى عليها جميعها الجنرال ولسلى .

وبقى مركز عرابي ذا صبغة سياسية فقط فكان يدير شؤون وزارة الحربية ويدير شؤون القوات الى أن وصل ولسلى الى التل الكبير فاضطر عندئذ أن يأخذ القيادة على عاتقه . وكان مقامه بين العلماء والفلاحين في الوجه البحرى من أكبر البواعث على بث الحماسة في صدور الاهالى وكانت الامدادات تتدفق لهذا السبب على وزارة الحربية مجاناً . وكان المتطوعون يتوافدون لهذا السبب أيضاً . وكان عرابى بهــذه المثابة ذا فائدة كبرى للأمة وقد أحسن صنعاً فى عدم أخذه القيادة على عاتقه فى ميادين القتال . وقد عزا أعداؤه ذلك الى جبنه ومن الصعب أن يكذب الانسان هذه الدعوى أو ينفي هذه التهمة . فان عرابي كان فلاحاً لا شائبة فيه فلم تكن فيــه تلك الغرائز الحربية التى توجد عند بعض الشعوب ولكنها غير موجودة عند الفلاحين فقــد كانت شجاعته من نوع آخر ولم تكن من النوع العسكرى ثم هو لم يشاهد

معركة حربية قبلا . والأرجح انه كان يعرف هذا النقص فى نفسه كما كان يعرف أيضاً جهله بالمعارف العلمية التى كانت تتطلبها الحروب. فهو لم يحظ بتربية حربية حديثة ولم يكن له من التجارب سوى ماعرفه من التمارين العسكرية التى تدرب عليها فى الثكنات وأظن انه لو دعى الى عمل مناورة بقصد العرض لما استطاع ذلك

ولكني أظن مع ذلك أن السبب الحقيقى فى عدم حمله عبء القيادة فى ميادين القتال انه كان فى ذلك الوقت رئيساً للحكومة وانه بهذه المثابة لم يكن ينتظر منه أن يقود الجيوش بنفسه . ومع ذلك فهذا لا يبرئه فى نظرى براءة تامة ولم يبرئه بنو وطنه كذلك فهم يلومونه بحق لأن سيفه لم يصطفق بسيف العدو ولا فى أواخر أيام القتال .

ولست أدعى معرفة تفاصيل سير القتال مدة الحرب ومع ذلك سأحاول أن أدونها هنا حسب ماعلمته من المصريين لا من الانجليز . ولسوء الحظ هرب صابونجي قبل ضرب الاسكندرية مع سائر الهاربين . وبقيت بلا أخبار حتى نهاية الحرب . وليس فى أوراق التحقيق فى محاكمة عرابي ماينير القارىء في هذا الموضوع . وجميع ما جمعته من هذه التفاصيل أخذته من الافواه بعد الحرب من أناس شاهدوها أو اشتركوا فيها ومثل هذه المعلومات تكون بالطبع غير دقيقة من حيث ضبط التواريخ والأرقام .

وكان الاوربي الوحيد الذى اشترك مع الجيش المصرى في الحرب هو الرجل السويسرى صديق الوطنية المصرية جون تينيه

وكان جون هذا فى مركز يسمح له بأن يعرف شيئاً كثيراً مما كان يجرى لأنه قضى الشهر الأول من الحرب فى كفر الدوار مع عرابى وكان يعاونه فى مكاتباته مع الاجانب وقد تحدثت عدة أحاديث الى تينيه هذا . ولكن مما يخل روايته أنه شديد التحمس للعرابيين وقد وضع كتابا فى سنة ١٨٨٤ وهو ظاهر الاهمال كثير الاستسلام للجدليات بحيث أنه لا يمكن القارىء أن يثق به كل الثقة . زد على ذلك أن تينيه لم يكن مع الجيش عند ما شرع الانجليز في حملتهم الحقيقة فانه بقى فى كفر

الدوار حين كان الجيش في التل الكبير . وما علمته عن الحرب يمكنني أن أقوله هنا باختصار .

لما ضربت الاسكندرية ثبتت المدفعية المصرية للاسطول عدة ساعات أكثر مما كان ينتظره سير سيمور أو أحد من ضباطه . وكان المصريون يعانون شدة عظيمة لقدم القلاع التي كانوا يدافعون عنها . وكانت هذه الحصون من عهد محمد على وكانت واجهاتها مبنية من الاحجار كما كانت العادة وقتئذ . ولكن الاحجار تعود بالضرر على المدافعين لانها تتفتت شظايا وتزيد قوة انفجار القنابل المعادية . ولم يدرك هذا النقص أحد حتى محمود فهمي نفسه وهو مهندس كبير فى الجيش فكثرت الاصابات بين المدافعين . وتقول الكتب الزرق أن حامية الاسكندرية كانت بين ٨٥٠٠ و ٩٥٠٠ جندي وهذا العدد يوافق على وجه التقريب ما ذكره الوطنيون . وبلغت الاصابات نحو الف بين قتيل وجريح . فاذا كانت هذه الارقام صحيحة فالنسبة في الاصابات عظيمة . وعلى كل حال فان شرف الحامية موفور وكان ثباتهم أول مادعا الى رد الفعل فى الرأي العام فى انجلترا وقد ظهرت هذه الحالة بوضوح فى الاسابيع التالية . وكان عمل عرابى في الدفاع عن الاسكندرية كسائر عمله فى الحوادث التالية غير مهم . فقد بقى مدة الضرب في دار البحرية وهي ليست بعيدة عن رأس التين فلم يكن بعيداً عن قنابل الاسطول ولكنه لم يذهب للتفتيش على الحصون الا عند ما كف الاسطول عن الضرب . وكان قد اكتفى بأن يصدر الاوامر ويتلقى الاخبار . وفي المساء ذهب الى الرمل لكي يخبر الخديو بالنتيجة وكان توفيق هناك فى قصره فاخترع لكي يخفى سروره مشاجرة سخيفة لان عرابى لم يكتب له تقريراً عن حوادث اليوم .

ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف أن عرابي لم يدرك الجهة التي كان يتجه اليها ميل الخديو والارجح انه كان يعرف ذلك فانه فى صبيحة اليوم التالى أرسل للخديو حرساً قوياً لحمايته فى الظاهر والحقيقة أنه كان يريد مراقبته وأرسل اليه أيضاً رسالة يقول له فيها أنه بما أن سيمور يهدد بتجديد الضرب فانه يدعوه الى أن يتراجع الى حيث لا تصل اليه مدافع الاسطول وأشار عليه بالفرار الى القاهرة . وكان يجب على عرابي

أن يذهب بنفسه الى توفيق ويجبره على قبول دعوته ويرفض جميع تعللاته ويحمله معه سجيناً لان مثل باى تونس كان أمامه ثم هو لم يكن يجهل مكر الخديو وانه لا يمكن الثقة بشرفه . وكان خطأ عرابي هنا قاضياً عليه والظاهر أنه كان مشغولا ذلك اليوم بمسألة جلاء الجنود عن الحصون فلم يكن عنده من الوقت متسع لزيارة الخديو مرة أخرى . وفى أصيل ذلك اليوم تمكن الخديو بارشاء العمال من السفر الى الاسكندرية فى القطار الذى كان قد أعد لنقله الى القاهرة فصار بذلك فى حماية سيمور الظاهرة . وقد حمل معه على القطار أعضاء وزارته ودرويش باشا فكان هؤلاء بذلك شركاء في الخيانة . فلما صار الجميع فى رأس التين تحرسهم قوة من البحارة الانجليز تبلغ سبعين رجلا صار الجميع فى الواقع أسرى حرب . وتمكن درويش الذي كان له يخت خاص وكان قد جاءته أوامر مستعجلة من الاستانة بالسفر اليها من أن يخرج من هـذا الاسر المهين وسافر على الرغم من الاسطول الذى حاول رجاله أن يمنعوه من السفر . أما راغب وزملاؤه الوزراء فانهم بعد أن وقعوا فى الشباك رضوا بالحالة وبقوا في رأس التين خدماً للخديو الى أن أنشئت شبه حكومة شرعية تولوا ادارتها الى حين جاءتهم الوزارة الانجليزية المحضة فقضت على سلطتهم . وكان عرابي يجهل طول هذا الوقت أنه خدع وكان أيضاً مشغول البال بنقل القوات الى خط الدفاع الآخر فى كفر الدوار .

وأظن أن اختيار هذا الموقع الحسن يعزى الى فطنة محمود فهمي المهندس فان كفر الدوار على محطة السكة الحديدية الموصلة الى القاهرة وعلى جانبيه أراض مستنقعة . ولم يكن هناك أنفع من هذه البقعة لكي تكون معسكراً جديداً للجنود فقد كانت بعيدة عن مدافع سيمور ولم يكن في وسع جيش معاد أن يقترب منها الا على طريق السكة الحديدية الضيق فكانت بذلك حصينة من جهة الاسكندرية بينما هي مفتوحة السبل من جهة الدلتا وما فيها من كنوز الذخائر والامداد . وكانت الطريق بينها وبين القاهرة واصلة . وتمكن الجيش المصرى هنـا من مقاومة الانجليز خمسة أسابيع يرد هجومهم ويطاردهم الى أبواب الاسكندرية تقريباً . ولو لم يكن هناك باب آخر للدخول الى مصر لنجح الوطنيون وكسبوا الحرب

أما عن احراق الاسكندرية فانى لم أستقر على رأى فى مقدار نصيب الجيش المصرى فيه . فقد أنكر عرابى كل الانكار أنه أمر بهذا الاحراق. واعتقادى أن مثل هذا العمل يحتاج من النشاط العظيم أكثر مما يأتلف ما درج عليه عرابى من التهاون واللين بحيث أرى من الانصاف أن نرفض هذا الرأى . ومن الواضح أنه قد اعتبر هذا الحريق ظرفا ملائما لانه لولاه لكان هناك شك كبير فى استطاعته الجلاء بجنوده الى كفر الدوار لان جيشه كان مهزوما . نعم لم تكن قوته المعنوية قد ذهبت تماما ولكنها كانت قد تذهب لو نزل الجنود الانجليز ووقفوا على السكة الحديدية لمنع التقهقر. فقد كان الانجليز يدبرون الوسائل لايقاع عرابى وجيشه فى الشرك فى الاسكندرية وربما كان سبب امتناع سيمور عن انزال الجنود للبر هو مكيدة رفع الراية البيضاء وشجاعة الجنود التى لم تكن منتظرة . وقد مكن حريق الاسكندرية عرابي من التقهقر الى كفر الدوار وأعطاه من الوقت ما استطاع به أن يرد الى جيشه قوته المعنوية .

وقد كان تينيه باسكندرية مدة ضربها وهو يعزو الحريق إلى قنابل الاسطول والارجح أن هذه هى الحقيقة . لانه لو لم يكن الاسطول سبب ذلك لما ذعر الناس وتركوا منازلهم فى اليوم الثاني عشر من الشهر . ثم لو كان الضرب مقصوراً على القلاع كما كان يدعى البحارة لما هجر الناس منازلهم اذ لم يكن ثمما يدعوهم الى ذلك. وسواء أكان الضرب حدث قصداً أم اتفاقا فان تينيه يعزو الحريق اليه . ومن المحقق أيضاً أن الحريق قد مد عمداً إلى الحي الاوربى وأن مؤخرة الجيش هي التى فعلت ذلك وكانت قد هجرت الاسكندرية فى حال غير منتظمة فأخذت فى النهب الذي كان قد شرع فيه بدو المدينة قبل هذا الوقت .

من المؤكد أيضاً أن عرابى لم يسأل سليمان باشا قائد المؤخرة ولم يحقق معه عن هذا النهب . ولست أعتبر هذه المسألة ذات قيمة أدبية لان مثل هذا العمل يعد من الاحتياطات التى يجوز لأى قائد أن يتخذها لكي يؤمن طريق تقهقره ويمنع العدو من انزال الجنود الى البر . ولكنه مهم من الوجهة التاريخية لذلك أقول أن عند وزن البيانات أجد الجيش قد اشترك فى تقهقره فى الاحراق . ولم يكن اشتراكه نتيجة

الفوضى والارتباك الناشئين عن التقهقر . ولما كانت الريح تهب بشدة في ذلك الوقت امتدت النار وما جاء نصف الليل حتى كانت المدينة لهيبا يحتدم .

ولكن كل ذلك لا يقلل مبلغ التبعة الملقاة على حكومتنا في تدمير المدينة لانه لولا سوء نظر وكلائنا فى تقدير العواقب لكان يمكن التنبؤ بكل ما وقع والاحترازمنه

ولما أرسخ الجيش أقدامه فى كفر الدوار فى ١٣ منه وقف ينتظر الحوادث . فاتخذ عرابي مركزا له إلي شرق الجيش من ناحية القاهرة ورسم محمود فهمي خطوط الدفاع وعادت بذلك الطمأنينة والثقة إلى القلوب .

أما الفارون من الاسكندرية فقد أرسلوا بالتدريج إلى داخل البلاد فاحدثوا قلاقل عديدة لأنهم كانوا فى حال شديدة من الغضب فكانوا على الدوام يرغبون فى الثأر عما لحقهم ممن يقابلونهم من الاوربيين أو المسيحيين الوطنيين . وكان فى طنطا مدير شركسى يدعى ابراهيم أدهم وكان يعرف أن الخديو وبلاطه ينظران بعين الرضى الى ما يحدث من القلاقل بين المسيحيين والمسلمين فعمل على إحداث ما أشبه أن يكون مذبحة . ولولا تداخل أحد الوطنيين ، وهو أيضاً صديق عرابي أعني به أحمد منشاوى بك الذى أخمد هذه الفتنة باتباعه من الفلاحين على الرغم من المدير لامتدت هذه المذابح إلى البلاد الاخرى . ثم قبض على المدير وأرسل إلى القاهرة فاعتقل هو واثنان آخران لم يكن يوثق بهما إلى نهاية الحرب . ثم لم تحدث قلاقل بعد ذلك .

وفى مساء ١٤ منه وصلت الى عرابي رسالة من الخديو ذكرها تينيه ولكنها لم تذكر فى الكتب الزرق . وهي وثيقة خطيرة لانه يظهر ان الذى أملاها على الخديو هو كولفن أو أحد مستشاريه الانجليز لأنها تدل على وجه النظر الانجليزية في ذلك الوقت . فهي تبتديء بذكر سبب القتال وانه انما نتج عن عدم موافقة عرابى على طلب الاسطول الانجليزى بخصوص تجريد الحصون من السلاح وان أمير الاسطول لم يكن يرغب فى الحرب مع مصر وانه يرغب الآن في إعادة العلاقات الودية مع البلاد المصرية . وأنه مستعد لان يسلم المدينة لجيش نظامي مطيع وفي حالة عدم مجيء هذا الجيش فانه يسلمها للجيش العثماني . ولكي تنقل ادارة المدينة من هذه

الحال الى الحال الجديدة فان الخديو يدعو وزير الحربية لأن يحضر اليه فى رأس التين لكي يتفاوض مع راغب باشا وسائر الوزراء فى هذا الشأن . ثم تقف الاعمال الحربية اذ لم تعد منها فائدة .

ونحن نعرف من الكتب الزرق أن هذه الدعوة انما كانت شركا يراد إيقاع عرابى فيه لكي يصير فى أسر الانجليز . وذلك لاننا نرى فى رسالة تلغرافية من كارتريت الى لورد جرانفيل ارسلت اليه فى ١٥ منه ما يأتي : « طلب الخديو من عرابي أن يحضر الى هنا فاذا أتى سيقبض عليه واذا لم يأت يعتبر عاصياً خارجا على القانون »

وهذه الحادثة تدل القارىء على مبلغ استسلام توفيق للانجليز حتى صار اللسان الناطق عن خطتهم وكيف ان الحكومة الانجليزية اتبعت طرق الحكومة العثمانية فى الغدر بالخارجين عليها . وكان جواب عرابي للخديو ان سموه هو ودرويش باشا هما اللذان حضاه على رفض طلبات سيمور وطلبا منه أن ينازله القتال اذا هو اتبع تهديداته بالعمل الحربى . وأن الواقع الراهن ان الحرب موجودة وانه لا يمكن الجيش أن يرجع الى الاسكندرية الا اذا خرج الاسطول من المياه . وأعقب ذلك أن الخديو نشر منشورات مطبوعة لكي ترسل الى المديريين وانحاء البلاد يقول فيها : بما أن عرابى قد رفض أن يسافر الى الاسكندرية لكى يتفاوض مع الوزراء فقد فصله الخديو من وزارة الحربية . وكان طبع هذه المنشورات هو الذى دعا الى عقد مجلس عمومي بالقاهرة أقر عرابي على البقاء فى مركزه كما ذكرنا آنفاً .

كان الشهر الذى تلا هذه الحوادث حافلا بالآمال فى نظر جميع المصريين ولما تخلص الأهالى من ربقة ولأيهم للخديو بانضمامه الى الانجليز أخذوا يظهرون وطنيتهم دون أن يستروها وقد تيقنوا فى ذلك الوقت أنهم يحاربون من أجل حريتهم وكان الفلاحون قد استغرقتهم الديون التى للدائنين اليونانيين عليهم فكان هذا من أسباب حماستهم لانهم توهموا أن الحرب تخلصهم من هذه الديون فصاروا يمدون الجيش بالأموال والرجال وظهر بعد ذلك بايام أن اتخاذ كفر الدوار مركزاً للجيش جاء موفقاً للوطنيين لان الجنرال اليسون حاول أن يهاجم الجيش

بعدة آلاف أنزلها الى البر فارتد مهزوماً وهكذا تعلقت الآمال باطالة الحرب مدة طويلة بهذه الطريقة وكان عرابى لايزال وزيراً للحربية ولكنه كان أهم عضو فى الحكومة وكان يتوافد اليه أعيان البلاد والعلماء والتجار وكان يقيم فى سرادق عظيم كان يملكه سعيد باشا أهدته زوجته الى عرابي عندما كان ياور زوجها وكانت نازلى هانم وبعض الامراء يظهرون اعجابهم ببطولة عرابي بهدايا عديدة يهدونها اليه .

وقد وجدت ما يلى في مذكراتى عن سنة ١٨٨٧

« زرت اليوم الأميرة نازلي وهي ماهرة بمقدار ما هي جميلة وحديثها بارع ولو وجدت في أي وسط لزانته وقد أخبرتنا عن أشياء كثيرة خاصة بعرابي وهى تعجب به وتأسف لهزيمته ولا تمل من الكلام عن نزاهة أغراضه ومما قالته أنه لم يكن جنديا حسناً لان قلبه كان أطيب من أن يساعده على ذلك . ولو كان رجلا يسطو ويعنف مثل محمد على لأخذ توفيقا مع جميع الامراء الى القلعة وقطع رؤوسهم وصار أميراً على البلاد ولو استطاع أن يجعل الخديو يسلك معه مسلك الشرف لجعله ملكا على البلاد . وكان عرابي فى رأيها أول وزير وطني جعل الأوربيين يحترمونه ويخضعون له . وكان المسلمون فى وقته يرفعون رؤوسهم ولا يمكنوا الاوربيين أن يخالفوا القوانين . قالت وقد أخبرت توفيقاً بكل هذا فان المصريين الآن يخضعون للقوانين بينما الأوربيون لا يكترثون لها . »

ولا انكر أن التملق قد أضر عرابى وأنه أثار الحسد الذي كان سيء العاقبة عند ماجاءت الازمة فان المفروض وقتئذ كان انه اذا نجح عرابي فى صد الانجليز فانه سيكون رئيس البلاد وشعر الضباط الذين كانوا حاصلين على تربية أعلى من تربيته والذين كانوا يعرفون انه فلاح ساذج وأنه سيتفوق عليهم فأغضبهم هذا الخاطر . وكان عرابى يستشعر هذا الشعور فمضى في أحلامه يتخيل ان الاقدار قد حابته وهيأت له مستقبلا عظيما وجعلته فى مركز المخلص لامته . وكان يحيط نفسه برجال الدين لانه كان مسلماً ورعاً وكانت الاوقات التى يجب عليه أن يقضيها فى تنظيم وسائل الدفاع يصرفها فى الأدعية والصلوات ويظهر انه لم ينقطع عن هذه الاعمال الى النهاية . ومن الصعب أن يعرف الانسان ما كان هيأه من التدابير الحربية . ويقول تينيه انه كان

يعتقد انه اذا طالت الحرب فان اوروبا ستضطر الى الاتفاق معه . وكان المؤتمر منعقداً فى الاستانة وكان اعضاؤه يحضون السلطان على التدخل وكان أكبر ما يخشاه السلطان من دخول الجنود التركية ان تتآخى مع الجنود المصرية عند التقاء الجيشين . وكان عرابى يعرف أن مسلمى العالم ينظرون اليه باعتباره زعيم الاسلام ونصيره وذلك لأن الحجاج الذين عادوا من الحجاز أخبروه بذلك فكان يرى انه من الصعب على السلطان أن ينضم الى انجلترا ويحاربه . ثم كان أيضاً لا تزال عنده بقية من الثقة في غلادستون وكان يعتقد ان الانجليز يحبون الحرية وأنهم سينصرونها اذا عرفوا الحقيقة وادركوا ان المصريين ثابتون على وطنيتهم. وقد كانت كل هذه أحلاماً يعذر عليها لأن غيره كان يعتقد صحتها ولنجاحه بعد حوادث الستة الاشهر السابقة .

ولما أنزل ولسلى بعض جنوده للبر ووجد خطوط كفر الدوار حصينة وعاد عنها وجد الوطنيون فى القاهرة انهم يجب عليهم تحصين مصر الشرقية من ناحية قنال السويس . فعبأ على فهمي جيشاً في القاهرة وسار به حتى احتل القناة ورسمت خطوط الدفاع في التل الكبير

ولم تكن الى ذلك الوقت قد عمل منها شيء على الرغم من التحذير الذى سبق ان أرسلته لمحمد عبده . ثم ظهر أيضاً وجوب سد القناة من الجهة الشمالية خوفاً من أن يسارع الانجليز إلى احتلالها ببوارجهم فينزلوا جنودهم فى الاسماعيلية . وكأن الرأي المتفق عليه بالاجماع بين الضباط وجوب هذا العمل ولو كان بالرغم مع شركة القناة . ولكن عرابى — وهذه هي غلطته الثانية — بقي متردداً فى هذا الشأن . وكان تردده ناشئاً عن التأثير الفرنسي فان مسيو دلسبس كان قد وصل الى الاسكندرية فى أواخر يوليو ولما علم بنية الانجليز فى استعمال القناة خاف وفزع من ذلك وسافر الى بور سعيد وجعل يناشد عرابي بشرفه أن يمنع وصول الحرب الى القناة . وكان دلسبس رجلا كثير الثقة بنفسه وكان يعتقد أن وجوده وحده يكفى لتخويف حكومتنا وكان يقول أن القناة أرض محايدة يجب ألا يقربها أحد المتحاربين . وبعد الحرب عند ما كنت مشتغلا بالدفاع عن عرابى كتبت اليه أسأله أن يرسل الىّ ما يمكنه أن يكون فى مصلحة عرابي مما يشهد هو به قياما بواجبه للتقدم والانسانية ، فارسل الىّ

صوراً من خطابات أرسلها اليه عرابي في ذلك الحين ولكنه لم يرسل الى النسخ الاصلية (وقد نشرتها فى ملحق الكتاب) ومن هذه الخطابات يتبين للقارىء أن عرابى قد ضلل به .

وبعد مكاتبات أولية تجد عرابى يوضح رأيه فى هذا الشأن. فقد كان في القناة عدة بوارج بين الاسماعيلية والسويس بقيادة الاميرال هيوث وكتب دلسبس يشكو من أنهم ينشرون منشورات بين سكان شاطيء القناة .

وقد رد عرابي على دلسبس فى هذا الشأن فأنكر حق الاميرال هيوث فى اذاعة هذه المنشورات وقال انه أرسل هذا الرد بناء على اشارة المجلس وأنه موافق على رغبة دلسبس فى حيدة القناة « وخاصة لأنها من الاعمال العظمى التى سيعيش اسم سعادتكم فى التاريخ لانكم قمتم باتمامها . ولي الشرف أن أخبركم بأن الحكومة المصرية لن تنتهك حرمة هذه الحيدة الا في الحالة القصوى وفى حالة ارتكاب الانجليز أعمالا عدائية فى الاسماعيلية أو بور سعيد أو أي نقطة أخرى من القناة . »

والمبدأ هنا واضح ولكن نقطة الضعف تنحصر فى انتظار عرابى لان يبتدئ الاعداء بارتكاب الاعتداء بدلا من ان يتقدمهم هو ويقطع عليهم طريق الاعتداء .

ومع كل ذلك فان تينيه يؤكد ان الاستعدادات كانت قد تمت سراً لسد القناة في نقطة معينة بين الاسماعيلية وبورسعيد . وقد أثبت لى هذا الخبر آخرون . ولم تذهب هذه الفرصة سدى ويفشل المشروع الا لان عرابى كان يكره جداً ان يمضى على هذا الامر مع رغبة جميع اعضاء المجلس فيه. وعند ماوصل الاسطول الانجليزى الى بورسعيد يحمل ولسلي وجيشه أرسل دلسبس الى عرابي خطاباً كله ادعاء وقد ذكر تينيه نصه كما يلى :

« لا تحاول أى محاولة في سد قناتى . فاني هنا . فلا تخش شيئاً من هذه الناحية . فانهم لن يستطيعوا انزال جندى انجليزى حتى يكون الى جانبه جندي فرنسي آخر . وانا مسئول عن كل شيء »

وكان هذا الخطاب سبباً في عقد مجلس آخر في كفر الدوار اجمع جميع الاعضاء فيه سوى عرابي وحده على عدم اعتبار رسالة دلسبس ووجوب سد القناة

ولكن عرابى كان الى هذا الوقت منخدعا بكلام دلسبس عن ارسال جنود فرنسية. ومع انه أعطيت أوامر فى مساء تلك الليلة بتخريب القناة تخريباً « مؤقتاً » فان الوقت الذى صرف فى المناقشة عن هذا الموضوع كان قد أضاع الفرصة وتمكن ولسلى من الدخول الى القناة ببوارجه . وضعف عرابي فى هذه المسألة هو أكبر لطخة على شهرته الحربية كما انه أيضاً يسمه بطابع العجز السياسى . وقد قال ولسلى بعد ذلك عند ما كان البرلمان يتناقش في مسألة حفر قناة بين انجلترا وفرنسا : « لو ان عرابي سد القناة كما كان ينوى ذلك لكنا الآن لا نزال فى البحر نحاصر مصر . فان تأخر عرابى ٢٤ ساعة نجانا »

وكان احتلال ولسلى للاسماعيلية فى ٢١ اغسطس ومن هذا الوقت صار الدفاع عن مصر أمراً ميئوساً منه من الوجهة العملية ولو ان القتال لم يكن نزهة للانجليز كما ادعى بعضهم ذلك . وكان الجيش الانجليزى يربى على ثلاثين ألف جندى ربما لم يكونوا ذوى قيمة كبرى اذا أتيح لهم أن يقفوا فى وجه جيش أوروبى منظم ولكنهم كانوا يكفون لهزيمة جيوش عرابي القليلة فان كافة الجنود فى كفر الدوار لم يكونوا يزيدون على ثمانية آلاف جندي نظامي ولم تكن مدافعهم تزيد على ثمانين مدفعاً من مدافع كروب . ولم يكن الجيش المصرى بأجمعه يزيد عن ١٣٠٠٠ رجل أما المجاهدون الجدد فلم يكونوا لاثقين للخدمة العسكرية فلم ينتفع بهم الجيش الا فى الاعمال اليدوية فى الخنادق . فلم يجد ولسلي عناء كبيراً أمامه عند ما أنزل جنوده الى البروليس بينه وبين القاهرة سوى خطوط التل الكبير التى لم تكن قد تمت بعد. ولكن المكتب السرى للجيش الانجليزي أراد ان يزيد تأكده وطمأنينته فاتخذ الاحتياطات السرية التى الفت استعمالها الجيوش المتحاربة في الحروب الحديثة وان كانت تنكرها على الدوام . ومن العدل ان أدون ما فعله الجيش الانجليزى فقد وقعت فى يدى تفصيلات أهم حادثة من هذا النوع . أنكر كتابنا الانجليز ان تقدم ولسلى كان يعزى الى حد كبير لمثل هذه الشؤون فهاك الآن ما يثبته .

كانت وزارة الحربية ووزارة البحرية في انجلترا قد عقدتا النية منذ أوائل السنة أن يكون الهجوم على مصر من ناحية قناة السويس وتقرر في أواسط يونيو

أن تمهد السبل لذلك بالرشوة بين بدو الشرق . وكان الفضل فى اقتراح هذه الخطة يعود الى لورد نورثبروك الذى كان يفتخر بنجاحه فى هذا الصدد وقد كان من اكبر أسباب افتخاره أنه بنى خطته على ملحوظة فلتت منى ولم اكن أدرى وقتئذ ان أحداً يستغل حديثى لمحاربة أصدقائى . فقد كنت فى ربيع سنة ١٨٨١ فى الصحراء الشرقية للقناة وكنت قد تعرفت ببعض مشايخ الطياحة والترابين وكانوا يقاسون ذل الاسر في بيت المقدس ولكي أغرى سفارتنا في الاستانة بالسعي فى فك أسرهم قلت ان هؤلاء المشايخ قد يؤدون لنا بعض الخدمات اذا كانوا على صفاء مع انجلترا . وعرف لورد نورثبروك بهذه القصة فتذكرها فى هذه الازمة المصرية واستغل اسمى بعد أن أضاف اليه الذهب فى استخدام هؤلاء البدو ضد عرابي .

ولم يكن فى انجلترا في ذلك الوقت من يعرف العربية وكان من الصعب وجود من يمكن ارساله للقيام بهذه المهمة . فاستدعى لورد نورثبروك أستاذ اللغات الشرقية في كامبردج وهو ادوارد بالمر وكان عارفاً للغة العربية ممتازاً فيها وكان يعرف أيضاً البقعة التي يعيش فيها أولئك البدو لانه كان فيما سبق عضوا فى بعثة استكشاف فلسطين . وكان فى ذلك الوقت يعيش فى لندن فى حالة املاق يستعين بالصحافة على شؤون العيش وقد زاد عسره زواجه الحديث . فلما كان يوم ٢٤ يونيو جاءته دعوى الى المكتب السرى لكي يزور لورد نورثبروك ويتناول معه طعام الفطور وهناك عرض عليه أن يقوم برشو هؤلاء البدو فلم يتمالك من القبول فورا اذ عرض عليه ٥٠٠ جنيه للمصاريف الابتدائية ووعده بالمكافأة فى حالة النجاح . وقبل سفره أى فى ٢٦ منه جاء وزارنى وقال لى أنه مسافر الى الاسكندرية لكي يكون مكاتباً لصحيفة ذي ستاندارد وطلب مني أن اكتب له خطابات التقدمة اليهم لكي يتعرف بهم وانه يعطف على الحركة وسينصرها فى رسائله على الدوام.

وكان قوله هذا بمثابة الغطاء يخفى به عمله الحقيقي الذي كان مسافراً لأجله فاجبت طلبه وأنا متوجس منه لأني شعرت بان لهجته لم تكن صادقة فكتبت له بعض خطابات تقدمة لصابونجى وغيره ولكننى أعتقد انى لم اعطه خطابا لعرابى

وكان البرنامج الذى وضعته وزارة البحرية لبالمر هو ان يذهب أولا الى

الاسكندرية لكي يتفاوض مع الاميرال سيمور ثم يذهب من هناك توا الى يافا فيتخذ اللباس الشرقي ويذهب الى الصحراء الواقعة فى الجنوب الغربي من غزة ثم يتعرف بقبيلتى الطياحة والترابين اللتين كنت أدافع عنهما منذ ١٨ شهراً وأنا بفلسطين . وقد كتب هو مذكراته وطبع بعضها وهي كبيرة الفائدة لنا من حيث انها تنبئنا عن الوسائل التى توسل بها للوصول الى غرضه . فهو يشير فيها الى التفصيلات الخاصة بالاتفاق بينه وبين لورد نورثبروك . ثم يصف بعد ذلك نزوله في يخت الاميرال سيمور فى الاسكندرية حيث أمر هناك بأن يسافر فى الحال الى الصحراء لكي يشرع فى عمله . وقد أعطاه الاميرال « مسدساً وبندقية وعدة خرطوشات » ويرى ان الاميرال هناك « ينتظر الحرب فى أقرب فرصة وقد تقع غداً » ثم يقول :

« اني مسرور لأن الحرب ستقع . فانى وان كنت سأبقى مدة بعيداً عن بلادي سأستفيد منها فائدة كبيرة وسأكون عاملا من عوامل الانتصار لبلادى... وقد قال لي أمير البحر انه يهنئ الوطن لأنه اهتدى الى رجل قادر مثلى لكي يقوم بهذه المهمة الشاقة »

ويقول بالمر انه رأى سير اوكلاند الوكيل السياسى ثم يقول بعد ذلك فى مذكراته ان أمير البحر أخبره بأنه سيضرب الاسكندرية قريباً . ثم يذهب بعدذلك وهو فى أشد الطرب والزهو الى يافا على احدى سفن أمير البحر يخفق فوق رأسه العلم البريطاني ومعه بحاران « لكى يحملا البندقية والمسدس »

فاذا وصل الي يافا نزل عند القنصل البريطانى شابيرا اليهودى . والقنصل يرسل ابنه معه الى غزة لكي يهيء له رحلته في الصحراء . ويجد هنا بدويا يسافر معه. ويشترى عندئذ لباساً عربيا وسائر ما يحتاج اليه . ثم يشكو من الحر ومشاق الرحلة ولكنه يعزى نفسه ويمنيها بالمكافأة الجسيمة في المستقبل . وفي الخامس عشر قبيل قيامه بالرحلة يسمع سراً عن ضرب الاسكندرية . فيقرر الذهاب الى السويس ويكتب في طلب زورق لكي يأخذه الى مكان مأمون .

وفى السادس عشر يلتقى ببعض افراد من قبيلة الترابين وهاك مايقول : « كانوا

يظهرون فضولا كبيراً يريدون معرفتي ومقاصدي . فقال لهم البدوى الذي معي إني ضابط سورى مسافر الى مصر . وكنت بالطبع مرتديا ملابس العرب المتحضرين وقد علمت عنهم أكثر مما عرفوا عني . وانا الآن أعرف مشايخ الصحراء واما كنهم وقد اتفقت مع الطياحة وهم أكثر البدوشجاعة وأقواهم على ان يؤدوا الى كل ماأطلبه منهم . وعند ما أعود سيكون في استطاعتى ان أضم الى منهم أربعين ألف رجل . وقد كان من حسن حظى انى عرفت هذه القبيلة . ومهمتى الآن تسير سيراً حسناً وأنا في أشد الاشتياق لتسلم الاوامر من السويس ولمعرفة ما اذا كانت جنودنا قد نزلت الى البر . ولم أكن أنتظر كل ما وجدته هنا . وأظن اننا قد أصابنا الحظ ونلنا الثروة » ثم يقول في الثامن عشر :

« كابدت اليوم أمراً عظيما . فقد التقيت بكبير شيوخ العرب . ولكنى جعلته يقبل آرائي »

ثم يقول في ١٩ يوليو : « إنى أتعجب من نجاحي . فقد ضممت الي رجالا حاول عرابي عبثاً ان يستميلهم الى صفه . وعند ما تتطلب الحاجة سينضم الى لوائى جميع البدو من غزة الى السويس ... ولست أعرف بالطبع ما حدث فى مصر منذ مغادرتى لها سوى ان الاسكندرية قد ضربت كما أخبرنى أمير البحر بأن هذا الامر سيقع حالا . ولكن العرب يقولون لى ان الحزب العسكرى لا يزال مسلحاً . وعلى هذا أظن ان جنودنا قد نزلت الى البر »

ويقول فى العشرين : « هذا الشيخ هو شقيق سليمان وهو الذي يضمن عدم اعتداء العرب على ركب الحج الذى يسافر من مصر الى مكة . فهو اذن خير من اعتمد عليه . فقد أقسم لى قسما عربيا رهيباً أنه يستطيع اذا أردت أن يضمن سلامة القناة ضد عرابى نفسه وهو يقول لى إنى اذا قدرت على تخليص ثلاثة من المشايخ من السجن فهو يضمن انضمام جميع العرب لنا . وأنا أؤمل ان أخلص هؤلاء الثلاثة بواسطة سفيرنا في الاستانة »

ويقول فى ٢١ منه : « أنا فى اشتياق للذهاب الى السويس لأني قد انتهيت من الاعمال الابتدائية . فاذا تسلمت الاوامر فاني أتفق مع العرب فى أسبوعين أو

ثلاثة وأنتهى من كل شيء . أما البدو الآن فسيبقون فى سكينة ولن ينضموا الى عرابي ولكنهم سينتظرون كلمتى لكي يعملوا ما أشير عليهم به . وهم يعتبرون عبد الله افندى (كما يسمونني) رجلا عظيما »

وفي ٢٢ يقول : قال لى بدوي جاء حديثاً من مصر ان عرابى قد أحضر الى القناة ٢٠٠٠ خيال من بدو النيل . ولكنهم سيرجعون عند ما يصلون الى السويس واذا لم تجد الوسائل السلمية فانى سأرسل لهم عشرة آلاف من الطياحة والترابين لكي يطردوهم . وقد انضم الى بدوى آخر وهو الذى يمد ركب الحج بالجمال ووعدت كبير المشايخ بخمسمائة جنيه فهو لذلك لا يحجم عن عمل اى شيء آخر لاجلى . أنا فى أشد السرور لان الحرب قد وقعت بالفعل . وصار على الآن أن أقوم بواجبي العظيم وأنا متأكد من النجاح . وسأعرف قريباً ما يجب أن أعمله . وقد قال لى لورد نورثبروك أن يعطيني ٥٠٠ جنيها عند السفر وأما عن المفاوضات فسيتفقون معى اتفاقا آخر . وسأقتصد هذا الشهر على الأقل ٢٨٠ جنيهاً وهو ربح لا بأس به من عمل شهر واحد . ولا أظنهم يعطونى أقل من ألفين أو ثلاثة آلاف جنيه للقيام بالمهمة بأكملها . . . »

ثم يقول فى ٢٦ منه : « وجدت انه من الممكن أن نحصل على السفن من السويس وسأسافر غداً وأرجو أن أكون على ظهر سفينة بعد أربعة أو خمسة أيام . لقد نجحت نجاحاً يبرر لى ان أطلب من الحكومة مبلغاً آخر وسأقول انى صرفت كل مامعي في الهدايا . وبضعة مئات من الجنيهات ليست شيئاً يذكر فى نظر الحكومة ولكنها ذات قيمة كبرى لمثلي . وسأرسل الى زوجتى نحو مائة جنيه عند اول وصولى للسويس . لقد دفعت كثيراً ولكن لا يزال معي ٣٠٠ جنيه بعد نفقات سفرى الى السويس . وهذا أفضل من الشغل فى الصحافة بمرتب ٣٠٠ جنيه فى الشهر . . . أكلت اليوم الخبز والملح مع العرب الى حماية كل منا الآخر الى الموت »

وفي ٢٨ منه يقول: « انضم الى مشايخ الحويطات . وقد نجحت نجاحاً باهراً وقد قعدت فى القمر أنشد الشعر العربي لهؤلاء البدو حتى تعلقوا بي »

وفى اول اغسطس يصل بالمر الى السويس فيقول : «أنا الآن على ظهر احدى سفن شركات الملاحة الانجليزية . وقد تسلمت خطابك (من زوجته) . أما كيفية وصولي الى السفينة فاني سرت بعيداً عن السويس فى الليل ثم نزلت الى السفينة فى نصف الليل . وقد كلفنى هذا العمل عشرة جنيهات ولكني نجوت من الحرس المصرى . وستأتى الجيوش يوم الخميس أى بعد غد . . . كنت عند امير البحر منذ وقت قصير . وقد سر بنتيجة عملي وارسل تلغرافا الى لورد نوثبروك . وكان قد أمر بأن تخصص ثلاث سفن لمراقبة الشاطئ من أجلي . ولكنى وصلت الى السفينة وحدى »

وفي ٢ اغسطس يقول : « ذهبت الى الصحراء ثانياً وسأبقى فيها يومين اذ كلفت بأن أقلع أسلاك التلغراف وأحرق الأعمدة حتى تنقطع المواصلات بين عرابي وتركيا . وصل الكابتن جل امس الى بورسعيد وسيصل الينا هذا الصباح . كان امس يوما مشهوداً . زرت جميع ربابنة البوارج وكانوا يرحبون بي ويستقبلونني أحسن استقبال وكانوا يلحون على فى أن أشرب معهم الشمبانيا المثلجة وفى المساء أولم أمير البحر وليمة تكريماً لى ! وكانت الوليمة فخمة ولم أعد الى سفينتى الا فى الساعة الاولى صباحا »

وفى ٤ اغسطس يقول «أمرت يوم الاثنين بأن أرافق ضابط القوة للاستيلاء على السويس فنزلنا ومعنا خمسمائة رجل وثلاثة مدافع . وفرت الجنود المصرية فلم نقاتل . وكنت فى أول الزوارق التى وصلت الى الشاطيء ثم أمرنا المحافظ بأن يسلمنا المدينة وخمسين الف جنيه كانت لديه ففعل . . . أمس الأول ارسل لورد نورثبروك رسالة لامير البحر يهنئنى فيها بسلامة وصولى ويقول انى قد عينت رئيساً للتراجمة فى جيوش جلالة الملك فى مصر . وصرت بذلك فى هيئة أركان الحرب التى يرأسها أمير البحر . وانا هنا (فى السويس) فى الفندق أعيش على حساب الحكومة معيشة فخمة ولا أتناول الطعام الا مع أميرالبحر . وبعد غد سأذهب الى الاسماعيلية فى زورق مجهز بالمدافع وقد قال لى أمير البحر فى السويس « لا تدع الاميرال هناك يحجزك عنده لانك انت هنا مقيداسمك بين رجال بارجتي . ويشتغل الآن تحت رياستى

نحو اربعين شخصا . وقال لى امير البحر منذ ايام انه متأكد من أني سأمنح وسام الشجاعة ونجم الهند . وهم لا يرغبون فى ذهابي الى الصحراء الآن لانهم يريدون ان ابقى معهم . . . وانا الآن احد ضباط الحملة ولذلك أرانى مزهواً زهواً كبيراً وسيصل غداً الألاي ٧٢ وسأبحث لرجاله عن جمال . أما الأجرة فستكون حسب قرارى ولكني لم أقررها للآن »

ثم بعد ذلك نري هذه الجملة العجيبة وهي لب هذه المذكرات : «وضع الكابتن جل فى يدى عشرين الف جنيه لاوزعها بين العرب »

واما ما بقي من هذه المذكرات فاحلام وأمان ففي ٦ اغسطس يقول : « فى السويس ... سأقوم غداً الى الصحراء لمشترى الجمال . وسيذهب معى الكابتن جل وملازم أمير البحر ولن نخشى أى خطر ... كأني الآن فى حلم . وقال لى أمير البحر بما اني أفضل أن تقرر الحكومة مرتبي فيمكنني قبل قرارها هذا أن أسحب ما أريد من الأموال لنفقاتى الشخصية وعلى هذا سأرسل اليك (لزوجته) خمسمائة جنيه عند رجوعى . ويمكننى أن أفعل ذلك الآن ولكني لا أريد أن يظهر على العسر . فقد بقي لى بعد جميع نفقاتي ٢٦٠ جنيها واليوم دفع لى عشرون الف جنيه ولى أن أتصرف بهذا المبلغ كيفما شئت . وأنا الذى أعطي الجوازات للحرس. واذا رأيت اثنتى عشر فرساً فاني اشتريها دون مساومة . وأمس رأيت ثلاثين جملا فاعطي صاحبها ٣٦٠ جنيه ثمنا لها بمجرد ان كتبت هذا المبلغ على قطعة ورق . والليلة أترجم أقوال المحافظ الذى كان يتناول العشاء مع أمير البحر . وعندى الآن خدم وكتبة ومترجمون يطيعون أوامرى والخلاصة أنى في مركز لم اكن أحلم به . ونحن هنا آمنون فى خنادقنا والعدو على بعد ثمانين ميلا منا وغدا ستأتينا الجيوش الهندية . وبديهي أننا فى حرب ولكنى بما أني فى هيئة أركان الحرب فاني لست أخشى أى خطر . وأمير البحر رجل ظريف وقد قيل لى أنه لا ينسى ضباطه ويحب على الدوام أن يرقيهم وقد قال لى اني استحق وسام نجم الهند »

وهذا آخر ما كتبه بالمر فى هذه المذكرات التى تثير الاحساس . فقد خرج فى اليوم التالي بصحبة جل وتشارنجتون الى النخل فى الصحراء الشرقية وكان الغرض

من خروجهم قطع التلغراف الواصل بين مصر وسوريا وقد أخذمعهم لهذا الغرض صندوقا مملوءاً بالديناميت وكانت مهمة بالمر الظاهرة شراء الجمال وكان الجميع مرتدين ملابس عربية . ولكن كانت مع كل منهم كسوة حربية لكي يلبسوها عندما يكونون بين القبائل الموالية لهم تكبيراً لشأنهم . وكان المبلغ الذى أخذوه معهم من العشرين الألف جنيه التي أعطيت لبالمر يتراوح تقديره بين ٣٠٠٠ و ٨٠٠٠ جنيه وكان جل قد صرح بعدم موافقته على خروجهم فى هذه المهمة فانه طلب أن يأخذ المبلغ كله ليوزعه بين العرب كما كان الاتفاق بينهم وبين بالمر ولكن أمير البحر عارض فى ذلك .

وكان الفشل مقدراً لهم . فان الحرس المؤلف من البدو الذين ساروا معهم عرفوا وجود المال معهم . وكان هؤلاء العرب من قبيلتى الحوايات والحويطات وكان المال مخصصاً للطياحة . فرغب الحرس في المال ويظهر أنهم كانوا متواطئين مع حاكم النخل (وهى بلدة واقعة بين السويس والعقبة) على أخذ المال وقتلهم

فما هو أن ساروا بضعة أميال حتى هوجموا وأوثقوا وسلبوا ما معهم ثم ضربوا بالرصاص على حافة وهدة فى وادي صدر . وهكذا انتهت آمال بالمر المسكين . وكانت الكارثة من الفداحة بحيث سئلت عنها أسئلة فى البرلمان ووقف ذلك الرجل سير هنرى كامبل بانرمان وكان وقتئذ وكيل وزارة فكان يجيب على الاسئلة وينكر المهمة السرية التى كانت موكولة الى بالمر ورفقائه ويقول أنهم لم يخرجوا الا بغية شراء الجمال .

وليست مذكرات بالمر بالبينة الوحيدة . فان الكابتن جل قد ترك أيضا مذكراته وهي تثبت هذه الحقائق . فان مهمته فى غربي القناة كانت لا تختلف عن مهمة بالمر فى شرقيها . وتبتدىء هذه المذكرات فى الاسكندرية وهو يقول فيها أنه ذهب لمقابلة سير فريدريك جولسميد وأنه يأمل أن يكون بين البدو فى غرب القناة بعد قليل من الوقت . ثم يقول أنه أخذ من الخديو قائمة مكتوبة بخط يده عن أشهر المشايخ بين القناة والارض المزروعة ويذكر منهم اثنين وهما سعود الطحاوى في الصالحية ومحمد البغلى (البقلي ؟) فى وادي طوميلات . وكان يعتقد أن البدو ينظرون للانضمام الى الجانب الذى يوافق مصالحهم . وفى بورسعيد يقابل المحافظ المعزول

فيخبره هذا بانه يمكن شراء البدو بجنيهين أو بثلاثة جنيهات الواحد . وفى ٤ منه يقول انه قرأ تقرير بالمر لسير سيمور . ثم يقول : « لو انى كنت عرفت أن التقرير سيرسل رأساً الى سير سيمور لكنت سألت هو سكنز عما اذا كانت لديه النقود اللازمة لبالمر » ثم يقول :

« يقول بالمر انه يستطيع أن يشتري خمسين الف بدو بخمسة وعشرين الف جنيه وسألح في اعطائه هذا المبلغ »

ثم يذكر تقريراً له يقول فيه أنه لا يمكن سد القناة الا من نقطة معينة يذكرها وذلك لقلة وجود الاحجار فى الاماكن الأخرى وصعوبة اغراق السفن بدونها ثم يذكر دلسبس فيقول انه يستطيع الحاق الاذى بالقناة لأن جميع الكراكات والزوارق التي تحت تصرف الشركة هي فى الحقيقة تحت تصرفه . وفى ٥ أغسطس يذهب جل الى القناة ويصل الى السويس ومعه ضابط آخر ومعها عشرون الف جنيه ذهباً لكى يعطياها لبالمر . وعندما يكون فى الاسماعيلية يقابل مستر بيكارد فيناقشه في أحسن الوسائل لتدمير التلغرافات . ثم يذكر ان أحسن الطرق ثلاث . وهي : (١) تدميرها قريباً من الشاطيء في العريش وكلاهما يعتقد أن هذه طريقة خطرة . و (٢) تدميرها عند جسر القنطرة ولكن يعترض على هذا العمل بانه يخالف حيدة القناة . و (٣) من السويس وهذه ميسورة . ويظهر أنه لا يثق ببيكارد فيقرر أنه يذهب الى السويس ليقطع خطوط التلغراف بنفسه .

وفى ٦ أغسطس يذكر سروره لانه تخلص من مبلغ العشرين ألف جنيه اذ سلمها لبالمر . ثم يذكر أنه سيذهب مع بالمر لمقابلة المشايخ في النخل ثم يقول انه بعد أن يذهب معه سيرى مبلغ آمال بالمر التى عقدها على هؤلاء البدو وهل حالة البدو تبرر هذه الآمال .

فهاتان الوثيقتان أى مذكرات جل ومذكرات بالمر تثبتان كل الاثبات استعمال الرشوة قبيل معركة التل الكبير .

وقد كنت متصلا بهذه المسائل بعيد حدوثها . وذلك لأن عائلتى بالمر وجل طلبتا الى أن أطالب الحكومة بالاعتراف بخدمتهما القتلى ومكافأة عائلتيهما . وبعد

أن أنكرت الحكومة البواعث التى أدت الى قتلهما جعلت صهرى لورد ونتورث يطالب الحكومة بايضاح هذه المسألة . وكانت مطالبته هذه سبباً فى تغيظ اللوردة من حزب الحكومة ووقف لورد جرانفيل ولورد نورثبروك ينكران أشد الانكار أن الحكومة حاولت أن ترشو البدو . ومن العجب أنني ذهبت الى لورد سالزبرى وطلبت اليه أن يساعدني فى الاعتراف بخدمة هؤلاء القتلى ومكافأة عائلاتهم فقال لى أنه يوافق على أن ينكر الوزراء جميع ما عمل فى المصالح السرية . ولكنه مع ذلك أمكن لورد ونتورث من شرح المسألة بينما غيره كان يعارض فى ذلك .

ولكن مع كل ذلك لم تكن أعمال بالمر وجل ذات قيمة كبرى لولسلى فانما المساعدة الحقيقية للجيش الانجليزى جاءت على يد الخديو . فانه أغرى سعودا الطحاوى من مشايخ العربان بخيانة عرابى وكان هو الوحيد الذى نجح في خيانته أو ثبت على الخيانة . وكان سعود قد أخذ مكافأة على هذه الخيانة مبلغ خمسة آلاف كرون نمسوي . وكان دائباً على الخيانة منذ انتقال الجيش من كفر الدوار الى التل الكبير . وكان سعود من سادة العرب وكان على شئ من الذكاء ولكن اختلاطه بدلسبس والفرنسيين الذين كانوا في القناة على بعد يوم من خيامه أتلفه كما هو المعتاد اذا اختلط العربى بالافرنجى وحاول أن يمثل دور الجنتلمان . فكان يخالطهم ويصيد الغزلان معهم . وعندى ما يشبه أن يكون اقرارا منه بانه كان جاسوساً للانجليز فى جيش عرابي فاني مررت بالصالحية في سنة ١٨٨٧ فنزلت فى خيمه . فلما عرف أني انجليزى وكان بالطبع يجهل ميولى السياسية أخذ يتكلم عن اعماله فى الحرب فلم يترك عندى مجالا للشك . فقد كان يشتغل عند عرابى ويقوم لجيشه بالاستطلاع فكان رجاله يروحون ويغدون من مخيم الى آخر . ولم يكن فى عمله ما يتغير منه لأن البدوي ينظر الى المصرى والتركي والافرنجي باعتبارهم جميعاً أجانب ليس لأحدهم عليه ولاء . وانما هو يخدم الجميع بمقدار ما يستفيد منهم . وليس للبدو النازلين فى شرقي النيل الا القليل من الاحساس الديني بحيث لا يمتنعون لذلك من خدمة الكفار اذا وجدوا فى ذلك مصلحة لهم . زد على ذلك أنه لم يكن قط حب بين الفلاحين والبدو .

ولكن أكبر ما عاد بالاذى على عرابي وعجل انتصار ولسلي هو ما فعله بعض المبعوثين المستخفين فى القاهرة والتل الكبير من ارشاء ضباطه بالمال والوعود بالترقية بحيث خلع هؤلاء الضباط ولاءهم له .

ولم يفعل ذلك ولسلى أو أحد من رجال المصلحة السرية الانجليزية وانما الذى فعل ذلك هو الخديو لانه كان يعرف من يمكنه أن يعول عليهم أكثر من الانجليز وربما كان الانجليز هم الذين قدموا للخديو المال اللازم . وكان أنشط وأذكى الذين وكل اليهم هذا العمل ياوره عثمان بك رفعت الذى كان يعرف عوامل الغيرة بين الضباط وميول كل منهم . وكان يوضح للضباط الذين هم من أصل شركسى عدم فائدة انضمامهم للعرابيين وعدم فائدة المقاومة لان الخديو سيفوز في النهاية ويكافيء من ينضم اليه من الآن ويعاقب من يعمل خلاف ذلك

وكان الانجليز وولسلى يخدمون الخديو وكان السلطان الذى أعلن ان عرابى ثائر وكان على وشك ارسال الجنود يفعل فعلهم . وكانت أقوال عثمان رفعت ذات وزن واعتبار فى نظر الضباط الشراكسة أما السفلة من الضباط المصريين فان الاموال أغوتهم . وكان عرابى على الرغم من ان الجنود والضباط كانوا يحبونه قد ألقى الغيرة والحسد في قلوب بعض كبار الضباط الذين كانوا يرون أنهم يفضلونه في قيادة الجيش ومما زاد استياءهم تلكؤه فى مسألة سد القناة . فان ثقتهم فيه زالت من وقت أن نزل الانجليز من القناة ولم يردهم الفرنسيون الذين كان عرابي يعتمد على وعودهم فى ردهم فلم يعد العدة لملاقاتهم عند شاطيء القناة . اما مع زعماء الوطنيين من غير الجنود فقد كان للخديو وكيل آخر هو سلطان باشا الذى كان زعيم الفلاحين قبلا ثم انقلب عليهم وانضم الى الانجليز ولم يعد يخجل من بذر بذور الشقاق بين الوطنيين الذين كانوا لا يزالون متعلقين بوطنهم وقد يعجب الجيل الجديد من المصريين ويتساءل عن السبب الذى جعل رجلا شريفا يبتدىء الحياة بالوطنية الحارة ثم ينتهي بالهبوط الى ذلك الدرك . وتفسير ذلك هو ما يلي :

كان سلطان باشا رجلا ذا كبرياء له ثروة واسعة وجاه عريض وكان له

صدر المكان في أى اجتماع يعقد وكان يسمى ملك الوجه القبلى بين كبار الملاك وكان يرى أن من حقه لهذا السبب زعامة الفلاحين .

وكان ينظر الى عرابي نظرة الرعاية التى يتعطف بها الكبير على الصغير وكان يرى فيه أداة لتحقيق أغراضه ولكنه لم يكن يتوقع ان عرابي سيأخذ مكانه بين الجمهور . ولما ألفت وزارة سنة ١٨٨١ ولم يكن وزيراً بها اغتاظ من ذلك ولكن كانت له بعض التعزية اذ عين رئيساً للبرلمان الجديد . واغتاظ أيضاً عند ما ألفت الوزارة الثانية في سنة ١٨٨٢ ولم يكن عضواً فيها فشعر ان الوطنيين لا يعطونه حقه من الاحترام فانحدر الى الجانب الآخر . ثم جاء الاسطول الى الاسكندرية فأخذ مالت فى إغرائه ثم فى تخويفه حتى صرح بأنه يرضى باجابة مطالب الانجليز ثم انضم نهائياً الى حزب الخديو فليس فى انحدار سلطان كما انه ليس فى انحدار الخديو شيء يستعصي على الفهم فقد صارت المسألة فى نظره عناداً بعد ان كانت طموحا الي منصب ثم مما خفف عن نفسه خزى الضمير ما وعد به من أن تدخل الانجليز لا يقصد به سوى إعادة الحالة على ما كانت عليه قبل وزارة محمود سامى وأن مصر ستبقى دستورية كما هى . وبناء على ذلك أرسل لجميع أصدقائه العديدين خطابات يقول لهم فيها ان التحالف الموجود بين الخديو والانجليز هو تحالف مؤقت وستخرج الانجليز من مصر عند ما ترجع للخديو سلطته وان عرابي قد فقد ثقة السلطان وان الاستمرار على المقاومة فى القاهرة لم يعد مجديا والمسلمون يستنكرونه . وقد كان لهذه الخطابات التى وزعت بعناية أثر كبير وكان للاموال ايضاً أثر آخر . ويظهر ان سلطان وكان يقدم هذه الاموال من جيبه الخاص لا من اموال الحكومة المصرية التى قررت بعد الحرب منح سلطان مبلغ عشرة آلاف جنيه بحجة انها تعويضات لما ناله من الخسائر مدة الحرب ومنح أيضاً لقب سير من الحكومة الانجليزية . والاغلب على الظن ان ما صرفه سلطان لهذه الاغراض لم يكن كبيراً لانه كان بعد الوعود لبعض الضباط « ولم يف بها بعد ذلك » فلهذا كان هذا المبلغ اكبر مما صرفه ومهما كان كل ذلك فاننا يمكننا ان نقول ان الخديو قد مهد طريق النصر لولسلى (١)

---

(١) أجد هذا في مذكراتي عن سنة ١٨٨٧ « ١٣ فبراير — زارني عبدالسلام

وكان الجيش يستطيع على الرغم من هذه الدسائس أن يطيل مدة الدفاع لولا سوء الحظ الذى لازمه مدة الحرب . فانه عند ما عرف ان الانجليز سيهجمون من الشرق ذهب محمود فهمي المهندس القدير وكان من أكبر أعوان عرابى الى التل الكبير وأخذ برسم خطوط الدفاع التي لم يكن له من الوقت مايكفى لاتمامها . وذلك انه عند ما كان يشتغل فى تخطيطها وقع فى أسر الانجليز في يد جماعة من حرس الجيش الانجليزى . وكيفية ذلك ان محمود فهمي كان قد خرج عند المساء ومعه ياوره فقط وكان قد خلع ملابسه الحربيــة للحر الشديد وصعد على ربوة لـكي يستطلع الصحراء الواقعة بينه وبين الاسماعيلية . فانقضت عليه جماعة الحرس الانجليزى هذا وأسرته في الجانب الآخر من وادى الطميلات . ولما لم يكن في ملابسه الحربيــة احتار الملازم تالبوت في كيفية معاملته وكاد يقبل أقواله من انه افندى يملك بعض الارض في تلك الجهــة وكاد يطلق سبيله لهذا السبب ولكنه أمسكه وأخذه الى مضارب الجيش الانجليزى حيث عرفت أهميته . والواقع ان أسره هذا كان ذا أهميــة عظمى وكان نكبة لا يمكن تقديرها على الجيش المصرى فى التل الكبير (١)

وكانت النكبة الاخرى ما أصاب قائدين من أحسن قواد عرابى في القصاصين

المويلحي فقال انه كان صديقاً حميا لسلطان وانه كان من حزبه وقد تشاجر مع عرابى ولكنهم أسفون على انشقاقهم عنه الآن وقال انه لم يوافق على سلوك سلطان مدة الحرب . وان سلطاناً قد خدعه ماليت ووعده ببقاء البرلمــان بعد الحرب . وأراد سلطان ان يحصــل على وعد كتابي من ماليت بذلك ولكن الخديو طلب اليــه ان يكتفى بالوعد الشفهى ولما عرف سلطان هذه الخديعة بعد الحرب أسف كل الاسف ومات وهو يتحسر ويطلب ان يغفر له عرابي فعلته والايذكره الناس بخيانة الوطن. وكان سبب مشاجرته مع عرابى حسده له لانه صار وزيراً دونه »

(١) ان ماحكيته هنا عن محمود فهمى قد قاله هو لي بنفسه . وقد روى غــيري روايات أخرى عن كيفية أسره وقال بعضهم انه انضم الى الجيش الانجليزي ولكن من يعرف محمود فهمي لا يصدق هذا

وهما على فهمي صديق عرابي المجرب وراشد باشا وكان كلاهما جنديا مجربا وكانا من الشجعان الذين قد جربا الحرب قبلا . وهما أول من قام بالهجوم على جيش ولسلي فى القصاصين . وكان ما أصابهما شر ما نزل بالجيش المصرى في جهوده وفى صد الانجليز .

ويقول الرواة المصريون ان العدو كان قد فوجئ وبقيت الحرب سجالا بين الفريقين وكاد الدوق كنوت أن يقع أسيراً . ولو كان هذا الدوق أسر وصمد الجيش المصرى لاعدائه لكان الأرجح ان المصريين حصلوا على الصلح واعترفت انجلترا بالحالة الجديدة لان الرأي العام كان فى ذلك الوقت قد تحول وصار الناس يخجلون من محاربة فلاحين يقاتلون من أجل حريتهم ورد المظالم عن أنفسهم .

ولكن كان يتخلل تدبيراتهما أى على فهمي وراشد باشا) نقصان . فان هذه التدبيرات كانت تقضي بان يزحف محمود باشا سامي بالفي جندى فى الصباح ويهاجم الانجليز من الميمنة . فقابله فى الليل رجال سعود وأضلوه عن الطريق فلم يصل فى الميعاد . ثم أن عرابى لو كان جنديا له سليقة الحرب لانضم اليهما ووقف الى صفهما ولو في مؤخرة الجيش مع الاحتياطي ان لم يقف في المقدمة . ولكنه لعدم فعله ذلك لم تظهر فى الميدان جميع قوة الجيش التى كان يجب استخدامها . وأصيب هذان القائدان بجروح منعتهما من مباشرة الحرب . ثم من المؤكد أيضاً أن أحد القواد المصريين وهو على بك يوسف قد خان الجيش .

فكان الجيش المصرى لهذه العوامل فى ارتباك هائل في التل الكبير وقد بدت بوادر الخاتمة المحزنة . فان عرابى فقد أحسن قواده ولم يعرف أحداً يقوم مقامهم . وكان الذين يثق بهم قليلين ولم يكونوا من أهل الكفاية . وكان هناك رجل ربما كان يمكنه أن يسير بالدفاع على نحو ما وهو عبد العال حلمى ولكنه لعلة غير واضحة بقى بعيدا عن الميدان.

وكان عبد العال هذا أحد « الضباط الثلاثة » وكان من أشجع ضباط الجيش وكان قبلا معيناً فى الدفاع عن دمياط توقعاً لنزول الانجليز هناك وكان معه عدد كبير من أفضل الجنود وبخاصة تلك الفرقة السودانية التي كانت فرقته الأصلية .

ولو أن هؤلاء الجنود أحضروا الى التل الكبير مع قائدهم لكانوا على الاقل نجوا الجيش من وصمة العار لانهم كانوا فى حماسة حارة ولم تكسر قلوبهم هزيمة سابقة ولكن يظهر أن اللجنة أبقته فى دمياط اعتقاداً بان هذه البلدة لا تزال تحتاج حامية اذ لم تقرر تعيين عبد العال خلفاً لعلى فهمي .

وقد جال بخاطري بعض الاحيان أن يعقوب سامي رئيس لجنة الحرب مع ماسبق له من الخدمات فى تهيئة أمر الدفاع قد أغراه بعد ذلك وكلاء الخديو . فانه كان مسلما من أصل يونانى ولذلك كان من حزب الحكام السادة وعندى وثائق تدل على أنه بينما كان يظهر كأنه ساعد عرابى الايمن اذا به رجل الخديوى الذي يعتمد عليه ويظهر أن الخديو كان ينظر اليه هذه النظرة ويعده من رجاله ولذلك عومل بشدة بعد الحرب . وكان أحد الباشوات السبعة الذين نفوا الى سيلان . وقدأظهر خضوعا وندماً فى المحاكمة وجعل يدافع عن ولائه للخديو. وهذه الوثائق تثبت حده لعرابى وغيرته منه . فمن الممكن اذن أن يكون قد اجتهد بعد اصابة على فهمي فى عزل عرابي ابتغاء التعجيل فى هزيمته فى التل الكبير ولم يرسل اليه عبدالعال لهذا السبب . وقد أعطيت القيادة لرجل طيب ولكنه غيرقادر على القيام بأعبائها هو على باشا روبي أحد رفقاء عرابى القدماء ولكن لم يكن له صفة أخرى تجعله صالحا للقيادة .

اما عرابى فانه على الرغم من قرب هجوم الانجليز فقد بقى فى خيام يحوطها الاعيان ورجال الدين الذين كان يقضي وقته معهم في الصلاة والذكر . وكان يعتمد على سعود الطحاوى لكي ينبئه بتقدم ولسلى . وكان سعود يغشه ويطمنه وكان جيش التل الكبير فى غاية التفكك فان الجنود المنظمة لم يكونوا يزيدون على ستة آلاف او سبعة آلاف وكان معهم نحو الف خيال ومثل هذا العدد من المدافع وكان رجال الطوبجية يعرفون حرفتهم . وهذا هو كل القوة التى كان يمكن الاعتماد عليها . أما ما عدا هؤلاء فكانوا جماعة من المجندين الجدد الذين لم يدربوا وأجسادهم تكاد تكون عارية وكانوا من الفلاحين السذج يشتغلون بجد فى حفر الخنادق ولكن لم تكن لهم قيمة حربية . وربما كان عددهم يبلغ عشرين الفاً ولكن ليس عندى احصاء صحيح عنهم . وكانوا يكدون ليل نهار فى اتمام حفر الخنادق ولكن كان هذا فقط

كل ما استطاعوا أن يعملوه . وقد قال ستون باشا الاميركي بعد الحرب انه يعتقد أنه لم يطلق واحد من جميع هؤلاء خرطوشة واحدة والارجح أنه مصيب فى اعتقادة.

وجاءت الخاتمة فجأة فى فجر يوم ١٣ سبتمبر . فقد كتب الكتاب الحربيون الانجليز قصصاً خيالية عن تقدم الجيش الانجليزى سراً فى الليل تحت جنح الظلام يهتدي بالنجوم وبهداية ضابط من البحارة حتى خرج من المحسمة ووصل الى التل الكبير حتى لا يتوهم القاري، انه كان يتحسس طريقة في الظلام لا يدرى الى أين يقاد . ولكن الواقع خلاف ذلك . كان جواسيس العرب والبدو الذين أشرت اليهم يدلونه علي الطريق . وكان اثنان من صغار الضباط فى جيش عرابى قد ارتشيا من الخديو قبلا على يد وكلائه وكانا فى مركزين مهمين . واسم كل من هـذين الضابطين يجب أن يدون تخليداً لعارهما وفضيحتهما . فاولهما هو عبد الرحمن بك حسن قائد الحرس الراكب وكان في مقدمة الجيش مع فرقته خارج الخطوط وكانت الصحراء من جهة الشرق مكشوفة أمامه . ففي تلك الليلة المعهودة نقل رجاله الى جهة بعيدة نحو يسار الجيش حتى يصير طريق الهجوم خالياً أمام الانجليز . وأما الثانى فهو الذى سبق أن ذكرته واسمه على بك يوسف الذى كان على قيـادة خطوط الخنادق المتوسطة . وكانت هذه الخطوط لاتعوق سير المدفعية . وظهر من التحريات بعد ذلك ومن أقوال عرابى أن هذا المخلوق لم يكتف باخلاء مراكزه بل وضع المصابيح لكي يهتدى بها جيش الانجليز . وقد ذكرت لى أسماء أخرى لمن خانوا بلادهم ولكني لعدم ثقتى بالرواة أوثر عدم ذكرهم . أما هذان الاثنان فان خيانتهم قد اشتهرت فى القاهرة مدة سنوات لانهما لم يخفيا فعلتهما وخاصة على بك يوسف الذى كان دائب الشكوى من قلة المكافأة التى كوفىء بها على خيانة وطنه

فقد دفع له الف جنيها قبل المعركة وكان قد وعد بعشرة آلاف جنيها بعـد المعركة ولـكن الحكومة لم تدفع له سوى معاش شهرى قدره ١٢ جنيها مدة حياته .

وكان عرابى وسائر الجيش قد باتوا تلك الليلة مطمئنين لان سعود الطحاوى كان قد غشهم وخدعهم . فبات هؤلاء المساكين فى خنادقهم ووراءهم عرابي على بعد ميل منهم واذا بجيوش العدو تنصب عليهم فاخترق الانجليز الخنادق من أما كنها

الضعيفة وفى مؤخرتهم المدافع تصب النار ففر جميع المجندين الجدد دون أن يطلقوا طلقة واحدة وكانوا في حالة تشبه العري وقد أضناهم حفر الخنادق ورموا بنادقهم وهرعوا يعدون والمدافع تحصدهم وكانوا لجهلهم بكيفية التسليم يظهرون كأنهم لا يزالون يحاربون فكانت الحرب أشبه شيء بمجزرة وحدث كل هذا فى القلب وفى الميمنة . أما فى الميسرة فقد صمد محمد عبيد وكانت المدفعية المصرية تجيد الضرب هنا وهناك ولكن كل هذا لم يستغرق بالارجح أكثر من أربعين دقيقة . ووقع محمد عبيد فى هذا الدفاع الشريف ووقع معه اكثر رجال المدفعية الذين صمدوا للقتال ولكن لم تمض ساعة حتى انتهي القتال وصار الجيش الوطني خليطا مشتتاً .

أما عن الدور الذى مثله عرابي فى هـذا الصباح المشئوم فاني أرويه نقلا عن بيان خادمه محمد سيداحمد الذى كان خادمي منذ سنة ١٨٨٨ مدة سنتين وهذا فضلا عما رواه لى عرابي نفسه بعد ذلك .

فقد كان سيداحمد هذا يروي لى هذه الحوادث عدة مرات وكان يقول لى ان الجيش كان مستغرقا فى النوم تلك الليلة لان الطلائع كانت قد روت ان الانجليز لم يتحركوا . وكانت خيام عرابى تبعد عن الخطوط نحو ميل لكنها كانت تقريباً فى وسط خيام الجيش .

وكان عرابى مطمئناً كسائر الجنود قد خلع ملابسه وذهب الى فراشه ونام نوماً عميقا ولم يستيقظ أحد الا على زئير المدافع . فلبس عرابي في الحال كسوته الحربية وامتطي جواده وذهب الي خط النار وكان معه خادمه هذا وآخرون . ولم يذهبوا بعيداً حتى قابلهم جمهور من الفارين يقولون انهم قد خسروا المعركة وكان العرب البدو الذين ينتمون الى الخائن سعود الطحاوى يركضون خيولهم هنا وهناك فيزيدون الارتباك . فجعل عرابى يحض الجنود على الثبات وصار يتقدم بهم الى الامام فى ناحية محمد عبيد الذى كان لايزال صامداً للانجليز ولكن أمواج الفارين ردته الى الوراء وجعل خادمه سيداحمد هذا يرجوه ان يفر وينجو . فامتثل عرابي أخيراً الى هذه النصيحة. ولم يكن الخادم يعرف ان واجب مولاه ان يصمد ويموت في مكانه فى ميدان القتال وكان يفتخر بأنه استطاع ان يجعل مولاه يسمع نصيحته.

وكان كلاهما ممتطياً جواداً كريماً قد أهديا اليهما من بدو الفيوم الغربية . فوصلا الى محطة التل الكبير قبل وصول الانجليز بدقائق ولم يتمكنا من أخذ القطار . ولكنهما عبرا الجسر المقام على القناة قبل أن يقفل ولما صارا على الضفة الاخرى وجد نفسيهما فى وادي الطميلات فسارا الى بلبيس ركضاً . ولم يكن معهما أحد لان الارتباك الذى نال الجيش فصل عرابى من أركان حربه . وكان كل هم عرابي أن يصل الي القاهرة قبل وصول خبر الهزيمة حتى يهيئ وسائل الدفاع عن عاصمة البلاد . فأخذ القطار فى بلبيس ووصلا الى القاهرة بعيد الظهر .

(وقد سمعت مثل هذه الرواية من مصطفى بك طبيب الجيش رواها لها فى سنة ١٨٨٤ وكان ليلة معركة التل الكبير نائماً فى خيمة قريبة من خيمة عرابي وفي ملحق هذا الكتاب رواية عرابي نفسه)

ويظهر أنه عند وصول عرابى الى القاهرة كانت لا تزال برأسه آمال عن الاستمرار فى الدفاع عن المدينة . فذهب تواً الى قصر النيل وانضم الى لجنة الحرب التى عقدت اجتماعا وكان القرار الذى انتهت اليه اللجنة عبارة عن تسوية تقتضى الخضوع للخديو من جهة والدفاع عن القاهرة أيضاً من جهة أخرى . ولم يفعلوا اكثر من ذلك الى اليوم التالى عند ما وصلت الجنود الهندية بقيادة درورى لو الى العباسية والحقيقة أن وكلاء الخديو كانوا قد كسروا قلوب الوطنيين بدسائسهم كما أن اعلان السلطان بان عرابي ثائر كان قد فت فى عضد الوطنيين . ولم يكن يقول بالدفاع في هذا الوقت سوى رعاع الشوارع وكانوا يجهلون كل شيء . وكان فى المدينة حامية من المجندين الجدد وكان فى مقدورهم أن يثبتوا فى القلعة ويحموها ولكنهم لو فعلوا ذلك لدمر الانجليز المدينة . ولم يكن أحد مستعداً لذلك ولذلك قررت لجنة الحرب أن تسلمه فى الحال مفاتيح القلعة التي طلبها . وكان عرابي قد قضى الليلة السابقة مع جون تينيه وهما فى قلق ومناقشة فنصح له تينيه بالتسليم فذهب الى القائد الانجليزى في الصباح وسلم سيفه واستأسر

(هذا واني أجد فى مذكراتي في سنة ١٨٨٤ انه فى ٢٩ اكتوبر جاءنى الاميران المصريان عثمان وكامل وكانا يتكلمان بحماسة وطنية عن الحرب وقالا لي أشياء كثيرة

فيما قاله عثمان أنه لم يكن هناك وقت الحرب لأنه كان سمينا ولكنه كان يعطف على القضية الوطنية وقد سلك سلوكا شريفاً بعد الانتهاء. وكان كامل عضواً فى الحكومة المؤقتة وكان يرى عرابي كثيراً وشهد بوطنيته ولكنه لامه على تهاونه. فقال انه كان يجب عليه أن يضرب على يوسف بالرصاص بعد القصاصين لانه قد عرف تماما أنه خائن وقد أخذ قبل المعركة خمسة آلاف جنيه. وحدث أنه كان يوجد ١٨ الف جندى مصرى ليس أمامهم سوى ٢٥٠٠ جندي انجليزى بقيادة الدوق كنوت نعم ان على يوسف الذى كان فى القلب حمل على الانجليز ولكنه ترك ميدان القتال فاختل نظام الجيش. وكان معظم هذه الرشوة التى رشاه بها الانجليز زائفة بها كمية كبيرة من الرصاص وبعد المعركة امتلأت القاهرة بهذه النقود الزائفة فاشترتها الحكومة بسعر القطعة عشرة أو خمسة فرنكات.

وكانت الحوالات البريدية أيضاً مزورة ولكن على يوسف ألح في أن تكون حوالته موقعاً عليها من شخص يعرفه. وكانت النقود التى ارتشى بها عبد الغفار انجليزية زائفة فأخذت زوجته بعضاًمنها وذهبت به الى زوجة اسماعيل جودت لكى تستبدل بها نقوداً أخرى. وكسر الامير كمال بعض هذه النقود فوجد فى داخلها رصاصاً. اما البدو فلم ينخدعوا فان الخائن سعود الطحاوى لم يقبل سوى الريالات الفضية تسلمها من أحد قواد الانجليز كما أخبر الامير كمال بذلك بعد الحرب. فكانت المسألة فضيحة من جميع النواحي وكان كمال قد أمر بأن يذهب الى التل الكبير للقبض على علي يوسف ولكن الهزيمة فى التل الكبير حالت دون ذلك. فيظهر من ذلك ان جميع من كان حول عرابى قد خانوه بعضهم حباً في المال وبعضهم حسداً. وكان محمود سامى يحسد عرابى وقد أضاع الفرصة فى القصاصين لانه لم يكن قائد الجيش بدلا من عرابى.

فقد كان عليه أن يتقدم من الصالحية ويحافظ على ميعاده مع على فهمي الذى كان جنديا شريفاً قادراً بينما كان غيره لا قيمة لهم. وكان عرابي يمنع الاتراك من القيادة وفى الوقت نفسه لم يكن يجد من الفلاحين سوى غير الاكفاء. وكان محمود سامي هو التركي الوحيد الامين ولكنه آثر شخصه على مصلحة البلاد. وكان الامير كامل

حاضراً في مجلس الحرب في قصر النيل عند ما وصل عرابي وأخبر الاعضاء بهزيمة الجيش وهو يبكي أحر بكاء . وقد قال انه حارب حتى لم يبق سواه . وليس هذا صحيحاً . فوبخه الامير كامل وقال له : « ان من يغامر بعمل عظيم يجب عليه أن يحسب حساب الخسارة »

(وقد قال لى الامير كامل ان عرابي لم يكن جديراً بأن يتولى القيادة العامة. فلو انه ضرب بالرصاص أو شنق ستة أشخاص في أدوار الحرب الاولى لسار كل شيء سيراً حسناً . ومما قاله أيضاً ان ما يقال من ان الجيش الانجليزى كان فى هذه الحرب يسير سير المتنزه عار عن الصحة .

(وقال لى محمد سيداحمد انه كان حول عرابي نحو ألف جندى ذبحوا جميعاً قبلما يترك ميدان القتال . ولكني لا أعلق أهمية على صحة هذه الرواية أو كذبها وبخاصة من حيث العدد . والمظنون ان القتلى والجرحى من المصريين قد بلغوا نحو عشرة آلاف . وأكثرهم كانوا قتلى لان الانجليز لم يستعملوا أقل هوادة . ولكني مع كل ما ذكرته لا أضمن صحة هذه الارقام. وعلى كل حال ففى التل الكبير أكوام من عظام القتلى وهم شهادة ناطقة على ما جرى فى المعركة)

الفصل السابع عشر

محاكمة عرابى

لما كانت هذه الحوادث تجرى فى مصر كنت أنا أقضى الصيف في كرابت والحزن يقطع نياط قلبي . وكانت كل عواطفى بالطبع مع المصريين ولو ان جميع أسباب المكاتبات بيني وبينهم قد قطعت . وكانت حمى الحرب فى الاسابيع الاولى من القتال عظيمة بدرجة لا تدع أية منفعة من كلامي. فصمت امام الجمهور واستعددت لان أقدم دفاعى عن موقفي ازاء المسألة المصرية . ومما كان يذكر ضدى ما ذكرته شركة روتر من ان عرابي قد فتح دارى القريبة من القاهرة ووجد فيها سبعة عشر صندوقا مملوءة بالبنادق ووجد أيضاً مدفعاً نحاسياً من النوع الذى يحمل على ظهر

اليخوت والحقيقة في ذلك هي انه لم تكن ثمة الا سبع عشرة بندقية وهـذا المدفع وكنت قد اعددت ذلك لاهـديه الى ابن رشيد فى حائل . وكانت هذه الاشياء فى منزلي فسمع بها بعض ولاة الامور فنقلوها الى القلعة . ولم أحصل على معلومات عن هذه الاشياء للارتباك الذى أعقب الحرب الا ما أشيع فى لندن من ان مدفعى النحاس قد عدمن غنائم الحرب وانه حمل الى وزارة البحرية لكي يعرض على انظار الجمهور . وبعد الحرب بعشر سنوات كنت أتناول الغداء مع ابن عمي لوردوينددهام فى القلعة في القاهرة . وبعد الغداء أخذنى لكي يرينى أسلحة دار الصنعة فرأيت هنالك مدفعى وسائر أسلحتى . ولما كان الصـندوق الذى يحوى البنادق لا يزال اسمي عليه فانى استعطت ان أسترد جميع هذه الاسلحة .

وكنت مدة الحرب مكروهاً في دوائر الحكومة ولكن علاقتى كانت لا تزال متصلة بدار رئيس الوزارة . وكنت أقابل هاملتون وقد عرضت عليه دفاعى الذى نشرته فى مجلة القرن التاسع عشر فى وقت كانت أوشكت ان تذهب فيه حماسة الحرب وتنطفئ جـذوتها وكان المفكرون من الامة أخـذوا يتساءلون عن السبب والغاية من الحرب . وكانت مقالتى تستند فى الدفاع الى العاطفة أكثر من العقل . وكانت نتيجتها أكبر مما انتظرت فان سيرلوسون ومستر سيموركي وغيرهما من الاحرار أخذوا يطوفون البلاد يدعون الى وقف الحرب وصار في البلاد شبه رأى عام يقاوم الحكومة فى هذه الحرب . فتشجعت من ذلك . وحوالى ذلك الوقت أيضاً تسلمت خطاباً من الجنرال غوردون مؤرخاً بتاريخ ٣ أغسطس وكان وقتئذ فى مدينة الكاب وقد صرح لى فيه بعطفه على القضية التى كنت أدافع عنها وهذا نصه :

مدينة الكاب فى ٣ أغسطس سنة ١٨٨٢

عزيزى مستر بلنت

انك تقول في التيمس إنك ستنشر بيانا عن المكاتبات التى دارت بينـك وبين الحكومة فأرجو أن ترسل لى نسخة من هذه المكاتبات. فقد كتبت أنا مسودة كتاب عن الحوادث التي جرت بين بعثة كيف وبين ارتقاء شريف منصب الوزارة وسأسميه « اسرائيل فى مصر » وسأتبعه بأخر اسميه « سفر الخروج » ولا أعرف

اذا كنت سأطبع هذا الكتاب لانه ليس من الصواب ان يشمت الانسان بأعدائه. أعني بذلك الاعداء الرسميين .

ما أبلغ الدمار والخراب اللذين جرهما ماليت وكولفن بل ما أوخم عواقب سياسة التكتم التي جرى عليها دلاك وكولفن وماليت . فقد فر دلاك من إجابة الاسئلة التى ألقيت عليه فى البرلمان بدعوى المصالح الانجليزية . فياله من شقى انني اعتقد تمام الاعتقاد انه لايدري عن خطته أكثر مما يدري بواب وزارة الخارجية. وهل كان يمكن أنتكون خواتيم الامور أسوأ مما هي الآن لو انه صرح بكل شيء؟ كلا . إذ ما هي النتيجة الراهنة ؟ زوال المراقبة وزوال الموظفين الذين يتناولون في العام ٣٧٣ ألفجنيه وزوال نفوذ القناصل وزوال توفيق وزوال الربا وخراب مدينة الاسكندرية وفوق ذلك أمة تكرهنا . وسيذهب كولفن الى الهند وماليت الى الصين ولن نسمع عنها شيئاً . وكل هذا لأن القناصل والمراقبين لا يرغبون في ان يناقش أعيان البلاد الحكومة عن الميزانية فى وزارة شريف . وأماعن عرابي فمهما حدث لشخصه فانه سيعيش فى قلب الامة الى الابد : ولن تكون هذه الامة « خادمتكم المطيعة » مرة أخرى .

واقبل تحيات المخلص لك (ك. ج.غوردون)

وقد رأيت فى الحال أهمية هذا الخطاب لأني وان كنت فى ذلك الوقت مكروها فى الدوائر الحكومية الا ان اسم غردون كان ذا قيمة كبرى عند الجمهور وبخاصة عند ذلك الجمهور الذى بدأ يعضدني فاعتمدت على هذا الخطاب لكي أشرع في مكاتبات جديدة مع هاملتون . وكان مستر غلادستون قد قال فى البرلمان عنى اني « من الشاذين السيئين » الذين لايعرفون مصر فارسلت اليه عن سبيل هاملتون نسخة من خطاب غردون لى ثم لفت نظره الى ما ذكرته الجرائد من روايات الفظائع التى كان يرتكبها توفيق هو ووزراؤه الشركس مع المعتقلين الوطنيين . فقد روى أن محمود فهمي القائد المهندس قد عذب وان السياط وسائر آلات التعذيب قد استعملت بلا رحمة . فسألت أنا مستر غلادستون عما اذا كانت الجيوش الانجليزية قد ارسلت لمصر لهذا الغرض. وجاءني رد سريع وقد أفادنى بعد ذلك عندما طلبت

ألا يترك عرابي تحت رحمة الخديو حتى يقضي عليه بالهلاك بلا محاكمة .

وهاك نص هذا الخطاب :

« ١٠ شارع دوننج سبريت — هويتول »

٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« لا أظن أني فى حاجة لان أخبرك أن القلق قد ساور مستر غلادستون بصدد ما أشيع من ارتكاب الفظائع مع الوطنيين فى مصر . وقد أرسلت فى الحال تعليمات للبحث عن حقيقة هذه الفظائع ومع الاشارة بالاحتجاج على ولاة الامور اذا كانت قد وقعت فعلا . وانه ليسرنى أن أخبرك بأن ما لدينا من الحقائق ينفي وقوع هذه الفظائع المزعومة وقد أعطيت أوامر شديدة بأن يعامل الوطنيون معاملة المروءة والانسانية .

ويظهر أن هناك بعض الريبة فى ارتكاب التعذيب مع أحد الجواسيس ولكن التحقيقات تجرى الآن والضمانات تؤخذ لمنع تكرار التعذيب . وكن على يقين بان مستر غلادستون سيستنكر « الفظائع المصرية » ويندد بها كما ندد بالفظائع البلغارية

« ولست أتمالك من أن أذكرك بأن رأيك أو رأى غوردون الصيني عن عرابي سيتغير عند ما تقرأ الوثائق التى قرأنها ».

« فمنذ أشهر قليلة (وهذا خبر لا يجب أن يفشي) قمنا ببعض التحريات عن غوردون فانه قد عرض علينا بعض مقترحات بارلندا وكانت نتيجة هذه التحريات أنه ظهر لنا ان عقله لم يكن سليما »

وكانت هذه الجملة الأخيرة غريبة فان السبب الذى جعل حكومة مستر غلادستون تعتبر أن عقل غوردون لم يكن سليما هو أن غوردون كان قد ساح في غربى ارلندا وأرسل وقت سياحته الى أحد أعضاء الحكومة وهو لورد نورثبروك يقدم له مقترحات عن رد الاراضي للارلنديين بالثمن وأيضاً يقترح الحكومة الذاتية لهم .

وكان هذا الخطاب فاتحة علاقات حسنة بيني وبين دار رئيس الوزراء وصار لى بعض النفوذ عقب انتصار الجنود الانجليزية فى التل الكبير وأسر عرابى . وكانت نتيجة انتصار الجنود تغييراً هائلا وتحولا فى رأي الجمهور . فكان من حسن الحظ

أنى استطعت أن أقول كلمة منذ أسبوعين لأني لو لم أقل هـذه الكلمة فى ذلك الوقت لما سمع بعد ذلك أحد صوتي فى جلبـة النصر . وكانت نتيجه هـذا الفوز أيضاً أن بررت الحكومة جميع أعمالها السابقة وقسي مستر غلادستون من ناحية الوطنيين . وكان هناك خطر من أن يلجأ غلادستون لتبرير ذبح الفلاحين أمام ضميره الى تضحية عرابى نفسه . وكان عذره الوحيد فيما ارتكب من الفظائع الحربية ماسبق ان أغرى به نفسه من أنه يعامل فى شخص عرابي رجـلا مجرماً مقحاماً غير جدير بالاحترام الذى هو من حق الوطنيين كما لا يمكن اعتباره قائد جيش متمدين .

ولدى ما يجعلنى اعتقد أنه لو كان عرابي قد وقع أسيراً فى يد ولسلى فى التل الكبير لأعدمه في الحال ولولا تدخل سير جون أديو وهو قائد اكبر سناً من ولسلى واكثر تجارب لضربه بالرصاص أيضاً فى القاهرة عند القبض عليه ولكن سير جون أديو أظهر لولسلى العار العظيم الذى يلحق بالجيش الانجليزى اذا كان قائد قوة منظمة قد احتاجت الحكومة الانجليزية الى تعبئة ثلاثين الف جندي لقهره لا يعامل المعاملة الشريفة التي هي من حق أسير الحرب . ثم أن برايت قد صرح لمستر غلادستون برأيه وهو فى أشد الغيظ عن هذا الموضوع وطلب معاملة عرابي معاملة حسنة . ويجب أن نعتقد أن قوة الرأى العام وحـدها هي التى جعلت الحكومة تحجم عن تضحية عرابى كفارة عن اغلاطها وكان مستر غلادستون ولورد غرانفيل وسائر اللوردة الاحرار فى الوزارة مصممين على ذلك . ولكي أبين الاسباب التي جعلتهم يعمدون الى الوسائل الانسانية فى معاملة الوطنيين يجب أن أذكر التفصيلات الآتية :

فقد أعلن تسليم القاهرة وأسر عرابي فى جريدة التيمس فى يوم ١٦ منه وفى هذا اليوم أيضاً أرسل موبرلى بل مكاتب التيمس في الاسكندرية تلغرافاً لجريدته يطلب فيه التنكيل بعرابي وعشرة آخرين من زعماء الوطنيين . وأدركت من هذا ان النية سيئة بل فى غاية السوء وأرسلت فى الحال تلغرافا الى باتون أسأله عن رأى الدوائر الرسمية . وكان جوابه الاول مطمئنا يقول فيه :

« ليس هناك في ظني أقل خوف من أن يضرب أحد بالرصاص . ولكن يجب عليك مع ذلك ان تطلب معاملتهم بالرأفة »

ولكن بعد ذلك بساعتين أرسل لى التلغراف التالى :

« ان لهجة الدوائر الرسمية بصدد أصدقائك لا تطمئن فاكتب لى خطابا استطيع أن أريه لرئيسي »

وكان يقصد بهذا الرئيس تشنرى رئيس تحرير جريدة التيمس وكانت علاقته به حسنة جداً . فكتبت فى الحال الى هاملتون اقول :

« لا أظن أن هناك أى خطر من وجهة اعدام أحد من الوطنيين في القاهرة ولكن اذا كان يوجد هذا الخطر فانا آمل أن تخبرني فى الوقت الملائم لأن لى بعض مقترحات بخصوص محاكمتهم محاكمة عادلة وبخصوص مسائل أخرى »

ومما هو ذو دلالة انى لم أتسلم رداً على هذه الرسالة مدة يومين وبعد ذلك جاءنى رد يقول ان هاملتون على وشك أن يسافر الى الارياف وعلى ذلك فلا يمكننى أن أعتمد عليه .

ولكني لم يسقط فى يدى لهذا السبب فاني كتبت رأساً الى مستر غلادستون وقد فعلت هذا بعد أن استشرت باتون وبرودلي وهذا الاخير قابلته فى منزله بعد ظهر يوم ١٩ منه وقررنا أن يكون برودلى المحامى عن عرابى وسائر المعتقلين السياسين . وكان باتون الذى يعرف دخائل المسائل يرى أن الوقت لا يتسع للارجاء والتسويف واتفقنا مع برودلى على الدفاع بمبلغ ٣٠٠ جنيه ثم زاد هذا المبلغ الى ثمانمائة جنيه وهذا غير ما كان يدفع له في تأجيل القضايا . وفى أثناء ذلك خدمنا باتون خدمة كبيرة بأن تمكن من أن يجعل جريدة التيمس تعلن بأن عرابى ورفاقه لن يعدموا الا برضى الحكومة الانجليزية وانه سيدافع عنهم محامون قادرون . ولم يكن عندنا ما يدعم هذا الخبر ولكن بما أن التيمس قد أعلنته فان الحكومة وجدت من الصعب أن ترجع عن خطة الانسانية التى أذعناها عنها ونسبناها اليها .

وهاك خطابى الى مستر غلادستون

١٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢

سيدي العزيز

أما وقد انتهى المصريون من مقاومتهم الحربية وبما أن عرابى وسائر الزعماء

قد سلموا أنفسهم لقوات جلالة الملكة فاني أتجرأ على مخاطبتكم لمصلحة العدالة ولمصلحة أولئك الذين ألقت بهم مقادير الحرب فى أيديكم .

والظاهر أن النية معقودة على تأليف محكمة عسكرية لمحاكمة الزعماء العسكريين للثورة للبحث عن علاقتهم ببعض الاعمال العنيفة التى ارتكبوها . وستساعد المحكمة العسكرية محكمة مدنيـة فى هذه التحقيقات . فاذا كانت هذه هي النية المعقودة فانى أرجوكم أن تعتبروا الظروف التالية لانها جديرة بنظركم وعنايتكم .

١ — اذا كان أعضاء المحكمة العسكرية المقترح تأليفها مصريين يعينهم الخديو فانهم لن يكونوا أحراراً فى حكمهم وسينتخبون من الضباط الذين كانوا من حزب الخديو فيكونون لذلك مغرضين .

٢ — واذا لم يحصل ذلك فيجب أن تذكروا أن شهود الزور كثيرون في مصر وتزوير الوثائق العربية سهل فلذلك لايمكن الاعتماد على مثل هذه الشهادات. فيجب اذن وجود خبراء لفحص هذه الشهادات قبل قبولها .

٣ — واذا كانت البينات مما يساعد المعتقلين فلايمكن مثبتها أن يقولها الا وهو خائف . فنفسه تغريه بالا يقدم مثل هذه البينات بينما يغري البلاط الشهود بان يقدموا بينات تضر بالمعتقلين . واذا كان الخبراء وطنيين فسيكونون معرضين لجميع هذه الظروف .

٤ — وشهادة الاوربيين المقيمين في مصر ستكون مصبوغة بصبغة تنافي مصلحة المعتقلين فهم ذو مصلحة فى القضية . فقد خسر بعضهم بعض أملاكه وتعطلت تجارة البعض الآخر وأصيب بعضهم بما مس كرامتـه فهو لذلك يرغب فى الانتقام . ولهجة الانتقام بادية منـذ الآن فيما يكتبه الانجليز المقيمون فى مصر وفى الصحف الانجليزية .

٥ — ولا يكفى اذا أريدت محاكمة المعتقلين بالعدل أن يوجد ممثل لحكومة جلالة الملك فى شخص أحد التراجمة أو نحو ذلك وقت التحقيقات . لأن الشعور السياسي قد طما بحيث لا يمكن لاحد في القاهرة أن يحكم حكماً نزيهاً بعد حوادث الستة الاشهر الماضية .

٦ — اذا كانت النية معقودة على أن يضم ضباط انجليز الى الاعضاء الوطنيين فى المحكمة العسكرية كما هو الرجاء فانهم سيجهلون لغة المعتقلين وان يستطيعوا فحص البينات أو استجواب الشهود. فسيكونون لهذا السبب فى أيدى المترجمين الذين ربما يغيرون الاقوال للاضرار بالمعتقلين. وأكثر تراجمة القنصليات سوريون مسيحيون يكرهون المسلمين كراهة شديدة. وليس في مصر انجليزى يوثق به للقيام بهذه المهمة. فموظفونا لا يعرفون العربية أو يعرفونها معرفة قليلة ثم أن علاقتهم بالقلاقل ستفسد بالطبع رأيهم السياسى .

فلذلك يظهر انه اذا لم تتخذ احتياطات خاصة فان الخطر من عدم تحقيق العدل عظيم .

وتلافياً لذلك بقدر الامكان قد عولت على ان أعين محامياً على نفقتي أنا وبعض أصحابي للدفاع عن أهم المعتقلين وسأذهب به الى القاهرة لكي نجمع البينات للدفاع عنه : وسيكون معى القسيس صابونجي كترجمان . ولما كانت معرفتى بالعربية ناقصة فلست لذلك أستطيع ان اشتغل وحدى وصابونجي هو أحد أصدقاء المعتقلين وهو قادر على أن يتكلم عنهم. ثم هو يجيد معرفة الانجليزية والفرنسية والايطالية والتركية وربما كان خير من يعرف العربية . والمعتقلون يثقون به واعتقادي انهم يثقون بي أيضاً .

وبهذه الطريقة فقط يمكنهم أن يحصلوا على ما هو من حقهم أى تحقيق كامل خلو من الغرض.

وفى الختام أرى انه ليس من الضرورى ان أعد بانى وقت اشتغالى أنا ومن يقومون معي بالدفاع عن المعتقلين لن نتدخل مطلقاً فى السياسة. وأكون شاكراً لكم إذا تكرمتم باخبارى فى أقرب وقت عن نوع المحاكمة وباهم التهم التى ستوجه الى المعتقلين . وأرجو أن أجد أنا ومن معي التسهيلات التى تسهل علينا القيام بعملنا في مصر ولن أشك فى انكم لما جبلتم عليه من حب العدل والحق ستمكنونني من القيام بهذا العمل هذا واني الخ .

ولفرد سكاون بلنت

وهذا الخطاب الذى كنت أعرف ان من الصعب على مستر غلادستون بعد أن ذكر « الفظائع المصرية » الى جانب الفظائع البلغارية ان يرد عليـه بالرفض ، بعثته اليه بعد أن زرت هاملتون وأخبرته بنيتى . ولكن هاملتون لم يشجعني كثيراً كما ثبت ذلك لى أيضاً من رقعته التى أرسلها لى فى الصباح التالى رداً على خطاب مني له . فقد قلت له فى هذا الخطاب انى سأكتب الي عرابى واسأله عن كيفية إرسال خطاب اليه (الى عرابى) وقد رجوت ان أحصل على رد من رئيسه مستر غلادستون قبل يوم الجمعة . فكان ردها ملتون كما يلى :

« اني آسف لان أخبرك بأن خطابك قد تأخر بنحو ثلاث دقائق . ولكن على كل حال يجب الا تعتمد علي جواب سريع . فان مستر غلادستون سيتنقل كثيراً ثم هو لن يكتب الرد حتى يستشير آخرين . وأنا نفسى أجهل المسائل التى ربما تؤدى اليها مقترحاتك ولذلك لن أتطوع برأى .

ولكن أليس من المشكوك فيه انه يمكن الدفاع عن انسان بواسطة محامين جانب وان هذا يخالف القوانين الدولية والعرف ؟ واني أجهل أيضاً كيفية ارسال الرسائل الى أسرى الحرب ولكنى أظن انه لايتسنى ارسال أية رسالة لعرابى الا اذا رضي الخديو وقائد الجيش الانجليزى . وعلى كل حال فواسطة المفاوضات سيكون ماليت فى الارجح »

وبناء عل هذا الاقتراح كتبت خطابا الى عرابي أخبره فيـه عن الطريقة التى سنتبعها في الدفاع عنـه وألحقت هذا الخطاب بصورة منـه لكي يطلع عليها ماليت ولزيادة الاحتياط ذهبت بنفسى الى وزارة الخارجية وسلمت الخطابين لكي يرسلا الى لورد تنتردن حتي يكتب عليها ما يفيد العناية بهما . ولكن سوء الحظ أبى الا أن يموت اللورد فى ذلك الصباح وكان البريد على وشك السفر فاضطررت الى ارساله على يد خادم باتون . وكان الخطاب موجهاً الى القاهرة ولكن ماليت أبي أن يتسلم

الخطاب ورد الي رسالتى . وهـذا يدل على مبلغ معاكسة الحكومة لى في تعيين محامين للمتهمين وهاك كتابه لى :

القاهرة فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨٢

سيدى :

بناء على التعليمات الواردة الى رئيس حكومة جلالة الملكة ها أنا ذا أرد اليك كتابك المرسل الى عرابي طي كتابك المرسل الى بتاريخ ٢٢ من الشهر السابق.

ادوارد ماليت

اما كتابي الى عرابى فكان كما يلى :

الى صديقى الشريف أحمد عرابى باشا

انك كجندى ووطنى تدرك الاسباب التى منعتنى من ان اكتب اليك أو أراسلك مدة هـذه الحرب المشئومة . اما الآن وقد انتهت الحرب فانى ارغب ان أريك ان صداقتنا لم تكن مقصورة على الالفاظ فمن الارجح انك ستحاكم وستكون تهمتك الثورة أو غير ذلك من التهم التى لا أستطيع معرفتها الآن ، فاذا لم يقـدم عنك دفاع قوى بارع فانك تكون معرضاً لان يحكم عليـك حكماً سريعاً . ولذلك عزمت بعد موافقتـك على ان أسافر الى مصر لكي أقدم البينات التى تفيـدك في المحاكمة وسيكون معى محام انجليزى شريف قادر على الدفاع عنـك وقد أخـبرت الحكومة الانجليزية عن نيتى هذه . فارجوك أن توكلنى فى القيام بهـذا العمل فى أقرب وقت لان رضاك ضرورى . ويحسن بك ان ترسل لى تلغرافا بالقبول وكتابا آخر توافق فيـه على ان أقوم بمهمة الدفاع عنك . ويمكنك ان تعتمد على طول مدة اعتقالك فى ان عائلتك لن تحتاج الي شيء ما . والله يقوى قلبك ويمنحك القدرة على تحمل السراء والضراء .

ولفرد سكاون بلانت

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢

كرابت — سسكس — انجلترا

وكان جواب غلادستون قد جاء الىقبلما كنت انتظره ويظهر منه انه كان قليل

الميل الي محاكمة نزيهة وكان رأيه فى ذلك هو رأى وزارة الخارجية . وكان الجواب مرسلا عن واسطة هاملتون وهو :

١٠ شارع دوننج .

٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« لقد قرأ مستر غلادستون الكتاب الذى بعثته اليه بخصوص محاكمة عرابي واقتراحك تعيين محام انجليزى للدفاع عنه . وكل ما يستطيع أن يقوله لك الآن انه سيعرض طلبك على لورد جرانفيل الذى سيستشيره في هذا الموضوع ولكنه لايمكن أن يؤكد لك منذ الآن بأن طلبك سيجاب »

ولم يكن هذا الكتاب رفضاً باتاً ولكن التثبيط ظاهر فيه. وقدأضاف هاملتون بعض عبارات تزيد قوة هذا التثبيط إذ قال في خطاب له : « اعترف بأنى كلما فكرت فى المصاعب التي تخطر ببالي أجدها تزداد عدداً باقتراحك هذا . وستعرف عن هذا الموضوع بعد يوم أو يومين أشياء كثيرة . ولكنك لن تسمعها لأني كلما سبق ان أخبرتك عازم على السفر »

فبقيت فى شكوك بينما كانت الحالة تزداد حرجا كل يوم . ولم اكن أجسر على السفر الى مصر قبل ان احصل على جواب فاصل لأن وجودى فى القاهرة لن يكون منه أقل فائدة مالم أكن حاصلا على سلطة من الحكومة . وربما كان لايسمح لى بان أقابل المتهمين . وكان برودلى قد سئم الانتظار وسافر الى تونس . وكان فصل البرلمان قد انتهي وأكثرالناس كانوا يغادرون لندن وكان الوزراء يوكاون وكلاءهم فى القيام بأعمالهم وركدت حالة الاشغال

وكانت الصحف فى أثناء ذلك تتناقش في مسألة اعدام عرابي وكانت صحف النزعة الحربية يصرخن مطالبات باعدامه ولم يكن يسمع الاحتجاج على هذه الاقوال الا من النواحي الضعيفة . وكانت اللجنة المصرية التى الفهاسير ولفرد لوسون في الصيف وقد أدت إذ ذاك بعض الاعمال الطيبة قد سكتت وأرسل لى لو سون نفسه كتاباً مملوءاً باليأس قال فيه :

« أني اشك كثيراً فيما اذا كانوا سيسمحون لعرابى بأن يحاكم محاكمة نزيهة :

لأنهم يعرفون تمام المعرفة أنهم اذا فعلوا ذلك سيحكمون على انفسهم. والسياسيون احذق من أن يقعوا فى هذا الفخ . وعلى كل حال أنت مصيب فيما تحاوله من انالتهم شيئاً من الانصاف »

وكان كل مايمكنني ان أعمله هو أن أبقى في لندن الخ على رئيس الوزراء باجابة طلباتي وأوعز الى التيمس بكتابة ماأريد . وبعد ان انتظرت اربعة ايام كتبت الى غلادستون الكتاب الآتي أطلب منه جوابًا قاطعًا وذلك لأن الحالة فى القاهرة كانت قد بلغت درجة خطرة

«٢٧ سبتمبر سنة ١٨٨٢

كتبت اليكم منذ عشرة ايام بصدد إرسال محام للدفاع عن عرابى باشا وسائر المعتقلين من الزعماء الوطنيين فى حالة محاكمتهم وكذلك اخبرتكم عما نويته من السفر الى القاهرة لكي اتولى تقديم البينات التى تفيدهم ولكي ارقب الاجراءات . وقد رجوتكم بأن تبلغوني في أقرب وقت قراركم بهذا الصدد .

وقد كان جوابكم الذى ارسلتموه بواسطة هاملتون جعلني اعتقد أن اقتراحى سينظر فيه وأن كنتم لاتؤكدون باجابة طلبي

وبناء على ذلك قد اتفقت مع أحد المحامين المشهورين على أن يدافع عن المعتقلين فى حالة رضى الحكومة بان يدافع عنهم ولكي احصل على موافقة هؤلاء المعتقلين بان يدافع عنهم محام كتبت الى عرابي باشا عن سبيل سير ادوارد ماليت أرجوه بان يوافق على أن أرتب الدفاع عنه ولم يصل الى الرد للآن . وكذلك لم يصلنى منكم أو من لورد جرانفيل كتاب للان .

وقد قرأت فى التيمس رسالة من مكاتبها فى القاهرة يقول فيها انه قد تقرر أن يحاكم المتهمون امام محكمة عسكرية سيذكر أعضاؤها . وهذا هو نص الرسالة :

« ستعين المحكمة العسكرية لمحاكمة جميع المتهمين غداً . والخديو وشريف ورياض يلحون الحاحاً كبيراً فى ضرورة اعدام الزعماء وهذا رأى يكاد يجمع عليه الجميع الا القليلين »

وقد قال لى شريف وهو رجل معروف بأنه مفطور على اللطف والرأفة : انى

لا أطلب موت المتهمين لأنى أحقد على أحد منهم ولكن لأن موتهم ضرورى للامن العام فى هذه البلاد . وليس من ينكر فائدة الحالة الانجليزية ولكننا لانريد أن تأتينا الجيوش كل اثنى عشر شهراً »

فاذا كانت هذه الرواية صحيحة فانها تؤيد ما كنت أتوجس منه من ان مستشارى الخديو ينوون قتل هؤلاء المعتقلين وهي أيضاً تبرر ما سبق ان قلته من ان المحاكمة لن تكون نزيهة . فلذلك أعود الآن وألح في وجوب منح المتهمين حق الدفاع الشرعى عن أنفسهم . وأرجوك لكي تخفف آلام الشكوك والمسئوليات فتخبرنى صراحة هل تنوى الحكومة أن تسمح لمحامين انجليز بالدفاع عن المتهمين أم لا . وهل تعطي لى التسهيلات التى وعدت بها فى مكاتبة المتهمين والحصول على مترجمين قادرين لترجمة أقوالهم .

وليس يمكنني فى حالة الشعور الراهن بين الموظفين ان أعمل أنا أو سواى شيئاً لمصلحة المتهمين ما لم تحصل على الحماية والمساعدة السياسية .

وضرورة الحالة وحراجتها هما عذرى فى رجائي لكم بسرعة الرد

ولكن هذا الكتاب لم يصل الى مستر غلادستون لانه كان قد برح لندن وكان سكرتيره الذي يتسلم ما يرد اليه من المكاتبات هو هور سيمور فأخذ كتابي هذا وأرسله الى وزارة الخارجية . وكتب الى يقول .

« بالنسبة لغياب مستر غلادستون وقت وصول كتابك أرسلت مضمون طلباتك اليه الى وزارة الخارجية . وقد فعلت ذلك لانه كان قد سلم كتابك السابق اليه الى لورد جرانفيل كما أخبرك بذلك هاملتون ولأني فهمت من رقعتك أنك توافق على هذا العمل وفيها أيضاً توفير للوقت . وقد علمت ان لورد جرانفيل سيرسل اليك رداً رسمياً يوضح فيه رأي الحكومة عن المسائل التي عرضتها »

وعلى هذا فهمت ان مستر غلادستون قد رفع عن نفسه مسئولية قول « نعم » أو « لا » وألقاها على عاتق لورد جرانفيل . ولما لم يكن جرانفيل أيضاً بلندن فانه لم يبق سوى كتبة وزارة الخارجية للفصل في المسائل التى عرضتها على مستر غلادستون وعلي الرغم مما قاله سيمور من أن الحكومة سترسل لى رأيها فاني لم اتسلم سوى

رسالة موقعة بامضاء جوليان بنسفوت يقول فيها ان مستر غلادستون قد احال رسالتي الاثنتين على لورد جرانفيل وان لورد جرانفيل يأسف لانه يشعر أن ليس له الحق في مكاتبتي عن هذا الموضوع . وهكذا تخلى مستر غلادستون عن المسؤلية التي حاولت أن اربطه بها وكان قد عقد نيته على ان يقتل عرابي وكانت هذه أيضاً نية رجال وزارة الخارجية . وقد شرحت تفاصيل هذه المسألة لاهميتها التاريخية ولكي ابين للقارىء ذلك المكر الذي كانت تلجأ اليه الحكومة .

وقد قر رأيي بعد ذلك على أن لا تضيع مني فرصة اخري فتشاورت مع باتون ولورد دلاوار الذي كان قد أتي الى لندن وعرض ان يدفع نصف نفقات الدفاع عن عرابي (ولكني الاحظ هنا انه لم يف بوعده) وقر رأينا على ان نرسل الى مصر اول محام نجده يكون خاليا من الاشغال لكي يكون مساعدا لبرودلى الذي كان في ذلك الوقت في تونس . فيعمل مايمكنه عمله في القاهرة حتى يصل اليه برودلى . ولم يكن لورد جرانفيل موافقاً علي وجود محامين للمتهمين . ولكن التيمس كماسبق أن ذكرنا كانت قدقالت عن الحكومة انها ان تسمح بقتل عرابى الا بعد موافقتها وانه سيدافع عنهم محامون مهرة : ولم يكن لرجال الحكومة قوة علي تكذيب مانسبته اليهم التيمس علنا . وكان نفوذ باتون عند رئيس تحرير التيمس كبيراً لدرجه انه صار واثقاً من انه يستطيع ان يجعل لورد جرانفيل يقبل وجود محام انجليزى بالالحاح على هذا الطلب في جريدة التيمس

وعلى هذا ذهبنا في ذلك اليوم الى مكاتب المحامين للبحث عن محام ولكننا وجدناها خالية لاننا كنا في اوقات العطلة ولكننا وجدنا في الساعة الاخيرة الرجل الذى كنا ننشده وكان هذا الرجل مارك نيبيار ولم يكن يفضله أحد في سعة الحيلة ومعرفة القانون وقوة العارضة . وكان يمتاز أيضاً بانه ابن سفير فكان يعرف الاساليب السياسية ويجيد معرفة الفرنسية وهي ذات قيمة كبرى في القاهرة . فلما رضي بالذهاب واعطيناه ماسمح به الوقت من المعلومات اخبرناه بان يذهب رأسا الى مالت ويخبره بانه قد حضر لكي يدافع عن عرابى ويلح في مقابلة موكله . وهذا كان كل مايستطيع ان يعمله وهو اذا قدر علي ذلك فقد أدي عملا عظيما . فاذا رفض مالت

طلبه فعليه ان يحتج وان يستفيد من كل حادثة لمصلحة المتهمين . ثم عليه ان لاينقطع عن اخبارنا عما يحدث كل يوم بالتلغراف ونحن هنا لن نسكت عن المطالبة فى الصحف وفى وزارة الخارجية حتى نجاب الى مانطلبه . ولم يكن مارك نيبيار ممن ينخدعون بوقار السياسة وحرمتها لانه كما قلت كان ابن سفير وكان يعرف دخائل السياسة . وسافر تلك الليلة عن طريق برنديزي ومعه بعض كتب التقدمة وجدول ارقام للاستعمال في ارسال التلغرافات . ولم يكن معه من الامتعة سوى حقيبة يد

أما انا فقد الح على دلاوار فى ان لااذهب الي القاهرة لانه كان يعرف حنق وزارة الخارجية علي .

وذلك لانى لو كنت بالقاهرة لوضعت تحت مراقبة الجواسيس أوربما كانوا قبضوا على وردوني الى انجلترا في حين انى ببقائي هنا في انجلترا يمكننى ان أولى الحملات من الصحف اللاتى كان فى مقدورهن وحدهن ان يكسبن القضية لمصلحتنا . وقد تمكن باتون فى تلك الليلة من عمل مهم فى التيمس وذلك ان دلاوار كان قد حصل على تأكيد من جرانفيل بان الخديو سيمنح المتهمين جميع الفرص التي تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم . وكان هذا التأكيد لا قيمة له من حيث الحصول على محاكمة نزيهة لان جميع المحامين الذين كان يمكن المتهمين ان يستخدموهم كانوا من رجال سواحل البحر المتوسط الشرقية ولم يكونوا يفضلون المحامين الوطنيين بشيء . ولكن استخدام حكومتنا لمثل هؤلاء المحامين كان يرفع عنها عبء انتقاد الجمهور وكانت في الوقت نفسه تستطيع ان تنفذ أغراضها وتعدم المتهمين .

وكانت النية أن تنتهى محاكمة المتهمين فى المحكمة المصرية في يومين فاذاماثبتت عليهم ادلة الثورة عوقبوا فى الحال بالاعدام وفى هذه الحالة يرفض قبول المحامي الانجليزى باعتباره أجنبياً ليس له حق التدخل

وكانت العبارة التى فاه بها جرانفيل أمام دلاوار لاتزيد عما يأتي : « ليس عندى مايجعلنى أشك في ان الخديو وهو صاحب السلطة الشرعية سيمنح المتهمين جميع الفرص المعقولة للدفاع عن انفسهم مادام لايؤدى هذا العمل الي تأخير غير ضروري أو غير عادى وعلى المتهمين أو اصدقائهم ان يتخذوا مايناسبهم من الاحتياطات تحت مسؤليتهم

فأخذ باتون هذا التصريح وكتبه فى التيمس بالشكل الآتى :

« كتب لورد جرانفيل يقول ان جميع التسهيلات المعقولة ستمنح للمعتقلين فى مصرهم واصحابهم لكي يعينوا لهم المحامين عنهم وبناء على هذا قد أرسلت تلغرافات الى مستر برودلى بأن يقوم فى الحال ويسافر الى مصر »

وظاهر من المناقشة الشديدة التى جرت بين لورد جرانفيل ولودر ديلاوار كيف غضب جرانفيل من تفسير كلامه على هذه الصورة (انظر الكتب الزرق) ولكن نشر هذا الخبر في التيمس بهذه الصورة وضع لورد جرانفيل في مركز لا يستطيع ان يرتد عنه وهكذا أمكننا بهذه الحيلة ان نغمس يديه على الرغم منه مرة أخرى فى المسألة (١)

ومع كل ذلك كدنا نفقد كل شىء وذلك لعودة كوافن الفجائية الى القاهرة مرة أخرى . وهو ثانى اثنين (هو والخديوى) بخشيان علنية التحقيق . وكان غرض وزارة الخارجية فى ذلك الوقت تعجيل المحاكمة والانتهاء منها قبل وصول برودلى من تونس . وذلك لان تونس كانت ولا تزال غير متصلة مباشرة بمصر وكان المرجح ان تنتهي عشرة أيام قبل وصول برودلى الى مصر . ولم يكن عندهم علم باننا أرسلنا نيبيار . فاعطيت لذلك الاوامر فى الحال بنقل عرابى من اعتقال الانجليز وإرساله الى سجن الخديو حيث لا يمكن أحداً ان يزوره وفي الوقت نفسه ترفع المسئولية عن عاتق الحكومة الانجليزية . وقد عمل هذا العمل يوم ٤ اكتوبر أى قبل وصول نيبيار بيومين فقط . وحدد يوم ١٤ اكتوبر للمحاكمة بينما لم يتمكن

---

(١) لقد قيل لى حديثاً بان تأييد التيمس لنا فى وجوب محاكمة عرابى محاكمة نزيهة كان الغرض منه خبيثاً وذلك لانها كانت ترغب ان تتحمل الحكومة المسئولية حتى ينتهي ذلك بالسيطرة على مصر ولكن لم أسمع ما يشير الى هذه النية فى ذلك الوقت ولا زلت أحب ان اعتقد ان الباعث على تأييدنا هو العواطف الشريفة التى هي من أفضل تقاليد جريدة التيمس وأيضا ماعرف به شنرى رئيس التحرير من طيبة القلب .

برودلى، من الوصول الى مصر قبل يوم ١٨ منه . ولم يفـد هذه التدبيرات سوى ظهور نيبيار الفجائي فى القاهرة .

ولكي يجعلوا الدفاع شاقا ويعجلوا المحاكمة جعلوا القانون الفرنسى هو المعمول به في المحكمة العسكرية . وهـذا القانون في حكومة لاترعى الذمة آلة قوية للاتهام . فبناء على هذا القانون يجوز استجواب المتهمين والشهود قبل أن يروا محاميهم ويستشيروهم وبهذه الطريقة لايستطيعون ان يقولوا شيئاخشية ان يواجهوا بماسبق ان قالوا فى استجوابهم الاول . ثم ان خصيان الخديو الزنوج كانوا يزورون المتهمين فى الفترات التى يكونون فيها في السجن فيضربونهم ضربا مبرحا لكي يلقوا الرعب فى قلوبهم ويكسروا انفتهم وعزة نفوسهم . وبعدكل هذا اعلنت الحكومة المصرية ان الدفاع عن المتهمين لا يكون ألا باللغة العربية وعلى هذا صار لا يمكن ان يدافع محامونا عنهم . وقد ارسل لى نيبيار هذه الاخبار بالتلغراف

وكان كل مافعته الحكومة الانجليزية لمنع الخديو من التمادي فيما كان يرتكبه من المظالم وضروب العنف السافل فى اشخاص هؤلاء المتهمين انها عينت اثنين من الانجليز لكي يشرفا على التحقيقات . وكان هذان الاثنان رجلين شريفين ذوى مروءة . فكان أولهما سير تشارلس ولسون الذى رافقني فى سياحتى من حلب الى أزمير ومستر اردرن بيان الذى كنت أعرفه فى دمشق وكان فى هذا الوقت المترجم الرسمى عند مالت فى الوكالة . وكان كلاهما يعرف العربية وقد تأثر كلاهما من وقار عرابي وقت المحاكمة والاعتقال وكانا يعطيان نيبيار مايحتاج اليه من المساعدة

وقد نجح نيبيار فى ان يجعل مالت يعترف بمركزه كوكيل لعرابى ورفقائه كما اعترف أيضاً بمركز ايف كمحضر للدعوى . ولكن نيبيار لم ينجح فى ان يحصل منه على وعد بأن يكون المحامي عن عرابى انجليزياً . وكان مالت يسوف في اجابة طلب نيبيار فى رؤيه موكله أى عرابي بان يحيله على الدوام على رياض باشا وزير الداخلية فى وزارة الخديو وكان هذا برفض طلبه على الدوام. وطول هذا الوقت كانت التحقيقات تجرى بسرعة فتبين لنيبيار انهم يخدعونه وان ستنتهي التحقيقات والمحاكمة قبلما يؤذن له بالدفاع عن المتهمين

وبينا كانت الاحوال فى هذا المأزق إذا برسالة جاءتني من دلاوار فى ١٢ اكتوبر يقول فيها « اذا لم تتخذاجراءات شديدة فان حياة عرابي فى خطر . ولا بد انك قد تسلمت معلومات عن ذلك من نيبيار »

وعلى أثر هذا الخبر السيء خرجت فى الحال وذهبت الي باتون فوجدته لحسن حظي فى مكتبه وكان معلوماته توافق معلوماتي فقر رأينا على أن نلجأ الى الجمهور ونناشده بخصوص محاكمة المتهمين وان نحمل على وزارة الخارجية ونجبر مستر غلادستون علي اعلان خطته . فجلست وكتبت كتابا نهائيا الى مستر غلادستون عبرت فيه عن غيظي من جرانفيل وعددت جميع التهم التى اتهمه بها ولم انس ان افهمه علاقته بجميع تفاصيل المسألة وعطفه القديم على الزعماء الوطنيين . ولم ننتظر جوابا لان باتون وضع هذا الكتاب فى مكان ظاهر فى التيمس التى كتبت مقالا افتتاحياً تعليقا عليه وذلك كله انما كان بسخاء شيفرى رئيس التحرير وعطفه على مساعينا . وكان باتون قد عرف ان المحاكمة ستبتدىء يوم الاحد وان الحكم سينطق به يوم الاثنين ويتبع ذلك اعدام عرابى مباشرة . وكان اليوم وقتئذ الجمعة فكان لا يزال امامنا ثلاثة أيام (وكان احدها الاحد ولا تصدر فيه الصحف) لايقاظ الرأي العام . وكانت هذه الايام القليلة كافية لحسن حظنا لذلك

واظن ان هذا الوقت هو الفرصة التى انتهزها برايط وذلك عندما قرأ كتابى الى التيمس فذهب الى غلادستون واخبره بأنه سيعد في التاريخ جاحداً المبادىء الانسانية اذا هو سمح بارتكاب هذه الجناية العظيمة . وسواء أصح هذا ام لم يصح فان وزارة الخارجية سلمت به واقرت بضرورة المحاكمة النزيهة وكتبت الى مالت بان لا يعترض علي وجود المحامين عن عرابي . والتلغراف التالى الذى ارسله لى نيبيار يدل على نجاحنا

« أرسل جرانفيل الى ماليت يشير عليه بان يدافع عن عرابي محام انجليزى . والمنتظر أن الاجراءات ستطول »

وقد رأيت أنه من الضرورى أن أذكر تفاصيل المصاعب الاولى التى اعترضتنا فى سبيل محاكمة عرابى لأني لا يمكنني بدون ذلك أن أمحو أثر تلك الاسطورة التى راجت فى مصر وخلاصتها أنه كان هناك اتفاق سرى بين عرابى

وغلادستون بانه لن يعدم . فني استطاعني ان اثبت بالوثائق التى تحت يدى ان غلادستون لم يكن ينظر الى المتهمين بروح الرأفة — دع عنك الاتفاق معهم — بل بالعكس كان يجارى جرانفيل فى السعي فى اعدام عرابي بواسطة الخديو وذلك بايجاد محكمة تحاكمه محاكمة صورية لكى يبرروا غلطاتهم وتورطاتهم في الستة الاشهر الماضية في مصر . ولم يكن وخز الضمير هو الذى منع غلادستون من السير فى خطته الى النهاية بل أن صوت الجمهور الانجليزى هو الذى أخافه وأنذره بالخطر الذى يهدد شهرته اذا هو مضي فى طريقه الى آخرها . وهذه هي الحقيقة التى أراد أصدقاء غلادستون أن يستروها حفظاً لسمعته · ولا عبرة أيضاً بما تقوله الكتاب الفرنسيون من التجاء غلادستون الى الرفق بعد العنف من جراء ما ظنوه من وجود علاقة خفية بين غلادستون وعرابي .

ولما انتهي دور الخطر هذا لم يكن من الصعب أن يتنبأ الانسان بأن نتيجة المحاكمة ستكون سلبية . فان المحاكمة النزيهة فى محكمة علنية ووجود محام انجليزى ينبش بمجرفته أقذار الخديو ويكشف عن الجرائم المخبوءة — كل هذا لم يكن مما يفكر فيه الخديو الا وهو يرتجف خوفا . ثم أن التحقيق العلنى هذا كان من شأنه أن يفسد على الحكومة الانجليزية تدابيرها ويفند نظريتها عن الحوادث الماضية التى بنت عليها معاذيرها لاتخاذ خطة العنف . ثم أن السلطان كان في حاجة الى عدم افشاء أسراره . ولم يكن الخوف على حياة المتهمين قد زال ولكن الامل كان كبيرا في الوصول الى تسوية اذا لم يمكن الحصول على البراءة . وقد ظهر التغيير في الحالة فى القاهرة منذ ١٦ الجارى كما تدل على ذلك التلغرافات التالية . وسأقص بقية قصة المحاكمة كما وصلتنى فى التلغرافات والكتب :

من نيبيار الى بلنت فى ٢٠ اكتوبر

« يظن ان الحكومة المصرية ستجتهد في الغاء المحاكمة وان الرؤساء والزعماء من المتهمين سيطلب اليهم مبارحة البلاد فقط . وليس عندي من المعلومات مايمكننى من الحكم فى قيمة هذا الخبر ولكنى أظن انه غير مرجح »

وهاك تلغرافا آخر ارسله الى برودلى وكان قد وصل في يوم ٢٠ اكتوبر الى القاهرة :

« اعلن بوريلي بك النائب العمومي في الحكومة المصرية انه ليس للحكومة قانون أو اجراءات تتبعها ولكنه اقترح علينا ان نتفق على الاجراءات . وصرح لنا أيضاً بان أعضاء المحكمة اغفال لا يفهمون . وهو يرجو ان لا أمس السلطان والخديو الا بكل مايمكن من اللطف والرفق »

من نيبيار الى بلانت فى ٢٠ اكتوبر

« أظن انه يمكننا الآن ان نتقدم للدفاع دون ان نخشي شيئا . ان الاذن بالمحاكمة لايقل قيمة عن عرش الخديو نفسه »

وكان الخطر الذى يواجهنا هورغبة وزارة الخارجية فى ان تتوسل بجميع الوسائل لاتهام عرابي بتهمه ماتقتضي اعدامه . فقد كتب الى شينرى يوم ٢٠ اكتوبر يقول : « بين العظماء هنا شعور شديد ضد عرابي وذلك لما يزعمونه من أنه كان له يد في مذبحة الاسكندرية او انه اغضي عن المجرمين فيها »

ولكن هذا الخطر لم يظهر شديداً فى القاهرة وكان فى الحقيقة ابعدمايمكن ان يوجه الاتهام نحو عرابي . لان الجانى الحقيقى فى مذبحة الاسكندرية هو الخديو وليس في التحقيقات ما هوجدير بلفت النظر اكثر من تحوط الاتهام وتجنبه السؤال عن هذا الموضوع ثم عدم ظهور أى بينة تثبت تهمة احداث المذبحة على أى شخص ومع ذلك كانت هذه المسألة ذات اهمية كبرى فى اعتبار حكومتنا من حيث وجوب القاء التبعة علي عرابى نفسه . لان هذه المذبحة هي الاساس الذى بنت عليه حكومتنا خطة التدخل عنوة والقتال وبدون هذا الاساس تسقط الحجة الادبية للتدخل

ويمكن ان يقال هذا أيضاً عن سوء استعمال الراية البيضاء وقت اخلاء حصون الاسكندرية . وهذه مسألة كان غلادستون نفسه لايفتأ يكررها مع ان رفع الراية البيضاء من الامور المسموح بها فى الحروب . فهاتان التهمتان أى مذبحة الاسكندرية ورفع الراية البيضاء وقت التقهقر كانتا من اهم ما يمكن اتهام عرابي به تذرعا الى الحكم عليه بالاعدام لان الجمهور الانجليزى لم يكن يعبأ بالتهم السياسية ولا يرضي بان تكون سبباً للحكم بالاعدام

وفى أثناء ذلك كانت الاحوال تجرى على مايرام في القاهرة ففي ٢٢ منه اذن لبرودى

ونيبيار بان يدخلا الى غرفة عرابي وعرفاما اخبرهم به كيفية تهيئة دفاع قوى عنه. وكان موقف عرابي وهو فى الحبس مملوءاً بالوقار لانه مهما قيل عن شجاعته المادية كان على مبلغ كبير من الشجاعة الادبية . وكانت هيئته وسلوكه لذلك عند مقابلتهما بسلوك المعتقلين الآخرين يلفتان النظر . فقد كتب دون ان يتردد تاريخ المسائل السياسية التى اشترك فيها باجمعها وكانت روايته صريحة مقنعة . ولم تكن صراحة دون ذلك أيضاً عند ماروى ضروب الاساءات التى عامله بها اولئك الاوغاد السفلة خصيان الخديو توفيق عندما نقلوه من السجن الانجليزى الى السجن المصرى وطول مدة بقائه فى هذا السجن

فقد كان مولاهم الخديو يرسلهم فى الليل فيضربونه ويشتمونه هو ورفقاءه ولكن رفقاءه لم يصرحوا لما فيهم من نقص الشجاعة الادبية بما نالهم من الجرائم التى انغمست فيها يد ذلك الظالم الجبان الذي صار رئيسهم الآن . فليس هناك اسوأ ولا ادعى الى الاسف من موقف الجبن والنذالة الذي وقفه المتهمون بازاء الخديو الذى كانوا يكرهونه ويحتقرونه منذ شهر فقط . وكان من الحوادث المهمة استخراج اوراق عرابى التى كان مخبوءة فى بيته والتى اخبر هو برودلى بها لاحضارها . وقد كان من الصعب جداً اقناع زوجته وابنهما وهما مروعان بضرورة البحث عن هذه الاوراق وتسليمها للمحامين عنه وسبب ذلك ان خدم الخديو كانوا قد زاوروهما أيضاً . وأخيراً احضر محمد سيد احمد خادم عرابي هذه الاوراق وسلمها الى برودلى . وكان لهذه الاوراق أهمية كبرى لانه وجد بينها كتباً من السلطان ومن غيره لعرابي . وقد أدى خبر وجود هذه الاوراق الى القاء الرعب والفزع بين أهل السراى وصار احتمال ترك المحاكمة أمراً مرجحاً

فقد كتب الى نيبيار فى ٣٠ اكتوبر يقول : «اعتقد اننا قد ملكنا ناصية الحال الآن وان الخديو وعصبته يودون لو يستطيعون الخروج من المأزق الآن بترك المحاكمة فى اقرب وقت . وقد تمكنا بواسطة امانة خادم عرابى وولاء زوجته من الحصول على جميع اوراقه ماعدا واحدة فقط . والاوراق محفوظة الان فى خزانة حديدية فى غرفة بيمان فى القنصلية ... ولن تستطيع الحكومة مواجهه دفاعنا وسيقترحون علينا

عمل تسوية كالنفى مع عدم مصادرة الاملاك . وماذا يمكننا ان نفعل اكثر من ذلك ؟اظن ان هذه مسألة سندرسها قريباً »

ويجب ان نلاحظ هنا ان التغير الذى أصاب الحالة السياسية فى القاهرة قد وجد له صدى في لندن بين الصحف . فقد كانت القاهرة حافلة بمكاتبي الصحف وكان برودلى من مهرة الفن الصحافى فلم يمض عليه قليل زمن حتى جعلهم فى صفه . وكان كرمه (على حسابي) كرم اسراف وبذخ فلم يكن يضن بالدجاج والشمبانيا . اما مالت وكولفن اللذان كانا يتفوقان فى الزمن السابق فانهما لم يقدرا على صد التيار الآن وصارت الاسرار تفشى وتهدم النظرية التى بنوها للتدخل بان عرابي وجيشه هما وحدهما فقط اللذان كانا يعارضان فى المطالب الانجليزية وان الحركة الوطنية لم تكن عامة . وكان مقام كولفن قد تزعزع فى وزارة الخارجية وصار يعتبر كانه مضلل اما مالت فقد ثبت عدم كفايته تمام الثبوت : وهاج نجاحنا هذا لورد جرانفيل ولما رأى أن الحالة في مصر تسير الى ارتباك لا يرجى له نظام احال المسألة جميعها الى لورد دوفرين لكي يصل الى تسوية ما وكان هذا العمل افضل ما عمل . وقد أخبرنى باتون عن هذه الحركة الجديدة وان أول اعمال دوفرين عند وصوله الى القاهرة سيكون ايجاد تسوية في المحاكمة . وقد ارسلت فى ذلك الوقت كتابا إلى برودلي بالنسبة إلى هذا الموقف الجديد وهو جدير باثباته هنا :

من بلنت إلي برودلى فى ٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢

ارغب فى أن ابين لك مرة اخرى افكارى وآمالى فى قيامي بامر الدفاع عن عرابى وعن رفقائه لانه اذا تحققت هذه الامال فاني اجد فيها مايعيضنى عما انفقته من الاموال بل اجد فيها اكثر من ذلك . فبديهي ان الغرض الاصلى من الدفاع كان تخليص حياة المتهمين واظن اننا قد حصلنا على هذه النتيجة وذلك لان حالة الرأى العام الانجليزى وعدم نجاحهم في القاء تبعة فتنة يونيو وحريق الاسكندرية على عرابي يرجحان ذلك

وليس باقياً فى البينات ما يمكن ان يضع حياة المتهمين فى خطر . ومنذ وصولك الى القاهرة وبما اظهرته من البراعة وما اصبت من التوفيق قد صرنا نعد انفسنا الآن

سعداء. فاوراق عرابى بدلا من ان تكون فى وزارة الخارجية قد صارت الان في يده وانت الآن تخبرنى بأن دفاعنا سيكون وجيها اذ قد حصلنا على مركز نستطيع منه ان نملى شروطنا على الخصم وعلى هذا لن نقنع باقل من البراءة الشريفة اوترك المحاكمة وترك المحاكمة هو المرجح الآن فقد أمر لورد دوفرين بالسفر الى مصر وأخذ رئيس الوزارة امس فى فحص الحالة وهل يمكن عمله تسوية . واسمع انه سيقدم مقترحا بشأن الوصول الى اتفاق ماتجنبا للفضائح التى تنتج عن افشاء الاسرار

فليس يتوقف علينا تخليص حياة عرابى فقط بل شرفه وحريته وأيضاً حرية المساجين السياسيين المتهمين معه

« واعتقد ان لورد دوفرين سيجتهد غاية جهده فى ان يجعل عرابى يرضي بالنفي فى جزائر اندمان او في مكان آخر في الامبراطورية الانجليزية حيث يبقى سجيناً يعامل بالرفق ولكن لا يؤذن له فى التجول . وأظن أيضاً انه سيحاول الحصول على أوراقه . ولكن يجب الا ينجح لورد دوفرين فى هذين المسعيين ويجب ان تردوا عليه كل مقترحاته التى من هذا النوع وتقابلوها بالرفض . فليس من واجبنا ان ندخر للخديو او للسلطان شرفه او ان نخلص لورد دوفرين من المآزق التى يجوزها . وأنى سأعتبر فشلنا عظيما جداً اذا لم نحصل على اكثر من ذلك . ثم اظن انه يجب على عرابى ان يطلب اولا ان يحاكم محاكمة نزيهة لكي لا يجرح شرفه ولكي يثبت أيضاً براءة جميع الذين اشتغلوا فى صفة مدة الحرب وهم جميع افراد الامة . والا فاذا لم تكن النية محاكمته فيجب سحب جميع التهم التى اتهم بها . ويجب ان يصدر عفو عام وان وان لا تأخذ منه اوراقه وان كان يمكن الاتفاق معه على عدم نشرها مدة معينة من السنين . ولا يمكننا فى الظروف الحاضرة ان نعارض كل المعارضة فى النفي لانه لا يمكن ان يقال عندئذ ان في قدرة الخديو نفيه بواسطة قرار . وهذا العمل من مصلحتنا لان دستور سنة ١٨٨٢ يمنع الخديو من استعمال هذا الحق . ويجب هنا ان نعتبر هذا الدستور وثيقة كبيرة الاهمية لان السلطان قد اقره بعد ان منحه الخديو . ومع ذلك يجب ان نرفض السجن فقد يستطيع السلطان نفيه من السلطنة العثمانية ولكن ليس لاحدهما الحق في تعيين المكان الذي ينفى اليه

« ثم لا يمكن الحكومة الانجليزية بعد ان سلمت عرابي للخديوى لكي يحاكمه ان تأخذه ثانياً وتعامله معاملة المجرم وهو لم يحاكم بعد . وقد ادركت الحكومة الانجليزية موقفها وابت ان تأخذ عرابي ثانياً . فبديهي اذن انه اذا لم يحاكم ويحكم عليه بجريمته فانه يجب ان يخرج من مصر وهو حر . ثم لا يمكن شرعا ان يحرم من رتبته ومن مرتبه . ولكني اعتقد انه سيرضي بان يبرح البلاد برتبته الحربية وبشيء من المال يقوم بنفقته ويرد عنه الفاقة حتي لا يحتاج الى ان يكدح بيديه لكي يعيش . وهذه شروط تحفظ كرامة عرابى فيمكننا ان نلح في الحصول عليها والا فعلينا ان ندخل فى معمعة الدفاع ونجاهد بكل قوانا وأعتقد انك لن تصغي الى أى مقترح بخصوص محاكمة صورية لا يلبس فيها الخديو الا بكل لطف ورفق كما قال بوريلى . فأما أن ننشر جميع الحقائق الصحيحة واما ان تسحب جميع التهم . وانى أثق بانك ستعاوننى فى الحصول على هذه النتيجة دون ان تعتبر ما يمس احساسات القناصل والسفراء والولاة . فهؤلاء جميعهم لا قيمة لهم عندنا وانما يهمنا جداً لاهمية شرف عرابي . ولست أشك فى أن مهارتك السياسية لا تقل عن مهارة دوفرين وقد استطعت ان تجعل مالت يفعل ماشئت وستجعل دوفرين أيضا يفعل ماترغب . فاذا نجحت فى ذلك فاننا لن نتناقش عن « اتعاب » الدعوى وطي هذا كتاب تقدمة الى لورد « دوفرين »

أما الكتاب التالى فهو من مستر بيان مترجم مالت الرسمي وهو شاهد لا يمكن انتقاص شهادته أو تجريحها ولذلك هى ذات قيمة تاريخية كبرى . وقد كان بيان يدير الوكالة البريطانية في القاهرة فى بضعة الاسابيع التى سبقت ضرب الاسكندرية ولما كان يجيد معرفة اللغة العربية كان لذلك واقفاً على حالة البلاد الحقيقية اكثر من أى أحد آخر . وقبل أن يرسل لى هذا الكتاب كان قد عين لان يراقب التحقيق بالنيابة عن مالت وهذا هو الكتاب :

من بيان الى بلنت فى ٦ نوفمبر سنة ١٨٨٢

« . . اليوم آخر الايام قبل التأجيل . . ورجال قصر الخديو هنا فى تهيج وارتباك بشأن مجيء دوفرين . وهو سيصل هنا غدا . وقد كان قدوم برودلى شديد

الالم عليهم اما قدوم لورد دوفرين فهو الطامة الكبرى . واني أعتقد ان دوفرين سيعرف فى الحال حقيقة صاحبنا توفيق والقول انه سيصغي الى كل من يتقدم اليه بقول ما . وعلى ذلك ستكون سفارته المؤقتة على معرفة بالحقائق أكثر من الوكالة الدائمة . وقد كنت أختلط بالاهالى قبل ضرب الاسكندرية ولذلك عرفت وجهة النظر الانجليزية والتركية والعرابية والتوفيقية . وجميعها يختلف بعضها عن البعض الآخر . ولما لم يكن أحد يثق بما أقول احتفظت بعلوماتي لنفسي ولكني قدمت بعض الملحوظات المفيدة لسير تشارلس ولسون وهو الآن أكبر من يفهم الموقف المصرى من الرجال الرسميين . وهو رجل شديد الحذر له نصيب كبير من المهارة وصحة الحكم وبواسطته تمكنت من ايصال بعض الحقائق الى مالت ولولاه لأخبرت مالت بنفسي عن هذه الحقائق . وأظن الآن ان مالت لم يعد يحترم الخديو أو يرى له أقل كرامة . وطول مدة الاجراءات كان يسلك معنا سلوك النزاهة الا فيما يمس مصلحته . . وانت تعرف مقدار ارتباطه بالخديو فهو الآن يذوق الكأس المرة ويرى الصنم الذى كان يعبده يتهدم امامه كأنه بيت من ورق . .

وأظن أن أعمال ابراهيم اغا وحده تدل على طبيعة الخديو . فقد سمعت الحكاية رأساً من القصر وكيف ان التيتونجي (أو حامل غليون الخديو) قد قبل يد الخديو وطلب أن يأذن له أن يبصق في وجوه المساجين وقد بحث سير تشارلس ولسون عن هذه القصة فوجدها صحيحة بأكملها . ومع ذلك ولكون هذه القصة تمس الخديو وتظهر للملأ قذارته قد اتفقوا على ان يتركوها . وقد اقترحت عند ما حلف الشهود زورا أن يطلب منهم القسم بالطلاق ثلاثا وكاد سير تشارلس ولسون يوافقني على مقترحي ولكن انتهت المسألة بالاهمال والترك

« واسمرة سموه لا تنكر الان هذه الاعمال . فهذا اذن هو الرجل الذى جئنا الى مصر لحمايته [1]

---

(١) لقد شهد الشيخ محمد عبده بان خصيان الخديوى قد ذهبوا الى زعماء الوطنيين فى السجن وضربوهم واهانوهم . وكان الشيخ محمد عبده نفسه أحد هؤلاء المساجين وقد وقعت به الاهانة مثل غيره .

« واذا لم يكن مركزى يمنعنى من ان ابوح لبرودلى بما أعرفه عن الخديوى اذن لاخبرته باشياء لو قيلت فى التحقيق لكان فيها طرد الخديوى من الغد . ومع ذلك فاني ارجو ان تفشى هذه الاسرار . واول رجل يجب التخلص منه هو رياض فانه يمثل فى مصر دور ابليس . وقد قال منذ ايام : « ان المصريين ثعابين والطريقة الوحيدة لمنع تفشي الثعابين هو سحقها بالاقدام . وسأسحق انا المصريين وهو يسحقهم بالفعل الان »

وهذا الخطاب يصف حالة القاهرة فى الاسبوع الاول من شهر نوفمبر أى وقت وصول بعثة دوفرين . وكان من حظنا الحسن فى ذلك الوقت ان البرلمان كان منعقدا. فقد انضم الينا من اعضاء البرلمان عدد من ذوى القدرة على الكفاح مثل تشرشل وولف وغورست ولوسون ولابوشير وروبرت بورلا ولورد مانرر وايفلن ولورد ويمس وعضوان أو ثلاثة من الارلنديين . وكان برسى ويندهام هو العضو المحافظ الوحيد الذى انضم الى الاقلية التى كانت مؤلفة من ٢١ عضواً لمقاومة الحرب

الفصل الثامن عشر

بعثة دوفرين

لما وصل لورد دوفرين الى القاهرة فى ٦ نوفمبر اتخذت الاحوال شكلا جديداً . فقد كان رياض باشا وسائر وزراء الخديو يفعلون ما يشاءون ولم يكن عليهم من الرقابة سوى رقابة مالت الضعيفة . اما دوفرين فكان من عنصر آخر ولم يمض عليه طويل وقت حتى اظهر للخديو ان مركزه بالنسبة اليه ليس مركز مستشار بل مركز سيد يطاع . ولم يعر اقوال الخديو التفاتاً كبيراً وكذلك لم يلتفت الى روايات مالت بل فتح ابواب السفارة لكل واحد يستطيع ان يزوده بمعلومات عن الحالة . وقد تمكن ماكنزي وولاس فى بضعة ايام من الوقوف على حوادث مصر مدة السنتين الماضيتين ووضع كتابا عن هذه الحوادث هو اصدق ما رأيته من حيث صحة الروايات . وكان ما كنزي وولاس هذا معاون لورد دوفرين وكان لورد دوفرين على الرغم من كسله ينشط عند اللزوم ويعرف كيف يتوصل الى معرفة ما يحتاج اليه

قد مضي اسبوعان بعد وصول دوفرين ومحاكمة عرابى مستمرة وكانت تسيطر على هذه المحاكمة رغبة الخديو فى اخفاء الحقائق وشغفه بأن لا تفلت الفريسة من يده. وخير ما يدل القارىء علي الحالة هو تلك الخطابات والتلغرافات التى كان يرسلها الى كل يوم كل من برودلي ونيبيار ويتبين للقارىء منها كيفية التدرج الى التسوية النهائية

من برودلى الى بلنت فى ٦ نوفمبر

« اوافقك على جميع ما قلته وسأشتغل بكل تبصر . وانا الان هيىء أركان الدفاع وهي تنحصر فيما يأتي :

« ١ ـ طهارة اغراض عرابي وشرفها

« ٢ ـ اتفاقه التام مع توفيق لغاية ١٢ يوليو

« ٣ ـ اتفاقه مع السلطان فى جميع الاوقات

« ٤ ـ كون الحركة الوطنية كانت عمومية

« ٥ ـ كون تأليف المحكمة العسكرية غير شرعي

« ٦ ـ سخافة دعوى رفع الراية البيضاء

« ٧ ـ مروءة عرابى وتطرفه في انسانيته

« ٨ ـ الظلم الفاضح في جميع ما عمل قبل وصولنا

« ٩ ـ تعذيب المساجين

« ١٠ ـ الخطابات التى ارسلها توفيق ضد انجلترا

« ١١ ـ اكاذيب صحيفة المونيتور

« وسأطلب اخلاء سبيل جميع المسجونين . ولا تذع مضمون هذا الخطاب . وكل ما أخشاه هو عظم النفقة التى تحتاج اليها مدة دفاعنا فقد تستغرق ثمانية او تسعة اشهر . فعند عرابي وحده ٤٠٠ شاهد . . . وانا اصرف هنا بسخاء . فانى أولم الولائم لمكاتبي الصحف وتمكنت من جعل الاجبشيان غازيت لسان حالنا وجعلت الرأى العام هنا يميل الى عرابي . وعندنا الان نحو ١٢ مترجماً تتراوح مرتباتهم من جنيه الى جنيهين ونصف جنيه فى الاسبوع . . . وغيابي عن تونس هو بمثابة فقدان كل شيء هناك . فقد تركت جميع القضايا التى كانت بمكتبي وكان بعضها

فى غاية الاهمية . ويمكن يورك أن يخبرك بان عندى موظفين احدهما يتناول ٢٥٠ جنيهاً والآخر يتناول ماية جنيه فى العام .. فأرجوك ان تعتبر كل هذا . . . وكل ما اقوله الآن ان نجاح عملنا هنا يتوقف على الانفاق بسخاء ان لم يكن بتبذير . ثم اذكر ان كل انسان هنا ضدنا والناس هنا لا يشتغلون الا بأجر . . . فاجمعوا تبرعات باسم عرابى . . ولا تنس محاكمة نشبورن التى دامت تسعة اشهر . فقد تكون الحال هنا كذلك . . واعود فأقول ان كل شيء يتوقف على ما ننفقه . فلا تفتكر بشأني وانما أذكر النفقات . وانا اشتغل ١٦ ساعة في اليوم . . . ولا يمكن تقدير خدمة نيبيار »

من نيبيار الى بلنت فى ٦ نوفمبر

« يظهر انك مرتاب فى جدول التهم التى اتهم بها عرابى . فهو للآن لم يرسل الينا بطريقة رسمية ولم يقدم الينا حتي تتم شهادة الشهود ولكن خلاصة التهم هي كما ذكرتها التيمس في احدى تلغرافاتها :

« ١ سوء استعمال الراية البيضاء

« ٢ — الاشتراك فى مذابح الاسكندرية ونهبها فى ١٩ يونيو

« ٣ — الاشتراك فى إحراق المدينة بالنار

« ٤ — اثارة الحرب فى ارض السلطان

« ٥ — التمرد على الخديو وعلى السلطان »

من برودلى الى بلنت فى ٧ نوفمبر

« اذا لم تكن تخشى النفقات فالنجاح مؤكد . . . أنظر خطابى المرسل لك امس .

« والمسألة الوحيدة هي هل يفرج عن المعتقلين بدون محاكمة أو هل يتاح لهم ذلك بالدفاع عن أنفسهم . وانا مقتنع بأن الحكومة هنا تسعى لوقف التحقيق لان الحقائق التى ستظهر عند الاستجواب ستوقع جميع الموظفين الكبراء الموجودين الآن فى الحكومة فى خطر وتفشى أيضا أسرارا تشين الخديو . وقد ترضى حكومتنا الاتفاق مع عرابى لهذا السبب الاخير لانها تخشى ان تظهر المحاكمة اننا قد عبأنا الجيوش

وأحضرناها الى مصر وغزونا البلاد وقاتلنا الوطنيين دفاعا عن اسفل انسان فيها .
وانا شخصياً ليس عندى شك فى ان الخديو وعمر لطفى هما اللذان دبرا مذبحة
الاسكندرية وذلك لكي يقضيا على نفوذ عرابي ومكانته اذ كان قد تحمل مسئولية
الامن العام . وفي يدى وثائق تؤدى الى نصف الطريق فى اثبات ذلك ولكن لم
يأت الوقت بعد لاعلانها »

من برودلى الى بلنت في ١٨ منه (بالتلغراف)

« أعتقد اننا سنحصل على احسن تسوية . ولا تحمل على وزارة الخارجية .
اكتم هذا السر »

من برودلى الى بلنت في ٢٠ نوفمبر (بالتلغراف)

« لندن تفاوض دوفرين . رغبة الحكومة المصرية فى التسوية قد قلت بالنسبة
لما تعتقده من تغير الرأى العام نحو عرابى بعد شهادة سليمان سامي بأنه أحرق
الاسكندرية . وهي شهادة مزورة »

من برودلى الى بلنت في ٢١ نوفمبر

« ستحدث قريباً أزمة شديدة . وأصدقاء الحكومة المصرية يؤكدون النية على
شنق عرابى . ابق فى لندن »

من برودلى الى بلنت في ٢١ نوفمبر

« لست أستطيع أن أصف لك مبلغ السفالة في مسلك الحكومة المصرية .
فهي لا تعتبر قواعد اجراءات المحكمة ورجالها يقولون انهم لا يبالون بشيء لانهم
يتقاضون بالطرق السياسية لشنق عرابي »

من نيبيار الى بلنت فى ٢١ نوفمبر

« نحن نكافح جميع قوات الحكومة المصرية وليس من يساعدنا . ولكنى
اعتقد أن لورد دوفرين سيأتى ويخلصنا في النهاية . ان الحكومة تنوى ان تقتل
هؤلاء المعتقلين ظلماً وعدواناً ونحن نجد ليل نهار لكي نحبط مساعيهم . وولسون
ودفرين يساعداننا ولكن الحكومة المصرية سريعة يقظة ولا ذمة لرجالها . أمانحن
فبالضرورة نسير ببطء وحذر »

من برودلى الى بلنت فى ٢٦ نوفمبر

« تقترح الحكومة المصرية محاكمة عرابى على حدة . أرسل لنا رأيك بالتلغراف »

من برودلى إلى بلنت فى ٢٧ نوفمبر (بالتلغراف)

« ارسلنا لك خطابات لبيان الحالة . عندى ما يجعلني أعتقد ان الحكومة ترضي بنفى عرابي ومحمود سامي وطلبة الى مدينة الكاب أو أى مكان آخر اذا اعترفوا بتهمة الثورة وبالاستمرار على الحرب ضد أوامر الخديو وتحكم على الباقين بالنفى البسيط أو العفو . أرجوك أن لا تبوح بشيء من هذا . وأنا ونيبيار موافقان على هذه التسوية وذلك للصعوبة القائمة فى سبيلنا في نفي تهمة الاحراق الخ »

من بلنت الى برودلى فى ٢٨ منه

« لا أوافق على الشروط التي ذكرتموها . لا أوافق مطلقا على النفى في الكاب . سأستشير بعض أصدقائى عن المال . ومركزنا السياسى قوي جدا . وسأرسل الرد النهائي بعد »

من برودلي الى بلنت . خطاب مؤرخ في ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٨٢

(خصوصى ويجب عليه الرد بسرعة)

عزيزى بلنت

« أرجو منك ان تستعمل تبصرك وهدوء نظرك وحكمتك فى موضوع هذا الخطاب. لقد تحادثت اليوم مع دوفرين حديثاً طويلا وهو يتكلم معنا بلهجة الصداقة وأمامنا الآن ملف القضية . وليس يواجهنا من الصعوبات سوى مسألة احراق الاسكندرية . وليس هناك ما يبرهن على ان عرابي قد أمر بالاحراق . ولكن يبقى بعد ذلك حقائق كريهة . مثال ذلك انه لم يأمر باطفاء النار ووقف النهب ثم صداقته الحميمة مع سليمان سامي بعد ذلك ثم عدم معاقبته المجرمين ثم شرائه البترول بكميات كبيرة ثم الكيفية المنظمة التى اتبعها الجنود فى احراق المدينة

« هذه هي الصعوبة . فهل لم يكن فى وسع عرابى وقف الحريق ؟ ثم ان خطبه السابقة فيها لهجة النار وتكاد توهم بالدعوة الى الاحراق

« واذا أقر عرابى ببعض التهم الرسمية كأن يعترف مثلا بعصيانه أوامر الخديو عند ما أشار عليه بالكف عن الحرب فانه عندئذ ينفى

« وعندئذ يكون المنفي مدينة الكاب مع التساهل الكافى . وأظن أنى أقدر ان أحصل له هو وسامي وطلبة على هذه الشروط

أما الآخرون فالنفى البسيط أو العفو . واظن اني اقدر على أن أحصل له على مرتب بعد استصفاء امواله مع عدم تجريده من رتبته » واذا لم نرض نحن بهذا فان المحاكمة ستطول وقد يتغير الرأى العام . فتزيد علينا النفقات ولا تنس مع كل ذلك تهمة احراق الاسكندرية

« واذا افشيت شيئاً من هذه الاسرار فانك تؤذينا اكبر اذى . فتأمل فى كل هذه المسائل واذكر مسئوليتنا العظمي الخطيرة . ودوفرين يتودد الينا . ارجوك اذا وافقت على مقترحاتي ان ترسل لى بالتلغراف كلمة « سلام » واذا لم توافق وكنت ترغب ان نستمر في الدفاع فارسل لى كلمة « حرب » وانا مستعد ان اكافح كفاح الرجال الى النهاية المرة . ولكنى اعرض عليك كل شيء فتأمل وتدبر واذكر الطوارىء

صديقك المخلص

بردولى

س نيبيار الى بلنت في ٢٧ نوفمبر

عزيزى بلنت

ان مما يؤسف له جد الاسف ان مصلحة البريد قد وقفت على مكاتباتنا فقد فتحوا خطابك الاخير المسجل الذى ارسلته الى وتسلمته انا يوم الجمعة الماضي . وكان بالخطاب جدول التهم التى قدمها لنابوريلى وملحوظة صغيرة منك . ولا اظن انه سرق من الخطاب شيء . وسأرسل هذا الخطاب الى م . هاسكويث فى قاعة المحامين « تمبل بار » في لندن وذلك حتى لا ينتبهوا اليه ويفتحوه ـ وقد احتججت في الحال ولكنى لا اعتقد أنهم سيكفون عن التجسس . ثم اني آسف ايضاً لانى لا احتفظ بنسخ من الخطابات التى ارسلها لك لكي اراجعها . فلا تدهش اذن اذا وجدت تكراراً في اقوالى . ولست اقدر على اخبارك بجميع المكايد التى ينصبونها لنا لانها

تملأ المجلدات . ويظهر لى ان الخطاب قد فتح من فوق الختم ثم الصق بالصمغ ثانياً وكان هذا العمل متقناً ولولا ان الصمغ لم يكن قد جف تماماً لما كشفت هذه الفعلة فلما فتحته انفتح من مكان الصمغ وسأرسل لك رقعة عن البريد الرأسي فلا تدهش لتأخر هذا الخطاب

« وقد اشتغلنا بجد منذ ارسال البريد ولكن لم يجد شيء منذ ذلك الوقت سوى انه قد أذن لنا بالدفاع عن محمود سامي وقد جلسنا معه عدة جلسات . أما « طلبه » فمريض ومرضه ناشيء في الاغلب من التهيج العصبي وهو يشكو من علة الربو ولا أعرف هل يموت ام لا ولكني على أي حال قد اجتهدت لاحصل له على المعونة الطبية وجعلته ينقل من غرفته وأحضرت له خادما وسريرا

« ان البينات عن حريق الاسكندرية لم ترسل الينا وانما علمنا بها من الاجبشيان جازيت وهذه البينات قد تكون صحيحة وقد لا تكون . وهي ليست قوية ولكن فيها ما يكفي لان يصبغ التهمة بصبغة الحقيقة . فمن المهم جداً أن نبحث عن طريق أخرى للخروج من هذه الصعوبة وايجاد حل آخر غير الحل الذى ننتظره من المحكمة العسكرية . ولست أشك في قدرتنا على تفنيد هذه البيانات بل نسحقها سحقاً وقت الاستجواب فى المحكمة . ويمكننا أيضاً أن نوجع الاتهام عن مذبحة ١١ يونيو ولكن المراجع العليا تعتقد انه ان ثبتت احدى هاتين التهمتين على عرابى فسيحكم عليه بالشنق. فلنفرض ان المحكمة حكمت على عرابى بالاعدام فليس هناك سوي الحكومة الانجليزية لالغاء هذا الحكم . وانى أعتقد ان من الخطر ان تترك للحكومة الانجليزية فحص البينات ومعرفة الطرق التى حصلوا بها عليها . اذ من المحتمل ان وزارة الخارجية تنظر نظرة عاجلة وقد تترك عرابى فى بدء المحكمة وتصرح بأنه قد عمل كل شيء لضمان نزاهة المحاكمة وانها لا يمكنها التدخل لقلب الحكم بعد اذ منح الدفاع جميع الفرص اللازمة ليشرح موقفه . ثم ان من المرجح أنهم سيحكمون بحكم ما على عرابى وأى حكم تنطق به المحكمة هنا يكون كبير الخطر عليه وعلى سائر المعتقلين .

« والآن أرى بعد التأمل والاعتبار انه يجب على المعتقلين الا يأمنوا جانب المحكمة اذا وجدوا للخلاص طريقة أخرى. فاذا عرضوا علينا شروطا مقبولة للنفى مع

ضمان المعيشة فيجب الا نرفضها . والخلاصة انه اذا قر قرار المحكمة على ان عرابى مجرم فمن المؤكد الحكم عليه بالاعدام . واذا برئ فسينفى بدون ما يضمن له معاشه فى منفاه . وعندى ما يعشى على اعتقاد ان هذه التسوية مقبولة عند الجميع ماعدا رياض اما دوفرين فموافق عليها

« منتظر ردك لكى أقف على رأيك واقبل تحيات المخلص لك

« نيبيار »

« حاشية — من جهة القضية كل شيء يسير على ما يرام . فقد عالجناها من الجهة القانونية ومن جهة الحقائق ومن جهة سفالة الاجراءات . ولكن هناك الاخطار والاعتبارات التى أشرت اليها . وقد ناقش برودلى جميع الادعاءات فى المحكمة ولدى دوفرين بكل قدرة وهمة وحكمة . والعدل في صفنا ولكن الحكم لن يصدر من المحكمة وانما سيصدر من مجلس الوزراء . ومن المحال ان ننكر قيمة الاشاعات وليس لدينا من الوسائل مايمكننا من تمحيصها »

من برودلى ونيبيار الى بلنت في ٢٨ نوفمبر (بالتلغراف)

« تحادثنا طويلا مع دوفرين . فنرجوك أن تأذن لنا بالاتفاق على امثل الشروط والتأخير يقضي على كل شيء وزلا يمكن الثقة بمعونة وزارة الخارجية . ودوفرين يميل الى الخروج تعلياته لكي يساعدنا وهو الآن مسيطر على الحكومة المصرية . ودفاعنا عن تهمة حريق الاسكندرية غير مقنع ومن هنا القلق فانتهز الفرصة الراهنة . ومساعدة دوفرين ضرورية جداً . ارسل انا بالتلغراف الاذن بالاتفاق . سنتحادث مع دوفرين غداً فى الساعة الحادية عشرة

« برودلى ونيبيار »

من نيبيار الى بلنت فى ٢٨ نوفمبر

« اقسم لك بشرفى اني لا أرى انا يمكننا الحصول على افضل مما ذكرناه فى تلغرافنا السابق . فوافق ولاحظ ان مصلحتنا الشخصية لا تتفق مع هذا الطلب »

« نيبيار »

من بلنت الى برودلى ٢٨ منه (نصف الليل)

« لا أوافق على شروط النفى الا اذ كان نفياً شريفاً بدون اعتقال مثل عـدن أو مالطة أو القصير . فاتفقوا في حدود ذلك »

من برودلى الى بلنت (بالتلغراف ٢٩ نوفمبر)

« اعطانا عرابى وثيقة مكتوبة يقرر فيها السلطة التامة لنا لكي نتفق بشأنه مع دوفرين . ودوفرين يقترح أن عرابي مذنب من حيث الثورة فقط والنزول عما عدا ذلك من التهم . أما الحـكم فسيخفف الى النفى في مكان طيب تتفق عليه أنت مع وزارة الخارجية مثل جزر الازوريس وسيعطي مرتباً مناسباً ويعوض عن استصفاء امواله

« واكبر ظني أنك لاتدرى الصعوبة التي نكابدها فى دفع تهمـة حريق الاسكندرية والحصول على شهود الدفاع . ووزارة الخارجية لن تتداخل فى الحكم اذا كان أقل من الاعدام فاذا كان الحكم بالسجن مدة طويلة فى مصر فهي لن تتدخل وانا مقتنع بان النتيجة ستكون أسوأ من هذا وانى أخشى هـذه المسئولية وذلك لوقوفي على الحالة هنا . فارجو أن تكتب لنا بالموافقة علي ما نعمل لكي نتجنب وقوع كارثة »

من بلنت الى برودلى في ٢٩ نوفمبر الساعة الثالثة بعد الظهر .

« استشرت دلاوار وأنا موافق على التسوية على أسـاس التلغراف الذي ارسلتموه الىّ »

من برودلى الى بلنت فى ٣٠ نوفمبر .

« كل شي يسير على ما يرام : اجتهد مع دلاوار في البحث عن مكان النفي . وهنا يقترحون فيجي . واشكرك على ثقتك »

من بلنت الى برودلى في ٣٠ نوفمبر .

« لا تقبل أن يكون المنفي فيجي أو ازورس . يجب أن تلح فى ان يكون المنفى فى وسط بلاد اسلامية لكي يؤدى عرابى فرائض دينه . وهم لا يقدرون على الرفض. سأستشير . دى لاوار ليس هنا »

من برودلى الى بلنت فى أول ديسمبر .

« سلوك دوفرين جميل جداً . وهو يقترح أن يفاوض دلاوار وزارة الخارجية

عن المنفى . والمعتقلون كلهم راضون »

من برودلي الى بلنت في ٣ ديسمبر .

« انتهت محاكمة عرابي . والاخبـار الصحيحة عنها في جريدة ستاندارد . قامت الحكومة المصرية بجميع عهودها »

من برودلى الى بلنت في ٤ ديسمبر .

« لقد سر عرابى من النتيجة . وهو يشكرك ويميل الى أن يكون المنفى فى الكاب. دوفرين جدير بكل ثناء »

من برودلى الي بلنت فى ٤ ديسمبر .

« مدهش لعدم كتاباتك . نجاحنا تام . الانجليز هنا في حنق »

من بلنت الى برودلي .

« أهنىء الجميع . يقول دلاوار أن دوفرين حر فياختيار مكان النفى. ولا أظن الكاب يوافق فما رأيك عن جبل طارق أو جرزى ؟ استشر عرابى »

من برودلى الى بلنت .

« اشكرك على تلغرافك »

يدرك القارىء من هذه التلغرافات انى لم أرض بالتسوية التى عرضها دوفرين الا كرهاً . فقـد كان الرأي العام معنا في ذلك وكنت أعرف أنه ليس في وسع وزارة الخارجية الا أن تقبل مايريدها عليه ولم تكن لى رغبة فى أن تلصق بنا تهم الثورة ولكن فى الوقت نفسه لم يكن يسعني بازاء تلغرافات برودلى وخاصة تلغرافات نيبيار أن أرفض التسوية . فان المسؤلية كانت كبيرة .

وكان على أيضا أن اعتبر مسألة النفقات . صحيح انه قد فتح باب التبرعات ودخل فيه عدد من ذوى الجدارة . ولـكن مبلغ هذه التبرعات لم يزد على مائتى جنيه وذلك فى حين أن نفقات برودلى كانت قد بلغت فى ذلك الوقت نحو ثلاثة آلاف جنيه. ولو استمرت المحاكمة شهراً آخر لبلغت النفقات اكثر مما كنت استطيع حمله ، وذلك في قضية لم تكن قضيتى بالذات . فـلذلك استشرت ديلاوار وروبرت بورك فحذرنى هذا الاخير من الاعتماد على الرأى العام ونصح لى بالرضا . واتذكر الآن

حديثي معه ونحن نروح ونغدو فى ميدان مونتاجو حيث كان يسكن وبقيت متردداً نحو ساعة انتهيت فى آخرها بالرضا وكانت النتيجة انى أرسلت تلغراف الموافقة وبعد ذلك وبعد مجادلات طويلة رضينا ان يكون المنفى جزيرة سيلان وهي المكان الذى يؤثر عنه انه نفي اليه ابونا آدم عند ما طرد من الفردوس . ولم يكن من المستطاع وجود مكان أشرف منه

ولم يكتب دوفرين شروط الاتفاق وكان برودلى قد سها ان يطالبه بذلك لانه كان يجب عليه أن يلح فى كتابة شروط ولو فعل ذلك لوفر علينا عناء كبيرا . وكان هذا الاهمال سبباً في تجريد عرابى وسائر المساجين من رتبهم العسكرية ولم يكن برودلى ينتظر أن يرضى دوفرين بهذا العمل ولو انه كان منتظراً مشكلاً بعد الحكم بالاعدام . ثم نشأ النزاع أيضا عن قيمة المرتب الذى سيسمح به لعرابي بدلا من أملاكه التى استصيفت . والظاهر ان برودلى كان قد بالغ للمساجين في أمر هذا المرتب . أما انا فأعتقد انهم عوملوا بسخاء لان أملاك اكثرهم كانت قليلة القيمة ثم ان أملاك زوجاتهم لم تستصف . وكان أكبرهم خسارة محمود سامي لانه كان يملك أملاكا واسعة استصفتها الحكومة . أما عرابى فان ما أخذته الحكومة لم يكن سوى ثمانية فدادين ورثها عن أبيه وأثاث بيته المستأجر فى القاهرة وخيوله ونحو ستمائة فدان من الارض البور اشتراها فى ايام عزه . وكانت كل هذه الممتلكات وقت الاستصفاء لا يزيد ثمنها على ألفي جنيه أو ثلاثة آلاف لان الفدان من الارض البور فى ذلك الوقت لم يكن يزيد ثمنه على بضعة ريالات . ولم يكن عنده من الوقت ما يساعده على اصلاحها (١)

---

(١) منذ مدة قريبة أرسل عرابى الى الملك ادوارد عريضة طلب منه فيها تعويضا عن هذه الارض . وهذا الطلب من اوهام عرابى وهو يدل على ما يعرفه عنه المحتكون به وهو انه قد دخل فى سن الهرم فهو فى خرف الشيخوخة

وقد كان أسوء شر وقعنا فيه اننا لم نطلب تحديد معنى العفو العام ومن هنا نشأت اتهامات جديدة

وهناك مسألة أخرى كثر فيها النزاع فى ذلك الوقت ولكن لم يعد لها اهمية الآن وهي هل اقرار المساجين كان اقراراً للحكومة الانجليزية المصرية ؟ ولكنى لا أحتاج الى عناء البحث الآن فى هذا الموضوع وانما أقول ان الحكومة الانجليزية قد حققت غايتها فجعلتنا نقر بالثورة ثم استندت الى هذا الاقرار لكي تجعل تدخلها في مصر ذا وجه شرعى. فلماحصلت على هذا لم تعن أقل عناية بسائر المساجين الذين لم يشملهم العفو فبطش بهم الخديو توفيق . ولكن ما حصل لهؤلاء حصل لهم فى عهد الاحتلال وانا لا اكتب عنه الآن والمذكرات لاتسع هذه التفصيلات . واظن اني قد اوضحت جميع الاعمال التى قمت بها فيالثورة المصرية فيهذه المذكرات

والآن وأنا أعيد النظر الىاعمالى الماضية واتذكر كيف ابتدأنا بالنجاح وانتهينا بالفشل في محاولة الحصول للوطنيين من الحكومة الانجليزية على حقهم في معاملة حسنة — اقول انى وأنا القي نظرة الى الوراء عن اعمالى الماضية لا ارى اني عملت ما آسف عليه . وقد أخطأت بالطبع عدة اخطاء واشعر انىمسئول الى حد كبير عن تصميم الوطنيين الذى أدى الى الحرب . ولكنىلا أزال اعتقد أن حظهم كان يكون أسوأ لو أنهم لم يقاتلوا الانجليز وسلموا بمطالب القناصل الاوروبيين . فأقل مافي عملهم أنهم استفادوا من سماع العالم لقضيتهم واذا كان الفلاح قد انتصف بعض الانتصاف من ظالميه فذلك لا يعزى الا الى جهود عرابي التى كنت اشجعه فيها حتى الى وقت اعلانالحرب اذ كانت هذه الجهود نتيجة مبادىء الوطنية السياسية . وقد كانت هذه الثورة سببا في أن تصغي انجلترا الى شكاوى الفلاحين بعد ذلك وهي وان كانت قد حرمتهم حق الحرية السياسية قدعالجت معظم شكاواهم

ولست أدرى ماذا يأتي به المستقبل لمصر . فقد زادت ثروة مصر مدة الاحتلال الانجليزى ومع انى لا اعتبر ان ثروة البلاد وغناها يدلانعلى حسن حالها قد كان لها مع ذلك قيمة من حيث انهما جعلا الفلاح يثبت في ارضه ويحتفظ بها لنفسه دون الاجانب وما دامت الحال كذلك فستبقى الامة حية وربما يأتى اليوم الذي يعاد فيه الى الفلاح دستوره وعندئذ يدرك الفلاحون حقيقة ثورة سنة ١٨٨٢ ويعرفون انها كانت بدءحياتهم الوطنية وهي لذلك من محاسن تاريخهم ومفاخره .

وانى لا زلت اعقد آمالى بذلك اليوم وان كان المرجح اني لن أعيش حتى أبلغه وأراه (١)
واذا أتيح لى أن أعيش عدة سنين أخرى فانى أنوى أن أستمر فى كتابة هذه المذكرات . ولهذا قد جعلت هـذا المجلد قائما برأسه ليست له علاقة بالمذكرات الاخرى .

وقد كان بودى ان أضمنه خلاصة أعمال بعثة دوفرين وبرنامجها فى تعمير البلاد وكذلك أيضا جهود غلادستون الضعيفة فى اصلاح اخطائه السابقة التى أذى بها الحرية وأذى بها شهرته ولكن هذا يسوقنى الى التوسع واني أفضل أن أختم قصتى عند النقطة التى انتهيت اليها هنا وهي ختام سنة ١٨٨٢ تلك السنة الحافلة بالحوادث .

وقد تسلمت فى أواخر أيام تلك السنة خطابا من جوردون تكلم فيه عن الحرب وعن سحق حرية المصريين ومما قاله فى نهايته .

« واذا رأيت ظلم المساكين والعبث بالعدل فلا تعجب لان الله يرى كل شىء . »

﴿ تمت المذكرات ﴾



(١) كتب هذا فى سنة ١٩٠٤ .

تاريخ احمد عرابي بقلمه

﴿ الذيل الاول لكتاب التاريخ السرى للاحتلال البريطانى ﴾

هذا هو تاريخ حياة عرابى وحوادث سنتي ١٨٨١و١٨٨٢ كما كتبه لى
أنا ولفردسكاون بلنت أمس فى ١٦ مارس سنة ١٩٠٣ فى الشيخ عبيد

كان مولدى فى سنة ١٨٤٠ فى بلدة هربة قريبا من الزقازيق فى الشرقية. وكان أبى شيخ القرية وكان يملك ثمانية فدادين ونصف فدان ورثتها عنه وأضفت اليها ما اشتريته مما كنت أدخره من مرتبي الذى بلغ أحيانا ٢٥٠ جنيه فى الشهر فبلغت أملاكي ٥٧٠ فدان وهذا هو المقدار الذى استصفته الحكومة وقت محاكمتى. وكانت هذه الارض وقت اشتريتها رخيصة لا يزيد ثمن الفدان عن بضعة جنيهات فى حين انه يساوى مبلغاً كبيراً الآن ، لأنها كانت فى ذلك الوقت رديئة أما الآن فهي جيدة. ولكن لم يكن فيها شيء. وكان كل ما أدخره اشترى به أرضاً ولم يكن لى أملاك أخرى أو منقولات الا اثاث البيت والخيول وكلها لم يكن يتجاوز ثمنها الف جنيه.

ولما كنت صبياً دخلت الازهر ودرست فيه سنتين ولكني جندت وعمرى ١٤ سنة لانى كنت مديد القامة وكان سعيد يحب تجنيد أولاد المشايخ لكي يصيروا ضباطا. فامتحنت فافادني فى الامتحان ما كنت قد تعلمته فى الأزهر فعينت كاتباً بدرجة « بلوك أمين » ولم أنتظم فى صف الجنود وأعطيت مرتباً مقداره ستون قرشاً فى الشهر. ولكني لم أحب هذا المركز لأني خشيت الا أرقي وكنت أطمح الى منصب عالٍ يماثل منصب مدير مديريتنا. فقدمت عريضة الى رئيسى ابراهيم بك لكي يردني الى الصف. فاخبرني ابراهيم بك باني أخسر فى هذا العمل لان مرتبي ينزل عندئذ الى خمسين قرشاً ولكنى ألححت عليه فقبل. ثم لم يمض قليل حتى امتحنت مرة أخرى ففزت وكنت الاول فيه فجعلوني « جاويشاً » ثم امتحنت

مرة ثالثة فعينت ملازماً و كان عمرى وقتئذ ١٧ سنة . وكان سليمان باشا الفرنساوى يحبني فألح علي سعيد باشا لكي يرقيني فصرت قائمقاما وكان سني عشرين سنة . ثم أخذني سعيد باشا معه كياوره عند ما زار المدينة قبيل وفاته بعام وكان هذا فى سنة ١٢٧٩ هجرية (١٨٦٢م)

وكانت وفاة سعيد باشا من الكوارث التى نزلت بى لانه كان يحب أبناء البلاد، أما اسماعيل فلم يكن كذلك ، ففى زمنه أعيد كل شيء الى أيدى الاتراك والشراكس وصار المصرى في الجيش مجرداً من الحماية ومن الترقية، فبقيت قائمقاما مدى ١٢ عاماً ولم يحدث فيها شيء حتى جاءت حرب الحبشة ، ولم أكن قد أرسلت الى الحرب الروسية ولكن لما نشبت حرب الحبش طلب جميع الجنود وسحبت الحاميات من طريق الحج وكلفت أنا بالذهاب للقيام بسحب هذه الحاميات ، وذهبت وحدى فلم يكن معى جندي واحد ولم أزود بقرش واحد وكان عليَّ أن أصل الى مكان هؤلاء الجنود على الجمال بقدر المستطاع ، فذهبت الي النخل والعقبة والوجه وصرت أجمع الحاميات وأضع مكانها العرب كخفراء للحصون . ثم عبرنا البحر الى القصير وذهبنا الى قنا ومن هناك الى القاهرة . ولم يدفع لى قرش واحد على قيامى بهذه المهمة بل قمت أنا نفسي بنفقات سفري . وكانت البلاد فى حالة مروعة من الظلم ومن ذلك الوقت بدأت أهتم بالسياسة رجاء أن أخلص البلاد من الخراب . ثم ذهبت الى مصوع واشتركت فى الحملة التى كانت بقيادة راتب باشا وكان لورنج باشا الامريكي رئيس أركان الحرب . ولم أشهد معركة لانى كنت قائماً في ذلك الوقت بمسألة النقل بين مصوع والجيش . وكانت المعركة من النكبات التى نزلت بالجيش اذ قتلت جنود سبع كتائب . وكان الخطأ يعزى الى لورنج باشا . وكان ابن الخديو حسن هناك وكان فتى صغيراً يتعلم الجندية ولم يكن يقود الجيش ولم يؤخذ أسيراً عند الاحباش.

وبعد ذلك أخذت أفكر فى الشؤون السياسية. وأتذكر انى رأيت الشيخ جمال الدين ولكنى لم أكلمه وقد أفادتني علاقتى القديمة بالازهر معرفة عدد من الطلبة . وكان من أفضل من عرفتهم الشيخ محمد عبده والشيخ حسن الطويل . وكان أول كتاب أدركت منه بعض الآراء عن المسائل السياسية كتاباً مترجماً الى العربية عن

« حياة بونابرت » تأليف الملازم لويس. وكان سعيد باشا قد أخذ هذا الكتاب معه في زيارته المدينة وكان ماذكر فيه من أن ثلاثين ألف جندي فرنسي قد فتحوا بلادنا قد هاج غضب سعيد باشا فرمى بالكتاب الى الارض وقال لي : « انظر كيف قهر مواطنوك » فأخذت الكتاب وقرأته طول الليل فلم أنم حتى الصباح . ثم ذهبت الى سعيد باشا وأخبرته باني قد قرأت الكتاب وان السبب الذى جعل الفرنسيين ينتصرون هو ان جيشهم كان منظما واننا نستطيع أن نعمل ذلك بعصر لواردنا .

والآن تسألني عن الشغب الذى حصل فى وقت اسمعيل ضد نوبار وهل لى يد فيه . فأقول انه لم يكن لي يد فيه لاني كنت في وقت ذلك الشغب في رشيد مع الآلاى . ولكن فى اليوم الذى سبق يوم الشغب أرسلت الى الحربية أنا والقائمقام الآخر محمد بك نادى تلغرافاً لكي ننظر في أمر الذين فصلوا من الجيش ولم يدفع لهم متأخر مرتباتهم بل لم يكن لديهم ما يقتاتون به . وكانوا وقتئذ فى العباسية . ولكني لم أعرف ماذا كان يدبر ضد نوبار باشا . والحقيقة ان اسمعيل باشا هو الذى دبر هذا الشغب بواسطة أحد خدمة شاهين باشا وصهره لطيف افندى سليم ناظر المدرسة الحربية . وانضم اليهم بعض الجنود المعزولين ولم يكونوا كثيرين . ووجدوا نوبار على أبواب الوزارة على وشك أن يركب مركبته . فهاجموه ولكموه وشدوا شاربيه . وذهب الخبر الى اسمعيل باشا لكي يهدىء الشغب فذهب ومعه عبد القادر باشا وعلى فهمي بك الملازم فى حرسه فأمره بأن يطلق النار على الطلبة ولكن على فهمي أمر باطلاق النار فى الهواء فلم يجرح احد . ولم يكن على فهمي معنا فى ذلك الوقت فقد كان اميناً لاسمعيل وكان قد تزوج احدى سيدات السراي ولكنه لم يحب أن تهرق دماء هؤلاء الشباب

ولكي يخفى اسمعيل اشتراكه فى ايجاد هذا الشغب اتهمني أنا ونادي بك وعلى بك الروبي بأننا زعماء المشاغبين وقدمنا للمجلس المؤلف من ستون باشا وحسن باشا أفلاطون وعثمان رفقى الذى صار بعد ذلك وكيل وزارة الحربيـة وآخرين . فقررت فى ذلك المجلس . اننا لا يد لنا فى هـذا الشغب اذ كنا فى رشـيد ولم نصل الى القاهرة الا في الليل ومع ذلك قد وبخنا وفصل كل منا عن الايه . فأرسل نادى الى

المنصورة وأرسل الروبي الي الفيـوم . وأرسلت أنا الى الاسكندرية كوكيل لمشايخ الصعيد الذين كانوا يرسلون المتأخر عليهم من الضرائب عيناً كالفول وغيره من الغلات الى الاسكندرية فكان يتسلمها بعض يهود فى الاسكندرية ويرتهنونها جزاء ما يقترضه منهم اسماعيل من الاموال

ولكن قبل أن نفترق اجتمعنافاقترحت عليهم أن نكون عصبة لخلع اسماعيل ولو فعلنا ذلك لحللنا المسألة من وقتها لان القناصل كانوا يرغبون في التخلص منه بأية طريقة وكنا قد وفرنا على أنفسنا جميع المشاكل التالية وكنا وفرنا أيضا ١٥ مليون جنيه أخذها اسماعيل وقت خلعه . ولكن لم يكن قد ظهر بعد من يقود هذه الحركة فوافق الموجودون علي رأيي ولكنا لم نقدر على تنفيذه . ثم خلع اسماعيل فزال عنا عبء ثقيل ولكنا لو كنا نحن قد فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا تخلصنا من عائلة محمدعلى بأجمعها ولم يكن فيها أحد جديرا بالحكم سوى سعيد وكنا عندئذ أعلنا جمهورية.وقد اقترح الشيخ جمال الدين على الشيخ محمدعبده أن يقتل اسماعيل على جسر قصر النيل فوافق محمد عبده على الاقتراح .. وكان اسماعيل قد جمع أموال المديريات قبل خلعه بستةأشهر وقد اعترف لطيف بعد ذلك باشتراكه فى هذه الاعمال . وقد اودع لطيف السجن ولكن جماعة الماسون طلبوا من نوبار الافراج عنه فخلى سبيله

ولما خلف توفيق اسماعيل أعلن في أول أعماله انه ينوى منح البلاد دستوراً . والآن تسألني هل كان مخلصاً فى هذه النية ؟ فأقول أنه لم يكن مخلصاً ولكنه كان ضعيفاً الى درجة لاتصدق ولم يكن يقدرعلى أن يقول « لا » وكان يتأثر بمايشير عليه به وزيره شريف باشا الذى كان يحب النظم الدستورية فى الحكومات . وكان فى عهد والده يجمع الاموال وكان هذا اهم مايهتم له . فكان يأخذ الهدايا من جميع المتقدمين بالعرائض لابيه وكانوا يعتقدون أنهم بارشاد توفيق يستطيعون تحقيق أغراضهم عند والده اسماعيل فلم يكن توفيق يرغب في وجود دستور ولكنه شق عليه أن يقول : « لا » عندما عرض عليه شريف هذا الرأي فوعده به ولكن لم يمض شهران حتى وقع تحت نفوذ القناصل الذين منعوه من اصدار قرار الدستور فجمع عندئذ شريف ووزراءه وقرروا معه انه اذا استقال فهم أيضاً يستقيلون وأقسموا له بشرفهم ولكن

على الرغم من القسم انضم بعضهم الى وزارة رياض باشا الذى صار رئيساً للوزراء مكان شريف . ولكي يرغبهم رياض في وزارته تعهد لهم بأن كل وزير سيكون مستقلا فى وزارته وأن توفيق لن يتدخل فى ادارة أعمالهم . فصار محمود سامي وزير الاوقاف وعلى مبارك وزير المعارف وعثمان باشا رفقى وهو تركي كان يكره الفلاحين صار وزير حربية وكانت الحكومة الجديدة حكومة جائرة . فقد كتب حسن موسى العقاد عريضة بشأن نظام المقابلة (الضرائب) فكان جزاؤه لتقديم هذه العريضة النفى الى البحر الابيض ، وعزل احمد فهمى لعريضة أخرى . وعزل آخرون لان الوزارة لا تنظر لهم بعين الرضا وكان أسوأ هؤلاء الوزراء جميعهم عثمان رفقى

وكنا نحن الضباط كل منا مع ألايه وكنا نقاسى صنوف الظلم لاننا مصريون : وكان الضابط المصري يقبض عليه لاى علة ويوضع مكانه رجل شركسي . وكانت النية أن يعزل جميع الضباط المصريين . وكنت أنا من المغضوب عليهم لأني رفضت أن تؤخذ جنودى لحفر قناة التوفيقية وكانت العادة أن يسخروا في مثل هذه الاعمال دون أجر . ودبرت التدابير لكي اشتبك فى مشاجرة فى بعض الشوارع فأقتل ولكن حب جنودى لى كان ينجيني على الدوام من هذه المشاكل . وبات جميع الضباط الذين لم يكونوا شراكسة في خطر وفزع لا يبرحانهم وكان هذا هو السبب في أن على فهمي الذي كان متصلا بالبلاط الخديو لزواجه احدى جواريه انضم الينا لانه كان يخشي أن يعزل ويوضع مكانه شركسى او تركي . وكان ضابطا في الآلاي الاول من الحرس وكان مركزه عابدين وكنت أنا فى العباسية مع الآلاى الثالث . وكان عبدالعال حلمي فى طره وكان على روبي يقود الخيالة .

ثم حدثت أزمة في يناير سنة ١٨٨١ . فقد كنت ذهبت الى دار نجم الدين باشا في المساء . وكان هناك بعض الباشوات فاخذوا يتسامرون عن التغييرات التى ينوى عثمان رفقى أن يقوم بها فعلمت من كلامهم أنه قد تقرر أن أعزل أنا وعبدالعال من قيادتنا ويعين في مراكزنا ضباط شركس . وفى الوقت نفسه جاءني رسول يقول أن على فهمي وعبد العال فى بيتي ينتظرانني فذهبت الى البيت ووجدتهما وسمعت منهما هذا الخبر السيء نفسه . فجلسنا نتشاور فيما يجب أن نفعله فاقترح علينا

عبد العال أن نصطحب قوة ونذهب الى منزل عثمان رفقي ونقبض عليه أو نقتله . ولكني قلت له : « كلا يجب أن نقدم عريضة أولا لرئيس الوزراء . فاذا لم يقبل نقدم عريضة أخرى للخديوي »

فكلفاني بأن اكتب العريضة. فكتبت العريضة وأوضحت الحالة وطلبت عزل عثمان رفقي وزيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندى واعلان الدستور الموعود .

« ملحوظة من بلنت : أظن أن عرابي قد أخطأ هنا اذ خلط بين هذين الطلبين الاخيرين وبين الطلب الاول الذى قدم فى ٩ سبتمبر ولكنه ألح بانه قد أثبت هذه الثلاثة الطلبات في فبراير »

ثم وقعنا نحن الثلاثة هذه العريضة مع علمنا بأن حياتنا قد صارت فى خطر.

وفى اليوم التالى ذهبنا بعريضتنا لرياض في وزارة الداخليـة فقرأها فى غرفة داخلية ثم خرج الينا وقال لنا: « هذه عريضة مهلكة . ماذا تطلبون ؟ تغيير الوزارة ؟ ومن يأخذ مكانها ؟ ومن تقترحونه لكي يقوم باعمال الحكومة ؟ »

وكنت أقصده هو ووزراءه السبعة بذلك . فغضب مني ولكنه قال أخيراً أنه سينظر فى طلباتنا وتركناه . وفى الحال التأم مجلس الخديوى وجميع رجال بلاطه وأيضا ستون وبلتز . واقترح الخديو أن يقبض علينا وان نحاكم ولكن الآخرين قالوا : « اذا حاكمت هؤلاء فيجب أن يحاكم عثمان باشا أيضا » وعلى هذا تركت المسألة لعثمان ليعالجها كما يرى وانت تعرف الباقي .

أما عن سؤالك هل كان يعرف الخديو فى ذلك الوقت عزمنا على كتابة العريضة فأقول انه لم يكن يعرف ذلك ولم يعرف أيضا أن على فهمي قد انضم الينا .

أما عن سؤالك هل كنت أعرف البارون دى رنج فاقول اني لم أكن أعرفه ولم أكن أعرف أحد من القناصل . ولكنى سمعت ان أكبر القناصل نفوذاً هو القنصل الفرنسي فكتبت اليه أخبره عن موقفنا ورجوته أن يخبر سائر قناصل الدول بأنه ليس هناك أقل خطر على رعاياهم .

أما محمود سامى فلم أكن قد عرفته بعد ولكنه كان صديقاً لصديق على روبى وسمعت انه من المتعلقين بالجريمة .

وكان من أصل شركسي ولكن عائلته عاشت فى مصر نحو ستمائة سنة .

أما في المظاهرة الثانية التى حدثت فى ٩ سبتمبر فقد كنا نعرف أن الخديو كان فى صفنا فانه أراد أن يتخلص من رياض الذى كان لا يكترث لأوامره . وقد رأيته وتكلمت معه مرتين في ذلك الصيف ولكننا لم نتكلم فى السياسة . وكانت رسالته لى على لسان على فهمي مقصورة على هذه الكلمات

« أنتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم »

والآن تسألنى عن اخلاصه فأقول أنه لم يكن قط مخلصاً وانما أراد أن يتخلص من رياض . ففى هـذه المظاهرة طلبنا عزل رياض مع سائر الوزراء ونحن نعلم انه سيفرح لهذا الطلب . ففى صباح يوم ٩ سبتمبر أرسلنا كلمة الى الخديو نقول اننا سنذهب الى قصر عابدين لكي نطالبه بأداء وعوده السابقة . فجاء وكان معه كوكسون وكان حديثى أنا مع كوكسون هذا فسألنى كوكسون هل ترضي بحيدر باشا فاجبته بأننا لا نرضى برجل يمت الى الخديو بقرابة ، ولم يكن لنا في هذه المرة الثانية طلبات مكتوبة وانما جددنا طلباتنا التى قدمناها فى أول فبراير وهي : مجلس النواب وزيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندى كما تنص على ذلك الفرمانات وعزل رياض ، فوافقونا على كل ذلك ، وفرح الخديو بذلك ، ولست أعرف هل كان كولفن هناك وهل نصح للخديو بشيء ما ، وانما رأيت هناك كوكسون وجولدسمث وكنت أخاطب كوكسون ولو حاول الخديو قتلى لاطلقت النار عليه ، والحقيقة أنه كان فى أشد الجذل والحبور لهذه المظاهرة .

تسألني الآن عن أبي سلطان (سلطان باشا) فأقول انه كان مغتاظاً لأنه عند ما ألفت وزارة شريف لم يعين في احدى الوزارات . وكان الظن ان منصب رئيس مجلس النواب أشرف وأهم . ولكنه هو لم ير هـذا الرأى فساءه انه ليس عضواً في الوزارة . وهذا أول ما جعله ينقلب علينا . أما عن سؤالك هل أسيئت معاملة الشراكسة الذين قبض عليهم وأودعوا السجن للمؤامرة عند ما كنت وزيراً للحربية فأقول أني لم أدخل السجن الذى كانوا فيه ولم أرهم يعذبون بل لم اقترب من السجن مطلقاً

أما عن مسألة هياج الاسكندرية فليس هناك شك فى أن الذى دبر هذا الهياج هو الخديو وعمر باشا لطفي المحافظ ومستر كوكسون . وقد دبر هذا الهياج قبل وقوعه بعدة أيام وكان الغرض منه ازالة الثقة فىّ لاني كنت قد تعهدت بحفظ النظام. فان الخديو أرسل تلغرافًا بالارقام الى عمر لطفى كما تعرف . واتفق عمر لطفى مع السيد قنديل رئيس المستحفظين على ايجاد هياج . وأخفى السيد قنديل هذه المسألة عنا ونحن فى القاهرة . أما اشتراك مستر كوكسون فينحصر فى أن عدداً من الصناديق التى تحتوى على الاسلحة النارية أنزلت الى الاسكندرية وأرسلت الى دار القنصلية حيث مستر كوكسون وبديهي انه كان يقصد بانزال هذه الاسلحة المدينة تسليح بعض الناس وعندما سمعت بالحادث أرسلت فى الحال يعقوب سامي الى الاسكندرية وأمرته بأن يبحث بحثًا وافيًا فانتهى من البحث باثبات جميع هذه الحقائق التي ذكرتها . وقد قيلت أشياء كثيرة غير صحيحة . فليس صحيحاً انه وجدت أجسام من القتلى النصارى فى لباس اسلامي . وابتدأ الهياج بين مالطى وحمار . ولكن هذه المشاجرة كانت عذراً ليس غير . وكان عمر لطفى كما تقول من شيعة اسماعيل . وتسألنى لماذا ترك مثل هذا الرجل الخطر فى مثل هذا المنصب الذى كان يساعده على احداث اكبر الاضرار وكل ما أقوله انه لم يكن تابعاً لوزارة الحربية بل كان يتسلم أوامره من وزارة الداخلية . وكان من سوء حظنا اننا تركناه فى مركزه . ولم يذهب نديم ولا حسن موسى العقاد الى الاسكندرية فى هذا الشأن وانما ذهب حسن موسى العقاد فى مسألة مالية .

وما تسألني عنه بصدد اسماعيل باشا صحيح . فقد عرض علينا اسماعيل أموالا . وظروف المسألة هي هذه : كنا طلبنا بعض المدافع من المانيا ولكنهم رفضوا أن يسلموها لنا ما لم ندفع الثمن . ولم يكن عندنا مال. فعرض علينا اسماعيل ٣٠٠٠٠ جنيه على شرط أن نقول اننا نشتغل في مصلحته . وكان الذى عرض علينا هذا المبلغ هو مسيو منجس (ماكس لافيسون) وكيل اسماعيل الروسي وكان لحسن موسى العقاد يدفى هذه المسألة . ولكن الاموال لم تظهر واذا كان اسماعيل قد أرسل المبلغ حقًا الى الاسكندرية فقد بقي في ايديهم فاننا لم نلمسه

لا أتذكر أني سمعت شيئاً عما تذكره من أن رونشيلد قد عرض عليَّ معاشاً سنويا قدره أربعة آلاف جنيه بشرط أن أعيش خارج مصر . وانما أتذكر أن قنصل فرنسا زارني بعد أن أرسل القناصل مذكرتهم في طلب عزل الوزارة المصرية وقال لى انه يدفع لي ضعفي مرتبي وقتئذ أى ٥٠٠ جنيه فى الشهر اذا كنت أذهب الى باريس وأعيش هناك كما كان يعيش الامير عبد القادر . فرفضت وقلت له ان واجبي يقضى عليَّ بأن أدافع عن بلادي وأموت فى الدفاع عنها لا أن أهجرها . ولم أسمع من روتشيلد بخصوص هذه المسألة .

والآن سأخبرك كيف خسرنا معركة التل الكبير فانه لما كان الانجليز يتقدمون دبرنا هجوماً نقوم به في القصاصين . وكان هذا التدبير يقتضي أن يتقدم محمود سامى الى ميمنتهم من الصالحية ونتقدم نحن الى الامام وفي الوقت نفسه تكون قد دارت قوة من جنوبى الوادى لكي تضربهم من المؤخرة . وجربنا الحلة وبدأنا بتنفيذها ولكننا فشلنا لان على بك يوسف خنفس خاننا وأفشى هذا التدبير وأرسل الى لورد ولسلي الرسم الكروكي الذى كنت رسمته أنا وأرسلته اليه، وكان أبو سلطان (سلطان باشا) بالنيابة عن الخديو قد أفسد على يوسف وضباطاً آخرين فى الجيش بالرشوة . ولما كنت فى السجن فى القاهرة جاءني سير تشارلس واسون ومعه رسمي الكروكي وسألني هل هـذا من رسم يدى فقلت « نعم » فاخبرني كيف وقع فى يده وقال : « انه تدبير محكم وربما كنتم هزمتمونا لو سرتم عليه »

فكانت هذه أولي نكباتنا . وفي التل الكبير فوجئنا وكانت الخيانة هي السبب أيضاً فى هذه المفاجأة . فان قواد الخيالة كان قد أغراهم أبو سلطان (سلطان باشا) وأملهم آمالا كبيرة . فكان مكان الخيالة فى مقدمة الجيش وكان عليهم أن ينذرونا عن تقدم الانجليز . ولكنهم تنحوا الي الجانب ولم ينذرونا . وكان الخائن علي بك يوسف خنفس فى الخنادق فوضع مصابيح لكي يهتدى بها الانجليز ثم انسحب برجاله فترك ممراً عريضاً لمرور الانجليز

انظر الآن الى هذه العلامات في هذه السجادة فهى بمثابة الخنادق . فهنا كان علي يوسف وكان محمد عبيد هناك . وكنت أنا فى مؤخرة الجيش على بعد ميل ونصف.

ولم نكن ننتظر هجوماً لاننا لم نكن نسمع إطلاق المدافع . وكنت أنا نائماً واذا بى استيقظت على هدير المدافع قريباً منا . وكان على روبي في المقدمة فأرسل الىّ يقول يجب أن أغير مركزى لان العدو يضربنا من الجنب . فقمت وركبت جوادي وذهبت الى حيث كان لنا قوة من المتطوعين وأمرتهم بان يتبعوني لكي نذهب الى الخطوط الاولى ونعاون المقاتلين . ولكنهم كانوا فلاحين ولم يكونوا جنوداً وكانت القنابل تسقط حواليهم فلاذوا بالفرار فذهبت الى الامام وحدى وورائي خادمي محمد . فلما رآنى وحدى وانني أتقدم الى الموت الا كيد أخذ بزمام جوادى وأقسم عليّ أعود . فلما بانت لى الهزيمة ورأيت الجميع يفرون عدت : ورافقني محمد حتى عبرنا وادى التل الكبير ثم حاذينا قناة الاسمعلية حتى وصلنا الى بلبيس وهناك وجدنا معسكراً آخر وقد وجدت ان على روبى كان سبقني هناك فعزمنا على ان نقاوم . ولكن ما هو ان وصلت خيالة درورى لين حتى فر الجميع فتركنا كل شيء واتجهنا نحو الجهة الشمالية ولكنه لم يكن خائناً . أما الخونة فهم عبد الغفار على ما أظن ومن يليه فى القيادة عبد الرحمن بك حسن وعلى يوسف خنفس . أنت تقول سعود الطحاوى ؟ ربما كان ذلك فهؤلاء البدو لا يوثق بهم وكان جده مع بونابارت لما جاء مصر منذ مائة سنة .

والآن قد رجعت الى بلادى بعد عشرين سنة من النفى والأسى وبنو وطنى صاروا يعتقدون أني قد بعت بلادى للانجليز وذلك لان بعض الصحف الفرنسية تقول ذلك .

رأي الشيخ محمد عبده

في تاريخ عرابى

(فى ١٨ مارس سنة ١٩٠٣ عرضت على الشيخ محمد عبده فى منزله فى عين شمس تاريخ عرابى كما كتبه لى . فوافق على أكثره ثم قدم لى الملحوظات التالية عنـه — ولفردسكاون بلنت)

أولا — بخصوص الشغب على نوبار أقول ان رواية عرابى صادقة ما عدا قوله عن على فهمي . فان الامر الذى أعطي له باطلاق النار على الطلبة لم يكن يقصد منـه التنفيذ . فكان على فهمى اطاعة للاوامر يطلق النار فى الهواء . وقد أمر نوبار بالقبض على لطيف بك بعد انتهاء الشغب ولكنه أفرج عنه بعد ذلك لان الماسونيين طلبوا ذلك وكان لطيف عضواً فى الجمعيات الماسونية . وكان يصرح بما قام به فى اهذه المسألة . أما ما قاله عرابى بصدد خلع اسماعيل وانه اقترح ذلك فأقول انه من المؤكد اننا كنا نتكلم سراً فى هـذا الشأن وكان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع واقترح علىَّ أنا أن أقتل اسماعيل وكان يمر فى مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاما نتهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل ولكن كان ينقصنا من يقودنا فى هذه الحركة .ولو اننا عرفنا عرابى فى ذلك الوقت فربما كان فى إمكاننا ان ننظم الحركة معه لان قتل اسماعيل فى ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكننا عمله وكان يمنع تدخل أوروبا . ولكن لم يكن من المستطاع فى ذلك الوقت تأسيس جمهورية اذا نظرنا الى حالة الجهل الذى كان سائداً على العقول . أما عن قول عرابى ان اسماعيل أخـذ معه الى نابولى ١٥ مليون جنيه فليس هناك من يعرف الحقيقة . وانما المعروف ان المبلغ الذى أخذه معه كان كبيراً جداً . وكان اسماعيل يدخر المال فى الاشهر القليلة التى سبقت خلعه. فكانت الاموال التى تجبي من المديريات لكي ترسلها لى وزارة المالية يأخذها هو لنفسه.

ثانياً — أما عن قول عرابي أن توفيقا كان يأخذ الهدايا والرشى من مقدمي العرائض لوالده أيام كان اسماعيل خديويا فقـد يمكن أن يكون صحيحاً . ولكن لم اسمع هذه الاشاعات وهذا العمل لا يتفق مع سلوك توفيق لما صار حاكما . فلذلك لست أصدق هذا القول .

ثالثاً — أما عن ظلم رياض فاقول أن رياضا كان ظالما ولكن ظلمه لم يكن يبلغ سفك الدماء . فانه كان على الدوام يكره ذلك . فلم أسمع انه كان يأمر بالفتك بالناس سراً . ولم يكن هناك على أى حال خوف من أن يفعل ذلك باحد قبل حادثة قصر النيل . ولكننا سمعنا أقوالا وروايات عن محاولة قتل عرابى وغيره من الضباط فى صيف سنة ١٨٨١

رابعا ـ اما عن حادثة اول فبراير سنة ١٨٨١ فى قصر النيل فأرى ان رواية عرابي مرتبكة وغير صحيحة . فان العريضة الاولي التي قدمها عرابي وسائر الضباط كانت تتضمن الشكوى من الحيف الذى يقع بهم من عثمان رفقي . وكان هذا العمل سبباً في غضب وزير الحربية فعقد نيته على ان يتخلص منهم وكان هذا اول ما لفت ظر القناصل الى عرابي .

وكان البارون دى رنج فى خصام مع رياض فاهتم لذلك بمسألة الضباط . اما العريضة التى يقول عرابي إنه قدمها بنفسه الي رياض فى يناير فلم تبين فيها أى اشارة الى الدستور او الى زيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ جندى . فان هذه الطلبات لم تقدم الا فى سبتمبر بعد المظاهرات . وكانت عريضة قصر النيل لا تزيد عن ان تكون شكوى من مساوىء عثمان رفقي وطلب عزله من الوزارة . وكان رياض في المجلس الذى عقد عقب المظاهرات موافقا علي عمل تحقيق عن هذه العريضة ـ وكان هـذا التحقيق يتطلب محاكمة الضباط وايضا عثمان رفقى امام المحكمة العسكرية ـ وكان رياض يكره العنف . ولـكنه لما اوضح له انه اذا لم يستعمل العنف سيعد سكوته دليلا على تشيعه مع الضباط ضد الخديو اضطر فى النهاية ان يترك المسألة لعثمان رفقي يتصرف فيها كيفما شاء .

خامساً — أما عن مظاهرة عابدين فى ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ فانى أقول أن

السبعة الاشهر التى كانت بين مسألة قصر النيل ومظاهرة سبتمبر كانت مفعمة بالنشاط السياسي الذي شمل جميع الطبقات . فقد صار عرابي محبوبا عند الأمة واتصل بالحزب الوطني. وعرف سلطان باشا وسليمان أباظه وحسن الشريعي وعرفني أنا أيضاً وكنا نحن الذين طلبوا الدستور . وقد اهتم هو بالدستور لانه رأي فيه ضمانا من من انتقام الخديو أو وزرائه منه كما كانوا ينتقمون أيضاً من سائر الضباط .

وقد قال لى هو ذلك جملة مرات وبناء على ذلك قدمنا العرائض بطلب الدستور وحملنا فى الصحف حملات عديدة فى هذا الصدد . وكان عرابى يزور سلطان باشا كثيراً في ذلك الصيف — وكان سلطان مثريا فكان يرسل اليه الهدايا من الغلات والخيول وغير ذلك لكي يعتمد علي قوة عرابي وتعضيده لهذه الحركة الدستورية . وحدثت مظاهرة عابدين بالاتفاق مع سلطان وقد أصاب عرابي فى قوله أن سلطان كان يطمع في أن يكون وزيراً بعد سقوط وزارة رياض .

ولكن شريف باشا الذى صار رئيسا للوزارة لم يفكر فى تعيين سلطان . وبعد ذلك امكن مصالحة سلطان باعطائه رئاسة مجلس النواب . ولم يتشاجر مع عرابى الا بعد اللائحة أى البلاغ الاخير الذى ارسله القناصل الى الحكومة فان عرابى جرد سيفه هنا فى وجه سلطان ووجه اعضاء المجلس عندما رأى منهم ترددا فى رفض اللائحة وكانا الي هذا الوقت يسيران يدا بيد

ورواية عرابى عن توفيق من انه ارسل يقول له : (انتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم) صحيحه وهى تظهر مركز الخديو أمام الضباط . وكان كولفن مع الخديو فى عابدين ولكنه لما كان لا يعرف العربية لم يلتفت عرابى اليه . وكان الكلام مع كوكسون وكان البارون دى رنج قد استدعته حكومته بناء علي طلب رياض الذي شكا تشجيعه للضباط

سادساً — أما عن الشغب في الاسكندرية فان عرابى صادق فى روايته عن عمر لطفى والخديو فهما اللذان دبرا الشغب قبل حدوثه ببضعة أسابيع. ولكن روايته عن سيد قنديل غير صحيحة فانه كان ضعيفاً فلم يقو على اخماد الشغب وهو أيضاً مخطيء فيما ذكره عن كوكسون . فان الاسلحة التى وردت الى القنصلية انما جيء بها لحماية المالطيين وسائر الرعايا الانجليز . وقد حكم بالنفي على سيد قنديل عشرين

عاما ولكن عفي عنه بعد ذلك فرجع وهو الآن فى داره فى الريف في مصر — وكثيراً ما تحادثت معه في هذا الموضوع . وعرابى صادق فى قوله أن حسن موسى العقاد وعبدالله نديم لم يشتركا فى احداث الشغب . فانه قد ذهب الى الاسكندرية لالقاء خطبه أما العقاد فقد ذهب فى مسألة مالية .

رأي الشيخ محمد عبده

فى الثورة العرابية

(فى ٢٠ مارس سنة ١٩٠٣ قدم لى المفتى الملحوظات التالية عن الثورة العرابية. ولفرد سطاون بلنت)

فى أواخر أيام اسماعيل حاول البعض ادخال الماسونية الى مصر . وكانت جميع المحافل المصرية متصلة بالمحافل الاوروبية وقد انضم الشيخ جمال الدين الى أحد هذه المحافل ولـكنه لم يجد لها قيمة فخرج منها ، وكان اسماعيل باشا قد أخذ يشجع الحركة بنية الاستفادة منها وذلك عند ما وقع فى ازماته . ولـكن الماسونية لم تبلغ يوماً ما مركزاً قوياً في مصر

ومن المؤكد ان الشيخ عبيد قتل فى التل الـكبير ، فقد سمعنا اشاعات تقول انه حي يرزق فى سوريا . ولما كنا فى المنفي في بيروت كنا نرسل الى داخل البلاد للسؤال عنه ولـكنهم كانوا يرجعون ويقولون ان رواية وجوه كاذبة

وكان محمود سامى دستورياً من عهد اسماعيل . وكان صديق شريف وكان كلاهما ينشد آمالا سياسية واحدة ومن الارجح انه انذر عرابي بازماع القبض عليه لانه كان فى ذلك الوقت عضواً بمجلس الوزراء ولابد أنه كان يعرف هذه النية أما بعد مسألة قصر النيل فانه كان مع عرابى والضباط قلباً وقالباً وكان هذا هو السبب فى أن رياضا تخلص منه وعين داود باشا مكانه

وكان رياض لا يقدر اهمية عمل عرابى ولـكنه بعد ذلك صار يخشاه . فابتدأ باحتقار الحركة والتقليل من شأنها لان هذه كانت عادته إذ كان لا يعتقد أن للفلاحين شأنا يذكر فى السياسة

واستقال شريف باشا فى فبراير سنة ١٩٨٢ لا لانه تشاجر مع عرابى بل لانه كان يخشى تدخل أوربا . وكان يعارض مجلس النواب فى طلبـه مناقشة الميزانية واستقال لهـذا السبب وكان راغب باشا من أصل يونانى ولكنه كان مسلماً . وكان رئيساً للوزارة فى عهد اسماعيل ولـكنه كان دستورياً . وقد عين بعد اللائحة (البلاغ الاخير الذى ارسله القناصل للحكومة) رئيساً للوزراء وكان عرابى وزيراً للحربية فى هذه الوزارة . وكانت علاقته بعرابي شريفة وقد بقى مع الحزب الوطني مدة الحرب

ويقول بتلران اول عريضة قدمت كان تاريخها ٢٠ مايوسنة ١٨٨٠ والراجح ان هذا التاريخ صحيح

وكان ابراهيم الاغانى من أقدر تلاميذ جمال الدين وأفضلهم فى الازهر وهو لا يزال الآن حياً وهو موظف فى المحكمة ؟

لما انعقد مجلس النظار لكي ينظر فى عريضة عرابى التى طلب فيها عزل وزير الحربية عثمان رفقى ارتأى الخديو هو وعثمان رفقى أن يقبض على عرابي وينفى الي البحر الابيض ولكن رياضاً طلب القيام بتحقيق أولا . وبعـد ارفضاض المجلس قابل طه باشا رياضا وأخبره بأنه اذا اصطنع الرفق مع عرابى فان الخديو يظن أنه (أى رياض) قد انضم الى الجنود ضد الخديو طمعاً فى الخديوية لنفسه فلما سمع رياض ذلك سكت عن المعارضة . وقد أخبرنى بهذا بعد ذلك محمود سامي وكان وزيراً في وزارة رياض وكان ابراهيم افندى الوكيل وحسن الشريعى واحمد محمود زعماء الاحرار في مجلس النواب .

آراء اخرى

للشيخ محمد عبده عن الثورة العرابية

(في ٢٢ ديسمبر سنة ١٩٠٣ قدم لى الشيخ محمد عبده الملحوظات التالية) :
لما نفى الشيخ جمال الدين بعد عزل شريف بيضعة أيام سنة ١٨٧٩ أمرت بان أبرح القاهرة وكنت استاذاً فى مدرسة المعلمين وطلب الى أن أذهب الى قريتى . وكان خلفى في المدرسة الشيخ حسن وكان أعمي . فسئمت وجودى فى قريتى واردت الذهاب الى الاسكندرية وكان البوليس يراقبنى . فذهبت خفية الى طنطا وأخذت أجول فيها مدة طويلة . ثم رجعت الى القاهرة أملا فى أن أقابل محمود سامي وكان صديقي وكان فى ذلك الوقت وزيراً للاوقاف . ولكنه كان غائباً . فذهبت الى على باشا مبارك وكان صديقي ايضاً وكان وزيراً للاشغال ولكنه قابلني أسوأ مقابلة ونصح لى فى ذلك الوقت بأن لا أمكث فى القاهرة لئلا يساء الظن بى واتهم بالاشتراك مع العصبة التى تألفت من شاهين باشا وعمر لطفى وغيرها من حزب اسماعيل ضد رياض فذهبت ثانياً الى قريتي .

ولكنى تولاني السأم ثانية لان القرويين كانوا لا يفتأون يتشاجرون فعزمت على أن أرجع الى الازهر لكي أدرس فيه . وكان رياض لا يجد أحداً يجيد الكتابة بالعربية لتحرير الجريدة الرسمية فاستشار محمود سامي فأخبره بأنه لو كان فى مصر ثلاثة مثلى لنجت البلاد وكذلك قال بهذا الرأى الشيخ حسن الذي عين خلفاً لى بمدرسة المعلمين .

وعلى ذلك عينت في آخر رمضان (اكتوبر سنة ١٨٨٠) محرراً ثالثاً للجريدة الرسمية ولكن المحررين اللذين كانا هناك أحسا الغيرة مني فلم يتركا لى شيئا أكتبه وعلى هذا لم يتحسن تحرير الجريدة . فاستاء رياض من ذلك وأجرى تحقيقا كانت نتيجته انى عينت رئيس التحرير ثم رقيت بعد ذلك الى رئيس المطبوعات . وكان هذا قبل نهاية سنة ١٨٨٠

وكانت أول مرة لقيتك فيها عندما زرتك مع روجر فى فندق النيل وقد أرسلت لك محمد خليل . وهو الذي جاء بك بعـد ذلك لزيارتى في منزلى . وكنت أنتقد الحكومة بشدة فى الجريدة الرسمية وكنت لا أضيق على الجرائد باعتباري رئيس قلم المطبوعات . ولكن لم تكن الثورة من رأيي وكنت قانعاً بالحصول على الدستور فى ظرف خمس سنوات فلم أوافق على عزل رياض فى سبتمبر سنة ١٨٨١ . وقبل مظاهرة عابدين بعشرة أيام التقيت بعرابى فى دار طلبه عصمت . وكان قد جاء مع عرابي لطيف بك سليم وكان هناك عدد كبير من الزائرين . فنصحت لعرابى بالاعتدال وقلت له : « انى أرى أن بلاداً أجنبية ستحتل بلادنا وان لعنة الله ستقع على رأس من يكون السبب فى ذلك » فأجابنى عرابي أنه يرجو أن لا تقع هذه اللعنة عليه وأن سلطان باشا وعده بأنه سيحضر له عرائض لطلب الدستور ممضاة من جميع الاعيان . وكان هذا صحيحاً . فان جميع العمد كانوا مستائين من رياض لانه منعهم من تسخير العمال وقطع هذه العادة . ولم ينضم سليمان أباظه الى الثورة لانه كان يعتقد أنه لم يئن أو انها بعد وكان الشريعي باشا ضد الثورة أيضاً .

ولكن لما منح الدستور انضممنا جميعاً الى الثورة لكي نحمى الدستور . ولكن عرابى لم يتمكن من ضبط الجيش وكانت عند الضباط مطامع عديدة .

ولم أكن أعلم شيئاً عن مظاهرة عابدين ولم أخبر عنها قبلا لاعتقاد أنى من حزب رياض . ولكن المظاهرة دبرت برأى سلطان باشا وشريف باشا وكانت آراء الخديو كثيرة التقلب من جهة عرابى . وقد انضم الى رياض والى داود باشا فى محاولتهما سحق عرابي . ولكن المتظاهرين أخبروا الخديو عن المظاهرة قبل حدوثهـا بيوم وافق عليها لانه كان يرغب فى عزل رياض .

حديث مع عرابي

في الشيخ عبيد في ٢ يناير سنة ١٩٠٤

تسألني عن تاريخ أول اتصال الخديو توفيق بنا نحن الجنود . فأقول أنه قبل حادثة قصر النيل أرسل الينا الخديو على فهمي لنخبره بما نفعل ولكن على فهمي كان صديقنا وانضم الينا في العريضة التي رفعناها الى رياض باشا وقبض عليه أيضاً معنا ولما رأى الخديو مكانتنا في عين الجمهور بعد حادثة قصر النيل أراد أن يستفيد بنفوذنا في مناوأة رياض فارسل الينا على فهمي بهذه الرسالة : « أنتم ثلاثة جنود وأنا رابعكم » وكان هذا بعد شهر من حادثة قصر النيـل . وقد علمنا أيضاً من محمود سامي الذي كان وزيراً أننا نلنا حظوة الخـديو . وقال لنا محمود سـامي في ذلك الوقت : « اذا رأيتمـوني عزلت من الوزارة فاعلموا أن الخـديو قد تغير نحوكم وانه يريد بكم شراً »

وكنا في سـنة ١٨٨١ عند بدء القلاقل في الصيف نثق بمحمود سـامي وكان رياض باشا وزيراً للداخلية يبث علينا العيون ويجعل البوليس يراقبنا .

وكان الاستياء مني عظيما لأني رفضت ان اسمح بسفر جنودي لـكي يحفروا قناة التوفيقية بأمر على باشا مبارك وزير الاشغال. فتغير الخديو لهذا السبب ولاسباب أخرى علينا وعزم مع رياض على ان يعملا لشق الاتحاد الموجود في الجيش وذلك بتشتيت الفرق في أماكن بعيدة يحول بعدها دون اتصال الضباط فطلب الخديو وكان في ذلك الوقت في الاسكندرية من محمود سامي وزير الحربية أن ينفذ هذه الخطة فلما رفض محمود سامي تنفيذ هذه الخطة كتب اليه رياض يقول . « قد قبل الخديو استقالتكم » ثم أشار كلاهما أي الخديو ورياض على محمود سامي أن يبرح القاهرة ويسافر الى قريته قريبا من طنطا وان يلزمها ولا يعود الى القاهـرة او يكاتب الضـباط . ولكنه حضر الى القاهرة ونزل في منزله فذهبنا لزيارته فرفض ان يقابلنا . فعلمنا انه يراد بنا شر . وعين الخديو بدلا عنه داود باشا يكن فاشتد غيظنا من ذلك وايقنا أنهم سيحاولون اهلاكنا

وفي اوائل سبتمبر عاد الخديو ووزراؤه الى القاهرة وعقدوا نيتهم على أن ينفوا منا فاستشرت عبد العال وعبد الغفار قائد الخيالة فى الجزيرة وفوده بك حسن القائمقام فى القلعة وكان الميرالاى فى القلعة قد عزله محمود سامى قبل استقالته ولم يعين مكانه أحد . وكان الاميرالاى من جنسنا ولكنه كان خائناً فاتفقنا على ان نقوم بمظاهرة نطلب فيها عزل الوزارة وتعيين وزارة وطنية وعقد مجلس النواب وزيادة الجيش الى ١٨٠٠٠ رجل ولكننا لم نخبر على فهمي عن اتفاقنا هذا لاننا لم نكن نثق به فى ذلك الوقت كل الثقة . وفى صبيحة اليوم التالى كتبت طلباتنا وبعثتها الى الخديو فى قصر الاسماعيلية واخبرته باننا سنسير الى ميدان عابدين في العصر لكي نتسلم جوابه . وسبب ذهابنا الى عابدين بدلا من قصر الاسماعيلية هو ان قصر عابدين هو مقامه الرسمي ولم تكن لنا ايضاً رغبة فى ازعاج سيدات القصر ، ولكنه لو لم يحضر الى عابدين لكنا ذهبنا اليه فى قصر الاسماعيلية .

فلما تسلم الخديو عريضتنا أرسل الى رياض وخيرى باشا وستون باشا فذهبوا الى ثكنة عابدين فخاطب رياض والخديو الجنود وأمرا على فهمى بأن يحتل هو وجنوده قصر عابدين. فأطاع على فهمي ووضع جنوده فى الغرف العليا حتى يستطيعوا أن يضربونا بالنار من النوافذ ، ولكني لا أدري هل كانوا قد اعطوا خراطيش أم لا ؟ . ثم ذهب الخديو ووزراؤه الى القلعة وخاطبوا الجنود بمثل ما خاطبوا به في عابدين وطلب الخديو من فوده بك أن ينقض علينا ووبخه قائلا له : « سألقيك فى السجن » . ولكن الجنود تكأكأوا حول مركبته فخاف الخديو وأمر السائق أن يسير به الى العباسية وذلك باشارة رياض لكي يخاطبنى أنا أيضاً . ولكنى كنت حينئذ أخذت جنودى وذهبت الى عابدين عن طريق الحسينية . فسألوا عن المدافع فقيل لهم أننا أخذناها الى عابدين . فلما وصل الخديو وجدنا قد احتللنا الميدان ووجد الخيالة والمدافع تواجه الباب الغربى

وكنت عند وصولى الى ميدان عابدين قد علمت بوجود على فهمي فى القصر فبعثت اليه بكلمة فترك القصر وجاء الى الميدان وانضم الينا ودخل الخديو الى القصر من الباب الشرقي ولكنه لم يغب عنا طويلا فانه جاء الينا ومعه حرسه وقواده ولكني

لم أر كولفن بينهم وربما كان مع ذلك هناك، فطلب مني الخديو أن أنزل عن جوادى فنزلت . فطلب منى ايضاً أن أغمد سيفى . فأغمدته . وهنا اقترب مني الضباط لانهم كانوا يخشون الخيانة والغدر . ووقف بعضهم أى نحو خمسين منهم بين الخديو وبين القصر . أما رياض فانه لم يخرج من القصر الى الميدان بل بقي فيه

فلما أفضيت الى الخديو بجملة مطالبنا الثلاثة قال لى

« أنا خديو البلاد وأعمل زى ما أنا عاوز »

فأجبته « ونحن لسنا عبيداً ولن نورث بعد اليوم » فلم يقل شيئاً آخر ولكنه رجع الى القصر . ثم ارسلوا فى الحال كوكسون مع مترجمه فسألني لماذا اطلب وجود برلمان مع أني جندى فقلت له اننا نطلب ذلك لكي تقضى على الاستبداد وأشرت الى سائر الوطنيين الواقفين وراء الجنود . فأخذ يهددنى وقال لى : سنطلب هنا جيشاً انجليزياً » وطال الجدال بيننا وكان يروح ويغدو بيننا وبين القصر وفعل ذلك نحو أربع مرات ثم اخبرني فى النهاية بأن الخديو قبل كل شيء وقال ان الخديو يرغب في تعيين حيدر باشا بدلا من رياض . فلم أوافق على ذلك . فلما طلب إلى أن أذكر اسم رئيس الوزراء الذى أرغب فى تعيينه ذكرت شريف باشا وذلك لانه كان لا يعارض فى وجود مجلس نواب وكنت أعرفه قبل ذلك معرفة قليلة فى زمن سعيد باشا عند ما كان في الجيش. وفى المساء أرسل لي الخديو فذهبت اليه فى قصر الاسماعيلية . وشكرت لموافقته على مطالبنا فقال :

« كفي . كفي. أذهب الآن واجل عن عابدين ولكن بدون موسيقي في الشوارع»

وذلك حتى لا يظن أحد اننا نفعل هذا لسرورنا

ولما حضر الى القاهرة على باشا نظامي واحمد باشا راتب من قبل السلطان خاف الخديو لئلا يفتح تحقيق . وكان محمود سامي وزيراً للحربية فأمرنا بأن نبرح القاهرة فذهبت أنا الى رأس الوادى وذهب عبد العال الى دمياط وبقي على فهمي فى القاهرة . فلم أر على نظامي . ولكنى كنت قد ذهبت الى الزقازيق لزيارة صديقي احمد افندى الشمسي وسليمان باشا أباظه . ثم بعد انتهاء الزيارة أقلني القطار الى رأس الوادى . وكان احمد باشا راتب فى نفس القطار وكان مسافراً

الى السويس . فوجدت نفسي في مركبة واحدة معه فتبادلنا التحيات وتعرف كل منا بالآخر فاخبرني أنه يريد الحج وأشياء أخرى ولـكنه لم يخبرنى عن المهمة التى جاء الى الخديو من أجلها وأنا أيضاً لم أسأله . ولـكني أخبرته بأني على ولاء للسلطان وقصصت عليه جميع ما حدث . فقال لى . « لقد احسنتم »

وتركته فى رأس الوادى . وبعد ذلك أرسل لى نسخه من المصحف الشريف من جدة وبعد ذلك لما عاد الى الاستانة تسلمت خطابا أملاه السلطان على الشيخ محمد ظافر يخبرنى فيه السلطان باشياء أعرفها

أما يعقوب سامي فهو من أصل أغريقى من الاستـانة . وقد ذهب بأمرى الى الاسكندرية لفتح تحقيق عن مسألة الهياج ولـكنهم لم يسمحوا له بعمل التحقيق . وكان يعقوب سامي هـذا هو راغب باشا صاحب الاقتراح بقطع رأس الخديو . وأنت تقول الآن انه كان يحسن بنا أن نفعل ذلك . ولكني كنت أرغب فى أن تتم ثورتنا دون أن تراق فيها نقطة دم واحدة .

اضطرابات الاسكندرية

هذه مذكرة تاريخية وضعت فى سنة ١٨٨٣ عن اضطرابات الاسكندرية التى حدثت في ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ . وهي موضوعة على أساس الادلة التى قدمت عن أسباب الاضطرابات :—

« هذه هي الحقائق التي أسفر عنها البحث فى مسألة الاضطرابات :—

١ — علي أثر الخلاف الذى شجر بين الخديو ووزراء وأعضاء الحزب الوطني في مسألة المؤامرة الشركسية (مايو سنة ١٨٨٢) اجتهد الخديو ان يجد قوة يعتمد عليها بدلا من الجيش الذى كان يؤيد الوزراء فعمل لشراء مساعدة البدو الذين يقطنون اقليم البحيرة بين القاهرة والاسكندرية بواسطة رجل يدعى ابراهيم بك توفيق . وقد انفق في هذا السبيل عشرين الف جنيه حصلت قبيلة أولاد علي علي أكثرها . وقد جاء مشايخ هؤلاء العربان الى مصر فاستقبلهم الخديو استقبالا فخما واتفق معهم علي ان يدخلوا جما غفيراً من رجالهم الى القاهرة بطريق الجيزة على نية أن يحدثوا هياجا فى المدينة . وذلك أن حزب السراي كان جادا فى ذلك الحين في اثبات أن الفوضي ضاربة أطنابها فى مصر وكان غرضه من ذلك ان يقيم الحجة على عدم كفاءة الوزارة الوطنية . وقد فشل هذا المشروع بسبب ضعف البدو الذين خافوا دخول المدينة التى يفصلها النيل عن صحرائهم والتى يكثر فيها الجنود . ولكن عمر باشا لطفى محافظ الاسكندرية الشركسي استطاع بعد ذلك أن يقنع جماعة من قبيلة أولاد على بدخول الاسكندرية ، وهى فى منطقتهم ، غير مسلحين للعب دور فى الاضطرابات أما أسلحتهم فقد حفظها لهم رجال البوليس وسلموها لهم يوم الاضطراب

٢ — كان عمر لطفى ، رغم شركسيته ، يتظاهر حتى أواسط مايو بانه كأكثر الموظفين موال للحركة الوطنية مؤيد للقائمين بها ولكن ما عتم الخديو أن استقدم اليه عمر لطفى هذا بعد الانذار القنصلى النهائي الذى قدم فى ٢٤ مايو سنة ١٨٨٢ والذى استقالت الوزارة الوطنيـة أثر تقديمه . فلما وصل إلى القاهرة عرض عليه الخديو يوم ٢٦ مايو منصبا فى الوزارة التى كان يسعى الى تشكيلها . ولا شك في أن

عمر لطفي كان يفوز بهذا المنصب لو لا عودة عرابي الى السلطة (وهذه نقطة مهمة لأنها تكشف عن سبب اهتمام عمر لطفي بعد ذلك باسقاط عرابي)

٣ — لما رجع عرابي إلى السلطة باعتباره الرجل الوحيد القادر على حفظ الامن والنظام وبعد ضمان الامن الذى أعطاه للقناصل عاد الخديو الى مشروعه الاول ، مشروع خلق الفوضى واخلال النظام ولكن فى ميدان جديد غير ميدان القاهرة . وكانوا ينتظرون أن يصل درويش باشا بسرعة ليحكم بين الخديو ووزرائه فكان ضروريا أن يجد الخديو مطعنا يتذرع به الى التشهير بالوزراء ومن ثم أرسل يوم ٣ يونيو الى عمر لطفي تلغرافًا بالشفرة هذا نصه : —

« ضمن عرابي الامن العام وأعلن عن ذلك فى الصحف وجعل نفسه مسئولا امام القناصل . فاذا نجح فى حفظ الامن فلا بد من أن تثق به الدول وان يضيع ما بقي لنا من اعتبار . أضف الى ذلك ان أساطيل الدول فى مياه الاسكندرية والخواطر متهيجة فعليك الآن أن تختار لنفسك : فاما ان تخدم عرابي فى ضمانته للامن أو أن تخدمنا »

٤ — أرسل الخديو صهره حيدر باشا مرتين خلال الاسبوع التالى الى الاسكندرية وكان يقابله مقابلة سرية قبل ذهابه وبعد ايابه . وكان حيدر باشا في الاسكندرية يوم وقع الاضطراب.فلما انتهي الاضطراب عاد الى الخديو فى الحال.

٥ — نشرت جريدة المحروسة (لسان حال شريف باشا التى كان يحررها سليم نقاش السورى الماروني) فى الاسبوع الذى سبق الاضطرابات بيانا مكذوبا عن اضطرابات حدثت في القاهرة . وكان الغرض من ذلك اعداد الاذهان لقبول انباء اضطرابات الاسكندرية وقد وزع هذا البيان فى دوائر الاسكندرية الرسمية ووصل التحقيق الي مصدر التوزيع .

٦ — احتشد البدو الذين تقدم ذكرهم خلال هذا الاسبوع في ضواحي الاسكندرية وقد لفت نظر المحافظ عمر لطفي الى اجتماعهم بلا نتيجة وكذلك لفت نظره بلا نتيجة الى احتشاد الرعاع فى الاحياء الافرنجية بلا مبرر وخلافًا للعادة .

٧ — حدث يوم ٩ يونيو (أى قبل الاضطرابات بيومين) انه بعد ان تخابر

الخديو مع درويش باشا مندوب السلطان ان استقدم الخديو عمر لطفى الى القاهرة على قطار خاص وبعد ان فاوضه طويلا مفاوضة سرية عاد عمر لطفي الى الاسكندرية في القطار الخاص . وهناك أدلة غير مباشرة على ان درويش باشا والشيخ أسعد حين وصلا الى الاسكندرية تسلم كل منهما هدية من الخديو فأخذ درويش ثلاثين ألف جنيه وأخذ أسعد تسعة آلاف جنيه وهذان المبلغان حصل عليهما الخديو من طريق رهن ممتلكات زوجته الخصوصية .

٨ — فى يوم ١٠ يونيو أى في اليوم السابق ليوم الاضطراب حدث اجتماع فى منزل درويش باشا بين درويش والشيخ أسعد احد رسولى السلطان من ناحية وعرابي ومحمود سامي من ناحية أخرى وكان هذا أول اجتماع بين درويش وعرابى. وكانت مقابلة درويش ودية جداً وقد طلب من عرابى أن يتخلى له عن قيادة الجيش باسم المصلحة العامة وأن يوافق على الذهاب الى الاستانة . وقد وافق عرابى على هذين الطلبين بشروط أهمها ان يحله درويش باشا كتابة من عهد المحافظة على الامن وما تبعه من المسئوليات . وقد وعد درويش باشا باجابة هذا الطلب على أن يسلم لعرابى الوثيقة المطلوبة يوم الاثنين ١٢ يونيو بدعوى انه سيعقد اجتماع بين الخديو والقناصل فى ذلك اليوم وهكذا تركت مسألة التخلي لدرويش عن قيادة الجيش الى يوم الاثنين أيضاً .

٩ — حدث فى اليوم نفسه وهو اليوم التالى ليوم عودة عمر لطفى الى الاسكندرية أن استدعى هذا قنديل رئيس البوليس ليتفق معه على تدبير اضطراب سيبقى ساعتين وقد كان قنديل مريضاً أو متمارضاً ولكنه أبى غير انه لم يشأ ان يورط نفسه فى المسألة فعاد الى منزله ولزم فراشه تاركا قيادة البوليس لحسن بك صادق . وليس ثمة أدلة على انه كان فى النية عمل شىء غير اضطراب ساعتين اثنتين . والراجح انه لو سلم عرابي بمطالب درويش بلا شرط لكان التدبير قد الغى أو لكان الاضطراب قد قمع فى أول لحظة بواسطة الجند النظامي الذى كان يستخدم حينئذ باسم السلطان وهنا يجب الا ننسي ان البوليس والمستحفظين كانوا تحت قيادة عمر لطفى وهو الذى كان ينقدهم مرتباتهم وانه ما دامت لم تكن قد أعلنت حالة حصار فلم يكن فى الطاقة

أن يتدخل جنود الجيش فى المدينة الا بناء على أمر مكتوب موقع عليه من المحافظ أما المحافظ فلم يكن مسئولا مسئوليـة قانونية الا امام الخديو لانه منذ استقال محمود سامي لم يعين وزير للداخلية .

١٠ — حـدث يوم ١١ يونيو يوم الاضطراب بالذات ، ان استأجر مالطى حماراً (وقيل مركبة فى بعض الروايات) وبعد ان طاف على محال الشراب فى الاحياء الاوروبيـة وقف عنـد مشرب « القزاز » ثم أخذ يتشاجر مع المكارى أوالسائق وهو مصري مسلم يدعى سيد العجان على الاجرة فلما تبعه هذا الى المشرب طعنه المـالطى بسكين فافضى هـذا الى تعميم المشاجرة واتساعها ولما طلب الى البوليس ثم الى المستحفظين بعد ذلك ان يتدخلوا أبوا أو انهم تدخلوا ليضيفوا ضيغثا على ابالة ثم أطلقت النار من منزل يسكنه مالطيون على الجمهور في الشارع ثم جاء جماعة من المسلمين اكثرهم برابرة مسلحين بالعصي من الحي الوطنى فى المدينة ودخل البدو الذين تقـدم ذكرهم فى المدينة أيضاً واشـتركوا فى الشجار وهكذا تحولت الحادثة الى معركة عموميـة وقد اهين القنصل الانجليزى الذى وصلت اليـه رسالة من لطفى عمر وضرب . ولم يحضر عمر لطفي في اول الامر الى محل الحادث فلما جاء فى نيابة المدينـة ولم يفعل قط شيئا من شأنه ان يقف الهياج لا بل انه قد سمح بحض بعض البـدو على الضرب ولم يخطر عمر لطفى حتي العصر السلطات العسكرية ولا هو أرسل الانباء الي عرابى فى مصر ولكن تبادلت تلغرافات كثيرة بينه وبين الخديو . وقد أمره الخديو فى تلغراف من هذه بألا يستخدم الجند النظامي . ولكن اقترح عليه ان يقف الاضطراب الذى كان قد تحول الى مذبحه مستعيناً باهم آلات الاساطيل الاجنبية الراسية فى مياه الاسكندرية . وهكذا لم ترسل رسالة الى سليمان سامي قائد الجنود الا بعد الساعة الرابعـة ولم تكن الرسالة التى أرسلت بعد ذلك مكتوبة ، الامر الذى أدى الى تأجيل التداخل العسكرى وقتا آخر . على ان أغرب من هـذا كله ان طلب تداخل الجنود على الا يكونوا مسلحين ! وأخيراً أرسل سليمان سامي الجنود مسلحين على مسئوليته فى الساعة الخامسة وقمع الاضطراب .

١١ — حدث بعد ظهر يوم الاضطراب ان أقيمت الافراح فى قصر الخديو

وفي الديوان نفسه وصرح علناً فيها أن عرابي قد هدم . وهنالك أدلة جمة على هذه الافراح التي أقيمت فى السراى وعلى ما وقع فيه الوطنيون من الاضطراب والحيرة ولم يدع عرابي الى التدخل فى الامر الا حوالي الساعة الخامسة تقريباً

١٢ — لم تحدث بعد يوم ١١ يونيو تحقيقات جدية عن أسباب الهياج رغم الحاح عرابى المتتابع فى شأنها . وثبت ان الخديوى كان يستعين ببعض القناصل كما أنه من المعروف ان بعض الاوروبيين لعب دوراً في المراحل الاولى من الهياج. وانه حينما تولى راغب رئاسة مجلس النظار وبعد التفاهم الظاهري بين الخديوى والحزب الوطني سمح بأجراء تحقيقات ولو أن المسألة كانت قد عرفت تماما .

١٣ — لم يحدث تحقيق علنى ولا محاكمة مع كل من عمر لطفى وحسين بك صادق (الذى كان يتولى قيادة البوليس بالنيابة فى يوم الهياج) بل على العكس من ذلك أعطيت أجازة لعمر لطفي من الخديوى عقب الحادث بقليل وكان على وشك مغادرة القطر المصرى حينما أطلقت النيران على الاسكندرية . وانه كان بعد ذلك يقابل بالترحاب فى السراى ثم منح المنصب الذى كان وعد به فى حالة سقوط عرابى وهو مركز نظارة الحربية الذى يتربع فيه الآن ويتمتع بكل ما يحوطه من الأبهة والشرف .

تقرير احمد بك رفعت

الذى كتبه سنة ١٨٨٢ وهو فى السجن

عرفت أسباب حادث ١١ يونيو وعرفت المساعى الاخرى التى بذلت لاحداث مثله بغرض اسقاط هيبة مجلس النظار الوطنى وضباطه والحزب نفسه الذى كان يدير دفة السياسة فى ذلك الوقت فى أعين الدول الاوروبية .

وحينما نشأ الخلاف بين الخديوي ووزارة محمود سامي (وذلك قبل الانذار) جرت فى القاهرة إشاعة فحواها ان الخديوى سيعمل بواسطة بعض أتباعه على اثارة مذبحة فى القاهرة — حتى ان محمود سامي (وزير الداخلية حينئذ) وهو بمنزل عمر

بك رحمي في ليـلة من الليالى وصلت الى مسامعه هذه الاشاعة فدعي اليه حكمدار البوليس فى الحال وأمره أن يذهب على فوره ويزيد قوة الغفر الليلية وأن يعمل كل ما فى جهـده لحفظ النظام وخرج الحكمدار فى الحال ونفذ الاوامر . واستمرت الوزارة طول مدة بقائها فى الحكم ساهرة على منع تحقق هذه الاشاعة على وجه خاص

وحينما رأى الخديوى أن خطته فى هذا السبيل غـير مكللة بالنجاح دعى اليه ابراهيم بك توفيق مدير البحيرة وطلب منه أن يجمع مشايخ البدو ورؤساء القبائل وأن يحضرهم اليه . وحدث ذلك فعلا . وحينما مثل الاعراب بين يديه قابلهم بترحاب عظيم ووعدهم بوعود جمة وأفهم المدير أن يأمرهم بجمع ثلاثة آلاف رجل من الاعراب وأن يحضروهم الى العاصمة عن طريق الجيزة — وأمله من ذلك أن الاعراب قوم لا نظام عندهم ولذلك فالاضطرابات تنشأ فى المدينة بوصولهم ويعكر صفو السلام وينسب كل ذلك الى الجيش . وكان الرأى ان الاعراب تدخل كحراس للخديوى . ومضى شهر ومشايخ الأعراب يروحون ويجيئون دون أن يتمكنوا من جمع هذا العدد الكبير واحضاره الى القاهرة وسبب ذلك خوف هذه القبائل من جنود الجيش

وحينما فشل الخديوى أيضا فى هذه الخطة كتب تلغرافات بالشفرة الى عمر لطفى وكان حينئذ حاكما لمدينة الاسكندرية وأخبره بما يأتي « ضمن عرابي الامن العام وأعلن عن ذلك فى الصحف وجعل نفسه مسئولا أمام القناصل . فاذا نجح في حفظ الامن فلا بد من أن تضع فيه الدول ثقتها وعندها يضيع مالنا من اعتبار . أضف الى ذلك ان أساطيل الدول في مياه االاسكندرية والخواطر مهيجة وعليك الآن أن تختار لنفسك : أما ان تخدم عرابى في ضمانته للامن وأما أن تخدمنا »

وسرعان ماذاعت أخبار هذا التلغراف على الالسن وقيل حينئذ أنه من أحد موظفى مكتب التلغراف بالسراى .

وفى يوم الحادث (١١ يونيو) ذهبت الى ديوان السراى أو المعية (كما نسميه نحن مكتب مدير البلاط) ووجدت موظفى السراي فى سرور وفرح عظيم لما قد حدث . وكانوا يتحدثون عنه ويبالغون في أخبـاره ويهزأون بعرابى وبضمانته في حفظ الامن .

وكانت العادة المتبعة منذ الخديوى السابق أن موظفي السراى لا ينطقون الا بما يرضي مولاهم . وفى كل يوم يتحدثون بما يصل اليهم من الاخبار وكانوا يهشون ويفرحون ان كانت موافقة لهوى الخديوى ويتظاهرون بكل مايملكون من مظاهر الحزن ان كانت غير ذلك .

وفي اليوم التالي للحادث انتشرت الاخبار فى القاهرة ان الخديوى أرسل تلغرافا الى عمر لطفى يأمره فيه بما يأتى : « اطلب المعونة العسكرية من الاميرال ولا تطلب جنودا مصرية . » وأن عمر لطفي أجاب على ذلك بقوله « أن الاميرال غير موافق خشية أن يحدث شيء آخر من الجنود فى المدينة مما يكون من الصعب تلافيه» .

وحينما كنت فى الاسكندرية بعد الحادث باثنى عشر يوما سمعت جميع الاهالى يقولون بلسان واحد ان المحافظ (عمر لطفى) هو الذى ترك الحادث يصل الى هذا الحد لانه كان هناك ولم يصدر أى أوامر بمنعها كما انه لم يتوجه الى مكان الحادث الا بعد مرور بضع ساعات. وانه لم يستدع الجنود النظاميين مع انهم كانوا على مقربة من المكان وقالوا أيضا ان هذا التصرف كان بتحريض الخديوى . وسمعت منهم أيضا انه عند انتهاء المذبحة كان المحافظ (عمر لطفى) يتنقل من مكان الى آخر وان احد الاوروبيين كان مطلا من نافذة وبيده مسدس فقال احد البدو للمحافظ « هل اطلق النار على هذا الرجل يا باشا » . فأجابه « نعم اضربه » . فاطلق الاعرابى عليه رصاصة وقتله . وقالوا ان كثيرا من الاموال المسلوبة في هـذا اليوم الاسود دخلت بيته وبيت أقاربه .

وسمعت من الاهالي في الاسكندرية أيضا ان (عمر لطفى) كان يحرض بعض الناس أثناء المذبحة بكلمات تشجيع وانه كان يعمل اشارات لرجال البوليس مغزاها ان لايهتموا بشيء ويقول « سيبوهم يموتوا ولاد الكلب » . وقبل الحادث ذهب حيدر باشا مرتين الى الاسكندرية وكان يعود فى كل مرة الى القاهرة وانه فى يوم الهياج كان موجودا بالاسكندرية وحينما انتهى عاد الى مصر . ورحل بعد ذلك مع الخديوى فى زيارته للاسكندرية .

وحينما الفت اللجنة للبحث فى أسباب الهياج لم يوجه أى سؤال الى عمر لطفي .

بل على العكس من ذلك أوعز اليه أن يستقيل بحجة المرض وان يقول انه يريد الذهاب الى أوروبا للاستشفاء وبعد تنفيذ ذلك استمر متنقلا مابين مصر والاسكندرية الى أن أعلنت الحرب وعندها استقر بالاسكندرية وأصبح (أو عين) ناظراً للحربية .

وكان عرابي في أثناء ذلك كله عاملا جهده للمحافظة على تحقيق ضمانته للأمن دائم المرور في طرقات القاهرة أثناء الليل ليتفقد بنفسه البوليس وأرسل أوامره لجميع الانحاء ان يسهروا على حفظ الامن .

كان عمر باشا لطفي حاكما لمدينة الاسكندرية اثناء الهياج وكان هو الشخص المسئول قانونا عن الامن ولكنه أهمله اهمالا تاما ان لم نقل انه عمل على زيادة الاضطراب

فاذا كان ذلك الاهمال بناء على أوامر عرابى — كما يدعي عمر لطفى مع ان صلته فى مركزه كانت مباشرة مع الخديوى من يوم ان أصدر الخديوى مرسوما يقول انه بعد استقالة سامي من وزارة الداخليـة يكون مرجع جميع شئونها الى السراى — فكيف عين ناظراً للحربية امهل كان ذلك مكافأة له على اطاعته لاوامر عرابى ولمخالفته لاوامر سيده الخديوي ؟ واذا كان الاهمال من عنـد نفسه وبدون ايعاز فكيف انه مع هذا الاهمال والعجز يعين ناظراً للحربية ؟ وكيف انه لم يوجه اليـه سؤال واحد مع انه اول شخص يجب ان توجه اليه الاسئلة ؟ والحق ان مجرى الحوادث ينبئ فى بيان واضح على ان الخديوى بالانضمام الى عمر لطفي هما سبب هذا الهياج ؟

وقد لعب الخديوى دور الدسائس نفسـه فى السودان واعتاد ان يكتب الى الحـاكم هنالك ان لا يأبه بتقـدم المهدى رغبة منـه فى زيادة الاضطراب . وكانت التلغرافات التى ترسل الى السراى من حاكم السودان غير هذه التى ترسل الى ديوان الحكومة . وفى اليوم الذى أرسلت فيه الاخبار الى ديوان الحكومة بان المهدى قتل اجتهدت السراى ان تنفى هـذا الخبر وكان الخديوي يتضجر من أى انسان يجنح فى حديثه الى الهدوء ونشر السلام

وحينما كان الخديوى فى سراى الرمل بالاسكندرية اثناء الحرب كان الاعراب الذين قدموا أنفسهم اليـه لاثارة القلاقل متجمعين حول القصر . وهم الذين نهبوا وحرقوا الاسكندرية وارجعوا المهاجرين من أهالى البحيرة وسلبوا أمتعتهم واستمروا

على هـذه الحال الى ان عزل المدير الذي كان يشجعهم وعوقب كثير منهم حتى امتنعوا خوفا من الجنود الذين وصلوا الى المدينة واحتلوها

هذا ما أعرفه عن الحادث ولو كنت خارج السجن لأثبته بشهود لا يمكن دحضهم بحال من الاحوال .

تقرير الشيخ محمد عبده

الذى كتبه وهو فى منفاه بسوريا عام ١٨٨٣

قبل حادث ١١ يونيو بايام قلائل أعلنت جريدة المحروسة (وهى جريدة تعبر عن رأي عمر لطفى) ان الاوروبيين فى الاسكندرية يعملون استعدادات حربية . ولم تعلن ذلك لاهالى الاسكندرية فحسب بل للقطر المصرى بأجمعه وعينت فى الوقت نفسه عدد الذين يسلحون أنفسهم .

وقد دفعت غرابة الخبر — اذ لم يكن هناك أى داع لهذه الاستعدادات — بعض الاعيان الى سؤال أحد محررى الجريدة عن الامر . فقال انه أمر بنشره ولكنه لم يبح باسم الشخص الذى أوصله اليه .

وقد ذهب يعقوب سامي (وكيل نظارة الحربية) الى الاسكندرية قبل الهياج بمدة خمسة أيام ليستقبل درويش باشا . وحينما وصل الى هنالك سمع ان تلغرافا من القاهرة يقول ان الخديوى ذبح وحينما بادر الى السؤال بالتلغراف من القاهرة عن حقيقة الامر أبلغوه ان الخديوى قتل حقيقة وان العاصمة فى هياج والمذابح قائمة ضد الاوروبيين . فأرسل تلغرافا ثانيا وهو فى حالة شديدة من اليأس والذهول الى مكتب قصر النيل فاستلم رداً مناقضاً للاخبار التي سبق له سماعها وتبين فيما بعد ان هذا الخبر المكذوب أرسل من مكتب الازبكية بالقاهرة وقصد به اثارة الخواطر بالاسكندرية ولكن وجود يعقوب سامى هناك حينئذ أخر الهياج الى زمن آخر .

وقبل الاضطراب الحقيقي ببضعة أيام شوهدت حركة غير معتادة بين الاوروبيين فى الحي المجاور للميدان الاكبر (ميدان القناصل) وقد وجه احمد افندى نبيه رئيس

بوليس الناحية انظار الضبطية والمحافظ اليها بدون أى جدوى . وكذلك قدم طاهر افندى الكردلي من ضباط البوليس تقريراً عن معلوماته الخاصة عن هذه الحركة ولكن عمر لطفى لم يتخذ أي احتياطات .

بل ان عمر لطفى نفسه كان من أهم الشخصيات الظاهرة التي اعتادت حينئذ على عمل الولائم لرجال الحربية حيث كان يدعى الخطباء الى منزله وهناك كانوا يحضون على اعتناق مبادئ رجال الجيش . فهو الذى سن لغيره الخطة وتبعه كثيرون من ذوي الجاه والنفوذ فى عقد مثل هذه المجتمعات وكان هو أهم من يدعي اليها . وكانت هذه المجتمعات تطرق بالخطباء والصحفيين والاجانب وغيرهم . وكانت تلقى الخطب على مسمع منه دون ان يظهر أقل اشارة تدل على رغبته فى منعها . وأول شيء سمع منه في سبيل هذا المنع كان تصريحه الذى نشر بعد ذلك .

ولكن سعادة المحافظ عاد أخيراً وادعى ان الهياج تسبب عن خطابات نديم مع ان خطابات نديم في ذلك الوقت كانت تعتبر من المسكنات لانها كانت تدعو الناس الى عدم الاشتباك فى مشاجرة حتى ولو أسيئت معاملتهم أو ضربوا بواسطة أوباش الاوروبيين منبهاً اياهم ان تلك هي الغاية التى كان يرمي اليها الخصوم لاعطاء الانجليز حجة يتمكنون بواسطتها من اطلاق النار على الاسكندرية . وهناك كثير من الاعيان يشهدون بذلك والحقيقة أيضاً ان نديم لم يكن في الاسكندرية عند حدوث الهياج بل كان فى القاهرة .

بدأ الهياج عند الساعة الواحدة بعد الظهر فى شارع ابراهيم على مقربة من مركز البوليس بين وطنى اسمه العجان وآخر من الجنسية المالطية ضرب الاول والقاه الى الارض مدرجا فى دمائه . وحينما أراد شقيقه أن يستعين ببوليس ايطالى للقبض على المعتدى لم يكن من هذا أيضاً الا ان ضربه واساء اليه وعندها قابل هذا الشقيق أعمال البوليس الايطالى بالمثل . وتجمع الناس وأصيب أحد رجال البوليس بضربة من شقيق المعتدى عليه . وكان رجال البوليس من القلة بحيث لم يتمكنوا من تفريق المتجمهرين ولكن لم تكن الى هذا الوقت قد وجدت مشاغبات بمعنى الكلمة الى أن أطلقت أعيرة نارية من النوافذ بواسطة فريق من الاوروبيين .

وقد هاجم نفر من الاوروبيين المسلحين بعض أوباش الاسكندرية الذين قابلوا ذلك بجمع كل ما وقعت عليه أيديهم من عصى ومظلات وكراس من الحوانيت وقوائم الطاولات وغير ذلك ولكن سعادة المحافظ لم يخف الى مكان الحادث الا بعد ساعتين ونصف من ابتدائه . وعندها أرسل للقنصل الانكليزى المستر ككسون لكى يلحقه الى هنالك بدون داع نعرفه لهذه الدعوة . وما كان من القنصل الا أن حضر وأخذ يشق صفوف الجماهير المحتشدة معرضا حياته للخطر .

ولم يبادر عمر لطفى حينئذ الى دعوة هذا الفريق من البوليس الذى كان تابعاً للضبطية وخاضعا لاوامره الخاصة . ولم يكن له علاقة ما بنظارة الحربية اذ كانت مرتباته وأنظمته كلها فى أيدى الادارة دون سواها . وحينما اضطر أخيراً الى دعوته (البوليس) طلب اليهم ان يحضروا غير مسلحين مما أدى الى اقتناعهم ان المحافظ يرغب فى زيادة الاضطراب. ولذلك حضروا الى مكان الحادث بهذه الروح وعلى هذه العقيدة واشتركوا مع الرعاع فى القتل والنهب وكانوا يرسلون ما تظفر به أيديهم الى بيت سعادة المحافظ .

وحينما رأى المحافظ ان الحالة أصبحت من الخطورة بحيث أن مسئوليته الجنائية محققة أرسل فى طلب الاسلحة وأمر أن ترسل فى عربة من عربات الحكومة . ولكنها لم توزع على البوليس الذى كان قد تشتت حين وصولها .

ولقد كان معسكر الجنود النظامية على مقربة من الحادث ولكنه ترك أربع ساعات طوال تمر دون أن يهم بدعوتها وحينما أرسل في دعوتها كانت رسالته شفوية غير قانونية فخاف رئيس الفرقة مصطفى عبد الرحيم من المسئولية وأرسل يطلب ان يكتب اليه الطلب بالطريق الرسمي المعتاد . وحينما أرسل هذا الطلب خرجت الجند وفرقت الجماهير وأعادت الامن بشهادة جميع قناصل الدول الاجنبية أنفسهم .

وكان يقصد المحافظ من اهمال الانظمة والاصول العسكرية ان يطول الجدل بينه وبين قائد الفرقة وبذلك يساعد نيران الاضطراب ان تمتد وتنتشر . وقد قيل ان سعادته كان يحرض الناس على النهب وحين سئل عن ذلك بواسطة أحد من

وصلتهم الاشاعة قال « نعم فعلت ذلك لكي أحول أنظار الجماهير عن القتل » يا اله السموات أنها سياسة رشيدة حقا !

وفى أثناء الهياج طاف احد خدم المستر ككسون القنصل الانجليزى على الاوروبيين وحرضهم على التقدم وان يثابروا على النضال .

وحينما كان المحافظ وقائد القوات العسكرية ووكيل الضبطية جلوسا في ديوان المحاكم المختلطة بعد المغرب بساعة واحدة وصل اليهم خبر فحواه أن عربة مملوءة بالاسلحة كانت متجهة الى دار القنصل الانجليزي . وبينما قابل المحافظ هذا الخبر بدون أى اهتمام قام قائد القوات العسكرية وأوقف العربة وأفرغ ما بها فى ديوان الضبطية .

وحينما تبين لقائد القوات العسكرية الموجودة فى « باب شرقي » ان عمر لطفى نفسه يحرض على الاضطراب هم بالقبض عليه . ولكنه لم يتمكن من ذلك بما أن القطر لم يكن تحت الاحكام العرفية حينئذ ولذلك انتظر حضور وكيل نظارة الحربية يعقوب سامي لكي يفضي اليه بحقيقة المسألة . ولكن فكرة القبض قد تلاشت حين وصوله الى الاسكندرية

وحوالى الساعة السابعة مساءاً وصلت أخبار الى الاميرالاي مصطفى عبدالرحيم أن قواربا تسرع الى الشاطيء وعليها جنود بريطانية بقصد ايصالهم الى البلدة . وفي الحال أخطر المحافظ الذى استبعد ذلك كل البعد ولكنه لم يقنع وتوجه الى القنصل الفرنسى الذى رافقه مع فريق من الضباط وشرذمة من الجند الى شاطيء البحر . وهناك تأكدوا من صحة الخبر وتوجهوا توا الى القنصل الانجليزي وبعد شيء من الجدل صدرت الاوامر الى القوارب بالرجوع ثانية بمن عليها .

ولقد احتج أغلب من قبض عليهم من المتهمين فى اليوم التالى للقبض مباشرة بأن الذنب ليس ذنبهم فقط بما أن سعادة المحافظ نفسه أمرهم بالنهب والاعتداء ولو أنه حصل تحقيق فى هذه الايام القلائل الاولى لانحصرت الشبهة بناء على أقوال الاغلبية الساحقة من المتهمين فى شخص المحافظ . ولكن الاميرال سيمور لم

يسمح بمثل هذا التحقيق لئــلا يتلاشي السبب الذى اعتمد عليه فى اطلاق النيران على الاسكندرية .

ولقد كان عند الســيد قنديل أوراق تبين كيف ان الامر نظم بواسطة المحافظ والخديوى ودبر بالاتفاق فيما بينهما · وحينما قبض عليــه أجبر على تسليم هذه الاوراق ومع ذلك لم يوجه أى سؤال الى عمــر لطفي بل على النقيض من ذلك رقي الى أعلى مراتب الدولة .

وحينما قامت المذبحة فى طنطا ذهب ابراهيم باشا أدهم مدير الغربية الى بنـاء الحكومة وجمع بقية الموظفين والكتاب والسكرتيرين وأغلق عليه وعليهم الابواب تاركا الاهلين وما يفعلون وبذلك انتشر الاضطراب وكان لابد أن ينتشر أكثر من ذلك لولا ان أحمد بك المنشاوى وأخاه — ولم يكونا من موظفي الحكومة — أخمدا الاضطرابات وأنقــذا أرواح اليهود والمسيحيين والاغنيـاء من الرعاع ومهـاجري الاسكندرية . ومع ذلك لم يسأل هذا المدير أيضاً عن شيء وأعيد الى وظيفته بعد الحرب ... ألا فليسجل الله عنــده فى أم الكتاب وزر من كانوا سبباً فى اراقة هذه الدماء !

وفضلا عن ذلك فان من بين الاحكام التي أصدرت فى هذه الايام حكم صدر من محكمة الاسكندرية العسكرية ضد عبد الرزاق علوان وكيل مديرية البحيرة أثناء الحرب قاضيا بنفيه خمسة عشر عاما الى « مصوع » وذلك لمعاونته وتحريضه للثوار فى دمنهور ويعلم الله وكل انسان يعرف كيف أنه عرض حياته للخطر فى سبيل خدمة الناس والمحافظة على أموالهم . والسبب الحقيقى فى هيـاج دمنهور هو ابراهيم بك توفيق المدير — الذى رغم فصله من وظيفته فى اليوم السابق على الهياج ، عمل على تنفيذ خطته قبل ان يستلم المدير الذى عين بدله أعماله — ومع ذلك أعيد الى منصبه فى مديرية البحيرة عقب انتهاء الحرب . وقد أخذ هذا الرجل أيضا ما يقرب من الاثنى عشر ألفا من الجنيهات رشوة من الاهالى . وعلى العموم فما عمله من سيئات كان يستلزم زمنا طويلا لاصلاحه

وانى أعتقد ان الحكومة الانجليزية كانت مستعدة أن تعفو عن أى جريمة ارضاء

للمحتمي بها ، الجناب العالى الخديوى . ويظهر ان مهمة « اعادة النظام » التي تتقلدها الآن الحكومة الانجليزية تنحصر فى تجسيم مطامع سموه واثارة رغبته فى الانتقام هو ومن حوله . مضحية في سبيل اهوائهم جمهور الاهلين البائس . وتعتقد انه من الممكن ايهامنا على لسان الصحف ان اعادة النظام ونشر لواء العدل كان بفضل الخديوى ونظاره والجيش الانجليزى .

وليست هناك أية حاجة لسؤال المصريين عن مبلغ آلامهم . اذ يكفي فى ذلك أن ننصت الى تأوهاتهم وأحزانهم .

تقرير عرابي

حقيقة حوادث ١١ يونيو عام ١٨٨٢ التي وقعت بالاسكندرية

ان حزب السراى المكون من الاتراك والشراكسة عدو للانسانية فهم يعتقدون ان الله القدير لم يخلق المصريين الا ليكونوا عبيداً لهم وخدامهم الذين يتخذونهم آلة لنشر سلطانهم المطلق تبعا لما توحيه اليهم أهواؤهم وهم في كل ذلك يعاملونهم بقسوة واحتقار . وحينما رأوا (الاتراك والشراكسة من حزب السراى) ان مجهودات الحزب المصرى بدأت تؤتي ثمرها وان فريقا نابها من بين هؤلاء الذين كانوا يظنونهم عبيدهم قد خطوا خطوات شاسعة الى الامام وأصبح منهم وزراء يجلسون معهم على قدم المساواة فى مجالسهم المقدسة وان سواهم من ذوى المواهب قد ارتفعوا الى مناصب رفيعة من مناصب الدولة وأن الامة بدأت تستشعر الحرية . وتخلع عن أيديها اغلال الاستعباد وان كل ذلك يحدث فى جو من الهدوء والسكينة — كبر ذلك جدا فى أعين خصوم المصريين وتبين لهم ان لاسبيل الى وضع العراقيل فى سبيل التقدم المصرى الا بأثارة حملة وحشية دنيئة ضد أوروبا تحملها على اتخاذ تدابير فعالة لاطفاء جذوة المصريين المتعلمين واخراجهم من وطنهم — اذ انهم ببلوغهم هذه الغاية يخلو لهم الجو لاعادة عهد الاستعباد في مصر — ولذلك اتفقوا فيما بينهم (حزب السراى) على تنفيذ هذه الخطة مستخدمين الضمان الذى كنت أعطيته

للاوروبيين عن سلامتهم وحفظ الامن فى جميع انحاء القطر المصري (وهو الضمان الذى حملني الخديوي أعباءه فى حضرة درويش باشا مندوب السلطان وجميع قناصل الدول الاوروبية) واتخذوه وسيلة لتنفيذ مؤامرتهم — حتى يتمكنوا بذلك من تشويه حركتنا فى نظر الاوروبيين . وأدلة ذلك هي : ـ

أولا — أرسل الخديوى الى عمر لطفى محافظ الاسكندرية أن يحضر اليه بقطار خاص فى ٩ يونيو عام ١٨٨٢ وحين وصوله دارت بينهما محادثات طويلة زوده فيها بمعلومات خاصة بتنظيم الاضطراب فى الاسكندرية وفي اليوم نفسه عاد عمر لطفى وبدأ فى تنفيذ الخطط المتفق عليها حتى انه فى ١١ يونيو (أى بعد أخذ المعلومات من الخديوى بيومين اثنين فقط) انفجر الاضطراب ـ ودليل ذلك هم جنود البوليس أنفسهم ـ الذين ارتكبوا أغلب جرائم القتل أمام باب رئيس البوليس وباب الضبطية. ولم يقم جنود البوليس بواجبهم على خلاف المعتاد ولم تحضر الجنود الى مكان الحادث الا بعد أن تفاقم الخطب وحينما حضروا كانوا كالنظارة ـ بدون سلاح ـ وذلك على خلاف مايقضي به واجبهم ـ وفي أثناء كل هذه الحوادث كان المحافظ وقائد الجندرمة اسماعيل كامل باشا الشركسي يراقبانها من أولها لآخرها ومع ذلك لم يتحركا الى استدعاء الفرق (الجنود النظامية) ـ لاطفاء الفتنة الا بعد أن وصلت الى ذروتها ونفذت أوامر الخديوى السرية ولو انه كان في استطاعتهما أن يستدعيا الفرق فى الحال اذا أرادا

ثانيا ـ لم يعطى عمر لطفي أى معلومات عن هذا الحادث مع انه يعلم انني أخذت تحت مسئوليتي وبضمانى حفظ الامن والسلام في جميع انحاء القطر وأن بيانا بهذا الشأن أعلن بواسطة الخديوي ونشر فى جميع الجرائد العربية والافرنجية .

ثالثًا — أن عمر لطفى بعد أن صنع كل ذلك — اذ هو المحافظ المسئول عن كل ماحدث في المدينة — عين رئيساً للجنة التحقيق فى الحادث المحزن ثم طلب الأذن بالسماح له بالسفر الى الخارج لتبديل الهواء ولم يتأخر الخديوى عن اجابته الى هذا الطلب . وبعد ذلك اعتزل العمل ولكنه بقى في القطر لاعمال خاصة به الى أن قامت الحرب وعندها ذهب الى الخديوي فى الاسكندرية عن طريق بور سعيد

وعين حينئذ ناظراً للحربية . وكذلك فعل زميله اسماعيل كامل باشا الذى عين فيما بعد وكيلا لنظارة الحربية — كل هذه أدلة بينة على أن الهياج دبر أو نفذ بواسطة الخديوى بالاشتراك مع عمر لطفي باشا واسماعيل كامل باشا وبقية خصوم المصريين وذلك رغبة منهم في إثارة الاوروبيين ضدهم .

تقرير أحمد بك رفعت

المقدم لمستر بلنت من تونس فى عام ١٨٨٣

لا يزال يوجد أناس عندهم الجرأة الكافية أن يقولوا ويكتبوا أن الحزب الوطني المصرى ورئيسه مسئولون عن حوادث ١١ يونيو المشئومة بل أن بعض الكتاب لا يتردد فى ذكر أسماء معينة ويزعم أن أصحابها هم المحرضون على ما حدث فى اليوم المشئوم وذلك رغم ما أظهرته التحقيقات الاخيرة . وذهب بعضهم وهو يحاول ان يشرح الحوادث ومجراها أن يعين الغرض الحقيقى من الهياج فكان فى شرحه متناقضا حيث يقول « رغبة فى القاء للوهم فى مخيلة الباشا التركي (درويش باشا) من ناحية ومن ناحية أخرى فى التعظيم من مركز عرابي الممتاز الذى اعتبره القناصل مسئولا عن الامن العام عمد الثوار الى تدبير اضطراب بدون تحديد لطبيعته أو شكله يخمده عرابي بعد ذلك بمجرد رفع يده » .

وبصفتى سكرتيراً عاماً للحكومة المصرية في عهد عرابى ولالمامي بأحوال بلادى وأحوال رجالاتها أرانى مضطراً خدمة للحقيقة والوطن أن أبسط هنا المعلومات والشواهد التى تدحض هذه الاباطيل دحضاً نهائياً . وانى أعطيك هذه المعلومات التفصيلية بسرور عظيم لعلمي باهتمامك الدائم بمصير هؤلاء المصريين الذين كان ذنبهم أنهم أحبوا بلادهم ودافعوا عنها . كما أنى لم أخف أن أقدم هذه المعلومات أيام كنت سجيناً مع عرابى ورأيت بعينى رأسى رجالا يعدونها مفخرة أن يسبوا هذا الرجل الذى كان رمزاً لمستقبل بلاده والذى لا يزال فى صدقه وحرية ضميره كذلك الى الآن .

فى يوم الاحد ١١ يونيو كان القومسير العثمانى درويش باشا ممتطياً عربته فى الشارع المؤدى من سراي الجزيرة الى كوبرى قصر النيل . وكان حينئذ قد عقد اجتماعا طويلا في قصره الخاص مع عرابى باشا وجميع النظار السابقين ومتوجهاً بعده الى سراى الاسماعيلية حيث يقيم الخديوى لكى يعرض على مسامعه تفاصيل ائتلاف اتفق عليه والذى الى حد قولهم كان يوفق بين الخديو الصغير الجامح وبين نظاره . وحينما وصل درويش باشا الى الكبرى قابله طلعت باشا سكرتير الخديوى الخاص الذى كان مرسلا اليه من قبل سيده ليخبره عن حدوث هياج فى الاسكندرية وانه لا يزال مستمراً منذ ثلاث ساعات وان الاوروبيين والمسيحيين يذبحون فى كل مكان . وكانت تلقى هذه الاخبار لدرويش باشا فى هيئة الانتصار اذ ان وجه طلعت باشا كان مشرقا يتألق . وكأنما أراد أن يقول بذلك ان عرابى الذي عمل من أجله كل ما عمل هو سبب هذا الهياج . والحقيقة ان عرابي كان قد تعهد فى محضر من جميع القناصل أن يحافظ على الامن العام وان يعيده اذا ما اضطرب أقل اضطراب. والآن هاهي الحوادث تكذبه والمذابح دائرة منذ ثلاث ساعات وهو عاجز عن ان يفعل شيئا لاعادة النظام . ولم يكن هنالك شيء أسعد ولا أسر لانصار الخديوى من ذلك وكان جل أملهم أن يسحق عرابي باشا ولو سحق فى سبيله السلم العمومى نفسه . وما كان من درويش باشا حينئذ الا ان ارسل رئيس أركان حربه الذى كان معه في العربة الى عرابي . واذ كنت حاضرا فى هذه اللحظة فقد أفسحت مكانا لرسول درويش باشا فى عربتى وأخذته الى منزل محمود باشا سامى حيث كان يوجد عرابي حينئذ .

ولم تلبث الاخبار ان انتشرت في المدينة ففزع الناس وأسقط فى يد عرابى وأصحابه . بينما كانت سراى الخديوى في افراح . وكان محافظ الاسكندرية يجيب رسل عرابى بان الجيش قبض على ناصية الموقف وأعاد الامن الى نصابه وفى الوقت نفسه كانت الاشاعات المدهشة تنتشر بين الناس فى الطرقات . . . فالبعض يقول وكأنما هو يعمل فى ذلك بناء على تعليمات خاصة ان عرابى أصدر أوامره باقامة المذبحة دون ان يعطي ايضاحات أخرى . ويقول آخرون بلهجة الرجل الاكثر اطلاعا ان

الحركة دبرت بواسطة رئيس النظار السابق محمود باشا سامي الذي يتولى قيادتها ولكن المتنورين رأوا فى المسألة مؤامرة خطيرة ولو انهم لم يبدوا رأيا حاسما فى الموضوع. اذ انهم لم يعتقدوا ولم يتصوروا ان عرابي له علاقة بهذا الحادث لا مباشرة ولا بالواسطة .

في ٢٨ مايو اى قبل الحادث بأربعة عشر يوما أعلن عرابى الدول انه يتحمل تحت مسئوليته الشخصية استتباب الامن والنظام. وكذلك أدرك عرابي واعلن ذلك مراراً فى صراحة تامة ان سلامة مصر تتوقف علي استتباب النظام فيها . وكان يعارض دائماً فى انزال الخديوي من على العرش بحجة انه حامى الخديوى من مثل هذه الطوارىء . وقد أراد بهاتين الظاهرتين أن يطمئن القناصل على حياتهم وأنفسهم وأن يهدىء خواطر الجماهير . فكيف يتأتي لهذا الرجل نفسه فى لحظة هو أدرى الناس بخطورتها أن يسفه مبادئه ويعمل على نقض ما وعد به ويظهر عجزه بيديه ؟ ولو أن عرابي حقيقة كان يملك أن يوقف الهياج باشارة من يده كما يقول الكاتب سالف الذكر لكان لنا أن نقول كما يقول هذا الكاتب ان عرابي أراد ان يتظاهر بقوته ولكن ما الحكم اذا كان الخديوى لم يكلف نفسه حتى ابلاغ ناظر حربيته بما حدث ولم يعلم عرابي باشا عن الحادث الا من طريق درويش باشا وكان ذلك بعد ابتداء الهياج بثلاث ساعات . فمن الطبيعى اذاً انه لم يوقف ولم يتمكن أن يوقف الهياج باشارة من يده .

ولكن هناك حقيقة لاشك فيها وهي أن الحادث كانت له مقدمات تنبيء عنه وكان يدبر وينظم بمهارة تفوق الوصف . فقد ثبت أن بعض المندوبين السريين قاموا بتوزيع نبابيت على الرعاع قبل حادث ١١ يونيو ببضعة أيام فقط . وان هذه « النبابيت » ظهرت في أنحاء المدينة المختلفة دفعة واحدة وفى اللحظة التى قتل فيها المكارى بواسطة المالطي لسبب تافه . وثبت أيضا أن طائفة المكاريين — وكانت معروفة بالهدوء والسكينة ومحبتها « للبقشيش » — لعبت دوراً خطيراً فى هذا اليوم المشئوم تحت تأثير هذه الرشوة الصغيرة وأن بعض الاروام والبدو كانوا مسلحين بالمسدسات أثناء الهياج ومختمين في مخابىء بمنازل معينة وغرضهم الوحيد

اشعال المذبحة باطلاق النيران خلسة على جماهير الاوروبيين والمصريين وثبت أن بعض المشايخ المتعصبين انطلقوا من مكان لا يعرفه أحد وأخذوا يحرضون الاهالى على ذبح جميع المسيحيين . وأن قوة البوليس التى أرسلها المحافظ فى الظاهر لتخمد الفتنة كانت تحز الناس بحرابها بدل أن تحميهم وأن بعض المهاجرين البؤساء كانوا يقتلون علناً بواسطة رجال الضبط أمام أعين رئاسة البوليس وسمعها . وثبت أن البدو الذين حضروا الى الاسكندرية من البقاع المجاورة لها كانوا على وشك أن يقوموا بدورهم في النهب لولاأن ظهرت قوى الجيش النظامية وأجبرتهم على التراجع ولو أن ظهورها كان بعد أربع ساعات من قيام الفتنة

ومما هو جدير بالملاحظة هنا أن أهم رسل هذه الفظائع والجرائم كانوا من الاروام والمالطيين الذين لا يمكن اتهامهم بحال من الاحوال بالتعصب للاسلام ضد الاوربيين وكذلك المكاريين الذين يتكلمون قليلا من اللغة الانجليزية والفرنسية ولا يظن أنهم يحملون بغضا او كراهية للاوروبيين وكذلك البدو الاعراب من أهالى البحيرة الذين نقلت عنهم شركة روتر التلغرافية قبل المذبحة بقليل أنهم قدموا اقرارهم بالولاء والطاعة لاعتاب الجناب الخديوى فى مظاهر فخمة خلابة

ومن جهة أخرى فان محافظ الاسكندرية يفسر توانيه فى ارسال الجيش النظامى لاخماد الفتنة بخوفه من انضمام الجند الى الثوار . ولكن سعادته لم يفسر لنا ولم يسأل بتاتا كيف أن خوفه هذا الذى استشعره عند بدء الهياج قد تلاشى حينما اشتدت المذبحة ووصلت الى ذروتها .

ولكن الحقيقة فى كل ذلك والتى كان عمال التلغراف المتصلون بالسراى على استعداد الى بسطها هو أن مراسلات عدة كانت تتبادل بين محافظ الاسكندرية والخديوى عقب اندلاع الفتنة مباشرة وكانت كلها تدور حول ارسال فرق من الاسطول الانجليزى أو الفرنسى للتدخل فى الامر . ولقد كان الخديوى الصغير لمدة من الزمن ينتظر بفارغ الصبر نزول القوى الاجنبية الى أرضه التى كانت مرسلة لتثبيت سلطانه وأن يراها فى القاهرة نفسها وتقبض على عرابى وجميع الوطنيين ثم تعود ثانية الى بوارجها وهي تنشد نشيد المجد لجنابه العالى . ولقد كان حيدر

باشا ابن عم الخديوي في الاسكندرية فى يوم الهياج وساعد كما قيل على ذبح المسيحيين البؤساء. وقد كان قبل ذلك يعقد اجتماعات طويلة لمدة أيام متتاليات مع الخديوى فى « الحرملك » وكانت دائما تعقد فى المساء . ولم يلجأ المحافظ الى الجيش المصري ليضع حدا المذبحة وذلك باتفاقه مع الخديوي الا بعـد فشل مفاوضاته مع قواد البحر الاوروبيين لارسال قوى من قبلهم . وهذه معلومات لها قيمتها عنـد جميع هؤلاء الذين يسمح لهم مركزهم أو تسمح لهم معلوماتهم عن السياسيين المصريين أن يكونوا رأيا صائبا عن حوادث ١١ يونيو .

وهنالك مسألة باقية ليست حقيقتها معلومة للجميع . وهى أن محافظ الاسكندرية فى وقت الهياج هو عمر لطفى وعمر لطفى هذا هو الروح الثانيـة لابراهيم المفتش صاحب الموارد والايرادات الضخمة والمفتش السابق للوجه القبلى الذى اشتهر بأعمال « كرباجه » فى الاهالى . وكان تعيين عمر لطفى فى عهد وزارة محمود سامي بناء على إلحاح وتوصيات الخديوى الحارة . اما عرابي باشا فقد كان شعوره الشخصى وما هو مولع به من الاستقامة ضد هذا التعيين وكان يشعر دائما بقلق من جرائه . ولكن رئيس النظار حينئذ كان يثق في كفاءة عمر باشا لطفى الشخصية ويعتقد انه لا يجرؤ مطلقا على خيانة الحزب الوطنى ولو انه لاينتمي اليه وفى الوقت نفسه كان يرى فى هذا التعيين ارضاء للخديوى (وذلك قبل وصول القوى الاجنبيـة) الذى كان دائم التضجر مستمر الالحاح فى هذا التعيين ويقول أن الاسكندرية في حاجة قصوى الى محافظ نشط قادر يملك حفظ الامن بها — وقد نجح في الحصول على موافقة مجلس النظار على هذا التعيين . وفى اليوم الثاني للمذبحة حصل عمر لطفى على اجازة غـير محدودة المدى من الخديوى وأعد معداته للابحار على أول باخرة تقوم من الميناء .

وقد كونت ثلاث لجان بالتتابع للبحث في أسباب الحادث واكتشاف المجرمين الحقيقين ولكن لم تنجح واحدة منها فى مهمتها ولم يصلوا الى نتيجة ما بل ان لجنة التحقيق بالاسكندرية حينما عاقبت أخيراً فريقاً من هؤلاء الذين قد صبغت أيديهم بدماء الحوادث كان ذلك لانهم آلات لم تؤت من الذكاء القدر الكافى الذي ينجيها من الاتهام . مع ان الاشخاص الذين دبروا كل شيء وساروا فى تنفيذه لم يرد لهم

ذكر مطلقا في التحقيقات — لماذا ؟ هذا هو بيت القصيد .

هذه يا سيدى هي الحقائق والمعلومات التى يمكنني ان أبسطها لكم ومهما كانت الاستنتاجات التى يمكن الحصول عليها مما ذكرته فانى أظن اني قد أثبت كذب الاتهامات التى تكال عن قصد أو عن جهالة ضد الحزب الوطنى المصري وضد رئيسه.

واني مستعد ان أقسم على صدق هذه البيانات امام أي محكمة بل ومستعد ان أذهب الى لندن نفسها لاتمامها واعطاء جميع الايضاحات اللازمة .

ملحوظة — كل هذه البيانات التى أعطيت عن الحادث قدمت للورد راندلف تشرشل فى عام ١٨٨٣ وقدمت بواسطته على ما أظن الى ادارة الشئون الخارجية . وكذلك قدمت اثباتات اضافية أخرى كنت جمعتها بنفسى الى المستر جلادستون ليبحثها ولكنه أبى ان يقوم بهذه المهمة .

مذكرة مرفوعة للورد راندلف تشرشل

فى عام ١٨٨٣ عن رأي المستر بيان فى الحادث

لشهادة المستر بيان عن منشأ مذبحة ١١ يونيو أهمية كبرى نظراً للظروف التى أحاطت بمركزه فى مصر ولما هو عليه من الخلق العالي فى الوقت نفسه . فمن المعلوم انه كان مترجما فى دار المندوب البريطانى حين نشوب الفتنة وكان بهذه الصفة فى احتكاك مستمر بالسراى وبالوطنيين من قبل السير ماليت . وانه فى شهر يوليو فى زمن القلق العام الذى سبق الحادث تركه السير ماليت وفى عهدته السجلات الرسمية وقد استمر في القاهرة الى ما قبل اطلاق النيران على الاسكندرية بيومين اثنين فقط وكذلك كان المستر بيان من أول من نزل الى أرض الاسكندرية بعد الحادث واشتغل شهراً مع اللورد شارلز بيرزفورد فى البعثة البوليسية وهو صاحب الفكرة فى معاقبة الذين ارتكبوا أعمال النهب والقتل والحريق . ثم التحق بعد ذلك بأركان حرب السير جارنت ولزلى وحضر جميع وقائع الحرب وانه بعد عودة السير ماليت عين هو والسير شارلز ولسن لمراقبة الاجراءات المتخذة فى محاكمة عرابي من قبل

حكومة حضرة صاحب الجلالة ملك بريطانيا. وانه استخدم فى ترجمة الاوراق العربية المتعلقة بهذه القضية ومن بينها أوراق عرابى الخصوصية . وانه وضع بالاشتراك مع الميجر شرمسيد تقريراً نشر فى الكتاب الاخضر عن حالة السجون المصرية وهو تقرير استحق عليه الشكر من اللورد جرانفيل وانه حين اعتزاله خدمة حكومة صاحب الجلالة الملك فى ديسمبر عام ١٨٨٢ قدم له الشكر على خدماته من كل من اللورد جرنفل واللورد دفرين . وانه من ذلك الوقت عاش فى مصر حيث تولى بعد ذلك الدفاع عن قنديل وسجناء آخرين متهمين بالاشتراك في المذبحة . ولذلك كانت شهادته ذات قيمة خاصة بل هي أفضل ما يقدم فى هذا السبيل . ويمكن استخلاصها من النبذ الآتية المنتقاة من خطاباته المختلفة .

في خطاب لمستر بلنت من لندن فى ٦ نوفمبر عام ١٨٨٢ يقول « ان رجال السراى هنا فى ارتباك عظيم أمام وصول اللورد دفرين الى هنا باكر . ولقد كان وصول برودلى صدمة قوية لهم ولكن وصول اللورد دفرين هو الضربة الاخيرة . واني أعتقد فى اللورد دوفرين أنه رجل فطن سيتمكن من فهم صاحبنا توفيق بسرعة وعلى ماعلمت أنه سيفتح أذنيه لكل انسان وأن البعثة المؤقتة ستمد بمعلومات أدق بكثير مما كانت عليه الحال مع دار العميد فى جميع الأوقات . ولقد حادثت كثيرين من الوطنيين قبل ضرب الاسطول لميناء الاسكندرية وهم من جميع الطبقات والاحزاب ووقفت على حقيقة الدور من أبطاله الأربعة — انجلترا وتركيا وعرابي وتوفيق . وكان لون كل منهم واضحا تمام الوضوح » .

« . . . واني أظن أن مسألة ابراهيم أغا وحدها تكفى أن تدل على حقيقة اتجاه الخديوى . فقد سمعت القصة كلها من السراى مباشرة — وكيف أن توتنجى قبل يد الخديوي وطلب أن يسمح له بأن يبصق في وجه السجناء الخ . وهذه هي المسألة التى حقق فيها السير شارلز ولسن ووجد أنها صحيحة من أولها لآخرها ولكن بما أن الخديوى كان لابد أن تظهر له عورات فى هذه المسألة فقد تركت جانباً ولقد اقترحت حينما رأيت أن جميع الشهود حانثون في ايمانهم ان اليمين التى تطلب منهم هى يمين الطلاق (على الطلاق بالثلاثة) وكان السير شارلز ولسن من رأيي

أيضاً ولكن المسألة وقفت عند هذا الحد . وعائلة الخديوي نفسها لا تخفى حقيقتها الآن فيما بين أنفسهم ولا تحاول اخفاءها ومع ذلك فهذا هو الرجل الذى ذهبنا لنحارب من أجله فى مصر » .

وفي السابع عشر من الشهر نفسه كتب يقول « المسألة تتوقف الآن على ما لو سمح للمسجونين وأعطيت لهم الفرصة فيان يسمع دفاعهم عن أنفسهم باخلاص. لأني مقتنع الآن أن الحكومة هنا تعمل كل ما فى وسعها لعرقلة اجراءات المحاكمة . وذلك لان الحقائق التى تسفر عنها مناقشة المتهمين تمس جميع الرجال الذين فى الحكم الآن وتظهر حقائق غير سارة عن الخديوى نفسه . ولهذا السبب الاخير اعتقد أنه من الممكن ان تتفاهم الحكومة الانجليزية مع عرابي على شروط معينة لانه من المؤلم جداً أن تظهر المحاكمة أن الرجل الذى أرسلنا جيشاً الى مصر للانتصار له هو أكبر رجل دجال فيها . وانا شخصياً لا يكاد يخامرنى شك في أن الخديوى وعمر لطفى دبرا مذبحة الاسكندرية لكي يطعنا عرابى بها بعد ان جعل نفسه مسئولا عن الأمن العام وأن عندى أدلة تكفي أن تجعل ظني أقرب للاعتقاد منه لأى شيء آخر ولكن لم يحن الوقت لاظهارها » .

وفى اجابة له على خطاب سئل فيه أن يعطي معلومات أوفى وايضاحات عن حادث ١١ يونيو قال :

١٧ فبراير سنة ١٨٨٣

«اني مسرور أن أسمع عن الحملة التي تعدها ولكنى أرى أنه من الصعب جداً أن تظهر مسئولية الحكومة التى تخلصت من شباك الحادث بكل مهارة وخفة . أنت تسألني أن أعطيك براهيناً تؤيد نظريتك وأنا شخصياً ليس عندى شهادة معينة. حينما حضر اللورد دوفرين أخبرته ان المذبحة نشأت في الحزب الفرعونى (الحزب الخديوي) ولم تكن سياسة خاسرة فيما يتعلق بأنفسهم لأن غرضهم الواضح منها أن يشوهوا سمعة عرابي بعد أن أعلن ضمانته ومسئوليته عن الامن العام ولكي يدفعوا الاوروبيين الى العمل على اسقاطه. وكان الرأى القائل بالصاق الحادث به مضحكا حقيقة لانه كان انتحاراً له وقد أدركوا جميعاً ذلك حينئذ. وحينما طلب الى اللورد دوفرين

أن آتى له باثباتات تؤكد اعتقادى ان كان عندى شيء منها ذهبت اليه في النهاية وأخبرته أنه لو أعطي ضماناً كتابياً للشهود أن لا يمسهم أذى لاحضرتهم اليه — بما أني لا يمكننى أن أحضرهم قبل ذلك — والشيخ عبده ورفعت يعرفان الحكاية من أولها لآخرها تماما — وهؤلاء الشهود يثبتون أن عمر لطفي أمر سليمان سامي أن يرسل اليه الفرقة بغير سلاح ولكن سليمان سامي أبى أن يستغفل هذا الاستغفال ويرسلها بهذا الشكل لادراكه مايترتب على ذلك من النتائج وفى الوقت نفسه كان يدرك ما يصح ان يقال لو بقى بجنوده بعيداً بينما المذبحة قائمة على قدم وساق ولذلك توجه بفرقته بعد تردد ساعة من الزمن وكانت مسلحة على نقيض أوامر عمر لطفى وأخمد الفتنة . وفى مكنتى أن أحضر الرجل الذى تلقى الامر من عمر لطفي واوصله الى سليمان سامي . ويمكننى أن احضر شخصا آخر سمع عمر لطفي يحرض أوباش المذبحة فى الطرقات على أن يخربوا منازل المسيحيين على من فيها وأن لا يتركوا منهم أحداً . وهنا صاح اللورد دوفرين وقال انه ليس من شأنه أن يحاكم عمر لطفي وكان ذلك قبل ظهور برودلى فى الميدان وبعد ذلك مضيت في مجهوداتي معتمدا على نفسي فيها ثم التجأت الي برودلى وتمكنا فى النهاية من الحصول علي شهادة الذين أرسلوا الرسالة الشفرية من الخديوى الى عمر لطفي فى الليلة السابقة للمذبحة وفيها يأمره باقامة الاضطراب — وذلك يفسر الانشراح الجنوني الذى قوبلت به أخبار الفتنة في السراى — بقولهم « الآن قد فعلناها لهم » وكان جميع رجال التشريفات والخدم يرقصون من الفرح وغير ذلك من مظاهر الغبطة والسرور . ومما زاد هذه الادلة وضوحا تعيين عمر لطفي ناظرا للحربية (اعترافا بخدماته فى ذلك اليوم) بدون أى سبب خاص يدعو الى ذلك التعيين أو كفاءة شخصية له . واذا لم يكن مدانا حقيقة فلا يمكنه أن يتهرب من تهمة الاهمال الشائن والعجز وعدم الكفاءة كمحافظ يتحتم عليه اخماد الفتنة التى تقع كل مسئوليتها عليه دون سواه ولكنه رغم كل ذلك عين ناظرا للحربية . وهذه هى الحقائق التى تغلب بها برودلى علي الخصوم فى جميع مساعيهم . ولا بد انك لاحظت — كما لاحظ كل انسان هنا — كيف أن مسألة المذبحة التى كانت فى أول

الامر قصب السبق المحرز ضد عرابي أخمدت فجأة ثم توارت من الميدان بهذا الحكم المضحك »

وفي ٤ مارس كتب المستر بيمان ليخبر المستر بلنت أن قنديل وسليمان سامي وآخرين طلبوا اليه أن يدافع عنهم امام محكمة الاسكندرية العسكرية التى كانت تتجه نواياها الى اعدامهم ثم أضاف الى ذلك بقوله :

« ولقد كانت الورقة الرابحة فى يدى في هذه اللعبة هي الشهود بطبيعة الحال الذين كنت اهدد باحضارهم لاتهام عمر لطفي مباشرة والرأس الكبيرة بطريق غير مباشر . وأظن ان الحكومة تفضل أن تطلق سراح المتهمين عن أن تعرض نفسها لمثل هذا التعريض الجارح » . وفي يوم ١٨ من الشهر قال « انى واثق من الافراج عن المتهمين وربما استبدل بهم في قفص الاتهام ناظر الحربية » . ولكن هذه الخطة أفسدت بالاجراءات الجهنمية التى اتخذت حينئذ ومنع أى استشارة أو تواصل مع المتهمين الى أن انتهت المحاكمة وأما فيما يتعلق بقضية سليمان سامي فقد حرم من وسائل الدفاع دفعة واحدة

وفى هذه الاثناء عاد المستر نابيير الى انجلترا وهو الذى انضم الى مستر بيمان فى مسعاه الى الدفاع عن المتهمين وبناء على نصيحة المستر بلنت قابل المستر راندلف تشرشل والسير ولفرد لوسن . وكان تقرير المستر نابيير حينئذ هو السبب فى تصريح المستر راندلف العلني الذى عمل فى شهر مايو — وهو أول تصريح علني له عن علاقة الخديوى بالمذبحة والذي أدى بالمستر جلادستون الى الوعد بمحاكمة المتهمين محاكمة عادلة .

ومع كل ذلك فان المستر نابيير لم يجد مايشجعه على العودة الى القطر المصرى ولذلك استمر المستر بيمان — ولو انه لم يكن محاميا — فى الدفاع عن قنديل بطريقة عامة وكان المستر بلنت يمده بالمعونة المالية اللازمة للمصاريف الضرورية لانه لم يأخذ أجرا على دفاعه ولم يتمكن قنديل من رؤية مستشاره المستر بيمان الا بعد أن حوكم زميله سليمان سامي فكانت مهزلة أكثر منها محاكمة وبعد أن أجريت معه تحقيقات بمجموعة متضافرة من خصومه . وقد مضى تسعة أشهر فى السجن وكان

يتبع في دفاعه طريقا منع عنه غوائل الهجوم . اذ أنه كان يطالب بالرحمة لا بالعدل الذي لم يكن له موضع حينئذ .

وكتب المستر بيان في الثاني والعشرين من الشهر فقال : « وكان يحلف انه لا يعرف أى شيء يربط عمر لطفي بالمذبحة اللهم الا بعض شــو اهدعارضة يشترك في معرفتها كل الناس . وان عمر لطفي لم يعرض عليه أى اقتراح وانه لا يظن ان المذبحة دبرت من قبل (هكذا) وكل ما هنالك ان عمر لطفي كان واقفا وقوفا تاما على شعور الاهالى ويعرف انه لابد ان ينفجر في يوم من الايام . وحينما حصل الانفجار قال قنديل انه كان طريح الفراش وأردف ذلك بقوله ان عمر لطفي أو أى انسان آخر كان يمكنه ان يخمد الفتنة عند منشئها . بل ان تلغرافا واحدا لعرابي كان يكفي للوصول الى هذه النتيجة . ونداءاً واحدا للجند كان يأتى على الفتنة فى الحال ولكن عمر لطفي اكتفى بالطواف فى المدينة وتبادل التلغرافات الشفرية مع الخديوى ومن المحال الوقوف على ما دار بين الاثنين حينئذ من المراسلات . اذ ان الكتاب كانوا ينقلون الارقام دون ان يفهموا لها معنى وقد صدرت الاوامر باعدام جميع التلغرافات الشفرية (والظاهر ان مثل هذه التلغرافات تعدم دائما) . ويقول رفعت ان التلغرافات كانت خاصة باستدعاء الجند الى ميناء الاسكندرية من البوارج . واذا كان الخديوى قد اعلم بهذه المذبحة عند الساعة الثانية او الثالثة فلماذا اذا لم يستدع السير مالت (القنصل الانجليزى) مباشرة ؟ فان السير مالت لم يعلم بها الا بواسطة تلغراف من كلير وهو في حجرة بليارد زيجادا حولى الساعة السادسة مساء ! وهذا هو الدليل الوحيد القائم ضد الخديوى. أما الادلة ضد عمر لطفي فهي أقوى من ذلك ولكن للاسف لم أتمكن من الحصول على الشهود الذين عرضت ان احضرهم للورد دوفرين . لاني لم أعرف اسماءهم بنفسي ولكني كنت أخبرت بواسطة شخصين معينين انه اذا وقف اللورد دوفرين وقفة طيبة فى هذه المسألة فانهما يعطياني الاسماء ويسلمانى الاشخاص أنفسهم . ولكن اللورد دوفرين لم يقبل اعطاء الامان المطلوب ولا يمكننى ان أعطي تفصيلات اكثر من ذلك لاسباب أحب ان تصدقونى أنها أسباب قاسية لا يمكن التغلب عليها . ومع ذلك فان الشهود كان يمكن الحصول عليهم

بوسائل أخرى ولكن ما كان يمكن الحصول عليهم بالطريقة التى سنحت لى اولا . وأوفى دليل على حسن نيتى انى وعدت باحضار هؤلاء الشهود أيام كنت موظفا بالحكومة و كان عجزى عن القيام بما اخذته على عاتقى فى هذا الشأن يكفي اسحق سحقا تاما . ولكن العهد قد تطاول على هذه المسألة الآن ولا يمكنني ان أحضر الشهود بعد . او على الاقل ليس لدى الوسائل فى الوقت الحاضر التى تمكنني من القيام بذلك ولو انني فيما بعد قد اتمكن من احضارهم . »

ثم قال أيضا في الخطاب نفسه « وانى اعتقد ان فكرة مجابهة المستر جلادستون بمذكرة تاريخية فكرة حسنة جداً . ولكن حذار ان تذهب في تأييد معتقداتك الى حد غير ملائم اذ تقرر اكثر مما يمكننا ان تثبت . ومحمد عبده ورفعت شاهدان ضروريان لنا وسوف لا أمتنع عن الافضاء لك بما أعرف ولكنى سوف لا أخبرك عن مصادرى » .

وقد أشار أيضا الى هجوم اللورد رودلف تشرشل الثانى الذى قام به بمناسبة تنفيذ حكم الاعدام فى سليمان سامى مما أدى بالمستر بلنت الى اعتزام تسليم جميع الاوراق التى فى حوزته ومن بينها النبذ القديمة التى ذكرت الآن للورد راندلف باعتبارها « الوسيلة الوحيدة لحقن الدماء وان لا يعاد هدرها بعد ذلك مرة ثانية» . وأشار كذلك الى خطاب المستر ايف الذى ظهر فى الوقت نفسه بجريدة التيمس ثم قال « اني آسف ان ايف نشر هذه النبذ من خطابي ... اذ اني لم اكتبها بالعناية التي تجعل ما فيها من حقائق معدة للنشر . فاولا انعرضي الشهود لم يكن عليالورد دوفرين شخصيا بل على نكلسن (سكرتير دفرين الخصوصى) الذي أعطانى على كل حال جواب اللورد دوفرين . وأظن انى أشرت مرة الى المسألة امام اللورد دوفرين الذى أجاب بشكل يدل على انه مطلع عليها ولكنى كنت فى ذلك الوقت منهمكا فى قضية عرابي الى حد انني لا اتذكر جيدا مامر في هذه اللحظة ... واني لا أعبأ بما تنشره عني ضد عمر لطفى ولكني أفضل أن لا توقعنى فى مشاكل مع الخديوى . وقد عدلت أفكارى فيما يتعلق بمسئوليته عن الحادثولا يهمني بعد أن اهاجمه . واذا ماحامت حوله الشبه فيما بعد عن طريق عمر لطفي كان

ذلك حسنا وخيرا لكم ولكني لا أريد أن يهاجم باسمي أنا شخصيا . وأنا الآن في حالة من التفاهم الحسن مع أغلب رجال الحكم وانى أستعين بهذا الشعور الحسن لتحقيق مصالح المتهمين عملائى واذا ما قطع بيني وبين الخديوى على حين فجأة فانهم هم الذين يضارون ولست أنا » .

ملخص الشهادات والادلة

مجموعة من الكتب الخضراء في عام ١٨٨٣

يثبت تاريخ مذابح الاسكندرية كما هو موجود في الكتب الخضراء (الكتاب الازرق رقم ١٦–١٨٨٢ والكتاب الازرق رقم ١٧–١٨٨٢ والكتاب الازرق رقم ٤–١٨٨٣) ادانة السلطات المدنية والبوليس بشكل لا يحتاج الى الجدل وبراءة السلطات الحربية وفرق الجيش براءة تامة مع الاقرار بسلكها الامين المشرف . وتلك حقائق تؤكدها مجموعة من الشهادت عن هذه المذابح . فالبوليس والجندرمة كانتا تحت أشراف المحافظ عمر لطفي المطلق وكان عمر لطفى بدوره ليس مسئولا أمام وزير الحربية (عرابى) بل امام الخديوى مباشرة وذلك ما يجب أن يبقى عالقا أبدا بالاذهان بينما كانت فرق الجيش تحت أشراف عرابى باشا وزير الحربية وحده. وقد قرر المستر جروجان (الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٩) — الذى كان قد عين بواسطة السير أدوارد ماليت بناء على تعليمات اللورد جرنفل ليجمع من مدينة الاسكندرية أدلة يتمكنون بها من اثبات أن عرابى هو مدبر الحركة — أن البوليس قبل الحادث بأيام قلائل ابتاع كمية كبيرة من النبابيت والدفوف ووزعها على الطبقات الدنيا من الاعراب والبدو وأن هذه النبابيت كانت توزع من منزل قريب جدا من الضبطية الرئيسية . (راجع كذلك اقرار المستر أدوارد باربر « الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٧ ») . وقد أضاف المستر جروجان انه لم تتخذ أي اجراءات ضد الاشخاص الذين وزعوا النبابيت كما أن التقارير الطبية التى كتبها عشرة من الاطباء الاوروبيين الذين بحثوا جثث القتلى فى المستشفيات تثبت جميعها أن القتل حدث بناء

على طعنات من المدى وحراب البنادق . ولا يخفى أن المدى وحراب البادق هي أسلحة البوليس الرئيسية والثابت أن البوليس في يوم المذابح كان بغير أسلحته النارية وكان متسلحا بالحراب فقط (الكتاب الازرق رقم ٤ صفحة ٧٥ المشمولة الثالثة تحت رقم ٩٢ من مستر بتروفتش الى المستر جروجان) وتقرير هذا الرجل له أهمية عظيمة اذ هو يثبت ان الطرقات كانت خالية من الفرق النظامية في يوم الحادث خلواً تاماً ومما تجدر ملاحظته أثناء قراءة الشهادات الخاصة بالمذابح في الكتب الزرقاء المشار اليها آنفًا أن كلمة « جنود » تشير فقط الى بالجندرمة وقلما تدل فى أى موقع منها على جنود الجيش النظامية .

ولنتكلم الآن على مسلك البوليس . يقول المستر بويس المهندس فى الاسطول الانجليزى (راجع الكتاب الأزرق رقم ١٦ صفحة ٢ : المشمولة الثانة تحت رقم ٢) أن الجندرمة التى كانت تحت اشراف رئيس البوليس مباشرة لعبت دوراً كبيراً فى الحادثة . فقتلوا المسيحيين حينما كان الرعاع يكفون عن ذلك . واذا انعكست الحال وأخذ الرعاع فى قتل المسيحيين كانوا يتركونهم وشأنهم ولا يبدون حراكا » . ويقول المستر هيوات وهو كاتب حسابات انجليزى كان يعيش فى الاسكندرية منذ سبعة عشر عاما (راجع الكتاب الازرق . رقم ١٦ المشمولة الرابعة تحت رقم ٢) أنه « اذا أردنا أن نعرف موقف السلطات المصرية والجيش أثناء الاضطرابات فيجب أن نقسمها الى قسمين هما (١) البوليس (٢) الجيش . فأما عن الاول فليس عندي أقل تردد في القول بأنهم بدل ان يخمدوا الفتنة قد بذلوا كل ما فى قواهم ليزيدوها استعاراً وكان مسلكهم في هذه الاثناء وحشياً قاسياً مبنياً على التعصب . وسوف يظهر على ما أعتقد من الكشف الطبي أن الجروح التي أصيب بها كثير من الاوروبيين كانت بيد رجال الجندرمة . ومما لا جدال فيه أيضاً أن كثيراً من النبابيت وزعت على الاهالي بيد هذا البوليس نفسه بدون مقابل بينما نزعوا من الاوروبيين جميع أسلحة الدفاع التى كانت في حوزتهم حتى العصي التي يتوكأون عليها . ولقد علمت من أوثق المصادر أن الاجانب الذين كانوا يعيشون فى الاحياء الوطنية والذين التجأوا بطبيعة الحال أثناء الاضطرابات الى الضبطية أو أحد معاقل البوليس الاخرى

ذبحوا شر ذبحة بمجرد دخولهم هذه الاماكن . ومن جهة أخرى فاني مقتنع ولست في حاجة الى شرح أسباب هذا الاقتناع أنه لولا استدعاء الجيش فى النهاية واخماده الفتنة لما كانت تنتهي الا بمذبحة مخيفة . واذا كان الاوروبيون مدينون لاحد بأرواحهم فهو الجيش » . ويقول المستر جورج بيلافانشى (راجع المشمولة الخامسة فى القسم الثانى ص ٦ الكتاب الازرق رقم ١٦) « أن البوليس انتصر علناً للاعراب وكثير من الضحايا الذين كان يقودهم البوليس الى الاقسام انزلوا من العربات وقتلوا بسنان الحراب » . والمستر ستيفن رالى يقول (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٧ ورقم ٣) « لكي نتحقق من خيانة السلطات ماعلينا الا أن نعرف ما يلى — بدأت الفتنة فى الطريق عند الساعه الثالثة واستمرت الى الساعة السابعة وكان معظم القتل بيد البوليس واستمر الحال علي ذلك اى أن أرسلت فرقة من الجند لاخماد الفتنة وكان من الممكن اخمادها بهذه الطريقة في ربع ساعة لو انهم أرادوا ذلك . »

ملحوظة : بمناسبة هذه المسألة نشير الى ان سليمان سامي أميرالاى الفرق النظامية لم يستدع الا فى ساعة متأخرة بعد بدء الهياج .

ويقول المستر جروجان (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٠) « أشار جميع الجرحى فى المستشفيات بان رجال الجندرمة كان لهم ضلع مع الغوغاء في المذبحة وكذلك كان بكثير منهم جروح من رماح البنادق » . ويقول هنيبال سكجناميليو الاسكندراني (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٦) أن الثلاثة رجال الذين قتلوا وهم الدكتور ريبتن والسنيور ليجرنى وفن رب والاربعين قتيلا الآخرين من الاوروبيين كانوا قد التجأوا الى الضبطية ليكونوا تحت حراسة البوليس . وفى الليلة نفسها ذهبت الى المستشفى الاوروبى لابحث عن صديقى السنيور فان رب . وهناك سألنى الحراس الذين كانوا فى الخدمة حينئذ عما اذا كنت أملك حقيقة كل هذه الجرأة التي تدفعني الى عمل كهذا . ولكننى انطلقت الى الداخل وكانت ساعة متأخرة من الليل وسرعان ما رأيت امامي اكواماً من الجثث وعندها تراجعت وعدت في اليوم الثاني ووجدت ما يربو على الستين قتيلا كلهم عرايا وأجسامهم مغطاة

بجروح من النبابيت ورماح البنادق . وكثيراً ما جرح البوليس الاجانب من الاوروبيين كما كان ينظر بعين الارتياح الى الاعراب وهم يفعلون ذلك أيضاً (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٦) وقد أخبر كل من المستر روبرت جيليو من الرعايا الانجليز والمستر جوزيف ليفي من مصنع المسيو بيزو ليفي بمنشستر والمستر الفانتي من مصنع فيفانتي وولده بمنشستر القنصل البريطاني فى مدينة ليجهورن « ان السلطات المحلية اشتركت فى المذبحة » وفى الصفحة نفسها توجد كلمة للكولونيل . . . وهو أحد الضباط الاوروبيين ذوى الاعتبار كتبها فى تريستا في ٢٨ يونية وهي الآتية « أن أحد الوطنيين الافاضل واسمه وزير بك ويقطن الدور الاول من المنزل المواجه لرئاسة البوليس وقال امامي وامام محافظ المدينة وغيره من كبار موظفى الحكومة انه رأى النبابيت توزع على الجماهير من الشبابيك التى امامه. هذا فى الحي الاوروبي بينما كان فريقا من الغوغاء يقتحم شارع دى سير وميدان دى لابى فى حين آخرين مختلفين. وبعد ذلك بمدة رأى هو وزوجته وخدمه ثلاثة عشر أوربيا كانوا قد التجأوا الى رئاسة البوليس للحماية يسحبون خارجها عرايا الاجساد مشوهي الخلق الى البحر لكي يرموا فيه ويقول المستر ادون باربر فى صفحة رقم ١٧ « وفى أثناء هذه المحادثة القصيرة حضر جمع كبير من الاعراب من جميع الجهات وجهزوا بنبابيت القيت اليهم من منزل وطني عال قريب من الضبطية « ثم يقول بعد ذلك » وبعد اغلاق الباب صعدت الى الدور الاعلي ومن هنالك رأيت عددا كبيرا من الاوربين مقتولا فى الطريق وكان البوليس يساعد القتلة . ولما لمن يكن للبوليس جيوب فقد كان يخبيء مغانمه وراء انبراميل وأحيانا تحت أغطية البالوعات» . ويقول المستر جون ولس فى صفحة ١٧ « وفي هذه اللحظة وصل رجال البوليس وعددهم ثلاثون أو أربعون وبدأوا يطلقون اعيرتهمم بدون أى مبرر ظاهر لذلك . وكانوا يرون الاوربيين مدرجين بدمائهم تحت أقدامهم ولكنهم لم يفعلوا شيئا ليدافعوا عنهم » . وقال أيضا « ورأيت أيضا رجالا من الجندرمة يحملون بعض الامتعة المسروقة . ولكن حينما وصلت الفرق النظامية عاد الامن الى نصابه وكأنما لم يحدث شيء». وفى اقرار السنيور فرتوني ما يأتي (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١٩)

« وبعد قليل من الوقت رأيت عربات كثيرة مملوءة برجال الجندرمة (وهم جنود فى ملابس زرقاء) آتية من ناحية مركز البوليس الرئيسي وكل من فيها ينظر الى النوافذ حيث كانت تتجه بنادقهم أيضا ويصيحون للاعراب « تشجعوا . اضربوهم » . (راجع الكتاب الازرق رقم ٤ صفحة ١٠ المشمولة الرابعة من القسم الرابع) . ويقول المستر ستونتون صراف الباخرة (انفنسبل) « كان البوليس والموظفون المحليون أثناء الهجوم المشار اليه ينظرون للغوغاء نظرة عطف ولم يتخذوا أى اجراء لحماية المسيحيين وكبح جماح الغوغاء ولم يكن فى الطريق أى أثر للجنود النظاميين فى هذه الاثناء »

وقد كتب الاميرال السير بوشامب سيمون الى الاميراليـة عن مسلك الفرق النظامية فقال (راجع الكتاب الازرق رقم ١١ صفحة ١٠٨) استمرت الاضطرابات مدة ساعتين او ثلاثة قبل ان تدعي الحامية الى تقلد السلاح . ولكنها حينما حضرت طهرت الطرقات بسرعة محمودة وساد النظام فى الشطر الباقي من الليـل » ويقول المستر كلفرت نائب القنصل الذى أسندت اليه أعمال القنصلية بعد ان جرح المستر كوكسون (راجع الكتاب الازرق رقم ١١ صفحة ٣٩ ورقم ٩٧) في ١٢ يونيو « لم يتدخل البوليس ليحمى الاوروبيـين . الى ان حضرت الفرق النظاميـة وأعادت النظام» وكتب في اليوم نفسه (راجع الكتاب الازرق رقم١٧ صفحة ٢٤ المشمولة الثالثة تحت رقم ٢) « وقد كان مسلك الجنود النظاميـة حسناً جداً ولم تتحيز للغوغاء » وفى الرسالة نفسها ما يأتي : « نهب البوليس المنازل والدكاكين على حد سواء . وبعد رسالتي التلغرافية اليك تجددت معركة فى حي من أحياء المدينة الدنيا ولكن فريقاً من الفرسان فرق الثوار فى الحال . والمدينـة الآن فى سكينة تامة » ويوجـد فى البيان الذى أذيع على الاوروبيين ممهوراً بامضاء جميع القناصل بعـد اجتماعهم فى منزل المحافظ في١٢ يونيو الفقرة الآتية « حدثت اضطرابات خطيرة في يوم الثلاثاء بالاسكندرية ولكن الجيش المصرى أعاد النظام وتعهد رئيسه بالمحافظة عليه . ونحن نثق في الجيش المصرى »

الظواهر السابقة على المذبحة —(راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٢ المشمولة

الثانية) بيان المستر جويس المهندس الانجليزى « لا جدال أن الحادث كان منظما من قبل بدليل بعض الظواهر الضئيلة التى ما كان يعبأ بها الانسان فى ذلك الوقت كالذى حدث لى فى صبيحة يوم السبت اذ كنت خارجا من منزلى فقابلنى بائع خضر فى الطريق وطلب الى أن اشترى وآكل لان النصاري سيذبحون باكر .
وقيلت هذه الكلمات بعد ذلك لكثيرين غيرى ولم يعيروها ماتستحقه من الانتباه أو أى انتباه علي وجه الاطلاق . (المشمولة الرابعة تحت رقم ٢) ويقول المستر هيوات « بناء على معلومات جمعت من مصادر مختلفة كثيرة أصبح عندى اعتقاد راسخ ان حادث ١١ يونو كان نتيجة خطة مدبرة . » (المشمولة الخامسة تحت رقم ٢) . ويقرر المستر الكسندر فيس « بناء على تعليمات تحصلت عليها فيما بعد أصبح عندى عقيدة أن هذه المسائل كانت مدبرة وبدأت فى وقت واحد تقريباً فى جميع أنحاء المدينة » (المشمولة الخامسة رقم ٢ صفحة ٦ الكتاب الازرق رقم ١٦) ويقرر المستر جورج بلافانشي « كانت مشاجرة يوم الاحد مع المالطي مدبرة تدبيراً محكما بواسطة البوليس حتى انه نشأ عنها هذه الحوادث الوحشية التى اشتملت علي النهب والقتل وقد كنا رقباء كما كنا فى الوقت نفسه ضحاياه .
وظهور الفتنة في ثلاث جهات فى وقت واحد يدل على أن الامر كان مدبراً » .
ويقرر فليبوليس « كنت فى السوق فى يوم ٢٨ يونيو حوالى الساعة الرابعة ونصف بعد الظهر . وهنالك رأيت كثيراً من البدو يحملون بنادق ويتركونها فى بعض المخازن هنالك بحجة حفظها لهم . وفي اليوم التالى بينما كنت جالساً فى احدى القهاوى اقترب منى أحد أصدقائى من المصريين ونبهنى محذراً الى ان الاعراب سيقتلون المسيحيين في يومهم أو فى اليوم الذى يليه » ويقول اللورد جرنفل (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ٧ ورقم ٣) « أخبرني المستر سينادينو وهو أحد مديرى بنك مالى يونانى بالاسكندرية أن عنده الادلة الكافية فى أن حادث الاسكندرية كان مدبراً .
وكذلك أشار اللورد جرنفل فى الرسالة نفسها الى مبشر امريكي قال « اخبرنا كثير من الناس ان الاضطرابات بدأت فى أحياء مختلفة متباعدة من المدينة فى وقت واحد ولذلك فنحن نعتقد انها كانت مدبرة » . ويقرر الدكتور جويس (راجع

الكتاب الازرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ المشمولة الثالثة تحت رقم ٤) « انى لا أعتقد أن المذبحة كانت مدبرة فقط بل هى أكثر من ذلك قد نفذت بمهارة وبظهر ان المشتركين فيها كانت غايتهم السلب والنهب وعلى كل فقد جمعوا بين هذه وبين الثورة » . ويقول المستر ستونتن (راجع المشمولة الرابعة في الكتاب الرابع) « حينما نزلت الى الاسكندرية وطفت فى شوارعها وجدت الناس فى الشوارع والطرقات المؤدية الى الحديقة العامة سائرين فى هدوء تام وسكينة . وحينما وصلتنا أخبار الفتنة بعد ذلك بثلاث ساعات فقط رأينا مئات من الاهالى مسلحين فجأة بالعصي والسكاكين ولذلك فاني أعتقد ان الفتنة كانت مدبرة من قبل » . ولم يتمكن المستر جروجان من ايجاد رابطة بين عرابي وبين التدابير السابقة على الفتنة ولو انه كان مزوداً بمعلومات صريحة من اللورد جرنفل أن يجمع أدلة ضد عرابي تفيد اشتراكه فى تدبيرها (راجع الكتاب الازرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ صفحة ٧٣ وصفحة ٨٨) . وبمناسبة قوله « ولقد تبينت أن سفر حسين موسي العقاد من القاهرة الى الى الاسكندرية كان فى الساعة السادسة بعد ظهر يوم ١١ يونيو : وسافر في عربة من عربات الدرجة الاولى ومعه جون نينه الجنوى ووصلا اليها فى المساء » أقول انه يمكن اثبات عدم صحة هذا الخبر على الاطلاق بواسطة جون نينه نفسه وهذا أمر مهم جداً لان المستر جروجان يضيف الى ذلك (راجع المشمولة الاولى تحت رقم ٩٢ الكتاب الازرق رقم ٤ لعام ١٨٨٣ صفحة ٧٤) « وفي اعتقادى ان حلقة الاتصال بين سيد بك قنديل وعرابي هو حسين موسي العقاد » . (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ الرسالة رقم ٣ صفحة ٩) وقد أخبر الكونت دللاسالا رئيس اركان حرب الخديوى المفوضية البريطانية فى برلين أن الكونت هاتزفلت أخبره أن ضرب الاسكندرية كان خطة مدبرة اشترك فيها رجال الجندرمة .

مسلك عمر لطفى المحافظ

في يوم الاضطراب

ان ما قيل عن مسلك هذا الرجل فى يوم الاضطراب فى الكتب الزرقاء قليل جداً لا يشفي غليلا ويعلل ذلك بمساعى الحكومة البريطانية بعد الحوادث واتجاهها الى اتهام عرابي وحينما لم تظفر بذلك لم تبذل أى مجهود فى اكتشاف المدبرين الحقيقيين لها. ولكن في اقرارين كتابيين (راجع الكتاب الازرق رقم ١٦ صفحة ١١) قدمهما اللورد جرنفل الى السير ادوارد ماليت (الرسالة رقم ٢) وهما لكل من لويجى انوفريو وباولو انوفريو من فاليتا بجزيرة مالطا وكانا سابقا بالاسكندرية ما يأتي «فى يوم الاحد الحادى عشر من شهر يونيو الماضي حينما كنت فى منزلى بالاسكندرية حوالى الساعة الثانية ونصف بعد الظهر سمعت صياحا عاليا في الطرقات فأطللت من النافذة وعندها رأيت المستر كوكسون القنصل الانجليزى وغيره من القناصل الذين كانوا معه يهاجمون بواسطة الرعاع. ورجال البوليس يعاونونهم فى هذا الهجوم ويضربون حضرات القناصل بمؤخر بنادقهم وكان عمر لطفى المحافظ حاضراً حينئذ ولكنه لم يبذل اى مجهود ليحمى هؤلاء الاوروبيين او لتشتيت الغوغاء. ورأيت أيضاً بعض الاعراب والجنود يضربون السنيور كاربي والسنيور مكفالى القنصل الايطالى والقنصل النمساوى. وقد جرحوا جميعاً جروحا خطيرة وخصوصاً السنيور كاربي». والاقراران متشابهان في عباراتهما. وكتب المستر جروجان (راجع صفحة ٩ من الكتاب الازرق رقم ١٦) عن تكليفه من قبل اللورد جرنفل لجمع الادلة الكافية لاتهام عرابى باشا فقال «أظن أن لدى مجالا للتدليل ولكنى لم أصل اليها حينما كان الاتصال منتجا. من الامور التى تثير كثيراً من الشكوك هو ما اذا كانت دعوة القناصل للذهاب الى قسم اللبان بعد ظهر يوم ١١ يونيو قد صدرت من المحافظ عمر لطفى أم لا. لان عقيدتي الحالية أن الدعوة التى وجهت اليهم شفويا كانت بقصد استدراجهم الى أيدى الجماهير».

وقال بعـد ذلك « وكان بين ابلاغ كل رسالة وأخري فترة من الزمن لا تستوجبها المسافة نفسها التى تفصل القناصل بعضهم عن بعض وكان ذلك مدبراً من قبل بقصد أن يصل القناصل متفرقين الى المكان الذى كانت تتجمع فيه الغوغاء . وبلغت الرسالة اولا للقنصل الفرنسي ثم الايطالى ثم غالبا اليوناني والالماني واخيراً للقنصل الانجليزى»
وكتب المستر كوكسون في رسالته للسير ادوارد ماليت (المشمولة الاولى تحت رقم ٢٢ الكتاب الازرق رقم ١٧ لعام ٨٨٣) فقال « بعد نصف ساعة استدعيت بواسطة البوليس المحلى للتوجـه الى مركز بوليس قسم اللبـان حيث كان قد وقع شغب بين بعض الاعراب من الاهالى والمالطيـين فى الناحية المجاورة . . . . وعدت للقنصليـة حوالى الساعة الثالثـة ونصف وخرجت مباشرة بناء على دعوة رسول كان فى انتظاري لحضور اجتماع مع بقية القناصـل في قسم اللبان » .
ومن هنا يتبين أنه كانت هناك مؤامرة لاستدراج القناصـل الى الجماهير . ويدل وجود عمر لطفى وهيئته ساعة هجوم الجماهير عليهم انه كان مشتركا فى هذه المؤامرة ومن الممكن اثبات ان عمر لطفى لم يستدع الجيش مطلقا الا بعد أن استمرت المذبحة زمنا طويلا وعندها أرسل الى سليمان سامي رسالة شفوية وليست كتابية يخبره فيها أن يحضر هو وفرقته الى المدينة بدون سلاح . وسوف تجد رأى سليمان سامي عن مسلك عمر لطفى فى بيان المستر جون نينه المطبوع . وكل من سليمان سامي وأخيه — وكلاهما أمير ألاى في الجيش — يعلم أن عرابي باشا بصفته وزيرا للحربية ورئيسا للجيش المصرى قد أخذ على نفسه ضمانا بحفظ الامن والسلام وأن هذا الضمان تبين الآن أن لاقيمة له كما أن الثقة فى الجيش المصرى قد تلاشت بظهور هذه المذابح .
والعلم بهذا الضمان ثابت من رسالة المستر كوكسون الى السير أدورد ماليت (الكتاب الازرق رقم ١١ لعام ١٨٨٢ المشمولة الرابعة تحت رقم ١٢٦) والمؤرخة ٦ يونيو حيث يقول « الحاقا برسالتى في ٢ الجارى أتشرف بأن ابلغكم أن المدينة فى هدوء تام . وقد أفاد تصريح عرابي باشا الذى أبلغ الى فى ٢ الجارى والذي تعهد فيـه بالمحافظة على السلم وأرواح الاوربيين كثيرا فى تطمئين نفوسهم وتبديد مخاوفهم » .
ويبدو غضب كل من الاميرالايين سليمان سامى وأخيه من مسلك عمر لطفي فى حادث

١١ يونيو من رسالة المستر كوكسون الى السير ادوارد ماليت (راجع رقم ١٧ عام ١٨٨٢ المشمولة الاولى تحت رقم ٢٣ صفحة ٢٣) حيث يقول « علمت انه حدث شجار عنيف بين المحافظ والاميرآلايين وأن المحافظ أصبح حاقداً عليهما. بينما هما يتهمانه فى عبارات قاسية شديدة بخيانة دينه وأبيا أن يطيعا أوامره . » اذ أن الضابطين بعد أن فقد ضمان عرابي قيمته تبين لهما أن الاوروبيين سوف يتدخلون لامحالة وحينئذ تطعن القضية الوطنية طعنة نجلاء .

ويتبين اهتمام عرابي بأنقاذ الجيش المصرى من أى شبهة أو اتهام بالاشتراك في المذابح من تعليماته التى أعطاها ليعقوب سامي وعلى الخصوص تعيينه ليكون فى لجنة التحقيق التى كونتها الحكومة المصرية عقب الحوادث مباشرة ويقول عرابي فى هذه التعليمات « انك لاتجهل اهمية الموقف الذى تقفه فى الحالة الراهنة من لجنة التحقيق اذ لايخفى عليك أن اعضاء هذه اللجنـة ليسوا من هؤلاء الاشخاص الذين يهمهم شرف الجيش أو شرف الوطن . وهذا يتطلب منك أن تأخذ جميع الاحتياطات في مجرى التحقيق وأن تكشف لنا عن الدافع الاصلى لهذه الفتنة . » وكذلك يتبين اهتمام عرابى باشا بمنع أى أمر يخدش هيبة الجيش بعد ذلك أو يمس ضمانه من رسالة المستر هورى المترجم فى القنصلية الانجليزية بالاسكندرية المؤرخة ١١ يونيو (راجع المشمولة الرابعة رقم ٢٢ الكتاب الازرق رقم ١٧) حيث يقول فيها « تعهدالقناصل أن يبذلوا اقصي مايمكنهم من الجهد لتحقيق هذا الغرض ووعدوا بأن يمنعوا رعاياهم من اطلاق النار على الاهالى أو الجنود كما أن ضباط الجيش أخذوا على أنفسهم ايضا أن يحافظوا على الامن والسلم العمومى وأعلنوا انهم مسئولون عن ارواح الاوروبيين وقد وجه صاحب السعادة يعقوب باشا وكيل نظارة الحربية الى الاميرالايات العبارة الآتية «حافظوا على القناصل وعلى سلامة رعاياهم ما دام فيكم عرق ينبض» . وقد اجابه الضباط بالسمع والطاعة ... وكان أهم شيء عند القناصل هو مقدرة الجند على منع تجمهر الوطنيين فى الاحياء الاوروبية ولذلك تعهد ضباط الجيش العظام بتفريق أى اجتماع للوطنيين يحدث في تلك الاحياء . » ولا يغيبن عن الذهن انه من تاريخ هذا

الاجتماع وبعد ان وضعت الاسكندرية رسميا تحت اشراف الجيش الى ان ضربها الاسطول لم تحدث اضرابات تذكر وكذلك لم تحدث أى مذبحة .

وبالنسبة لمسلك عمر لطفي باشا يجب أن لاننسى لاى اعتبار من الاعتبارات انه كحاكم مدني للمدينة وتحت تصرفه المطلق بوليس ورجال الجندرمة في المدينة يعتبر أول شخص مسئول عن الامن والنظام فيها . وانه فى ذلك الوقت كان مسئولا أمام الخديوى دون سواه وكان الخديوي يقوم بنفسه بأعمال ناظر الداخلية بناء على عدم تعيينه ناظرا جديدا لها واصداره تعليمات لمديري الوجه القبلى والبحري بأن يرجعوا لمكتبه الخاص في كل مسألة ذات بال مما يعرض عادة على ناظر الداخلية (راجع الكتاب الازرق رقم ٨ صفحة ٤٠ الرسالة رقم ٩٠ من السير ماليت الى الارل جرانفل) . وقد لا يكون من الضرورى الآن ان نضيف ان عرابي باشا بصفته ناظراً للحربية والبحرية لم تكن له أى سلطة على عمر لطفى حاكم مدينة الاسكندرية المدني كما انه من الثابت من بيان المستر جون نينه المرفق بهذا ان عرابى باشا لم يحط علما بالحوادث الا في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١١ يونيو وان مكاتب التلغراف بمصر والاسكندرية حجزت فى ذلك اليوم خصيصا للمراسلات بين الخديوى وعمر لطفي ومع ذلك لم يحدث تحقيق على عن مسلك هذا الرجل «عمر لطفى» من يوم المذبحة الى الآن لا بواسطة الحكومة الانجليزية او المصرية ولم يحدث اكثر من ان الخديوى عينه ناظراً للحربية محل عرابي باشا فى السادس والعشرين من شهر يوليو التالى (انظر الكتاب الازرق رقم ١٧ صفحة ٢٢٣ الرسالة رقم ٦٤٤) .

وقد لازم سيد بك قنديل رئيس البوليس الذى يحاكم الآن منزله فى يوم الاضطرابات والايام التى تلته لمرضه بينما حسن بك صادق وكيله الذى حل محله فى ذلك اليوم والذى قال عنه المستر كارتريت (الكتاب الازرق رقم ١٧ الرسالة رقم ٣١ صفحة ٣٥) انه ينتمى الى حزب الجيش وانتقد انه لم يوقف عن العمل لسلوكه يوم الحادث وعلاقته به قد عين بعد ذلك فى وظيفة مهمة بالجيش بالسودان جزاءاً له على مسلكه في يوم ١١ يونيو وتخلص بهذا التعيين من كل متاعب التحقيق

ويجب ان لا يغيب عن الذهن حين قراءة هذه المذكرة السابقة المقتبسة من

الكتب الزرقاء ان جميع الرسائل التى كتبت والشهادات التى جمعت فيها كانت مكتوبة ومجموعة تحت عقيـدة ان المذابح من صنع عرابى والحزب الوطني وبقصد الصاق التهمة بهم

ولتوضيح ذلك يجب ان ننقل فقط كلمات اللورد جرنفل الموجودة فى رسالته الى السير ادوارد ماليت (الكتاب الازرق رقم ١٥ ورقم ٣ صفحة ٧) وهى « أرى أن أ كلفكم بعمل ما يلزم لاتمـام هـذه الشهادة وخصوصاً القسم الذى يتعلق بصلة نديم بعرابي » وهذه خطه شاذة تدل بشكل لا يقبل الجدل ان فكرة اكتشاف المدبرين الحقيقيين لحادث الاسكندرية كانت أقل رسوخا في نفس اللورد جرنفل من اتهام عرابي باشا نفسه بأي شكل من الاشكال

ونجاح هذا المسعى يمكن استنتاجه مما قاله السير شارلز ولسن (راجع الكتاب الازرق رقم ٣٠١ الرسالة رقم ٤٥ مشمولة صفحـة ٢٨) — عن التهـمة الرابعة فى ورقة الاتهام التى وجهت الى عرابي ومحمود سامى وطلبـه ومحمود فهمي وعمر رحمي وسيد قنديل بأنهم « حرضوا الناس على حرب أهلية وبأنهم ارتكبوا أعمال التخريب والقتل والنهب على الاراضي المصرية » — فقد قال السير ولسن « لا بد لى من التصريح انى اعتقد انه بناء على الشهادة الموجودة بين أيدينا لا يمكن لأي محكمة عسكرية انجليزية ان تلصق بالمتهمين تهمة اكثر من الاشـتراك فى ثورة عسكرية ناجحة ضد الخديوى اللهم الا طلحة والسيد قنديل مع شيء من الشك بالنسبة لهما أيضاً »

وكتب السير شارلز ولسن أيضا فقال (راجع الكتاب الازرق رقم ٥ عام ١٨٨٣ الرسالة رقم ٤١ مشمولة صفحة ٦١) « بنيت المحاكمة على ما يظهر على فكرة ان هناك حوادث معينة مثـل مذبحة ١١ يونيو لا يمكن حصولها الا بناء على أوامر عرابي . وذلك دليل كاف فى نفسه على ان عرابى أصدر أوامره بعمل المذبحة .... ومن جهة أخرى فقد كان من الممكن تكوين دفاع حسن عن المتهمين وذلك بمناسبة سماع شهود للاثبات دون شهود النفى ومن غير توجيه أسئلة اليهم من الدفاع »

ولقد تركت الحكومة الانجليزية فكرة ان المذبحة كانت مدبرة ومنظمة من قبل حينما استحال لها ان تثبت صلة عرابي بالحوادث . وفى الحكم الاخير معان جمة أحب

ان ألفت اليها الانظار» . وفى نهاية الرسالة نفسها كتب السير شالز ولسن « لم يكن هنا لك دليل على صلة عرابى بالمذبحة التى وقعت بالاسكندرية فى ١١ يونيو ومن المشكوك فيه ان المذبحة كانت أمراً مدبراً »

وعدم ظهور أى أثر للتلغرافات والرسائل التي تبودلت بين المحافظ عمر لطفي والخديو وبين الخديو والسير ماليت والقنصل الانجليزى والتى لاشك انها كانت مستمرة طول مدة الاضطرابات من المسائل التي تثير الشكوك وتحتاج الى الايضاح.

وكل انسان غير متحيز يمكنه أن يحكم من الشذرات السابقة المقتبسة من الكتب الزرقاء والتى لاجدال فى انه قد أبعد منها كل ما يشتم منه رائحة اتهام للخديوى او عمر لطفي او السلطات المدنية (بقدر ما تسمح به الحال طبعاً) ان هنالك مسائل خطيرة ضد هؤلاء الناس قد سكت عنها وانها في أشد الحاجة الى تحقيق نشط وبحث دقيق

بيان المستر جون نينه

عن حوادث يونيه سنة ١٨٨٢ التى وقعت بالاسكندرية

وقد أصدره بامضائه فى ٣٠ يناير سنة ١٨٨٣

كنت بالاسكندرية حين وصول درويش اليها فى يوم الاربعاء ٧ يونيه سنة ١٨٨٢ ورأيته على الرصيف وهو فى طريقه الى سراى راس التين ومعه ذو الفقار باشا (مبعوث الخديوى وهو رومى مسلم وأحد مخلوقات سعيد باشا) ويعقوب باشا (مبعوث عرابى وهو شركسى الا انه عرف بالامانة) وكذلك الشيخ سيد وعمر لطفى (محافظ الاسكندرية)

وبعد الظهر توجه العلماء وبعض الاعيان والضباط لزيارة درويش ولكنه لم يستقبلهم بالحفاوة الكافية وكذلك زاره القناصل وكان المستر كوكسون والمسيو كليكوفسكي فى ملابسهما العادية — وزاره كذلك كل من الاميرال الفرنسى والاميرال الانجليزى

في ملابسها الرسمية . وكنت موجوداً حين استقبال المستر كوكسون الذي ذكر درويش ان الاميرال سيمون هو نفس قائد القوات البحرية فى دلسينيو ولكن درويش لم يجب على ذلك بأكثر من الابتسام . وبعد ان خرج القناصل قدم الاعيان عريضة يبثون فيها شكوى الشعب المصري ويظهرون استياءهم من وجود الاسطول ورغبة الأمة في الاستقلال وحادثهم درويش كثيراً عن هذه الموضوعات ووعدهم ان الاسطول سيغادر المياه المصرية بعد زمن قصير . ولم أكن حاضرا هذه الواقعة ولكنى سمعت عنها من صديقين لى وهما الغرياني ونديم كانا حاضرين حينئذ . وكان نديم فى هذه الاثناء دائم التردد بين مصر والاسكندرية . ولم يكن العقاد فى الاسكندرية على ما أعلم الى ما بعد الحوادث

وفي صبيحة اليوم التالى وهو الثامن من الشهر توجه درويش الى القاهرة وتبعه وهو فى طريقه الى المحطة جمهور كبير وكان يصيح صيحات مختلفة حول السلطان والاسطول وكان ذو الفقار وبقية ضباط الخديوى يتجادلون حول سفر يعقوب باشا في عربة درويش ولكن درويش أمسك بيعقوب من كتفه وجعله يدخل العربة وبذلك أصبح فيها هؤلاء الاربعة : درويش وأسعد وذو الفقار ويعقوب . وعمل نديم على أن يسافر فى نفس القطار وفعلا اندس بين السكرتيرين والخدم . وحضرت وفود في دمنهور وطنطا وكفر الزيات لاعلان ولائهم لعظمة السلطان وربما كانت هذه الوفود خطة مدبرة .

والنقط الآتية سمعتها من عرابي ومن رسله وانى أعتقد في صحتها : قوبل درويش فى المحطة بالجند والموظفين ولكن لم يقابله أحد من أعضاء الوزارة الوطنية ولم يكن عند الجماهير حماس ظاهر وان درويش سار مباشرة الى سراى عابدين . ولم يستقبل أحدا فى ذلك اليوم ولم ير غير الخديوى وعائلته فى قصر عابدين وقضي ليلته فى قصر النوسة الذى كان معدا له وسمعت ان الخديوى أرسل فى تلك الليلة أو صباح اليوم التالى أحد الاغوات الى درويش واتفق معه بواسطة سكرتيره انه لا بد ان يصله ٥٠٫٠٠٠ جنيها بمجرد الحصول على النقود . وبذلك اكتسبه فى صفه

مع ان التعليمات التى كانت صادرة لدرويش هي ان يعزل توفيق ويولي حليما بدله. ولم ير درويش يعقوب باشا بعد ذلك .

ومضى يوم الجمعة فى زيارة المساجد والصلاة وفى احدى هذه الزيارات قدم له عالم من العلماء عريضة اغتاظ لها درويش وحينما حضر اليه العلماء بعد الظهر ليقدموا له احتراماتهم ويبثوه شكواهم قابلهم بخشونة وقال لهم لقد حضرت لاتكلم أنا لا لاستمع لكلامكم . فسبب هذا الحادث حركة غير اعتيادية فى المدينة وفى المساء توجهت الرسل الى جميع جهات القطر وأنبأت الناس ان درويش لا يمكن الوثوق به.

وفى يوم السبت أرسل درويش باشا في طلب عرابي ومحمود سامي . وحينما حضرا قابلهما بكل ما يملك من مظاهر الاحترام . وأجلسهما بالقرب منه وتكلم معهما عن الحالة . وقد شرح عرابي لي هذا الحادث ونقل لى عبارة درويش وهى « نحن هنا جميعاً اخوة وأبناء السلطان وان لحيتى البيضاء هذه تسمح لى ان اكون أباك أنت أيضا وغرضنا واحد وهو ان نصل الى تحويل الاسطول عن ميناء الاسكندرية الامر الذي يعتبر مسبة للسلطان وتهديداً لمصر . — وطلب اليهما ان يتفقوا جميعاً على ان يعملوا لهذه الغاية وعلى الخصوص عرابى ومجلس نظاره لكي يظهروا ولاءهم لسيدهم السلطان. ويكون ذلك بتخليهم عن سيادتهم الحربية ولو في الظاهر فقط . ولكي يدخل عرابى السرور على السلطان أيضا فعليه أن يتوجه الى القسطنطينية ولو لمدة وجيزة فقط . وأجاب عرابى على كل ذلك بانه كان بوده ان يتنحى ولكن الموقف كان من الدقة بمكان وانه أخذ على عاتقه مسئولية حفظ الامن وانه لا يمكن أن يقف فى منتصف الطريق أزاء هذه المسئولية. فاذا ما تنحي فيجب ان يكون تنحيه تاما واستقالته نهائية فى الباطن والظاهر . وعلى كل فانه لا يمكنه أن يتبع أى خطة من هاتين الخطتين الا اذا أعطيت له تخلية كتابية من الضمان لانه لا يمكنه ان يتحمل تبعة أمور لا يكون له دخل فيها . وقد اتهم فى حكمه بالعبث والاستبداد وامور أخرى وانه لا يمكنه ان يترك كرسيه الا اذا أخلى طرفه اخلاء تاما من هذه الاتهامات . وقال عرابي أيضا انه مستعد ان يتوجه الى القسطنطينية بعد ان تستتب الامور كفرد عادى ليقدم ولاءه الى جلالة السلطان » ولكن درويش لم يكن مستعدا لتلقى هذا الرد وحينما سمعه لم

يسر منه وامتقع لونه . ثم قال: « فلنعتبر الآن الامور قد استقرت. وما عليك حينئذ الا أن ترسل تلغرافا الى محافظ الاسكندرية وقائد الحامية تخبرهما فيه انك تنحيت عن مركزك لى وانك ستعمل كوكيلي وسيعقد في يوم الاثنين اجتماع في عابدين من الخديوى والقناصل وفى هذا الاجتماع نخليك من ضمانتك للامن ». ولكن عرابى رفض ان يفعل ذلك وقال انني سأبقى فى مركزى متحملا مسئولية ضماني الى أن أتسلم وثيقة مكتوبة تخليني من الضمان وعند هذا الحد وقفت المسألة. ولم يقدم لهادرويش في هذه الاجتماع لا قهوة ولا سجائر وبعد ذلك بمدة أخبرني محمود سامى أيضا بتفاصيل الحادث باجمعها وبعد الاجتماع مباشرة حمل نديم أخباره الى الاسكندرية وعاد الى مصر فى صبيحة يوم الاحد .

وكنت فى الاسكندرية فى يوم الاحد أى فى اليوم الثاني وكانت المدينة فى سكون تام وعند الساعة الثانية بعد الظهر أرسلت خادمي السوداني ليحضر لى عربة أتوجه بها الى مركز قيادة الحامية وكان القائد شركسيا اسمه خورشيد باشا ولكنه رجل طيب وكان من اتباع اسماعيل باشا ولذلك كان معاديا للخديوى توفيق. وبعد أن تأخر خادمي فى هذه المهمة نصف ساعة عاد وطلب الى أن لا أذهب الى حيث اعتزمت لان هنالك مشاجرة عند قهوة الجزاز في شارع الاخوات — وهى بقعة يتجمع فيها عادة فى أيام الآحاد جميع أوباش الاوربيين والحمالون الاعراب. وقال لى أيضا انه قتل اثنان من المسلمين . وبعد ذلك توجهت الى المكان على قدمي ولكني لم اخترق الميدان بل سلكت شارعا خلفيا . فوجدت شارع الاخوات مملوءاً بالمخلوقات من افرنج ومسلمين ولكنى لم أر اقتتالا بالقرب مني. ولكن على بعد مائتى ياردة شاهدت الجماهير تموج كالبحر ورأيت طلقات نارية تنطلق من النوافذ ولم تلبث المعركة أن تقدمت الى ناحيتنا وتراجعنا الى ان وصلنا الى مدرسة الرهبان حيث رأيت أمام قهوة من القهوات حوالي اثنى عشر روميا مدججين بالبنادق وحينما تركنا الطريق بدأوا فى اطلاق النيران على الجماهير بدون حساب . وفي هذه اللحظة رأيت عربة بداخلها جندى من جنود البوليس مجروحا أو قتيلا . ويظهر أن هذه كانت اشارة الخطر اذ بعدها مباشرة حضر مندفعاً الى مكان الحادث جمهور من المسلمين من كل

ناحية وأغلبهم من البرابرة والاعراب من أهل الصعيد مدججين بالعصي وعندها أصبحت الطلقات النارية عامة فى كل مكان ولذلك عدت الى منزلى . ولاقيت في طريقى عربة بها المستر كوكسون وأخبرني احد المارة انه كان بمنزل رجل مالطى قبل ذلك بقليل وان هذا المنزل نفسه هو الذى أطلق منه الرصاص وحينما كان المستر كوكسون خارجا منه ضربه الاهالى لأنهم اعتبروه مسئولا عن اطلاق الرصاص . والمعروف انه كان نصح للمالطيين قبل ذلك بان يحموا أنفسهم فى حالة حدوث هياج ثم قابلت عقب ذلك عند الساعة الثالثة عمر لطفى يتمشي فى ملابس عادية مع نفر من البوليس وسألته عن السبب الذى منعه من ايقاف الاضطراب . فقال « لقد كنت مع القنصل الانجليزى الذى ضربه الاهالى » فقلت « ولكن لماذا لم تذهب فى لباسك الرسمي ومعك خمسون رجل من البوليس السوارى وتوقف الاضطراب » . فقال انه لم يعثر على قنديل رئيس البوليس . « ولكن الجند . لماذا لا يقومون بالعمل هم أنفسهم » . « فاجاب أنهم يعقدون اجتماعا الآن » فسألته ولماذا لم يرسل تلغرافا لمندوب السلطان ؟ فاجاب فى غلظة « وما شأنك وهذا . » وكانت القنصلية الفرنسية مملوءة باللاجئين الاوروبيين .

وبعد ذلك توجهت الى منزلى وارتديت اردأ ملابسى وحملت عصاة بيدى ثم خرجت ثانية ورأيت بضعة أطفال يجرون بأمتعة سرقوها من المحلات التجارية وكان رجال البوليس موجودين حينئذ ولكنهم لم يفعلوا اى شىء لمنع الاقتتال وفي هذه الاثناء قابلت احد حراس القنصلية الروسية واخبرنى ان القتال دائر ايضا بالقرب من الميناء وان المسافرين الذين كانوا على ظهور المراكب فى ذلك اليوم قد ضربوا والقناصل ارسلوا تلغرافات الى مندوب السلطان . وكان ذلك عند الساعة الثالثة ونصف او الرابعة وكان الكل ينتظر ان يتدخل الجيش فى الامر وعند الساعة الخامسة ظهرت الفرق وانتهت الفتنة . وأني اعتقد من مسلك عمر لطفى ومن ظروف اخرى ان عمر لطفى مسئول عن استمرار الهياج . فقد كان الجيش يتدخل قبل ذلك لو انه طلب من الجيش التدخل ولم يتلكأ .

ومن المرجحات لهذا الاعتقاد الظرف الآتى . بعد الهياج باربعة أيام توجه عمر

لطفي الى المركب الاول بالاسطول المرابط وأخبر الاميرال سيمور انه غير مسئول عن النظام وان عرابي عاجز أيضا عن المحافظة عليه . ورجاه ان يرسل فرقا من عنده وطلب ذلك في وقت كانت المدينـة فى هدوء تام . وكان عمر لطفي خصما لعرابي وصديقاً للخديوي . وقد نحي عن مركزه كما سمعت بناء على طلب القناصل ترضـية للرأى العام وذلك حينما اعـتزل راغب باشا الحكم وجاءت نظارة ذو الفقـار . واوقفت لجنة التحقيق عن متابعة أعمالها حينما طلب عرابي أن يكون التحقيق شاملا يتناول الاوروبيين والمصريين على السواء .

وقد علمت تفاصيل مقابلة عمر لطفى للاميرال سيمور على ظهر باخرة المستر ماريوت الذى كان يتخذه سيمور سكرتيراً له وعلمت بعض المسائل الاخرى من المسيو دى لكس القنصل الروسى .

اما من حيث منشأ المشاغبات فهو كما يأتي : أحدث وصول الاسطول الى مياه الاسكندرية شعوراً عدائياً شديداً بين المصريين وبين الجالية الاوروبية. فالاوروبيون رأوا فى حضور الاسطول مقدمات أولى للحرب وأصبحت معاملاتهم للاهالى على شيء كبير من العنف وكانوا يقولون « الآن سترون ماذا نفعل» وبالنسبة للمصريين أصبح الحـادث موضع حديثهـم اليومى وأثيرت بينهـم احتمالات كثيرة . وانتشرت فكرة جديدة وهى ان الجنود ستنزل من الاسطول الى البر وان البـلاد ستحتل بالانجليز . وكثيراً ما سئلت فى هـذه الاثناء عما اذا لم تكن هـذه هى نية الاسطول الحقيقية. وازداد هذا الظن رسوخاً حينما عرف انه كتب عقد بين الاميرال سيمور والمسيو كنراد لتموين الاسطول لمدة ثلاثة أشهر وأصبح الناس ولا حديث لهم الا ذلك وازداد الهياج. ولكن الشعور ضد الفرنسيين لم يكن بهذه الصفة العدائية لان الموقف الذى وقفـه الاميرال كنراد حينئذ لم يكن عدائياً بل على العكس من ذلك كان يعمل دائماً على التوفيق بين الوطنيـين . وقد سبب هياج الافكار بين الاهالى فزع الاوروبيـين وخصوصاً الانجليز والمـالطيين منهـم الذين كانوا دائمى الاستشارة لقناصلهم عن الطريقة التى يتبعونها لحماية أنفسهم فى حالة حدوث اضطراب وقد أخبرهم المستر كوكسون ان يستعدوا لحماية أنفسهم فى أواخر مايو او اوائل يونيو

وعرف فى الوقت نفسه انه أرسلت آلات نارية من اليونان لتسليح الاروام بالاسكندرية . واشترى الانجليز كل ما عثروا عليه منها فى المدينة وعلمت من موظفى مصلحة الجمارك ان بنادق ومسدسات من ماركة سنيدر أرسلت اليهم من الاسطول وبناء على ذلك أصبح حدوث معركة من المسائل المؤكدة تقريبا واذ كان يوم الاحد هو اليوم الذي يتجمع فيه الاوروبيون فى القهوة وفى الطرقات لتعاطى المشروبات ، فقد كان ينظر الى كل أحد نظرة خاصة وكان توقع الخطر بهذه القوة التى ألجأت كثيراً من مسالمي المصريين والاوروبيين على السواء الى ترك القطر . وبدأ المسلمون كذلك يسلحون أنفسهم بالعصي وعلى الخصوص النوبيين الذين كان يوجد منهم بالاسكندرية ٣٠٫٠٠٠ . ومن المعلوم ان البرابرة قوم مشاغبون ومحبون للاقتتال . وكان كثير منهم منحازاً للشراكسة في هذا الحادث.

والقصة التى ألقيت الى عن منشأ الحادث في هذه الاثناء هى كما يأتي : فى صبيحة يوم الاحد الحادى عشر من الشهر حضر أحد المالطيين لزيارة أخيه الذى كان في خدمة المستر كوكسون . وأخذ جنيها بقشيشا من القنصل وخرج ليتمتع به فى المدينة وركب عربة وأخذ يدور بها على جميع الخمارات فى الحى الاوروبي وأخيراً وصل الى قهوة الجزاز . وكان سكرانا فى هذه اللحظة وأراد أن يصرف السائق ويعطيه قرشا واحداً فقط . فتشاجرا وما كان من المالطى الا أن قبض على سكين من سكاكين القهوة التى تستعمل لقطع الجبن وكانت مربوطة في خيط كبير متصل بالخوان «الترابيزة» وطعن بها السائق . وكانت طعنة نجلاء أصابت احشاء الرجل وحينما أتي آخر ليعاون الجريح قتل أيضا بيد يوناني آخر. وفي المشاجرة التى تلت هذا الحادث قتل خباز يوناني كان يعيش فى البناء الملاصق وبذلك أصبحت المشاجرة عامة . وكان معاون قسم اللبان وهو الرئيس المباشر للبوليس هنالك ايطاليا لا يعرف اللغة العربية ولم يتمكن من ايقاف المشاجرة . وجرح أحد رجال البوليس من اتباع المعاون المذكور أما البقية فقد انضمت للمشاجرة وناصرت الاهالى . وهذه المعلومات تلقيتها عن رجل من رجال البوليس المسيحيين وكان حاضراً وقت الواقعة .

أما بالنسبة لقنديل رئيس البوليس فقد كنت رأيته فى يوم الخميس السابق بمحل

سوماريفا وعلمت انه مريض لاني جسست نبضـه وكان مصابا بالحمى . ولو ان عمر لطفى أراد أن يوقف الهياج لامكنه ذلك بكل سهولة .

والسبب الحقيق في انتشار الهياج بهذه السرعة هو عرض الموتي من المسلمين لانظار الجمهور . وقد رأيت ٧٦ أوروبيا قتلى وعلمت من السكرتير المسلم في لجنة التحقيق وكذلك من الدكتور المسلم وهو مصطفي بك نجدى أن عدد القتلى من المسلمين كان مائة وأربعين منهم ٢٥ بربريا .

وكذلك كان للاعراب من قبيلة أولاد على ضلع فى المشاغبات فقد رأيت ٢٠ أو ٢٥ منهم بالقرب من بيت جبارا وشاهدتهم يفتحون مخزنا للاسلحة النارية وكان أولاد على فى هذا الوقت متحيزين للخديوى بعدأن أخذوا ٢٠ ألفا من الجنيهات رشوة من مدير البحيرة ابراهيم توفيق فى دمنهور . وسمعت فيما بعد من أحد موظفى مكتب التلغراف المحلى أن عمر لطفي أرسل فى هـذا اليوم كثيرا من التلغرافات الشفرية الى نائب السلطان .

وأقرر أيضا انى لم أترك الاسكندرية مطلقا قبل يوم ١١ يونيـو ببضعة أيام وبقيت بها الى ما بعد اطلاق القنابل عليها من الاسطول .

الملحق الثالث

خطابات من عرابي باشا لم تدمج فى أصل الكتاب

مترجمة عن العربية

إلى المستر بلنت من القاهرة .

٢٢ نوفمبر سنة ١٨٨٢

الى صديقي وروح حياتي المستر ولفر بلنت .   أدامه الله

بعد تقديم أوفر تحياتي وبثكم أحر أشواقي لرؤية وجهكم المنير . أخبركم أني تشرفت باستلام خطابكم المؤرخ ٣ نوفمبر سنة ١٨٨٢ وحمدت الله على تمتعكم بالصحة التى أتمنى دوامها . ألبسكم الله حلل العافية والرخاء ! والحق أن خطابكم ملأني سروراً بدرجة أعجز عن التعبير عنها . كما اني أرجو أيضاً ان تبلغ وافر تحياتي لحرمكم المصون اللادى بلنت

والآن اخبر حضرتكم انى لا أعبأ بآلامي ولا بالسجن ولا بالسباب ولا بأى شيء يوجه الى بعد ذلك مادمت قد وقفت نفسى على حرية بلادى ولا شيء يهمني الآن الا أن أنقذ أهل بلادى من هذه الهوة المملوءة بالافاعي السامة وأن أنتشلهم من مخالب هذا التنين الفظيع — ويكون ذلك بمعونة العقلاء من الانجليز الذين يغارون على سمعة بلادهم وشرفها .

وأريد فوق ذلك ان كان فى العمر بقية أن أعيش طليقاً فى دمشق مع أولادى بعيداً عن السياسة مادمت بعيداً عن مصر واذا لم يسمح سلطان المسلمين بان أعيش بين المسلمين فانى أفضل أن أقطن لندن مجاوراً لاخواننا من محبي الانسانية ومساعديها وأعيش هنالك كرجل حر فى أرض الحرية — ولكن على ألا اكون تحت رقابة او اشراف . وكذلك أصدقائى وأعواني الذين قدموا أرواحهم فى سبيل الوطنية يجب أن يعيشوا أحراراً . ومقابل ذلك فانى أعطي كلمة شرف أكيدة

أن لا أتدخل في الامور السياسية فى الوقت الذى أعيشه بعيداً عن بلادى « الى أن يقضى الله أمراً كان مفعولا » .

اما من حيث الطريقة التى ألقى بها الخصوم على التهـم فيما يتعلق بحوادث ١١ يونيو و ١٢ يوليو — فهذه مجرد افتراءات لا يمكن اثباتها بأدني دليل او برهان.مذ كانت هذه الاعمال تتنافى مع أعمالنا الشريفة . وقد اجتهد خصومنا أن يثيروا أوربا ضدنا بهذه الاتهامات لكى يمزقوا الحريات التى حصلنا عليها لبـلادنا أربا وينثروها في الفضـاء . ومن يدرى فربمـا أفاد ذلك بلادنا ويأتي وقت تستكمل فيـه حريتها وخلاصـها باتجاه الرأي العام الانجليزى الحر اليها رغماً عن مساعى خصومها المكشوفة

واني لا أعبأ بهذه الالقاب العارضة التى لم أكن أرغب فيها فى اى وقت من الاوقات . واني مكتف بشرفى الشخصي الذى سـوف يلازمنى ماحييت ويبقى بعدى اذا مت . وسوف يرضيني دائماً ان أنادى « باحمد عرابي المصرى » فقط وبغير ألقاب .

وفى الختام أرجو أن تبلغ اوفر تحياتي لحضرة صديقنا العزيز المستر سابونجى والمسيو جون نينه واخوانك الذين انضموا اليك فى الدفاع عن الانسانية ومن عندنا محمود باشا سامي وعلى باشا فهمى وعبد العال باشا حلمى والشيخ محمد عبـده واحمد بك رفعت يبلغونك تحياتهم . أدام الله عزك ياصديقى المحبوب صديقك

احمد عرابي

من القاهرة

الى المستر بلنت

الى مهجة أرواحنا ومنقذنا المستر ولفرد بلنت .أدامه الله وأبقاه

بعد تقديم وافر تحياتي والتنويه بشرفكم الذى يعجز عن استيعابه الوصف أخبركم أنه بناء على تعليماتكم ومشورة حضرة المحترم المستر برودلى والمستر نابيير قد اعترفنا بالثورة ضد الخديوى وصدر الحكم علينا بالنفى المؤبد. ولكن موافقتنا على ذلك لم تكن الا لتخفيف المصاعب التى تحيط بالسياسة الانجليزية وان ثقتنا فى عدالة

الشعب الانجليزى تجعلنا نعتقد اننا سنعامل في المستقبل بطريقة تزيد من مجد اسم انجلترا فى التاريخ . ولقد عاملتنا الحكومة المصرية من ناحيتها معاملة مخالفة للقانون والعوائد المدنية فى الاسلام فاصدرت رسوما تصادر به أملاكنا وأراضينا ومواشينا مع ان المحكمة العسكرية نفسها لم تضمن حكمها قراراً كهذا كما أن هذا المرسوم مخالف للشريعة الاسلامية ولم يكن له مثال الا فى حادثتنا . لان قضية درويش باشا التى حكم عليه فيها بالنفي وبالحرمان من الوظائف والالقاب ومن كل شيء الا أملاكه فقد تركت له ومقدارها ثلاثون الفا من الجنيهات — أو تزيد والاعجب من ذلك اننا حرمنا من التوارث بناء على الشريعة الاسلامية فى المستقبل وهناك أمر آخر لا يعدله شيء فى الظلم والاستبداد وهو اننا حرمنا من حق آخر ثابت لنا بمقتضى الشريعة الغراء — حرمنا من ان يرث أبناؤنا أملاك آبائهم وأجدادهم بعد موتهم . وقد احتججنا على ذلك بواسطة محامينا فى المحكمة.

والآن نحن متجهون الى حديقة آدم : سيلان . ولكنى قبل ذلك قد أبنت وجهة نظرى فيما يتعلق بسعادة مصر ورخاء أهلها للسير شارلز ولسن لكي يعرضها على اللورد دوفرين . وسأصطحب معى الى سيلان ابني محمد وزوجته وخادمته وخادمى الخاص فقط وسأترك فى القاهرة أولادى الآخرين وأمهم وأمي الى ما بعد الوضع وبعد أربعة أشهر من الآن أى بعد الوضع باربعين يوما سأرسل ابنى الى مصر ليأتى بهم الى سيلان . أما اخوتي فسيبقون مع أقاربهم فى القرية وبما ان الحكومة المصرية لم تحدد مرتباتنا الشهرية الى الآن وتركت تقرير ذلك لسعادة محافظ جزيرة سيلان حسب ما يراه من تكاليف المعيشة هنالك فاني واخواني نأمل من عواطفك واحساسك الشريف ان تكتب لسعادة محافظ سيلان وكذلك نأمل ان يكتب اليه صديقنا السير وليام جريجورى لكي نعامل وتقدر مرتباتنا تقديراً حسنا . كما اننا نرجوك ان تسعى في تخليص ممتلكاتنا من المصادرة وان تجعلنا نعامل بشأنها حسب الشريعة الاسلاميه والعرف الاسلامى وان تتحصل من الحكومة المصرية على تصريح بارسال عائلاتنا الى سيلان على نفقتها الخاصة لانه يستحيل علينا ان ننفق أي شيء فى هذا السبيل وحالتنا المالية المعسرة معروفة للجميع .

واننا نرجو بحرارة أن يكون أصدقاؤنا وأقاربنا في مصر تحت حماية ممثلي الحكومة الانجليزية فيها حتى لا تسيء الحكومة المصرية معاملتهم وتنتقم منهم باتخاذ اجراءات غير شرعية ضدهم ولذلك فنحن نضع أنفسنا واصدقاءنا وأقاربنا في ظل حمي الدولة البريطانية ونحن مطمئنون تمام الاطمئنان والآن يا صديقي المحبوب سنتبع نصيحتك الصادقة التي أسديتها في خطابك المكرم المرسل لنا بتاريخ ٨ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وسنمضي أيامنا في سيلان في تعلم اللغة الانجليزية وفي عبادة الله تعالى دون ان نتدخل في أي أمر من أمور السياسة على وجه الاطلاق — الى أن يأتي وقت بمشيئة الله أو يهيء الله لنا ظروفا تقنع انجلترا اننا لم نكن ثائرين — بل على العكس من ذلك كنا ندافع عن بلادنا دفاعا شرعياً

ونرجوك أن لا تحرمنا من اخبارك الشيقة التي نحن دائماً في تشوق اليها . وأرجوك ايضا ان تبلغ تحياتي وتحيات عائلتي الى السيدة المصونة اللادي آن بلنت والى اللادي جريجوري وشكرنا العظيم على كل مافعلوه لنا وخدموا به الانسانية

وكل اخواني هنا — يعقوب سامي ومحمود سامي ومحمود فهمى وعلى فهمي وعبد العال حلمي وطلبه عصمت واحمد بك عبد الغفار يرجون أن تذكرهم ويبلغونك اسمى تحياتهم ونحن جميعا نرجو أن تبلغ تحياتنا لصديقنا السير وليم جريجورى والمستر لويس صابونجي والمسيو جون نينه وجميع أصدقائنا من ذوى المروءة الذين ساعدوك في الدفاع عن العدالة .

ادام الله لنا حياتك ياصديقى فى سلام دائم

صديقك الخاضع لامر الله
احمد عرابي المصرى

٢٢ ديسمبر سنة ١٨٨٢

خطاب من عرابي

كتب فى كولومبو فى ٧ يوليو سنة ١٨٨٣

ووصل الى لندن فى ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٣

الى صديقى العزيز الخ صابونجي

بعد التحية أخبرك أنى تسلمت بسرور خطابيك المؤرخين فى ٩ و١٥ يونيو واطمأننت لما جاء فيهما من حسن صحتك الخ .

وانى أشكرك وأشكر اخوانك أنصار الانسانيـة لاستمراركم على محاربة جيش الظالمين وعلى تبديده بثباتكم واني وان كان واجبي الآن أن لا أتدخل في الامور السياسية الا أن العدل يقضى على أن أبرىء درويش باشا من تهمـة الاشتراك فى مذبحة الاسكندرية وأقول هذا دون اي شـك او تردد . ولكنى لا أبرئه من انه أخذ رشوة من الخديو فان هذه عادة الاتراك ولكن المبلغ الذى أخذه لم يكن المتحصل من رهن اراضي ميت خالد التابعة لحرم الخديو ، فان الناتج من رهن هذه الاراضى دفع رشوة للبعثة العثمانية السابقة التى كانت برئاسـة على نظامى باشا وكان مبلغها ٦٠٫٠٠٠ جنيـه أرسلها ثابت باشا الشركسى الى الاسـتانة بحوالة من البنك الانجليزى . وكذلك لم يطلب درويش إلىّ شيئا سوى أن أسافر مع بعض رفاقي الى الاستانة وكان وهو يعرض ذلك يقول للضباط انه رئيسـهم ووالدهم لكي يغريهـم بالثقة به حتي ينجح فى حضنا على السفر ولـكنه فشل فى ذلك .

وقد سبق أن أدليت بتصريح خاص الى المستر برودلى بشأن مذبحة الاسكندرية وبآخر فى الامر نفسه الى صديقنا النبيل المستر بلنت ، وهذان التصريحان يوضحان ظروف تلك الحادثة . وقد علمت ان احدهما لم يصل الى المستر بلنت ولـكنه لا يختلف عن التصريح الآخر وفيه الكفاية . غير أني لكي أقفك على الحقائق ولكي أحول

وبين الالتفات للاشاعات الكاذبة اكتب لك هنا تفصيلا ما أذكره من الظروف التي سبقت حادثة ١١ يونيو والتي حصلت في اليوم نفسه أو بعده حتى تعرفها جميعها وهي كما يأتي :

اما الظروف السابقة للحادثة فهي :

أولا — لما رأى الخديو تقدم الحزب الوطني استكثره بالنسبة لنفسه ولمستشاريه وحزبه — وكانوا خيرى باشا الشركسي وطلعت باشا الرومى وأمثالهما — وشرعوا يضعون خطة للهدم . وبناء على ذلك استدعى الخديو زعماء البدو بواسطة ابو سلطان باشا ومحمد سلطان من عربان الشرقية واستخدمهم لمحاربة الحزب الوطنى بعد ان منح بعضهم سيوفا مزينة بالفضة وشجعهم وأثار أطماعهم ، حتى بدا للناس بوجه عام ان الاسماعيلة صارت معسكر البدو

وكان الاوربيون والقناصل فى القاهرة يعرفون ذلك حق المعرفة وقد زاد عدد البدو الوافدين لدرجة انه سبب الخوف من وقوع اضطراب وشرع الاوربيون يشترون جميع الاسلحة التى يجدونها فى حوانيت القاهرة والاسكندرية. وقد أثبت ذلك السير ادوارد ماليت فى برقيته التى أرسلها الى وزارة الخارجية بتاريخ ١١ يونيو

ثانيا — لم تنقطع المراسلات السرية قط بين الخديو وعمر لطفي حتى أنتجت مذبحة الاسكندرية وبعض هذه المراسلات كان شفويا والبعض في برقيات رقمية وكان يدير حركتها خيرى باشا الشركسي وطلعت باشا الرومي ولما تم التدبير نفذه عمر باشا لطفى بالتعاون مع اسماعيل كامل باشا الشركسي. ولكن السيد قنديل الذى كان من الحزب الوطني لم يشترك معهم فى ذلك ولم يدعوه يعرف شيئاً مما دبروه اذ خشوا ان يقابل سوء أعمالهم بعمل الحزب الوطنى فلا يجنون فائدة وهو بعيد عن كل شبهة .

ثالثا — قال باشجاويش ايطالى — ولا أذكر اسمه — لصديق له قبل الحادثة بيوم « انه خير له ان يغادر الاسكندرية معه لانه علم ان شيئاً من الاضطراب سيحدث » وقد فر فعلا ويعرف اسمه حسن بك صديق وكيل الضبتية وكذلك

ضباط البوليس ولا بد أن يعرفوا أيضاً اسم الشرطي الذى قبض على المالطي . ولكن القول بان البدو أودعوا أسلحتهم فى الضبتية قبل الشغب محض اختلاق .

اما الظروف التى كانت يوم المذبحة فهي كما يأتي :

أولا — لم يرسل الىّ محافظ الاسكندرية نبأ بالمذبحة كما كان واجبه وانما أخبرنى الخديو فى صباح ١٢ يونيو ان المحافظ عمر لطفى أرسل اليه تلغرافا يقول فيه ان مالطيا طعن وطنيا بمدية ثم لجأ الى دار يسكنها أوربيون وان الناس تجمهروا مرتقبين القبض على المعتدى وان البندقيات والمسدسات أطلقت عليهم من منازل الاوربيين وان ذلك أحدث مذبحة كبيرة

ثانيا — لما علم الخديو بذلك لم يخبرني به فى الحال على الرغم من أنه يعلم ان السلطة التنفيذية ليست فى يده وانه نقل اليّ ضمان الأمن العام بعد ان استخدمه لبذر أسباب الاضطراب . بل انه على العكس استدعى وكيل الحربية ليلا وأرسله الى الاسكندرية فى قطار خاص مع بطرس باشا والياور الاول لدرويش باشا لينضموا الى عمر لطفى فى قمع الهياج.

ثالثا — تشتت الجمع كله عند مجرد ظهور سليمان بك سامي وجنوده فى منطقة الاضطراب ثم وزع الجنود فى الشوارع وجعل يطوف بنفسه فى أحياء المدينة وكذلك وقف الاضطراب فى الحال ولكن المحافظ لم يستدعه ولم يخبره بالامر الا بعد ان اتسع مجال الشغب ونفذت تدابير الخديو وشركائه لكي يسوئوا أعمالنا وينقضوا ضمانتى للامن العام .

أما ما حدث بعد يوم الحادثة فكان كما يأتى:

أولا — لما أخبرني الخديو بالحادثة كما قلت آنفا علمت فى الحال انها مكيدة فأصررت امامه على اجراء تحقيق في أسباب الشغب وتعيين مندوبين عن الدول العظمى وآخرين وطنيين لكشف الحقيقة . وبناء على ذلك أصدر ديكريتو بتعيين لجنة تحت رياسة عمر لطفي نفسه الذى كان المسؤول عن الحادثة . وكذلك عين وكيل الحربية وبطرس باشا عضوين بها ولكني لا أذكر اسماء المندوبين الذين اختارتهم الدول العظمى التى لحق برعاياها ضرر

ثانيا — لما وصل وكيل الحربية الى الاسكندرية ووقف على الحالة رجانى أن أرسل قوة عسكرية لتأييد الأمن فارسلت في اليوم التالى للاضطراب فرقتين من المشاة وبلوكين من السوارى وبطاريتين من المدفعية وكان ذلك فى اللحظة التى طلبت فيها هذه القوة . وكتبت خطابا الى وكيل الحربية راجيا أن يبذل كل جهده لازالة الاضطراب وتوطيد الامن والهدوء فى المدينة وخارجها وأن يكون متبصرا حين يبدأ التحقيق وأن يحذر الوقوع فى فخاخ الخادعين — أعنى عمر لطفى وجماعة الخديو — وأن يدافع عن شرف الجيش والحكومة وأن يعقد نيته على معرفة الحقيقة وكشف المجرم الحقيق

ثالثا — أمر المحافظ بدفن القتلى دون كشف طبي كما يقضي القانون وبدون حضور ممثلين للدول

رابعا — لم تبحث لجنة التحقيق قط عن سبب المذبحة ولا عن القتلى وانما حصرت بحوثها فى الاملاك التى نهبت متذرعه بأن ممثلى الدول لم يخول لهم التحقيق فى شيء يخرج عن الاملاك المسروقة

خامسا — طلب عمر لطفي من الخديو السماح له بتغيير الهواء فى سوريا لكي يهرب من التحقيق ويبعد عن المسئولية وكان يعرف أن الحرب دانية وقد حصل على اجازة . ثم ذهب الي القاهرة ومكث فيها الى مابعد ابتداء الحرب وبعد ذلك لحق بالخديو عن طريق بور سعيد وقد كافأه الخديو على نجاحه في اشعال نار الفتنة باعطائه وزارة الحربية . ولما استقال من منصب محافظ الاسكندرية ومن رياسة لجنة التحقيق عين ذو الفقار باشا سر تشريفاتي الخديو خلفا له ولم يقم بأى عمل .

سادسا — كانت أوراق التحقيق مع المحافظ عمر لطفى ولم تؤسس على شيء من الصدق وقد حفظت بمحافظة الاسكندرية ولا بد أن تكون هنالك الآن ان لم يتلفها الخديو

والآن اتضح تماما ان اعمال الخديو وجماعته كانت سرية ولم يكن فى استطاعتنا أن نقف عليها لأنها كانت مضادة لاعمالنا وقد استحوذت الحكومة على جميع

اوراقنا ووثائقنا مع أملا كنا ولا يمكننا أن نذكر تواريخ الحوادث بالضبط ولكن فى هذا وفيما ارسل سابقا الكفاية .

وجميع أصدقائنا هنا يرسلون اليك تحياتهم ويرجونك أن تسعى حتى لا يعين لمصر حاكم غير مسلم لانك تعلم ان اي حاكم غير مسلم يضر بحقوق المصريين .

وقد كتبت آرائى الى صديقى العزيز المستر بلنت وحين تطلع عليها ستنضم لمساعدتنا . حفظك الله .... الخ .

صديقك

في ٧ يوليو سنة ١٨٨٣ — احمد عرابي المصري

خطاب من عرابي الى صابونجي استلمه يوم ١٤ اغسطس سنة ١٨٨٣

الى صديقى العزيز صابونجى

تحيات ... الخ .

سررت كثيراً بخطابك المؤرخ فى ٢٢ يونيو وأسأل الله أن يعينك ويوفقك في أعمالك وقد بلغت سلامك الى جميع رفاقنا وهم يرسلون اليك تحياتهم.

هذا ونرجوك أن تبلغ صديقنا المستر بلنت اضافة الي ما كتبناه اليه بتاريخ ١٥ الجاري ، ان النفقات التى تكلفها ١٠٠٫٠٠٠ جندى مصرى أثناء الحرب، قدوقتها كلها هبات اكتتبت بها الامة المصرية على اختلاف طبقاتها وعند ابتداء الحرب لم يكن ثمة أكثر من ١٠٫٠٠٠ جندى تحت السلاح ولا أكثر من ١٢٫٠٠٠ بذلة فى المخازن ولم تكن جاهزة ، ولم يكن هناك أيضا غير ١٥٠٠ « بشل » من القمح . ولكن عند انتهاء الحرب كان في خزائن الجيش والمديريات وفي المخازن ماتزيد قيمته على مليون جنيه من النقود والحاصلات والماشية والغنم والاقمشة وكانت الامة قد تبرعت بها للجيش الذى يدافع عن بلادها . ويشهد بذلك اولئك الذين رأوا امتلاء المخازن التى تركت فى التل الكبير وكفر الدوار وكفر الزيات وغيرها من المراكز الحربية . وفى ذلك الوقت لم ينفق على الجيش درهم واحد من أموال الحكومة بل بالعكس تركت خزانة المالية وصندوق الدين وخزائن المديريات مملوءة بالاموال . ويشهد بذلك ايضا مانشرته الجرائد المحلية وغيرها في ذلك الوقت وهو أن المبالغ التى وجدت فى صندوق الدين زادت على المطلوب لدفع كوبونات شهرى اكتوبر

ونوفمبر بمبلغ ٣٥٠٠٠٠ جنيه ولم يقل أحد أن املاك الحكومة صودرت أو نهبت . ولو كنا ممن يبيعون شرفهم أو ممن يقدمون رخاءهم ومصالحهم الشخصية على المصلحة العامة للوطن لاخذنا الاموال التى كانت بتلك الخزائن المملوءة ولكننا تحت تأثير الرغبة فى الغنى نقوم بأعمال تختلف تماما عما عملناه ولما سرنا فى طريق الاستقامة نقود الامة فى دفاعها عن بلادها محترمين حقوق الامة التى تحاربنا وحقوق الامم الاوربية الاخرى فى أثناء الحرب ، ثم لما سلمنا الودائع التى كانت بأيدينا بذمة وشرف . وان الرجل الذى يدل على مثل هذه الذمة وهذا الشرف لا يليق به أن يصير آلة بأيدى المستبدين ذوى النيات السيئة أو يؤجر نفسه باموال من السلطات أو من الشيطان بل انه في حرصه على شرفه ومسلكه يخشى أن تشوبهما أية شائبة .

وقد أرسلت رفقه هذا خطابا الى صديقنا السير وليم جريجورى وأرجوك أن تترجمه وترسله مع الترجمة الى عنوانه بعد أن تريه لصديقنا العزيز المستر بلنت. نسأل الله أن يعينك على الخير
صديقك المخلص

احمد عرابي المصرى

حاشية — ياصديقى العزيز أرجوك لهذه المناسبة ان تذكر صديقنا المكرم بما قلته فى ختام تصريحي للمجلس الذى حاكمنى ، وهو كما يأتي :

يا أنصار الانسانية : اذا لم تكن ثمة حركة وطنية ولا رأى عام في مصر بل كانت هناك حركة عسكرية كما يقول المغرضون ، فلماذا سجن عشرون الفا من الوطنيين بعد الحرب ومن بينهم حسن باشا الشريعى أكبر سراة الوجه القبلى أبا عن جد وسيد ابو سلطان الذى ساعده حين كان (ابو سلطان) مجرد موظف فى الحكومة . وأيضا عبدالله باشا فكرى العلامة المشهور صديق حسن الشريف باشا . ومن بينهم أيضاً صديقاى محمود باشا سامى ومحمود باشا فهمي اللذان تطوعا فى الجيش أثناء الحرب . ومن بينهم كذلك كثير من كبار الباشوات ورؤساء المصالح المدنية مثل حسين باشا الدرملى ومصطفى باشا نايل وآخرين ، وكثيرون من العلماء الكبار وأعضاء مجلس النواب والمديرين والمفتين والموظفين المدنيين من جميع الدرجات وأعيان التجار والعمد ومشايخ البدو ومشايخ الطرق الصوفية ، حتى ان سجون القاهرة

والاسكندرية والمديريات والمحافظات كانت تختنق بهم أثناء سجننا . وأخيرا نفى كثيرون من أذكيائهم من الاراضى المصرية . فاذا اعتبر الجيش وحده فى حالة ثورة فلماذا عوملت الامة هذه المعاملة ؟

ولكن من جهة أخري اذا كان الجيش وزعماء الامة —او الامة المصرية كلها فى الحقيقة — قد اتحدوا رغم اختلاف العقائد واتفقوا جميعهم على واحد هو الحق، فلماذا تأبى أمة أخرى معروفة بانها تقيم عمد الحق والعدل فتسحق هذه الامة المنكودة الحظ لكي ترضى فردا واحدا لا يسمح له قانون بلاده بان يكون حا كما باى حال وذلك رغم احترام الحكومة الانجليزية للقانون والدين ، وكيف يبدو مثل هـذا المسلك أمام العالم المتمدين فى التاريخ ؟

احمد عرابي المصري

خطاب من عرابى الى المستر بلنت

كولومبو فى نوفمبر سنة ١٨٨٣

الى صديقى العزيز المكرم . . . الخ المستر بلنت حفظه الله

اذكرك الآن بظروف العهد المخيف الذى حل بيلادنا مصر ودفعني الى ان أكلف مسيو لويس صابونجى بان يكتب اليك خطابا باسمي بشأن النتـائج التى تنجم عن محاربة انجلترا لمصر والاحوال التى تصير اليها البلاد راجياً إياك ان تبين ذلك لرئيس الوزارة المستر غلادستون . وكنت أؤمل قبول هذا التصريح وجنى بعض الخير من ورائه . وكان ذلك قبل ابتداء الحرب ببضعة أيام . وقد كتب وفق رغبتى وبأمرى وان كان الخطاب لم يكتب بخط يدي ولم يختم بختمى . وقد كتبت اليك هذا الخطاب لأنبئك بحقيقة تلك المسألة يا صديقي الكريم .

صديقك

احمد عرابى المصرى

١٠ نوفمبر سنة ١٨٨٣

قائمة بأسماء المكتتبين

للدفاع عن عرابي

	بنس	شلن	جنيه
اللورد ونتورث		٠٠	١٠٠
مبلغ جمعه فريدريك هاريسون	٦	١٧	٦١
ج . باسمور ادواردز عضو البرلمان		٠٠	٥٠
ريتشارد ايف		٠٠	٥٠
السير وليم جريجورى		٠٠	٢٥
وليم جون ايفلين عضو البرلمان		٠٠	٢٠
روبرت هاريسون		٠٠	٢٠
السير ولفريد لوسن . عضو البرلمان		٠٠	٢٠
ايرل أوف ويميس		٠٠	٢٠
الاونورابل ا. يورك		١٠	١٠
سبنسر تشارنجتن		١٠	١٠
فردريك هاريسون		١٠	١٠
الجنرال اللورد مارك كر		١٠	١٠
صمويل ستوري عضو البرلمان		١٠	١٠
الرايت انورابل روبرت يورك عضو البرلمان			١٠
ر . فورمبي			١٠
ت . س. كارجوم			١٠
اللادى جريجورى			١٠

	بنس	شلن	جنيه
السير آرثر هوبهوس			١٠
ف. بكستون عضو البرلمان			٥
اللورد راندولف تشرتشل عضو البرلمان			٥
ادوار كلارك عضوالبرلمان			٥
ر . س . فيشر			٥
الجنرال س. ا. غوردن (مع الوعد بجنيه كل سنة)			٥
الاونورابل اوبرون لفربرت			٥
ونتورث س. هولد زورثى			٥
الفريد النجورث عضو البرلمان			٥
ا. كنجليك			٥
فرنون واشنجتن			٥
السير هنرى درموند وولف عضو البرلمان			٥
ادجار درموند		٣	٣

ملحوظه — جورج مرديث وولفريد مينل وآخرون اكتتبوا بمبالغ أقل . واللورد دلاوار اكتتب على ما اعتقد بمبلغ ١٠٠ جنيه ولكن ليس عندى مذكرة بها .

خطابات صابونجي

التى وردت إليَّ من مصر

القاهرة فى ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٢

فى ليلة أمس (الاحد) زرت منزل محمود سامي الذى يجتمع به زعماء الحزب الوطني كل ليلة للمناقشة فى خططهم . وفى الوقت نفسه لفت فوزى بك مدير البوليس الانظار الى اعلان من الخديو منشور فى الجريدة الرسمية بشأن الاضطراب الاخير الذي حصل فى الاسكندرية . وقد أحضرت الجريدة فى الحال وأعطيت لنديم فقرأ الاعلان في تهيج فأحدث فى الحاضرين أثراً سيئاً شديداً . أما أنا فاني لم أجد اى خطأ فى الاعلان لانه وصف حالة البلاد مجملة وأبدى الاسف لما حدث ولقلة الثقة من جانب الاوروبيين ثم دعا الى السلم والهدوء والسلوك الودي ازاء المسيحيين على اختلاف جنسياتهم الخ . . . وقد انتقد نديم وغيره هذا الاعلان وأثاروا مناقشة حادة استمرت حتى الساعة الثانية صباحا وحاولت عبثا ان أنصح لهم وأهدىء نفوسهم ولكنهم أصروا على القول بان الخديو ليس من شأنه أن يذيع مثل هذا الاعلان وان ماليت هو الذى نصح له به . وقد حاولت عبثاً أن أبين لهم أن ماليت غادر الاسكندرية منذ يوم الاربعاء ولكنهم حتموا أن يخلع توفيق وأن يولى ابنه عباس بك بدلا منه تحت الوصاية . والواقع أن نديما رغم خلقه الثورى الطيب وميله الى الاصلاح متسرع مندفع سهل التأثر وأسوأ ما شهدته منه أنه كلما وجد نفسه مغلوبا فى مناقشة قفز في عنف الى موارد التعصب الدينى وشر ما فى الامر انه بعيد عن التدين ولكنه يتظاهر بحماسة للدين تفوق حماسة شيخ الاسلام . وعرابى باشا يعرف كل ذلك وقد نصح له فعلا بالاعتدال ومنعه من السفر للاسكندرية خشية أن يحدث شغباً آخر لان له هناك نفوذاً أكثر من أى مكان آخر . وأنا أبذل ما في استطاعتي لقيادتهم ولا أضن بأى جهد فى هذا السبيل ولكنى أخشى خلق نديم المتهيج فانه يستطيع في أى أية لحظة أن يشعل نار حرب دينية

وقد كان الحزب الوطنى حتى الامس راضياً عن الوزارة الجديدة ولكنه اليوم انقلب خصما لها وكان نديم وسامي قد اقترحا ان يشمل برنامج الوزارة أن جميع المكاتبات الاجنبية الرسمية يجب ان يكون طريقها الوزارة وحدها وأن الخديو لا يحق له أن يقبل تلك المكاتبات الا بموافقة مجلس الوزراء . ولكن الخديو رفض هذا الحد من سلطته فاراد الوزراء أن يحولوا دون قيام صعوبات جديدة واتفقوا على تخفيف صيغة الفقرة . ولكن هذا العمل الذى اتخذه عرابي ووزراء آخرون في اعتدال وتبصر حرك شعور نديم فثار ضد الوزراء والخديو معاً وشرع يدعو الى خلع هذا الاخير . وقد جاء فى احدى البرقيات أن ماليت سافر الى فينيسيا وان المستر كارتريت عين بدلا منه وتقول برقية أخرى ان السلطان أرسل الى عرابي باشا وسام المجيدى والى الخديو وسام « سوفنير » مرصعاً بالماس .

القاهرة فى ٢٩ يونيو

ذهبت بالامس لارى حديقتك وكان نديم معى وكان الحر شديداً وقد مكثت هناك طول النهار وكان الوكيل الاوربي ولا أعرف اسمه (هو المستر روسل من لجنة الدومين) قد فر مع بقية الاوربيين الذين غادروا مصر أخيرا . وقد شكا الجنائنى العربى الينا عدم معرفته من يلجأ اليه فى حالة الضرورة . وزارنى يوم السبت ومعه حساباته راجيا أن أرسلها اليك ووعدته بان أحضر له وكيلا مصريا أهلا للثقة ورجوت نديما أن يدلني على أحد معارفه . والحديقة في هذه السنة أكثر انتاجا من المعتاد والمياه وافرة .

نسيت أن أخبرك فى خطابي السابق ان انصار الخديو حاولوا أن يسموا نديما بسيجارة مسمومة وقد دخن نديم جزءاً منها وهو مطمئن فكان هذا الجزء كافيا لأن يفقده وعيه وبصره مدة خمس وثلاثين ساعة . والحق ان نديما حركة دائمة .

وقد كان عرابي فى الاسكندرية يوم ٢٧ الجارى وعاد منها الى القاهرة قبيل ارسالى البرقية اليك وقضيت طول الليل معه . وكان محمود سامى والباشوات الآخرون ونديم وعبده حاضرين وحوالى منتصف الساعة الثانية عشرة ذهب الجميع ولكني بقيت

مع عرابي وسامي ونديم وحدثني عرابي عن الاستعدادات الحربية القائمة في نقط مختلفة من مصر. وقد اتخذت الاجراءات لردم قناة السويس في خمس ساعات عندما تبدو من جانب اوربا أول دلالة على العداء . والمظاهرة البحرية الحمقاء التى قامت بها انجلترا وفرنسا قوت الحزب الوطنى مائة مرة حتى صار عبارة عن الامة نفسها. وأنت تعرف تمام المعرفة ان الدوافع الدينية تلعب دوراً كبيراً فى مثل هذه الظروف وأن البعض ممن لا تؤثر فيهم العواطف الوطنية والسياسية تقودهم الحماسة الدينية ، وكذلك الحالة فى مصر وأخشي مما أراه وأسمعه ان تعلن الحرب الدينية عند أول بادرة للعداء من جانب أية دولة اوربية . والحالة الحاضرة سيئة جداً وقد علمت من قنصل ايطاليا ان ١٠٠٫٠٠٠ شخص غادروا مصر منذ قدم الاسطول ودعت القنصلية البريطانية الرعايا البريطانيين الباقين الى المهاجرة من مصر حالا ، والذين يختارون البقاء يجب عليهم أن يوقعوا اقراراً بانهم يبقون هنا تحت مسئوليتهم الشخصية والرعب القاتل يشمل الآن جميع الاوربيين على اختلاف طبقاتهم ولا يوجد اكثر من اثنى عشر محلا اوربيا مفتوحة وتغلق الفنادق ابوابها وليس هنا محلات مؤثثة لتؤجر ومنظر الاحياء الاوروبية بالقاهرة بادى الكآبة ولكن الاحياء العربية مثل ما كانت عليه من قبل تستمتع بالحياة بطريقتها الخاصة والفلاحون وحدهم فى قلق لانهـم لا يلقون من يشترى حاصلاتهم وقد مضت الآن ست سنوات والحاصـلات بهذا الوفر والقمح الذى كان يباع بخمسة وعشرين فرنكا على الاقل لا يجد الآن شاريا بخمسة عشر فرنكا بينما قيمته في انجلترا خمسة وثلاثون فرنكا للربع . وثمة ربح قدره خمسون فى المائة على الدوام وقد فر الاوربيون الذين كانوا يجوبون داخلية البلاد ويشترون من الفلاحين حاصلاتهم وأخذوا معهم أموالهم .

الاسكندرية فى أول يوليو

رأيت أن اذهب الى الاسكندرية لان عرابي اضطر الى المكث بها مع راغب باشا والخديو، وعلى ذلك أتيت الى الاسكندرية اليوم وأجرت غرفة فى فندق (ابات) وهو مزدحم باللاجئين من الاوربيين وفى المساء ذهبت الى سراى رأس التين لأقابل

عرابي باشا ولكنه كان مشغولا فى مجلس حربي فكتبت اليه مذكرة قلت فيها :
«أولا — مادامت انجلترا تحدث هذه الضجة حول قناة السويس فمن المستحسن أن يخبر ممثلى الاول الاوربية بأن القناة بصفتها طريقا دوليا لكل الامم يجب أن تبقى محايدة في حالة الحرب مع مصر ولا تمر بها بارجة أو أية سفينة بها أسلحة وذخائر من تاريخ كيت الى تاريخ كيت . فاذا خالفت ذلك أية دولة فان الحكومة المصرية تدمر القناة فى الحال وتقع المسئولية على عاتق الدولة التى تحمل علمها السفينة الداخلة في القناة . ثانيا — ينبغي للحكومة أن تخبر الدول التى أرسلت أساطيلها الى الاسكندرية لتوطيد السلم والهدوء فى انحاء البلاد بأن بقاء الاسطول فى مياه الاسكندرية يدع نفسية المصريين فى هياج وهذا خطر على الامن العام ومانع للناس من الرجوع الى الاسكندرية ما داموا يعرفون أن الاسطول لا يزال هناك . وبناء على ذلك يجب أن يرسل انذار الى الدول صاحبة الشأن وفيه انه اذا لم ينسحب الاسطول من تلقاء نفسه فى مدة اربع وعشرين ساعة تصوب الحصون مدافعها اليه وترغمه على الانسحاب . واضفت الى ذلك انه مما يرفع شأن عرابي ان يكون البادىء فى هذه الحالة ليرى اولئك الذين هددوه قبل شهر مضي انه بلغ الآن من القوة ما يجعله يهددهم ويتحداهم . ثالثا — عرضت على عرابي باشا ان يتبع الحذر ازاء الجيوش التركية ولا يسمح لها بان تنزل الى الارض فان الكراهية السابقة بين الاتراك والعرب لم تمت ولن يتفق الجنود الاتراك والعرب معا ووجود الجيوش التركية في مصر سيخلق الفوضى ويحدث الانقسام فى الجيش والامة ويشل جهود الحكومة بواسطة الدسائس المعتادة فخير له ان ينصح للسلطان بان يحجم عن ارسال جيوش الى مصر فاذا اصر على ارسال جيوش يعتبر كدولة مهاجمة ويقاوم على هذا الاعتبار .

فى ٣ يوليو

فى ليلة امس أثناء العشاء ارسل الى عرابي باشا ضابطا وترجمانه الخاص راجيا ان اذهب لزيارته وحالما دخلت غرفة الاستقبال وقف في ادب وقال مبتسما : « كنت على وشك ارسال برقية اليك بالقاهرة ولكنى علمت انك في الاسكندرية وانك جئت

لزيارني بعد ظهر اليوم بينما كنت فى المجلس مع راغب » . وبعد شرب القهوة سألنى عنك وعن السيدة حرمك وعما اذا كنت علمت شيئا من اخبارك وعن كيفية سير الاحوال فى البرلمان البريطاني . وقد اخبرته بكل ما اعرفه فانبأني بان مراسلا جديدا لجريدة ستاندارد وصل اخيرا وزاره ليسأله عن وجهة نظره فى الحالة الحاضرة وقال عرابي : « وقد قلت له انى آسف لانه اتعب نفسه فى المجىء الىّ بينما كان يستطيع ان يحصل على كل المعلومات اللازمة من المستر بلنت فى انجلترا وهو يعرفني كما اعرف نفسى ». فقال المراسل ان الامة الانجليزية تدرك الآن تماما ان المستر بلنت من اكبر اصدقائه المعجبين به ولهذا السبب تحسبه مغرضا يغالى فى الحقائق . وعلى اثر ذلك جرت محاورة بين عرابي والمراسل وربما تقرأها فى الستاندارد. واخبر المراسل عرابي ايضا بان فى انجلترا الآن جمعية لحماية الرعايا البريطانيين في الخارج وان هذه الجمعية تطالب الآن بدماء الرعايا البريطانيين الذين قتلوا في الاسكندرية يوم ١١ يونيو فأجاب عرابي قائلا انه يسره كثيراً ان يسمع ذلك وانه هو نفسه سينضم الى الجمعية لا ليطالب بدماء الرعايا البريطانيين وحدهم ولكن بدماء جميع الضحايا من كل جنسية الذين ضحى بهم على أرض مصر ، سيطالب بدمائهم من أصحاب تلك الكارثة . وان من واجبه أيضاً ان يطالب بدماء اخوانه المصريين الذين ذبحهم الاوربيون وان الحكومة البريطانية نفسها كانت سبب الأذى بواسطة ممثليها فى مصر . وقد رجاني خمس مرات امام الجمع ان أرسل أصدق تحياته القلبية اليك وأكبر احترامه الى السيدة قرينتك وكلم الحاضرين عنك وعن شديد اهتمامك بالقضية الوطنية وقال انه لو كان كل الانجليز مثلك لأصبحت انجلترا جنة والانجليز ملائكة

وقد أبديت فى خطابك الاخير رغبتك فى ان تسمع منى بيانا عن الشغب الذى حصل فى الاسكندرية يوم ١١ يونيو . وبما انى لم اكن في الاسكندية في وقت الحادثة أكتب اليك وصفها كما سمعته من الضباط والمصريين والاوربيين ثم كما سمعته من الباشا نفسه ثلاث مرات ثم مرة أخرى فى ليلة أمس

فى يوم الاحد ١١ يونيو طعن مالطي مكاريا فخر فى الحال قتيلا فلم يصبر الوطنيون المشاهدون للحالة حتى يحضر الشرطة بل هجموا على المالطى وقتلوه فوق الحمار واذ ذاك شرعت الجالية المالطية في اطلاق الرصاص من النوافذ وكانت قد تسلحت من قبل . فاحدث هذا اضطرابا عاما بين الجماهير التى تجمعت فى الميدان ومن ثم امتد العراك الى أجزاء عديدة من المدينة واستمر الى الساعة السادسة (أى نحو خمس ساعات) حتى حضر الشرطة والجنود ليفرقوا المتشاجرين

وقد جرح القنصل البريطانى جرحا خفيفاً في ظهره بواسطة عصا وهو المعتبر أصل الحادثة ومدبرها ولكنه لم يخرج من بيته وكان الدافع له الى البقاء فيه خوفه من القتل لا خطورة جرحه . ولكن على الرغم من ذلك بعث السير ماليت فى منتصف الليل الى المراسل الخديد لجريدة « الديلى تلغراف » يخبره بان القنصل البريطاني جرح جرحا مميتاً وانه قد يسلم الروح قبل شروق الشمس ويرجوه ان يرسل هذا الخبر فى الحال الى لندن . غير انى نصحت للمراسل بان لا يتسرع وان يرتقب حتى آتيه بالنبأ اليقين من عرابي نفسه وذهبت فى الليلة نفسها الى عرابي باشا وسألته عن حقيقة المسألة فاجابنى بانه أبرق أربع مرات ولكن لم يأت اليه جواب . وبينما كنت لديه أتت برقية وبعد خمس دقائق جاء الحاج رازى وكان قد أرسل من الاسكندرية خصيصاً ليخبر عرابي بالسبب الحقيقى للشغب وتفاصيل حدوثه فعدت فى الحال الى المراسل وأخبرته بان مسألة القنصل لا أساس لها بل على العكس لما فرق الشرطة الجماهير وجدوا عندباب القنصلية عربة فيها أربع وعشرون بندقية ومسدسان وصندوقان مملوءان بالبارود وكان القنصل نفسه قد أعدها جميعاً ليستخدمها المالطيون . وقد أخبرنى عرابي باشا فى ليلة أمس بان لجنة التحقيق أثبتت ان المشاجرة كانت مدبرة وذلك انه فى صباح يوم الاحد الذى وقعت فيه الحادثة أخبر ايطالى يشغل وظيفة كونستابل فى البوليس المصرى كونستابلا آخر من رفاقه انه ستحدث مشاجرة خطيرة فى اليوم نفسه وانه خير لهما ان يهربا وقد اختفيا بالفعل وهما الآن فى ايطاليا . والجرائد لا تكتم سر المسألة وتصرح بان القنصل البريطانى فى

الاسكندرية هو الذى دبر المشاجرة وأعدها لاغراض سياسية . ولم يعرف عدد الضحايا واتفقت السلطات الاوربية والمصرية على عدم التحقيق في هذا العدد. والواقع ان الشغب كان أخطر مما وصفته الصحف فقد قتل فيه اكثر من ١٤٠٠ شخص معظمهم من الاوربيين . وكان الاوربيون كلهم مسلحين بالبنادق والمسدسات بينما الوطنيون لم يتسلحوا بغير العصي ومع ذلك كان موقف هؤلاء خيراً من الاولين. وهذه التجربة المبدئية هي التي ثبطت من شجاعة الاوربيين وجعلتهم يفرون من مصر كالمجانين والجبناء .

وقد وصل كتابك «مستقبل الاسلام» الى نديم وذكرت له خلاصته وترجم خطابك الذي أرسلته الى المستر غلادستون ونشرته « التيمس » الى اللغة العربية لينشر فى « الطائف » وقد سر عرابى باشا به كثيراً وهو يقول ان الجو السياسى معتم وربما أنذر بعواصف أشد وان الحرب أقرب من السلم ولا مثيل للنشاط البادى في الاستعداد للحرب في مصر فى الوقت الحاضر ويستعد للحرب الجنود والفلاحون والبدو جميعاً. وسأغادر مصر فى اليوم الذى تعلن فيه الحرب وعلى الرغم من ان الباشوات والضباط يطلبون ان أبقي فى مصر أثناء الحرب لا أحسب ان بقائي يكون من الحكمة وأؤمل ان تدرك احتمال نشوب الحرب وتنبئني قبل نشوبها بالتلغراف على أن تكون الدلالة على وجوب مغادرتي مصر هى كلمة « اكسودس » . واذا قامت الحرب فستخرب مصر تماما وستغرق الاسكندرية ومديريتان معها وستدمر القناة الى الابد بمياه البحر التي تتدفق من سد أبي قير وستكون حرب اليأس ولن يسلم المصريون حتى يضحوا بكل نفيس. ويدلنى ما اسمعه وما أراه على انهم أعدوا العدد لكي يجعلوا من الحرب فى مصر ثورة عامة يقوم بها المسلمون فى آسيا وأفريقيا.

الاسكندرية فى ٣ يوليو

رجاني عرابى باشا أن أدون المكاتبة الآتية التى أملاها عليّ باللغة العربية بحضور عبد العال باشا ومحمود باشا فهمي مفتش التحصينات وكثير من الباشوات والضباط وطلب اليّ ان اترجمها الى اللغة الانجليزية وأرسلها اليك لكي تتفضل

بتقديمها باسمه الى الرايت اونورابل المستر غلادستون (وذكر هنا خطاب عرابي الى المستر غلادستون وقد سبق ذكره فى أصل الكتاب)

حاشية — خولني عرابي باشا أن أخبرك بأنك بعد أن تقدم هذا الخطاب الى المستر غلادستون يمكنك ان تستخدمه كما تشاء سواء بنشره أو بغير ذلك .

الاسكندرية فى ٤ يوليو سنة ١٨٨٢

تسلمت شاكراً مكتوبك الرقيق مع قصاصات الجرائد . ينظرون هنا الى السياسة التركية بعين الشك وسوء الظن وقد عزم عرابي والباشوات والضباط والامة على منع الجيوش التركية من النزول الى البر ويقولون انهم غير محتاجين الى مساعدتهم على الارض « واذا كانوا يرغبون حقاً فى مساعدتنا فليحاربوا عدونا المشترك فى البحر » .

الاسكندرية فى ٥ يوليو سنة ١٨٨٢

كنت ليلة أمس مع عرابي باشا حتى منتصف الليل ولما دخلت غرفة الاستقبال وجدتها مزدحمة بالباشوات والضباط وغيرهم وكانوا قد اجتمعوا هناك ليهنئوه لمناسبة الانعام عليه بالوسام المجيدى الاكبر . وعند الساعة الحادية عشرة انصرفوا وبقينا أربعة وحدنا بالغرفة وأخذنا نتكلم بحرية فى مسائل كثيرة . وقد قرأت له برقيتك المؤرخة في اول يوليو فسر كثيراً ولما ذكرت له اسم درويش هز رأسه وكأنه يقول : « نحن نعرف هذا الشخص حق المعرفة » . ثم قال لى : « أما عن ذهابي الى الاستانة فليقل الناس ما يشاؤون فاني ولدت فى بلاد الفراعنة وستظل الاهرام الخالدة قبرى وان يحاول الباب العالى أن يخرب احدى الممتلكات العثمانية ومن الامثال العربية : لا يجدع احد أنفه بيده . وسيفكر السلطان مليا قبل أن ينوي دعوتي الى الاستانة او ارسال جيوش الى مصر » .

ويوجد الآن فى مصر شعور قوى ضد الاتراك والامة الانجليزية على السواء . وقد أيقنت أخيراً ان اميرال الاسطول البريطاني هو ماليت او كلفن آخر او شر منهما . وبالامس ارسل انذارا (والانذارات هى الطراز السائد الآن) أرسل اليك صورة منه مع هذا الخطاب وقد وجه الى طلبه باشا .

وقد أحدث رعباً شـديداً بين الوطنيين وأيضاً بين الاوربيين القليلين الذين لايزالون في مصر . وقد كنت فى غرفتى أ كتب بعض الرسائل فاذا باحد خـدم الفندق يأتى الىّ مرتجفاً ويخبرنى بشيء لا أفهمه بداءة لانه كان من شـدة الخوف لاينطق الا بنصف الالفاظ وقد حاولت ان أهدئ روعه وسألته ما ذا فى الامر . فقال : « ألا تعلم ان الاسطول البريطاني سيضرب المدينة اليوم ؟» فابتسمت لأبعث فى نفسه شيئاً من الشجاعة ونصحت له بان لا يخاف وانه لا يوجد خطر ولكنه قال وهو لايزال يرتجف ان القناصل أمروا جميع الاوربيـين بان يتوجهوا فى الحال الى ظهور البواخر . فسألته أجاء هذا الامر رسميا الى الفندق ؟ فأجاب:« كلا ياسيدى. ولكن كل من بالفنـدق يغادرونه » . فقلت له لا تهتم بهـم وأعطيته ثيابي ليسلمها الى الغسالة فرفض وتولى . وفى الحال قمت وذهبت الى عرابي باشا لأرى ما هو جار فلم أجد شيئاً جديداً سوى ان راغب باشا أخبر الاميرال انه لا توجد أعمال جارية فى الحصون وقد سكن ذلك ثائرة الاميرال ولكنه لم يطمئن الشعب الخائف.ولذلك ذهبت ثانيا الى طلبه باشا ورجوته ان يرسل الىّ جنديين ليحرسا مدخل فندق المساجيرى الذى أسكنه الآن فتنبعث الثقة في نفوس النازلين به . وقد كنت لدى طلبه باشا حين وصل اليه الانذار فاعطانيه لكي أعربه فعربته فى الحال بحضور عرابي باشا والضباط الآخرين . فلما قرأوه قال الكولونيل عابد بك : « هل فى الامكان ان انجلترا لا ترسـل الينا سوى موظفين مجانين ؟ ان هـذا الاميرال بدل ان يظهر نفســه في مظهر الرجل العاقل الجرىء يبدى الخوف عنـد أدنى حركة فى الحصون ولا يفتأ يضايقنا بانذاراته ويزعج الناس ويثير شعور العرب وهو يضر أ كثر مما ينفع » . والواقع ان مدينة الاسكندرية أصبحت خاوية

وقد طفت أمس بالمدينة راكباً فلم أ كد أرى عشرين اوثلاثين أوربياوالحوانيت والقهاوى مغلقة والمهاجرة من الداخل مستمرة وقد أمر مستخدمو الدومين ووكلاء المراقبة وأصحاب المصارف الخ بان يغادروا مصر . بل وصلت الحالة الى درجة ان أدوات شركة التلغراف الشرقية نقلت الى بارجة الاميرال وقد أصبحت المخابرات بالتلغراف صعبة جداً وغـير مأمونة واضحت طريقـة ارسال أحد التلغرافات متعبة

فعلى المرسل ان يكتب نص التلغراف ويعطيه لكاتب حجز نفسه فى غرفة صغيرة جداً بها نافذة ذات قضبان حديدية وليس فيها سوى ثغرة سعتها خمس بوصات. وكذلك الانجليز الشجعان الذين أتوا الى هنا باسطولهم لكي يسحقوا العرب الذين لايزالون يعيشون فى هدوئهم المعتاد !

اما عن نفسي فلا أدرى أمن التبصر ان أبقى فى مصر فى حالة الحرب أم لا ؟ ويريدنى أصدقائي على ان أبقى ولكن لا أعلم ان كان ذلك مأمونا.ورجائي اليك ان تراقب اتجاهات وزارة الخارجية وفي اللحظة التى تعلم فيها ان الحرب تقررت ترسل الىّ تلغرافا به كلمة « موسى »

في ٨ يوليو — توجهت صباح اليوم لأرى عرابى باشا فاخبرني انه استقبل سيدة امريكية فتية من فيلا دلفيا رجته ان يوقع باسمه على دفتر الامضاءات « أوتوجراف » وقال انه كتب لها باللغة العربيـة ورجانى ان أترجم ما كتبه الى الانجليزية وأخبرنى أيضا انه كان منذ يومين آتيا من القاهرة الى الاسكندرية فوجد فى المحطة خمسمائة ايطالي يستعدون لمغادرة مصر فشرع يحادثهم ويشجعهم على البقاء فى ديارهم لانه لن يوجد خطر مطلقا وضمن لهم أرواحهم واملاكهم وقال انه يضمن سلامة كل انسان . وقد شجعت كلماته أولئك الاشخاص الذين تملكهم الرعب فاندفعوا اليه رجالا ونساءاً وبناتا واطفالا ليقبلوا يده ويشكروه.وكان بينهم رجل مسن فى طول عرابى نفسه شقّ لنفسه طريقا بين هذا الجمع ولما وصل اليه وضع كلتا يديه على كتفه وقال له بالايطالية ما معناه « الله يباركك » . وفى النهاية عاد ثلثهم الى بيوتهم فىالقاهرة .

وبينما كنت مع عرابي تسلم خطابا من رجل ايطالى يرجوه أنيقبله بصفة متطوع فى الجيش المصرى ويقول انه كان فيما سبق جنديا فى الجيش الايطالى تحت قيادة غاريبالدي وانه الآن يريد أن يحارب لاجل حرية مصر .

لا يثق السلطان كثيراً بدرويش باشا وقد أرسل معه الشيخ أحمد أسعد وكيل السلطان فى المدينة بصفة جاسوس عليه يرقب حركاته وأعطي السلطان درويش باشا شفراً خاصاً ليرسل به تلغرافاته وفي الوقت نفسه أعطى أحمد أسعد شفراً خاصه

آخر وهكذا بعث هذين المندوبين أحدهما ضد الآخر وكل منهما يرسل تلغرافاته مستقلا . وهذا الشيخ أحمد أسعد صديق حميم لعرابى وقد ساعده كثيرا فى أزمته الاخيرة مع الخديو .

ومنذ يومين كنت مع عرابى فأتاه رجل عربي بخطاب ففتحه وتلاه عليّ وعلى الضباط الآخرين وقد كتبه حافظ الكعبة الملحق بشريف مكة وكان الخطاب مكتوبا بأسلوب راق وفيه مدح كثير وقال كاتبه ان جميع الناس في مكة يدعون الله ان ينصر عرابي وان الصلوات تقام من أجله ومن اجل نجاحه في الكعبة وعند قبر اسماعيل وزمزم وعرفات ومنى وفى كل مكان مقدس فى مكة . ولم يتردد الكاتب فى منح عرابي لقب حامي حمى الاسلام والدولة الاسلامية . وقد أتي بالخطاب رسول خاص . والحجاز كله مع عرابي ولم يرد شريف مكة أن يكدر علاقاته مع السلطان فكلف أحد رجال حاشيته بكتابة هذا الخطاب وهو عباس أغا زمزم . ولما تلى الخطاب اتفق على كتابة خطاب شكر اجابة عليه .

ويظهر أن الاميرال الفرنسى هنا يرتاب كثيرا فى حركات الاميرال البريطاني وكلما رأى الاول الثاني يغير موقف بارجته يتبعه فى الحال واذا خرجت بارجة انجليزية من الميناء سارت في أثرها بارجة فرنسية واذا وصلت الى الاسكندرية بارجة بريطانية جديدة يبرق الاميرال الفرنسى فى الحال طالبا ارسال بارجة فرنسية . والواقع ان هاتين الدولتين تتبع احداهما الاخرى كالقط والفأر .

في الاسكندرية الآن شيخ مشهور من الجزائر يدعي الشيخ محمد البزرلى ويجله جميع المسلمين والسلطان نفسه. وقد سبب للفرنسيين متاعب كثيرة في الجزائر ثم في تونس ولما جاء الى مصر منذ أربعة أشهر بدأ ينشر الدعوة ضد عرابي وأعلن للخديو أن عرابى ثائر على السلطان واذ كان رجلا عالما فصيحا ذا نفوذ أضر بعرابى كثيراً وساعد فى الخلاف القتال الذى قام بين سلطان باشا والنواب وعرابي. وفي ذات مرة كان يخطب ضد عرابي في اجتماع فسأله أحد الحاضرين هل يعرف عرابي شخصياً فاجاب الشيخ مشمئزاً بانه لم ير عرابي قط وانه لا يرغب في رؤيته (ثم ذكر الخطاب كيف ان الشيخ قابل عرابي بعد ذلك في احدى الولائم دون أن يعرفه وبحث معه

في مسألة الاصلاح وأثرت فيه مناقشاته وحججه حتى صار أحد أنصاره المخلصين).
ومنذ ثلاث ليال رأيته فى دار عرابي وقد أتى ليستأذنه في أن يذهب الى السلطان ويسأله باسم جميع المسلمين ان يعدل عن ارسال جيوش تركية الى مصر فلما سمعت ذلك منه سألته كيف كان ، حين سررت برؤيته لاول مرة ، يدعو الى تدخل الاتراك بحجة ان مصر ولاية عثمانيــة فاذا أتت الى مصر جيوش تركية كانت فى بلادها ؟ فاجابني : « صحيح ان ذلك كان اعتقادي في ذلك الوقت ولكن لما سمعتك تقول ان الجيوش التركية اذا أتت الى مصر فلن تخرج منها وان وجودها فى مصر سيجدد الضغن القديم بين الجنود العرب والجنود الاتراك — وجدت انك مصيب فى رأيك والآن أتيت لأستأذن من صاحب السعادة أن أذهب مع بعض اصدقائى الى الاستانة لامنع السلطان من ارسال جيوش الى هناك » . وأظن أن عرابي أخبره بانه تأكد من السلطان انه لن ترسل جيوش الي مصر .

فى ٩ يوليو

علمت من مصدر ثقة أن خير الدين باشا وسعيد باشا — والاول رئيس وزارة سابقة بالاستانة — يعارضان فى فكرة ارسال جيوش الى مصر ويقال انه بينما كان الوزراء يبحثون المسألة فى مجلسهم قام خير الدين وأراهم من آيات القرآن والحديث ما يدل على أن ارسال جيوش مسلمين لمحاربة أمة مسلمة هادئة أمر يخالف الدين وختم كلامه بحديث مؤداه انه اذا تحارب شخصان مسلمان عــذب القاتل والمقتول كلاهما عذابا أبديا فى نار جهنم .

فهمت من الصحف التي تفضلت بارسالها ان ماليت وكلفن هاجــاك ولعلك تذكر اني كنت مصيباً فى رأيي الذى كونته لنفسى بشأن هذين الشخصين منذ اول يوم دخلنا فيه القاهرة . وقد اعتمدت أكثر من اللازم على صــداقة ماليت وعلى اخلاص كلفن المزعوم والآن اصدقاؤنا هنا فى أشد السخط عليهما

قرأت خطاب السير وليم جوبجورى المنشور في « التيمس » وترجمته الى اللغة العربية لعرابي باشا فسر به كثيراً .

فى ١٠ يوليو

هذا يوم الاضطراب البالغ ، يوم الرعب والشقاء والفرار العام . ففي صباح اليوم كنت في سريري فجاء إلىّ خادم وطني من خدام الفندق وقال « قم واستعد للذهاب » . فسألته لماذا ؟ فأجابني : « لأن سيدي سيغلق الفندق ولن يبقى به أحد وقد ذهب الجميع الى البواخر » . فقمت وأمرت الخادم بأن يحضر لي فنجان شاي . فقال « لايوجد شاي » فلبست ثيابي ونزلت الى قاعة الطعام ووجدت فيها صاحب الفندق في اضطراب ويأس . فسألته عن الحالة فأجابني « أمر جميع القناصل رعاياهم أن يغادروا الاسكندرية قبل الظهر » . فقلت : « هل تتركني أسكن الفندق وحدي وأعني به ؟ » فرفض ذلك قائلا انه لا يمكنه . فرجوته أن ينتظر على الاقل ساعة حتي أذهب الى نظارة البحرية وأعود . وفي الحال ركبت عربة وذهبت لأرى عرابي ولكني لم أستطع رؤية أحد من النظار فقد كانوا جميعاً في المجلس . ووجدت سكرتير عرابي الخاص فأخبرني بان الاميرال البريطاني أرسل كلمة شفوية فقط يقول انه سيضرب الحصون بعد أربع وعشرين ساعة وأن قناصل الدول الاخرى ذهبوا الى الاميرال البريطاني ليسألوه عن المسألة . ولما عدت الى الفندق وجدت صاحبه قد حزم أمتعته ووضعها فوق عربات وأنه على استعداد للرحيل ولم أجد وقتاً كافياً لأحضر حقائبي الصغيرة وأركب عربة وأذهب . ولم أدر الي أين أتجه . وقد خرجت الاساطيل فعلا من الميناء وذهبت الى البحر استعداداً لاطلاق المدافع . وكان الناس — وأعني القليلين الذين بقوا حتى اللحظة الاخيرة — يجرون في سرعة كبيرة الي البواخر المختلفة التي مكثت في الميناء لتستقبل اللاجئين . ولست أظن أن مهاجرة الاسرائيليين من مصر تداني ما رأيت ، فان الرجال والنساء والاطفال والرضع الباكية بين أذرعة أمهاتها ، والشيوخ الذين لا يقدرون على السير ، والمرضى الذين لا يستطيعون حمل أنفسهم ، هؤلاء جميعاً كانوا يندفعون الى ناحية البحر في رعب يذكر الانسان بيوم القيامة . وكان هؤلاء الناس البائسون لا يجدون ما يفرج همهم في ذعرهم ويأسهم سوي لعن القناصل والحكومة البريطانية التي أتت لمصر بهذه النكبة .

وبعد أن شهدت هذا المنظر المفزع بدأت أفكر في مآلي ولكن كلما

ذهبت الى من أعرفهم وجدتهم قد ذهبوا . ولم أجد مكاناً ألجأ اليه سوى الترسانة ولكني لم أحسبها مكاناً آمناً لقربها من الحصون فى حالة ضرب المدينة . وكان الوقت عضى أثناء ذلك وقد قرب انتهاء مهلة الاربع والعشرين ساعة . فجال بفكرى أن أذهب الى احدى البواخر ولكن سمعت انها مزدحمة وكان أحد بحارة القوارب مشغولا بحمل حقائبي الى قاربه فعرض علىَّ أن يأخذني الى القارب البريطاني المسمى « تانجور » ولكني رفضت ذلك لان جميع الرعايا البريطانيين والقناصل ومراسلى الصحف — وأكثرهم يعرفونني — كانوا فى البواخر ولذلك لم أجد من الحكمة أن أزج بنفسي بينهم وعزمت على أن أبقى على الشاطئ وأن أكون آخر من يغادر الاسكندرية ولكن دنت آخر ساعة وكانت القوارب الاخيرة تروح . وفى هذه اللحظة قابلت فرنسياً كان على وشك الابحار مع زوجته فدعاني لان أذهب معه الى الباخرة « سعيد » احدى بواخر المساجيرى ماريتيم فتوجهت اليها وهأنا أكتب فيها هذا الخطاب . ولا أظن انى أقدر علي ارسال هذا الخطاب اليك غداً لانه لا يوجد بريد بريطانى . وقد اغلقت جميع مكاتب البريد بما فيها المكاتب المصرية .

وقد تركت شركة التلغرافات الشرقية مدينة الاسكندرية ونقلت أدواتها الى بارجة الاميرال البريطانى .

ولما رأيت أصدقائي منذ ساعتين وجدتهم ثابتين ومتأهبين للقتال والمقاومة الى الى آخر نقطة من دمائهم مهما كلفهم ذلك

فى ١١ يوليو

في صباح اليوم (الثلاثاء) عند الساعة السابعة تماما أطلق الاسطول البريطانى أول طلقة اشارة الى ضرب الحصون . وكنت على ظهر الباخرة « سعيد » على بعد مسافة قصيرة من الاسطول وقد أتت ساعة عرابي الخطيرة . وأما درويش فغادر الاسكندرية عقب ابتداء الضرب وأبحر الى حيث لايدرى أحد . ومن بين ١١٧٠ شخصا كانوا معي هذا الصباح يشهدون ضرب المدينة كنت الوحيد الذى يتمنى حسن الحظ والنجاح لعرابى ورفاقه . ولما أطلقت أول طلقة لوح فى الهواء بالقبعات والمناديل والايدى مع الهتاف والنداءات الدالة على الرضا وكان الرجال والنساء والاساقفة

والقسوس والراهبون والراهبات في سرور وجذل يتنبأون بتسليم الحصون بعد ساعتين ولكن استياءهم بدأ بالفعل والساعة الآن الواحدة والنصف ولما ينقطع اطلاق المدافع من الجانبين وقد كانت المقاومة حتى الآن باهرة وبعض طلقات المدافع المصرية يتخطى الاسطول والبعض الآخر لا يصل اليه والمسافة بين الطرفين بعيدة بشكل ظاهر ولكن لا يستطيع أحد الآن أن يتنبأ بالنتيجة . وأجلس فى هذه الآونة فوق ظهر الباخرة أرقب الضرب وأكتب كل ما أستطيع رؤيته ولكن ماذا يمكن الانسان أن يراه على البعد ووسط سحابة من الدخان المعتم سوى ابراق المدافع وارعادها ؟

مكثت بلا أخبار منك مدة أسبوع تقريبا وكنت أنتظر أن يصلنى نبأ منك حالما قررت الحكومة البريطانية الحرب ولكنك تركتني فى ظلام حتى اللحظة الاخيرة ولم يكن أصدقاؤنا ولا بعض القناصل أنفسهم ولا انا متأكدين من أن انجلترا كانت ترغب فى الحرب رغبة جدية

وقد عزمت على السفر الى نابولى أو فينسيا حتى تستقر الاحوال فى مصر وأظن ان هذا يتطلب أشهرا ويمكنك من خطاب عرابي الى المستر غلادستون — ولعلك تسلمته أمس كما ينبغي وقدمته اليه ونشرته — أن تحكم على نيات المصريين وتقدر الاضطراب الذى سيحدث فى مصر مدة من الزمن . وقد مزقت الطلقة الاولى جميع المعاهدات قطعة قطعة وأرسلت ملايين روتشلد الي جهنم وأبعدت الرجل التى اتفقت انجلترا وفرنسا على توطيد سلطته وستمتلىء قناة السويس فى بضعة أيام بـ ١٠٠٫٠٠٠ من الفلاحين والبدو دربوا على كيفية اداء مهمتهم من قبل — هذا اذا لم تكن القناة قد دمرت الآن فعلا .

(وقد وصل صابونجي الى فينسيا يوم ١٩ يوليو ثم وصل الى لندن بعد بضعة الاسابيع)

برنامج الحزب الوطني المصري

الذى قدمه المستر بلنت الى المستر غلادستون في ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٨١

مع رد المستر غلادستون

---

١ — يرى الحزب الوطنى محافظة على العلاقات الودادية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالى واتخاذ ذلك الباب ركنا يستند عليه فى أعماله — ويعتقد أن (جلالة) السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفــة الله فى أرضه وامام المسلمين ولا يريد قطع هذه الصلات والعلاقات مادامت الدولة العلية فى الوجود ثم يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذه من الخراج وما يلزمه من المساعدة العسكرية اذا طرأت عليه حرب اجنبية وهذا بمقتضي القوانين والفرمانات الشاهانية كما يعتقد هذا الحزب انه يحافظ على امتيازاته الوطنية بكل مافى وسعه ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية (أى من يريد سلب امتيازاتها و نسخ الفرمانات التى منحتها استقلالها الاداري) وله ثقة بدول اوربا لاسيما انجلترا المدافعة عنه ويود أن تدوم هذه المحبة حتى يحصل على حرية مصر واحترامها .

٢ — هذا الحزب يخضع للجناب الخديو الحالى وهو مصمم على تأييد سلطته مادامت أحكامه جارية علي قانون العدل والشريعة حسب ما وعد به المصريين فى شهر سبتمبر سنة ١٨٨١ وقد قرن هذا الخضوع بالعزم الاكيد على عدم عودة الاستبداد والاحكام الظالمة التى أورثت مصر الذل وبالالحاح على الحضرة الخديوية بتنفيذ ماوعدت به من الحكم الشورى واطلاق عنان الحرية للمصريين ويطلبون منها الاستقامة وحسن السلوك في جميع الامور وهم يساعدونه قلبا وقالبا كما انهم يحذرونه من الاصغاء الى الذين يحسنون اليه الاستبداد والاجحاف بحقــوق الامة ونكث المواعيد التى وعد بانجازها

٣ — رجال هذا الحزب يعترفون بفضل فرنسا وانجلترا اللتين خدمتا مصر

خدمة صادقة ويعلمون ان استمرار المراقبة الاوربية هو الكفالةالعظمي لنجاح أعمالهم مع قبولهم تلك الديون الاجنبية حرصا على شرف الامة وان كانت تلك الاموال لم تصرف فى مصلحة مصر بل صرفت فى مصلحة حاكم ظالم لايسأل عما يفعل . ومعلوم لهم أن ما حصلوا عليه من الحرية والعدل كان بمساعدة هاتين الدولتين فهم يشكرونهما ويثنون عليهما .

ثم انهم يرون أن النظام الحالى لم يكن الا وقتيا والافانهم يؤملون أن يستخلصوا ماليتهم من أيدى أرباب الديون شيئاً فشيئاً حتى يأتي يوم تكون مصر فيه بيد المصريين . وهم لا يخفى عليهم شيء من الخلل الحاصل فى المراقبة ومستعدون لاذاعته فانهم يعلمون أن كثيراً من المستخدمين فى قلم المراقبة لايقدرون على القيام بوظائفهم ولا يراعون حق الشرف والاستقامة وبعضهم يأخذ الرواتب الجسيمة بلا استحقاق مع وجود من يقوم بعملهم من المصريين على أحسن اسلوب براتب لايوازى خمس راتب الاجنبي وبهذا يحكمون بوجود الظلم وخلل الادارة مادام هذا الاسراف الخارج عن الحد باقيا

وهم يتعجبون من اعفاء الاجانب من الضرائب وعدم خضوعهم لقانون البلاد مع تمتعهم بخيرها واقامتهم فيها ولكنهم لا يريدون مداركة هذا الاصلاح بقوة أو جفوة بل يقتصرون على اقامة الحجة ويطلبون من فرنسا وانجلترا التبصر فى هذا الامر فانهما أخذتا على نفسيهما مراقبة المالية فهما مطالبتان بنجاحها وباستخدام أهل الامانة والاستقامة فيها لأنهما مسؤولتان عن رفاهية مصر بعد ان نزعتا ادارة ماليتها من أهلها وتكفلتا بنجاحها .

٤ — رجال الحزب الوطنى يبعدون عن الاخلاط الذين شأنهم احداث القلاقل فى البلاد إما لمصلحة شخصية أو خدمة للاجانب الذين يسوؤهم استقلال مصر . وهؤلاء الاخلاط كثيرون فى البلاد (بل هم معلومون المصريين ولهذا اشتدت النفرة منهم) والمصريون يعلمون ان الصمت على حقوقهم لا يخولهم الحرية فى بلاد الف حكامها الاستبداد وكرهوا الحرية فان اسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم والاستبداد الا سكوت المصريين وقد عرفوا الآن معنى الحرية الحقيقية فى هذه

السنين الاخيرة فعقدوا خناصرهم على توسيع نطاق التهذيب وهم يرجون ان يكون ذلك بواسطة مجلس شورى النواب (الذى انعقد الآن) وبواسطة حزية المطبوعات بطريقة ملائمة وبتعميم التعليم ونمو المعارف بين أفراد الامة وهذا كله لايحصل الا بثبات هذا الحزب وحزم رجاله .

ويرى هذا الحزب ان مجلس النواب ربما اكره على الصمت كما حصل لمجلس الاستانة واستعين عليه بجعل المطابع آلة تفوق نحوه السهام فيتكدر صفو الراحة ويحرم الابناء من التعليم ولهذا فوض الاهالي امرهم الى امراء الجهادية وطلبوا منهم ان يصمموا على طلبهم لعلمهم ان رجال العسكرية هم القوة الوحيدة فى البلاد وهم يدافعون عن حريتهم الآخذة فى النمو وليس فى عزمهم ابقاء الحال على ماهى عليه بل متى تحصلت الامة علي حقوقها عدلوا عن السياسة الحاضرة فان امراء الجهادية عازمون على ترك التدخل فى السياسة بعد ان فتح المجلس فهم الآن بصفة حراس على الامة التى لاسلاح لها ولهذا يطلبون زيادة الجند الى ١٨٠٠٠ عسكرى ويرجون التفات قلم المراقبة لهذه الزيادة عند تقرير الميزانية .

٥ — الحزب الوطنى حزب سياسي لا دين فانه مؤلف من رجال مختلفى العقيدة والمذهب . وجميع النصارى واليهود وكل من يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم اليه لانه لاينظر لاختلاف المعتقدات ويعلم ان الجميع اخوان وان حقوقهم فى السياسة والشرائع متساوية وهذا مسلم به عند أخص مشايخ الازهر الذين يعضدون هذا الحزب ويعتقدون ان الشريعة المحمدية الحقة تنهى عن البغضاء وتعتبر الناس فى المعاملة سواء . والمصريون لا يكرهون الاوربيين المقيمين بمصر من حيث كونهم أجانب أو نصارى واذا عاشروهم على أنهم مثلهم يخضعون لقوانين البلاد ويدفعون الضرائب كانوا من أحب الناس اليهم

٦ — آمال هذا الحزب معقودة على اصلاح البلاد ماديا وأدبيا ولا يكون ذلك الا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق المعارف واطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة للأمة . وللمصريين اعتقاد فى دول أوربا التى تمتعت ببركة الحرية والاستقلال ان تمتعهم بهذه البركة . وهم يعلمون انه لم تنل أمة من الامم حريتها

الا بالجد والكد فهم ثابتون على عزمهم آملون فى تقدمهم واثقون بجانب الله تعالى اذا تخلى عنهم من يساعدهم

١٨ ديسمبر سنة ١٨٨١

رد المستر غلادستون

قصر هاواردن بتشتر فى ٢٠ يناير سنة ١٨٨٢—الى ولفريد .س. بلنت المحترم

سيدى العزيز

انك كما أؤمل ستقدر الاسباب التى تجعلنى لا أستطيع أن أعرض أي شيء يصح أن يكون جوابا مناسباً على خطابك الشائق بشأن المسائل المصرية التي تشغل جزءاً من التفاتي كل يوم

ولكنى أدرك فائدة الحصول على مثل هـذا الخطاب ممن كان مثلك مرجعا في هـذه الشؤون وأشعر بالثقة التامة باننا سنستطيع ان نصل بهذه المسألة الى نهاية مرضية ، الا ان كان ثمة نقص محزن فى الادراك لدى أحد الجانبين او كليهما.

وقد أبديت آرائي الخاصة بشأن مصر في مجلة « القرن التاسع عشر » قبل أن أتولى منصبى بوقت وجيز ولا أرى للآن انى وجدت ما يوجب تغييرها .

المخلص

و . ا . غلادستون

دوننج ستريت نمرة ١٠ هوايت هول في ٢١ يناير سنة ١٨٨٢

عزيزى ولفريد

أشعر باني مدين لك باعتـذار كبير لاني لم أرسل اليك قبـل اليوم نبأ بتسلمى مكتوبك الشائق الدال على المقدرة بشأن الحركة المصرية . وعذرى هو الاستراحة ولكن غيابى عن دوننج ستريت لم يمنعنى من تقـديم خطابك فى سرعة الى المستر غلادستون وأرفق بهذا مذكرة منه . وهو يأسف لانه تأخر شيئاً ما فى ارسالها.

ومن الصعب — ان لم يكن من المستحيل — ان اكتب فى الحـالة الحرجة الحاضرة بينما الموقف يتغير من يوم الى آخر .

وقد تحسب أن الصفة الوطنية التى تنسب الى الحركة لا بد أن تبدى ميزتها للمستر غلادستون المعروف بعطفه على القوميات الصغيرة التى تجاهد فى سبيل الاستقلال . وانما يظهر ان الصعوبة الكبرى (وانا بالطبع أتحدث عن شخصى مع شعورى التام بالجهل) هى كيف نستطيع تأييد مثل هذه الحركة مع رعاية المسؤوليات التى حملناها على عاتقنا ومع المصالح التى تمسها ؟ إن كل حل يراد اختياره يبدو محاطا بعقبات وصعاب لا يمكن تخطيها . ويمكنني فقط أن أقول انك اذا استطعت أن تعمل شيئا فى سبيل الوصول الى حل لتلك الصعاب فانك تؤدى خدمة جليلة لمصر ولهذه البلاد وللحكومة الحاضرة وأنا أعلم أنك كنت بالفعل ذا نفع كبير وانك يحق لك الكلام فى هذا الموضوع عن يقين ومعروفة قبل أى شخص آخر

مع احتراماتي الخاصة للسيدة آن واعتذاراتى عن هذا الرد الموجز على خطابك

المخلص

ا . و. هاملتون

رد المستر غلادستون

على الخطاب الثانى من المستر بلنت المؤرخ بالقاهرة

فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

دوننج ستريت نمرة ١٠ هوايت هول فى ٢ مارس سنة ١٨٨٢

عزيزى ولفريد

قرأ المستر غلادستون خطابك الثاني باهتمام كبير وهو يشكرك عليه ويؤمل أنك شعرت ، أو ستشعر ، من لغة خطاب العرش — وارفق بهذا نسخة منه بناء على رغبته — أن الحكومة البريطانية في الوقت الذى تنوى فيه نية ثابتة على احترام الاتفاقات الدولية تعطف على رغبة المصريين فى اغراض ووسائل الحكومة الطيبة

المخلص

ا . و . هاملتون

فقرة مقتطعة من خطاب الملكة أرسلها المستر هاملتون

«بالاتفاق مع رئيس الجمهورية الفرنسية منحت التفاتا كبيرا لمسائل مصر حيث الانظمة السائدة قد فرضت على واجبات خاصة. وسأستخدم نفوذى لاحتفظ بالحقوق التى تأسست من قبل سواء بفرمانات السلاطين أو بالاتفاقات الدولية المختلفة، وذلك بروح التعضيد للحكومة الصالحة في البلاد وتقدم انظمتها فى تبصر»

الملحق السادس

نص الدستور المصري الصادر فى ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

خطاب من محمود سامى باشا الى الخديو

عند توليه الوزارة فى ٢ فبراير سنة ١٨٨٢

مولاى

صدر أمركم الكريم بأن أشكل وزارة جديدة فصار من أوجب الفروض قضاء اً على ان أعرض لمعاليكم عن المبادىء التى سأتخذها دستورا لأعمالى ومرشدا لسياسة الوزارة الجديدة

ان الحوادث التى توالت على مصر من بضع سنين وشغلت الافكار العمومية فى داخلية البلاد وفى البلاد الخارجية على انواع شتى تنحصر في أمرين الاول تعهداتنا المالية والثاني اصلاحاتنا الداخلية

ولقد نظم الدين العمومي تنظيما نهائيا وصدر فى شأنه عدة أوامر سامية ختمت بقانون التصفية الصادر فى ١٩ يوليو سنة ١٨٨٠ وقد عدت هـذه الادوار وهذا القانون كأنها معاهدات دولية ما فتئت حكومة عظمتكم عن اعتبارها ومراعاتها وستعتنى الوزارة بانفاذ أحكامها بالدقة والامانة

وصارت تصفية الدين السائر أمرا واقعياً فسددت حسابات الاكثرية ممن اعترفت الحكومة الى الآن بحقوقهم وستصرف العناية الى الاستمرار على اتمام تصفية هذا الدين

كذلك الديون المقررة (قونصوليد) المختص بها قلم الدائرة السنية ومصلحة الاملاك الميرية الموضوعتان رهنا لقرض سنة ١٨٧٨ سائرة أمورها من تأدية فائدة واستهلاك فى طريق الانتظام .

والادارات التى انشئت لتأكيد انتظام سير الديون المذكورة (وهى قلم المراقبة العمومي وادارة خزينة الدين وقلم المراقبة فى الدائرة ومصلحة الاملاك الاميرية) يجب على الحكومة ان تحافظ عليها وتراعيها وذلك دأب الحكومة مع هذه الادارات من حين انشائها الى الآن .

فلا يغير شيء مما ذكر عن وضعه وستجتهد الوزارة فى تأييد تلك الادارات والمصالح لتهون عليها السير فى سبيلها لانها تعد حسن سير هذه الادارات العمومية أمرا لازما لانتظام الاحوال في اشغال الحكومة وعندنا ان الادارة العمومية فى البلاد تستفيد من ذلك فوائد جمة لا شك ولا ريب فيها

وقد كان أبدا فى خلد عظمتكم ان لا بد من مساعدة مجلس شورى لاتمام الاصلاحات الداخلية بحكمة ووثوق وبناء على ذلك تشكل مجلس النواب الحالى والوزارة أيضا من هذا الرأى وهي ستوجه همها وعنايتها الى اصلاح المحاكم والمجالس وانتظام الادارة واجراء التحسين اللازم فى أمر المعارف العمومية مساعدة للبلاد على السير فى سبيل المدنية والنجاح .

وستنظر فى اتخاذ الوسائل الآيلة الى اتساع دائرة الزراعة والتجارة والصناعة وتصرف عنايتها الى سائر المشروعات الاصلاحية التى كانت موضوع أماني عظمتكم ولكنها قبل كل شيء ترى من الواجب أن تعين اختصاصات مجلس النواب ليتيسر له أن يأتى الحكومة بما تنتظر منه من المساعدة وأن يحقق آمال البلاد المحصورة فيه ولذلك فأول شيء تشرع فيه الوزارة هو وضع نظام أساسي للمجلس المومأ اليه ويكون من أحكام هذا النظام احترام جميع الحقوق الممتازة والعهود الدولية وكل

التعهدات المتعلقة بالدين العمومي وما توجب هذه التعهدات ادراجه في برنامج الحكومة وتحديد التبعة التى تلحق الوزارة امام المجلس وكيفية المخابرة والمباحثة في أمر القوانين ووضعها وتنظيمها وسيكون هـذا النظام الاساسي محتويا على جميع الشروط اللازمة لتأكيد مصالح العموم بعيداً من أن يكون سبباً لقلق البال .

هذه يا مولاى لائحة الوزارة الجديدة وفقاً لآمال الوطن .

وعنـدي الرجاء الاكيدة ان الدول العظيمة — ولا سـيما الباب العالى الذى وازرنا أبداً بعنايتـه ومساعدته فيما يتعلق بالحقوق والامتيازات التى منحها لنا — ستستمر على مساعدة حكومة عظمتكم مساعدة كانت أبداً وتكون أبداً مفيدة للقطر المصرى

كذلك أرجو أن تكون عناية حكومتكم مصروفة في سبل المحافظة على الحقوق العمومية وحفظ النظام ومساعدة الامة فى طريق التقدم والعمارة .

وقد وعد جنابكم العالى يوم توليتكم السعيدة ان يفتح لمصر بابا جديداً للنجاح والسعد ونحن الآن نقـدم بين يدى عظمتكم عزمنا على الاجتهاد فى تحقيق ذلك الوعد فاننا نجد فى تحصيل الغاية التى يروم جنابكم العالى الوصول اليها وآمالنا كبيرة فى المستقبل اذ ان ثقتنا فى عظمتكم كبيرة أيضاً .

فاذا راقت لمعاليكم هذه اللائحة وهذه المبادئ التى قدمتها فارجو التوقيع على الاوامر التى ارفعها لمقامكم الكريم متضمنة تشكيل الوزارة الجديدة.

وتفضل يا مولاى الخ

خطاب من صاحب السمو الخديو

الى سعادة محمود سامي باشا ١٥ ربيع أول سنة ١٢٩٩ (و٤ فبراير سنة ١٨٨٣)

عزيزي محمود باشا سامي

ان أخذكم على عهدتكم أمر تشكيل الوزارة الجديدة مع علمكم بأهمية هذا الامر الخطير يعد برهانا جديداً على اخلاصكم وصحة وطنيتكم

وقد عهدنا اليكم بذلك لما نعهد فيكم من الاخلاص وصحة الوطنية فقد تحققنا

ذلك فيكم وأيدتموه بالادلة العديدة في الخدم الصحيحة التى ابديتموها فى المصالح التى عهدت اليكم .

وانا نصادق على لائحتكم والمبادىء التي فصلتموها فان هذه المبادىء هي اساس العدالة ومن شأنها حفظ الراحة وتوطيدها في البلاد وتقدم جميع سكانها ونجاحهم

ونوافق على رأيكم المتضمن انه يجب على حكومتنا اتخاذ الوسائل اللازمة لاتمام الاصلاحات القضائيـة والادارية ونشر قانون أساسى لمجلس النواب ينطبق على الآراء التى أبديتموها في لائحتكم .

كذلك يجب على حكومتنا الاهتمام بتوسيع دائرة المعارف العمومية والزراعة والتجارة والصناعة وسنبذل جهدنا فى مساعدتكم على ذلك .

ونرجو من الله عزّ وجلّ أن يكلل اجتهادنا بالنجاح حبا في خير البلاد وتقدم الامة

(محمد توفيق)

دكريتو

نحن خديو مصر

بعد الاطلاع على الدكريتو الصادر فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ (١١ ذى القعدة سنة ١٢٩٨)

وبعد الاطلاع على قرار مجلس النواب

ووفقا لنصح مجلس وزرائنا قررنا ما يأتي :

المادة ١ — تعيين أعضاء مجلس النواب يكون بالانتخاب والشروط اللازمة لمن له حق الانتخاب ولمن يجوز انتخابه تتبين فيما بعـد فى لائحة مخصوصة تشتمل أيضاً على كيفية الانتخاب.

المادة ٢ — يكون انتخاب أعضاء المجلس لمدة خمس سنوات ويعطى لكل منهم مائة جنيه مصرى فى السنة مقابلة مصاريفه .

المادة ٣ — النواب مطلقو الحرية في اجراء وظائفهم وليسوا مرتبطين بأوامر أو تعليمات تصدر لهم تخل باستقلال آرائهم ولا بوعد او وعيد يحصل اليهم

المادة ٤ — لا يجوز التعرض للنواب بوجه ما واذا وقعت من أحدهم جناية أو جنحة مدة اجتماع المجلس فلا يجوز القبض عليه الا بمقتضي اذن من المجلس .

المادة ٥ — للمجلس حال انعقاده ان يطلب الافراج أو توقيف الدعوى موقتا لحد انقضاء مدة اجتماع المجلس عمن يدعى عليه جنائيا من أعضائه أو يكون مسجونا فى غير مدة انعقاد المجلس لدعوى لم يصدر فيها حكم

المادة ٦ — كل نائب يعتبر وكيلا عن عموم أهالى القطر المصري لا عن الجهة التي انتخبته فقط .

المادة ٧ — مجلس النواب يكون مركزه بمحروسة مصر ويعقد بامر يصدر من الحضرة الخديوية بموافقة رأى مجلس النظار ويكون اجتماعه سنويا .

المادة ٨ — تعقد الجلسات الاعتيادية السنوية بمجلس النواب مدة ثلاثة أشهر من أول شهر نوفمبر لغاية يناير واذا لم تكف هذه المدة لاتمام الاشغال الموجودة وطلب المجلس ان تزاد مدته من ١٥ يوما الى ٣٠ يوما فيجاب الى ذلك بامر يصدر من الحضرة الخديوية .

المادة ٩ — اذا مست الحاجة الى تكرار اجتماع المجلس في غير مدته المعتادة فيكون ذلك بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية تتقرر فيه مدة ذلك الاجتماع .

المادة ١٠ — تفتتح الحضرة الخديوية أو رئيس مجلس النظار بالنيابة عنها مجلس النواب بحضور باقي النظار .

المادة ١١ ـ تفتح أول جلسة فى كل سنة بتلاوة مقالة يقرأها الخديو او رئيس النظار بالنيابة عنه وتشتمل على بيان المسائل المهمة التي تعرض على المجلس فى أثناء انعقاد جلساته وتنفض الجلسة بعد تلاوة المقالة المذكورة .

المادة ١٢ ـ ينتخب المجلس فى اثناء الثلاثة الايام التالية لتلاوة المقالة لجنة لتحضير جوابها وبعد التصديق عليه من المجلس يصير تقديمه للحضرة الخديوية بمعرفة من ينتدبهم لهذا الغرض من أعضائه .

المادة ١٣ ـ لا يشتمل الجواب المذكور على التكلم في أي مسألة بوجه قطعى ولا على أى رأي حصلت المداولة فيه .

المادة ١٤ ـ ينتخب المجلس ثلاثة من أعضائه تعرض أسمائهم على الجناب الخديوى فيعين أحدهم ليتولى رياسة المجلس مدة الانتخاب أى خمسة أعوام بمقتضى أمر يصدر من حضرته .

المادة ١٥ ـ ينتخب المجلس وكيلين لرئيسه ويعين للقلم كتاب بشرط ان يكون الوكيلان من أعضائه

المادة ١٦ ـ تحرر محاضر الجلسات بملاحظة قلم كتابة المجلس الذي يؤلف من الرئيس ومن الوكيلين ومن الكتاب .

المادة ١٧ ـ اللغة الرسمية التى تستعمل في المجلس هى اللغة العربية وتحرير المحاضر والملخصات يكون بتلك اللغة

المادة ١٨ ـ للنظار حق الحضور فى المجلس وابداء ما يرومون ابداءه فيه ولهم أيضا ان يستنيبوا عنهم وكلاء من كبار الموظفين .

المادة ١٩ ـ اذا قر قرار النواب على ان يستدعي للحضور بمجلسهم أحد النظار للاستيضاح منه عن مادة معينة فعلى الناظر ان يذهب الى المجلس بنفسه او يستنيب عنه أحد كبار المتوظفين يجيب عما يسأل عنه .

المادة ٢٠ ـ للنواب حق الملاحظة على متوظفى الحكومة جميعاً ولهم فى أثناء اجتماع المجلس ان يشعروا بواسطة رئيسه كلا من النظار بما يرون لزوم الاخبار عنه من تعد او خلل او قصور يقع فى أثناء تأدية الوظيفة من احد متوظفى الحكومة التابعين لنظارته .

الماة د٢١ ـ النظار متكافلون فى المسئولية أمام مجلس النواب عن كل أمر يتقرر بمجلس النظار ويترتب عليه اخلال بالقوانين واللوائح المرعية الاجراء .

المادة ٢٢ ـ كل من النظار مسئول على الوجه المذكور بالبند السابق عن اجرآته المتعلقة بوظيفته .

المادة ٢٣ ـ اذا حصل خلاف بين مجلس النواب ومجلس النظار وأصر كل على رأيه بعد تكرار المخابرة وبيان الاسباب ولم تستعفِ النظارة فللحضرة الخديوية ان تأمر بفض مجلس النواب وتجديد الانتخاب على شرط ان لا تتجاوز الفترة ثلاثة

أشهر من تاريخ يوم الانفضاض الي يوم الاجتماع ويجوز لارباب الانتخاب ان ينتخبوا نفس النواب السالفين أو بعضهم .

المادة ٢٤ ـ اذا صدق المجلس الثاني علي رأي المجلس الأول الذي ترتب الخلاف عليه ينفذ الرأي المذكور قطعيا .

المادة ٢٥ — مشروعات اللوائح والقوانين تعمل بمعرفة الحكومة ويقدمها النظار لمجلس النواب لنظرها والبحث فيها واعطاء القرار اللازم عنها ولا يكون المشروع قانونا معتبرا دستورا للعمل مالم يتل في مجلس النواب بندا فبندا ويقرر حكما فحكما ثم يجرى التصديق عليه من طرف الحضرة الخديوية وكل قانون يتلى ثلاث مرات بين كل مرة وأخرى خمسة عشر يوما واذا كان القانون مستعجلا فيكفى تلاوته مرة واحدة ويستغنى عن المرتين الاخريين بمقتضى قرار مخصوص يصدر من المجلس واذا تراءي لمجلس النواب سن قانون فيطلب ذلك بواسطة رئيسه من مجلس النظار ومتى وافقت عليه الحكومة فتعمل مشروعه وتقدمه لمجلس النواب على الوجه المبين بهذا

المادة ٢٦ — مشروع كل لائحة أو قانون يعرض على المجلس ينظر فية بمعرفة لجنة من أعضائه تنتخب لذلك ويجوز للجنة المذكورة أن تطلب من الحكومه اجراء بعض تغييرات فى المشروع الذي تكلفت بنظره وفى هذه الحالة يرسل رئيس مجلس النواب الى رئيس مجلس النظار المشروع والتغييرات المطلوب اجراؤها فيه قبل المذاكرة العمومية بمجلس النواب .

المادة ٢٧ — ان لم تطلب اللجنة اجراء تغييرات فى المشروع المحال عليها أو طلبت ولم توافقها الحكومة على ذلك فيقدم النص الاصلى من مشروع القانون لمجلس النواب المداولة فيه اما اذا صدقت الحكومة على تلك التغييرات فيقدم للمجلس النص الاصلى مع التغييرات التى حصلت فيه. للمناقشة فيها وفى حالة ماذا كانت التغييرات قدصار قبولها من الحكومة فللجنه أن تبين رأيها للمجلس وتقدم له ملحوظاتها

المادة ٢٨ — عند تقديم المشروع للمجلس من طرف اللجنة يجوز للمجلس قبوله أو رفضه ويسوغ له أيضا احالته ثانية علي اللجنة للنظر فيه

المادة ٢٩ — على رئيس مجلس النواب أن يرسل الى رئيس مجلس النظار اللوائح والقوانين التي يصدق المجلس عليها .

المادة ٣٠ — لايجوز ربط أموال جديدة أو رسوم أو عوائد على منقولات أو عقارات أو ويركو في الحكومة المصرية الا بمقتضى قانون يصدق عليه من مجلس النواب وعلى ذلك لايجوز بأى وجه كان وبأية صفة كانت تحصيل عوائد جديدة وكل جهة من جهات الحكومة أمرت بتحصيل شيء من ذلك وكل مستخدم حرر كشوفات أو تعريفات عنها وكل شخص باشر تحصيلها بدون قانون مصدق عليه من مجلس النواب يحاكم كمختلس وترد الحقوق لاربابها .

المادة ٣١ — ميزانية مصروفات وايرادات الحكومة السنوية تقدم لمجلس النواب سنويا لغاية الخامس من شهر نوفمبر بالا كثر .

المادة ٣٢ — تقدم للمجلس ميزانية عموم الايرادات مع كشوفات عن كل نوع من أنواعها

المادة ٣٣ — تنقسم ميزانية المصروفات الى أقسام متعددة يختص كل قسم منها بنظارة ثم يشتمل كل قسم على أبواب وفصول بقدر عدد جهات الادارة العمومية بتلك النظارة .

المادة ٣٤ ـ لايجوز للمجلس أن ينظر في دفعيات الويركو المقرر للاستانة أو الدين العمومي أو فيما التزمت به الحكومة في أمر الدين بناء على لائحة التصفية أو المعاهدات التى حصلت بينها وبين الحكومات الاجنبية .

المادة ٣٥ ـ ترسل الميزانية الى مجلس النواب فينظرها ويبحث فيها (بمراعاة البند السابق) ويعين لها لجنة من أعضائه مساوية بالعدد والرأى لاعضاء مجلس النظار ورئيسه لينظروا جميعا فى الميزانية ويقرروا بالاتفاق أو بالا كثرية .

المادة ٣٦ ـ اذا وقع الخلاف بين لجنة النواب ومجلس النظار وتساوى العدد فيه فالميزانية تعود الى مجلس النواب فان أيد رأى مجلس النظار وجب تنفيذه وان أثبت رأي لجنته فيكون العمل بمقتضى المادة ٢٣ و ٢٤ من هذه اللائحة وأما ماحصل فيه الخلاف من الميزانية فاذا كان مقررا في ميزانية السنة السابقة ولم يكن مخصوصا

لاعمال جديدة مثل أشغال عمومية وغيرها فينفذ موقتا الى أن يعقد المجلس الثاني بمقتضى المادة ٢٣ .

المادة ٣٧ — اذا أيد المجلس الثاني رأي المجلس الاول فى أمر الميزانيةوجب تنفيذ الرأي المذكور قطعيا كما فى المادة٢٣

المادة ٣٨ — كل عهد أو شرط أو التزام يراد عقده بين الحكومة وغيرها لا يكون نهائيًا الا بعد الاقرار عليه من مجلس النواب مالم يكن على أمر مبلغه وارد فى ميزانية عامة مقررة بهذا المجلس وأية مقاولة عن أشغال عمومية خارجة عن الميزانية أو مبيع شيء من أملاك الحكومة أو اعطاء أرض بدون مقابل أو امتياز لاحد لا تكون نهائية الا بعد الاقرار عليها من مجلس النواب أيضا .

المادة ٣٩ — يجوز لكل مصرى أن يقدم للمجلس عريضة ويحال النظر في هذه العريضة على لجنة ينتخبها المجلس وبناء على مايجاب منها يحكم المجلس بقبول أو رفض العريضة وما يحكم بقبوله يحال على الناظر المختص به ذلك .

المادة ٤٠ — كل عرض يختص بحقوق أو صوالح شخصية يرفض متى كان من خصائص المحاكم المدنيـة والادارية وكان لم يسبق تقديمه لجهة الادارة المختصة به .

المادة ٤١ — اذا طرأت ضرورة مهمة تستلزم المبادرة الى الاخذ باسباب الاحتياط لوقاية الحكومة من خطر أو المحافظة على الأمن العمومى وكان مجلس النواب غير منعقد وكانت الاحتياطات المرغوب اتخاذها داخلة بخصائصه ولم يسع الوقت اجتماعه جاز لمجلس النظار اجراء مايلزم اجراؤه على مسؤوليته مع التصديق على ذلك من الحضرة الخديوية ولدى انعقاد مجلس النواب يقدم الأمر اليـه ليرى رأيه فيه

المادة ٤٢ — لايجوز لاى شخص أن يعرض لمجلس النواب مسألة ما أو يتناقش فيها أو يشترك فى المداولة الا ان كان من اعضائه أو من النظار أو ممن كان حاضرا معهم أو نائبا عنهم .

المادة ٤٣ — يكون اعطاء الآراء في المجلس بواسطة رفع اليد أو النداء بالاسم أو وضع الاوراق فى صندوق

المادة ٤٤ — لايجوز اعطاء الآراء بالنداء بالاسم الا اذا طلب ذلك عشرة من أعضاء المجلس بالاقل وعلى كل حال فالرأي فيما نص عليه بالمادة السابعة والاربعين يكون دائما بالنداء بالاسم .

المادة ٤٥ — انتخاب الثلاثة الاعضاء الذين يعين منهم رئيس المجلس وكذا انتخاب الوكيلين والكاتب الاول والثاني يكون دائما بوضع الآراء في صندوق .

المادة ٤٦ — لاتكون المداولة بالمجلس صحيحة الا اذا كان حاضرا فيه ثلثا أعضائه بالاقل والا كانت المداولة لاغية ويكون صدور القرارات بالاغلبية المطلقة.

المادة ٤٧ ـ كل قرار يترتب عليه مسئولية النظار لايجوز صدوره الا بالاغلبية المتوفرة فيها ثلاثة أرباع النواب الحاضرين بالجلسة .

المادة ٤٨ ـ لايسوغ لاحد من النواب أن يستنيب عنه غيره لابداء رأيه

المادة ٤٩ ـ على مجلس النواب ان يحرر لائحة اجراءاته الداخلية وتكون تلك اللائحة نافذة الحكم بمقتضى أمر يصدر من الحضرة الخديوية

المادة ٥٠ ـ للمجلس الحق أن يعدل هذه اللائحة الاساسية بالاتفاق مع مجلس النظار

المادة ٥١ — اذا أغمض معنى بند أو عبارة من هذه اللائحة فيكون تفسيره باتحاد مجلس النواب مع مجلس النظار .

المادة ٥٢ — كل احكام القوانين والاوامر واللوائح والقرارات المخالفة لهذه اللائحة لايعمل بها بل تكون لاغية .

المادة ٥٣ — على نظارنا تنفيذ هذه اللائحة كل فيما يخصه .

صدر بسراى الاسمعيلية فى ١٨ ربيع الاول سنة ١٢٩٩ و ٧ فبراير سنة ١٨٨٢

الملحق السابع

مكاتبات عرابي مع الكونت فرديناند دي لسبس

فى أثناء الحرب

لاسيناد (الهند) فى ٢١ اكتوبر سنة١٨٨٢

— الى المسيو بلنت

سيدى العزيز

أسارع الى الرد على خطابك المؤرخ في ١٧ . لما تقابلنا معا في بداية هذه السنة في مصر حيث كان عرابي وزيرا للحربية ذهبت لازوره مرة فى ديوانه وفى أثناء زيارتي اياه كان يحيطه كبراء القاهرة بالاحترام وكان في حوش قصر النيل الواسع جمع كبير من الفلاحين وكانت الغرفة السابقة لغرفته مملوءة بالناس ومن ذلك ظهرلى أنه محل تقدير الرأى العام وفى المساء نفسه رأيته بالمسرح بجوق الخديو الى جانب سموه

وقد قال لى فى المحادثة التى جرت بيني وبينه هذه الكلمات بنصها :

« انى أعرف بامسيو دى لسبس انك كنت طول حياتك رجل تقدم وحرية ولست أرغب غير ذلك لبلادى » .

ورأيته بعد ذلك مع الوزراء الآخرين فى وليمة أقيمت « فى نيو أوتيل» لمناسبة الذكرى السنوية لاستقلال امريكا وقد اشترك في شرب نخبة الخديو . وبعد ذلك عدت الى فرنسا ولم أعد الى مصر الا بعد ضرب الاسكندرية ولم تكن بينى وبين عرابي باشا منذ ذلك الى نزول الجيوش الانجليزية فى الاسماعيلية سوى العلاقات الموضحة في مكاتباته دون ان نتقابل ولا مرة واحدة .

وهذه المكاتبات العربية التى أرسلت أصولها الى رئيس المجلس الحربي المنعقد

بالقاهرة ، لم يكن لها غرض سوى وقاية القناة البحرية التي كان عرابي دائما مخلصا فى وقايتها وسوى حماية أرواح وأملاك الرعايا الاوروبيين المقيمين فى مصر .

وأرسل اليك الترجمة الفرنسية لتلك الوثائق وهى تشرف موكلك الذى توليت الدفاع عنه فى كرم نفس .

ويبدو لى من الصعب ان قائداً لاحد الجيوش يمكن ان يعرض لعقوبة الاعدام بعد ان سلم سيفه لقائد انجليزى منتصر .

وتقبل يا سيدى تأكيد احترامي الفائق الكونت فرديناند دى لسبس

المرفقات

بورسعيد فى ٢٧ يوليو سنة ١٨٨٢ (وصل من المعسكر)

الى المسيو دى لسبس ببور سعيد

أشكر سعادتك على الجهود النبيلة التى تفضلت ببذلها لاجل منع الجيوش التابعة لسفن الدول من النزول في بورسعيد وكذلك على التشجيع الذى منحته اسكان هذه المدينة والى الاوربيين لحضهم علي البقاء . وهذا منتهى ما يمكن أن أؤمله .

وتقبلوا أصدق الاحترام لشخصكم الكريم .

وزير الحربية والبحرية

الاسماعيلية فى الصباح وصل الساعة ١٢٫٤٥ يوم اول أغسطس سنة ١٨٨٢ آتيا من كفر الدوار

صاحب السعادة صديقى المكرم المسيو دى لسبس بالاسماعيلية

استلمت رسالتك المحررة بالفرنسية وبناء على ما جاء فيها كتبنا الى مدير بوليس القاهرة لكي يتخذ الاجراءات اللازمة لضمان طمأنينة الاوروبيين الموجودين فى المستشفى الاوربي بالعباسية بالقاهرة ولكي تترك لهم الحرية الكاملة فى البقاء او الرحيل . وكتبنا أيضا الى مدير الشرقية ليضاعف عنايته بالاوروبيين الذين فى الرقادية ويضمن لهم الوقاية الكاملة وانا سعيد بتوطيد علاقات المودة بيننا

وزير الحربية والبحرية بالمعسكر

الاسماعيلية فى ٤ (؟) اغطس سنة ١٨٨٢

الى المسيو فرديناند دى لسبس بالاسماعيلية

أتشرف بان أخبر سعادتك بان قومندان السفن الانجليزية بالاسماعيلية أرسل الى قائد قوات هذه المدينة منشورات فى النية الصاقها على الحيطان وقد علم بهذا الامر اعضاء المجلس العام الموكل اليه أعمال الحكومة فاتخذ هذا القرار الآتي وأرسلت صورة منه الى قائد قوات الاسماعيلية:

قرر المجلس المجتمع اليوم بقصر النيل بان المنشورات التى أرسلت اليك من جانب قومندان السفن الانجليزية لالصاقها على الحيطان في المدينة ، والتي تنص على ان الاهالى يجب عليهم ان يمكثوا فى بيوتهم ويعطوا أسماءهم ليست لها أية صفة الزامية لان اصدار المنشورات التي من هذا القبيل من حقوق السلطات المحلية وحدها ولا قيمة لها اذا أتت من سلطة أخرى.

ونحن ننقل الى سعادتك هذا الخبر بناء على أمر المجلس واذ أني احترم حيدة القناة بغاية الدقة خصوصاً وانها أظهر عمل يسجل اسم سعادتك فى التاريخ أتشرف بابلاغ سعادتك ان الحكومة المصرية لن تخرق حيدة القناة الا عند الضرورة القصوى وفى حالة قيام الانجليز بعمل عدائى ضد الاسماعيلية او بورسعيد او نقطة أخرى واقعة على القناة وستضطر السلطات المحلية الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمنع كل عمل عدائي ولكنها لن تكون مسؤولة عن النتائج التى تنجم فيما بعد كما تدركه سعادتك . وانا واثق ان سعادتك ستتخذ أحسن الوسائل لهذه الغاية من قبل ان يلجأ القوم الى شيء من ذلك.

وتفضل بقبول وافر الاحترام

وزير الحربية والبحرية بكفر الدوار

الساعة ٧ والدقيقة ٤٥ (بدون تاريخ)

الى المسيو دى لسبس بالاسماعيلية

علمت من تلغراف وارد الىّ من قائد الجيوش بنفيشة بحضورك مع حرمك وزوج ابنتك الى المكان الذى عسكرت به الجيوش وأشكرك لحضورك الى هـذا المكان للثقة والامان اللذين يبعثهما ذلك بالنسبة للاسماعيلية والقناة كلها ولعل سعادتك تعلم حق العلم ان كل ما ننشده ونريده هو الامان والاعمال الطيبة . وستساعد على ذلك من جانبك بعون الله تعالى وتفضل بقبول وافر الاحترام

قائد الجناح الشرقي بالتل

الاسماعيلية الساعة ٤ والدقيقة ١٥ مساء (بدون تاريخ)

الى المسيو فرديناند دى لسبس بالاسماعيلية

أرسل اليك صورة من التلغراف الذى استلمناه من رئيس اركان الحرب للجناح الشرقي بالتـل الكبير والذى يبرهن لسعادتك على ان الانجليز لا يحترمون حيدة القناة

من يعقوب باشا ياور وزير الحربية بقصر النيل

من رئيس أركان الحرب للجناح الشرقي الى سعادة ياور وزير الحربية بالقاهرة: نخبر سعادتكم انه فى يوم الاربعاء الموافق اول شوال سنة ١٢٩٩ غادرنا التل لنفتش على جميع النقط التى توجد بها أعمال عدائيـة . ولمـا وصلنا الى جناح الشالوفة علمنا أخباراً جاء بها المستكشفون وقد تأكدنا من صدق هـذه الاخبار اذ وجدنا ان فرقة اسـتطلاع كانت تمر على الشاطىء الشرقي لقناة المياه الحلوة فابصرت بالقرب من جهة القشرة بعضاً من جنود الاعداء ولمـا اقتربت جنودنا أطلق العـدو النار ولكنهم قابلوه بشجاعة ففرت فرقة الاعـداء الى بركة القارب وقد أسرها رجالنا وقادوها الى جناح الشالوف ووجدوا بها ١٣٣ من دواب الحمل .

وقد حصل ذلك فى اليوم المذكور ومنذ ذلك لم يظهر العـدو وأخبار المعسكر الشرقي حسنة ولم يعرف عدد الجرحى من الاعداء واما من جهتنا فلم يمس أحد . ووجدنا من اللازم ان نخبر بهذه الواقعة التى استمرت نحو عشر دقائق .

(بدون امضاء)

فى ٢٠ اغسطس سنة١٨٨٢ بعد الظهر

من وزير الحربية والبحرية بكفر الدوار الى صاحب السعادة المسيو دى لسبس بالاسماعيلية

علمنا من تلغراف أرسـله قائد الجناح الشرقي ان الانجليز أطلقوا المدافع من بوارجهم على جيوشنا التى بجهة الاسماعيلية وهذا العمل العدائى من جانب الانجليز انتهاك لحومة القناة ونقض لحيدتها . ومصر مستعدة لان تزيل القناة من الوجود لكي تدفع الاعمال الحربية التي يقوم بها الانجليز هنالك فما هو رأى سعادتك ؟ نؤمل ان يصل إلينا جوابك فى مدة ٢٤ ساعة . لقد بذلت أكبر الجهود ونحن من جانبنا قد احترمنا حيدة القناة حتى اللحظة التي ارتكب فيها الانجليز هذا العدوان مخالفين جهودك واحترامنا للحيدة .

الاسماعيلية فى ١٥ اغسطس سـنة ١٨٨٢ مساء وارداً من المعسكر الى المسيو فرديناند دى لسبس

علمنا ان الانجليز يعملون الآن لاقامة حصون بجانب السويس والقناة وان آلات الحرب والمدافع الخ تمر بالقناة باذن من الشركة . وتشييد هذه الحصون ينقض مبدأ الاحترام الواجب للقناة ووجود سعادتك لا بد منه لتتخذ الاجراءات اللازمة لمنع هذه الاعمال واحترام حيدة القناة التى لم أمسها من جهتى قط حتى اليوم.

وزير الحربية والبحرية بكفر الدوار

الاسماعيلية فى ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٢

الى المسيو دي لسبس بالاسماعيلية

علمنا الآن من تلغراف ان القناة مهددة مع استعمال القوة ضد شخصك وان التلغراف الفرنسى الخاص بالقناة قطع عند السويس وانه منع مرور سفن الدول عند بورسعيد والسويس

واذا كانت الامور هكذا فما هى الاحتياطات التى ستتخذها ؟

وزير الحربية والبحرية بكفر الدوار

الى المسيو دى لسبس بالاسماعيلية

(ملحق بالتلغراف نمرة ٧١٧)

اذا كانت الامور هكذا فما هى الاحتياطات التى ستتخذها للدفاع عن حيدة القناة؟

وزير الحربية والبحرية

يوم الاربعاء اول شوال سنة ١٢٩٩ قابلت جنود الاستطلاع التابعة لنا الجنود الانجليز عند قناة المياه الحلوة وحدثت بين الفريقين موقعة وهذا مايضطرنا الى ردم هذه القناة مع احترام القناة الكبرى فأعلنت بذلك الوزير

اقرار نينيه الذى أقسم عليه

بشأن الحوادث التى وقعت أثناء الحرب

جون نينيه الذي كان فى الاسكندرية والذى يقيم الآن في لندن يقول ما يأتى مقسما على صحته :

لى من العمر خمس وستون سنة وأنا سويسرى الاصل وقد عشت في مصر مدة اثنتين وأربعين سنة قبل شهر أكتوبر سنة ١٨٨٢ وقد ذهبت الى مصر لاول مرة بصفة مدير زراعة القطن الخاصة بمحمد على وصرت بعد ذلك تاجراً . ولكني اعتزلت التجارة منذ عشرين سنة . وفى أثناء اقامتى بمصر وقفت على أحوال الامة وعاداتها وصار لى كثير من الاصدقاء الخصوصيين ومنهم عرابي بك الذى صار فيما بعد عرابي باشا .

وكنت مقيما في الاسكندرية قبل أن يضربها الاسطول البريطاني وفى اليوم الذى ضربها فيه وفي صباح هذا اليوم رأيت عدداً من القنابل تمر فوق بيتى وقد رميت بعض القنابل الكبرى وعليها اسم « الاسكندرية » فى المنزل المجاور لمنزلى . وثالثة القنابل التى مرت فوق بيتى قتلت احد عشر شخصاً وجوادين بالقرب من باب محرم بك وقد أحرقت قنابل السفن بيوتا ومبانى ودمرتها فى جميع الجهات . وفي صباح اليوم التالى استأنفت البوارج الضرب فاجابها حصن أو حصنان فى ضعف . ورفع علم أبيض فوق الترسانة وأرسل طلبه باشا الى القومندان البريطاني ليسأله لماذا أعيد الضرب مع أن الحصون سكتت .

وكان جواب الاميرال لطلبه باشا كما قرره هذا لآخرين بحضورى بانه لوحظ أن بعض الحصون أصلحت فى أثناء الليل وانه بسبب اطالة الدفاع فى اليوم السابق قرر الاميرال اطلاق النيران على جميع الحصون بما فيها حصن كوم الدكة (دمشق) وحصن كوم الناضورة (نابليون) الا اذا سلمت له جميع الحصون والقشلاقات . فأوضح له طلبه باشا انه لم يخول له تسليم أى حصن أو قشلاق له دون موافقة وزارة

الخديو وانه من القسوة أن يضرب حصنا كوم الدكة وكوم الناضورة بعد أن قرر عرابي باشا عدم استعمالها وعدم الدفاع عنها لوقوعها داخل المدينة ولان الطلقات منها قد تسبب دمار المدينـة . فكان الجواب أن البريطانيين لايمكنهم أن يراعوا ذلك وانه اذا لم تسلم جميع الحصون والقشلاقات لغاية الساعة الثالثة فسيعاودالانجليز الضرب ويدمروها فبين طلبه باشا انه لايمكنه أن يتخابر مع الخديو ومجلسه بالرمل ويأتيه الجواب في الوقت المناسب وذهب طلبه باشا ولكنه عاد ليسأل عما يفعله البريطانيون اذا لم يسلم الحصون والقشلاقات ولم يبق فيها جنود ليدافعوا عنها فكان الجواب : « سنضربها جميعا وندمرها الا اذا سلمت لغاية الساعة الثالثة » . فذهب طلبه الي الرمل وبقي العلم الابيض نفسه يخفق فوق الترسانة لحين عودته ولم يكن يرى أى علم أبيض آخر وقد ساد الخوف والذعر الاهالى حين علموا أن ضرب المدينة سيغود عند الساعة الثالثة وحدثت مهاجرة عامة من جانب الاهالى والجيش وفي الساعة الثامنة كنت في ميدان القناصل وكان مكتظا بالجنود وبكثير من الضباط الممتازين وكانوا سائرين فى اتجاه باب رشيد وكان سليمان بك سامى — وهوضابط أعرفه — يقود الجنود الى باب رشيد بقصد اخلاء مدينة الاسكندرية لانه أمر بتدمير جميع الحصون وضرب القشلاقات بالقنابل فى الساعة الثالثة .

وكان آلاف من الاهالى البائسين يغادرون المدينة حاملين أمتعتهم التى أمكنهم نقلها وكانت جثث الجنود القتلى تنقل بعيدا وقد صاح الجمهور حين رآني قائلا : « اقتلوا هذا الكلب الانجليزى . اقتلوا النصراني » ولحسن الحظ أتت في ذلك الوقت فرقة من الجنود المشاة فانضممت اليها وحمتني وبذلك نجوت . وفى الساعة الثالثة تقريبا رأيت عرابي باشا وكان يغادر المدينة مع الاورطتين الاولين متجهين الى القناة وأرشدني الى الانضمام للاطباء والصليب الاحمر واتباعهم . وقبل ان استطيع الانضمام الى الاطباء سمعت زئير المدافع من السفن واستمر الضرب نصف ساعة تقريبا ولكنه انقطع لان الحصون لم تجب

وكان البدو من قبيلة أولاد على قد دخلوا المدينـة من القبارى او باب عمود الصوارى فشرعوا ينهبون الحوانيت وقد رأيت كثيرين منهم قبض عليهم وجلدوا

بامر سليمان بك سامى اذ حاولوا ان يغادروا المدينة حاملين أسلابهم . وكان عرابي باشا قد أمر قبل تحركه باغلاق باب المدينة لمنع البدو من دخولها او من مغادرتها باسلابهم وأمرت فرقتان من الرديف بالبقاء فى المدينة لتحرسا الشوارع الرئيسية وتحفظا الأمن والنظام ولكن الامر باغلاق باب المدينة كان سدى لان جميع الجنود بذلوا كل مافى استطاعتهم ليخرجوا من المكان وكان طلبه باشا بعد الظهر فى الرمل يتباحث مع الخديو وكنت طول هذا الوقت فى قاعة الطعام الخاصة بالضباط بالقرب من باب رشيد وكان هناك كثير من الباشوات ومن بينهم محمود سامي البارودى ومحمود فهمي وقد غادرت المدينة معهم ومع عدد من الاطباء والضباط عن طريق باب رشيد لكي نلحق بالجيش. ونمت الليلة في بعض القصور بالضواحي وبعد ان تركت المدينة قذفت الريح فى أثناء الليل بدخان أزرق من المدينة واتضح من ذلك ان النيران شبت في أمكنة مختلفة منها . ولم يكن في المدينة حريق حين غادرناها ولم يشعل الجنود النار فيها بل بذلوا أكبر جهدهم لمنع امتداد الحرائق التى سببتها مدافع الاسطول ولمنع العرب وغيرهم من السلب ومن المحتمل ان بعض جنود الفرقتين اللتين تركتا لحفظ الامن والنظام انضموا الى البدو فى نهب المكان ولكن هذا كان مخالفا تماما لاوامر عرابى باشا والضباط الآخرين .

ويمكننى ان أقول مؤكداً ان عرابى باشا أو أي ضابط من الضباط الآخرين ما كان يفكر في ان مدينة الاسكندرية قد تشعل فيها النيران بأيدي العرب او غيرهم وأنا أعرف أن عرابي باشا وجميع الضباط الآخرين حزنوا ودهشوا اذ رأوا المدينة تحترق بعد ان تركوها وأبدوا جميعاً أملهم في ان ذو الفقار باشا محافظ الاسكندرية وصديق الخديو الحميم سيؤدى كل جهد مستطاع مع رجال المطافي لاخماد تلك النيران وحفظ الأمن . وأنا أقول فى وضوح ان العلم الابيض الوحيد الذى رفع هو العلم الذى كان فوق الترسانة حين ذهب طلبه باشا الى الاميرال ولم ينزله طلبه باشا اذ ذهب الى الرمل مؤملا ان يعود بجواب وزارة الخديو ولكن طلبه حجزه الخديو ووزاته بالرمل مع درويش باشا حتى الساعة الخامسة تقريباً ولما عاد الى المدينة كان الجيش قد أخلاها فكان من المحال حينئذ انزال العلم . وفى فجر اليوم التالى مشينا

مدة ثلاث ساعات على شاطىء قناة المحمودية ثم ركبنا «لنشاً» بخاريا مع عرابى باشا متجهين نحو كفر الدوار . ووقف بنا عند مكان يسمى عزبة خورشيد باشا حيث عسكر قسم من الجيش وبينما كنا هناك مر قطار به عربات حديدية فى طريقه الى الاسكندرية وقال عرابي باشا ان هذا القطار طلب وأمر بارساله ليقل الخديو وأسرته الى القاهرة وبعد ان ارتقبنا عودة القطار مدة ساعتين جاء تلغراف يقول ان الخديو أبدل رأيه ولن يغادر الاسكندرية وقد مكث عرابي باشا تلك الليلة في اللنش البخارى وبينما كان هناك أتت الانباء عن مذابح وقعت فى دمنهور وطنطا فأرسل عرابي فى الحال ثلاث فرق من الجنود مع أوامر دقيقة لمديرى تلك الامكنة بأن يرسلوا جميع الاوربيين دون أجر الى الاسماعيلية وبورسعيد وبان يحموهم والا حكم عليهم بالاعدام. وبينما كنت مع عرابي باشا جاء نبأ يقول ان احمد بك المنشاوى أحد سراة طنطا خاطر بحياته وأنقذ خمسمائة من الاوربيين المسيحيين واليهود فارسل عرابى خطاباً خاصاً الى احمد المنشاوى شكره فيه لحماية الاوربيين . وأصدر عرابى أمراً ضمن الاوامر اليومية بأن جميع الاجانب أيا كانوا يجب ان يعاملوا بالانسانية فى كل مكان وان تحميهم السلطات المدنية والعسكرية ومن يقصر فى ذلك يحكم عليه بالاعدام . وقضى عرابي بنقل هذا الامر الى جميع انحاء القطر ونشره بين أفراد الجيش وأرسل أيضاً الى القاهرة مع تعليمات حازمة خاصة الى « الضابط » او مدير بوليس العاصمة ليعنى بتنفيذه . وان نجاة الاوربيين في القاهرة وغيرها ليرجع فضله كله الى عرابى وأنا أعرف ان عرابي أمر برمي ستة وثلاثين من البدو بالرصاص لانهم قتلوا أوربيين ونهبوا أملاكهم وكذلك أمر بشنق عدد من الاهالي فى دمنهور وطنطا لانهم كانوا السبب فى مذابح الاوربيين وأرسل الاشياء المنهوبة التى أخذها من الناهبين الى القاهرة واذكر ان دى شير أخذ أسيراً فعنى به وعومل بالشفقة وقد اعتنيت بشأنه بارشاد عرابي

وكنت مع عرابى حين تسلم خطاب الخديو الذى رغب فيه اليه ان يذهب الى الاسكندرية فأجاب عرابي على هذا الخطاب باخبار الخديو انه ، أى عرابي ، في كفر الدوار ليؤدى العمل الذى أمر به مجلس النظار الذى انعقد بالاسكندرية والذى

حضره الخديو ودرويش باشا وانه عازم على العمل وفق هـذا الامر وعلى تنفيـذه بامانة . وكنت أيضاً مع عرابي حين وصـل الخطاب الثاني من الخديو وفيـه يفصل عرابي من منصب وزير الحربية اعتباراً من يوم ٥ رمضان ويعلن أنه معتـبر عاصياً. وقد اجتمع المجلس على أثر ذلك فى القاهرة ولم يحضره عرابي ولكن حضره أكثر من ستمائة من الاعيان أتوا خصيصا لهذا الغرض من أنحاء القطر ، وقرر هذا المجلس ان عرابي لايمكن اعتباره عاصيا الا بأمر السلطان وان الخديو ليست له هذه السلطة. وقرر أيضا مواصلة الدفاع الوطني وفقا لقرار مجلس النظار الذي اجتمع بالاسكندرية بحضور الخديو ودرويش باشا والذي عهد الى عرابى باشا بالدفاع عن الوطن .

وبعد عشرة أيام أي حوالي العشرين من رمضان والخامس من أغسطس عقد مجلس آخر حين تقرر ان تقطع قناة السويس فى أربعة أمكنة هى راس العش والقنطرة وسسنيل وشالوف. وكان عرابى ومحمود فهمي باشا هما المعارضان لاقتراح قطع القناة وحثا على ان لايفعل ذلك الا اذا أتى الجيش البريطاني عملا عدائيا من ذلك الجانب وقد أعد كل شيء من الرجال والاجهزة لتدمير القناة فى ليـلة واحدة بأمر المجلس ولكن اذا بتلغراف يأتي من دى لسبس فى مساء الثانى والعشرين من أغسطس وعلى ذلك سحب الديناميت بناء على أوامر عرابي وصار على العالم ان يحمد لعرابي انقاذه قناة السويس .

وكلما طلب أحد من عرابي ان يحمي الاوربيين منحهـم كل مساعدة لحمايتهم وتأمينهم. وأنا أعرف انه منح الاوربيين حمايته بناء على طلب دى لسبس والقنصل الفرنسي وقنصل اليونان بالزقازيق وغيرهم وقد صرح هؤلاء القناصل علنا بأنهـم لايغادرون هذه البلاد التى عاشوا فيها طويلا ما داموا لا يخافون شيئا بفضل رجل متنور كعرابى باشا . وكان تحت رياسته ضباط لعلهم كانوا يعاملون الاوربيين معاملة سيئة لولا أن عرابي عارضهم وضمن قدر استطاعته الحرية والوقاية للجميع . وأتذكر جيداً انه قيل ان برقيات كاذبة أرسلت بشركة التلغرافات الشرقية الى أوربا وأنها أحدثت ضرراً بالغا ولذلك كان فى العزم ان يرسل ضابط الى مكتب التلغراف ليمنع

ارسال البرقيات الجفرية ولكن عرابي رفض ان يؤيد أي تدخل قائلا ان طائفة التجار تتهمه فى هذه الحالة بأنه يضر بمصالح التجارة .

وكانت الخطوات التى اتخذها عرابي للدفاع عن بلاده عند الاسكندرية وكفر الدوار والتل الكبير وغيرها بناء على أمر مجلس النظار الذى عقد في الاسكندرية تحت رياسة الخديو نفسه وحضره درويش باشا وغيره من رسل السلطان وهذا الامر لم ينقض قط . ولما اتخذ عرابي موقفه وانشأ خط الدفاع عند كفر الدوار كان يعمل وفق أمر مجلس النواب وكان الشعب المصرى يؤيده ويعطف عليه . وكان الاعيان والتجار ورجال السلطات المدنية والدينية يأتون من أنحاء البلاد الى كفر الدوار يوماً بعد يوم وأسبوعا بعد أسبوع ليهنئوا عرابي ويشكروه على وطنيته ويفوضوا اليه أمر الدفاع عن الوطن وكانوا كلهم يأخذون حفنا من التراب فى أيديهم ثم يرمون بها فوق الخنادق دلالة على اشتراكهم فى العمل .

وقد رأيت بين هؤلاء الاعيان الذين زاروا المعسكر وشكروا عرابى فى كفر الدوار: فخرى باشا واحمد نشأت باشا مدير الدائرة وجميع اعضاء المحكمة الاهلية والقضاة الوطنيين ووكيل النائب العمومي بالمحاكم المختلطة وعثمان فوزي باشا ورؤوف باشا وعرفى باشا ومبارك والعلماء ومفتى الاستانة وكثيراً من المقربين الممتازين وكثيراً من الرؤساء وأساتذة الازهر وعددا من افراد أسرة رياض باشا والدرملي باشا وحسن العقاد وكثيراً من العمد وأصحاب الاملاك وعلى الخصوص احمد بك المنشاوى الذى أشرت اليه آنفا. وقد اكتتب الجميع بمبالغ لتغطية نفقات حرب الدفاع ودفع البعض مبالغ هائلة وأعرف منهم قليلين دفع كل منهم عشرة آلاف جنيه . وكانت الاموال كلها ترسل الى القاهرة ولا يأتي منها شيء الى المعسكر وانما كان يرد اليه مقادير من الغذاء والقمح والفاكهة وكان كبار الزائرين يقبلون عرابي ويعانقوه . وقد قال له مفتى القاهرة الهرم : « نحن ممثلي أكثر من خمسين ألف من الاعيان ومشايخ البلاد وأصحاب الاملاك الخ نشكرك جميعا لانك توليت بيدك أمر الاسلام والامة وأنك في الحقيقة أكبر وطنى فى وادى النيل » فقال له عرابى ضمن رده : « اننا لا نريد شيئا سوى العدل الشامل وضمان حياتنا وأشخاصنا واملاكنا وحقوقنا.

نريد برلمانا مستقلا ينتخب على أساس الحرية ووزارة مسؤولة وخديويا يملك ولا يحكم.
نريد الاقتصاد الدقيق فى الادارة دون مراقبة سياسية ودون موظفين أجانب على رأس الوزارة ينالون مرتبات ضخمة . نريد مصر للمصريين مع الحرية والسلامة لكل الاجانب اذا خضعوا مثلنا للضرائب والرسوم »

وأقول دون تردد ان عرابى لم ينقل قط السلب والمذابح الى أرض مصر وان الامة المصرية وأعيانها هم الذين عهدوا اليه بالدفاع عن البلاد، ولم يكن عرابي السبب فى أن ينهب أو يذبح أي مصري أو أجنبي بل انه على العكس عمل كل مافي وسعه ليحمي حياة وأملاك المصريين والاجانب على السواء وليعاقب جميع الذين ارتكبوا جرائم النهب والمذابح .

وقد كنت مع عرابي من اليوم الذي غادر فيه الاسكندرية الى الرابع والعشرين من أغسطس اذ سافر ليلحق بالجيش المرابط بالقرب من الاسماعيلية . وقد لحقت بعرابي بالقاهرة فى صباح اليوم التالى للموقعة وعقد اجتماع فى بيت عرابي بالقاهرة يوم الخميس للبحث فى مسألة تسليم القاهرة ففازت فكرة عرابي التى ترمي الى تسليم القاهرة دون دفاع وجاء نبأ بان الجنود الانجليزية وصلوا الى العباسية فسألنى عرابي وطلبه رأيي فيما يجب ان يفعلاه فنصحت لهما بان يذهبا الى القائد البريطانى ويسلما له سيفيهما باعتبارهما أسيري حرب فيحميهما شرف انجلترا . وقد تركاني بمنزل أولهما وركبا معاً الى العباسية .

جون نينيه

أقسم على ذلك أمامنا فى قاعة بلدية وستمنستر بمقاطعة مدلسكس بانجلترا فى هذا اليوم العاشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٨٢ .

الامضاءات

ويلى ذلك قصيدة طويلة نظمها المستر بلنت فى السياسة وشرفها وفى مصر وانجلترا . ويبلغ عدد أبياتها أربعمائة تقريبا وقد نشرت في انجلترا سنة ١٨٨٣

مقتل اسماعيل صديق باشا

قضت ظروف على قلم الترجمة في « البلاغ » ، حينما كانت الترجمة تنشر متوالية أن يترك تعريب ما كتبه مستر بلنت في كتابه هذا عن مقتل اسماعيل صديق باشا الملقب بالمفتش ، فاكتفى بان يقول في صفحة ٣٤ : وهنا روى المستر بلنت حكاية وفاة اسماعيل باشا المفتش كما سمعها من السير رفرز ولسن» . ولذلك نعود هنا فننشر تعريب ما كتبه في هذا الموضوع وهو :

اذكر جيداً ماقاله لي السير ريفرز ولسن بشأن أكبر مأساة بين الجرائم الكثيرة التي ارتكبها الخديو اسماعيل — وهى قتله اسماعيل صديق المفتش وكان هذا خيانة أثرت أكثر من غيرها فى ولاء جماعة الارقاء والخدم الذين كانوا يحيطون بالخديو ، ولا أقول في ولاء رعاياه المصريين لانه فقده منذ زمن .

ولد اسماعيل صديق فى الجزائر وأتي فى طفولته الي مصر وارتفع بكفاءته فى خدمة الخديو وكانت بداءة صلته بالبلاط في عهد عباس وكان يشغل وظيفة رئيس اسطبلاته على ما أظن . ثم شغل مراكز مختلفة فى عهدي سعيد واسماعيل حتى صار اداة اسماعيل فى ابتزاز آخر قرش لدي الفلاحين . ولكنه رغم قسوته الشديدة على الفلاحين وتفوقه فى ابتكار الوسائل لنهبهم كانت له فى القاهرة شهرة حسنة الي حد ما لانه كان يعتبر عربيا يحفظ فضيلة الكرم وكان سخيّ اليد فى تبديد الثروة التى يجمعها . وشغل فى السنوات القليلة الاخيرة من حياته مركز وزير المالية وقد برهن دائما لاسماعيل على أنه خادم مخلص أمين . ولكن بالرغم من هذا خانه اسماعيل الي حد القتل قبل أن ا كتب هـذا ببضعة أشهر ، وكان ذلك فى ظروف تدعو الى الاشمئزاز حتى أنها أزعجت الامة المصرية رغم اعتيادها وقوع الجرائم في الدوائر العليا . وكان الدافع للخديو على ذلك دافعا أنانياً وهو ستر نفسه بنقل التهمة فى بعض حوادث الغش التى ارتكبها الي وزيره الذى زاد اخلاصه عن الحد ، ثم ضمان سكوته بقتله والتفصيلات التى ذكرها ولسن كما يلى :

كان اسماعيل في علاقاته مع المندوبين الاوربيين الذين كان يدعوهم بين وقت وآخر لفحص شئون المالية ، معتاداً أن يخفي عنهم ما استطاع في الحقيقة في تبذيره غير المعقول فقدم أخيراً بمساعدة وزيره اسماعيل صديق بياناً كاذبا عن ديونه . غير أن الضغط كان شديدا عليه لان بعضهم أومأ الى اللجنة — وأذكر جيداً أنه — رياض باشا — بأن الخديو يخدعها ، فخشي هذا أن تظهر الحقيقة كلها وأن يفضح وزيره بالوقائع اذا ما حققت اللجنة . فعزم على أن يضحى بوزيره ليتخلص منه . وتولى هذه المهمة بنفسه . وكانت بينه وبين وزيره صداقة شخصية متينة فكان معتاداً أن يمر عليه احياناً بعد الظهر فى وزارة المالية ليأخذه معه فى عربته الى شبرا أو الى قصر من قصوره . فمر عليه ولم يكن الوزير يرتاب فى شيء فركب معه العربة الى قصر الجزيرة ونزلا هناك ودخلا . ثم انتحل اسماعيل بعض الاعذار وتركه وحده فى احدى القاعات وأرسل اليه ابنيه الاصغرين حسيناً وحسناً وياوره مصطفى بك فهمى واذا بالاميرين يضربان الوزير الاعزل ويدفعان به الى احدى البواخر الخديوية الراسية بجانب الرصيف . وهناك قتل هذا الرجل الهرم بعد ان قاوم مقاومة عنيفة »

ومن رأي ولسن أن الفاعل المباشر لهذه الجريمة هو مصطفى بك مؤتمراً بامر الخديو وقد أخبرنى بان الحقيقة بانت حينما مرض الياور الشاب بالحمى عقب تلك الفعلة واعترف بها في هذيانه . ولكن عندي ما يدعونى الى الاعتقاد بان روايته فيما يتعلق باشتراك مصطفى بك غير صحيحة وان كانت بقية الوقائع قد ثبتت لى . والذي عرفته هو ان مصطفى بك سلم اسماعيل صديق الى اسحاق بك فمات في يده . ولست متأكداً من انه مات فى الحال أو بعد حين . ويقول بعضهم ان اسماعيل صديق رمي مثل كثيرين غيره في النيل بعد ان ربط حجر في قدمه . ويقول آخرون انه نقل حياً الى ما بين وادي حلفا ودنقله وخنق هناك . ولكن الذي لا شك فيه هو انه لم ير حياً بعد أن رمي به الى ظهر الباخرة . وبعد أسابيع من سير الباخرة فى النيل وأعلن رسمياً ان المفتش ذهب الى الصعيد لتغيير الهواء وانه اعتاد الخمر هناك فمات .

ومن المؤكد أيضا ان مصطفى بك — وهو شاب معتدل لم يعتد مناظر العنف ومن أصل جزائري كالمفتش — أخافه الدور الذى أمر بلعبه فمرض على أثره مرضا خطيراً طال به . وهذه التجربة هى التي دعته الى أن يكون ضد سيده بعد سنة من ذلك ، ثم الى أن ينضم لعرابي فى باكورة ثورة سنة ١٨٨١ — ١٨٨٢ . وهو مصطفى فهمي الذي شغل منصب رئيس نظار مصر سنين عديدة .

فهرس الكتاب

تنويه - وجدنا في الطبعة الأصلية للكتاب (طبعة مطبعة البلاغ) خطأ في ترقيم الصفحات التالية لصفحة ٢٧٢ حيث بدأ الترقيم ب٢٦٥ وتتالى الترقيم صحيحا إلى أخر الكتاب؛ فآثرنا تركه كما كان في الأصل وذلك تسهيلا على الباحثين الذين يعتمدون على الطبعة الأولى للكتاب.